الكاهن القدّيس
جان ماري ڤــيانّي

«خوري أرس»

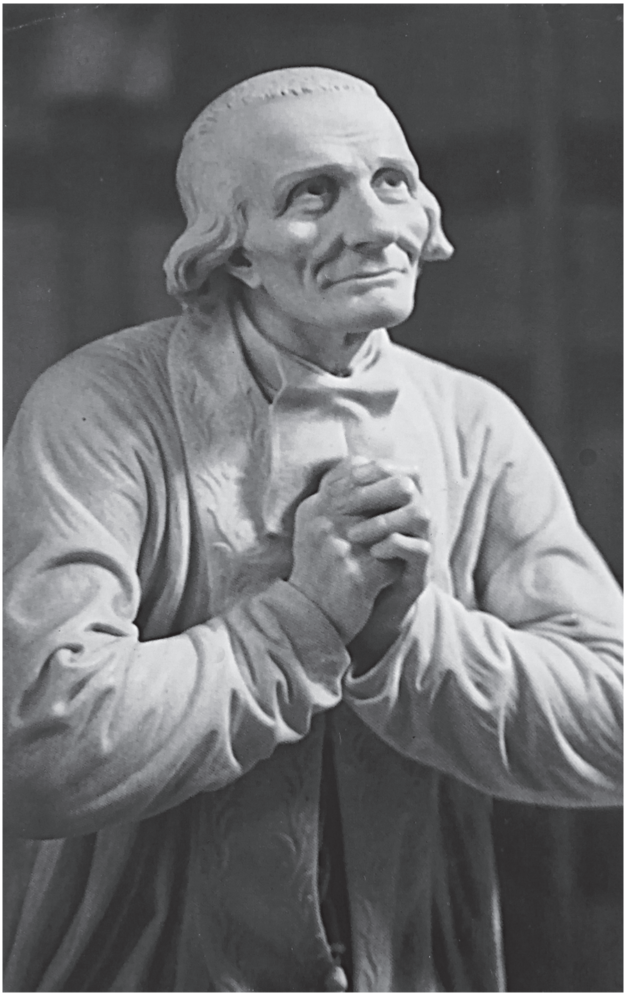

سلسلة النوابغ
١٠

الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي

«خوري أرس»

أديب مصلح

٢٠١٩

طبعة أولى

٢٠١٩

*

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

منشورات المكتبة البولسيّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – ٠٣/٣٥٧ ٣٥٣ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

إلى كهنة بلادي... !

تقديم

دفقٌ من نورٍ وحضورٍ

الأب الياس زحلاوي

لحظةَ سألني صديقي أديب مصلح، تقديم كتابه هذا، تزاحَمَتْ في ذهني ذكرياتٌ وخواطر.

بعض هذه الذكريات يعود إلى سبعين سنةً خلَتْ، يوم كنت طالبًا يافعًا في إكليريكيّة القدّيسة حنّة، في بلدة رياق، بلبنان.

يومها كان نظام الدير يقضي بالتزام الصمت، خلال تناولنا الطعام، ظهرًا ومساءً، في قاعة المائدة، التي كانت تتّسع لما يقارب سبعين طالبًا من الصفوف الإعداديّة والثانويّة. وكان الصمت المطبق يترافق بقراءةٍ باللغة الفرنسيّة ظهرًا، وباللغة العربيّة مساءً.

وما كان لكتابٍ أن يُرضي أذواقنا وتطلّعاتِنا المختلفة والمتباينة، على ما كان يوحّدنا من حياةٍ تهدف إلى تنشئتنا، تنشئةً روحيّةً وإنسانيّةً، ترسم أمامنا وفينا، ملامح من شأنها أن تؤهّلنا للكهنوت المُرتجى.

كان ثمّة استثناءٌ واحدٌ، قد استحوذ على رضا الجميع، بل على تشوّقهم إلى الإصغاء إليه، ومتابعته بشغفٍ عظيمٍ.

كان ذاك الكتاب، كتابًا ضخمًا باللغة الفرنسيّة، يروي سيرة "خوري أرس"، بقلم مؤلّفٍ يُدعى "الأب تروشو" (l'Abbé TROCHU)...

وبعض هذه الذكريات يعود إلى الفترة التي قمتُ فيها، بُعَيد ذلك بسنواتٍ

قليلةٍ، خلال دراستي الفلسفيّة واللاهوتيّة في القدس، باختبارٍ كنسيٍّ وروحيٍّ، في إحدى ضواحي مدينة "ليون" بفرنسا، طوال تسعة أشهرٍ. يومها شئتُ أن أبدأ هذا الاختبار مع مرشدي الروحي، الأب "بول ترنان"، وهو من سكان مدينة "ليون"، ومن المتأثّرين عميقًا بشخصيّة "خوري آرس"، بزيارةٍ لبلدة هذا القدّيس الاستثنائيّ، للصلاة أمام جثمانه، في كنيسته المتواضعة، وقد تحوّلت منذ عشرات السنين مزارًا عالميًّا يقصده الملايين كلَّ عامٍ...

كما حَضَرتني على الفور، صورة كاهنٍ آخر، عاش في بلدةٍ متواضعةٍ جدًّا من الساحل السوريّ، تُدعى "الخراب"، وقد اتّخذ "خوري آرس"، قدوةً وشفيعًا له. فكان، هو أيضًا، في مكانه وزمانه، وبطريقته، تجسيدًا مدهشًا لهذا النموذج الكهنويّ العظيم. إنه الأب الياس يعقوب.

وأمّا الخواطر التي تبادرت إلى ذهني، فقد كانت أُولاها وأخطرها، سؤالاً يقضّ مضجعي منذ سنواتٍ، ولا بدّ لي من طرحه الآن، بكلّ ما ينطوي عليه من فجاجةٍ!

ما هو هذا السرّ السحيق، في إنسانٍ حُرِم الكهنوتَ تعسّفًا، منذ سبعين عامًا، فعاش في الحياة المدنيّة، وكان موظّفًا ثم تاجرًا، فزوجًا، فأبًا، فجَدًّا لأحفادٍ كثيرين، في وفاءٍ نادرٍ، ومسؤوليّةٍ مدهشةٍ، وحبٍّ وديعٍ وقويٍّ. كما أنّه عاش مؤمنًا مغمورًا، وعظيم السخاء في آنٍ واحدٍ، فيما هو يدأب، منذ عشرات السنين، على مفاجأة الناس، بكتبٍ موسوعيّةٍ، يرصدُ فيها أبهى الشخصيّات المسيحيّة والإنسانيّة، في لغةٍ عربيّةٍ لا تُضاهى، وفي مجّانيّةٍ مطلقةٍ، وفي امّحاءٍ قلّ مثيله، في حين أنّ القلّة القليلة فقط، من مئات الكهنة والرهبان والأساقفة والبطاركة، في فلسطين، ولبنان، وسورية، والأردن، والعراق، ومصر والسودان، تجود أقلامهم ببعض ما يؤمنون به، أو ببعض ما قد يعيشونه؟

حسبي هذا من الخواطر بشأن الكنيسة الشرقيّة.

أمّا الكنيسة في الغرب، فليس مَن يجهل اليوم مدى ما تعاني، من فراغٍ هائلٍ ومتمادٍ، يضرب الفكر فيها، وبالتالي مواقفها من القضايا الإنسانيّة الكبرى، ويقلّص عدد كهنتها، إلى حدودٍ باتت تثير قلقًا مضنيًا بشأن مستقبل المسيحيّة فيه!

وهنا، هنا بالذات، تبرز سيرة هذا القدّيس العظيم، "خوري آرس"، منارةً تذكّر القاصي والداني، بأنّ قدرة الله وحدها تستطيع أن تغلّب الروح في أكثف المجتمعات ماديّةً، كما كان المجتمع الفرنسيّ، يوم ظهر فيه هذا الإنسان، الهشّ بشريًّا، والعظيم إلهيًّا، الذي بات يُعرف باسم "خوري آرس"، والذي جعلت منه الكنيسة الأمّ في روما، قدوةً وشفيعًا لجميع الكهنة.

هذا بعض ما تبادر إلى ذهني، لحظة طلب منّي تقديم هذا الكتاب.

وأمّا عندما طالعت المخطوط، فقد غمرني الشكر لله أوّلاً، لأنّه وهب كنيسته في الشرق العربيّ، إنسانًا مؤمنًا، شجاعًا وصادقًا، بحجم مؤلّفه...

وغمرني الشعور بالشكر لك، أخي أديب، لأنّك اليوم أيضًا، كما كنتَ في كتبك السابقة، "مريم يسوع المصلوب"، و"غاندي، السياسيّ القدّيس"، و"فرنسيس، أصلح كنيستي"، و"الأمّ تيريزا"، و"الأب بيير"، و"الأخت عمانوئيل"، و"جان ڤـــانييه"، و"البابا يوحنّا بولس الثاني"، وقبل الجميع، وفوق الجميع، كتبك عن "المعلّم الإلهيّ"، وعن "أمّه الفائقة القداسة"، قلت، كنت تعيدنا بإصرار المؤمن الصادق، إلى بداية البدايات، أي إلى الله وإلى الربّ يسوع، في عالمٍ يصرّ في غباءٍ، على استبدال الله، بجميع مغريات الأرض...

تُرى، ماذا تخبّئ لنا في مستقبلٍ، أرجوه لك طويلاً وسخيًّا؟

الأب الياس زحلاوي

• "الكاهن هو بمثابة أُمٍّ،

وبمثابة مرضعة طفلٍ وليدٍ،

تزوّدُه بالطعام، وما عليه إلاّ أن يفتَحَ فاه.

الأُمّ تقول لصغيرها:

"خذْ، كُلْ، يا صغيري".

والكاهن يقول لكم:

"خذُوا، فكُلُوا، هذا هو جسدُ المسيح،

فليَحمِكمْ، ويقْتَدكم إلى الحياة الأبديّة!"...

ما أروعَه قولاً!"

خوري أرس

الفَصْلُ الأَوَّل

نشأةٌ طافحةٌ بالتقوى

في أَحضَـانِ أُمٍّ تَقيّةٍ

"درديّي" (Dardilly) قريةٌ تقع على مسافة نحو عشرة كيلومتراتٍ من مدينة ليون الفرنسيّة، يقطنها فلاّحون، أحدهم "ماتيو ڤـيانّي" (Mathieu Vianney)، الذي يملك فيها أرضًا زراعيّةً ممتدّةً على نحو اثني عشر هكتارًا.

كان "ماتيو" مسيحيًّا بسيطًا، اشتُهر بإشراع بيته لكلّ محتاجٍ وعابر سبيلٍ. وكان بين مَن استضافهم، ليلةً، القدّيس، "بينوا لابر" (Benoît Labre). وكانت تساعده زوجته "ماري بيلوز" (Marie Beluse)، التي تميّزت بإيمانٍ مستنيرٍ وفاعلٍ. وقد رُزِق الزوجان سبعة أبناء، كان رابعَهم صبيٌّ، رأى النور يوم ١٧٨٦/٥/٨، وعُمِّد في ذلك اليوم عينه، وأُطلق عليه اسم عمِّه الذي كان عرّاب عماده، أي "جان ماري" (Jean Marie).

وحرصت والدته على إرضاعه مع حليبها، التقوى وحبّ الله، والحياة في حضور اللامرئيّ، ونمّت في نفسه التطلّع الدائم إلى الربّ، محبّ البشر. فمذ شرع يحدّق إلى الأشياء كانت، عند استيقاظه، تحوِّل أنظاره إلى الصليب وصور القدّيسين التي كانت تزيّن جدران البيت. وحالما استطاع إخراج يديه الصغيرتين من أقماطه، شرعت تنتقل بيده من جبينه إلى صدره، فإلى كتفيه، وحرصت على رسم هذه الإشارة بيده قبل كلّ وجبة طعامٍ. وسرعان ما ترسّخت لديه هذه العادة حتّى غدا يأبى تناول أيّ طعامٍ، قبل أن تمسكَ أُمُّه بيده، وتطوفَ بها، راسمةً إشارة صليبٍ على ذاته. واتّفق أنّه، إذ كان في شهره الخامس عشر، حاولت أُمُّه تلقيمه شيئًا من الحساء، وذهلت عن مساعدته على رسم إشارة الصليب، فأطبق فمه، وأبى الاطّعام، حتّى أمسكت أُمُّه يده ورسمت بها إشارة الصليب. وفي سنّ السنة والنصف، كان كلّما التأمت الأسرة للصلاة، يركع تلقائيًّا، ويضمّ يديه.

واعتادت تلك الأُمّ الورعة، قبل تسليمه للنوم، أن تنحني عليه، وتحدّثه عن يسوع، والسيّدة العذراء، وعن ملاكه الحارس، فيغفو على تلك الرؤى العذبة الساحرة. وفيما تكون، نهارًا، منصرفةً إلى الأعمال المنــزليّة، كانت تلقّنه أدعية "أبانا" و"السلام"، وحقائق الله والنفس. وسرعان ما غدا، هو، ينــزع إلى طرح أسئلةٍ عن يسوع، وعن مغارة الميلاد. وهكذا، بفضل أُمّه، درجت طفولته، في جوٍّ من الأُلفة مع الله، حيث الحبّ يسبق المعرفة.

وإلى ذلك، رسّخت والدته في نفسه روح التجرّد. فقد كان، في نحو السنة الثالثة والنصف من عمره، قد أُهدي مسبحةً جميلةً، كَلِف بها أشدّ الكَلَف. ولكنّها راقت، أيضًا، لشقيقته التي تصغره بنحو سنةٍ، وجهدت في انتزاعها منه، عنوةً، فنشب شجارٌ صاخبٌ بينهما استدعى الوالدة التي خشيت أن يؤدّي الشجار إلى تقطيع المسبحة، وإتلافها. ودعت ابنها إلى التنازل عن المسبحة لشقيقته الصغرى. ولكنّ كرامته، بصفته الابن الأكبر، منعته من الامتثال، في الحال، لرغبة أُمّه. وحينئذٍ لجأت الوالدة إلى وسيلة إقناعٍ، فرجته، برقّةٍ، أن يتنازل لأخته عن المسبحة، حبًّا بالله، فاستسلم، ولكن، في فيضٍ من الدموع والشعور بأسى الخذلان والحرمان.

وسارعت والدته إلى لأم الجرح الذي أحدثته هذه التضحية الموجعة، ولم تجد مرهمًا لهذا الجرح، وعزاءً لقلبه، خيرًا من إهدائه تمثالاً خشبيًّا صغيرًا للسيّدة العذراء، كان يزيّن أحد رفوف الموقد، ولطالما رأته يتوقّف أمامه، خاشعًا، عاشقًا، ذائبًا إجلالاً. ومنذئذٍ غدا له ذلك التمثال الرفيق الحميم، الذي لا يطيق الانفصال عنه لحظةً واحدةً. وقد أقرّ الأب "ڤــيانّي"، وهو في الستّين من عمره: "كان يتعذّر عليّ النوم ما لم يكن ذلك التمثال إلى جانبي، في سريري الصغير... لقد كانت العذراء القدّيسة هَوايَ الأوّل. أحببتها قبل أن أعرفها".

وذات مساءٍ، فيما كانت تلك الوالدة الفاضلة، تُعدّ حساءً لإطعام ثلّةٍ من المشرّدين الذين لجأوا إلى ضيافة بيت "ڤــيانّي"، بدرت منها لفتةٌ إلى العشّ

المنـــزليّ. وأجالت نظرها في كلّ زاويةٍ، ولم تقع على أثرٍ لجان ماري الصغير. فالتهب قلبها قلقًا، وكلّفت ابنتها الكبرى بالسهر على قدر الحساء، وهبطت الدرج باحثةً عن صغيرها في كلّ مكانٍ، بدءًا ببركة ماء محفورةٍ إلى جوار جدارٍ، ومُعدَّةٍ لسقاية البهائم، خشية أن يكون انزلق إليها، وتنفّست الصعداء، عندما لم تلحظ فيها أثرًا له، فتابعت بحثها في المخبز، ثمّ في مستودع الأدوات الزراعيّة، والخوف يمزّقها من أن يكون قد آذى نفسه بإحداها. ولّما دنت من الزريبة، سمعت تمتمة صوتٍ طفوليٍّ، فدنت من مصدره، ووقع بصرها على منظرٍ بدّد هواجسها، وملأها دهشةً وعزاءً. فقد كان صغيرها الحبيب راكعًا فوق طبقةٍ خفيفةٍ من القشّ، على مقربةٍ من النعاج، والحمار الرماديّ، بين بقرتين تجترّان بهدوءٍ العشب الذي كانتا قد رعيتاه في الحقل، مردّدًا صلواتٍ، وعيناه شاخصتان إلى تمثال العذراء الخشبيّ الذي كان يحضنه بشغفٍ. فاستطارها فرح العثور على حبيبها الصغير سالًما، وانقضّت عليه، وأخذته بين ذراعيها، وضمّته إلى صدرها، وغمرته بدموعها، معبّرةً عن القلق الذي أخذ بها بسبب غيابه، قائلةً بلهجةٍ مزجت العَتَب بالعطف: "علامَ تتوارى كي تصلّي؟ ألا تعلم أنّنا نصلّي معًا". وأحزن الصبيّ بكاءُ أُمّه، فطوّق عنقها بيديْه الصغيرتين، آسفًا، هاتفًا: "اعذريني، يا أُمّاه، فأنا لم أقصد إقلاقك، ولن أُكرّر فعلتي هذه".

والده كان يقضي معظم وقته في الحقول، أو في العناية بالبهائم، وكانت تقواه فعليّةً، إنجيليّةً، يعبّر عنها بإطعام الجياع، وإيواء المشرّدين، وتزويد المهمّشين بما يفتقرون إليه من عنايةٍ وغوثٍ، ولا سيّما بعد أن أغلقت الثورة الجمعيّات الخيريّة، وصادرت أملاكها وأموالها، وأشاعت العوَز في كلّ مكانٍ. وكانت الزوجة التي تولّت رعاية الأبناء الروحيّة، قد اكتشفت في صغيرها، "جان ماري"، نفسًا مصطفاةً، ساميةً، طاهرةً، وجوعًا مبكّرًا إلى الله، متميّزًا بذلك عن إخوته، فحرصت على أن ترسّخ فيه حبّ الله، ومقت الخطيئة، وكانت تردّد على مسامعه

قولها: "سأتألّم إن بدَرت إهانة الله من أحد إخوتك أو أخواتك. ولكن سيكون ألمي مضاعفًا إن صدرت إهانة الله عنك!".

وأمست تلك الأُمّ البارّة، تستصحبه، كلّ صباحٍ، إلى كنيسة القرية، فيحضران القدّاس، وتوضح له، بصوتٍ خافتٍ، رموز حركات الكاهن، ومعاني الصلوات التي تُتلى باللغة اللاتينيّة. وسرعان ما كَلِف الصبيّ بتلك الاحتفالات الكنسيّة، وبأزياء الكاهن والخادم، والتهبت فيه الرغبة في خدمة القدّاس. وريثما يتسنّى له تحقيق هذه الرغبة، كان يتملّى من تأمّل وجه أُمّه، الذي كان يشعّ منه لهيبٌ داخليٌّ أخّاذٌ. وقد اعترف، لاحقًا، أنّه مدينٌ بتقواه لأُمّه، مصرّحًا: "لا يسوغ لولدٍ ينعم بأُمٍّ ورعةٍ أن ينظر إليها، أو يذكرها، ولا تفيض دموعه".

وحتّى في تلك السنّ الطريّة، كان، حالما يسمع جرس التبشير، ينتحي جانبًا، ويرسم على ذاته إشارة الصليب، ويتلو السلام الملائكيّ، ثمّ يرسم، ثانيةً، إشارة الصليب. واتّفق، ذات يومٍ، أن لحظه جارٌ كان يعمل في حديقته، فظنّ أنّه يستعيذ بالله منه، وشكاه إلى أبيه.

ومع انصرافه إلى الحياة العمليّة، لم يفتُرْ ورَعه وانغماسه في الله. ففي السابعة من عمره، كُلِّف برعاية ماشية العيلة، بصفته متدرّبًا، تحت رعاية أخيه الأكبر "فرانسوا"، فاسحًا لهذا الأخير سانحة الشروع بمساعدة والدهما في أعمال الزراعة. وكانت تغمره مشاعر الفخر والبهجة، كلّما تولّى، صباحًا وعصرًا، مسؤوليّة ماشية الأُسرة. فكان يمضي بصحبة كلبه، متقلّدًا مزودَه، ماسكًا في يدٍ خيزرانةً، وفي الأُخرى عصًا رفيعةً تخصّ شقيقته الصغرى "غوتون" (Gothon) (تصغير "مارغريت").

وعملاً بإرشاد والدهما، كان الصغيران حالما ينتهيان إلى المرعى، يركعان، ويوكلان إلى الله رعاية مهمّتهما، بصفتهما راعيَيْن صغيرَيْن، ويسهران على ألاّ تُحدث أبقارهما أيّ إضرارٍ بأرزاق الجيران. ثمّ يدأبان على حياكة جوارب صوفيّةٍ؛ ويسرح فكر الصبيّ طويلاً في أسرار الله التي زرعت أُمُّه بذورَها في تربة نفسه

البِكر. ولا تحتمل شقيقته الصمت طويلاً، فتلتمس منه أن يروي لها ما يعرفه عن حكايا العهدين القديم والجديد، وأن يلقّنها الصلوات، ويزوّدها بالإرشادات الكفيلة بحضور القدّاس حضورًا لائقًا.

منذ تلك الفترة، كان الفتى "جان ماري" يتضوّر جوعًا إلى الله، ويشدّه إليه انجذابٌ تتعذّر مقاومته. فكان، منذ وصوله إلى موقع الرعاية، يصمد تمثال العذراء الخشبيّ، المرافق لكلّ تحرّكاته، في جذع شجرةٍ، ويحيطه بأعشابٍ وأزاهير، ويركع هو وشقيقته أمامه ويتلوان المسبحة. وكانا يقيمان هيكلاً من أغصانٍ وأعشابٍ، بمثابة مصلّى. فكانا، بذلك يلفتان أنظار الرعاة الصغار الآخرين، المارّين بهما، الذين كانوا يستوضحون عن معنى ما يشاهدونه، وينتهز "جان ماري" تلك السانحة كي يذكّرهم بمبادئ التعليم المسيحيّ، ويحرّضهم على محبّة الله، وإطاعة وصاياه. وسرعان ما أضحى أولئك الرعاة الصغار يتحلّقون من حوله، ويسألونه أن يروي لهم نتفًا من حياة يسوع، وطرائف من سيَر القدّيسين، كان قد تلقّنها من والدته. ولكأنّ دعوته الكهنوتيّة كانت تتفتّق مذّاك. فكان غالبًا ما يرتقي مرتفَعًا، ويردّد مقاطع من عظات كاهن الرعيّة. ومع أنّ إلقاءه لم يكن دائمًا ممتعًا، وكان يفتقر إلى الجاذب، كانت محبّة أترابه له، وتقديرهم لورعه يفرضان عليهم المواظبة على الاستماع إليه.

وكثيرًا ما كان يفلت من رفاقه، وينتحي في ظلّ أشجار الصفصاف، وينقطع للصلاة، وحيدًا. وغالبًا ما كان يستصحب إلى الحقول خبزًا يجود به على أولادٍ فقراء. وكان هذا السخاء يخوّله حقّ تأنيبهم على كلّ عملٍ سيّئٍ يصدر عنهم. وكان جلُّ المذنبين يرضخون لتأنيبه صامتين. ولكنّ فتيانًا معتزّين بقواهم البدنيّة كانوا يثورون لما يعدّونه كرامتهم المهدورة، فينقضّون عليه ويوسعونه ضربًا، وهم واثقون من إحجامه عن مقاومتهم، وعن الردّ عليهم بالمثل.

غير أنّ معظم فتيان القرية كانوا يستعذبون دماثة معشره الزاخر بالودّ، وأحاديثه الشيّقة، ومزاجه المرح، وكانوا يستطيبون مشاركته ألعابهم مساءً، عقب عودته من المراعي. وكان أحد ملاهيهم يقوم على رهانٍ، وكان، هو، في هذا المضمار أبرعهم، وبفضل مهارته وحيويّته، كان، في معظم الحالات، هو الرابح، والظافر بالرهانات. ولا ريب أنّ الربح كان يسعده، ولكن، إزاء خيبة رفاقه، وحزن بعضهم، كان يبادر فيعيد لكلٍّ منهم رهانه، ويضيف إليه فلسًا من جيبه، وتكبر سعادته عندما يشهد البسمة مشرقةً من جديدٍ على شفاههم، وكانوا، هم، يزدادون رغبةً في مشاركته اللعب، كلّ يومٍ.

تلك الأيّام البريئة الهانئة، وتلك المسارح الخضراء حفرت في نفسه، ذكرياتٍ غاليةً. فلم تمّحِ، قطّ، من ذاكرته، تلك المرابع الفتّانة، التي تغلّفها الأشجار العتيقة بفيئها، وتنتشر في زواياها الأزاهير، ونباتاتٌ بريّةٌ، تقدّم، مجّانًا، ثمارًا يستلذّها الصغار، وتتّخذ العصافير من أفنانها الوارفة مجاثم آمنةً ومخابئ لأعشاشها، ومنها تملأ الأجواء زقزقاتٍ جذلى؛ وفي جنباتها توسوس السواقي المنسابة بانتظامٍ. ولمّا أصبح كاهنًا شيخًا، كان يطيب له استذكار تلك الطفولة الهنيّة الحافلة بالله، والتي عبّر عنها بقوله: "كنت سعيدًا في بيت أبي، لمّا كنت أرعى نعاجي وحماري. فقد كان يتّسع لي وقتٌ للصلاة والتأمّل، والاهتمام بنفسي. وفي أثناء الاستراحات بين أعمال الحقل، كنت أتظاهر بالراحة والنوم، أُسوةً بالآخرين، في حين كنت أدعو الله بكلّ قلبي. كم كان ذلك الزمن جميلاً وسعيدًا!".

ومنذئذٍ أخذت تتجلّى عليه أمارات الخفَر، والحرص على الطهر، وتدفعه إلى رفض أكثر مبادرات المودّة براءةً، وتجعله يتردّد حتّى في تقبيل أُمِّه.

مقـاومةٌ دينيّةٌ

تفجّرت الثورة الفرنسيّة عام ١٧٨٩، وكان القضاء على الكنيسة أحد أهدافها. وظلّت منطقة "ليون" بعيدةً، مؤقّتًا، عن مرمى نيرانها. غير أنّ إرهاب الثورة شمل، عام ١٧٩٣ كلّ المناطق الفرنسيّة. وقاوم مسيحيّو ليون وأريافها، شهورًا، مقاومةً بطوليّةً. ولكنّهم لم يصمدوا طويلاً، في وجه الحصار. وساد البطش والقمع والعنف. ونشطت المقاصل؛ وسُلِبت الكنائس، وأُغلقت، وسرعان ما امتدّ الاضطهاد إلى كنائس الأرياف التي سُلِبت محتوياتها. وحُطِّمت صلبانها وإيقوناتها، وأُنزِلت أجراسُها، وأُلقيت أرضًا، صامتةً عن دعوة القوم إلى بيت الله. وطالت همجيّة الاضطهاد حتّى العلامات الدينيّة المنتشرة في الطرقات.

وأُكرِه الكهنة على إقسام يمين الولاء للثورة، تحت طائلة السجن، والنفي، والإعدام. فاستسلم كهنةٌ كثُرٌ لهذه الضغوط. أمّا الذين رفضوا الخضوع، مُؤثرين الوفاء لرسالتهم، ومتابعتها في الخفاء، فكانوا يقيمون الطقوس سرًّا، وغالبًا تحت جنح الليل، في بيوت مؤمنين ملتزمين. وكان المؤمنون الصامدون يُبلَّغون بمواعيد تلك الصلوات المقامة خلسةً، وبمواعيدها، في حينها. وواظب الكهنة الأبطال المعارضون على تلبية الواجبات الدينيّة الطارئة من عمادٍ، ومواكبة محتضرين، وجنازاتٍ، مخاطرين بذواتهم.

الكاهن الذي كان يخدم قرية "درديّي" منذ أربعين سنةً، ضعف، وأقسم الولاء للثورة. واستمرّ أبناء الرعيّة الذي جهلوا استسلامه يختلفون إلى كنيسة الرعيّة؛ ولكن شيئًا فشيئًا اتّضح لهم أنّ لهجة راعيهم قد تبدّلت، فبات يستخدم مفرداتٍ وعباراتٍ غير معهودةٍ، وأنّ أتقياء الرعيّة شرعوا يقاطعون كنيستهم، ويحلّ محلّهم أفرادٌ لم يطأوا، قطّ، من قبلُ، عتبة بيت الله، ولا دار عبادةٍ. إلى أن حذّر آلَ

"ڤـــيانّي" أقارب لهم، قاطنون في قريةٍ مجاورةٍ، ممّا كان يحدث، ومن أمر تخاذل خادم رعيّتهم. فلم يكن لهم بدٌّ من مقاطعة كنيستهم، بقلوبٍ نازفةٍ. فذلك البيت المقدّس كان مستودع أغلى ذكرياتهم. ففيه تزوّج الوالدان، وفيه عُمِّد الأبناء، وفيه كانوا يلتئمون كلّ يوم أحدٍ، مع سائر أبناء القرية، للصلاة وتناول الأسرار.

ولئن أفلح قمع الثورة في إغلاق الكنائس، وسلب محتوياتها، وتحطيم رموزها، إلاّ أنّه فشل في إطفاء جذوة الإيمان المتّقدة في القلوب النقيّة الملتزمة، كما فشل في سدّ منابع المحبّة، التي كانت أُسرة "ڤـــيانّي" تتوارث تقاليدها، جيلاً عن جيلٍ، والتي أخذ الفتى "جان ماري" على عاتقه صونها وتنميتها. فقد دأب على تحميل حماره حطبًا، والتنقّل به بين منازل الفقراء، مودعًا في كلٍّ منها جزءًا من حمله، متيحًا لأصحابه التدفئة والطهو. ولا غرابة إن غدا الفقراء، يطرقون باب آل "ڤـــيانّي"، كي ينعموا بالجوّ الدافئ الزاخر مودّةً، وبالطعام المجّانيّ، ويحصل أطفالهم على أحذيةٍ خشبيّةٍ، وألبسةٍ صوفيّةٍ. وكان "جان ماري" يدلّ كلّ محتاجٍ يلتقيه إلى منــــزل ذويه، ويوصي أُمّه به. وإذا فاض عدد الضيوف، ولم يعد الحساء المُعَدّ يكفي الجميع، كان أصحاب البيت يستغنون عن العشاء، وينامون على الطوى، سعداء بإشباعهم الآخرين. وبعد العشاء يغلق باب البيت تحسُّبًا من عيون الثوّار، ويركع الضيوف ومضيفوهم معًا، ويتلو "جان ماري" بصوته الرقيق الصافي صلوات الشكر بلسان الجميع. وقد أَلِف أصحاب البيت، قبل الاستسلام للكرى، الصلاة من أجل راحة نفوس أقربائهم المتوفّين حديثًا، مضيفين دعاءَ "أبانا" ودعاء "السلام" على صلواتهم المعتادة، كلّما توفّي أحد أقربائهم أو معارفهم.

ولم تتوانَ أُسرة "ڤـــيانّي" عن المخاطرة بإيواء كهنةٍ معارضين للثورة، وإخفائهم، وعن تحويل بيتها إلى بيتٍ لله تُقام فيه القداديس السرّيّة، التي يحضرها جيرانٌ وأصدقاء، وكان أفراد الأُسرة، غالبًا، يقطعون مسافاتٍ بعيدةً، تحت جنح

الظلام، من أجل حضور قدّاسٍ، في قريةٍ مجاورةٍ، يحتفل به كهنةٌ مقاومون، في بيوت مؤمنين شجعانٍ. وكان الفتى "جان ماري" الأشدّ اندفاعًا إلى تلك المخاطرات، والأكثر كَلَفًا بتلك الدياميس الخاشعة.

في التاسعة من عمره، كان قد اجتاز شوطًا في علوم السماء، ولكنّه كان مازال أُمّيًّا في علوم الدنيا. ومع أنّ الثورة كانت قد فرضت التعليم الإلزاميّ منذ سنّ الثامنة، كحدٍّ أقصى، إلاّ أنّها كانت قد أغلقت كلّ المدارس الكاثوليكيّة، ولم تسمح بممارسة التعليم إلاّ لمن أقسموا الولاء للثورة. فأدّت هذه التدابير، واقعيًّا، إلى تعميم الأُمّيّة في الأرياف. غير أنّ رجلاً كريمًا استطاع افتتاح مدرسةٍ في قرية "درديّي" فانتسب إليها "جان ماري"، واستحقّ، باجتهاده، إعجاب المعلّم.

بذورُ كَهَنوتٍ

مضى قمع الثوّار تصاعدًا في العنف. ومُنع جميع الكهنة، حتّى الذين كانوا قد أقسموا الولاء للثورة، من ممارسة الطقوس، وأُغلقت كنيسة "درديّي"، وحُوِّلت إلى كنيسة صمتٍ أُسوةً بكلّ كنائس فرنسا.

وآلم الفتى "جان ماري" هذا الصمت الجائر المفروض، عنوةً، على مؤمنين حُرموا فرصة التلاقي في بيوت الله، والمشاركة في إعلان إيمانهم، فضلاً عن منعهم من تكريم صليبٍ أو إيقونةٍ أو أيّ رمزٍ دينيٍّ داخل بيوتهم، إذ بات هذا التكريم عرضةً للعقاب.

وإزاء هذا الوضع اللاإنسانيّ، تطوّع "جان ماري" لمساعدة رفاقه على الصلاة، متحدّيًا الأخطار. فراح يحوّل وحل السواقي صلصالاً يصنع منه تماثيل للعذراء والقدّيسين، ويقيم هياكل عند أقدام أشجار صفصافٍ عتيقةٍ، ويحيطها بالأعشاب، ويزيّنها بالأزاهير. وحول تلك الهياكل المرتجلة كان يجتمع وأترابه، ويصلّون، ويرتّلون، ويقومون بتطوافاتٍ. وكان هو، دائمًا، ينتحل دور الكاهن، ويعظ، أحيانًا.

وعندما كان ينضمّ إليه، في المرعى، أخوه الأصغر، ورفاقٌ آخرون، كان يوكل إليهم السهر على القطيع، متذرّعًا بحجّة أداء مهمّةٍ عاجلةٍ، ويلوذ إلى ضفّة الساقية، كي ينصرف للصلاة، وحيدًا. وقد يدفع الفضول رفاقه، فلا يلبثون أن يمضوا في إثره، استكشافًا لسرّه، ويجدونه راكعًا يتلو المسبحة.

وسرعان ما لفت ورعُه أنظار صغار القرية وكهولها، واستشفّوا فيه كاهنًا مستقبليًّا، وهمسوا، في أذن أمّه: "يحسن أن تجعلي ابنك هذا كاهنًا، فهو مُعَدٌّ لهذه الدعوة".

وكان أحد رفاقه قد أُهدي أدوات قدّاسٍ مصغّرةً، تحتوي كأسًا، وصينيّةً، ومعرض قربان، ومبخرةً. فكانا يقيمان في بيت أحدهما محاكاةً للقدّاس، متناوبيْن على لعب دور الكاهن والخادم. وكان دور الكاهن يلقى من نفس "جان ماري" لهفةً، ويذكي فيها أُمنيّةً.

مُـنَـاولتُه الأُولى

عام ١٧٩٤ سُمِح للكنائس بفتح أبوابها، على أن يتولّى رعايتها كهنةٌ أقسموا الولاء للثورة. هذا الحلّ الجزئيّ أتاح لأبناء الرعيةّ العودة إلى الالتقاء، يوم الأحد، في المكان الذي كان يضمّهم، غير أنّهم ما برحوا متحفّظين حيال راعيهم المتخاذل. وفي الآن عينه، ماانفكّ كهنةٌ مقاومون للثورة، وأوفياء للكنيسة، ناشطين في تفقّد البيوت والمزارع، خلسةً، وتقديم الخدمات الدينيّة الأساسيّة، ملتزمين الحيطة، متخلّين عن أزيائهم الكهنوتيّة، ومتظاهرين بممارسة مهنٍ شتّى، من خلال حرصهم على استصحاب دائمٍ لأدوات حدادةٍ، أو نجارةٍ، أو بناءٍ، إذ مازال كلّ نشاطٍ دينيٍّ من قبلهم يُعاقَب بالسجن، أو بالنفي، أو حتّى بالإعدام.

وذات ليلةٍ خريفيّةٍ، زار أحد هؤلاء الكهنة، هو الأب "غروبوز" (Groboz) مزرعة آل "ڤـــيانّي"، حيث كان سبق له أن أقام قدّاسًا، خلسةً، فلفت انتباهه تميّز الفتى "جان ماري" بالخشوع، والاستغراق في الصلاة، واستوضحه عن عمره، وتاريخ آخر اعترافٍ له، ولم يكن "جان ماري" قد اعترف، قطّ، من قبل، فدعاه الكاهن إلى الاعتراف في الحال، ودهش لما اكتشف فيه من براءةٍ، ونصاعة نفسٍ، وارتأى ضرورة تزويده بالمبادئ المسيحيّة الأساسيّة، فنصحه بالإقامة، لهذه الغاية، في قرية "إيكويّي" (Ecully) المجاورة، حيث كانت تقطن خالة الفتى.

هذا الاعتراف الأوّل انحفرت ذكراه في أعماق نفس "جان ماري"، وكان يرويه، وهو كاهنٌ شيخٌ، دامعَ العينين، مذكّرًا كيف كان الكاهن جالسًا على كرسيٍّ من قشٍّ تحت ساعة الجدار الكبيرة، وكيف كانا يتكلّمان بصوتٍ خافتٍ، غير عابئين بالمحيطين بهما.

وبعد أن قضى الفتى سبعة أشهرٍ في مدرسة القرية الابتدائيّة، وساعد ذويه في أعمال الحقل الربيعيّة، حرصت والدته على تنفيذ نصيحة الكاهن، فاقتادته إلى بيت خالته في قرية "إيكويّي" وتعهّد ذووه بتوفير كلّ مستلزماته من طعامٍ ولباسٍ، كلّ أُسبوعٍ، على أن توفّر له خالته المأوى.

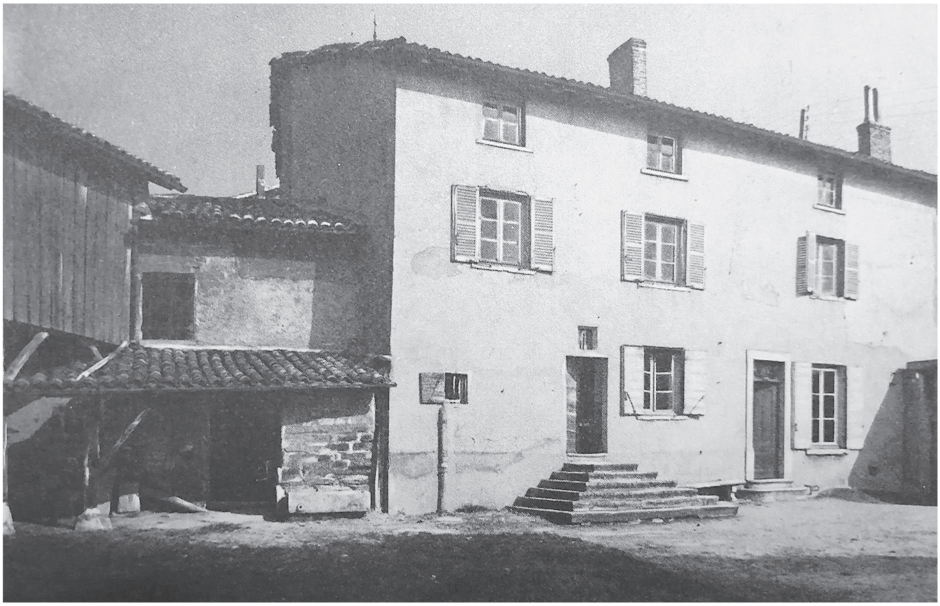

المنزل الذي ولد فيه

المزرعة التي نال فيها مناولته الأولى

في تلك القرية كانت راهبتان، بعد أن أُغلق ديرهما، وأُكرهتا على خلع ثوبهما الرهبانيّ، ظلّتا وفيّتين لرسالتهما، فدأبتا على تلقين أبناء القرية المبادئ المسيحيّة، إلى جانب مبادئ التعليم الأساسيّ من قراءةٍ، وكتابةٍ، وحسابٍ، إضافةً إلى اللغة الفرنسيّة، التي كان معظم أبناء الريف يجهلونها، مكتفين بلهجتهم المحلّيّة. وكانت الراهبتان تعدّان الأولاد للمناولة الأولى، فانتظم "جان ماري" في صفوف المستعدّين لهذا الحدث، الذي كان يلقى، من نفسه هوًى عارمًا، وتوقًا مضطرمًا، فتأهّب له بورعٍ أذهل المراقبين. فقد كان يقضي وقته في الصلاة، زاهدًا في لهو أترابه. وقد شهد، لاحقًا، أحد رفاقه آنذاك: "كنّا ننظر إليه، وهو في تلك السنّ، نظرتنا إلى قدّيسٍ".

وحان موعد المناولة الأولى التي احتفل بها، إلى جانب "جان ماري" نحو خمسة عشر ولدًا، وتمّ الاحتفال بكتمانٍ تامٍّ، وقد اختيرت لإقامته مزرعةٌ رحبةٌ، أوصدت جميع نوافذها بإحكامٍ، ووُضعت أمامها عرباتٌ مليئةٌ قشًّا، ودأب عمّالٌ على تفريغها تعميةً عمّا كان يجري في داخلها. واقتيد إليها الأولاد مع ذويهم، فُرادى، تفاديًا للفت الأنظار. وفي داخلها كان الأولاد يخلعون ثيابهم، وتُخرِج أمّهاتهم من ثنايا معاطفهنّ وأثوابهنّ الرحراحة أزياء المناولة الأولى، وتلبسنَهم إيّاها. وقد حضرت مناولة "جان ماري" الأولى والدتُه وشقيقتُه الكبرى.

كان الفتى حينذاك قد بلغ الثالثة عشرة. وكان جوعه إلى الله، الذي تلكّأ أوان إشباعه طويلاً، يجعله يقدّر أسمى تقديرٍ تلك الفرصة الفريدة. وفي غمرة فرحه، شقّت عليه مغادرة ذلك المكان المبارك، حيث تناول، للمرّة الأولى، جسد الربّ. ومنذئذٍ استحوذ عليه شعورٌ أخّاذٌ عبّر عنه، لاحقًا، بقوله: "بالمناولة ينتابنا شعورٌ مدهشٌ... بهجةٌ... فوح عطرٍ... راحةٌ تجتاح كلّ جسدنا، وتجعله يرتعش. يا للفرح الذي يغمر المسيحيّ، وهو ينهض عن المائدة المقدّسة، حاملاً السماء كلّها في قلبه!". وكان في شيخوخته يذرّف دموع التأثّر، كلّما تحدّث عن مناولته الأولى، ويُري الأطفالَ المسبحةَ التي أُهديها في تلك المناسبة، مردِّدًا: "إنّه أجمل يومٍ في حياتي، ولن أنساه أبدًا".

قَدَمان عَلى الأرض، وقلبٌ في السماء

عاد الفتى إلى المنـــزل الأبويّ حيث كان عليه استبدال عصا الراعي بأدوات الحراثة والزراعة، مساعدًا أباه، وشقيقه الأكبر فرنسوا. وكان، بفضائله التي تفتّحت ونمت عقب مناولته الأولى، يعطّر جوّ البيت كلّه، وبفضل ابتسامته المشرقة، ودماثته وأدبه، يكتسب قلوب الجميع.

في هذه الأثناء كانت أُسرته قد قاطعت كنيسة القرية، لأنّ راعيها آثر إنقاذ نفسه من تنكيل الثوّار، وأقسم يمين الوفاء للثورة. وكانت السيّدة "ڤـــيانّي" قد تجرّأت وعاتبته، قائلةً: "كلّ غصنٍ يُنتزع من الكرمة، لا يعود صالحًا إلاّ للنار...". وفي شبه تبريرٍ لفعلته ردّ: "صحيحٌ، يا سيّدتي، ولكنّ اقتطاع غصنٍ، خيرٌ من اقتلاع الكرمة". ولكم شقّ على "جان ماري" أن يُحرم حضور القدّاس الصباحيّ اليوميّ، قبل مباشرة العمل في الحقول! ولكم تمنّى أن تحظى كنيسة قريته بكاهنٍ وفيٍّ لعقيدته ودعوته، يوفّر له قدرة الشخوص إلى الكنيسة كلّما شدّه الشوق إلى تكريم الحضور الإلهيّ! بيد أنّه كان موقنًا أنّ الله يقيم، دائمًا، إلى جانب مَن يحسنون البقاء على اتّصالٍ به، بالقلب والروح، وبلا تحفّظٍ. ودأب على اقتناص كلّ سانحةٍ تيسّر له اتّصالاً حميمًا بالمخلّص. وسعد بأن يقدّم له الصباحات الضبابيّة الباردة التي كانت تواكب شخوصه إلى الحقول، وقيظ الظهيرة، والخدشات، وتورّم الأصابع، وكلّ ما يواكب عمل الحقول من مضايق وأتعابٍ.

كان حسبه التطلّع إلى كنيسة القرية المجاورة كي يتزوّد بالقوّة، ويقدّم لله أتعابه كلّها، فترتدّ عليه بركةً وغنًى نفسيًّا. وقد عبّر، لاحقًا، عن هذا التبادل بقوله: "ما أجمل أن تعمل كلّ شيءٍ مع الله! فيا نفسي، إذا عملتِ مع الله، فسيبارك الله عملك. وعندما تسيرين يبارك الله خطاك... لكلّ أمرٍ حسابه: حرمان الذات من نظرةٍ، أو من متعةٍ، سيدوَّن... وهناك مَن يغتنمون كلّ مناسبةٍ، حتّى قرس البرد،

والأوجاع الصغيرة، ويقدّمونها لله... وما أجمل أن يضحّي المرء بنفسه لله كلّ صباحٍ!". هكذا كان "جان ماري" يقدّم لله نفسَه وأتعابَ عملِه في الحقول، فيؤدّيها بفيضٍ من النشاط، ويتقدّس بها.

ولم يكن يروق له أن يُنجز أخوه الأكبر من العمل أكثر منه، فجهد في منافسته ومساواته. وكان في أوّل عهده بالعمل الزراعيّ قد رجا أُمَّه أن تطلب من أخيه الأكبر التخفيف من نشاطه ما استطاع لكي يحدّ من الفرق بين إنجازاته وإنجاز أخيه الأصغر. ولكنّ الأخ الأكبر بيّن أنّ لا أحد يطالب "جان ماري" بمجاراة أخيه الأكبر في حجم العمل، وأنّه لا يليق به، هو ألاّ يكون أكثر إنتاجًا من أخيه الأصغر، والأقلّ مراسًا.

وبحث "جان ماري" عن حافزٍ يدفعه إلى مجاراة أخيه، وعثر عليه، عندما زارت راهبةٌ منـــزل الأُسرة، وأهدت الجميع صورًا مقدّسةً، ولكنّها خصّت "جان ماري" بتمثالٍ للعذراء مودعٍ في غمدٍ معدنيٍّ، كان استصحابه إلى كلّ مكانٍ أيسر من استصحاب التمثال الخشبيّ. وبات يستصحبه إلى الحقل، كلّ صباحٍ، ويقدّر مساحة العمل التي يستطيع أخوه اجتيازها، ويضع التمثال في غايتها. ثمّ ينتقل به إلى مسافةٍ أبعد، ويعيد الكرّة. ويوم أحرز النتيجة المرجوّة، للمرّة الأولى، عاد إلى البيت يضجّ فرحًا. وزفّ لوالدته بشرى نجاحه، فاكتفت الأُمّ الحكيمة بابتسامةٍ، تفاديًا لدغدغة غرور ابنها الأصغر، وجرح كبرياء ابنها البكر، الذي ربّما كان قد قصد، عمدًا، الحدّ من نشاطه، كي ينقذ أخاه الأصغر من الخيبة، ولكي يبثّه قدرًا من الثقة بذاته.

وكانت تواكب عمله صلاةٌ صامتةٌ، تفاديًا لإزعاج أخيه. وكان موقنًا أنّ على مَن يُعمِل فأسه في التربة، أن يحرث، أيضًا، تربة نفسه، ويحرّرها من الأعشاب الضارّة، ويُعدّها لتلقّي البذار الجيّد. ولكن، عندما كانت تتسنّى له فترات وحدةٍ وخلوةٍ كان يطلق لصوته العنان، ويواكب زقزقات العصافير بصلواته وأناشيده، وتراتيله بصوتٍ جهورٍ. وكان العاملون في أراضي الجيران يسمعونه يتلو "أبانا"

و"السلام"، ويتبعهما بهذا التحريض: "تبارك الله! تشجّعي يا نفسي. الزمن يكرّ، والأبديّة تدنو. فلنحيَ كما علينا أن نموت!". وكلّما قرع ناقوس التبشير، كان يناشد جيرانه برقّةٍ: "هناك وقتٌ للعمل، ووقتٌ للصلاة".

وأثناء استراحات النهار، وبعد العشاء، كان يفترش العشب، مثل الآخرين، ويتظاهر مثلهم بالنوم، فيما ينصرف بكلّ نفسه للتأمّل والصلاة الصامتة.

لا غروَ أنّه لم يتسنّ لجان ماري إنفاق ساعاتٍ طويلةٍ على مقاعد الدراسة، ولكنّه صقل ذكاءه، وكوّن حكمه في سعة الحقول، وأشغالها الشاقّة، التي مرّسته في شظف العيش، وفسحت له أوقاتًا رحبةً للتأمّل وإعمال الفكر في شؤون نفسه، خازنًا ثروةً، على غرار المعلّم الإلهيّ، الذي استنبط من رحاب الطبيعة أمثلةً ودروسًا للحياة الروحيّة.

وبما أنّ الفلاّحين كانوا قد اعتادوا، آنَ عودتهم من الحقول، مساءً، تأليف جماعاتٍ صاخبةٍ، والتسرية عن عنائهم بأغانٍ شعبيّةٍ، وبتبادل نكاتٍ لا تخلو، أحيانًا، من تلميحاتٍ وعباراتٍ بذيئةٍ، كفيلةٍ بخدش صفاء نفس "جان ماري"، فقد عَمد هذا الأخير إلى التخلّف عن الجماعة، وتلاوة مسبحته وحيدًا، غير مبالٍ بنظرات الاستهزاء التي كان بعضهم يرشقونه بها، مغدقين عليه عبارات تهكّمهم. ومع أنّه كان يملك أكوامًا من المآخذ على كلٍّ منهم من شأنها إفحامهم وإخزاؤهم، إن هو قذفها في وجوههم، إلاّ أنّه، بدافع المحبّة، كان يؤثر الصمت، فيضيقون ذرعًا بصمته ولامبالاته، ويتبادلون أحاديث أُخرى.

وأحيانًا، كانوا يحاولون الانتقام لأنفسهم من لامبالاته، فيعمدون إلى إخفاء أدوات عمله. ولكنّهم فشلوا، دائمًا في تعكير هدوئه، وفي حمله على التخلّي عن دماثته، وبسمته... وفي غاية المطاف، انتصرت فضائله، واعترف الآخرون بها. وأقرّ رجلٌ مسنٌّ، منهم، أمام الأُسقف، بعد سنواتٍ: "كان "جان ماري ڤـيانّي" نموذجًا يُقتدى. ربّما لامَه بعضهم، ولكنّه كان هو المصيب، وكان هو الحكيم".

دَعوةٌ كَهَنوتيّةٌ

تدابير الثوّار الهوجاء، الزاخرة بالجرائم والأخطاء، أفضت إلى فشلٍ ذريعٍ. واتّضح لهم، أخيرًا، أنّ إعادة السلام والاستقرار للبلاد يتعذّر بمعزلٍ عن الإقرار بالحرّيّة الدينيّة. فعقد الحكّام معاهدةً مع الكنيسة. وفجرَ الثامن عشر من شهر نيسان ١٨٠٢، ملأت أجراس الكنائس الأجواء برنّاتها الجذلى، المنتصرة، معلنةً قيامة الكنيسة مع قيامة مؤسّسها وسيّدها. وفاضت العيون دموع فرحٍ. وباندفاعٍ عارمٍ عاد آل "ڤـيانّي"، وسائر أبناء قريتهم إلى كنيستهم الصغيرة الحبيبة، حاملين أكاليل الشكر.

ومنذئذٍ غدا ديدن "جان ماري" التوقّف دقائق، في الكنيسة قبل انطلاقه إلى عمله في الحقول. وفي أثناء عمله، كان كلّما سمع رنّة جرسٍ منبئةً بطقسٍ كنسيٍّ، يتّحد روحيًّا، بالكاهن وبالمؤمنين، قارنًا عمله بصلاةٍ صامتةٍ. ولكنّه كان، أحيانًا، لا يطيق صبرًا، فيستأذن والده ويجري إلى الكنيسة، ويدعو من أجل شفاء ذلك الوالد الحبيب من أوجاعه. وبالإجمال كان شذى تقواه يفوح في كلّ زوايا منـزل والديه.

وكان قد خَلَف الكاهن الشيخ المتخاذل، على خدمة رعيّة "درديّي"، كاهنٌ شابٌّ نشيطٌ، منفتح الذهن، أولى اهتمامه لتعليم النشء وإنقاذه من الأُمّيّة والجهل، ولا سيّما أنّ المدرسة الرعويّة الوحيدة في القرية كانت قد أُغلقت منذ بدء الثورة. فتعاون الكاهن مع البلديّة على إعادة افتتاحها. وسرعان ما أمَّها خليطٌ من الصغار والفتيان الذين ما برحوا شبه أُمّيّين. وكان "جان ماري ڤـيانّي" أحدهم، فكان، حالما تتيح له أعمال الحقول المتوقّفة في الشتاء، سانحةً، يهرع إلى المدرسة حيث يكتسب تعلّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، واللغة الفرنسيّة الرسميّة.

الأيّام المعدودات التي تسنّى له فيها الاستراحة من عمل الحقول، والجلوس على مقاعد الدراسة لم توفّر له فسحةً للدراسة أكثر من بضعة أشهرٍ، ربّما لم تتجاوز الأربعة. بيد أنّه أبدى رغبةً عارمةً في التعلّم، حتّى غدا المدرّس يحرّض التلاميذ الآخرين على التمثّل باجتهاده. وربّما ردمت هذه الساعات القليلة مساحةً من أُمّيّته،

ولكنّها لم تكن كافيةً لإنقاذه من أخطاء الكتابة، والقواعد اللغويّة. غير أنّ ثقافته الروحيّة أخذت تتنامى وتترسّخ، من خلال علاقته بالكاهن الجديد، الأب "جاك فورنيه" (Jacques Fournier) الذي استشفّ فيه دعوةً كهنوتيّةً، فأغدق عليه الإرشادات الكفيلة بإيصاله إلى هذا الهدف. واجتاحت نفسه رغبةٌ مضطرمةٌ في الاستبحار بعلوم الدين، وأضحى يقضي ساعاتٍ طويلةً من الليل، مطالعًا الإنجيل، وكتاب الاقتداء بالمسيح، مضحّيًا، في هذا السبيل، براحةٍ كان في أشدّ حاجةٍ إليها.

وما لبث أن طرقت نفسه دعوة "اتبعني" التي دفعت بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا في إثر يسوع. وتنامى ميله إلى الكهنوت، يومًا فيومًا، ولكنّ زاده من العلم والثقافة كان هزيلاً. ولم يكن يفقه كلمةً واحدةً من اللغة اللاتينيّة التي لم يكن معدى عنها لبلوغ الكهنوت، فضلاً عن عقبات الوضع العائليّ. فوالده كان يواجه أزمةً ماليّةً حادّةً. فسَوْق ابنه الأكبر إلى الخدمة العسكريّة كان وشيكًا. والحقول تحتاج إلى سواعد فتيّةٍ، وابنته الكبرى على عتبة الزواج، وكلّ ذلك يبهظ كاهل مزارعٍ رقيق الحال. ومع أنّ والدة "جان ماري"، كانت داعمةً لدعوة ابنها الكهنوتيّة، إلاّ أنّ إقناع زوجها بالتخلّي عن عون ساعدي ذلك الشابّ كان يبدو عصيًّا.

غير أنّ الأُمّ والفتى كان يسكنهما همّ النفوس الغفيرة المحتاجة إلى منقذٍ، وهمّ الرعايا المحرومة من كهنةٍ، والأولاد المفتقرين إلى التربية الدينيّة والأسرار الخلاصيّة... حصادٌ وفيرٌ ينادي سواعد لجمعه، ويستأهل أن تُخاض، في سبيله، أعتى المعارك.

وكان "جان ماري" قد أفضى، أوّلاً، لأُمّه وخالته برغبته هذه وهواجسه، وبتوقه الحارق إلى إنقاذ نفوسٍ كثيرةٍ، ورحّبت الوالدة بهذه الرغبة بفرحٍ وحماسٍ، وشرعت تمهّد السبيل إلى مفاتحة زوجها بها، وهي تتوقّع ردّ فعله وتخشاه. فالنفقات المفروضة عليه تفوق طاقاته، ولا مهرب منها. والحقول، مصدر دخل الأُسرة، تحتاج إلى سواعد فتيّةٍ تستثمرها. فكيف له أن يستغني عن ساعدي ابنه الوحيد، بعد تعبئة الابن الأكبر في الجيش؟ ومن أين له الإنفاق على دراسة ابنه الآخر الراغب في الكهنوت، والذي تحوم شكوكٌ راجحةٌ في قدرته على بلوغ مبتغاه؟

أخفقت توسّلات الأُمّ الملحّة والمستمرّة في تليين موقف الوالد الرافض حتّى فكرة الاستغناء عن الكنــز الثمين، والسند الوحيد المتبقّي له. تمادت مقاومته سنتين، وظلّ الشابّ، أثناءهما، صامتًا، مطيعًا، مؤدّيًا بنشاطٍ وطيبة خاطرٍ كلّ ما يوكل إليه من أعمالٍ. ولكنّ كلّ ملامحه، ونظراته، وتصرّفاته، كانت تنمّ، بوضوحٍ وثباتٍ، عن إصرارٍ صامدٍ في تلبية نداء الله. وكان الربّ يعدّ له، بتؤدةٍ، الظروف الكفيلة بتحقيق دعوته.

ففي تلك الأثناء، كان قد عُيِّن الأب شارل بالّي" (Charles Bally)، خادمًا جديدًا لرعيّة "إيكويّي" (Ecully)، القريبة جدًّا من "درديّي"، وحيث كان لجان ماري خالةٌ متزوّجةٌ. وكان الأب "بالّي" قد أثبت وفاءه للكنيسة، وقاوم ببطولةٍ، الطامحين في تدميرها. وكان، في أثناء هذه المقاومة قد لجأ إلى منــزل أحد الذين قضت عليهم مقصلة الثورة، ووفّرت له أرملة الشهيد، وابنها الشابّ، مأوًى لديهما. ولّما عُيِّن ذلك الكاهن خادمًا لرعيّة "إيكويّي"، باح ابن تلك الأرملة، المدعوّ "ماتياس" (Mathias)، لأُمّه عن دعوته الكهنوتيّة، ورغبته في تلبيتها، فأوكلته إلى الأب "بالّي"، الذي، رغم افتقاره إلى الوسائل والإمكانيّات الكافية، لم يستطع رفض طلبها، عرفانًا بجميلها وجميل ابنها، واستجابةً لرغبةٍ ضاجّةٍ في نفسه في تثقيف كهنةٍ جددٍ، ورفد الكنيسة بعمّالٍ نشيطين في كرمها. فاستقبل الشابّ "ماتياس" في دار الرعيّة، عام ١٨٠٦.

وتنامى هذا الأمر إلى علم خالة "جان ماري"، فلاحت لها سانحةٌ لتحقيق رغبة ابن أختها، بكلفةٍ زهيدةٍ، تُخرج زوجَ أُختها من أزمته. وسرعان ما قصدت مع شقيقتها الأب "بالّي" والتمستا منه استقبال "جان ماري" لديه، مثلما استقبل "ماتياس"، وإعدادهما معًا للكهنوت. وللوهلة الأولى رفض الكاهن طلبهما، وكان لرفضه مبرّراتٌ عديدةٌ. فهو كان يفتقر إلى الإمكانيّات المادّيّة، و"جان ماري"، الذي كان قد بلغ العشرين من عمره، كان أكبر سنًّا من "ماتياس"، ولكنّه يتدنّى عنه تدنّيًا شاسعًا من حيث مستوى العلم، الذي كان زاده منه أكثر من هزيلٍ، فضلاً عن جهله المطبق للّغة اللاتينيّة، التي لا بدّ منها من أجل دراسة اللاهوت، وتلاوة الصلوات الطقسيّة، والتي كان يواجه صعوبةً قصوى في تعلّمها.

عادت، إذن، أُمّه وخالته خائبتين. ولكنّ زوج خالته لم يستسلم. وقصد الكاهن،

بعد أيّامٍ، واسترسل في وصف خصال "جان ماري"، مشيدًا بورعه، وتقواه، وصدق رغبته في خدمة النفوس. وأخيرًا، أقنع الكاهن، كأقلّ مطلبٍ، أن يقابل الشابّ، مؤكّدًا أنّه سيرحّب به بمجرّد أن يراه ويستمع إليه. وترك الشابّ حقول القمح والكروم، وجرى إلى مَن كان يرجو مساعدته على العمل في حقل الربّ. وحدّق الكاهن البارّ، بعينيْه الثاقبتَيْن، إلى ذلك الوجه النحيل الشاحب، حيث ارتسمت مخايل الورع والحشمة، وراقبه بإمعانٍ، ثمّ حاوره بإيجازٍ، فأخذ بما طفحت به أجوبته من معارف دينيّةٍ راسخةٍ، وإيمانٍ كثيفٍ، وبكلّ ما عكس كيانُه من أمارات الاستقامة، والخَفَر، والحشمة، وصفاء نفسٍ شفّافٍ، وبنظرته الرائعة العميقة، وبالبسمة المضيئة، التي طافت على محيّاه، وأنارته، فأحاطه بلفتةٍ تفيض مودّةً، وأعلن لزوج خالته: "إنّي أُرحّب بهذا الشابّ". ثمّ التفت إلى "جان ماري"، وأكّد: "ثقْ، يا صديقي، بأنّني سأُضحّي بذاتي في سبيلك، إذا اقتضى الأمر". وقد أثبتت الأيّام صدق استعداداته.

وخفّفت والدة "جان ماري" العبء عن كاهل أسرة شقيقتها، فتكفّلت بتأمين كلّ ما يلزم ابنها من مأكلٍ ومشربٍ، ومؤونةٍ، ولباسٍ، بانتظامٍ. ثمّ جدّت في إقناع زوجها، بعد أن توفّرت لها أسباب الإقناع: فكلفة تعليم ابنهما زهيدةٌ جدًّا، وأمنه مضمونٌ بإقامته مع أُسرة خالته؛ فضلاً عن أنّ قرب المسافة بين القريتين، يمكّن الشابّ من تلبية الحاجة إلى مساعدة الوالد، في الحالات الطارئة. ناهيك عن الرضى الذي يسيله في النفس تقديم ابنٍ غالٍ للربّ، وتجنّب وجع الضمير الذي قد ينجم عن رفض هذا العطاء. واستسلم الوالد، ومنذ عام ١٨٠٧، استقرّ "جان ماري" في "إيكويّي".

واتّفق أن زار، في ذلك اليوم نفسه، الكردينال "فيش" (Fesh) الرعايا التابعة لأبرشيّة "ليون"، واختيرت رعيّة "إيكويّي" لمنح المناولة الأولى، وسرّ التثبيت لألوف المؤمنين الذين تقاطروا إليها من مختلف الرعايا المجاورة. وانتظم في صفوف طالبي التثبيت آلاف الفتيان والشبّان والكهول، والثوّار التائبين، وانضمّ إليهم "جان ماري ڤـــيانّي"، الذي اختار شفيعًا لهذه المناسبة اسم "المعمدان" (باتيست)، فثُبِّت تحت اسم "جان باتيست". ومنذئذٍ غدا يوقّع بأحد اسميه، بلا تمييزٍ: "جان باتيست ماري" أو "جان ماري باتيست". ونالت شقيقته التثبيت معه، وإلى جانبه.

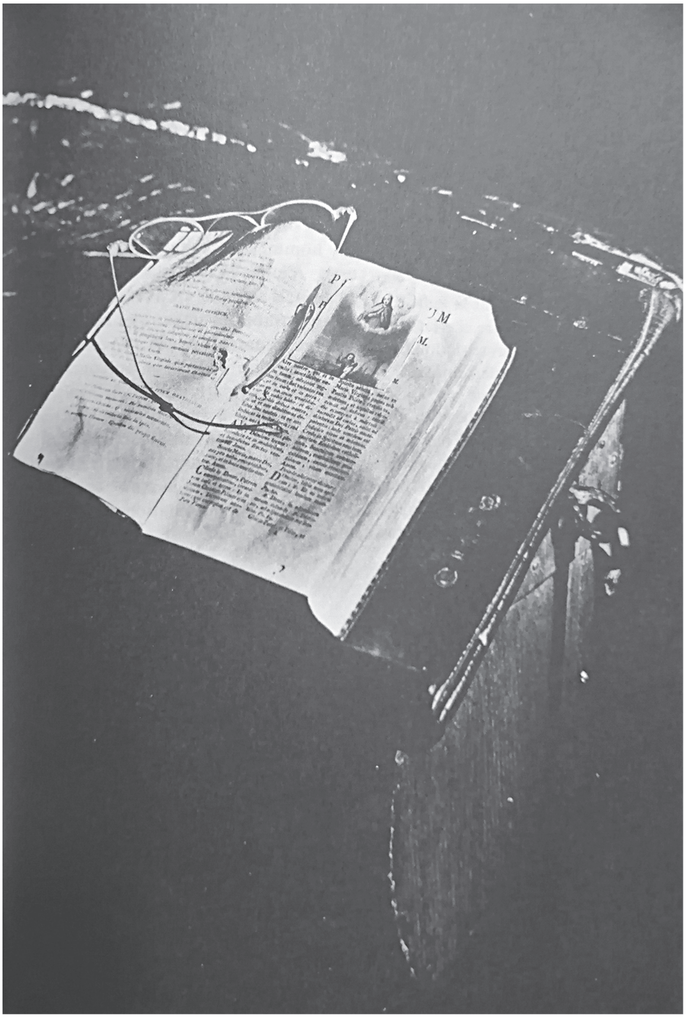

سواعيّته التي كان يلصق بها صورة الثالوث القدس، ونظارتاه

الفَصْلُ الثَّانِي

الإكليريكيّ المتعثّر

عقباتٌ على درب الكهنوت

اندرجت إقامته في "إيكويّي" بيُسرٍ؛ فخالته أفردت له غرفةً في بيتها، وأشركته في وجبات الأُسرة، وواظبت شقيقته على تزويده، كلّ أُسبوعٍ، بما يلزمه من طعامٍ ومؤونةٍ. وتطوّعت جارةٌ لغسل ثيابه.

غير أنّه، منذ تلك المرحلة، شرع يصعّد على دروب القداسة، منتهجًا سبيل التقشّف. فكان يكتفي من الغذاء بالحساء، مُعرضًا عن كلّ طعامٍ آخر مقدَّمٍ على المائدة. وحتّى الحساء، كان يرجو خالته ألاّ تضيف الزبدة إلى نصيبه منه، وأن تستبدلها بالماء. وإن هي سهت عن تلبية مطلبه هذا، كان يُمنى بالاكتئاب، ويغصّ بكلّ لقمةٍ يتناولها. واقتضاه وقتٌ مديدٌ، ومراسٌ دؤوبٌ، كي تحلّ لديه البسمة مكان الامتعاض، كلّما خالفت خالته، سهوًا، رغبته التقشّفيّة.

ولم يقوَ، قطّ، على الانعتاق من ميله المترسّخ إلى التعاطف مع الفقراء والمحرومين، ولم يكفّ عن التبرّع بطعامه وثيابه لكلّ فقيرٍ أو مشرّدٍ يقصد مزرعة خالته، فاستحقّ، ذات يومٍ، لوم والده الصارم، عندما وافى إلى المنزل الوالديّ، حافي القدميْن، بعد أن تبرّع بحذائه الجديد لفقيرٍ. ولم يتوانَ، في مناسبةٍ أُخرى، عن التخلّي عن كامل مصروفه الشخصيّ، لامرأةٍ فقيرةٍ، كانت تجرّ، في إثرها، ثلّةً من الأطفال العراة والجياع.

وربّما تمنّى أن تُكافأ هذه التضحيات بفتح ذهنه على التعلّم، ولكنّ أُمنيّته هذه خابت، فمع دأبه على إنفاق الليالي ساهرًا، مصارعًا الكتب، مستعينًا بمصباحٍ خافتٍ، ومتوسّلاً الروح القدس، بحرارةٍ ولجاجةٍ، أن يرسّخ في ذهنه مفرداتٍ لا يملّ من ترديدها عشرات المرّات. كان يُفاجَأ، صباحًا، بتبيّن شرودها بعيدًا عن ذاكرته. وبالإجمال فشلت كلّ الجهود المضنية التي أمعن في بذلها، آملاً إحداث ثغرةٍ في جدار

أُمّيّته التي وطّدها سنوات العمل في الحقول، وهجر المدارس. وظلّت ريشة الكتابة تبدو له أثقل من الفأس والرفش اللذين برع في استخدامهما برشاقةٍ. ولطالما بدا له أنّ استصلاح أراضٍ صخريّةٍ جرداء، واستنبات أينع الثمار منها، أقرب منالاً من حشر مبادئ الكتابة الصحيحة، والقواعد اللغويّة في ذهنه المتلبّد. وكانت اللغة اللاتينيّة، بقواعدها العشوائيّة، وتركيبات جُملها البهلوانيّة، هي السدّ الأشدّ مناعةً دون قدرته على الإدراك، والأشدّ استعصاءً على طاقات ذاكرته.

تعثّراته وإخفاقاته كانت تثير شفقة زميله "ماتياس"، الذي غشى المدارس منذ طراوة عوده، وتمرّس في كلّ العلوم، وجلّى في ميدانها، والذي كان يدرك ويحفظ كلّ شيءٍ بيُسرٍ. ودفعته شفقته، ذات يومٍ إلى مساعدته، باذلاً كلّ مهاراته في سبيل تقريب الدروس إلى مداركه، ولكنّه سرعان ما تبيّن أنّه يخاطب حجرًا أصمّ. وضاق بالصبر ذرعًا، وفقد السيطرة على أعصابه، فصفع زميله المسكين. للوهلة الأولى دفع "جان ماري" طبعُه العصبيّ إلى الردّ بالمثل، غير أنّه سرعان ما استعاد جأشه وسكونه، والسيطرة على ذاته، فهوى راكعًا، والتمس من زميله الصفح عمّا يسبّبه له من ضيقٍ. وأثّر هذا الموقف في "ماتياس" أعمق أثرٍ، فارتمى بين ذراعي رفيقه الأكبر، مذرّفًا دموع الندم والاعتذار، ومغرقًا في الاستغفار. وفي الواقع وطّد هذا الحادث، بين تينك النفسين الطيّبتيْن الناصعتيْن، أواصر صداقةٍ لم تزدها الأيّام، وتباين السبُل بينهما إلاّ توثّقًا. ولاحقًا، انتهج "جان ماري"، رغم كلّ شيءٍ، درب الكهنوت، وجلّى في مضمار القداسة، في حين ارتقى "ماتياس"، مواقع رفيعةً في العلم، وأُوفد، مرسلاً، إلى الولايات المتّحدة، حيث سيم أُسقفًا.

أَزمةُ قُنوطٍ، ومَلجأٌ أخيرٌ

ضاعف "جان ماري" جهوده، ولكنّها لم تؤتِ ثمارًا. فاستغرق في الصلاة والتقشّف، مع أنّه لم يكن يصيب من الطعام سوى ما يبقيه على قيد الحياة. وسرعان ما تجلّت عليه أمارات الهزال، والوهن، والخوَر. فشكت خالته الأمرَ للأب "بالّي"، الذي كان، هو أيضًا، موغلاً في التقشّف. ومع ذلك نصح الشابّ قائلاً: "لا ريب أنّ علينا إيلاء الصلاة وأفعال التوبة اهتمامنا. ولكن علينا، أيضًا، أن نتغذّى، وألاّ ندمّر صحّتنا". بيد أنّ صدمة الفشل في الدراسة، ومغبّاتها النفسيّة والجسديّة، كانت أثقل من طاقته على الاحتمال. وتسلّل القنوط إلى نفسه، وطافت في مخيّلته أيّام العمل الشاقّ في الحقول التي لم تنلْ، في شيءٍ، من متانته الجسديّة. وراودته رؤى حزن أُمّه التي أضناها بعدُه عنها، وطيف أُخته "غوتون" التي أَلِفت مواكبته في البراري وفي البيت، واضطرار شقيقَيْه إلى مضاعفة جهودهما، ومكابدة مشقّاتٍ إضافيّةٍ، للتعويض عن تضاؤل قدرة والدهما على العمل، من جرّاء أمراضه. وتراءى له، من خلال كلّ ذلك، أنّ عودته إلى البيت الوالديّ كفيلةٌ بإراحة الجميع، وأفلت منه هذا التنهّد: "أريد العودة إلى البيت..."، الذي أطلقه بنبرة حزنٍ هصرت قلبه، وقلب مرشده، الأب "بالّي"، الذي استشفّ حدّة الأزمة المصطخبة في نفس ذلك الشابّ الذي أُوكلت إليه رعايته. وخشي أن يُهدَر ذلك الكنــز الثمين، فسارع إلى إيقاظه، وإعادته إلى رشده، بقوله: "يا بنيّ المسكين، أين تريد أن تذهب؟... أَإلى مزيدٍ من الأحزان؟ أنت تعلم أنّ والدك لا يرغب في شيءٍ أكثر من رغبته في إبقائك إلى جانبه. وعندما سيلحظ اضطرابك، سيحتفظ بك في البيت. وحينئذٍ وداعًا لكلّ مشاريعك وأمنيّاتك، وداعًا للكهنوت، ووداعًا للنفوس!...".

هذه التلميحات، كانت كافيةً لتبديد هواجس الشابّ، الذي لم يُطِقْ حتّى فكرة

التخلّي عن الكهنوت، والهيكل، وخلاص الخطأة، والحصاد المنتظِر عَمَلةً. وفي الحال، انقطع شيطان القنوط عن مراوغة تلك النفس النقيّة السخيّة. ولكنّ هذه اليقظة لم تُنقذ الشابّ الطالب من وهن الذاكرة العصيّة على الاحتفاظ بما يودَع فيها من تعليمٍ جديدٍ.

وسعيًا إلى التخلّص من هذه العلّة، اتّخذ "جان ماري" قرارًا بطوليًّا، فاستعان بالقدّيس "فرنسوا ريجيس" (١٥٩٧–١٦٤٠)، الذي ضحّى بحياته حفاظًا على كهنوته. ونذر الحجّ إلى مزاره، في مدينة "لا لوفــيسك" (La Louvesc)، وقَطْعَ مسافة مئة كيلومترٍ إلى ذلك المزار، سيرًا على قدميه، مستعطيًا خبزه، على الطريق. وهو، ابن أُسرةٍ اعتادت فتح بابها ومطبخها لكلّ جائعٍ، وأهرائها لإيواء كلّ مشرّدٍ، لم يخطر له ببالٍ ألاّ يلاقي سوى أبوابٍ موصدةٍ، وقلوبٍ مغلقةٍ، وآذانٍ صمّاء.

وصباح يومٍ صيفيٍّ، عقب حضوره القدّاس ومناولته، امتشق بيدٍ عصا، ربط بها مطرة ماءٍ، وبالأُخرى مسبحة مناولته الأولى، وانطلق معتمرًا قبّعةً عريضةً، متنكّبًا خُرجًا يضمّ أمتعةً ضروريّةً. وبعد اجتيازه شوطًا رحيبًا، نال منه الظمأ والجوع، فتوقّف عند عتبة بيتٍ، مستعطيًا. ولكنّ منظر ذلك الحاجّ، غريب الزيّ المستعطي، أثار الشكوك والتساؤلات: ألا يكون محتالاً خدّاعًا، مموّهًا جنديًّا فارًّا، أو مجرمًا مطلوبًا، أو لصًّا؟ أو أليس فتى موفور الصحّة، ولكنّه كسولٌ يؤثر التسوّل على العمل والجهد؟ وبالتالي طرده جميع من طرق بابهم، وهدّده بعضهم بتسليمه للشرطة.

كان بحوزته قليلٌ من المال تحسُّبًا للطوارئ، ولكنّه كان قد نذر ألاّ يبتاع طعامًا، ولم يؤتِه تسوّلُه سوى بقايا خبزٍ جافٍّ، والكثير من الشتائم والإهانات. فواصل طريقه متغذّيًا بالأعشاب البرّيّة، وناقعًا عطشه بماء الينابيع. وفي نوبة إعياءٍ، أُغمي عليه. وفي نوبةٍ أُخرى استبدّ به الجوع، فدخل بيتًا آملاً أن تجود عليه صاحبته ببقايا طعامٍ. وكانت المرأة، آنذاك، عاكفةً على حلّ كبّة غزولٍ، فناولته طرف خيطٍ،

ودعته إلى الابتعاد به خارجًا، وخُيِّل إليه أنّها تكلّفه بخدمةٍ، فسعد بأدائها، ولكنّه ما إن صار خارج البيت حتّى سارعت إلى إيصاد الباب دونه.

أمضى الليلة الأولى في العراء، تحت قبّة السماء. وعلى امتداد المسافة المتبقّية إلى غايته، التقى قلوبًا أوفر عطفًا، جادت عليه بكسرات خبزٍ جافٍّ، كان يبلّلها بالماء، ويستعين بها على الوصول إلى المزار الجاثم على ارتفاع ألفٍ ومئة مترٍ، تسنّمه منهكًا، ولكن سعيدًا. وهناك جثا أمام رفات القدّيس، معترفًا له بغاية حجّه، وهي نعمة تحصيل قدرٍ كافٍ من اللغة اللاتينيّة يؤهّله لدراسة اللاهوت. وفي الواقع لم يُعطَ سوى القدر الكافي لبلوغ مرماه. وكان الربّ قد امتحن إيمانه، وأعدّه لصراعاتٍ بطوليّةٍ قادمةٍ.

لا مراء أنّ ذلك الحجّ قد حفر أثرًا عميقًا في نفس الشابّ. فالقدّيس الذي قصد مزاره حاجًّا مستغيثًا، كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة، إعياءً، وهو في نحو الأربعين من عمره، بعد ظهر يومٍ قضاه معرِّفًا، وواعظًا، متأثّرًا بداء السلّ الذي التهم رئتَيه، ولم يُبالِ، قطّ، بمداراته، إذ كانت الرسالة أشدّ هيمنةً على نفسه من العناية بجسده. وربّما لم يخطر ببال الحاجّ أنّه إنّما حجّ إلى سابقٍ له، سعى إلى احتذاء مثاله، وانتهى إلى تخطّيه قداسةً، وغيرةً، وبذلاً.

وقبل عودته، اعترف بين يدي كاهنٍ يسوعيٍّ، وروى له دافع حجّه، ونذره، وما لقي من عنتٍ في الوفاء له. فنصحه الكاهن أن يستبدل، في طريق عودته، نذر التسوّل بنذر التصدّق. وقد رسّخت استجابته لهذه النصيحة، لديه، اليقين بأنّ "العطاء خيرٌ من الأخذ"، وعلّمته ألاّ يشجّع أحدًا على الاستعطاء، مثلما أكّد له صواب نصيحة مرشده، الأب "بالّي"، الذي طالما دعاه إلى الاعتدال في الأصوام والتقشّفات. بيد أنّ تلك التجربة أكسبته اختبار آلام الجوع، والعطش، والافتقار إلى مأوى. فازداد عطفًا على من يعانون هذه المِحَن.

أمّا عن غرضه من الحجّ، المتمثّل في انفتاح ذهنه على الدروس، فلم يحصل منه إلاّ على القدر الكفيل بتبديد إحباطه، وإنقاذه من رهبة اللغة اللاتينيّة، والنفور من كتبها. وكانت هذه النتيجة تعبيدًا لطريقه نحو الكهنوت.

ربّما خُيِّل لفئةٍ من معلّميه، أنّ ذلك الحجّ قد آتاه سهولةً كبرى في التعلّم. غير أنّ الأب "بالّي"، الذي لم يبهره ما أحرزه تلميذه من انفتاحٍ ذهنيٍّ نسبيٍّ، قد أكّد، بالمقابل، تقدّمه الروحيّ، فتجرّأ على دفعه إلى مباشرة دروس الفلسفة.

ولكن، لا الأب "بالّي"، ولا أحدٌ من ذوي "جان ماري" كان يتوقّع استدعاءه للخدمة العسكريّة.

تخلّفٌ عن الخدمة العسكريّة

كان "جان ماري ڤـــيانّي" من المدعوّين إلى الخدمة العسكريّة في دورة ١٨٠٦، ولكن، وفقًا للنظام المتّبع آنذاك. أعفته القرعة من هذا الواجب. وفضلاً عن ذلك، كان طلاّب الإكليريكيّات، أيضًا، ينعمون بالإعفاء، وكان أُسقف ليون قد قدّم للسلطات العسكريّة قائمةً بطلاّب الكهنوت، متضمّنةً اسم "جان ماري ڤـــيانّي"، ولكنّ هذا الاسم أُسقط، سهوًا، في القائمة الرسميّة.

وفي عام ١٨٠٩، كان نابوليون الأوّل المتورّط في حرب إسبانيا، يواجه في الآن عينه، پـــروسيا والنمسا، وبحاجةٍ ملحّةٍ إلى ردف جيشه بالمزيد من المقاتلين، فألغى كلّ الإعفاءات السابقة، واستُدعي "جان ماري ڤـــيانّي" للخدمة. وكاد هذا الاستدعاء أن يتحوّل نعوةً لدعوته الكهنوتيّة. فهو كان على مشارف الرابعة والعشرين من سنيه، في حين أنّه، دراسيًّا، لم يكن قد تخطّى الخامسة عشرة.

ذلك الاستدعاء المباغت نهض عقبةً جديدةً كأداء في طريقه، منذرةً بالقضاء المبرم على أحلامه الكهنوتية. وكان المخرج الوحيد من هذا المأزق، شراء بديلٍ يرتضي الخدمة العسكرية عوضًا عنه. وبعد لأيٍ، وبشقّ النفس، استسلم والده لهذا الحلّ، رأفةً بابنه، وبدموع زوجته وابنته الكبرى، وارتضى دفع ثلاثة آلاف فرنكٍ لشابٍّ قَبِلَ الخدمة العسكريّة بديلاً عن "جان ماري"، مع أنّ هذا المبلغ، الذي أُضيفت إليه هديّةٌ قيّمةٌ، ومجموعة ملابس، مُنحت للبديل، كانت تمثّل لماتيو ڤـــيانّي ثروةً طائلةً، وتضحيةً جسيمةً.

غير أنّ الشابّ البديل لم يلبث أن أعاد المبلغ والهدايا والثياب، مستنكفًا. ولم يعد لجان ماري بدٌّ من الالتحاق بالجيش. ولكنّه، منذ اليوم الأوّل، صُدم بسلوك المجنّدين الفظّ، المجرّد من كلّ تهذيبٍ، وبأحاديثهم الطافحة بذاءةً. هذه الصدمة، وهذا الانتقال المفاجئ من مناخٍ محفوفٍ بالطهارة، إلى مناخٍ موبوءٍ خانقٍ، ضاعف

تأثير ما كانت جهود الدراسة المرهقة قد أحدثته من هدٍّ لقواه، فاجتاحته حمّى حارقةٌ، وتعذّر عليه النهوض في اليوم التالي، وشخّص الطبيب العسكريّ وضعًا خطيرًا، ونُقِل الشابّ إلى مستشفى. وما إن تماثل للشفاء، بعد أسبوعين، حتّى أُلحِق بكتيبةٍ متّجهةٍ إلى مدينة "روان" (Roanne) الفرنسيّة. ولكنّه لم يكن، بعدُ، يملك من القوّة ما يمكّنه من مسايرة رفاقه، فأقلّته سيّارةٌ عسكريّةٌ، مرتجفًا، إلى مشفى آخر، حيث تولّت العناية به، على امتداد ستّة أسابيع، راهباتٌ أوغسطينيّاتٌ. وكانت حالته، آنذاك، من الهشاشة بحيث هرع ذووه لعيادته، بقلوبٍ واجفةٍ، وكأنّهم يودّعونه الوداع الأخير. وتوسّلت والدته الراهبات أن يتنازلنَ لها عن العناية به. ولكنّ الراهبات ما كنَّ ليتنازلنَ لأيّ إنسانٍ، حتّى لوالدته، عن العناية بذلك الشابّ الورع الذي لا تبارح المسبحة أنامله، والذي يندر جدًّا أن يعبر بمشفى عسكريٍّ مثيلٌ له. وبالتالي، لم يتحرّجنَ من مصارحته بأنّه سيكون أوفر فائدةً لفرنسا بصلواته من محاربته. ويُقال إنّهنّ نصحنَه بالبقاء معهنّ، متعهّداتٍ بحمايته من كلّ ملاحقةٍ. ولكنّه، وفاءً لمبادئ كان قد التزم بها، آثر تحقيق مشيئة الله، والاهتداء بالعناية الإلهيّة من خلال الظروف الطارئة.

ولا بدّ من التنويه بأنّ قضيّةً ضميريّةً مرهقةً كانت، آنذاك، تقضّ مضاجع الشبّان الفرنسيّين الكاثوليكيّين المدعوّين إلى الخدمة العسكريّة. فقد كانت أزمة الخلاف بين الكنيسة ونابوليون قد بلغت أشدّها، ما أفضى بالإمبراطور إلى سجن الحبر الأعظم، ومصادرة الأملاك البابويّة. وقابل البابا هذه الإهانة بحَرْم نابوليون كنسيًّا. ومن ثمّ غدت أعدادٌ وفيرةٌ من الشبّان الكاثوليكيّين يرفضون الالتحاق بجيش إمبراطورٍ يناصب الكنيسة العداء.

ومع أنّ وضع الشابّ "ڤـــياني" الصحّي كان مابرح هشًّا وخطيرًا، بُلِّغ في الخامس من كانون الثاني ١٨١٠، بوجوب الشخوص، في ساعةٍ محدّدةٍ، إلى مكتب النقيب لاستلام أمر سوقه إلى الحدود الإسبانيّة، ضمن كتيبةٍ متّجهةٍ إلى هناك. وبما

أنّه كان حريصًا على مراعاة النظام، فقد غادر المستشفى باكرًا، لكيلا يتلكّأ عن الموعد. ولكنّه، في أثناء الطريق، صادف كنيسةً. وكانت نفسه تضجّ بالهواجس والهموم التي يحتاج إلى إيداعها بين يدي الربّ. وقد اعترف، لاحقًا، أنّ هواجسه كلّها ذابت أمام الهيكل، ذوبان الثلج تحت سطوة الشمس الحارقة. ولكنّه استغرق في الصلاة، واستبحر في محاورة الله، فسها عن كرّ الدقائق والساعات. ولّما انتهى إلى مكتب النقيب، وجد بابه موصدًا، فعاد أدراجه إلى المستشفى. وفي صباح الغد، الموافق لعيد الظهور الإلهيّ، ومع أنّه كان مازال واهنًا مترجرجًا، هبّ باكرًا، وتنكّب حقيبته، وودّع ممرّضاته، باكيًا، وهرع إلى مكتب التعبئة، حيث أُعلم أنّ كتيبته قد غادرت. وبيّن له الضابط مغبّات تخلّفه الخطيرة. ولكنّ موظّفًا عطوفًا شفع بذلك الشابّ المهذّب الخجول، الذي مازالت تلوح عليه أمارات المرض. ورقّ الضابط لحاله، وسلّمه أمر السوق، على أن يلتحق فورًا، بكتيبته. فانطلق، متعثّر الخطوات، تبهظ حقيبتُه كتفيه، فغشت غيوم الكآبة نفسه، واستغاث بالله، مردّدًا الصلوات بحرارةٍ، تخطّت حدود المألوف.

ولكن سرعان ما خارت قواه، وتهالك، ولا سيّما أنّ رياحًا قارسةً كانت تلسع جسده المعتلّ، فحاد عن قارعة الطريق، وسار في أرضٍ محروثةٍ، باحثًا عن ملجأٍ يستريح فيه. واستغرق في تلاوة المسبحة، مستغيثًا بالسيّدة العذراء، التي أَلِفَ الفزعَ إلى أزرها في المِحَن. وبغتةً، مرّ به رجلٌ غريبٌ، واستوضحه عن سبب وجوده في ذلك المكان، في ذلك الليل الشتويّ، ودعاه إلى اللحاق به، بعد أن أخذ عنه حقيبته الثقيلة، وسارا، طويلاً، بين الأشجار، على دروبٍ جبليّةٍ.

ومن خلال الأحاديث التي تبادلاها، أدرك "جان ماري" أنّ ذاك الذي انبرى لنجدته، إنّما كان عضوًا في جماعة متخلّفين عن الخدمة العسكريّة. ولم يكن الإكليركيّ التائه، حينئذٍ، راغبًا في معرفة أيّ شيءٍ عن أولئك الفارّين، بل كلّ ما كان يسكن خاطره أنّه منهكٌ، وأنّ الحمّى تلهب جسده، وأنّه يحتاج إلى مأوًى

يقضي فيه ليلته، وأنّ كتيبته قد أمست بعيدةً جدًّا. وربّما ساورته الخشية ممّا قد يلحقه تخلّفه من متاعب لذويه. ولكن لم يكن له، حينئذٍ، حيلةٌ سوى اقتفاء خطى دليله، ريثما تنقضي تلك الليلة المشؤومة، ويقيّم وضعه عند الصباح.

وانتهيا إلى بيت حذّاء، كان الدليل على معرفةٍ سابقةٍ به، استقبلهما، وتكرّم على الشابّ المضطرب بطعامٍ وشرابٍ، وتنازل له عن سرير العيلة الوحيد، مرتضيًا الرقاد مع زوجته، والضيف الآخر، على قشّ الإسطبل.

صباح اليوم التالي، قصد الجنديّان الفارّان كوخًا في الغابة، استخدمهما صاحبه في نشر جذوع أشجارٍ طوال يومين. ولكنّه لم يستطع الاحتفاظ بكليهما، فاستبقى أشدّهما منعةً بدنيّةً، واضطرّ "جان ماري" إلى البحث عن عملٍ في مكانٍ آخر. ولم يلبث أن تبيّن تعقيد وضعه. فقد بات جنديًّا فارًّا، ملاحقًا، هائمًا في تلك الجبال، وفي تلك الديار الغريبة.

ولاذ، أخيرًا، بعمدة قريةٍ اشتهر بطيبته. ولكنّ العمدة كان، آنذاك، يخبّئ في منـــزله جنديّين فارّين، مع أنّ رجال الأمن كانوا لا يكفّون يجوسون الجوار، بحثًا عن فارّين؛ وكانوا قد اتّخذوا من منـــزله استراحةً، يعاقرون فيها الخمرة. ومع ذلك، لم يقوَ ذلك العمدة الطيّب على ردّ ذلك الشابّ، الذي تعبّر قسماته عن الورع والاستقامة، والذي أمسى معرّضًا لأشدّ العقوبات، من جرّاء تخلّفه عن الالتحاق بكتيبته، ولا سيّما أنّ العمدة نفسه كان يقاسم جُلّ مواطنيه اعتراضهم على التجنيد العشوائيّ، واستنكارهم الحروب العبثيّة التي يشنّها نابوليون. وهو، مع معرفته بجسامة العقوبات النازلة بالمساهمين في إيواء فارّين من الجنديّة، وجد لجان ماري ملجأً في بيتٍ محاذٍ لبيته، يخصّ أرملةً، أُمًّا لأربعة أطفالٍ، تجهد في تربيتهم، وفي العناية بمزرعتها.

بدواعي التحرّز أُطلق على جان ماري اسم "جيروم ڤـــنسان"، وعُرِّف عنه أنّه أحد أقرباء الأُسرة، ساكنٌ في قريةٍ بعيدةٍ، وزائرٌ مؤقّتٌ. وحرص الجميع على

ضرورة أن يكتم أبناء الأسرة، وحتّى صغارها، حقيقة هويّته. وأكّد له العمدة أنّ جميع أبناء القرية متواطئون معه، كاتمون لسرّه، واقفون إلى جانبه، وذائدون عنه. وارتضى الإكليريكيّ الفارّ، اتّقاءً لكلّ شبهةٍ، التخفّي إلى أبعد حدود التخفّي، فكان يقضي النهار متواريًا في الإسطبل، حيث كانت مضيفته تأتيه بالطعام داخل سطلٍ خشبيٍّ اعتادت أن تأتي فيه بالعلف للبهائم. ولم يكن يخاطر بمغادرة مخبئه إلاّ عندما تتكثّف سجف الليل، فيختلط، حينئذٍ، بأفراد الأسرة، ويقرأ لهم مقاطع من الإنجيل، ويروي سيَر القدّيسين، وقصصًا تعلّمها من أُمّه ومعلّميه، حتّى أنِس الجميع برقّته، وأكبروا خصاله. وكان، بادئ الأمر، قد اقتسم مخبأه مع أحد أبناء الأُسرة، له من العمر ثلاث عشرة سنةً. ولكن، بعد انقضاء ثلاثة أيّامٍ، شكا الفتى لأُمّه، باكيًا، أنّ الضيف الغريب يحرمه النوم، لأنّه يقضي الليل كلّه متمتمًا صلواتٍ بلا انقطاعٍ. فاضطرّت المرأة إلى إقامة حاجزٍ خشبيٍّ بين فراش ابنها، وفراش الضيف.

ولم يُطِقْ الإكليريكيّ الفارّ أن يظلّ عالةً على مضيفيه. وخطر له أن يتولّى أعمال المزرعة التي ألِفها وأجادها. ولكنّ تلك الأعمال، كانت، آنذاك، متوقّفة، بسبب فصل الشتاء، فافتتح مدرسةً مجّانيّةً، سرعان ما انضمّ إليها أبناء مضيفته، ورهطٌ من شبّان القرية وكهولهم الأُمّيّين. ولحسن طالعه لم يُثر ريبة أحدٍ منهم. فقد كان مظهره مظهر فلاّحٍ، وكان الاسم الذي انتحله يوحي بصلة قرابةٍ تربطه بمضيفيه.

واشتدّ بجان ماري التوق إلى الإفخارستيّا. وكان الألم يعصر قلبه كلّما سمع رنّة الجرس، فيما يقيّده واجب الحذر عن الشخوص إلى الكنيسة. إلى أن تنامى إلى علمه أنّ كاهنًا نفته الثورة يقيم، باكرًا جدًّا، قدّاسًا في قريةٍ مجاورةٍ، فتجرّأ، متدثّرًا بالعتمة، وشخص إلى تلك الكنيسة التي خوت إلاّ من حضورٍ ضئيلٍ، فاعترف ونال سرّ القربان. ولكن ماانفكّت تراوده ذكريات مرشده، وكتب اللاهوت، والكهنوت المرتجى، وتسحق قلبه محنة بعاده عن جميعها. فارتمى، بكلّ كيانه، بين ذراعي العناية الإلهيّة، مستعينًا على المحنة بالصلاة. وكانت توجعه، إلى جانب كلّ

ذلك، تبعة تخلّفه عن الجيش، على ذويه، ويقلقه همّ الأرملة التي خاطرت باستضافته، وأمست له أُمًّا ثانيةً، وعدّته أحد أبنائها، وكان التعب والفقر قد أنهكاها، فاعتزم الانصراف، بكلّ قواه إلى العمل الزراعيّ، بغية تخفيف عبئها، وبات يقتّر في الطعام، لكيلا يُحرَم أفراد الأُسرة المضيفة من شيءٍ، فاعتراه الهزال، وغدت الحمّى والرعدة تجتاحانه كلّ ليلةٍ، وحلّت به نزلةٌ صدريّةٌ حادّةٌ، غير أنّ منعته البدنيّة مكّنته من التغلّب عليها.

وشيئًا فشيئًا، تخلّى عن الحيطة، وبعد أن أَلِف الجيران رؤيته عاملاً في الحقل مثلهم، شرع يؤمّ الكنيسة أيّام الآحاد، وما عتّم أن لفت ورعه الأنظار، والإعجاب بخصاله المسيحيّة التي لم يشهدوا لها نظيرًا من قبلُ.

وولّى الشتاء، وذابت الثلوج، وأضحت الطرقات سالكةً، واستدعت الحقول سواعد الفلاّحين، فودّع الطلاّب مقاعد الدراسة المرتجلة، وخفّوا إلى الحقول. ولم يركن معلّمهم إلى الفراغ والتواني، بل مدّ يد العون لفلاّحي الجيران، مقدّمًا لهم كلّ ما يسعه من خدماتٍ.

واستأنف رجال الأمن حملاتهم التفتيشيّة عن الجنود الفارّين، بعد أن تيسّرت الظروف لهذه المهمّة. ولكنّهم كلّما اقتربوا من مكان الشابّ الغريب، كان يسارع أحد أبناء القرية إلى إنذاره، فيلوذ بالفرار، ويتوارى عن الأنظار. وكان مضيفوه، وأبناء العمدة الذين أُطلعوا على سرّ فراره، قد تطوّعوا لحمايته، وأعدّوا له مخبأً للطوارئ، يفزع إليه كلّما لاح خطرٌ مباغتٌ. وذات يومٍ تلكّأ حرّاسه في إنذاره، وغدا المفتّشون على خطواتٍ منه، فسارع إلى الفرار، ولم يجد مخبأً سوى حفرةٍ تحت أكوام القشّ الطريّ التي كانت الشمس قد سطت عليها، وأشبعتها حرارةً، واستبعثت منها سحبًا من الغازات كادت تخنق الشابّ المختبئ تحتها، وتصيبه بالإغماء. وبحث عنه رجال الأمن، وأمعنوا في البحث دقّةً، ولكن لم يعثروا له على أثرٍ. ولكن قبل انصرافهم غرس أحدهم حربته داخل أكوام القشّ، فأصاب كتف

المختبئ، الذي كتم وجعه، ولم تصدر عنه أيّة نأمةٍ تفضحه. وكان القلق قد أخذ بالعمدة كلّ مأخذٍ، وتملّكته الخشية على الإكليركيّ الفارّ، ووقف خارجًا، منتظرًا خروج رجال الأمن. ولّما رآهم عائدين خالي الوفاض، خائبين، أشرقت أساريره، فرحّب بهم، وربّت على أكتافهم، ودعاهم إلى ارتشاف شرابٍ في منـــزله، متيحًا للشابّ فرصة الانعتاق من خطر الاختناق، واستعادة أنفاسه.

ولّما روى "جان ماري" لذويه هذا الحدَث، بعد زمنٍ، أكّد لهم أنّه لم يعانِ، قطّ، مثل ما عاناه، حينذاك، وأنّه قطع لله عهدًا بألاّ يشكو، مستقبلاً، أبدًا، مهما اشتدّت قسوة الظروف، وأثبتت الأيّام التزامه بهذا العهد.

عام ١٨١٠ وصف طبيبٌ لمضيفته الأرملة علاجًا بمياهٍ معدنيّةٍ، متوفّرةٍ في مركزٍ قريبٍ من مدينة ليون. وتردّدت المرأة في تنفيذ وصفة الطبيب، بسبب ما تقتضيه من مشاقّ ونفقاتٍ. بيد أنّ "جان ماري"، الذي كانت تعتمل في نفسه رغبةٌ حارقةٌ في الاطّلاع على أحوال ذويه، ألحّ في حثّها على الامتثال لنصيحة الطبيب. وتسهيلاً لهذه المهمّة، اقترض مئة فرنكٍ زوّدها بها، وزوّدها، أيضًا، برسالةٍ إلى ذويه في "درديّي"، الذين رجاهم استضافتها أجمل استضافةٍ، والعناية بها خير عنايةٍ. وفي الآن عينه، طوى رسالته على عميق ندمه وألمه لكلّ ما سبّب لهم، من جرّاء تخلّفه عن الالتحاق بكتيبته، عن غير قصدٍ منه، وبفعل ظروفٍ لم يكن له سلطةٌ عليها.

وقرعت المرأة باب منـــزل آل "ڤـــيانّي" في "درديّي". ولكنّ هؤلاء، للوهلة الأولى، توجّسوا ريبةً، وتردّدوا في استضافة تلك الغريبة، حتّى باحت لهم أنّها مرسلةٌ من قبل ابنهم، وحاملةٌ لهم منه رسالةً. وفي الحال، فتحت لها والدة "جان ماري" ذراعيها، وغمرتها بقبلٍ مبلّلةٍ بالدموع، وأكّدت أُهبتها لتوفير لها الإقامة المريحة، والعناية الكاملة، والعلاج الطبّيّ. وأسرّت لها أنّ قلقها على ابنها الغائب، احتدّ ذات يومٍ، فقصدت مرشده الروحيّ الذي طمأنها بقوله: "لا عليكِ، يا امرأة، فابنك حيٌّ، وليس مريضًا، ولن يكون، في يومٍ، جنديًّا، بل سيكون كاهنًا".

ولكنّ "ماتيو ڤـــيانّي"، لم يقاسم زوجته فرحها وارتياحها. ولم تفلح رسالة ابنه في تهدئة روعه، إذ سبق لمدير الشرطة المسؤول أن هدّده بسلبه حتّى آخر فلسٍ يملكه، عقابًا على فرار ابنه. واستهجنت الضيفة موقفه هذا، بعد أن تخيّلت أنّه سيسعد بمعرفة أنّ ابنه في مأمنٍ لديها. ولّما طلب منها إرشاده إلى عنوانه كي يجلبه ويسلّمه، بيده، للسلطات، أجابت: "حتّى لو علمتَ بعنواني، فسأُخبّئ ابنك، حيث يتعذّر عليك العثور عليه. ومن المؤكّد أنّه، هو، أثمن من كلّ ممتلكاتك".

بعد عشرةِ أيّامٍ، عادت المرأة إلى بيتها، وسُرّ "جان ماري" بالاطّلاع على أخبار ذويه. ولكنّه حزن لما أُكره على تسبيبه لأبيه من همومٍ وشدائد. وفي هذه الأثناء، كانت رغبته في الكهنوت ما برحت متّقدةً في نفسه. فقرّر استعادة كتبه، والإكباب على الدراسة التي أهملها. وكان قد بلغ الرابعة والعشرين من سنواته، ومازالت النصوص اللاتينيّة وقواعدها عصيّةً على فهمه وذاكرته. فاستعان بخوري قرية منفاه، وبنصائحه، متسلّحًا بالصبر والمثابرة، والصلاة.

وفيما هو يصارع، في منفاه، هذه العوائق، زفّ إليه مرشده بشرى تحرّره من ملاحقة السلطات، وانتظار قريتي "درديّي" و"إيكويّي"، عودته.

هذا الانقلاب تحقّق إثر انتصار نابوليون على النمسا، وعقد قرانه بالأرشيدوقة ماري لويز، وإعلان الهدنة، وسيادة السلام في أوروبـــا، والانفراج العامّ، والتراخي في ملاحقة المتخلّفين عن الخدمة العسكريّة، وفي معاقبتهم، وقد أسهم في إنقاذ "جان ماري" من الملاحقة والعقوبات، تطوُّع أخيه الأصغر للخدمة بديلاً عنه، لقاء مبلغ ثلاثة آلاف فرنكٍ تُقطع من حصّة "جان ماري" من إرث والده.

ولكن الشابّ الإكليريكيّ ارتأى إرجاء موعد عودته آملاً أن يُخمد الزمن حنَق والده، ويطمس ذكرى تخلّفه عن الخدمة في ذهن الضابط الذي كان مكلّفًا بتعبئته للخدمة العسكريّة، والذي انتقم من والده المسكين شرّ انتقامٍ. أمّا "جان ماري"، فانتهز تلك الفرصة المتاحة كي يردّ بعض جميل مضيفيه، فساعد في حصاد الغلّة،

وفي إعداد التربة للخريف. وسعد الجميع بمكوثه فترةً إضافيّةً. ولكن، لمّا انتشر نبأ اعتزامه مغادرة القرية انقبضت قلوب أبناء الأُسرة التي استضافته، وخيّم الوجوم على سواد أبناء القرية الذين أكبروا خصاله، ونبله، ومحبّته، فتكاتفوا على تقديم هديّةٍ لائقةٍ له، وخاطوا للكاهن العتيد جبّةً سوداء، وألبسوه إيّاها، وقدّموا له الكثير ممّا قد يحتاج إليه في مهمّته وفي عيشه. فقدّمت له مضيفته مناشف كانت قد أُهديتها بمناسبة عرسها، ولم تستخدمها. وتبرّعت له عجوزٌ بمبلغ ثلاثين فرنكًا، تردّد في قبوله، خشية أن تكون العجوز قد استدانته، ولكنّها أكّدت له أنّ ذلك المبلغ كان ثمن خنـــزيرٍ باعته، محتفظةً بعنـــزةٍ تكفيها.

تأهّبٌ للكهنوت

في مطلع عام ١٨١١، بعد وداعٍ مبلّلٍ بالدموع، غادر الإكليركيّ منفاه، حيث خلّف انطباعًا طيّبًا لم تمحُه السنون. فظلّ أبناء تلك القرية يحجّون إلى مدفنه بعد انقضاء عشرات السنين، مشيدين بورعه وطيبته. ولم يساور ذهن أحدٍ منهم شكٌّ بأنّ تخلّفه عن الخدمة العسكريّة كان إراديًّا، بل كان يسكنهم اليقين بأنّه كان تدبيرًا من العناية الإلهيّة. ورغبت مضيفته، التي غدت له بمثابة أُمٍّ، راغبةً في مواكبته، وإيداعه بين يدي والدته، ولكنّ المرض أقعدها عن ذلك، فتطوّع ابنها الأكبر لمرافقته حتّى بيت ذويه، حيث ضمّته والدته بتأثّرٍ بالغٍ، وبقلبٍ طالما أدماه غياب ابنها الحبيب، وقلقها عليه. وقد غمرها سعادةٌ طاغيةٌ بعودة ذلك الذي طالما رأت فيه الكاهن الذي تعتزّ به. ولكن شابَ فرحَها هاجس اضطراره إلى البعاد عنها مجدّدًا، على درب الكهنوت. وفي الواقع كانت عودته عودة وداعٍ؛ فما هي سوى أيّامٍ معدوداتٍ حتّى انطفأت تلك الأمّ البارّة، يوم الثامن من شباط. وقد حفر ذلك الحدث في نفس الشابّ ذكرى كانت تستدرّ سيول دموعه كلّما استرجعها أو تحدّث عنها. ولطالما صرّح أنّه، إثر فقده والدته، لم يتعلّق بأيّ شيءٍ في الدنيا. ولا ريب أنّه، بفقدها، فقدَ نجيّته الوحيدة التي كان يُفرغ همومه بين يديها، والمُدافعة الوحيدة عنه وعن أهدافه لدى والده الغاضب الدائم، والذي كانت هموم العيش طاغيةً على ذهنه.

أمّا في رعيّة "إيكوِيّي" فكان عارمًا فرح عودة الابن البارّ، التي لم يشكّ، قطّ، في تحقيقها مرشده الروحيّ، الأب "بالّي"، الذي ثابر، طوال ستّة عشر شهرًا، على دعوة المؤمنين إلى تلاوة صلاةٍ يوميّةٍ من أجل عودة الطالب الإكليريكيّ. ولّما عاد "جان ماري" استبدل الإقامة في بيت خالته بالإقامة داخل دار الرعيّة، حيث توفّرت لمرشده مراقبة دروسه، ومساعدته، والتعويض عن الوقت المهدور.

لقد تقاسم الكاهن وربيبه عيشةً مغرقةً في التقشّف، والغوص في لجج الروح. فالأب "بالّي"، القادم من ماضٍ رهبانيٍّ، لم يفقد شيئًا من روح النسك، والزهد، والتجرّد، ولم يكن التلميذ راغبًا في شيءٍ أكثر من رغبته في مجاراة معلّمه في كلّ هذه. فشاركه وجباته المتقشّفة، وأصوامَه، وتأمّلاته المتمادية. وبالمقابل كان يؤدّي لمعلّمه خدماتٍ يوميّةً، معتنيًا بالحديقة، في أوقات فراغه، ومساعدًا له أثناء الطقوس الكنسيّة، ومرافقًا له في جولاته الراعويّة.

كان الشابّ قد بلغ الخامسة والعشرين، فاستعجل مرشده تقديمه إلى الهيكل، وأتاح له أداء نذره الأوّل يوم ١٨١١/٥/٢٨، وكانت تلك خطوته الأولى صوب الكهنوت. وكان، هو، شديد الحرص على التمثّل بمرشده الذي عهد عنه إجلاله للأسرار، وطالما شاهده يبكي أثناء إقامته الذبيحة الإلهيّة، وكان شاهدًا يوميًّا على توغّله في دنيا الزهد والفضائل، والتقوى، والبساطة. وبالإجمال كان ذلك الكاهن خير مدرسةٍ روحيّةٍ لخير طالبٍ إكليريكيٍّ.

وفي النصف الثاني من عام ١٨١٢، ارتأى الأب "بالّي"، أن يجتاز طالبه خُطوةً أُخرى في المسيرة الأساسيّة نحو الكهنوت، المتمثّلة في سنة دراسةٍ لمادّة الفلسفة، وسنتين لدراسة اللاهوت، ولا سيّما أنّ رعايا كثيرةً كانت مفتقرةً إلى رعاةٍ. وأوفده إلى إكليريكيّةٍ كانت غاصّةً بفيضٍ من الإكليريكيّين الذين أُغلقت إكليريكيّاتهم.

وسرعان ما تبيّن "جان ماري" أيّة محنةٍ كان يواجه. فقد كان أكبر الإكليريكيّين سنًّا، بل أكبر سنًّا من أساتذةٍ كثُرٍ. وفضلاً عن ذلك لم يلبث أن تجلّى للعيان هزال زاده الثقافيّ، حين طُرح عليه، للمرّة الأولى، سؤالٌ لم يفهم معناه، لأنّه كان مطروحًا باللغة اللاتينيّة، المفروضة حينذاك في الإكليريكيّات، والتي لم يكن يفقه منها كلمةً، ويلقى عنتًا حتّى في البحث عن معناها في القاموس. تعذّر عليه، إذن، الردّ على السؤال، ولبث أصمّ، خجلاً، رازحًا تحت وقر ضحكات السخريّة التي سرت من مقعدٍ إلى مقعدٍ، وملأت جوّ القاعة.

افتُضح فقره الثقافيّ، ولكن لم يخفَ على أحدٍ تفوّقه على جميع أترابه في علوم القدّيسين: التواضع، والورع، والتجرّد، والحكم السديد، والتمييز الصائب، والحدْس الثاقب، والقدرة على حلّ القضايا الإنسانيّة المستعصية، وبالإجمال جميع الخصال التي يقوم عليها كهنوتٌ فاعلٌ مثمرٌ.

وحرصًا على مساعدته، نظّمت الإكليريكيّة له ولحفنةٍ من رفاقه الذين كانوا يصطدمون باللغة اللاتينيّة صفًّا خاصًّا للتدريس باللغة الفرنسيّة. غير أنّ الجهود الشاقّة التي بذلها في استيعابٍ أفضل، لم تؤتِ ثمارًا مرضيةً، وظلّ تقييمه الدراسيّ: "طالبٌ ضعيفٌ جدًّا".

وإلى الخجل الذي كان يسيله إلى نفسه هذا التقييم، أُضيف سبب خجلٍ آخر، هو فقره، واعتباره طالبًا مجّانيًّا، إذ إنّ والده الذي كان يعدّه علّة كلّ متاعبه وكوارثه، أبى إنفاق فلسٍ واحدٍ على تعليمه الإكليريكيّ.

أجل، مع جهوده المضنية، ظلّ "طالبًا ضعيفًا جدًّا"، ولكنّه أثبت للجميع أنّه إكليركيٌّ ممتازٌ. وكان بوسعه تبنّي قول الشاعر الإيطاليّ "جاكوبـــوني دي تودي" (Jacopone de Todi): "أدع لكم أساليب الجدل والقياس، وألاعيب الكلام، والحسابات الدقيقة، والفنّ الذي يملك أرسطو سرّه. فالذهن البسيط الطاهر يسمو بذاته، بمعزلٍ عن عون الفلسفة، ويرقى حتّى حضور الله".

وفي الواقع، كان حضور الله له منبع العزاء والرجاء الوحيد. فإن استخفّ به البشر، إلاّ أنّ هناك ذراعيْن حانيتيْن مشرعتان للترحيب به، واحتضانه ومواساته. إنّهما ذراعا الصديق السماويّ الأمين، المتعاطف مع خلجات القلوب، وشافي الجراح النازفة، الذي لا يردّ من يلجأ إليه. ومن ثمّ أمست كنيسة الإكليريكيّة الصغيرة ملجأه ومثابه، حيث يرتمي في أحضان من يخفّف أوجاعه وأعباءه، ويكفكف دموعه الصامتة، بعيدًا عن الأنظار والآذان. وهناك، كان يستحضر روح

أُمّه ويبوح لها بهمومه، ويلتمس أيضًا غوث الأُمّ الأُخرى، دائمة الحضور، التي تستجيب لاستغاثات أبنائها، العذراء التي عوّضته عن أُمّه الدنيويّة. وشيئًا فشيئًا نضج في ذهنه نذر العبودية العذبة للعذراء، الذي تفتّقت عنه تقوى القدّيس "لويس ماري غرينيون دي مونفور"، وتبنّته كوكبةٌ من القدّيسين، ربّما أبرزهم يوحنّا بولس الثاني، الذي جعل منه شعار حياته: "إني بكلّيّتي لك" (Totus Tuus).

ومع كلّ ما لقيه إكليريكيُّنا من عنتٍ في دروسه، ومن تهكّم بعض أترابه، ارتاح كثيرون آخرون لمعشره الدمث، واستساغوا أحاديثه العذبة عن الله والعذراء. وجديرٌ بالتنويه أنّ أبرز من عقد معهم، في تلك الحقبة، صداقةً وطيدةً، هو "مارسلان شامـــپـــانيا" مؤسّس جمعيّة "إخوة مريم الصغار"، الذي أعلن البابا القدّيس يوحنا بولس الثاني قداسته عام ١٩٩٩. وقد تقاسم ذانك القدّيسان طائفةً من الجوامع المشتركة، ومن الفضائل المشرقة، والتي لم تلفت أنظار مسؤولي الإكليريكيّة، آنذاك، ولا سيّما أنّ "جان ماري ڤـــيانّي" كان حريصًا على التواري عن الأنظار، وعلى إخفاء فضائله، وعلى الامّحاء.

ومن المحقّق أنّ دراسة الفلسفة المستوحاة من "ديكارت" لم تستهوِ "جان ماري". ولكم سعد، في شهر تمّوز ١٨١٣، بالعودة إلى قرية "إيكويّي"، وإلى مرشده الأب "بالّي". وكانت أشهر العطلة والنقاهة التي قضاها هناك، أسعد فسحةٍ تذوّقها في حياته، وآخرها. ولكم تبادل مع مرشده الهواجس والأحلام! فمع إقرارهما بوعورة طريق الكهنوت، كانا موقنين أنّ بلوغ الهدف لم يعد بعيد المنال، وأنّ، على ذرى ذلك الهدف سيتسنّى للشابّ الطالب التنفّس ملء رئتيه. فللعناية بالنفوس طعمٌ مختلفٌ عن طعم النصوص اللاتينيّة. ومنذئذٍ شرع الأب المرشد يُعدّ ربيبه للإكليريكيّة الكبرى، مزوّدًا إيّاه بدروسٍ مكثّفةٍ في اللغة اللاتينيّة ومصطلحاتها، ومطلعًا إيّاه على مبادئ اللاهوت الأساسيّة.

وفي شهر تشرين الأوّل ١٨١٣، التحق "جان ماري ڤــياني" بالإكليركيّة الكبرى، في مدينة ليون. ومنذ الأيّام الأولى اصطدم بعقبة حرص المسؤولين الكنسيّين، حينذاك، على أناقة الهندام، والعناية المفرطة بلباقة المظهر. ففي هذين الميدانين كليهما كان طالبنا القرويّ متخلّفًا. ولكنّه، في ميادين أُخرى، أجلّ شأنًا، كان متقدّمًا ومجلّيًا. فهو، مع كَلَفه بالكتمان، لفت الأنظار إلى ورعه، وتواضعه، وامّحائه، وتجرّده، وإمعانه في إماتة الذات. وقد كتب أحد رفاقه، حينذاك، أنّه، لو حاكاه، وحذا حذوه المئتان وخمسون طالبًا الذين ضمّتهم الإكليريكيّة، آنذاك، لغدت الإكليريكيّة دير نسّاكٍ حبيسين. وشهد أترابه أنّه كان أبعدهم عن الفضول الدنيويّ، مشعًّا دائمًا بالقداسة.

غير أنّ العقبة الكأداء التي عجز عن تذليلها وتخطّيها، مع كلّ ماانفكّ يبذله من جهودٍ مضنيةٍ، ظلّت هي اللغة اللاتينيّة. ولا ريب أنّ مثابرته على الجهد، وإن لم تُؤتِ ثمارًا آنيّةً في دروسه، قد أعدّته، خير إعدادٍ، لرعاية النفوس. وقد أدرك عديدون من رفاقه أنّ الصعوبة التي كان يعانيها في هذه المادّة، لم تكن بسبب تلبّدٍ في ذهنه، بل لافتقاره إلى دراسةٍ أساسيّةٍ منتظمةٍ، في صغره، إذ إنّهم عندما كانوا يحدّثونه باللغة الفرنسيّة كانوا يُعجبون بسداد حكمه، ورجاحة عقله.

في الإكليريكيّة الكبرى عقد علاقات صداقةٍ مع ثلّةٍ من الرفاق المخلصين، وتطوّع كلٌّ منهم لمساعدته في مادّةٍ دراسيّةٍ، واحتفظوا جميعهم عنه بأطيب ذكرى وأبقاها. وأشفق عليه أحد المعلّمين ففسّر له اللاهوت، من خلال كتابٍ موضوع باللغة الفرنسيّة، ولّما حاول امتحانه، تبيّن له حسن فهمه، ودقّة أجوبته وصحّتها، مع إيجازها. ولكن لم يكن مهربٌ من الامتحان الرسميّ باللغة اللاتينيّة، فاتّضح عقم كلّ ما بذله من جهودٍ بفهمها.

هذا الفشل كان يمزّقه، وبلغت أزمته ذروتها عندما أعلن الفاحصون أنّ الطريق أمامه مسدودٌ، ونصحوه بالتخلّي عن هدفه!

وكانت المفارقة صادمةً. ففي الإكليريكيّة كلّها لم يكن أشدّ منه توقًا إلى الكهنوت، وفي الآن عينه كان يبدو أبعدهم عن بلوغه. ذاك الطالب الذي سيثوي رفاته بين مدافن أعظم قدّيسي الكنيسة الكاثوليكيّة، تحت قبّة كاتدرائيّة القدّيس بطرس في الــڤــاتيكان، نُصح بالتخلّي عن السعي إلى الكهنوت!

صحيحٌ أنّ نصحه بالتخلّي عن هدفه لم يكن يعني إقصاءً مبرمًا عن الكهنوت، وكان يفسح له مهلةً لا تتجاوز ستّة أشهرٍ كي يحسن التأهّب لفحصٍ أخيرٍ. ولكن أنّى لأشهرٍ معدوداتٍ أن تقوى على نسف سدودٍ منيعةٍ صامدةٍ في ذهنه، صادّةً تسلّل اللغة اللاتينيّة إليه؟!

هدّت الطعنة الطالب الشابّ، وأحزنت الكثيرين من أترابه الذين لم يطيقوا فكرة إبعاد تلك الجوهرة الفريدة عن موقعها الطبيعيّ، لأسبابٍ غير جوهريّةٍ. أمّا هو فقد تلقّى الحكم بتواضعٍ مدهشٍ، ولم يثُر عليه، مع أنّه أوقعه في حيرةٍ قاتلةٍ. فعودته إلى مرشده، الأب "بالّي"، ناعيًا النبأ المفجع، كان أقوى من طاقته على الاحتمال، والعودة إلى المنــــزل الأبويّ كانت بعيدةً عن التخيّل، والرغبة في تكريس ذاته، كلّيّةً لله ماانفكّت هي المهيمنة على نفسه، والآخذة بكيانه كلّه.

وفيما هو يدور داخل هذه الدوّامة الممزّقة، ومضت في خاطره بارقةٌ أنقذته من حيرته القاتلة. فقد لاح في ذاكرته رفيقٌ قديمٌ له كان قد انضوى حديثًا إلى جمعيّة إخوة المدارس الكاثوليكيّة. وفي الحال جرى إلى تلك المؤسّسة، وطلب من رفيقه أن يجد له أيّ عملٍ وضيعٍ، فيها، واستمهل بضع ساعاتٍ كي يعود من "إيكويّي" بأمتعته وكتبه، ويستقرّ في الجمعيّة، حيث سيتسنّى له تكريس ذاته لخدمة الله، بصفة أخٍ صغيرٍ، بعد أن أوصد دونه باب الكهنوت الملوكيّ.

وحينئذٍ استعاد جرأة العودة إلى مرشده الأب "بالّي"، فارتمى على صدره، باكيًا، وباح، بين يديه، بكلّ ما كان يصطرع في نفسه. ولكن الكاهن الشيخ، الذي طالما خاض صراعاتٍ حادّةً، مذ قرّر مقاومة تدابير الثورة المعادية للكنيسة،

وصارع أمواجًا عاتيةً من الشدائد، لم يشارك ربيبه استسلامه للفشل، ولا سيّما بعد أن لمس لديه تحرُّقًا إلى خدمة النفوس من خلال الكهنوت، وخبَر احتياجات الناس إلى كهنةٍ يتميّزون بسموّ قداستهم، وغيرتهم في الخدمة، وصلابة إيمانهم أكثر من تميّزهم بعلوم الدنيا، وممارسة اللغات. فشدّ من عضد الشابّ، وسكّن روعه، وأكّد له أنّ الله قد دمغه ليكون خادم هياكله، وأوعز إليه أن يكتب، في الحال، إلى صديقه "الأخ"، ويرجوه كتم ما كان قد أسرّ له به بشأن اعتزامه الانضواء إلى جمعيّة الإخوة الصغار، لأنّه عازمٌ على مواصلة دروسه اللاهوتيّة حتّى بلوغ الكهنوت. وأكّد الكاهن تصميمه على فعل كلّ مستطاعٍ، واستخدام كلّ ما له من نفوذٍ وصداقاتٍ كي يوصله إلى الهدف المرتجى.

حدث ذلك في شهر نيسان، وموعد الامتحانات اللاهوتيّة محدّدٌ في نهاية شهر حزيران، وبالتالي ثمّة متّسعٌ من الوقت لتمكين الطالب الشابّ من إحراز بعض تقدّمٍ، في فهم اللاهوت يساعده على اكتساب الحدّ الأدنى من مؤهلات عبور الامتحان. واستعان على ذلك بكتابٍ باللغة الفرنسيّة يسهّل عليه الأمر. ومع ذلك مازال الشابّ ضحيّة شكوكٍ في قدراته العلميّة، كانت تملأ نفسه كمدًا وغمًّا، وفَرَقًا على المستقبل الذي يتوق إليه بكلّ أوتار كيانه. ولكنّ الله كان يتداركه بغوثه، وكان صوتٌ داخليٌّ لا يني يهمس في أذنه: "اطمئنّ، فستصبح كاهنًا".

بضعة أيّامٍ قبل موعد الامتحان، عاد "جان ماري" إلى الإكليريكيّة، التي امتدّ غيابه عنها، وسعد رفاقه القدامى بلقائه. بيد أنّ مخالب الخوف كانت مابرحت ناشبةً بنفسه، ويوم الامتحان، جلس في صدر القاعة، منتظرًا استدعاءه، ولمّا مثل أمام لجنةٍ مهيبةٍ ضمّت أرفع الأساقفة والأساتذة علمًا، اصطكّت ركبتاه، وغشى الضباب فكره، وطرحت عليه أسئلةٌ باللغة اللاتينيّة، لم يحسن فهمها، فارتبك، وجاءت أجوبته مضطربةً، متعثّرةً في غير مكانها، وتأكّد فشله. ولمّا عاد، مساءً إلى دار الرعيّة، ولحظ مرشده سحنته المكفهرّة أدرك أنّ الدرب سُدَّ، ثانيةً، دون ترقيته

إلى رتبة الشماس وصولاً إلى الكهنوت. ومع ذلك لم يُيَئِّسْه، بل سكّن روعه، ودعاه إلى الثقة به، والاعتماد عليه.

وكان أعضاء اللجنة الفاحصة مطّلعين على رفعة علم مرشده، الأب "بالّي"، وعلى فضائل الإكليركيّ المتقدّم للامتحان وورعه. فهل يحكمون عليه برفضٍ قاطعٍ، وهم يلمسون التهاب رغبته الصادقة في الخدمة الكهنوتيّة؟ اتّقاءً من ارتكاب خطأٍ جسيمٍ تركوا له خيار الترشّح لدى رعيّةٍ أُخرى، إذا تسنّى له أُسقفٌ يقبله في أبرشيّته.

ومنذ صباح اليوم التالي شخص الأب "بالّي" إلى ليون، والتمس نصح الكاهن الذي سبق له أن استمع إلى اعتراف "جان ماري ڤـيانّي" الأوّل، في منزل ذويه، تمهيدًا لمنحه المناولة الأولى، والذي كان يشغل، آنئذٍ، منصب أمين سرّ الأُسقف، ومعًا قصدا النائب الأُسقفيّ وبسطا بين يديه، بوضوحٍ، قضيّة الإكليريكيّ "ڤـيانّي"، مبيّنين ومؤكّدين أنّه ربّما الأقلّ ثقافةً بين أترابه، ولكنّه، بلا مراءٍ، من أسماهم فضيلةً، وغيرةً مقدّسةً. وأوضحا أنّه يجد عنتًا في استيعاب دقائق اللغة الفرنسيّة، فلا مبرّر لإكراهه على تعلّم اللاتينيّة، ولا جدوى من هذا الإكراه. فارتضى أن يمتحنه، مجدّدًا، صباح اليوم التالي، في رعيّة "إيكويّي"، في جوٍّ أليفٍ مريحٍ، مجرّدٍ من الرهبة المخيفة. وطرح عليه أسئلةً باللغة الفرنسيّة، فأجاب عليها، بثقةٍ، أجوبةً مرضيةً.

وعليه وضع النائب الأُسقفيّ تقريرًا إيجابيًّا، بيّن فيه كلّ ملابسات الإكليركيّ "ڤـيانّي"، وبرفقة الأبوين "بالّي" و"غروبوز" قدّمه إلى الأُسقف الذي اكتفى بالاستيضاح عن مدى ورع الشابّ، وتكريمه للسيّدة العذراء، وطريقة تلاوته للمسبحة، فأكّدوا، جميعهم، أنّه، في هذه الميادين كلّها، يصلح قدوةً للجميع. فأعلن الأُسقف:

"إذن، أنا أدعوه، وأرحّب به. والنعمة الإلهيّة كفيلةٌ بإكمال ما ينقصه!".

هذا التحوّل الجذريّ في مسيرة دعوة "جان ماري ڤـيانّي"، انحفر عميقًا في نفسه، ولم ينسَ، قطّ، ثقل تأثير، الأب "بالّي" في تحقيقه. ولكنّه كلّما ذكره، كان يعلّق، مازحًا: "يبقى على الأب "بالّي" تبرير تكفّله جاهلاً زريًّا مثلي!".

وكان الشابّ، آنذاك، قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره، فلا بدّ من تسريع الخطوات المفضية إلى السيامة الكهنوتيّة. فعاد إلى الإكليريكيّة كي ينال رتبتي الشمّاسيّة الرسائليّة فالإنجيليّة، الممهّدتين لرتبة الكهنوت، وكي يتأهّب للاحتفال بالمصير السامي الذي طالما حلم به، وسعى في سبيله.

يوم الثاني من تمّوز ١٨١٦، تقدّم الشابّ، متّشحًا بحلّةٍ بيضاء، لرتبة شمّاسٍ إنجيليٍّ، مجتازًا الخطوة الرمزيّة التي تنتزعه من الحياة الدنيويّة. وبلمسه كأس التكريس الفارغ التزم بنذر البتوليّة. وقد شهد أحد الذين واكبوه في ذلك الاحتفال، أنّه كان يضجّ حماسًا وفرحًا، وهو ينشد نشيد الشكر، فلم يتمالك ذلك الشاهد أن قال له: "وأنت ستكون نبيًّا للعليّ". فقد كان حدْسه ينبئه أنّ ذلك الشمّاس، مع هزال زاده من العلم، سيحقّق في ميدان الرعاية إنجازاتٍ عظمى. هذا الحدْس تقاطع مع التوصية التي كان قد بعث بها النائب الأُسقفيّ في ليون إلى أُسقف غرينوبل، وحيث أقرّ: "لا تحتاج الكنيسة إلى كهنةٍ علماء، فقط، بل أيضًا وخاصّةً، إلى كهنةٍ أتقياء".

وبترقّيه إلى رتبة شمّاسٍ إنجيليٍّ، غمر روح القوّة كلّ أركان نفسه. وكان إلى جانبه شمّاسان، تسنّما، أيضًا، قمّة القداسة، هما مؤسّس جمعيّة "الإخوة المريميّين" "جان كلود كولان" (Jean Claude Colin)، ومؤسّس جمعيّة "إخوة مريم الصغار"، "مارسلان شامـــپـــانيا" (Marcelin Champagnat)، اللذان طوّبهما البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني.

كان الأب "بالّي"، حينذاك، يشعر بتدهور صحّته، وكان راغبًا في اتّخاذ ربيبه مساعدًا له ونائبًا، يكسبه شيئًا من خبراته الراعويّة، ويكمل تثقيفه اللاهوتيّ قبل رحيله عن هذه الدنيا. فطالب بإعفائه من السنة التمهيديّة الإضافيّة التي كان يخضع لها الشمّاس الإنجيليّ قبل السيامة الكهنوتيّة، ونظرًا للفضائل النادرة التي تميّز بها الشمّاس "ڤـــيانّي"، لبّى الأُسقف طلب الأب "بالّي" بشرط أن يخضع الشمّاس لامتحانٍ يجريه بنفسه. واستغرق ذلك الامتحان أكثر من ساعةٍ، وطرح الأُسقف طائفةً من الأسئلة المتّصلة باللاهوت الأدبيّ، وجاءت أجوبة الشمّاس ممعنةً في الدقّة والصواب، والوضوح، وفاقت، بلا قياسٍ، معلوماته الفلسفيّة واللغويّة. ووافق الأُسقف على منحه السيامة الكهنوتيّة في الحال، على أن يتولّى الأب "بالّي" إكمال تثقيفه اللاهوتيّ، وألاّ يُمنَح سلطة سماع الاعترافات وغفران الخطايا، إلاّ بعد فترة اختبارٍ، واقتناع الرؤساء الكنسيّين بأهليّته لتلك السلطة. ويبدو الآن من سخريّة الأقدار أن يتحفّظ أُسقفٌ على منح سلطة سماع الاعترافات ومنح الحلّة لكاهنٍ أمضى جُلَّ زمن كهنوته حبيس كرسيّ الاعترافات، وتقاطرت إليه مواكب التائبين من كلّ دانٍ وقصيٍّ، حتّى ذهل عن الطعام، والنوم، وفقد الراحة والصحّة، وفاءً لهذه المهمّة الخلاصيّة السامية.

الكاهن الجديد

وحُدّد موعد الرسامة في ١٣ آب ١٨١٥، بيد أُسقف غرينوبل، بسبب غياب أُسقف ليون القسريّ. وتأهّب الشمّاس لهذا الحدث برياضةٍ روحيّةٍ طافحةٍ بالخشوع، والتأثّر، وعرفان الجميل للنعم الإلهيّة، ولجميع الذين ساعدوه على بلوغ هدف حياته. ويومين قبل الموعد، يمّم شطر غرينوبل، قاطعًا مئة كيلومترٍ، بقلبٍ يتوثّب اندفاعًا، ويطفر فرحًا بدنوّ تحقيق غايته، متأبّطًا رزمةً تحتوي حلّة قدّاسه الأوّل، غير آبهٍ لا بهزاله، ولا بالقيظ اللاّهب، ولا بتجريحات الجنود النمساويّين المنتشرين على جنبات الطريق، ولا بإنذارات الحرّاس الأمنيّين المرتابين بأمره.

ومساء يوم السبت، ٨/١٢، حلّ في إكليريكيّة غرينوبل، التي وافاها الأُسقف صباح الأحد، كي يضطلع بالسيامة في كاپـيلاّ الدير. واتّفق أن سمع الأُسقف نائبه الشيخ يشكو التعب والحرّ، متسائلاً هل تستحقّ سيامة كاهنٍ واحدٍ كلّ هذا العناء، ولا سيّما أنّ الشمّاس وافى وحيدًا، لا يواكبه رفيقٌ ولا قريبٌ. وحدّق الأُسقف إلى وجه "جان ماري ڤـيانّي" النحيل الذي صقله التقشّف، وأشعّ منه التقى والنقاء، فردّ على نائبه:

– "أجل، إنّ سيامة كاهنٍ بارٍّ تستأهل كلّ عناءٍ".

يوم ارتقى الكاهن الجديد درجات هيكل الربّ، كان قد تخطّى مراحل الهواجس، والتساؤلات الممضّة، والفشل، والدموع. ومنذ تلك اللحظة عدّ نفسه آنيةً مكرّسةً، جسدًا ونفسًا، لخدمة الربّ حصرًا. وطافت بخلده نجاواه لوالدته القدّيسة، وتمنّياته: "إذا صرت كاهنًا، فسأعمل على خلاص نفوسٍ عديدةٍ". وكانت طغماتٌ من النفوس تنتظره.

يومئذٍ لم يتسنّ له البوح بأمواج المشاعر التي كانت تجيش وتتلاطم في داخله،

ولكنّه، لاحقًا، أثناء دروسه الدينيّة، كان بعض تلك المشاعر يتفجّر تلقائيًّا من أعماقه، عبر أقوال مثل هذه: "آه! كم الكاهن شيءٌ عظيمٌ! لا يُدرَك ما هو الكاهن، حقًّا، إلاّ في السماء... لو أدرك الناس ذلك، على الأرض، لماتوا، لا خوفًا، بل حبًّا!".

ولا ريب أنّ الشوق كان يشدّه، آنذاك، إلى قريته وذويه. ولكنّ شدّة تكريمه للأُمّ السماويّة، أقعدته عن السفر في أقدس عيدٍ من أعيادها، عيد انتقالها، فاحتفل بقدّاسه الأوّل، وبعيد انتقال السيّدة العذراء، على نفس الهيكل الذي تلقّى عند عتباته سرّ الكهنوت.

في رعيّة "إيكويّي" كان معلّمه ومرشده ينتظره بشوقٍ، ولّما جثا الكاهن الجديد أمامه كي ينال بركته، زفّ له البشرى السعيدة: فقد أجمع مسؤولو الأبرشيّة على تعيينه خادمًا مساعدًا لرعيّة "إيكويّي". هذا التعيين كان يعني بقاءه إلى جانب مرشده، ومساعدته في الخدمة، ومواكبة أيّامه الأخيرة، وسيوفّر له حظوة إغماض عينيه.

وفي مسقط رأسه، كانت فرحة سيامته طاغيةً، وقد محت كلّ آثار الريَب والصدامات السابقة، غير أنّ غصّةً خانقةً استحوذت على نفس الكاهن الجديد، بسبب غياب حضور النفس الحبيبة الطاهرة، التي كان لها الفضل الأكبر في إيصاله إلى هذا الهدف السامي. وقادته عواطفه إلى المدفن حيث قضى ساعاتٍ أمام قبر الراحلة الغالية، باكيًا، مسترحمًا، شاكرًا.

ولم تكن البهجة أدنى أثرًا، ولا أخفّ وقعًا على القرية التي كان قد لجأ إليها أثناء فراره القسريّ من الخدمة العسكريّة، ولا سيّما لدى الأُسرة التي استضافته والتي سارع وفدها إلى تهنئته.

وغمرت السعادة نفوس مؤمني "إيكويّي"، بتولّي ذلك الكاهن الجديد خدمتهم الروحيّة، إلى جانب راعيهم القدّيس، وهم الذين تسنّى لهم تقييم سلوكه المثاليّ خلال الفترة التي أمضاها في قريتهم، مصارعًا كتب اللاتينيّة، والفلسفة،

واللاهوت، ملتزمًا دائمًا بالاستقامة، والتقشّف، والعفّة، والنقاء. وشقّ عليهم، في الأشهر الأولى، الاكتفاء بنصائحه وإرشاداته، خارج كرسيّ الاعتراف، ريثما مُنح سلطة غفران الخطايا، نزولاً عند إلحاح الأب "بالّي"، وبضمانته. وحينئذٍ كان ذلك الكاهن الشيخ الجليل، الممتلئ زهدًا، وحكمةً، وخبرةً، وقداسةً، أوّل من ركع في كرسيّ اعتراف الأب "ڤـــيانّي"، الذي طالما رأى فيه مختار الله، وباح له بهواجسه، وبخفايا نفسه، بعد أن لمس عمل النعمة فيه. ولا ريب أنّ الأب "بالّي"، بركوعه في كرسيّ اعتراف ربيبه وتلميذه ومساعده، كان الحلقة الأولى والأجمل في سلسلةٍ ماانفكّت تمتدّ، وتتمادى، ضامّةً معادن من كلّ لونٍ، وكلّ جوهرٍ، وكلّ مصدرٍ.

قبل منحه سلطة الغفران، وانغماسه في كرسيّ الاعتراف، كان الكاهن الجديد قد أولى اهتمامه لتعليم الصغار مبادئ المسيحيّة. ومنذئذٍ لازمه وَلَعه بالتحدّث إلى الصغار وتعليمهم. وكان يعينه على إجادة القيام بهذه المهمّة، نزعته العمليّة، وميله إلى استخدام أمثلةٍ وصورٍ يستوحيها من الحياة اليوميّة، وترصيع أحاديثه بعباراتٍ وألفاظٍ باللهجة العامّيّة، تسبغ على أقواله نكهةً مستساغةً، وتجعلها قريبة المنال، سهلة الاستيعاب.

وكانت رعيّة "إيكوبّي" تضمّ نحو ألفٍ وخمس مئة نفسٍ، وكان راعيها الأب "بالّي"، قد تولّى خدمتها لاثنتي عشرة سنةً خلت، ومنذئذٍ عكف، بجهودٍ بطوليّةٍ، وبذلٍ لامحدودٍ، على ترميم ما خلّفته الثورة من دمارٍ في النفوس، وعلى بعث نفحةٍ روحيّةٍ جديدةٍ، داعيًا المؤمنين، بحزمٍ يلامس القسوة، أحيانًا، إلى الالتزام بوصايا الكنيسة، وبكلّ الصرامة التي كانت سائدةً حينذاك. وكان، بتأثير ماضيه النسكيّ قد حوّل دار الرعيّة إلى شبه ديرٍ، حيث الصمت إلزاميٌّ، حتّى أثناء وجبات الطعام، وحدّد للصلوات أوقاتًا، وللعمل أوقاتًا، لا يسوّغ مخالفتَها أيُّ داعٍ. وقد أقحم معاونه الجديد في هذا النظام بيسرٍ، فالرجلان كانا يقتسمان المنطلقات الروحيّة عينها.

ومنذ اليوم الأوّل وقف الأب "بالّي" ساعات الصباح على إكمال تثقيف معاونه كهنوتيًّا ولاهوتيًّا. ثمّ كانا يجولان معًا في طرقات القرية وحقولها، متفقّدين أحوال أبناء الرعيّة الروحيّة والمادّيّة، باثّين في صدورهم الطمأنينة بأنّ رعاهم ساهرون عليهم.

وفي هذه الأثناء، كانا يراجعان معًا درس الصباح، فيطرح المعلّم قضايا معقّدةً في اللاهوت الأدبيّ، ويدعو معاونه إلى استنباط حلٍّ لها، ويناقشه في استنتاجاته.

ولم يكن الأب "بالّي"، للكاهن الجديد معلّم لاهوتٍ فحسب، بل كان له مدرسة قداسةٍ. فقد كان موغلاً في الزهد والتقشّف، وحبّ الله، وسرعان ما نشبت منافسةٌ مقدّسةٌ بين الكاهنين، في هذه المضامير كلّها. وقد شهد، لاحقًا، الأب "ڤـيانّي" عن تأثير معلّمه بقوله: "لم يُظهر لي أحدٌ، خيرًا منه، كم تستطيع النفس الانعتاق من أسر الحواسّ، وكم يستطيع الإنسان التمثّل بالملائكة. وكان حسبي سماعه يهتف: "يا إلهي، أُحبّك بكلّ قلبي، كي تلتهب نفسي بحبّ الله".

وعندما تبيّن الكاهن الجديد أنّ أخاه الأكبر كان يلبس مِسحًا، التمس من خيّاطةٍ من بنات الرعيّة أن تحيك له قميصًا من شعر الماعز، ارتداه مباشرةً على جسده. وامتنع عن تناول النبيذ أثناء الوجبات، وفقًا للعادة الشائعة، واقتصر طعامه على البطاطا المسلوقة، والخبز الجافّ.

أمعن الكاهنان تباريًا في الزهد والتقشّف، وغدت وجباهما من الشظف ما أقلق أبناء الرعيّة، فَرَقًا على صحّتهما وقواهما، فشكوا الأمر إلى النائب الأُسقفيّ، الذي ردّ مازحًا: "ينبغي أن تسعدوا لأنّ خادمكم ونائبه يمارسان أفعال توبةٍ نيابةً عنكم!".

ومن وسائل قمع الذات التي كان يمارسها الراهب السابق، جلدُ كتفيه، في خلوة حجرته، واخترق الأب "ڤـيانّي" سرّ معلّمه هذا، فتبنّاه، وسار عليه ما استطاع إليه سبيلاً. وبالإجمال أورث الأب "بالّي" نائبه جُلَّ ما كان قد تمرّس به، أثناء حياته

الرهبانيّة، من إماتاتٍ، وأصوامٍ، وزهدٍ، وتلقّى الكاهن الجديد هذا الإرث، تلقّي تربةٍ عطشى لغيثٍ مُحيٍ. وبكلّ اندفاع شبابه وحميّاه، أعمل فيه إخصابًا، وإثمارًا، وإنضاجًا، حتّى غدا له نهج حياةٍ دائمًا، ودافعًا على معارج القداسة.

بمحبّته وقدوته، جعل الأب "بالّي" تلميذه يدرك أنّ حبّ الكاهن لله يقتضي منه التمثّل بالفادي يسوع، إلى أقصى حدٍّ من التمثّل. ولم يلقَ مشقّةً في حمله على التزام دقّة مواعيد الصلوات المفروضة التي كانا يتلوانها معًا. وقد رسّخ في نفسه حبّ الأُمّ السماويّة، ولكي تندرج خدمتهما الكهنوتيّة تحت مظلّة السيّدة العذراء، كانا، باطّرادٍ، يتلوان المسبحة معًا. وكلّما تسنّت لهما سانحةٌ كانا يحجّان إلى المزار المريميّ، الجاثم على قمّة "فورڤـــيير" في مدينة ليون. وكانا ينسخان صلواتٍ مريميّةً، ويضعانها بين أيدي المؤمنين.

وكان أبناء رعيّة "إيكويّي"، حالما تنامى إلى علمهم أنّ الكاهن الجديد خُوِّل سلطة سماع الاعترافات، ومنح بركة الغفران قد حاصروا كرسيّ اعترافه، وكان اندفاعه إلى تلبية رغباتهم ينسيه حتّى موعد تناول طعامه، وسرعان ما أضحى إهماله لوجبات غذائه عادةً جاريةً. ولكنّه، بالمقابل، كان يتذوّق عزاءً أخّاذًا، وهو يشهد الانقلابات الروحيّة الجارية في الرعيّة.

ومع ذلك ماانفكّ يولي التعليم الدينيّ اهتمامًا جوهريًّا، وأضحى يُعدّ دروسه بدقّةٍ، ويفسّرها بعنايةٍ وتؤدةٍ، ويستصحب إلى مكتبه من يصعب عليهم الاستيعاب، ويستبحر في الشرح والإيضاح بصبرٍ لا عهد له بملَلٍ.

وشيئًا فشيئًا، تنازل له الأب "بالّي" عن العديد من واجباته الراعويّة الخطيرة. وفي مطلع عام ١٨١٧، عندما أقعده المرض، كلّفه بكلّ المهامّ الراعويّة.

ومن كلّ هذه المهامّ كان الوعظ أكثرها مشقّةً، وإقلاقًا للكاهن الجديد. ففي تلك الأيّام كان الوعظ مادّةً أساسيّةً في الخدمة الراعويّة. وكان يُقتضى ألاّ تقلّ

مدّة العظة عن ثلاثة أرباع الساعة. وفيما كان الأب "بالّي" خطيبًا مفوّهًا، رحب الفكر، طلق اللسان، كان نائبه الشابّ متلعثمًا، خجولاً، متلجلجًا، فضلاً عن أنّ صوته المخدوش، كان يجرح الآذان، ويُتعب برتابته. وجهد الكاهن الشيخ في معالجة هذه العلّة لدى نائبه، فزوّده بنصوصٍ لأكبر الوعّاظ وأقدرهم. والأب "ڤــياني" على نقيض كهنةٍ مبتدئين آخرين كانوا يتلون هذه النصوص بحذافيرها، كان يجهد في اقتباس مقطعٍ من نصٍّ، ومقطعٍ من نصٍّ آخر، محاولاً دمجها في نصٍّ واحدٍ متكاملٍ. ويقضي ساعاتٍ في استظهارها، كي يلقيها غير مستعينٍ بورقةٍ. هذه التركيبة، وحفظها غيبًا، والتمرّن على إلقائها كانت لذلك الكاهن القرويّ مصدر رعدةٍ، وأسهارٍ طويلةٍ، وجهودٍ مضنيةٍ، ولطالما اقتضى منه إعداد عظةٍ واحدةٍ نحو عشرين يومًا من الجهد والقلق.

ولا مراء أنّ عظاته، في تلك الفترة، كانت بعيدةً عن الفصاحة المبهرة؛ غير أنّ ما كان يسيله فيها من ورعه، وصدقه، وسموّ نفسه، كان يحوّل المستمعين عن هشاشة أقواله الأدبيّة، ويتجاوزونها إلى تأمّل خصاله الرائعة.

ومع أنّه لم يتردّد، في إعلان حقائق صادمةٍ، وفي إدانته الصارمة لتصرّفاتٍ شاذّةٍ عن نهج المؤمنين السابقين، ولا سيّما العادات الدخيلة التي شجّعتها الثورة اللادينيّة، وروّجت للمتع الدنيئة، وأنست المسيحيّين وصايا كنيستهم، وصلابة آبائهم، والتزام أجدادهم، كانت إرشاداته تلقى، غالبًا صدًى إيجابيًّا، لأنّ شخصه كان خير مثالٍ للفضائل التي يدعو إليها، وكان نموذجًا لنصاعة السلوك، والبساطة، والتواضع، والعطف، والنأي عن الابتذال، وممعنًا في الصلاة، وقمع الذات، وقهر الميول العكرة، وطرد كلّ خاطرةٍ تشوبها لوثة دنسٍ. وكان، منذ مباشرته الخدمة الكهنوتيّة عاكفًا، باستمرارٍ على الاستغاثة بالعذراء المنــزّهة من كلّ دنسٍ.

وكان أبناء الرعيّة قد تبيّنوا ضيق ذات اليد لدى راعيهم ونائبه، فتضامنوا من

أجل توفير مقوّمات عيشٍ لائقٍ لهما، مجّانًا أو بأسعارٍ زهيدةٍ. ولكن كلّ ما كان يصل إلى يد الأب "ڤـــيانّي"، كان يسلك طريقه إلى الفقراء الذين يجود عليهم حتّى بطعامه وثيابه. واتّفق أن أُهدي، يومًا، بنطالاً، وأوعز إليه رئيسه أن يأخذه لخيّاطةٍ كي تصلحه له على قياسه. ثمّ عاد من مشواره بسروالٍ رثٍّ قذرٍ. ففي طريق عودته صدف فقيرًا يرتعد قرًّا، فأعطاه البنطال الجديد، واستبدله بالسروال الزريّ الذي كان يرتديه الفقير.

شباب الأب "ڤـــيانّي" المتقشّف، ونشأته القرويّة الخشنة ساعداه على المضيّ قدمًا في مسيرة التقشّف وقمع الذات، حتّى أقعدته عنها، جزئيًّا، الشيخوخة، وخَوَر قواه. أمّا مرشده الأب "بالّي"، فلم يقوَ عليها طويلاً، وتجلّت عليه مخايل الشيخوخة والإعياء، ولّما يتخطَّ الخامسة والستّين. وأسهم في هدّ صحّته قرحٌ في فخذه، ألزمه الفراش، ومالبث أن تحوّل أُكالاً (غنغرينة)، أودى بحياته بتاريخ ١٨١٧/١٢/١٧. وفي هذه الأثناء كانت أعباء الخدمة الراعويّة بكاملها قد رانت على كاهل مساعده الشابّ.

وكان المحتضر، قُبَيْل وفاته، قد تلقّى الزاد الأخير من يد ابنه الروحيّ، ولّما خلت الحجرة إلاّ منهما، همس في أذنه نصائحه الأخيرة، واستلّ من ثنايا فراشه الأدوات التي كان يقمع بها جسدَه، ورجاه إخفاءَها، خشيةَ أن يكتشفها أبناء الرعيّة، ويظنّوا أنّ راعيهم قد كفّر، في حياته، عن كلّ خطاياه، فيُعرضوا عن الصلاة من أجل راحة نفسه، ويتمادى مكوثه في المطهر حتّى نهاية العالم. ويسوغ الاعتقاد بأنّ التلميذ الذي أوكلت إليه هذه الأدوات، لم يتوانَ عن استخدامها. وكان المحتضر، لّما رفع يديْه الواهنيتْن، مستنفدًا بقايا قواه، كي يبارك تلميذه قد قال له: "وداعًا، يا ابني الحبيب، تشجّع... وامضِ قدُمًا في حبّ المعلّم الطيّب، وخدمته. سنلتقي في السماء". وجثا الأب "ڤـــيانّي" أمام سرير الراحل، الذي فقد بموته، جزءًا من نفسه، ومن كان له الفضل الأكبر في إيصاله للكهنوت، وأطلق العنان لسيل دموعه.

وأظهر أبناء رعيّة "إيكويّي" رغبةً حارّةً في أن يواصل الأب "ڤــيانّي"، الذي أكبروا قداسته، خدمة رعيّتهم بصفة راعٍ أصيلٍ. ولكنّ الأُسقف ومعاونيه، كانوا ما برحوا متأثّرين بما أُشيع عنه من زادٍ علميٍّ هشٍّ لا يؤهّله لإدارة ورعاية رعيّةٍ ذاتِ شأنٍ.

وشاءت العناية الإلهيّة أن يشغر، في تلك الأيّام، مركز رعايةٍ في قرية "أرس" الصغيرة، إثر وفاة خادمها الشابّ المفاجئة، ولم يكن قد مضى أكثر من أشهرٍ معدوداتٍ على تعيينه. وارتأى الأُسقف سدّ هذا الشغور بإيكال رعايتها إلى الأب "ڤــيانّي".

"أرس" من أوضع الرعايا وأفقرها، بل لم تكن تُعَدّ رعيّةً لأنّ عدد مؤمنيها لا يتجاوز مئتين وثلاثين نفرًا، وهي ملحقةٌ برعيّةٍ قريبةٍ أكبر منها. وراعيها لا يستأهل رسميًّا، أكثر من لقب "خادم كاپــيلاّ" (Chapelain). ولمّا سلّم الأُسقف للأب "ڤــيانّي" صكّ تعيينه، صارحه: "هذه الرعيّة تفتقر إلى حبّ الله، فازرعه فيها". وهذا هو ما كان يتوق الكاهن الجديد إلى تحقيقه؛ فهو كان يخشى الفشل في إدارة رعيّةٍ كبيرةٍ. وكان قد أسرّ لخالته: "أرغب في خدمة رعيّةٍ صغيرةٍ وفقيرةٍ، أتمكّن من رعايتها، ويتسنّى لي تقديس ذاتي فيها".

وكان الأُسقف، من أجل شدّ أزره وعزيمته قد قال له: "هناك سيّدةٌ سخيّةٌ لن تبخلَ بمالها ونفوذها ومساعدتها".

- " كان بمكنة الله خلق عـالَمٍ
أكثرَ جمالاً من عـالمَنا،
ولكنّه لم يكنْ يَستطيع إبداعَ مخلوقٍ
أكثرَ كمالاً من مريم العذراء."

- "الكهنوت تعبيرٌ عن حبّ قلبِ يسوع.
فعندما تشاهد الكاهن،
فكّر بالربّ...!"

خوري أرس

- "يرهب إبليس إشارةَ الصليب،
لأنّنا بالصليب نُفلتُ من مخالبه.
فعلينا رسمُ الصليب باحترامٍ جمٍّ،
بدءًا بالرأس...
رمز الرئيس، الخالق، الآب؛
ثمّ بالقلب...
رمز الحبّ والحياة، والفداء، الابن؛
فالكتفين... رمز القوّة.
نحن أنفسنا مصنوعون على شكل صليبٍ...!"

خوري أرس

الفَصْلُ الثَّالِثُ

كاهنٌ قدّيسٌ

أرس

يضرب تاريخ "أرس" جذوره عميقًا في القدم. وقد حملت هذه القرية على التوالي أسماءً مختلفةً، منها اسم "أرز" ولكنّها كانت، دائمًا، صغيرةً ومهملةً. إنّها تقع على مسافة خمسةٍ وثلاثين كيلومترًا شماليّ مدينة "ليون"، وتجثم على تلال "بوجوليه".

عام ١٨١٨ كانت قريةً هزيلةً، كئيبةً، تتألّف من أربعين بيتًا واطئًا، مبنيّةً من طين، ومنثورةً بين البساتين. وعلى سفح إحدى هضباتها، ينتصب ما يمكن تسميته كنيسةً، وهو بناءٌ بسيطٌ، جدرانه صفراء اللون تخترقها أربع نوافذ بدائيّةٌ، وسقفها متّكئٌ على أربع عوارض خشبيّةٍ، وعمودٍ، تسند جرسًا مشدوخًا، وأمامه يمتدّ فناءٌ صغيرٌ تظلّله اثنتان وعشرون شجرة جوزٍ وارفةٌ. وبجانب الكنيسة بناءٌ قرويٌّ يُستخدَم مقرًّا لخادم الكنيسة.

وفي أسفل الوادي يجثم، وحيدًا بين الأشجار، قصرٌ قديمٌ يعود بناؤه إلى القرن الحادي عشر، على شكل قلعةٍ محصّنةٍ، تحوّل، مع الزمن، إلى بيتٍ ريفيٍّ كبيرٍ، هادئٍ، ناسٍ لأمجاده السالفة، كانت تسكنه، آنذاك، إحدى وريثات أصحاب القصر، البالغة الرابعة والستّين من العمر، تُدعى "آنّ ماري دي غاريّت"، ومعروفةٌ بلقب "آنسة أرس"، والتي اشتُهرت بوَرَعها، وعطفها، وسعة عطائها، وحرصها على كنيسة قريتها.

إذن، يوم ١٨١٨/٢/١١، أقام الأب "ڤـيانّي" قدّاسه الأخير في رعيّة "إيكويّي"، وانطلق، في جوٍّ صقيعيٍّ ماطرٍ، صوب ساحة رسالته في "أرس". وكان قد بلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا. وكان عليه اجتياز ثلاثين كيلومترًا، سيرًا على الأقدام، تتبعه عربةٌ تقلّ صرّة أمتعته الهزيلة، وأربع كتبٍ، وما أورثه إيّاه الأب "بالّي"، أي أخشاب سريرٍ عتيقٍ، ومجموعة كتبٍ روحيّةٍ، والمظلّة الكبيرة التي كانا

يستخدمانها معًا، اتّقاءً للمطر وأشعّة الشمس، والأرملة العجوز التي كانت تعدّ طعام الكاهنين، وتغسل أمتعتهما، وحرصت على توضيب إقامة الكاهن في مقرّه الجديد، آملةً الاستمرار في إعداد طعامه، وغسل ثيابه. ولكنّها سرعان ما تبيّنت أن لا مكان لها في "أرس"، فالكاهن لا يولي أيّ اهتمامٍ بهندامه، أو بطعامه القشف الذي يعدّه بنفسه، فأوكلت غسل أمتعته إلى أرملةٍ في "أرس"، تسكن على مقربةٍ من دار الرعيّة، وعادت أدراجها من حيث أتت.

وعورة الطرقات المؤدّية إلى أرس كانت قد عزلتها عن العالم، وحوّلتها حفرةً منسيّةً (ضيعة ضائعة)، وفقد ساكنوها الرغبة في مغادرتها إلى مطارح أخرى. وكان الغمام قد غلّف المنطقة بأجمعها، فشقّ على الكاهن اكتشاف رعيّته الجديدة، وتاه هو وصحبه، وفيما هم على هذه الحال، تنامت إليهم أصوات أطفالٍ، وأقبل إليهم الأب "فـــيانّي"، وإذ بهم رعاةٌ صغارٌ، ذكّروه بما كانه في مثل سنّهم. واسترشدهم عن قرية "أرس"، وسرعان ما اتّضح أنّ أولئك الرعاة لا يفقهون كلمةً فرنسيّةً، ولا يفهمون سوى لهجتهم القرويّة، وبعد لأيٍ أدرك أكثر الأطفال نباهةً مقصد الكاهن، فأرشده إليه، وكافأه الكاهن بقوله: "يا صغيري، أنت أرشدتني إلى طريق أرس، وأنا سأرشدك إلى طريق السماء". هذا الحدث يمثّله ويخلّده تمثالٌ برونزيٌّ منصوبٌ عند مدخل القرية.

حينئذٍ جثا الكاهن، وصلّى شاكرًا. ثمّ ما عتّم أن استبان من خلال عتمة الليل الهابط، أكواخًا مبعثرةً حول كنيسةٍ صغيرةٍ وضيعةٍ، وجال في خاطره: "كم هذه القرية صغيرةٌ!". ولكن سرعان ما طاف بذهنه إلهامٌ سماويٌّ أوحى له: "ستعجز هذه الرعيّة، مستقبلاً، عن استيعاب الجموع التي ستتقاطر إليها". مع وصول الأب "فـــيانّي" إلى أرس، حلّت على تلك القرية نعمةٌ سنيّةٌ، متمثّلةٌ في كاهنٍ قدّيسٍ، بكلّ ما تتّسع له القداسة من معانٍ. سيحتلّ اسمه موقعًا مرموقًا في سجلّ من تكرّمهم الكنيسة، وسيختاره بابا قدّيسٌ، بعد نحو قرنين، شفيعًا للكهنة.

لم يكن في انتظار الراعي الجديد، عند باب الكنيسة، سوى عمدة القرية، آنذاك، "أنطوان ماندي" (Antoine Mandy) ومعاونه. فاستهلّ الكاهن رسالته الجديدة بالركوع أمام الهيكل والاستغراق في الصلاة من أجل الرعيّة التي كُلِّف بخدمتها. ثمّ اقتاده العمدة ومعاونه إلى دار الرعيّة الملاصقة للكنيسة، كي يسلّمه مفاتيحها. وكانت الدار مؤلّفةً من طبقةٍ سفليّةٍ مكوّنةٍ من مطبخٍ رحبٍ، وغرفة طعامٍ، وكلاهما مجهّزان تجهيزًا كاملاً. تعلوها طبقةٌ من ثلاث غرفٍ، وكانت الدار، آنذاك، مؤثّثةً تأثيثًا لائقًا، بفضل سخاء أصحاب القصر. وللوهلة الأولى، استهجن الكاهن الجديد هذا الرفاه غير المتناسب مع رعيّةٍ ممعنةٍ في الفقر، ولكنّه، في تلك اللحظة، لم يعلّق بشيءٍ عمّا شاهده، بل أقبل على إفراغ العربة من الأثاث الزريّ الذي جاء به.

وكان فناءٌ صغيرٌ يمتدّ بين دار الرعيّة والكنيسة، وأمام الدار تنبسط حديقةٌ صغيرةٌ. صباح يوم السبت، غداة وصول الأب "ڤـيانّي" لحظ الغادون باكرًا إلى حقولهم نور مصباحٍ يعبر المقبرة نحو الكنيسة. فاستنتجوا وصول خادم الرعيّة الجديد، وتأكّد ظنّهم عندما رنّ جرس الكنيسة، بعد طول صمتٍ.

وصباح يوم الأحد، الواقع في ١٨١٨/٢/١٣، وافى إلى أرس كاهن رعيّة "ميزيريو" (Mizèrieux) المجاورة، التي كانت رعيّة أرس تابعةً لها، بسبب صغرها. وعند باب الكنيسة، محاطًا بأعضاء البلديّة، استقبل الراعي الجديد، وألبسه البطرشيل الراعويّ الرامز إلى سلطاته، واقتاده إلى الهيكل حيث فتح مخبأ القربان، وواكبه إلى كرسيّ الاعتراف، والمنبر، وجرن المعموديّة، وسلّموه كلّ تلك الأماكن المقدّسة التي أمست مسرح رسالته، ومحطّ عنايته. ثمّ اعتلى الأب "ڤـيانّي" المنبر وأكّد لرعيّته مدى حبّه لهم، والخير الذي يتمنّاه لهم، والذي سيجهد في تحقيقه. ثمّ احتفل بقدّاسه الأوّل في رعيّته الجديدة، وتردّدت أنغام التراتيل في حنايا الكنيسة المتواضعة التي تاقت إلى مثل تلك الاحتفالات. ومنذ ذلك اليوم أطلق "الأرسيّون" على خادم نفوسهم لقب "خوري أرس".

بعضٌ منهم كانوا قد لحظوه بالأمس، يزور المقبرة، ولم يستسيغوا قصر قامته، ونحوله، ومشيته السريعة المضطربة، و"صايته" المصنوعة من قماشٍ خشنٍ، وحذاءه القرويّ، ولفتتهم حدّة قسماته التي تضفي عليها رقّةً نظرةٌ نفّاذةٌ، تضيئها بسمةٌ ساحرةٌ. بيد أنّهم لّما شاهدوا احتفاله بالقدّاس، يطفح بالتقوى، والصلوات تتفجّر من أعماقه، معبّرةً عن شدّة تأثّره، ورأوه على الهيكل مشعًّا، متجلّيًا بوقارٍ لم يتوقّعوه، ولم يعهدوا له مثيلاً، أجلّوا فيه الكاهن، وسرت بين الحضور تمتمات التقدير والإعجاب. وقد لاقت، أيضًا، عظته المقتضبة الزاخرة رقّةً وعذوبةً وبساطةً استحسانًا عامًّا، رغم حدّة نبرة الكاهن.

وقد أوجز العمدة مشاعر الرعيّة بقوله: "كنيستُنا فقيرةٌ، ولكن لدينا كاهنٌ قدّيسٌ".

دار رعيّة أرس وحديقتها

مهمّةٌ صعبةٌ

تبيّن، إذن، الأب "ڤـــيانّي"، منذ الوهلة الأولى، البون الشاسع بين رعيّة "إيكويّي"، حيث الوجوه الباشّة توحي بالثقة، ورعيّة أرس، حيث وإن لم يُظهِر أبناء الرعيّة للكاهن عداءً، إلاّ أنّهم لم يقابلوه بترحيبٍ يريح القلب ويدفئه.

وكان الكاهن قد استوضح العمدة عن أحوال الرعيّة، فأُطلع على وقائع مقلقةٍ. فعن تعليم الأطفال أُخبر أنّ أحد أبناء القرية يلقّنهم، في أيّام الشتاء، عندما تتوقّف أعمال الحقول، مبادئ الكتابة والقراءة. ولكن حالما يتنفّس الربيع، وتحتاج التربة إلى سواعد، يهجر المعلّم والتلاميذ المدرسة، ملبّين نداء الأرض التي تطعمهم، والتي غدت همّهم الأوّل والأخير، في حين أُرسل الأب "ڤـــيانّي" إلى أرضٍ بورٍ، يتعيّن عليه استصلاحها، وعليها ستتكسّر أدوات حراثته، وفيها ستذوب صحّته وحياته، وسيعاني جمًّا من الآلام والمتاعب، وسط عزلةٍ مريعةٍ، بلا عونٍ سوى نعمة الله وأزره.

وكان قد دار بين الخوري والعمدة الحوار التالي:

– كيف يتلقّى، إذن، الأولاد التعليم الدينيّ؟

– لا يتلقّون منه شيئًا.

– وكيف ينقضي يوم الأحد في الرعيّة؟

– صبحًا في الحقول، ومساءً في الحانات، ومرابع الرقص.

إذن، جهلٌ مطبقٌ بشؤون الله كفيلٌ بتوليد كلّ ضروب الأمراض الاجتماعيّة. فلا بدّ من مكافحة تلك الآفات بالصلاة، والتضحية بالذات، وبالوعظ والإرشاد، والقدوة، والمحبّة. وبما أنّ الله يستجيب خير استجابةٍ لأدعية القدّيسين المضحّين بذواتهم، وطّن الأب "ڤـــيانّي" عزمه على الاستغراق في الصلاة بانتهاج أقسى دروب القداسة.

ففي عتمة الليل، حين يكون أبناء رعيّته غارقين في النوم، كان يفزع إلى

الكنيسة الصغيرة، ويركع أمام مخبأ القربان، ويسكب بين يدي الله شجونه، ودموعه، مجيلاً الفكر في الوسائل المثلى الكفيلة بأداء رسالته. فقد كان حبّ الله، وهَوَس إنقاذ النفوس وخلاصها آخذَيْن بكلّ أوتار نفسه، ويختزلان حياته كلّها.

وتمثّلاً بالربّ الذي ارتضى الصلب في سبيل محو خطايا العالم، اعتزم الأب "ڤـيانّي" التضحية بذاته من أجل تحرير أبناء الرعيّة التي انتُدب لخدمتها من خطاياهم، وعللهم الروحيّة.

كان قد أحبّهم قبل أن يعرفهم، حبًّا كهنوتيًّا طافحًا بالتضحية والرقّة، ولم يعهد راحةً ولا هدنةً حتّى أعادهم إلى حضن الله، وعقد مع كلٍّ منهم أواصر مودّةٍ رقيقةٍ.

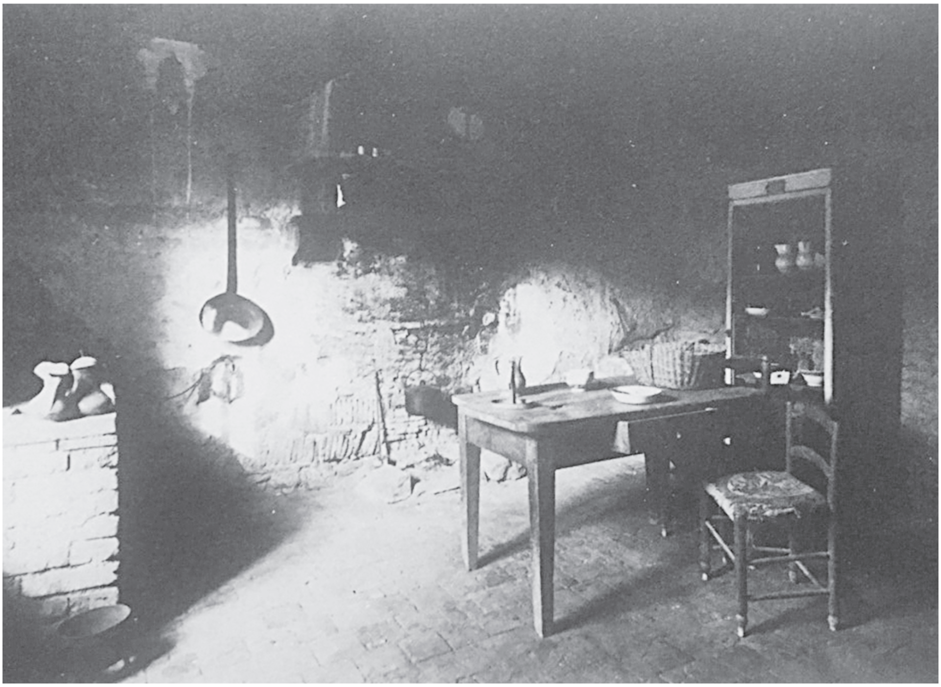

مطبخ دار الرعيّة

آنسة أرس

في مقدّمة حضور قدّاس الأب "ڤـــيانّي" في رعيّته الجديدة، جلست "آنسة أرس"، "ماري آنّ كولومب دي غاريّت"، وربّما كانت أشدّهم ابتهاجًا بالحدث. فهي التي ظلّت ملحّةً على النائب الأُسقفيّ، حتّى عيّن لرعيّتها خادمًا، متعهّدةً بأن توفّر له أسباب المعيشة، فضلاً عن مبلغ خمس مئة فرنكٍ تقدّمه له البلديّة كلّ سنةٍ. وهذا ما أشار إليه الأُسقف عندما سلّم الأب "ڤـــيانّي" صكّ تعيينه، مشيرًا إلى سيّدةٍ فاضلةٍ لن تضنّ عليه بعونها.

كانت والدتها هي التي ابتاعت دار الرعيّة، ووضعتها بتصرّف الكهنة الرعاة، وتولّت ابنتها تأثيثها أجمل تأثيثٍ. وكانت أسرتها، بفضل سخائها في الإحسان، قد اكتسبت سمعةً طيّبةً احترمها حتّى الثوّار، الذين كانوا يتغاضون عن الكهنة المتمرّدين الذين اعتادوا إقامة الطقوس الدينيّة في مصلّى القصر، ويحضرها أبناء الرعيّة، إبّان إغلاق الكنيسة.

كانت الآنسة، آنذاك، قد بلغت الرابعة والستّين من سنيها، وتميّزت بثقافتها، وبالخصال الحميدة التي تمرّست بها، منذ صباها. فكانت أولى المستيقظات في القصر، والشاخصات إلى الصالون حيث ينضمّ إليها الخدم، ومعًا يتلون صلوات الصباح، ويستمعون إلى قراءاتٍ روحيّةٍ، ويتكرّر الأمر عينه مساءً، قبل النوم.

لم تتخلّف، يومًا، عن حضور القدّاس في كنيسة القرية، التي تؤمّها، في جميع فصول السنة، منفقةً ربع ساعةٍ، سيرًا على الأقدام على دروبٍ وعرةٍ.

وكانت قد حوّلت القصر، مدرسةً دينيّةً، ودار صلاةٍ، تُتلى فيه سيَر القدّيسين، ومختلف الصلوات في أوقاتٍ متعدّدةٍ من النهار، وملاذًا للبائسين، ومستوصفًا، ومصرفًا يعين المحتاجين، ومحترف خياطةٍ يصنع ملابس للفقراء، من كلّ سنٍّ وعمرٍ، وقد استطاعت ذلك من خلال تخفيض نفقاتها إلى الحدّ الأدنى، واستخلاص فاضلٍ وافٍ من وارداتها، تنفقه على أعمال المحبّة والإحسان.

وستكون لها اليد الطولى في تمكين الأب "ڤـــيانّي" من تحقيق مشاريعه، ولا سيّما تلك المتّصلة بتكبير كنيسة القرية وتزيينها، وبتطوير المجتمع ثقافيًّا.

نهج التقشّف

أيّامًا معدوداتٍ عقب وصوله إلى أرس، سأل الكاهن الجديد صاحبة القصر، استرجاع كلّ الأثاث الفاخر الذي كانت قد تبرّعت به لدار الرعيّة، والذي وجده مناقضًا، مناقضةً صارخةً، لفقر المحيط، ولنهج خدمته وعيشه. واكتفى بما لا غنى عنه، فلم يُبقِ، في المطبخ، سوى مائدةٍ وبضع كراسٍ، والقليل من أدوات الطعام، وقدرًا لسلق البطاطا. واحتفظ لنفسه بسريرٍ عتيقٍ ألقى عليه فراشَ قشٍّ، وأثّث غرفة نومٍ أُخرى لضيوفٍ محتملين. بسريرٍ وفراشٍ. كما احتفظ ببضعة أدراجٍ لغلالاته الداخليّة، وخزانةٍ للكتب، وبمنضدةٍ صغيرةٍ للكتابة.

وإثر عودة الأرملة التي رافقته من "إيكويّي" إلى بيتها، تطوّعت أرملةٌ كانت تقيم في بيتٍ ملاصقٍ لدار الرعيّة، وأمٌّ لشابٍّ إكليركيٍّ في العشرين من عمره، للاهتمام بغسل ثيابه، ولتقديم كلّ احتياجاته من طعامٍ وتنظيفٍ. أمّا أمر الطعام، فقد حسمه، منذ اليوم الأوّل، مكتفيًا، لوجباته، بالبطاطا المسلوقة؛ فكان يسلق كلّ أسبوعٍ، ملء دلوٍ بطاطا، ويتناول منها كلّ يومٍ حبّتين أو ثلاثًا. وكان أحيانًا يرجو جارته الأرملة أن تعدّ له أقراصًا معجونةً بدقيق قمحٍ أسود. وعندما يشتدّ به الجوع، ويفتقر إلى بطاطا، كان يتناول منها قرصين أو ثلاثةً، ويحمد الله.

بهذا النظام الغذائي المسرف في التقشّف، التزم طوال سنوات إقامته في أرس. ومن دواعي العجب أنّه لم يفضِ إلى هدّ صحّته. وقد أوضح هو نفسه: "لي جثّةٌ متينةٌ (هكذا كان يدعو جسده)، وحسبي ابتلاع لقماتٍ من أيّ شيءٍ، وأنام ساعتين في اليوم، كي أستعيد قواي، وأستأنف العمل". وأسرّ يومًا لإحدى مساعداته: "ما أسرع وجبتي. كنت أصنع ثلاثة أرغفة، وفيما كنت أتناول أوّلها، كنت أُنضج الثاني في الموقد، وفيما أتناول الثاني، كان الثالث ينضج، ثمّ أشرب

إبريق ماء، وأنطلق للعمل". وعن شائعات إسرافه في الصوم كان يقول: "لا داعي للمغالاةً. فكلّ ما استطعت فعله، هو الاكتفاء بثلاث وجباتٍ، في ثمانية أيّامٍ".

ومع ذلك، كان يسكنه اليقين بأنّ العطف والمحبّة يفوقان الصوم، وكلّ أعمال التوبة. ولّما اعتلّ في سنواته الأخيرة، واضطرّ إلى الحدّ من أفعال الإماتة الجسديّة، توغّل في تدعيم أعمال العطف، التي نسج بها مسيرته.

ولكن لم يحمله تقشّفه، إلى التعنّت، فلم يرفض، يومًا لقمةً يقدّمها له أبناء رعيّته إذا زارهم أثناء وجبة طعامهم. وإذا قدّموا له كأس نبيذٍ، فكان يقرعه بكأس مائه، ضاحكًا. ولم يخلع عليه الجدّ ثوب الكآبة، فاحتفظ دائمًا بوجهٍ باشٍّ، ولم يتحرّج من إطلاق أقوالٍ مرحةٍ، وظلّ يردّد: "الله هو فرح مَن يحبّونه".

قدر البطاطا...
ما زالت معلّقةً في مكانها

الأب "ڤيانّي" والمال

في مطلع القرن التاسع عشر، كان المال عزيز المنال، ولا سيّما في الأرياف. وكان الأرسيّون، شأن قرويّينا، يقدّرون المال أرفع تقديرٍ، لا طمعًا فيه، ولا رغبةً في الإثراء، بل لأنّه كان مقوّم العيش الأساسيّ. فكانوا يكدّون، ويكابدون المشقّات، ويقتّرون، وتكتفي معظم الأسر بغرفةٍ واحدةٍ، مكانَ إقامةٍ، وطعامٍ، ونومٍ، ومطبخٍ، ومع ذلك كلّه، كانوا يلقون عنتًا في توفير أوَد العيش الذي لا غنى عنه.

ولا عجب أن أدهش القرويّين الأرسيّين سخاء كاهنهم الجديد، وإسرافه في العطاء. فالمال الذي كان يأتيه كان نارًا تحرق أنامله، فيسارع إلى بذله، بلا حسابٍ، لا يفرّق بين قطعة نقدٍ تساوي خمسةً وعشرين فرنكًا، وأخرى قيمتها خمسة سنتيماتٍ. وبنفس الكرم اللامبالي كان يتخلّى عن ثيابه وطعامه، ويستبدل الخبز الأبيض الذي يؤتى إليه به بخبز الفقراء الأسود الجافّ.

ومع ذلك كان الفلاّح، في داخله، الذي خَبر ما يكلّفه المال من عرَقٍ وكدٍّ، يسعى دائمًا إلى المزيد منه، لكيلا يردّ سائلاً. ولكي يلبّي كلّ محتاجٍ. ولاحقًا، لّما راز مدى افتقار رعيّته إلى مدارس، ورعايةٍ صحّيّةٍ واجتماعيّةٍ، وما تحتاجه، روحيًّا، من أماكن عبادةٍ وتعليمٍ لائقةٍ، سعى إلى استدرار كلّ ما استطاع إليه سبيلاً من مالٍ، من أجل سدّ هذه الاحتياجات. فعبرت بين يديه مبالغ طائلةٌ، حتّى إنّه استطاع، عام ١٨٤١، رصد مبلغ خمسةٍ وعشرين ألف فرنكٍ، بغية تحقيق مجموعةٍ من المشاريع. ومن أجل تقييم ضخامة هذا المبلغ، آنذاك، ينبغي التذكير بأنّ أجرة العامل اليوميّة، كانت تتراوح بين فرنكين وأربعة فرنكاتٍ.

فمن أين كان يستقدم هذا المال؟ مؤكّدٌ أنّه لم يحصل عليه من رعيّته الكادحة المعدمة. وارداته الشخصيّة كانت تقتصر على تقدمة خمس مئة فرنكٍ سنويًّا، من البلديّة، وعلى حصّته من إرث والده. فقد كان أخوه الأكبر قد احتفظ بحقّ استثمار أراضي الأُسرة، متعهّدًا بتقديم مبلغٍ محدّدٍ لأخيه الكاهن كلّ سنةٍ.

ولكنّه نَعِم بمصادر عونٍ أُخرى، أهمّها أصحاب قصر أرس، آل "غاريت". ففضلاً عن الآنسة "آنّ ماري"، كان أخوها القاطن في باريس يمضي أسابيع الصيف في أرس، وأبدى سخاءً في مؤازرة المشاريع الكفيلة بتطوير أحوال القرية. ثمّ أضحى ابن عمٍّ لكليهما، منذ عام ١٨٣٢، عمدة أرس، وكان يحدوه الاندفاع إلى الارتقاء بأوضاع أرس، في شتّى المجالات. ووجد في كاهنها القدّيس خير شريكٍ، فأجزل لمشاريعه العون والعطاء.

وكان مرشد الأب "ڤـيانّي" في "إيكويّي"، قد عرّفه على صاحب معمل نسيجٍ حريريٍّ، في ليون، يقرن ثروة المال بكرم النفس، وعطفٍ سخيٍّ. وفضلاً عن سخائه، كان ذلك الصناعيّ يحرّض أصدقاءه وزملاءه على تمويل مشاريع الأب "ڤـيانّي".

وأخيرًا، لمّا ملأت شهرة قداسته الآفاق، أرشده حدْسه القرويّ إلى الإفادة من محاصرة أبناء الرعيّة والغرباء، الراغبين في الحصول على ذكرياتٍ، و"ذخائر" منه فباع، بأسعارٍ مجزيةٍ ما أهديه من أوسمةٍ، وأمتعةٍ، ووظّف ما حصده من هذه الصفقات في تنفيذ مشاريع غاليةٍ على نفسه. فباع لسيّدةٍ سريره، وستائر غرفته، وطاولته النخرة، وكرسيًّا خشبيًّا، وساعته اليدويّة، شرط أن تستلم الشارية هذه "البضاعة"، بعد وفاته. وكان قد سبق له أن باع، بمبالغ يصعب تصديقها، أحذيته العتيقة، وجلابيبه المهترئة، وحتّى آخر ضرسٍ من أضراسه.

ومع تدفّق كلّ تلك المبالغ كان "الخوري"، معظم الأحيان، مفلسًا، لا يملك فرنكًا واحدًا. ولم يحتفظ بشيءٍ لنفسه. وفي ساعته الأخيرة، وهو يحتضر عاده طبيبه، للمرّة الأخيرة، فتذكّر أنّ ما زال بحوزته ستّةٌ وثلاثون فرنكًا، فأوعز إلى معاونته، أن تؤدّيها له، وتطلب منه ألاّ يعود، لأنّه لم يعد يملك ما يدفعه له، لقاء أتعابه.

ولا بدّ من التنويه بأنّه، كان دائم الحرص على ضبط محاسبةٍ دقيقةٍ وشفّافةٍ لكلّ ما كان يرده، وما كان ينفقه على مشاريعه، ولا يستخدم أيّ مالٍ يُمنحه من أجل مشروعٍ ما، في سبيل مشروعٍ آخر.

وضع أرس الروحيّ

القضاء على الروح الدينيّ، وتأثير الكنيسة على المجتمع وأذهان الناس، كان من أهمّ أهداف الثورة الفرنسيّة. فأغلق الثوّار الكنائس، بعد أن أمعنوا فيها سلبًا، وتدنيسًا، ومصادرةً لمحتوياتها، وأكرهوا الكهنة على الخيار بين إقسام يمين الولاء لمبادئ الثورة ونهجها، أو السجن والإعدام والنفي. فجَبُن عددٌ غير قليلٍ من الكهنة واستسلموا، فيما اختار آخرون التمرّد والمنفى؛ وانصرف رهطٌ منهم إلى المعارضة الإيجابيّة، ذارعين المدن والقرى، مموَّهين غالبًا بأزياء مدنيّةٍ، عاكفين على خدمة الأسرار المقدّسة، والاحتفال بالطقوس الضروريّة، خفيةً، وغالبًا ليلاً، في بيوت مؤمنين مازالت جذوة الإيمان متّقدةً في صدورهم. ونادرًا ما زار أحد هؤلاء قرية أرس، الصغيرة. فضآلة تلك الرعيّة قد رغّبت عنها الكهنة المثقّفين، وأبقتها، ردَحًا من الزمن، محرومةً من الخدمة الروحيّة النظاميّة الحقّة، فزحفت إلى النفوس الممارسات الوثنيّة، ونزعات الإلحاد، وشاع الجهل الدينيّ، وفترت التقوى، وطغت الاهتمامات المادّيّة، وتراخت الضوابط الأخلاقيّة، ولا سيّما بين صفوف الشباب، كما يتّضح من مواعظ الأب "ڤـــيانّي"، في أوّل عهده بخدمة رعيّة أرس.

ولكنّ الأساس الدينيّ ظلّ صامدًا، والإيمان الذي ناس لم ينطفئ، ولم تخلُ التربة من الحَبّ الطيّب إلى جانب الزؤان، ونجت من الطوفان أخويّاتٌ أسّسها أسلاف الأب "ڤـــيانّي"، ولم تتخلَّ أُسرٌ عن تقاليدها المسيحيّة الراسخة.

قُبَيْل مجيء الأب "ڤـــيانّي" إلى أرس، كان قد كُلِّف برعايتها كاهنٌ شابٌّ تحدوه روح الخدمة. ولكنّه جاءها، في عزّ الشتاء عليلاً، منهارًا، وأشفق عليه أبناء القرية فتبرّع له كلٌّ منهم بما استطاع الاستغناء عنه من حطب تدفئةٍ، ومؤونةٍ غذائيّةٍ، وأغطيةٍ، ودريهماتٍ. ولكنّه ما لبث أن لقي حتفه.

ومنذ الوهلة الأولى تبيّن للأب "ڤـــيانّي" مشقّة المهمّة التي انتُدب لها، وسعتها، رغم ضآلة حجم الرعيّة، فقد رازها على ضوء رهافة ضميره، ومقته للخطيئة. وتبيّن أنّ القليل من الحَبّ الطيّب، كان ضائعًا بين أكوام الزؤان، واكتشف عللاً خطيرةً، لم يكن بمكنة سواه تبيّنها، بعد أن طُمِست من الأذهان فظاعة الخطيئة وبشاعتها. وفي الحال انبرى للعمل، مستلهمًا برنامجه من تأمّلاته أمام الهيكل وبيت القربان، معتزمًا الاتّصال الفوريّ بأبناء رعيّته، مستعينًا بالصالحين الغيورين منهم على تقويم المعوجّ، وزرع التقوى محلّ اللامبالاة، وإعادة الضالّين إلى السراط القويم. فأمعن في الصلاة والتماس عون النعمة، وجهد في تقديس ذاته سبيلاً إلى تقديس الآخرين. وهبّ عمدة القرية ومستشار بلديّتها لمعاضدته على بعث نهضةٍ روحيّةٍ. ولا ريب أنّ "آنسة أرس" قد أسهمت في هذه المهمّة، غير أنّ تأثيرها الروحيّ كان ضئيلاً، من جرّاء انعزالها في قصرها.

الراعي يَستكشف أوضَاعَ رعيّته

منذ وصوله إلى أرس، حرص الأب "فـيانّي" على بناء أواصر تعرّفٍ ومودّةٍ، بينه وبين أبناء رعيّته. فكان يحيّي كلّ مَن يصدفه في طريقه، مرفقًا التحيّة بكلمةٍ طيّبةٍ. وكان يستوقف الصغار ويداعبهم، ويصغي، صابرًا، إلى شكاوى المسنّين الصحّيّة، ومشاكلهم اليوميّة.

وبعد ظهر كلّ يومٍ كان يقوم بنـزهةٍ في أزقّة القرية ومزارعها، نزهةٍ تقودها الصدف، بلا مخطّطٍ محدّدٍ، متأبّطًا قبّعته، تاليًا صلوات السواعيّة، أو كارًّا بين أصابعه حبّات المسبحة، متوقّفًا عند كلّ مشهدٍ طبيعيٍّ مشيدٍ بجمال الله وعظمته، ومصغيًا بطربٍ إلى زقزقات العصافير.

وحرص على توثيق علاقاتٍ شخصيّةٍ مباشرةٍ مع كلّ فردٍ من أفراد الرعيّة، من خلال زياراتٍ إلى بيوتهم، إطار حياتهم الطبيعيّ. وقد اختار لهذه الزيارات وقت الظهر، عندما يكون جميع أفراد العيلة ملتفّين حول المائدة، فيحيّيهم، واقفًا، ويستفسر عن شؤونهم، وهمومهم، وأشغالهم، ومواسمهم، وأوضاعهم داخل الأسرة، وعن أقربائهم، مستقصيًا أعمار الأولاد واحتياجاتهم، مستمعًا إلى آراء كبارهم وصغارهم، مخفّفًا من شدائدهم، مشاركًا إيّاهم محطّات أفراحهم، مشيعًا جوّ أُنسٍ بطرفةٍ عذبةٍ. وحينئذٍ كان يسرّب فكرةً دينيّةً بنّاءةً، أو يطرح سؤالاً، ومن خلال أجوبتهم كان يستخلص مدى معارفهم الدينيّة، ويروز عمق إيمانهم.

ولا ريب أنّ هذه الزيارات قد نسجت بينه وبينهم علاقات مودّةٍ، أسبغت على تواصلهم أُلفةً مُستحبّةً، وسلاسةً مرنةً. فلا عجب إن عدّه كلٌّ منهم صديقًا خاصًّا. وكان لا يلبث أن يستأذن بالانصراف، متجنّبًا، دائمًا، إطالة الزيارة.

وغالبًا ما كان يقصد الفلاّحين الكادحين في حقولهم، فيصافح أيديهم المبتلّة بالعرق، والمكسوّة بالتراب، ويستفسر عن أعمالهم، ويشاركهم خبراته الزراعيّة،

ويزوّدهم بنصائحه. ولكم أحبوّا فيه الإنسان البسيط، المتقشّف، المتواضع، والذي تربطهم به أواصر زمالةٍ، وخبراتٌ مشتركةٌ!

وكان يعود المرضى، ويزوّدهم بعزاء الغفران والإفخارستيّا، وعندما يغادرهم كان يستولي عليهم شعورٌ مريحٌ بأنّ عبء آلامهم قد خفّ وطأةً، وبأنّ الرجاء استيقظ في أعماقهم.

من المؤكّد أنّ الجميع لم يرحّبوا بزياراته. ولكنّ أحدهم كان لسان حال أغلبيّتهم الساحقة، وأقرّ: "كان يبدو طافحًا فرحًا ومودّةً، وكنّا نتخيّل عمق الفضيلة التي تسكنه".

صحيحٌ أنّ عدد البيوت التي زارها لم يتخطَّ الستّين، ولكنّ أسلوب الزيارة هو الذي ميّزها وأخصبها.

في هذا السياق صرّحت "كاترين لسّانيي" (Lassagne)، التي كانت، آنذاك، في الثانية عشرة من عمرها، وأمست، لاحقًا، من أكثر مساعدي "خوري أرس" نشاطًا، وفعّاليّةً، وأمانةً: "منذ وصوله، أظهر من الطيبة، والعطف، والمودّة، ما أكسبه محبّة الجميع. كان يزور عموم أبناء الرعيّة، غير مكتفٍ بالمجيء إلى حيث كان يُدعى، بل كان يوافي، أيضًا إلى حيث لم يُدعَ... وبعد الاستفسار عن كلّ ما يهمّ الأُسرة كان يحرص على تسريب عبارةٍ بنّاءةٍ... أذكر أنّ السعادة كانت تغمرنا كلّما زار بيتنا".

ويوضح ابن العمدة، أنّ الخوري كان يعلن عن مجيئه، من خارج البيت، مناديًا ربّ الأُسرة، باسم معموديّته، ثمّ يدخل، ويستند إلى أحد أثاث المنــزل، عازفًا عن الجلوس". وشهد مزارعٌ فقيرٌ: "كان يزدري، أكبر ازدراء، متاع الدنيا. ولكنّه عندما يكون معنا كان يستفسر بلطفٍ بالغٍ عن وضعنا الماليّ، وعن غلّة مواسمنا. وعندما كنّا نأتيه بشيءٍ من الحطب والحنطة، كان يقدّم لنا الشراب بنفسه، ويظهر فيضًا من الدماثة، والإلحاح، كي يجعلنا نتقبّل مبادرة ضيافته".

زياراته إلى القصر كانت نادرةً، ولم يقبل، قطّ، دعوةً إلى الطعام فيه. وقد أقرّ أحد أصحاب القصر: "إذا زارنا، كان يقف مستندًا إلى منضدةٍ عتيقةٍ، ويحدّثنا بأُلفةٍ منــــزّهةٍ من كلّ تكلّفٍ، ولا يلبث أن يقول مودّعًا: "يشرّفني أن أتمنّى لكم مساءً سعيدًا". وينطلق انطلاق البارود، متأبّطًا قبّعته، بخطًى سريعةٍ، حتّى يتعذّر على الراغب مواكبته أن يسايره، ولا سيّما، عندما يتعيّن عليه عيادة مريضٍ".

وكان يستوقفه دائمًا الأولاد الذين يصدفهم في الطريق، وبخاصّةٍ الرعاة الصغار الذين يسوقون قطيعهم، باكرًا، وتقلقه أُمّيّة معظمهم وجهلهم لمبادئ الدين. ولم تكن الفتيات أفضل حالاً، فكنّ منذ سنّ العاشرة، يُكلَّفنَ بخدمة بيوت الميسورين، الذين لا يحرّرونهنّ، ولو سُوَيْعاتٍ، يوم الأحد، كي يغشينَ الكنيسة.

وشهدت "كاترين لاسّانيي"، التي أتينا على ذكرها، أنّها احتفلت بمناولتها الأولى، عقب وصوله بثلاثة أشهرٍ، بعد اتّباعها الدروس الدينيّة على يده. وكان حينئذٍ أبناء الرعيّة قد قدّروا، أرفع تقديرٍ، سموّ فضائله، وتمنّت جميع الأُمّهات أن يحتفل أبناؤهنّ بمناولتهم الأولى، بإشراف ذلك الكاهن القدّيس، وكانت تسكنهنّ الخشية من رحيله أو استبداله بآخر.

وسرعان ما اتّضحت لعيني الكاهن، بكلّ قسوتها، قتامة اللوحة التي ارتسمت أمامه، زاخرةً بالثغرات، ومواطن الخلَل، والمحاذير والمخاطر. فجُلّ أبناء الرعيّة يجهلون مبادئ التعليم المسيحيّ الأساسيّة. فضلاً عن خطرٍ مريعٍ كانت توحيه طغمةٌ من الشبّان الذين انجرفوا في تيّار الثورة اللادينيّة، وتطوّعوا لتسويق مبادئها، مفسدين الشبيبة، ومعلنين بقحةٍ أنّ لا ضيْر في الرقص الخليع، وفي العبّ من الملذّات السانحة، والتحرّر من قيود التقاليد الدينيّة، وفي امتهان حرمة يوم الربّ، وهجر الكنيسة، وإيلاء الأولويّة للشؤون المادّيّة، وبالإجمال كلّ ما كان "الخوري" يمقته، ويقاومه.

لقد هال الأب "ڤـــيانّي" الشعور بثقل المهمّة، مقابل ضآلة إمكانيّاته في مواجهتها. ولكنّه لم يستسلم، ولم تخُر عزيمته. فالله معه، والمستقبل أمامه. وانبرى للمعركة بأسلحة الروح، مستعينًا بجمٍّ من الصلوات والتضحيات، وبالنعمة التي ملأته، وبيقينه أنّ الإيمان الذي فتر، لم ينطفئ لدى نخبةٍ من النفوس الطاهرة التي احتفظت بالجذوة المسيحيّة متّقدةً، جاهزةً للالتهاب.

وأيّد الله تواضع الكاهن، وضعفه، وعزمه القضاء على قوى الكبرياء، والإلحاد والنـــزعات المادّيّة. وآتى هذا التعاون بين النعمة والسعي الجادّ، والبذل السخيّ، عظائم مذهلةً.

قدَّسَ ذاتَه، إنقاذًا للرعيَّة

امتلك الأب "ڤـيانّي"، بالفطرة، غريزة "الفتوحات" الروحيّة، ونزعة المبادرات النشيطة، الخلاّقة. وكان من شأن صغَر رعيّة أرس استمالة سواه إلى الاسترخاء، والتمهّل، والدعة. ولكنّه، في ما يتخطّى ضيق رقعة الرعيّة، وضآلة عدد نفوسها، تبيّن، برعدةٍ، فداحة الأخطار المحدقة بها، وراز جسامة الجهود المقتضاة من أجل إعادة زرع بذور الإنجيل فيها، وحملها على انتهاج سبيله. فانبرى لتلك المعركة، ومنذ اللحظة الأولى، حتّى رحيله عن هذه الدنيا، لم تعهد حميّته لحظة راحةٍ أو استكانةٍ.

الآفات الروحيّة التي تبيّنها ذكّرته بقول الربّ: إنّ الأرواح الشرّيرة لا تُطرد إلاّ بالصوم والصلاة. فاستبحر في الصلاة، واستفاض في الأصوام، وأمعن في قمع جسده وترويضه على التضحية والحرمان، بوحي يقينه أنّ خلاص الرعيّة مرهونٌ بتقديس نفسه، فاندفع على دروب القداسة حتّى أقصى حدودها.

توخّى نفض الرماد عن جذوة الإيمان التي احتفظت بعض النفوس بشيءٍ من نارها. وشنّ الحربَ على شتّى الآفات الروحيّة من كلّ لونٍ، وحملَ النفوس الموكلة إلى رعايته على سَوْق سيرةٍ مسيحيّةٍ حقّةٍ، موقنًا أنّه يتعذّر على الكاهن الدعوة إلى رسالة الإنجيل دعوةً صادقةً مؤثّرةً، ما لم يكن يحياها بكلّ أوتار كيانه، ومؤمنًا بقدرة القدوة الصالحة على إشاعة عدواها.

صَلاتُهُ

كانت الصلاة نسيج حياته، كانت سداها ولحمتها، ومارسها أسمى ممارسةٍ وأروعها. ولطالما لحظ الغادون باكرًا، في أزقّة أرس طيفَ خوريهم، دالفًا في غبشة الصباح، على ضوء مصباحٍ بيده، إلى الكنيسة، حيث يقضي لا أقلّ من ثلاث ساعات نهاره الأولى، محدّقًا بين فينةٍ وأُخرى إلى مخبأ القربان، مستغرقًا في الصلاة، متوسّلاً، في المقام الأوّل، ارتداد رعيّته إلى روح الإنجيل. وكان معظم الأرسيّين، عند استيقاظهم يدركون، من تراقص أنوار المصباح، عبر نوافذ الكنيسة، أنّ ثمّة من يسهر عليهم وعنهم، ويصلّي من أجلهم. وقد أقرّ بعضهم: "لم نرَ، قطّ، كاهنًا مثله". وكان يواصل الصلاة في الكنيسة ما لم يُستدعَ إلى فراش مريضٍ أو محتضرٍ. ثمّ عند الساعة السادسة، صيفًا، والسابعة شتاءً، يقيم الذبيحة الإلهيّة بخشوعٍ وذوبانٍ في الله، قلّ مثيلهما. وتظلّ الكنيسة معادَه على امتداد ساعات النهار، وله فيها موعدٌ ثابتٌ عند الغروب، حيث يتلو المسبحة وصلوات النوم، وصلواتٍ أُخرى متنوّعةً ومرتجَلةً، وغالبًا، ما تنضمّ إليه حفنةٌ من نساء القرية وأطفالهنّ. وتظلّ شمعته مضاءةً، يتراقص لهبها أمام مخبأ القربان حتّى آناءٍ متقدّمةٍ من الليل. وفي صمت الليل المطبق كان يسأل الله، بصوتٍ عالٍ، أن يرأف بالرعيّة وبراعيها، مؤكّدًا ارتضاءه التألّم طوال حياته، ومبلّلاً بلاط الكنيسة بوابلٍ من دموعه. وحتّى عندما يأوي، أخيرًا، إلى حجرته، لا يسارع إلى النقاهة والاسترخاء، بل ينفق ساعاتٍ مطالعًا كتبًا دينيّةً، وسِيَر القدّيسين، بغية تزويد منابع صلاته بدفقٍ جديدٍ. وكان يؤثر مطالعة سيَر النسّاك وآباء الصحراء، الذين كان يرى في وقفهم حياتهم على العبادة والصلاة، وفي شظف عيشهم حافزًا ومثالاً، وتبريرًا ودعمًا لما كان يمارسه من عبادةٍ، وشظفٍ، وإماتاتٍ.

وقد شهد إكليريكيٌّ من أبناء القرية، كان يطيب له ملازمة "الخوري" أثناء

عطلته الصيفيّة، مسترشدًا بقدوة سيرته، ومتغذّيًا بأمثلة قداسته: "كم تسعدني رؤيته في الكنيسة، صباحًا، مصلّيًا مع إشراقة النهار؛ فقبل بدء صلواته وأثناءها يرمق مخبأ القربان ببسمةٍ تشيع في الصدر حبورًا، ولكأنّه يشاهد الربّ فيه. فكان يرهقني تبيّن فقري الروحيّ، أمام الله، وأنا أراقب، على ضوء المصباح المشتعل أمامه، وجهه النحيل المجرّد، ونظراته المتألّقة ولهًا، المحدّقة إلى مخبأ القربان... وهو يشعّ سعادةً تستعصي على الوصف. فقد كان، وفق تعبيره، "يسبح في لهيب الحبّ، متّحدًا قلبًا وروحًا بالله الذي تجسّد ومات على الصليب من أجل البشر، والحاضر، حيًّا في القربان". هذا الشعور كان ينتابه، على نحوٍ خاصٍّ، عندما يرى الله، لا حضورًا فحسب، بل كلامًا، أيضًا، من خلال تلاوة "سواعيّته"، الرفيق الذي لم يكن يطيق مبارحته، والتي يستغرق في تمعّن نصوصها. ولطالما صرّح: "هذا الكتاب هو رفيقي الأمين الملازم لي، والذي لا أقوى على مفارقته".

في هذا السياق، أيضًا، شهد الإكليركيّ المذكور، الذي كان يشاركه تلاوة السواعيّة، كلّما تسنّت له هذه المشاركة سانحةٌ: "كانت تقواه رقيقةً، تقطر مودّةً، لا غرابة فيها، ولا تميّز، فقد كانت تتدفّق تلقائيًّا من قلبه، تدفّق الماء من نبعه، وتتّشح بعذوبةٍ ملائكيّةٍ. وكان يتعذّر عليّ حبس دموعي، كلّما تفجّرت من صدره تأوّهاتٌ مديدةٌ، ولا سيّما عندما كان يصوّب أنظار حبّه نحو السماء. وكنت، حينئذٍ، أخجل من برودتي ونقائصي".

وفي فترة بعد الظهر كان، غالبًا، يجول في الحقول، تاليًا صلوات السواعيّة، وأدعيةً أُخرى تنطلق من أعماقه، كارًّا بين أصابعه حبّات المسبحة، بين الأشجار، ومتبادلاً التحيّات، وعباراتٍ ودّيّةً مع الفلاّحين والعمّال الزراعيّين الذين يصدفهم. وعلى غرار القدّيس فرنسيس الأسّيزي، كان يسير وحيدًا مع الله، متأمّلاً عظمته المتجلّية في خليقته، وفي إبداعاته، متسلّقًا كلّ شيءٍ، حتّى زقزقات العصافير، سلّمًا إلى العليّ. وحتّى في واحة الهدوء هذه، كانت توثّبات الحبّ الإلهيّ، وهموم رعيّته تغزو نفسه.

فقد فاجأه، يومًا، العمدة، راكعًا في غابةٍ، مذرّفًا دموعًا حارّةً، مردّدًا بلا انقطاعٍ: "يا إلهي ردّ إليك نفوس أبناء رعيّتي!". وفي سبيل هذا الارتداد كان متأهّبًا لمكابدة أقسى التضحيات، وأفعال التوبة. ولطالما سُمع هاتفًا: "أنا متأهّبٌ لتكبّد كلّ أنواع الآلام، طوال عمري... أجل، مئة سنةٍ، وأكثر الآلام حدّةً، لكي يرتدّوا إليك يا ربّ!".

همّ نفوس رعاياه كان ديدنه المقيم، يرهقه ويقضّ مضجعه، ولطالما شوهد راكعًا على التراب مذرّفًا الدموع ومتوسّلاً: "يا الله، إهدِ أبناء رعيّتي إلى دروبك". وقبل شروعه بالصلاة، وفور الفراغ منها، كان يركع على الحضيض، حيثما وُجد، وحيثما اطمأنّ إلى تواريه عن الأنظار الفضوليّة.

ولكم تاق، لاحقًا، إلى ساعات الصلاة المتمادية، وإلى مرابع الطبيعة، في العزلة والصمت، عندما أصبح سجين كرسيّ الاعتراف، حيث لا شمس تنيره وتدفئه، ولا هواء ينعشه!

أَصوامٌ، وأَسهارٌ، وإِمَاتاتٌ

أدرك الأب "ڤـــيانّي" أنّ إنقاذ النفوس يقتضي ثمنًا، فلم يتوانَ عن أداء هذا الثمن، وقرن الصلوات الحارّة المتمادية بالتضحيات التكفيريّة الصارمة والسخيّة.

كانت مباشرته رسالة أرس قد تزامنت مع بدء الصوم الكبير، فوطّن النفس على ممارسة مناسبة التوبة والتضحية المميّزة تلك، حتّى أقصى حدودها. ولا يغربنّ عن بالنا أنّه تتلمذ على يد راهب سابقٍ، الأب "بالّي"، الذي توغّل في ميادين التضحية، واندفع هو في تيّارها بكلّ عنفوان المبتدئ الذي لا عهد له باعتدالٍ. وقد ترسّخ لديه اليقين بأنّ التضحيات الكبرى هي التي تستدرّ النعم الكبرى. ومنذ ذلك الصوم الممعن في القسوة، أصبح الصوم له نهجًا دائمًا مدى حياته، وتدنّت احتياجاته الغذائيّة حتّى ما يقارب الصفر.

ضحّى، إذن، بمتعة الطعام، ولم يستبقِ منه إلاّ ما يبقيه على قيد الحياة. وحتّى هذا الزهيد لطالما زهد عنه، ففي أيّام الآحاد والأعياد، كان انهماكه في الخدمات الروحيّة، لا يتيح له متّسعًا حتّى لابتلاع حبّتَي بطاطا، فيكتفي، ظهرًا، بفتات قربانةٍ، وفي المساء يسدّ رمقه بأقلّ من الزهيد.

وسبق لنا ذكر استغنائه عن خدمة أرملةٍ تطوّعت لإعداد مائدته. لأنّه قلّما يجلس إلى مائدةٍ، واقتصرت لائحة وجباته على البطاطا المسلوقة التي كان يملأ بها دلوًا نحاسيًّا، بمثابة قدرٍ، يعلّقه فوق الموقد، حيث تُسلَق. وكانت هذه "الطبخة" تكفيه أسبوعًا أو أكثر، إذ كان ينتشل منها حبّتين أو ثلاثًا عندما يعضّ الجوع أحشاءه، ويلتهمها باردةً. وغالبًا ما كان انشغاله بشؤون الرعيّة يُنسيه حتّى هذه "المأدبة" فتكسو البطاطا طبقةٌ صفيقةٌ من العفن.

هذا الدلو القدر الإسطوريّ، مازال حتّى اليوم معلّقًا فوق الموقد شاهدًا على زهد خوري أرس، وقد تسنّى لي تأمّله، لمّا قمتُ بزيارة أرس، بصحبة الأب الجليل،

الصديق الحبيب الأب الياس زحلاوي، ورائية الصوفانيّة السيّدة الفاضلة ميرنا الأخرس نظّور.

وما أكثر شواهد زهده! فذات يومٍ استبدّ به الجوع، ووجد دلو البطاطا فارغًا، فقرع باب جارٍ له، ودهش الجار لما رأى على الكاهن من شحوبٍ وتهالكٍ، واستفسره عمّا به، فأقرّ الخوري أنّه لم يتناول طعامًا منذ ثلاثة أيّامٍ، وتكرّم عليه الجار بنصف رغيفٍ.

وفي مناسبةٍ أُخرى، زار أُسرةً، في موعد العشاء، ورأى على المائدة بطاطا مازال البخار يتصاعد منها، فأمسك حبّةً، وتأمّلها لحظاتٍ، مشيدًا بجمالها، ثمّ أعادها إلى مكانها، رافضًا تذوّقها.

وفي نوبةٍ أُخرى، فاجأته جارةٌ وهو يقتطف من الحديقة بقول "الحمّيض"، فسألته: "هل هو يتغذّى بالأعشاب؟"، فارتبك، وأجاب: "حاولت الاكتفاء بها غذاءً، ولكنّني لم أصمد طويلاً".

وكانت الأرملة المهتمّة بغسل ثيابه. قد رثت لحاله، ورغبت في منحه طعامًا أكثر تغذيةً واستساغةً، فأتته بخبزٍ أسود جافٍّ. وفي يومٍ آخر أعدّت له طعامًا بسيطًا وفطائر، ولكن لم يتّسع له وقتٌ لتذوّقها. وكرّرت المحاولة ثانيةً، ولمّا عادت لاسترجاع طبقها وجدته كما أتت به، لم تمسَّه يدٌ. وعادت به خائبةً باكيةً. وحاولت، في مناسباتٍ أُخرى، أن تأتيه بالطعام، إثر عودته من الكنيسة، لعلّه يتناول شيئًا منه. ولكنّه كان يأبى أن يفتح لها الباب، ويردّها من الداخل، قائلاً: "لست بحاجةٍ إلى شيءٍ، ولا أريد شيئًا"، ويوعز إليها ألاّ تعود. ولكنّها مانفكّت تكرّر محاولاتها، بلا طائلٍ، ولم تفلح، قطّ، في ثنيه عن مقاطعة الطعام. وعلّق أحد أبناء الرعيّة على هذا الموقف بقوله: "ما أصعب القيام بخدمة قدّيسٍ!". وغالبًا ما سها عن تناول الطعام أيّامًا متعاقبةً، وغالبًا ما لم تدخل فاه لقماتٌ معدوداتٌ، سوى مرّتين في أسبوع الآلام، سنواتٍ كثيرةً.

مسبحته والشمعة التي كان يستنير بها ليلاً

واتّفق أن زارته، يومًا، شقيقته مرغريت، برفقة سيّدةٍ كانت تعنى بإعداد طعامه، في رعيّة "إيكويّي". فاستقبلهما بفرحٍ ومودّةٍ، ولكنّه لم يلبث أن أنبأهما أنّه لا يملك طعامًا يقدّمه لهما، خلا شيئًا من مؤونته من البطاطا المسلوقة، وجاءهما ببعض حبّاتٍ منها، فوجدتاها متعفّنةً، وقرفتا، ولم تمسّاها، أمّا هو فلم يحجم عن تناول حبَّتيْن، قشّرهما والتهمهما، مؤكّدًا: "لم تفسد بعد، وأنا أجدها مازالت طيّبةً، وصالحةً للطعام". ثمّ قال: "هناك من ينتظرني في الكنيسة، فتدبّرا أمركما"، ومضى. ولحسن طالعهما كانتا قد ابتاعتا، وهما قادمتان، قليلاً من الدقيق، فتدبّرتا أمرهما بذلك الدقيق، وبما اكتشفتا في مطبخ الخوري من بقايا مؤونةٍ.

غير أنّ أخاه فرنسوا، لّما زاره، افتقر إلى فطنة أخته ورفيقتها، ولم يجد لدى أخيه الكاهن ما يسكت به جوعه، فاضطرّ إلى اقتلاع بعض حبّات البطاطا من الحديقة، وسلقها، وأخمد بها صرخات معدته.

ولكن، مع كرّ السنين، تعلّم الخوري أن يوفّر لزائريه استضافةً أقلّ تقتيرًا وحرمانًا. وفي الواقع، كانت مرحلة بدء رسالته في أرس، هي الأشدّ قسوةً، في حياته، وقد توغّل فيها تضحياتٍ وحرمانًا.

هذا النظام الغذائي الممعن في الشظف، استمرّ حتّى عام ١٨٢٧، عندما أسّس "دار العناية"، التي اعتادت أن تعدّ له وجباتٍ بسيطةً ومنتظمةً. ولكنّه ماانفكّ يتوق إلى البطاطا التي كان يسلقها بنفسه.

وكان قلقه الدائم على نفوس الرعيّة، وتحرّقه إلى تأمين خلاصها واقتيادها على دروب الإنجيل لا يتيحان له لحظة اطمئنانٍ، ويدفعانه، بلا هوادةٍ، إلى ألوانٍ أُخرى من التضحيات. كان يدعو جسده "جثّته"، ويمعن فيه ترويضًا لا رحمة في قسوته. فهو، مذ باشر خدمته الكهنوتيّة في "إيكويّي"، كان، تمثّلاً بمرشده، الأب "بالّي"، قد اصطنع قميصًا من وبر الماعز، يلبسه على جسمه، مباشرةً. وكان، في المساء، قبل إخلاده إلى النوم، يكشف الجزء الأعلى من ظهره، ويوسعه جلدًا بحبلٍ ألصق

به قطعًا معدنيّةً. وكثيرًا ما كانت هذه الإماتة تمتدّ على نحو ساعةٍ، وتفضي به، أحيانًا، إلى الإغماء. فكان، حينذاك، يستند على الجدار، حيث طبعت يده بصمات تضحياته، وحيث استقرّت قطرات دمٍ، نفرت من كتفيه، وخلّفت آثارها، سنين طويلةً. وكانت النساء المتطوّعات لغسل غلالاته، تستهولنَ آلامه، وهنّ يشهدنَ تلك الغلالات مضرّجةً بدمه. ولطالما لملمت المرأة التي تكنس حجرته، نتفًا من مجلدته، وقطعًا معدنيّةً أفلتت منها، وانتشرت حول سريره وتحته.

أمّا النوم الكفيل بإراحته من عناء أيّامه الحافلة بالجهد، فلم يكن ينال منه سوى لحظاتٍ، قدّرها المقرّبون منه بساعتين، مستدلّين باستهلاكه شمعةً كاملةً كلّ ليلةٍ: فلم يكن يأوي إلى سريره إلاّ بعد الساعة الحادية عشرة، عقب استغراقٍ في الصلوات والمطالعة. وقد ألف ابتكار طرقٍ جديدةٍ لجعل نومه موجعًا. فتارةً ينــزع فراشه الرقيق المحشوّ قشًّا عن السرير ويبسطه أرضًا، وأحيانًا كثيرةً يضع فوق ذلك الفراش الخشن أغصان كرمةٍ جافّةٍ (جرزون)، ويستلقي فوقها، وبمثابة وسادةٍ كان يلقي رأسه على حزمة قشٍّ كان يلفّها بغطاء السرير. وقد حاول، فترةً، الرقود على حضيض طبقة الدار السفليّة، فوق أغصانٍ يابسةٍ. غير أنّ الرطوبة التي كانت تنــزّ من الأرض والجدران، ما عتّمت أن ابتلته بعلَلٍ عصبيّةٍ أكرهته على العزوف عن تلك الممارسة. فاستعاض عنها بالرقاد على أرضيّة الأهراء الخشبيّة، متوسّدًا جذع شجرةٍ.

وكان يبرّر هذه المبادرات الموجعة بدعوة الربّ الملحّة إلى السهر الدائم واليقظة. وإلى يقينه بأنّ لا شيء يملأ النفس سوى الله ورضاه، والبقاء على اتّصالٍ دائمٍ به.

ولكي يطمئنّ إلى عدم تقصيره في أداء ما يطلبه الله منه، حرص على فحص ضميره فحصًا متواترًا ودقيقًا، وعلى تحرّي مساقط أخطائه. ولم يكن يجد في سلوكه سوى الأخطاء، ولا يتبيّن في نفسه سوى النقائص. وقد باح، يومًا، بأسًى: "سألت

الله أن يريني بؤسي، ولو لم يتداركني بعطفه لهويت إلى القنوط". ولطالما أقرّ أنّه، كلّما تردّت الرعيّة، كان يرتمي أمام الهيكل، ارتماء كلبٍ أمام سيّده.

تأهّب، إذن، "خوري أرس" لرسالته بالصلاة المستمرّة، وبالإماتات المسرفة في الصرامة، التي ندهش لها اليوم، ويستنكرها بعضنا، والتي كانت، آنذاك، مألوفةً في أوساط الساعين إلى القداسة، والمكلّفين بمهمّاتٍ روحيّةٍ صعبةٍ. غير أنّه، في سنواته الأخيرة، غدا يؤثر التشديد على حبّ الله، وسعة رحمته، والثقة به ثقةً مطلقةً منـــزّهةً من الخوف.

ولاحقًا، بعد أن اختزن من الخبرات قسطًا وفيرًا، أسرّ لكاهنٍ شابٍّ كان قد قصده، بغية التمرّس، على يده، برعاية النفوس: "يا صديقي، قلّما يبالي إبليس بالجلد وقمع الجسد. وإنّما يهزمه حرمان الذات من الشراب والطعام والنوم. وهو لا يخشى شيئًا أكثر من هذا الحرمان. ومن ثمّ، فلا شيء يروق للربّ مثله. ولكم أنا مارسته! فطوال السنوات الثماني أو التسع التي قضيتها وحيدًا، تسنّى لي، بلا عائقٍ، الإحجام عن الطعام مدى أيّامٍ كاملةٍ. وحينئذٍ كنت أنال من الله كلّ ما أبتغيه من أجل الآخرين ومن أجل نفسي". وكان يقول ذلك، وعيناه تفيضان دموعًا. ثمّ استأنف القول: "لقد اختلف الحال الآن. ولم أعد أقوى على الامتناع، طويلاً، عن الطعام. لأنّ ذلك يجعلني عاجزًا حتّى عن الكلام... كم كنتُ سعيدًا في وحدتي، كنت أشتري من الفقراء كسرات الخبز الجافّ التي يُجاد بها عليهم. وكنت أُنفق قسطًا كبيرًا من الليل في الكنيسة. ولم يكن يقصدني هذا العدد الغفير من طالبي الاعتراف الذين يقصدونني اليوم... وكان الله، آنذاك، يغدق عليّ نِعَمًا فائقةً". وبالإجمال، كانت مرحلة تضحياته الجسيمة في شبابه، هي مرحلة تعزياته الكبرى.

ولكنّه، مع كلّ ما فرضه على نفسه من تضحياتٍ وحرمانٍ، لم يتحرّر من القلق والارتياب في جدوى جهوده وتضحياته. وقد صرّح أقرب معاونيه إليه، الأخ "أثناس": "أبلغني الخوري "ڤـــيانّي" أنّه طالما عانى أزماتٍ داخليّةً، فجهله ظلّ له

مبعث رعبٍ ملازمٍ، ومسؤوليّة رعايته الكهنوتيّة، كانت ترتعد لها فرائصه، ويبلغ به الخوف أن التمس من كلّيّ القدرة أن يسكب على نفسه نورًا خافتًا، لئلاّ يتملّكه القنوط، إذا شاهد، على ضوء نورٍ كاشفٍ، مدى هزاله وتقصيره".

وسُئل، في أيّامه الأخيرة، بعد أن ذاعت شهرة قداسته، هل تراوده تجارب الكبرياء، فأجاب: "كلاّ، ليس هذا ما أتعرّض له من تجارب. فأنا راسخ اليقين أنّ كلّ ما يحدث هو عمل الله. إنّما التجربة التي تراودني هي اليأس". وكان يواجه هذه التجربة بالمحبّة، مؤكّدًا: "إنّ الله يحبّنا حبَّ أكثر الآباء عطفًا، وأرقّ من حبّ أكثر الأُمّهات حنانًا. وما علينا سوى الاستسلام له ولمشيئته".

وكان قد توصّل إلى قناعةٍ: "عندما نفتقر إلى العزاء، نخدم الله من أجل الله، ولكن عندما ننال عزاءً، قد نتعرّض لمحنة خدمته من أجل ذواتنا".

ومع أنّ ابتسامته الدائمة كانت تحجب عمق معاناته، غالبًا ما تفجّرت من نفسه هذه الصلاة المثقلة بمزيجٍ من التأثّر والسلام: "إذا عجز لساني عن التعبير، في كلّ لحظةٍ، عن حبّي لك، فليت قلبي يردّد هذا التأكيد، كلّما تنفّستُ. يا إلهي، أعطِني نعمة التألّم، وأنا أحبّك، ونعمة حبّك، وأنا أتألّم. إنّي أحبّك، يا مخلّصي الإلهيّ، لأنّك صُلِبتَ من أجلي. أحبُّك، يا إلهي، لأنّك تصلبني، في هذه الدنيا، من أجلك... هبني نعمة الموت وأنا أُحبُّك، وأشعر بحبّي لك!".

حَربٌ عَلى الجَهل الدينيّ

بعد أن أشاع الأب "ڤـــيانّي" بينه وبين أبناء رعيّته جوّ ثقةٍ ومودّةٍ، وأقام بينه وبينهم علاقة الراعي الصالح بخرافه الذين يعرف كلاًّ منهم باسمه، فيسمعون صوته ويتبعونه، وبعد أن أعدّ تربة نفسه للعمل الخصب، بالإمعان في الصلوات والتضحيات، وأوكل إلى الله أمر تحويلهم إلى حياةٍ مسيحيّةٍ حقيقيّةٍ متينة الأسس، مبنيّةٍ على تعاليم الإنجيل، شرع بنشر البذار الكفيل بإنبات الثمار اليانعة الوفيرة، بادئًا بمحاربة الجهل الدينيّ، واثقًا من أنّ حقيقة "الكلمة" تكمن في كلمة التعليم.

وكان بدَهيًّا أن يبدأ بتثقيف الصغار على المبادئ المسيحيّة. فزادُ هؤلاء من الثقافة المسيحيّة كان موغلاً في الهزال والهشاشة، فهم منذ سنّ السادسة أو السابعة يكلَّفون برعاية الماشية، وينطلقون إلى هذه المهمّة منذ ساعات النهار الأولى. وحالما يبلغون الثانية عشرة تُفرَض عليهم مساعدة الكبار في أعمال الحراثة، والزرع والحصاد. وقلّةٌ منهم يظفرون بمبادئ القراءة والكتابة، في أيّام الشتاء الماطرة. أمّا التعليم الدينيّ فلا يحصلون منه إلاّ على فتاتٍ، وتغرقهم أمّيّتهم في خضمّ جهله، فلا يولونه اهتمامًا، ولا سيّما أنّ أيّام الأحد لم تكن تختلف لديهم عن سائر أيّام الأُسبوع، فتحبسهم مهامّ الحقول، ورعاية المواشي، أو أعمالٌ أُخرى داخل المنازل، عن الشخوص إلى الكنيسة. وبالتالي، كانت المعاشرات الوبيلة، وانعدام الأُطر الدينيّة تقودهم إلى الفجور. وكان جلُّهم، من جرّاء انكبابهم على الأرض، واقتصار اهتمامهم على المادّة، ينشأون وينمون، وكأنّ لا نفس لهم. ولم تكن لهم المناولة الأولى – إذا نالوها – سوى حَدثٍ عابرٍ في وجودهم، لا يخلّف في نفوسهم أثرًا. ولم يكن ذووهم معنيّين بإكسابهم ما يفتقرون إليه من مبادئ دينيّةٍ، لم يظفروا، هم أنفسهم، منها، إلاّ بفتاتٍ لا يغني ولا يشبع جوعًا.

عام ١٨١٨، إذن، افتتح الخوري الجديد دروس تعليمٍ دينيٍّ للصغار، تمهيدًا لإعدادهم للمناولة الأولى، كان يستهلّها الساعة السادسة صباحًا قبل انطلاق الصغار إلى المراعي والحقول. والملفت أنّ قلّةً منهم تخلّفوا عن ذلك الموعد المبكّر. فقد كان الخوري قد اهتدى إلى سرّ اجتذابهم، واعدًا أوّل قادمٍ بإهدائه صورةً مقدّسةً جميلةً... وكانت تلك الصور التي تمثّل الربّ يسوع والعذراء ، وقدّيسين وقدّيساتٍ، تلهب في الصغار الرغبة في معرفة أصحابها، وتقرّبهم من قلوبهم. وكان يُهدي كلّ من يحضر الدرس مسبحةً، ويطلب منه إبقاءها في يده. وكانت جيوبه محشوّةً، دائمًا، بالمسابح، فيُهدي، منها، كلّ من لم يحصل على واحدةٍ، أو من أضاع مسبحته. وبهذه الإغراءات البريئة كان يستقدم الأطفال، حتّى منذ الساعة الرابعة. وقد صوّر أحد أولئك الصغار، بعد مضيّ عقودٍ، ذكرياته عن تلك الدروس، فقال:

« عندما كنّا نصل، صباحًا، لتلقّي التعليم الدينيّ، كنّا نشهد الأب "ڤيانّي" راكعًا تحت القبّة، يصلّي، ويصلّي، مستبحرًا في الصلاة... وبين فينةٍ وفينةٍ كان يشخص بأبصاره نحو السماء، وتطوف بسمةٌ ساحرةٌ على محيّاه، وكأنّه يشاهد مناظر أخّاذةً ».

وكان منظر ورعه خير درسٍ. وعندما يتبيّن اكتمال عدد طلاّبه، واحتلالهم أماكنهم، كان يجلس، ويفتتح دروسه بطرح أفكارٍ عميقة التأثير تأخذ بشغاف قلوبهم، وتستدرّ دموع الكثيرين منهم. ثمّ كان يدعو بعضًا منهم إلى "تسميع" درس الأمس. وبعدئذٍ يتطرّق إلى درسٍ جديدٍ، يلقيه بإيجازٍ ووضوحٍ، وعذوبةٍ، مستخدمًا لغةً بسيطةً، ملوّنةً، مساعدًا على تقريب دروسه من أذهانهم مستشهدًا بأمثالٍ مستنبطةٍ من حياتهم اليوميّة. وكان يراقب اهتمام كلٍّ منهم بأقواله، مراقبةً طافحةً عطفًا، متنقّلاً بين المقاعد، جيئةً وذهابًا، حائلاً دون شرودهم، مُبقيًا جميعهم متيقّظين، محكمي الإصغاء لأقواله. وإذا اتّفق أن شرد ذهن أحدهم، رغم ذلك، أو أخذت به غفوةٌ، كان يلامس خدّه بكتابه، ويوقظه مشيعًا جوًّا مرحًا.

وكانت دروس يوم الأحد تعطى عصرًا، قُبَيْل صلاة الغروب، ويشترك في الاستماع إليها كهولٌ إلى جانب الصغار. وكانت تندرج على منوال الدروس الصباحيّة، وحينئذٍ كانت حالات الإغفاء تتكاثر، ولا سيّما أنّ العديد من الحاضرين يكونون قد نهضوا عن مائدة يوم الأحد الدسمة، قبل قليلٍ، بمعَدٍ ملأى. ولم يكن الخوري يتوانى عن إيقاظ الغافين والغافيات، بلكزاتٍ خفيفةٍ مصحوبةٍ ببسمةٍ ساحرةٍ، تضفي على اليقظة ضحكة استحياءٍ.

وبفضل مثابرة خوري أرس على ترسيخ المبادئ المسيحيّة في نفوس أبناء رعيّته، أضحوا هم الأفضل ثقافةً دينيّةً في كلّ المنطقة. هذا ما أقرّ به أُسقف الأبرشيّة. وقد شهد، بدهشةٍ وإعجابٍ، الكهنة الذين تعاقبوا على خدمة رعيّة أرس، بعد الأب "ڤــيانّي"، على متانة العلم الدينيّ، لدى الكبار الذين تثقّفوا على يد خوريهم القدّيس. بيد أنّ بعض طلاّبه كانوا قد ضاقوا ذرعًا بشدّته، واقتضائه الكثير منهم، إذ كان يأبى منح المناولة الأولى لمن تبيّن خللاً أو نقصًا في ثقافتهم الدينيّة، وفي إلمامهم التامّ بالعقيدة المسيحيّة الأساسيّة. وحينئذٍ لم يكن يحجم عن إرجاء منحهم المناولة، بحزمٍ، سنةً أو سنواتٍ، حتّى يتيقّن من اكتمال علمهم الدينيّ. فلم يحظَ أفرادٌ منهم بالمناولة الأولى إلاّ وقد تخطّوا سنّ السادسة عشرة.

الواعظ

ولم يقتصر خوري أرس على تثقيف الصغار، بل حرص، أيضًا، على تثقيف الكبار، انطلاقًا من يقينه بضرورة القضاء على الجهل، وبأنّ "الإنسان الجاهل لا يدرك ما ينتجه اقتراف الخطيئة من شرٍّ يرتكبه، ومن خيرٍ يفقده".

وكلّفه حرصه على حسن إعداد عظاته جهودًا مرهقةً. فكان يختلي، مساءً، في موهف الكنيسة (السكرستيّا)، بعد إغلاقها، متّخذًا من ذلك الموقع مكتبًا، جمع فيه العديد من الكتب الروحيّة، والمواعظ الشهيرة المختارة، التي ورّثه إيّاها الأب "بالّي".

يبدأ بتمعّن نصّ مقطع الإنجيل الذي سيُتلى يوم الأحد، ويُشبعه تأمّلاً، ثمّ يكبّ على مراجعة ما كُتِب من تعليقات عليه، فيجمعها، وينسخها، ويمعن في استيعابها، ثمّ يركع على درجات الهيكل مستلهمًا أنوار الروح القدس، منضجًا مطالعاته وتأمّلاته، مجيلاً الفكر في أبناء رعيّته البسطاء، وسائلاً الربّ أن يلهمه العبارات الكفيلة بتسريب روح الإنجيل إلى أذهان وقلوب أولئك الفلاّحين والرعاة، وأن يجري على لسانه الأفكار واللهجة الكفيلة بالتأثير فيهم، وبتحويلهم، شافعًا توسّله بدموعه. ثمّ يعود إلى السكرستيّا ويكبّ على تدبيج عظته مالئًا الصفحات بخواطره وإلهاماته، وغيرته واقتباساته، منفقًا على هذه المهمّة ساعاتٍ طويلةً، تمتدّ، أحيانًا، حتّى آناءٍ متقدّمةٍ من الليل، وربّما ليالي متعاقبةً.

ثمّ كان يقف ليلة السبت الأحد على استذكار ما جمعه من أفكارٍ، وما دبّجه من خواطر، والتمرّن على إلقائه، وكأنّه فوق منبر الوعظ. وغالبًا ما سمع المارّون، ليلاً، على مقربةٍ من دار الرعيّة العظة التي كان خوريهم يتأهّب لإلقائها في قدّاس الغد. وغالبًا ما كان وهن ذاكرته يكرهه على تكرار هذه المحاولة، مرّةً إثر مرّةٍ، حتّى يأخذ به الإعياء، فيجلس على بلاط الكنيسة، مسندًا رأسه على درابزين المناولة. وبعد لحظات هدنةٍ واستراحةٍ، يُعيد الكرّة إلى أن تخور قواه فيعود إلى حجرته.

وعندما يرتقي المنبر، في الصباح التالي، كي يلقي العظة التي أَلِف كهنة الرعايا تكريس ساعةٍ كاملةٍ لها، وهو صائمٌ منذ أكثر من اثنتي عشرة ساعةً، لم يكن خافيًا عن علمه أنّ فئة الشبّان الموجودين في الكنيسة، كانوا مكبّين على مراقبته، وترصّد مواطن وهنه، والسخريّة به، متمنّين الوجود في أماكن أوفر متعةً. وكانت تُلمّ به لحظاتٌ تتوقّف فيها ذاكرته عن إسعافه، فيتعثّر. وقد يدفعه التعثّر إلى الانحدار عن المنبر، وإنهاء العظة قبل ختامها. وفضلاً عن ذلك كان كثيرون من مستمعيه يضيقون ذرعًا بصوته الحادّ، أثناء الوعظ. وقد استوضحه أحدهم عن سبب ارتفاع صوته، في الوعظ، فيما جرسه خافتٌ ورقيقٌ أثناء الصلوات، فأوضح: "عندما أعظ أتوجّه، غالبًا، إلى قومٍ صمٍّ، غافين، ولكنّي، في الصلاة، أخاطب الله، وهو يحسن الإصغاء، ولا تأخذ به سنّة نومٍ".

هذا التعثّر كان يوجعه، فكان يلتمس من أصدقائه الصلاة من أجله، كي يتحرّر منه. وشيئًا فشيئًا أمست ذاكرته أكثر وفاءً. ونزع، هو، إلى التحرّر من النصّ المعدّ، واستسلم للارتجال، مطلقًا لقلبه عنان الفيض بما يجيش فيه. ومنذ عام ١٨٢٥، حالت وفرة انشغالاته دون إنفاقه ساعاتٍ على تدوين نصوص عظاته، فآثر قضاء الليالي مطالعًا كتبًا روحيّةً، متغذّيًا بها، متزوّدًا منها بأفكارٍ؛ وغدت عظاته عصارة تأمّلاته وصلواته، فاكتسبت أقواله رقّةً وعمقًا، وأضحت تعبيرًا عن الحبّ الذي ينبض به قلبه، وأمست أعمق تأثيرًا. وقد صرّح، يومًا، في هذا السياق: "الوسيلة المثلى لإضرام حبّ ربّنا في قلوب المؤمنين هي تفسير الإنجيل". وسنةً فسنةً، ازداد أبناء رعيّته اندفاعًا في الإقبال على الاستماع إليه، وعُدّ من أكثر الواعظين اجتذابًا للمستمعين، وأمسى زملاؤه كهنة الرعايا الأُخرى، الأوفر منه علمًا، يتبارون في دعوة ذاك الذي كان يوصف بالجاهل، للوعظ في رعاياهم، وجعلوا منه نجم الاحتفالات الإفخارستيّة والرياضات الروحيّة.

لا مراءَ أنّه لم يصبح، يومًا، خطيبًا مفوّهًا، وأمير فصاحةٍ، ولكنّه كان، بلا

منازعٍ، شاهدًا متواضعًا، وصادقًا للإنجيل، يتدفّق هوًى، واقتناعًا، وقدرةً على الإقناع. وقد شهدت معاونته "كاترين لاسّانيي (Lassagne): "عندما يتكلّم عن حبّ الربّ الجمّ، كان قلبه ينقبض، فيبكي".

وذاك الذي كان له الوعظ، في مطلع عهده به، مهمّةً مخيفةً، ترتعد لها فرائصه، أمسى الوعظ من أحبّ مهمّاته، وأكثرها إلى قلبه شغفًا، واندفع في ميدانه، بلا تحفّظٍ، ولا اكتراثٍ لما قد يناله منه من تعبٍ. وعندما كان ينتهي إلى حالة إعياء، وينصحه أصدقاؤه بالاستراحة، كان يجيب: "عندما يتعلّق الأمر بحبّ الله، يتوفّر لديّ، دائمًا، فيضٌ من القوّة".

ومن المحقّق أنّ مثال قداسته كان عظته الأكثر فصاحةً.

وعلى غرار التطوّر الذي طرأ على أُسلوب وعظه، طرأ تطوّرٌ مماثلٌ على مضمونه. فهو عندما كُلِّف بخدمة رعيّة أرس، كان مازال متأثّرًا، في العمق، بالنـــزعة الجنسينيّة السائدة آنذاك، والتي كانت تقصر الخلاص على فئةٍ ضئيلةٍ من المتقيّدين بحذافير الوصايا الكنسيّة، فيما أبواب جهنّم مشرعةٌ على مصاريعها للمتهاونين بشأنها، وعلى جموع الخطأة. وهو، مذ وطئت قدماه رعيّة أرس، صدمه وأحزنه تفشّي التراخي في التزام تلك الوصايا، والانحلال الأخلاقيّ، وانتشار الأوصاب الاجتماعيّة المؤدّية إلى الهلاك. وهاله انصراف معظم المؤمنين عن الكنيسة إلى أعمال الحقول، أو إلى متعٍ آثمةٍ. واستنكر حضور نساءٍ إلى الكنيسة بألبسةٍ تفتقر إلى الحشمة، وما يظهره الرجال من لامبالاةٍ بقدسيّة الأسرار، ومن سأمٍ أثناء الصلاة، وتبادل الهمسات، والتثاؤب المدوّي الفظّ، ومن دخول بعضهم بعد انقضاء وقتٍ طويلٍ على بدء القدّاس، واستعجال آخرين بالخروج قبل نهايته، وصفقهم الباب وراءهم بجلبةٍ وقحةٍ. واستنكر موقف شبّانٍ لا يكفّون يجيلون أنظارهم في كلّ جانبٍ، متحرّين ملابس الحاضرين وهندامهم، وقسماتهم، وعبث الصغار وضحكاتهم على غير اكتراثٍ بقدسيّة المكان.

وأحزنته استعاضة بعضهم عن القدّاس بزيارة جارٍ يحتسون معه زجاجة نبيذٍ، ورؤيته آخرين يجرّون صديقًا قاصدًا الكنيسة إلى منـــزلهم، لتجاذب أطراف أحاديث تافهةٍ أو مشينةٍ، مسهّلين عليه الأمر، بدعوى أنّ الوقت سيتسنّى له، لاحقًا، لحضور القدّاس. وكان يؤسيه قضاء بعضهم يوم الربّ المطلوب تقديسه، في ملهًى، أو مقهًى، أو مرقص، أو خمّارةٍ، أو في مزاولة عملٍ يدويٍّ؛ وأشدّ ما كان يحزنه أن يحيا جميع هؤلاء، وكأنّ لا نفسَ لهم. وهم، بانصرافهم إلى تلك الموبقات والترّهات، لا يخسرون نفوسهم فحسب، بل سيهدرون صحّتهم، ومالهم، ومقوّمات عيشهم، وعيش أُسرهم.

ومن ثمّ كان يرى أمامه، من منبر وعظه، صخورًا صلدةً، قاحلةً، لا بدّ من ضربها بقسوةٍ كي تتفتّح للخصب. وفي هذا السبيل، كان يستخدم تعابيرهم الرائجة للتنديد بإملاقهم الروحيّ، تعابيرهم التي لا يُبرّر حدّتها سوى اضطرام غيرة الراعي. وكان تأنيبه يرتدي ثوب الحدّة، والمباشرة، والشخصيّة، والواقعيّة الفجّة، عملاً بنصيحة الرسول بولس لتيطس: "أغلظ في توبيخهم، لكي يكونوا أصحّاء في الإيمان". ويبدو أنّ خوري أرس أخذ بحرفيّة هذه النصيحة، ولا سيّما أنّه أَلِف معاملة نفسه بقسوةٍ بطوليّةٍ، ولم يُحجم عن إعمال القوّة لإصلاح رعيّته. وجديرٌ بالتذكير أنّ هذه القسوة كانت شائعةً لدى الواعظين، حينذاك.

ومن ثمّ اتّسمت عظاته الأولى بقسوةٍ قصوى، وزخرت بصيحاتٍ جريحةٍ، مثل هذه: "كم من نفوسٍ في جهنّم... يهوي الخطأة إلى جهنّم، آلافًا، وبلا توقّفٍ... كم من مسيحيّين يدانون ويهلكون، وهم، منذ الآن، هالكون...".

قد تبدو لنا قسوته هذه على تناقضٍ تامٍّ مع طيبته الفطريّة، ودماثته، وعطفه، وبسمته المتفائلة، وما ذاك إلاّ لأنّه لم يستطع تفهّم ألاّ يقاسمه الجميع حبّه الملتهب لله، ونفوره من أيّ إهمالٍ ينتهك هذا الحبّ.

وهو، عندما يشهد الرداءة، واللامبالاة بالمقدّسات، وإيثار الانجراف في تيّار

مقتضيات المجتمع المنحطّ، وتقاليده، على الإيمان النابض، كانت تتراءى له أطياف رجالٍ ونساءٍ، انفصلوا عن الله انفصالاً مبرمًا، وتردّوا إلى قعر الخطيئة. فما الخطيئة، في نظره، سوى إهانة حنان الله، وعقوق حبّه اللامحدود، ومدرجةٌ إلى الموت الروحيّ. وما جهنّم إلاّ غياب الله أو رفضه.

وكان يضاعف أساه شعورُه بأنّه، غالبًا، يخاطب جدرانًا. فكان يغتنم سانحة الاحتفالات بمناسباتٍ موروثةٍ من الأجداد، تلمّ شمل جميع أبناء الرعيّة، كي ينحي بأقسى الاستنكار للممارسات الذميمة التي تجعلهم يجرّون معهم قبورهم وجهنّمهم. ولكنّه لا يلبث أن يصدف عن الأفكار القاتمة، ويلتفت إلى رعاياه المواظبين على واجباتهم، فيشدّ أزرهم. وإذا أخذ عليه بعضهم مغالاته في التنديد بالممارسات الذميمة الشائعة، وما تجرّ من مخازٍ، وعواقب وخيمةٍ، يردّ: "إنّما راعيكم يقوم بواجبه"، ويمضي قدُمًا في إعمال السوط بسلوك "شبّانٍ وفتياتٍ ينهلون موارد الجرائم والهلاك". منددًا، أيضًا، بسلوك الآباء العميان الملعونين الذين مهّدوا لأبنائهم طريق الهلاك.

ومع استمراره في شنّ حملاته الشعواء، وإطلاق سهامه النفّاذة، غير أنّ لهجته كانت تتّسم، أحيانًا، بالرقّة والعذوبة، والسكون، مدركًا أنّ على الواعظ ألاّ يكون مجرّد مصلحٍ، بل عليه، أيضًا، أن يكون راعيًا وأبًا، ينحني على العزائم الخائرة، فيشدّدها، ويقيل عثارها، وعلى الإرادات المثبطة فيواسيها، وينهضها، ويقوّيها. وحينئذٍ، كانت تسيل منه أقوالٌ مثل هذه: "يا أبناء رعيّتي الأعزّاء، فلنسعَ للشخوص إلى الفردوس، حيث سنرى الله، وننعم بسعادةٍ قصوى. سنمضي إليه، جميعنا، في تطوافٍ، إذا آبت الرعيّة إلى رشدها، وسيكون خوريكم في طليعة الموكب. ويا للحزن إن مضى بعضٌ منكم إلى الجانب الآخر!". وكان يغدق التهاني برقّةٍ، وحنكةٍ، وخَفَرٍ، على الشبّان والشابّات الذين أفلحوا في الانعتاق من الضياع والفوضى، وانتهجوا دروب الصلاح.

كانت فطرته المجبولة بالعطف تطغى على قسوته، فيدعو إلى الاعتصام برحمة الله. ثمّ إنّه، بعد أن لامس، يوميًّا، الضعف البشريّ، وتوغّل في مكامن النفوس، وراز

أوجاعها، غدا أكثر نزوعًا إلى الرحمة؛ ومع استمراره في التلويح بنار جهنّم، كان مجرّد تفكيره بهلاك نفوسٍ، يفجّر سيول الدموع من مآقيه، حتّى إنّه كان، في حبّه اللانهائيّ، يخفت صوته، ويتدفّق تأثّرًا: "إخوتي، ما الذي يفعله ربّنا في سرّ حبّه؟ إنّ قلبه يفيض حنانًا ورحمةً من أجل إغراق خطايا العالم... ما أعظم عطف الله! وما أعظم ما أحبّنا، ومازال يحبّنا... نحن لن ندرك مدى حبّه إلاّ في الفردوس".

لقد غدا أكثر إشادةً برحمة الله وعطفه، غير مغفلٍ عدله. ومع تشديد دعوته إلى الحرص على مراعاة وصايا الله والكنيسة، والالتزام بالفضائل على غير تساهلٍ بشأنها، ومع تلويحه بمكافأة النعيم السماويّ، لم يكفّ عن التحذير بعقاب جهنّم على الخطايا.

حربٌ على الآفات الروحيّة والاجتماعيّة

عندما باشر الأب "ڤـيانّي" رسالته في أرس، شتاء عام ١٨١٨، هاله ما تبيّن من تراخٍ في الالتزام بالمبادئ المسيحيّة، وران عليه الشعور بثقل المسؤوليّة الملقاة على كاهله، بصفته خادمًا لتلك الرعيّة، منتدَبًا لتوثيق علاقاتها بالله، فأفلتت منه هذه الزفرة: "لو أدرك الكاهن، إدراكًا عميقًا، جسامة مهمّته، لتعذّر عليه العيش!" وراعه أن يكون، أمام الله، ممثّلاً لمئتين وخمسين نفسًا مسيحيّةً، أعمل فيها الإهمال دمارًا رهيبًا، فأقرّ بحزنٍ وتبصُّرٍ: "احرموا رعيّةً من كاهنٍ، مدى عشرين سنةً، فيعبد أبناؤها البهائم".

وكان قد اتّضح أنّ جوّ أرس يدعو إلى التراخي، فلهجة سكّانها "مطّاطةٌ"، كسلى، تفضح إرادةً غافيةً، والسكّان كَلِفون بالمتعة، ولا شيء كفيلٌ بردعهم عن الاستغراق في الملذّات سوى قسطٍ وافٍ من الإيمان. كان يشهد بأمّ عينيه دواعي الخطيئة المتوفّرة، ويلحّ عليه واجب المبادرة إلى إنقاذ النفوس منها.

عند مباشرته رسالته في أرس، كانت الكنيسة تكاد تمتلئ. ولكن لّما حلّ فصل الربيع، وطالبت الحقول بسواعد أصحابها، أقفرت مقاعد الكنيسة. ولم يوفّر له عيد الفصح كبير عزاءٍ، إذ أحجم معظم الرجال عن المناولة السنويّة، مثلما كانوا قد أحجموا عنها سنواتٍ عديدةً متعاقبةً. وفي شهر حزيران أضحت الكنيسة، أيّام الآحاد، شبه خاويةٍ، إلاّ من حفنةٍ من العجائز والأولاد. وكان معظم سكّان القرية، في يوم الربّ، شأنهم في كلّ يومٍ، يمتشقون رفوشهم ومناجلهم، ويتوجّهون إلى حقولهم، وكانت الطرقات تزدحم بالعربات المتّجهة إلى الحقول والعائدة منها. وتراجعت أصداء مطارق الحدّادين الدائبين على إصلاح الأدوات الزراعيّة، طاغيةً على رنّات النواقيس.

وعقب ساعات عملٍ طويلةٍ،كان الفلاّحون يعودون إلى بيوقم، وإثر استراحةٍ وجيزةٍ يرتدون ملابسهم النظيفة ويهرعون إلى الحانات. وكانت أرس، على صغرها، تزدهي بأربع حاناتٍ يعقد فيها روّادها صفقات بيعٍ وشراءٍ، على قرع كؤوسٍ حتّى الثمل، في حين يحتشد شبّانٌ وشابّاتٌ، تحت أشجار الساحة الممتدّة تحت نوافذ دار الرعيّة، على خطواتٍ من الكنيسة والمقبرة، ويعقدون حلقات رقصٍ على أنغام كمانٍ مخدوشٍ، وأغانٍ شعبيّةٍ، ونكاتٍ بذيئةٍ، وضحكاتٍ صاخبةٍ، تتخلّلها تجاديف، وصيحاتٌ منكرةٌ تتردّد حتّى ساعات الفجر.

وكان الخوري الجديد يشهد كلّ ذلك، ويسمعه، ومآقيه تفيض دموعًا. وقد تضاعف حزنه لّما علم أنّ تلك المخازي ستستمرّ حتّى الخريف، وستبلغ ذروها يوم عيد شفيع القرية، حيث يتحوّل جوار الكنيسة، ملتقى راقصين وراقصاتٍ، من كلّ أنحاء الجوار.

اتّضح له، إذن، واجب مكافحة آفات الحانات، والرقص وملحقاته من لقاءاتٍ مشبوهةٍ وتجاديف، وامتهان يوم الربّ. فانبرى لمكافحتها جميعًا، عاملاً، مدى سنواتٍ، بنصيحة القدّيس بولس، عاكفًا على الوعظ في وقته وفي غير وقته، محاجًّا، موبّخًا، مرشدًا، بكلّ أناةٍ، وبجميع وسائل التعليم.

محاربة الحانات

تصدّى، في المقام الأوّل، لمحاربة الحانات، موقنًا أنّ إغلاقها سيفضي إلى ملء مقاعد الكنيسة، وبأنّ الحانات هي دكّان إبليس، ومدرسة تعاليم جهنّم، حيث تهلك النفوس، وتُدمَّر الأُسر، وتعتلّ الأبدان، وتولد الخصومات، وتُرتَكب الجرائم.

وبلهجةٍ تجيش غضبًا كان يوضح للسكارى أنّهم، بسكرهم، ينحدرون إلى مستوى أدنى الحيوانات بهيميّةً. ولم يهادن أصحاب الحانتين القائمتين وسط القرية، معلنًا، بلا مصانعةٍ ولا وجلٍ، أنّهم، بتقديمهم الخمرة، إنّما يسرقون خبز الزوجة الفقيرة وأبنائها الجياع، لأنّ السكارى يُنفقون، يوم الأحد، كلّ ما جهدوا في جنيه طوال أُسبوعٍ... منذرًا بإحجامه عن غفران خطيئة أصحاب الحانات، الذين يقدّمون الخمرة ليلاً، وأثناء القدّاس، أيّام الأحد.

تلك اللعنات التي هزّت نفوس المؤمنين الذين يؤمّون الكنيسة، تلكّأت في النفاذ إلى مشاعر أصحاب الحانات، الذين قلّما يطأون عتبة بيت الله. ولكنّها بطريقةٍ غير مباشرةٍ، أصابتهم في الصميم، إذ أخذ عدد روّاد حوانيتهم يتضاءل، بتأثير لعنات الكاهن. وما لبث أن شكا صاحب إحدى الحانتين إلى الخوري، وقوعه في إفلاسٍ وشيكٍ، فانتزع منه الكاهن وعدًا بإغلاق حانته، ووفّر له عونًا ماديًّا، جعله أكثر التزامًا بواجباته الدينيّة. أمّا زميله، صاحب الحانة الأُخرى، فكابر فترةً، مبديًا الاستخفاف بلعنات الخوري، ولكنّه لم يلبث أن أغلق، هو أيضًا، حانوته، وامتهن عملاً آخر. وخلا جوار الكنيسة من مرابع السكر. ثمّ أُغلقت الحانتان الأخريان الواقعتان في أطراف القرية. وعُدَّ إغلاق الحانات كلّها انتصارًا مجيدًا لخوري أرس. ولكنّ الجشع أوحى لنفوسٍ ضعيفةٍ أن تنتهز فرصة غياب الحانات، وافتتاح بدائل عنها، فافتتحت، على التوالي، سبع حاناتٍ، ولكنّ لعنة الكاهن القدّيس حلّت عليها وأدّت إلى إغلاق جميعها.

وتبيّن أنّ نجاح خوري أرس في إغلاق الحانات قد أغلق، في الواقع، مصادر الفقر والبؤس، وأسهم في الحدّ من أسباب الخصام داخل الأُسر، ومن عادة التجديف الشائعة، التي لم يسلم منها حتّى الأطفال، والتي كانت تجرح مشاعر ذلك الكاهن القدّيس الذي لم يكن يطيق خدش اسم الله، والذي كلّما تناول قضيّة التجديف كانت عيناه تفيضان بالدموع، فلا يكلّ عن التنديد بها في أحاديثه ومواعظه، منذرًا بالدمار الأسرَ التي تسود فيها عادة التجديف، جاهدًا في تسريب النفور منها إلى نفوس الصغار والشبّان. ولم يقتصر على مكافحة التجديف، بل إنّه ناضل، أيضًا، في سبيل إزالة المسبّات، والقَسَم النافل من قاموس الأرسيّين، واستبدالها بعبارات تسبيح الله ومباركته.

مكافحة الرقص

ثمّ تصدّى الخوري الجديد لآفة الرقص. فمنذ وصوله إلى أرس هالَه أن يكون جوار الكنيسة مصدر صخبٍ، ومرتع رذيلةٍ. وصدمه أن يُضطرّ إلى عقد قران شابٍّ في الثامنة عشرة على فتاةٍ حبلى، في الرابعة عشرة، تورّطا في الرذيلة من جرّاء استسلامهما لغرائزهما التي أضرمها الرقص الماجن، ومن جرّاء افتقارهما إلى الرادع الدينيّ والأخلاقيّ. وقد اقتضى منه القضاء على هذه الآفة المتجذّرة خمسًا وعشرين سنةً من النضال. وغدت الوسائل التي استخدمها لهذه الغاية نموذجًا يُحتذى. فمعظم الأهالي كانوا يرون في الرقص لهوًا بريئًا، لا ضيرَ منه. وكان لا بدّ للراعي، الذي استجلى ما يتوارى خلف المظاهر من مخاطر ومخازٍ، من إزالة الغشاوة عن العيون والأذهان، انطلاقًا من يقينه بأنّ فتاةً كَلِفةً بالرقص يتعذّر عليها تذوّق الأفراح البريئة الطاهرة، وأنّ الأُسرة التي تبارك هذه الممارسات بلا قيدٍ، هي بعيدةٌ عن الممارسات التقويّة، وأنّ على من يبتغي الهروب من الخطيئة، تفادي محرّضاتها. وكان والد فتاةٍ قد طلب نصح الخوري بشأن استصحابها إلى حفلة رقصٍ، على أن تكتفي بالتفرّج فقط، فأجابه: "إن لم ترقص برجليها، فسترقص بقلبها".

لقد دفعه إلى محاربة الرقص، بضراوةٍ عنيدةٍ، يقينه بأنّ الرقص مَدرجةٌ إلى الدعارة. وكان راسخ الاعتقاد بأنّ الخطايا الأشدّ استعصاءً على النبذ هي خطايا الفسق. ولطالما ردّد قوله: "لا شيء أجمل من أن يكون المرء، بكلّيّته لله، جسدًا ونفسًا".

وانطلاقًا من هذه القناعة، انطلق خوري أرس إلى هدفه، بلا مواربةٍ ولا مصانعةٍ، مكافحًا الخطيئة ومسبّباتها، إيمانًا منه بمكافحة الأهواء الدنسة التي يولّدها الرقص. فلم يكفّ عن التنديد بالسهرات التي تفسح مجالاً رحبًا للمجون، ولانفلات الغرائز، بمناسبة الحفلات الاجتماعيّة. وإذ لم يكن، آنذاك، في أرس، قاعاتٌ للاحتفالات، كان قرويّوها يقيمون احتفالاتهم في اصطبلاتٍ يسود فيها جوٌّ فاترٌ يدعو إلى

التراخي، وينصرف الشبّان والشابّات إلى أفعالٍ وثنيّةٍ، تحت أنظار ذويهم المتسامحة، والمفتقرة إلى الوعي المسؤول. وكان لا بدّ للراعي من أن ينبّه، من فوق منبر رعيّته، من مخاطر تلك الممارسات الوبيلة، ومن ذلك الفساد الشائع المشين.

بادئ الأمر لم يوحِ للراقصين موقف الخوري الجديد، الصارم، أيّ حرجٍ أو استحياءٍ، فظلّت حلقات الرقص الصاخبة، تملأ الأجواء بضجيجها، مساء كلّ أحدٍ، في الساحة الممتدّة تحت نوافذ دار الرعيّة ومسكن الخوري. ولكنّ هذا الضجيج أخذ يخفت، شيئًا فشيئًا، نزولاً عند رغبة الخوري، ورضوخًا لتنديده الشديد، ولا سيّما بعد أن بيّن للعديد من الأُمّهات والفتيات أنّ هذا الصخب الماجن، إنّما هو إهانةٌ للربّ المقيم في مخبأ القربان، على بُعد خطواتٍ من مرابع اللهو. وسرعان ما اعتراهنّ شعورٌ بالضيق والخجل، من ممارستهنّ أفعالاً مشينةً على مقربةٍ من موئل الحبّ والطهر. وكان قد أثّر فيهنّ قوله: "لو كان لدينا إيمانٌ، وقدّرنا حضور ربّنا هنا على هياكلنا، ويداه مليئتان نِعَمًا يودّ إغداقها، لاحترمنا حضوره، أجلّ احترامٍ".

أمّا القليلات اللواتي أبينَ الانسلاخ عن العادات الوبيلة، وعن المناسبات التي تحرّض على الرذيلة فكان يُعرِض عن منحهنّ الغفران حتّى يوطنَّ العزم على انتهاج دروب التوبة، والعزوف عن الرقص. وما لبثت الساحة أن صمتت، وسادها سكوتٌ خاشعٌ، في ليالي الآحاد.

لقد مضى خوري أرس في مسعى القضاء على وبال الرقص بعنادٍ وثباتٍ، واستطاع بلوغ هدفه، خطوةً خطوةً، واستمرّ، على امتداد عشر سنواتٍ، يرشقها بسهام تجريحه بلا هوادةٍ، موضحًا أنّ هذه الممارسة الوبيلة تخالف كلّ وصايا الله. وكانت أقواله، في هذا المضمار ترتدي نبرةً قاسيةً، إليكم نماذج منها: "تدّعي أُمّهاتٌ أنّهنّ ساهراتٌ على بناتهنّ. وأنا أقول لهنّ: "أنتنّ، في الواقع تسهرنَ على هندامهنّ، ولكن يتعذّر عليكنّ السهر على قلوبهنّ. فاذهبوا، أيّها الآباء والأُمّهات المدانون إلى جهنّم حيث سيحلّ غضب الله عليكم، وعلى فعالكم، بإطلاقكم العنان لأبنائكم

الذين لن يلبثوا أن يلتحقوا بكم هناك، بما أنّكم أحسنتم إرشادهم إلى طريق جهنّم. وحينئذٍ، ستتبيّنون أن راعيكم كان مصيبًا بحظره تلك المتع الجهنّميّة...".

"يا إلهي، هل يمكن أن تضلَّل العقول حتّى الاعتقاد بأنّ لا ضير في الرقص، في حين أنّه الحبْل الذي يجرّ به إبليس زرافات النفوس إلى جهنّم!... إنّ الذين يلجون إلى حلبة الرقص يدَعون ملاكهم الحارس عند الباب، فيهرع شيطانٌ إلى احتلال محلّه، ولا يلبث أن يساوي عدد الشياطين في القاعة عدد الراقصين".

ولم يقتصر الخوري على الشجب، وإعمال سوط الكلمة، بل عمل على أرض الواقع، لمنع الشرّ، قبل وقوعه، بإقصاء سببه. وذات يومٍ، انتظر عازفَ كمانٍ، عند مدخل القرية، واستوضحه عن مبلغ الأجر الذي يحصل عليه لقاء العزف الذي يشجّع الشبّان على الرقص، وأدّى له ضعف ذلك المبلغ، فعاد العازف أدراجه سعيدًا، وأُلغيت حفلة الرقص. واتّفق له، في نوبةٍ أُخرى، أن عقد اتّفاقًا مع صاحب خمّارةٍ، وأدّى له مبلغًا مجزيًا فأغلق حانوته.

وكان، أحيانًا، مجرّد ظهوره في أماكن الفجور يُكرِه المجتمعين فيه، على الفرار.

كان قد عقد العزم على ألاّ يرمي سلاحه حتّى يطمئنّ إلى أنّ آفة الرقص قد اجتُثّت من جذورها. وكان قد لحظ أنّ ثمّة من طغت عليهم وعليهنّ رغبة الرقص حتّى الهوس، فراحوا يمارسونه في القرى المجاورة بمناسبة أعيادها السنويّة، فأقلع عن منحهم الغفران والأسرار، حتّى يعلنوا عزمهم الثابت على التخلّي عن الرقص، بلا رجوعٍ.

بتؤدةٍ، وصبرٍ، ومثابرةٍ، أفلحت صرامة الخوري القدّيس في القضاء على تلك الآفة التي ناهضها بلا هوادةٍ. وظلّ، حتّى بعد تخطّيه السبعين من سنيه، وقد أنهكته الأصوام والأتعاب، لا يتوانى عن ارتقاء منبر الوعظ، وإعمال سوط تأنيبه، بكلّ مظاهر السلوك البعيد عن الورع ومخافة الله. ولم يستثنِ اهتمام الأُمّهات المفرط في إظهار بناهنّ بمظهرٍ جذّابٍ للأنظار، فتّانٍ للأهواء، عوضًا عن اهتمامهنّ بتصويب نفوسهنّ وقلوبهنّ نحو الله، معتبرًا أنّ المغالاة في التبرّج وإظهار المفاتن، المنافي

للحشمة هي أداةٌ تستخدمها جهنّم لإهلاك النفوس. وفي سبيل مناهضة هذه النـــزعات امتشق الأسلحة ذاتها التي استخدمها في معاركه الأُخرى، والتي توخّى منها الوصول بأبناء رعيّته إلى أسمى معارج التقى والكمال.

ولحسن الطالع لم تكن جميع فتيات أرس كَلِفاتٍ حتّى الهوس بالرقص الماجن، بل كانت منهنّ من نَجَونَ من تلك العدوى، واحتفظنَ بقسطٍ من الرزانة والخفَر. فحرص الراعي على وقاية تلك الفئة من رعيّته، في حين شرع الحرج والخجل يجتاح نفوس أُخرياتٍ كُنّ شغوفاتٍ بالرقص. وكانت النعمة التي تثمرها صلوات قدّيسٍ وتضحياته تحوّل نفوسهنّ برفقٍ. وكان لطهر الكاهن ولزهده، اللذين يعكسان روح الإنجيل، التأثير الحاسم على الرعيّة التي أجمع أفرادها على الإقرار بأنّ خوريهم لا يقول إلاّ ما يفعل، ولا يعلّم إلاّ ما يمارس. فهو لا يشارك في لهوٍ جماعيٍّ، ولا يتذوّق إلاّ متعة الصلاة. ومن ثمّ يجدر بهم العمل بإرشاداته، لأنّه لا يبتغي سوى خيرهم وخلاصهم.

وكانت أولى المستجيبات لإرشاداته "آنسة أرس" التي سبق لها أن أقامت، في قصرها، حفلات رقصٍ، إرضاءً لشبّان قريتها وشابّاتها. ولكنّها مذ لمست مقت الخوري لهذه الممارسة، وسمعت تحذيراته من مغبّات أوصابه الروحيّة، امتنعت، امتناعًا حازمًا، عن تكرار تلك التجربة.

وكان الكاهن، بُغيةَ إبعاد الفتيات عن مخاطر الرقص، قد عمد إلى اجتذابهنّ نحو تسلياتٍ أكثر نظافةً وبراءةً. وفي يوم أحدٍ، كانت قد تلبّثت في الكنيسة، بعد صلاة الغروب، ثلّةٌ من الشابّات من أجل الاعتراف، ولم يكن بينهنّ أُلفةٌ سابقةٌ، فخطر للخوري أن يوحّدهنّ في شعورٍ تقويٍّ واحدٍ، فدعاهنّ إلى مشاركته تلاوة المسبحة، لكي تساعدهنّ العذراء على إتقان ما سيُقدمنَ على فعله، ولم يكن أبناء الرعيّة قد أَلِفوا تلاوة المسبحة، جماعيًّا، إلاّ يوم عيد البشارة. ثمّ إنّه، بعد استماعه إلى اعترافاتهنّ، دعاهنّ إلى اقتطاف وتناول ثمارٍ من حديقته، وفي مناسباتٍ أُخرى، كان يجمعهنّ في دار

الرعيّة، ويتلو عليهنّ سيَر القدّيسين. وكانت بينهنّ فتاةٌ ميّالةٌ إلى "العفرتة"، تأثّرت بمبادرة الكاهن، وصرّحت، لاحقًا: "أعتقد أنّ الخوري قد غيّر قلبي، في ذلك اليوم". ومنذئذٍ تخلّت عن ولعها باللهو، وانقلبت مثالاً للفضيلة والرزانة، وخطرَ للكاهن أن يتّخذ منها ومن مثيلاتها، ومن فتياتٍ ونساءٍ أُخرياتٍ نواةً كفيلةً بدعم جهوده في سبيل شفاء المجتمع الأرسيّ من علله الروحيّة، وإشراق فجرٍ متألّقٍ جديدٍ. وكان قد لحظ أنّ نساءً وفتياتٍ يمكثنَ مصلّياتٍ في الكنيسة، عقب صلاة الغروب، ويُطلنَ فترة التأمّل، عقب نهاية قدّاس الأحد، فشاركهنّ عبادتهنّ، وشارك زائري وزائرات القربان، مساءً، صلواتهم وعبادتهم، حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل. وما لبثت هذه الفئة أن تضخّمت بانضمام أُخرياتٍ إلى تلك الممارسة.

ومن جميع هذه العناصر المختارة، ومن حفنة نساءٍ وفيّاتٍ للتقاليد المسيحيّة أسّس عام ١٨١٨، "أخويّة الورديّة"، وحرّض أعضاءها على حضور القدّاس والمناولة يوميًّا، ولقّنهنّ تلاوة الورديّة، ودعاهنّ إلى استصحاب حفيداتٍ صغيراتٍ يرتحنَ إلى رفقتهنّ أكثر من ارتياحهنّ إلى أُمّهاتهنّ المثقلات بمشاغل المنـــزل. وبعد مضيّ ستّة أشهرٍ على خدمته للرعيّة، غدت المجموعة الوليدة تجتمع بعد ظهر أيّام الأحد الصاحية، فيصلّي أفرادها معًا، ويتلقّنّ أناشيد دينيّةً، ويستمعنَ إلى إرشادات الكاهن وعظاته، وسرعان ما أمسينَ رسولاتٍ في محيطهنّ، وراح عددهنّ يتنامى باطّرادٍ.

وكان الأب "ڤـــيانّي" قد أسّس، أيضًا، "أخويّة القربان المقدّس" للرجال، ولكنّ نموّها كان أبطأ وأقلّ زخمًا. غير أنّ الكاهن، ضمانًا لترسيخ التحوّل الإيجابيّ الذي تحقّق في الرعيّة، استعان بأرباب أُسرٍ ورعين، وبوجهاء كريمي الشمائل، وفي طليعتهم المختار، وبعض أعضاء المجلس البلديّ، انحازوا لوجهات نظره، وأيّدوا مساعيه، وساروا في تيّارها. وتضامنوا معه على إبعاد الحانات ومرابع الرقص عن جوار الكنيسة، وعن وسط القرية، وأسهموا في إشاعة مناخٍ مسيحيٍّ جديدٍ.

يوم الربّ

بعد أن قضى خوري أرس على آفَتي الحانات والرقص، التفت إلى قضيّةٍ أُخرى كانت تقضّ مضجعه. فهو، مذ حطّ في أرس، تبيّن بأسًى أنّ معظم أبناء الرعيّة، ولا سيّما من الرجال، يهجرون الكنيسة أيّام الأحد. ولّما تناول هذا الموضوع بعظته، للمرّة الأولى، لم يتمالك عن البكاء، والارتجاف، والاستنكار الحادّ. وظلّ شيوخ القرية، بعد عقودٍ، يذكرون عبارته الناريّة، إذ ذاك، مثل قوله: "إنّكم تعملون، ولكنّ ما تكسبونه يدمّر نفسكم وجسدكم. أنتم تبيعون نفسكم للشيطان، وتصلبون ربّنا... عندما أشهد الذين يقودون عرباتهم إلى الحقول، أيّام الأحد، أراهم يقودون نفوسهم إلى جهنّم...".

لقد أسهب في بسط حججه المبرّرة ضرورة الإقلاع عن انتهاك حرمة يوم الربّ، مستخدمًا اللغة التي يُحسن أولئك القوم فهمها، والكفيلة بالنفاذ إلى نفوسهم، مردّدًا، بلا هوادةٍ، أقوالاً مثل هذه: "هل بوسع اكتساب فرنكين أو ثلاثة فرنكاتٍ، التعويض عن الإساءة إلى الذات، بانتهاك شريعة الله؟ ربّما تتخيّلون أنّ كلّ شيءٍ مرهونٌ بعملكم، وتنسون أنّ مرضًا خطيرًا أو حادثًا طارئًا كفيلٌ بالقضاء عليكم، وبأنّ عرَضًا غير متوقّعٍ، مثل عاصفةٍ، أو سقوط بَرَدٍ، أو صقيعٍ، كافٍ للإطاحة بغلالكم... عندما تغادرون الدنيا تتركونها كما هي، ولن تأخذوا منها شيئًا... هدفنا الأوّل هو الوصول إلى الله، هذا هو هدف وجودنا على الأرض... يوم الأحد هو ملك الله، هو يومه... لقد صنع كلّ أيّام الأُسبوع، وترك لكم ستّةً منها، غير محتفظٍ إلاّ بالسابع. فبأيّ حقٍّ تتصرّفون بما لا يخصّكم؟".

ومن بيتٍ إلى بيتٍ تناقل الأرسيّون مناشداته، ولعناته، وإنذاراته، حتّى تنامت إلى مسامع الجميع. غير أنّه حرص على أن يبلّغ رأيه في هذا الموضوع إلى منتهكي حرمة يوم الربّ مباشرةً، وبصوته الحيّ. فكان، في بعض أيّام الأحد، إثر صلاة الغروب،

يجوس الحقول متحرّيًا الانتهاكات. واتّفق أن لمحه، يومًا، فلاّحٌ عائدٌ من حقله، فخجل، وتوارى خلف عربته. ولكنّ الكاهن خاطبه، بنبرة حزنٍ، قائلاً: "أذهلك وجودي في طريقك. ولكن الله يراك، دائمًا، أينما كنت. وهو من يجب أن تخجل منه".

في البدء اتّسم موقفه، في هذا المضمار، بصرامةٍ لا تلين، ولا تعهد تراخيًا أو تسامحًا. وماانفكّ يؤكّد أنّ الله دائم السهر على أبنائه الملتزمين بوصاياه. ويبدو أنّ الربّ كان يؤيّده، ويدعم موقفه. فقد اتّفق في يوم أحدٍ من شهر تمّوز، إذ كانت جميع الحقول قد حُصدت، وطُرحت أغمار الغلال أرضًا، في البيادر، بانتظار دراستها، وبغتةً تكدّست، في الأُفق كُتل غيومٍ داكنةٍ كثيفةٍ، تسوقها رياحٌ عاتيةٌ، وهرع الفلاّحون إلى راعيهم، ضاجّين قلقًا، مستشيرينه في إمكانيّة إنقاذ غلّة موسمٍ دفعوا ثمنه شهورًا من النصب، وسواقي من العرق. وأحجم الكاهن عن الإدلاء برأيٍ، في الحال، ولكنّه، أثناء عظته، وعد مستمعيه الذين يحترمون مشيئة الله، بأن ينعَموا بأكثر ممّا يلزمهم من صحوٍ لإنقاذ حنطتهم وثمار جهودهم. ومرّت العاصفة فوق القرية، ولم تنفجر. وتلا ذلك اليوم خمسة عشر يومًا صاحيًا متألّقًا بسماءٍ صافيةٍ، أتاحت لهم التأمين على غلالهم.

وظلّ الخوري على صرامته هذه، لا يلين ولا يهادن، إلى أن تبيّن أن حرمة الأحد غدت مصانةً من قِبَل معظم أبناء الرعيّة. فمال إلى غضّ الطرف، كلّما تبيّن خطرًا حقيقيًّا يهدّد مواسم كاملةً، وينذر بحرمانٍ كارثيٍّ. ومع ذلك لم يكن يفصح عن موافقةٍ صريحةٍ بالعمل، استثنائيًّا، يوم أحدٍ، لدرء الكارثة، بل كان يقتصر على إرشاد ملتمسي نصحه إلى العمل بما يمليه ضميرهم عليهم. وإذا تذرّع بعضهم بأنّ كهنةً رعايا أُخرى كانوا يسمحون بالعمل، أيّام الأحد، في حالاتٍ قاهرةٍ كان يجيب: "هم يستطيعون فعل ذلك، أمّا أنا، في أرس، فلا أستطيع". فقد كان نبراسه الذي لا يحيد عنه قيد أنملةٍ، أن يجعل رعيّة أرس، رعيّةً نموذجيّةً، على كلّ صعيدٍ.

فهو كان قد ابتغى أن يفرح أبناء رعيّته بحلول يوم الأحد، ويعلنوا: "اليوم سنهتمّ

بشؤون الله". سلَفه في خدمة رعيّة أرس كان قد وضع تقريرًا، عام ١٨٠٤، أشار فيه إلى أنّ رعاية القطعان هي للأرسيّين أجلّ شأنًا من حضور قدّاس الأحد. وفي عام ١٨٢٣ طلب الأُسقف من كلّ كاهنٍ في أبرشيّته تقييم مدى احترام أبناء رعيّته لحرمة يوم الربّ، وأظهرت أجوبة الرعايا الأُخرى أنّ معظمهم يزاولون، في ذلك اليوم، أعمالهم الزراعيّة، مثلما يفعلون في سائر أيّام الأسبوع، في حين أجاب الأب "ڤـيانّي" أنّ قليلين منهم يعملون. وفي استقصاءٍ لاحقٍ، عام ١٨٢٩، أكّد خوري أرس، أنّ العمل، في رعيّته، أيّام الأحد، هو "نادرٌ". هذا الواقع يظهر تأثير ذلك الكاهن الذي لم يكفّ يردّد على مسامع أبناء رعيّته: "بعد قضائنا أسبوعًا كدنا لا نذكر فيه الله، فمن الصواب أن نستخدم الأحد للصلاة إلى الله ولشكره".

في البدء، اقتصر الانقطاع عن العمل، يوم الأحد، على كبار الملاّكين، فيما خدمهم، والنساء، والرعاة الصغار، يكرهون على مزاولة العمل الذي يزاولونه كلّ يومٍ. ولكنّ الخوري ذكّر الكبار بواجباتهم: "الأحد هو خاصّة الله. فبأيّ حقٍّ تتصرّفون بما لا يخصّكم؟. تعلمون أنّ المال المسروق لا يفيد أبدًا. والنهار الذي تسرقونه من الله كذلك لا يفيدكم في شيءٍ".

وذكّر النساء بأنّ عليهنّ أن يعددنَ، يوم السبت، ما تحتاج إليه الأُسرة، يوم الأحد، كي تنصرفنَ إلى تكريم يوم الربّ، وترك كلّ الشؤون الأُخرى لسائر أيّام الأُسبوع.

وذكّر أصحاب المزارع بحقّ خدّامهم في يوم راحةٍ وعبادةٍ، مقتصرين على خدمة البهائم التي لا بدّ منها. وشيئًا فشيئًا، شرع مزارعو أرس يستجيبون لرغبات خوريهم في هذا الشأن، وشاعت هذه العادة في القرية كلّها. فشرع خدّام مزارعي القرى المجاورة يطالبون بمثل ما ينعم به خدّام أرس. وكان بدَهيًّا أن تتناول ألسنة مزارعي القرى المجاورة بالتنديد خوري أرس الذي يتدخّل بما لا يعنيه، وأن يسخر أولئك المزارعون من زملائهم في أرس، وأن يتّهموهم بالخوف من خوريهم. ومع ذاك ماانفكّ ذلك الكاهن يردّد قوله: "يوم الأحد يفتح لنا الله كنوزه، فلنغرف منها كلّ ما استطعنا إليه سبيلاً... إنّ حضور القدّاس هو أعظم عملٍ نستطيع القيام به".

وفي هذا المضمار، أيضًا، عمد الخوري إلى أساليب الترغيب. فدرّب أولادًا على خدمة القدّاس، وحمْل الشموع والمباخر، وأعدّ لهم ألبسةً خاصّةً جذّابةً. وبعد أن أبعد الشبيبة عن مزالق الآفات الاجتماعيّة، نشط في سبيل توفير دوافع جذبٍ سليمةٍ وبنّاءةٍ، فأضفى على احتفالات أيّام الأحد قدرًا وافيًا من التألّق، وأكثر اللقاءات في باحة الكنيسة، بعد ظهر يوم الربّ، وجعل من الاحتفال السنويّ بعيد الجسد حدَثًا فائق الأُبّهة، وتطوافًا حاشدًا يجتذب مشاهدين ومشاركين من معظم القرى المجاورة. وبمناسبة عيد شفيع القرية، كان ينظّم للرعيّة رحلةً إلى سيّدة "فورڤــيير" في ليون. ولّما شرع بترميم كنيسة القرية وتكبيرها وتزيينها، حوّل كلّ مرحلةٍ من هذه الأعمال مناسبة احتفالٍ يحتشد له جميع أبناء الرعيّة، ويفرحون، ويشتركون في مآدب، لا ينال منها الخوري سوى الزهيد، ويعود إلى حجرته، سعيدًا، كي يستعيد حياة التقشّف، رغم تحذير النائب الأُسقفيّ الذي كان قد بلّغه: "لا تُقتَحَم السماء بالمجاعة"، فأجابه: "إنّ الطعام الذي أناله هو أكثر من كافٍ".

وكان قد لاحظ أنّ النساء يقمنَ بالحدّ الأدنى من واجباتهنّ، ويتناولنَ بمناسبة الفصح، ولكن قلّما يتناول الرجال. وكانت مناولة الصبيان الأولى، في سنّ الثانية عشرة، هي، غالبًا، مناولتهم الوحيدة والأخيرة. وكان الاعتراف نادرًا، وغالبًا موضوع تندّرٍ في المقاهي.

وأكبّ على معالجة بعض أسباب إحجام كثيرين عن المناولة، فمنهم من كانوا يستصعبون الصوم حتّى الظهر – موعد المناولة في أيّام الأحد – وكان هذا الصوم شرطًا للتناول، ومنهم من كان الحياء البشريّ يلجمهم عن التقدّم من مائدة الإفخارستيّا، على مرأى الجميع، خشية أن يُفَسّر عملهم تباهيًا ورياءً، فغدا يقيم قدّاسًا باكرًا، صباحًا للراغبين في التناول، بلا حرجٍ، ثمّ كان أولئك يعودون فيشاركون في القدّاس الاحتفاليّ، مع سائر أبناء الرعيّة.

وحرص، أيضًا، على تحرير أبناء رعيّته من رواسب جنسينيّةٍ، كانت تشدّد على

التأهّل للمناولة، بالتنـــزّه من كلّ خطيئةٍ أو هفوةٍ، فأهاب بهم: "يا إخوتي، تعالوا إلى الله بحبٍّ وثقةٍ. اِحيوا معه، فتحيوا به. لا تدّعوا أنّ أحمالكم ثقيلةٌ، لأنّه، هو، يدعو المتعبين إليه، كي يخفّف أحمالهم، ويريحهم. ولو كان الاستحقاق هو شرط التقدّم منه، لما أسّس سرّ حبّه. إنّه عليمٌ باحتياجاتنا، فلا تتّخذوا من ذنوبكم حجّةً للابتعاد عنه، ولا تتمثّلوا بمن يرفضون معاينة الطبيب، وتناول الدواء بحجّة جسامة مرضهم...".

يوم كلّف الأُسقف الأبَ "ڤـــيانّي" بخدمة رعيّة أرس الصغيرة، حيث كانت الثورة والإهمال قد أشاعا الجهل الدينيّ، واللامبالاة الروحيّة، وحيث لم يكن معظم الرجال قد تقدّموا من مائدة الربّ، منذ عشرات السنين، قال الأسقف للكاهن: "إنّي أرسلك إلى رعيّةٍ حيث حبّ الله مفقودٌ، فازرعْه!". فحرث الأب "ڤـــيانّي"، وسمّد، وروى، وبذر، وآتت جهوده ثمارًا يانعةً.

لقد دأب على تحريض أبناء رعيّته على التحوّل الروحيّ، موقنًا أنّهم لن يخطوا خطوةً في هذا السبيل، إن لم يواكبهم في كلّ لحظةٍ، وإن لم يمعن استغراقًا في الصلاة والتضحيات. وكان يسكنه اليقين بأنّ قليلين منهم يفهمون، حقًّا، معنى حبّ الله، فتعهّد بردم ثغراتهم، ولم يكن له سبيلٌ إلى ذلك سوى الإيغال في التهجّد وقمع الذات. وقد أقرّ، في شيخوخته: "لا يبهظني أن أكون كاهنًا يحتفل بالقدّاس، ولكن يتعبني أن أكون مسؤولاً في رعيّةٍ... وكم يبهظ كاهنًا مسكينًا، أن يُنتدَب لخدمةٍ كهنوتيّةٍ على هذا القدر من الخطورة المرعبة!".

ولكم أهاب بأبناء رعيّته أن يفتحوا عيون القلب لتبيّن عظمة حبّ الله الحاضر في مخبأ القربان، والتخلّص من ضباب الاهتمامات التافهة التي تطمس حبّه عن أبصارنا! هذا ما فهمه فلاّحٌ بسيطٌ اعتاد، كلّ يومٍ، عند ذهابه إلى الحقل صباحًا، ولدى عودته منه مساءً، وضع عدّة عمله عند باب الكنيسة، التي يدخلها، ويركع على أديمها، ويمكث وقتًا طويلاً، محدّقًا إلى مخبأ القربان، خاشعًا، ساكنًا، لا تتحرّك شفتاه بلفظةٍ. وقد راقبه الخوري، مرّةً إثر مرّةٍ، حتّى رغب في إماطة اللثام عن

سرّه، واستوضحه، يومًا: "يا صديقي، ماذا تقول للربّ أثناء زياراتك الطويلة، المتكرّرة له؟". فأجابه: " لا أقول له شيئًا: أنا أحدّق إليه، وهو يحدّق إليّ!". إنّه، في بساطته، كان قد استوعب أقوال الكاهن، فكان يتأمّل القربان بعينَيْه وبنفسه، في مناجاة قلبٍ لقلبٍ، حيث لا يحتاج الحبّ إلى كلامٍ للتواصل.

ولم تلبث أن تجلّت ثمار جهود خوري أرس. فعام ١٨٢٠، أي بعد مضيّ سنتين على مباشرته رسالته، لوحظت التطوّرات والتحوّلات المدهشة التي أنتجتها جهوده، ومنها:

– نموّ "أخويّة الوردية" للنساء، وتأسيس "أخويّة الروح القدس" للرجال، ومهمّتهما الصلاة والعمل على تطوير الرعيّة روحيًّا.
– تنامي نسبة حضور قدّاس يوم الأحد، وعدد المتناولين. وإقبال أعدادٍ متزايدةٍ باطّرادٍ من النساء على حضور قدّاسٍ يوميٍّ، وعلى قضاء فترات صلاةٍ وعبادةٍ أمام القربان.
– تنامي أعداد الرجال المقبلين على كرسيّ الاعتراف، وعلى المناولة الفصحيّة.
– تضاؤل عدد منتهكي حرمة يوم الأحد، وحفلات الرقص الماجن.
– إغلاق الحانات.
– إقبالٌ كثيفٌ من الأطفال على دروس التعليم المسيحيّ.
– انتشار مبادرات المحبّة والتضامن...

وهكذا استطاع خوري أرس أن يبعث، عام ١٨٢٣، برسالةٍ إلى السيّدة التي كانت قد آوته في بيتها، أثناء تخلّفه عن الخدمة العسكريّة: "أنا أخدم رعيّةً صغيرةً زاخرةً بالبرّ، وتخدم الله بكلّ قلبها".

وعام ١٨٢٦، أعلن من منبر كنيسة أرس: "يا إخوتي، لم تعُدْ أرس هي أرس السابقة، بل قد تغيّرت. وإنّي، إثر قيامي برسالاتٍ ورياضاتٍ روحيّةٍ في رعايا أخرى، أستطيع القول، بصراحةٍ وصدقٍ، إنّي لم أشهد أوضاعًا روحيّةً أفضل ممّا أشهد هنا".

لا مفرّ من أرس

وحدث، بغتةً، ما هدّد هذه الإنجازات الرائعة بالتوقّف. فقد تنامت إلى أُسقف ليون وتوابعها مغالاة الأب "ڤـــيانّي" في الزهد والتقشّف وقمع الذات وإجهادها، وتضافُر هذه العوامل مع مناخ أرس الملوّث واللاصحّي، في هدّ بنية ذلك الكاهن القدّيس، الذي كان الأُسقف حريصًا عليه وعلى صحّته. وبما أنّ ذلك الكاهن لم يكن مستعدًّا للحدّ، ولو قليلاً، من وتيرة تقشّفاته، رغم إيعازات رؤسائه، فقد ارتأى الأُسقف تكليفه بخدمة مركزٍ آخر، في قرية "سالّ" (Salles)، في منطقة "بوجوليه"، الرابضة على هضابٍ مخضلّةٍ، حيث الهواء العليل كفيلٌ بترميم قوى الكاهن، وحيث لا يتجاوز عدد أبناء الرعيّة ثلاث مئة شخصٍ، يتّصفون بحسن الوفادة، وأوفياء لتقاليدهم المسيحيّة.

شقّ على الخوري التخلّي عن مشاريع الإصلاح والتجديد، التي جاهد في سبيلها، في رعيّة أرس، غير أنّ فكرة التمرّد على قرار الأُسقف لم تلامس خاطره. واكتفى بإبلاغ شقيقه فرنسوا: "إنّي أغادر إلى منطقة بوجوليه. سيتمّ انتقالي في الأُسبوع المقبل، وآمل أن تتسنّى لي فرصة رؤيتك قريبًا".

وما لبث أن جمع أمتعته الزهيدة، وكتبه، وما ورّثه إيّاه مرشده الأب "بالّي"، وكدّسها على متن عربةٍ، وانطلق إلى مقصده الجديد. ولكن، لدى وصوله إلى ضفاف "السون" (Saône)، كان النهر فائضًا، والريح عاصفةً، والمياه متلاطمةً، فرفض صاحب المركب المخاطرة بنقله، مع حمولته، إلى الضفّة الأخرى. وعاد الكاهن أدراجه إلى أرس. وأعاد المحاولة، بعد بضعة أيّامٍ، ولكنّ النهر ظلّ رافضًا تسهيل مهمّته.

ولم يكن النهر هو الحائل الوحيد دون انتقاله. بل إنّ أهالي أرس كانوا قد أعلنوا استنفارًا عامًّا، وأجمعوا على إحباط قرار الأسقف بكلّ الوسائل المتاحة، فهم لم يطيقوا فكرة إبعاد خوريهم عن قريتهم، وحرمانهم من بركاته، ومشاريعه الإصلاحيّة، والتحوّلات المدهشة التي أحدثها في غضون فترةٍ وجيزةٍ، والنعم الجزيلة التي استمطرها عليهم. وكانت أمّهاتٌ عديداتٌ حريصاتٍ على أن ينشأ أبناؤهنّ، دينيًّا، على يدي ذلك الخوري القدّيس، وأن يتلقّوا مناولتهم الأولى من يده. وسارعت إلى التضامن معهم وتأييدهم "آنسة أرس"، التي أعلنت عزمها على "خنق" الأُسقف، إن هو استمرّ في قراره، وبعثت إليه برسالةٍ ناريّةٍ، احتجاجًا على هذا التدبير الخاطئ، ومطالبَةً بإلغائه في الحال.

وسرعان ما تألّف وفدٌ، تقدّمه عمدة أرس، ومضى إلى ليون، حاملاً شعار "أرس متمسّكةٌ بخوريها". وبعد أن استمع إليهم الأُسقف، أعلن: "بما أنّ الأمر كذلك، فليبقَ خوريكم، لديكم، بقدر ما يريد". وزوّدهم برسالةٍ إلى الخوري يبلّغه إلغاء قرار نقله إلى "سالّ". وبقي الأب "ڤـيانّي" في أرس، حتّى مماته. وفي الحال انصرف إلى إكمال مشاريع ترميم الكنيسة وتجديدها.

تجديد كنيسة أرس

كان يحدو الأب "ڤـيانّي" إيمانٌ راسخٌ بحضور الربّ الحقيقيّ والدائم في القربان المقدّس. وكان هذا الإيمان جوهر حياته الروحيّة ومحرّكها. وطالما عبّر عنه بقوله: "لو كان لدينا إيمانٌ بالقربان المقدّس، لشاهدنا يسوع فيه، مثلما يشاهده الملائكة في السماء. إنّه هنا، وهو ينتظرنا". ومن ثمّ، كان موقنًا أنّ ما من مظهر جمالٍ يفي بتكريم الربّ، حيث هو حاضرٌ بجسده ودمه.

ولكي يجعل الكنيسة، وهي مأوى القربان، أشدّ جذبًا لأبناء رعيّته، دأب، بلا هوادةٍ، على ترميمها، وتجديدها، وتوسيعها، وإضفاء أروع لمسة بهاءٍ عليها، لكي تليق بساكنها. فتلك الكنيسة، يوم تولّى شأنها، كانت ممعنةً في الفقر، داخليًّا وخارجيًّا، فهجرها المؤمنون، وكان لا مناص من إعادتها جذّابةً.

في الداخل، كانت مستطيلةً، طولها أحد عشر مترًا، وعرضها خمسة أمتارٍ، ولا يتّسع مكان الخورس المستدير، فيها، لأكثر من هيكلٍ واحدٍ. وكان هيكلها الخشبيّ مغرقًا في البساطة والتجرّد، وقد عملت فيه يد العتق نخرًا واهتراءً؛ ومثله كان سقف الكنيسة الذي يبلغ ارتفاعه سبعة أمتارٍ، وقد انتشرت فيه التشقّقات.

وكانت الحلل الكهنوتيّة والكنسيّة، هي أيضًا، عتيقةً مهترئةً، لا تضفي على الاحتفالات الدينيّة أيّة أُبّهةٍ. وكان هذا الإمعان في الرثاثة والفقر، يثير شفقة الكهنة الغرباء، الذي يمرّون بالقرية اتّفاقًا، ويحتفلون فيها بالقدّاس، وينفّر الأرسيّين أنفسهم من كنيستهم. ومع ذلك، تهيّب الأب "ڤـيانّي" الإقدام على هدّ الكنيسة، وبناء أوسع منها، تحسُّبًا للنفقات الباهظة، وغير المتوفّرة، التي يستلزمها هذا المشروع الطموح، فضلاً عن شعوره بأنّ الصلاة في الكنائس العتيقة أكثر إيحاءً بالورع. ولكن، كان لا معدى عن البدء بما لا يسوغ إرجاؤه.

وفي الحال انبرى الخوري لترميم الكنيسة وتجديدها، ولإضفاء لمسة بهاءٍ وأناقةٍ عليها، تستهوي الأنظار، وترقى بالنفوس. ولم يتوقّف الكاهن عن مواصلة هذه المهمّة، حتّى نهاية حياته، مبتكرًا، كلّ يومٍ، مبادرةً جديدةً، ولمسةً طريفةً، منفقًا، في هذا السبيل، ماله الخاصّ الهزيل، والتبرّعات السخيّة، مشركًا البلديّة تارةً، وقارعًا أبواب المانحين تارةً أخرى، ومستعينًا، دائمًا، بكرم آل "غاريت" (Garets)، أصحاب القصر.

وبدأ بتغيير مسكن الربّ، قلب الكنيسة، مستبدلاً الهيكل العتيق النخِر، بآخر مزخرفٍ بسخاء. وقد شارك بنفسه في تثبيته بمكانه، وأفاد النجّار الذي صنعه: "بأيّ اندفاعٍ شارك الخوري في المهمّة، معملاً المنشار والمطرقة بحميّةٍ! وأيّ فرحٍ كان يتجلّى على محيّاه! كان دائمًا غير راضٍ عن وتيرة تقدّم العمل. وما إن فرغ من تركيبه حتى هرع إلى ليون، سيرًا على الأقدام، وعاد منها برأسي ملاكٍ، أثبتهما على جانبي الهيكل. ثمّ، بعد بضع سنواتٍ، استبدل هذا الهيكل الخشبيّ بآخر من رخامٍ، وسرعان ما ظهر تنافر جدّة هذا الهيكل، وألق ألوانه الذهبيّة، مع ألوان المقاعد العتيقة، والزينة الخشبيّة، الملصقة بأسفل الجدران، التي بهتت، وكمدت ألوانها، وعلتها علامات الرثاثة، فأكبّ على إصلاحها، وطلائها، وإكسابها بعض رونقٍ.

وبعد تجديد الهيكل، اندفع الخوري إلى إغناء الكنيسة بكلّ ما استطاع ابتياعه من مطرّزاتٍ، وزخارف، وأغطيةٍ، وحللٍ كهنوتيّةٍ مخمليّةٍ وحريريّةٍ، وشمعداناتٍ، حتّى أمسى تُجّار ليون يتحدّثون بإعجابٍ ودهشةٍ عن خوري قريةٍ في الجوار، هزيل الجسم، رثّ الهندام، يبدو عليه أنّه لا يملك فلسًا، ومع ذلك يُسرف في تزويد كنيسته بأغلى الأدوات، والزينة، وبأجملها. وقد أثبت أنّه، مع زهده بلباسه، وطعامه، ورفاهه، وذاته، كان حريصًا على إغناء كنيسته بأثمن وأفخر ما يستطيع الحصول عليه. وقد تجلّت نزعته هذه، يوم استصحبته "آنسة أرس"، إلى أسواق ليون كي تبتاع له حلّةً للقدّاس، فكان، كلّما عرضت له حلّةً، يجدها غير مستوفيةٍ

لمستوى الجمال الذي كان يتشوّق إليه، متطلّعًا دائمًا، إلى الأجمل. وكان الفرح يستطيره كلّما وصلت إلى أرس دفعةٌ من المشتريات، فيطوف في أزقّة القرية، ناشرًا البشرى، وداعيًا المؤمنين إلى القدوم، والتمتّع بمشاهدة روائع لم يروا لها، قطّ، مثيلاً، ولن يتسنّى لهم رؤية مثيلٍ لها، قبل رحيلهم عن هذه الدنيا.

وآتت غيرته هذه ثمارًا، لم تقتصر على إثلاج قلوب المؤمنين، بل استقطبت إلى الكنيسة عديدين ممّن كانوا قد هجروها، وربّما أمّوها، بادئًا، بدافع الفضول، ولكن سرعان ما أُخِذ كثيرون منهم بجوّ الورع غير المألوف الذي شاع فيها.

ثمّ أولى الخوري اهتمامه لقبّة الجرس التي كانت قد دُمّرت جزئيًّا، عام ١٧٩٤، وتبرّع أصحاب القصر بجرسٍ جديدٍ، عام ١٨١٩، ولكنّه رُكّب على قبّةٍ خشبيّةٍ مرتكزةٍ، على قاعدة القبّة القديمة، وسرعان ما اتّضح عجزها عن احتمال ثقل الجرس الجديد، فقد كانت تتأرجح مع تأرجحه. فعمد الخوري إلى بناء برجٍ مربّعٍ من الآجرّ، تتخلّله نوافذ مزوّدةٌ بأُطُرٍ وعمدٍ حجريّةٍ، وتبرّع هو بجرسٍ آخر، عمّده باسم "الورديّة المقدّسة". وخليقٌ بالتنويه أنّ ذلك الكاهن الورع كان يتوسّم في رمز قبّة الجرس، إشارةً إلهيّةً، ودعوةً ساميةً شديدة التأثير، عبّر عنها بقوله: "عندما نكون في طريقٍ، ونلمح قبّة جرسٍ، يخفق لرؤيتها قلبنا، خفقان قلب محبٍّ، عندما يلمح سقف البيت الذي تقيم فيه زوجته".

ثمّ أكبّ على توسيع الكنيسة من الداخل، وحرص على إشراك أبناء رعيّته بتكريم تلك التي كانت حبّه الأوّل، فجدّد تجديدًا جذريًّا الكاپــيلاّ المكرّسة للسيّدة العذراء، وزيّنها بسقفٍ من الجصّ الملوّن، وأكسبها سعةً، وزوّدها بهيكلٍ جديدٍ، وبخشبيّةٍ مزخرفةٍ طغى عليها اللون الذهبيّ، وأهداها شمعداناتٍ رائعةً، وتمثالاً جديدًا من الجصّ الملوّن يمثّل السيّدة العذراء حاملةً طفلها. ولّما دشّن هذه الكاپــيلاّ وباركها، كان التأثّر آخذًا بكلّ كيانه. ومنذئذٍ بات يقضي في زاويتها الساكنة ساعاتٍ متماديةً من الصلاة والتأمّل، ويقيم فيها قدّاس يوم السبت، من كلّ أسبوعٍ.

واتّفق له، عام ١٨٢٣، في أثناء قدّاسٍ، أن خطرت له رؤيا، ظهرت له فيها العذراء واقفةً على أحد جوانب الهيكل، وإزاءها على الجانب الآخر، القدّيس يوحنّا المعمدان الذي أراه أعداد التائبين الغفيرة، الذين سيؤمّون تلك الكنيسة، ويركعون في كرسيّ اعترافه. فأدرك أنّ عليه إقامة كاپــيلاّ، داخل الكنيسة، للمعمدان، أحد شفعائه. وكان موقنًا أنّه إن استطاع تأمين المال اللازم للشروع بتنفيذ هذا المشروع، فسيتولّى الله إكماله. وكان، في تلك المرحلة، قد أنفق آخر فلسٍ في إصلاح الكنيسة. فبعث برسالةٍ إلى أخيه فرنسوا، راجيًا إيّاه أن يرسل له كامل حصّته السنويّة من دخل مزرعة العيلة، وأن يسلّفه، إن أمكن، حصّته من دخل السنة التالية. وإلى هذه المبالغ أضاف كامل راتبه، والإعانة السنويّة التي كانت البلديّة تقدّمها للكنيسة. وأقبل على تنفيذ كاپــيلاّ المعمدان. ولمّا فرغ منها، بقي عليه دينٌ للنجّار، قيمته خمس مئة فرنكٍ. وأخذ النجّار يلحّ في المطالبة بدينه. وضاق الكاهن، ذات يومٍ، بإلحاحه فخرج، مجيلاً الفكر في مخرجٍ لأزمته، وإذ بامرأةٍ غريبةٍ تستوقفه على مقربةٍ من الكنيسة، وتستفسره هل هو خوري أرس. وسلّمته مبلغ ستّ مئة فرنكٍ، مساهمةً في أعماله واختفت. فشكر للعناية الإلهيّة رعايتها. وتمّ تدشين تلك الكاپــيلاّ، يوم عيد القدّيس المعمدان، في ٢٤ حزيران ١٨٢٣. وكان قد كلّف نحّاتًا حفر على قوس مدخل المقام عبارة: "قُطع رأسه، بسبب رقصةٍ". وكانت سعادة الخوري غامرةً، من جرّاء مشاركة زميله في الدراسة لدى الأب "بالّي"، الأب "ماتياس لوراس"، الذي كان، في هذه الأثناء، قد أصبح رئيس إكليريكيّةٍ، والذي تولّى مباركة الكاپــيلاّ الجديدة. وكان هذا التدشين قد استقطب حشودًا غفيرةً من مختلف الرعايا المجاورة، وصفتها "كاترين لاسّانيي"، بقولها: "لكأنّ المعمدان القدّيس قد طاف بجميع الرعايا المجاورة، ودعاها إلى أرس!".

وعندئذٍ قرّر خوري أرس الإحجام عن أيّ مشروعٍ جديدٍ، ما لم يكن يملك المال اللازم لتنفيذه، تجنّبًا لمطالبات الدائنين. ومع ذلك، لم يتمالك عن إقامة ثلاث

كاپـــيلاّتٍ جديدةٍ، كرّس إحداها لقدّيسته الأثيرة، فيلومينا. واستمرّ ذلك الكاهن القدّيس دائبًا على توسيع كنيسته، مضيفًا إليها أبنيةً، وقاعات دراسةٍ دينيّةٍ، حتّى آخر لحظةٍ في حياته. وفي الآن عينه ظلّ يحارب على جبهاتٍ عديدةٍ كي يحقّق هدفه الرئيس أي تحويل نفوس أبناء الرعيّة، وإطلاقها على دروب الخلاص.

وكان خير سندٍ للكاهن، شقيق "آنسة أرس"، الـــڤـــيكونت "پـــروســـپـــر دي غاريت" (Prosper des Garets)، الذي أغدق من ماله، بلا حسابٍ، من أجل إلباس كنيسة أرس أبهى حلّةٍ، وأكثرها جذبًا لأبناء الرعيّة، ولم يكفّ يومًا عن تزويدها بأفخر الحلل الكهنوتيّة وأقمشة الزينة الموشّاة، والشمعدانات، وبيت قربانٍ نحاسيٍّ مذهّبٍ. وكان الخوري، كلّما تلقّى إحدى تلك الهبات، لا يقوى على حبس فرحه المتفجّر، ويروح يطوف في القرية، داعيًا الصغار، والشيوخ والعجائز إلى المجيء وتأمّل روائع، قارنًا دموع الفرح بالإشادة بكرم المحسن، ومستنـــزلاً عليه البركات. وكان ينظّم مواكب حجٍّ إلى سيّدة "فورڤـــيير"، في ليون مشركًا أبناء رعيّته في شكر أمّ الله على كلّ ما تتلقّاه الرعيّة.

ولاحقًا موّل الـــڤـــيكونت بناء مدخلٍ جديدٍ للكنيسة، مستبدلاً الدرج العتيق المتعرّج، بدرجٍ جديدٍ محاطٍ بدرابزين متقن الصنع. ولطالما عبّر عن رغبته في إسعاد الخوري القدّيس، شافي النفوس، ومنير القلوب، الذي توقّع أن يجعل من أرس "الضيعة الضائعة"، قبلة الملايين من الحجّاج، بلا انقطاعٍ.

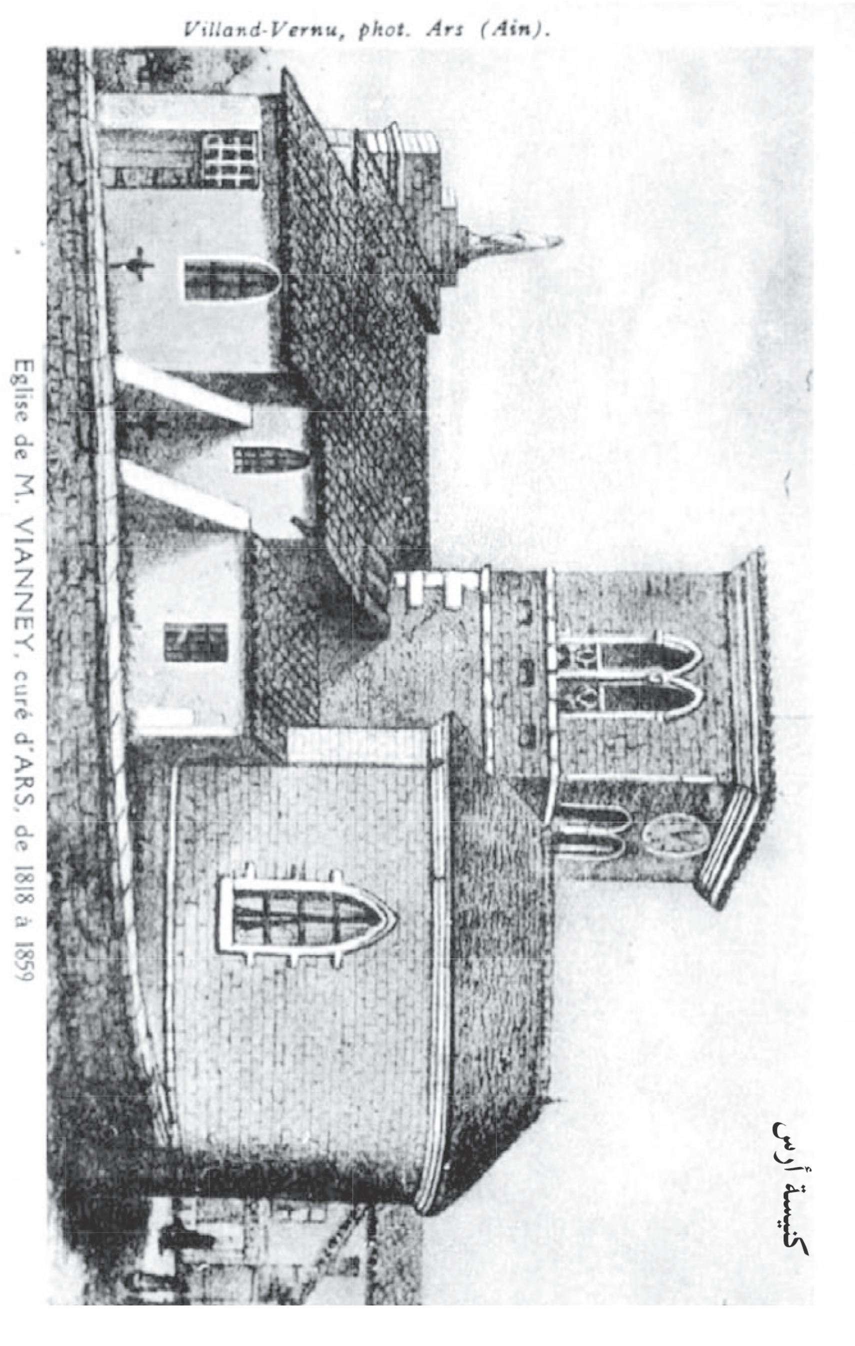
Villand-Vernu, phot. Ars (Ain).
Eglise de M. VIANNEY, curé d'ARS, de 1818 à 1859

كنيسة أرس

تمثال العذراء حيث يحتوي القلب الفضّي المعلّق في عنق التمثال شريطًا حريريًّا دُوّنت عليه أسماء جميع أبناء رعيّة أرس

دار "العناية"

إكباب خوري أرس على إصلاح الكنيسة وتوسيعها وتجميلها، لم يُبعد عن ذهنه أوصاب الرعيّة، والسعي الجادّ إلى إصلاحها. وقد احتلّ الجهل السائدُ، المقامَ الأوّل من اهتمامه، فجعل من إزالته أساس جهاده.

كان أطفال القرية، حالما يبلغون سنّ الدراسة يُكلَّفون برعاية مواشي ذويهم، أو يؤَجَّرون لملاّكين ميسورين كي يرعوا مواشيهم، ولا يتسنّى لقلّةٍ من الصبيان تحصيل نتفٍ من التعليم الأساسيّ إلاّ في أيّام الشتاء، حين يحبس الثلج والبرد القارس الناس في بيوتهم، وتكون الحقول في سباتٍ. وكان الكاهن يطمح إلى أن ينعم معظم الصغار بدروسٍ منتظمةٍ تمتدّ على كلّ فصول السنة، يزوّدهم بها معلّمون مؤهّلون. وريثما يتمكّن من تحقيق هذا الهدف أقنع العمدة بتوظيف معلّمٍ يمتلك قسطًا وافيًا من التعليم، وأثبتت سيرته نصاعة السلوك، ورفعة الخصال. ووقع الخيار على شابٍّ كان قد تزوّج فتاةً من أرس، وابتنى في تلك القرية بيتًا أفرد فيه حجرةً للتعليم، واستطاع أن يجمع، في أيّام الشتاء، حفنةً من الطلاّب. ولكن ما إن يطلّ فصل الربيع وتستدعي الحقول أذرعةً للعمل، حتّى يأخذ الفتيان يتسرّبون الواحد تلو الآخر، حتّى تخلو قاعة الدرس. ومع أنّ هذا الحلّ الآنيّ لم يُرضِ تطلّعات الخوري إلى مدرسةٍ مستقلّةٍ نظاميّةٍ، دائمةٍ تتّسع لكلّ أبناء القرية، إلاّ أنّه أرجأ تحقيق هذا الحلم، لأنّ مشروعًا آخر استولى، حينئذٍ على أولويّة اهتمامه.

فقد كانت الأُمّيّة المتحكّمة بالفتيات اللواتي يتابعنَ دروسه الدينيّة، وخوفه على مصيرهنّ مصدر قلقٍ دائمٍ وممضٍّ له. فحتّى أبواب مدرسة الصبيان الشتويّة، على هزالها، كانت موصدةً دونهنّ، وكنّ، منذ سنّ العاشرة، يُكلَّفنَ، هنّ أيضًا، برعاية ماشية ذويهنّ، وبأعمال المنـــزل، أو يؤجَّرنَ لخدمة ملاّكين ميسورين. وكان يراود الكاهن، بلا فكاكٍ، حلم افتتاح مدرسةٍ للفتيات تقدّم تعليمًا منتظمًا وكافيًا، وتربيةً أخلاقيّةً سليمةً ومتينةً،

على امتداد السنة. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف شرع، منذ عام ١٨٢٠، يقتطع جزءًا من الهبات التي كان يتلقّاها، كي يوظّفه في هذا المشروع الذي لم يعلن عنه.

ومذ توفّر له جزءٌ وافٍ من ثمن مكانٍ للمدرسة العتيدة اندفع لإبرازها إلى الوجود. وفي تلك الحقبة كانت تتولّى مدارس الفتيات في فرنسا جمعيّاتٌ رهبانيّةٌ. ولكنّ الأب "ڤـيانّي" كان يخشى ألاّ تتناغم أساليب راهباتٍ نشأن على الاكتفاء، والانتظام والتمدّن مع سلوك فتياتٍ فلاّحاتٍ تفتقرن إلى الكثير، في كلّ مجالٍ. وبالتالي نزع إلى مخالفة المألوف، وإيكال إدارة مدرسته إلى فتياتٍ من بنات القرية، يتحلّينَ بنصاعة الأخلاق، واستقامة السلوك، والغيرة المسيحيّة. وكان قد ميّز، في أرس، فتاتيْن ورعتيْن، منفتحتي الذهن، سديدتيِ الحكم، نافذتيِ العزيمة، هما "كاترين لاسّانيي" (Catherine Lassagne) ابنة السبعة عشر ربيعًا، و"بينوات لارديه" (Benoîte Lardet) المشرفة على العشرين عامًا. ولكي يزوّدهما بقسطٍ وافٍ من العلم، يؤهّلهما للمهمّة التي انتدبهما لها، أوفدهما إلى مدرسة القدّيس يوسف، في مدينة "فارينس" (Fareins)، التي تبعد نحو عشرة كيلومتراتٍ عن أرس. ونظرًا لرقّة حال ذويهما أخذ على عاتقه كلّ نفقاتهما، وكلفة دراستهما وإقامتهما في مدرسةٍ داخليّةٍ، حيث مكثتا ثمانية عشر شهرًا.

ثمّ ابتاع بيتًا ملاصقًا للكنيسة يتألّف من طبقةٍ سفلى مكوّنةٍ من قاعةٍ تتّسع لنحو عشرين تلميذةً، تعلوها طبقةٌ تحتوي على حجرتين تصلحان سكنًا للمعلّمتيْن، وفوقها أهراءٌ. وفي الواقع لم تكن مدارس القرى الأُخرى أكثر اتّساعًا من هذه، غير أنّ مدرسة خوري أرس تميّزت بموقعها في وسط القرية، وبمجاورتها للكنيسة ولدار الرعيّة. وفي سبيل شراء ذلك البيت، أنفق الخوري كلّ ما كان قد تلقّاه من تبرّعاتٍ، فضلاً عن كلّ ماله الخاصّ الناتج عن نصيبه من أرزاق أُسرته، ومن معونات البلديّة السنويّة. ولم يبقَ لديه ما يسدّد به أتعاب الكاتب بالعدل، الذي سجّل صكّ الملكيّة، والذي ارتضى، مكرَهًا، الانتظار.

معاونته الآنسة "كاترين لاسّانيي" (Catherine Lassagne)

وفي الحال، أوعز الكاهن إلى الفتاتين المختارتين بالعودة، والمباشرة بالإعداد لافتتاح المدرسة، فقد كان شديد التوق إلى تزويد فتياتٍ فقيراتٍ مهملاتٍ، لا يهزّ بؤسهنّ ضمير أحدٍ، بالعلم والتربية، وبحياةٍ كريمةٍ لائقةٍ. ومع أنّه كان، إثر شرائه ذلك البيت، مصفر اليدين، لا يملك فلسًا، أطلق على تلك المدرسة الناشئة المجّانيّة اسم دار "العناية"، تأكيدًا لاتّكاله المطلق على العناية الإلهيّة.

يوم ١٨٢٤/١١/١١، نظّفت الفتاتان المقرّ، وجاءتا من منازل ذويهما بأسرّتهما وأغطيتهما، وحاجاتهما الأساسيّة. ومع أنّ الخوري كان قد وعدهما بتوفير الطعام لهما، فلمّا عضّ الجوع معدتهما مساءً، بحثتا عمّا تُعدّان به وجبةً متقشّفةً تقيم أودهما، فلم تعثرا على أيّة مادّةٍ تصلح طعامًا. وللوهلة الأولى خطر لكلٍّ منهما أن تقصد بيت ذويها، وتتناول ما يقيهما من الانهيار. ولكنّهما ما لبثتا أن عزفتا عن تلك الخاطرة، واثقتيْن أنّ ذويهما الحريصين على حياتهما لن يدعوهما تنفقان جوعًا. وفي الواقع سرعان ما وافت والدة إحداهما بطعامٍ لابنتها، وما عتّمت أن لحقت بها والدة الأُخرى، آتيةً، أيضًا بطعامٍ؛ وهكذا، منذ اللحظة الأولى، استحقّت تلك المؤسّسة اسم "العناية".

وانبرت الفتاتان لمهمّتهما بروح تجرّدٍ مطلقٍ، وفقرٍ مدقعٍ، واندفاعٍ سخيٍّ لامحدودٍ. وبعد أيّامٍ معدوداتٍ انضمّت إليهما فتاةٌ ثالثةٌ، من رعيّةٍ أُخرى، كان خوري أرس قد أرشدها وشفاها من الكَلَف بالمظاهر الباطلة، واسمها "جانّ ماري شاناي" (Jeanne-Marie Chanay)، ولها من العمر ستٌّ وعشرون سنةً. كانت تجيد مختلف الأعمال اليدويّة، فأخذت على عاتقها إعداد الخبز، والطهو، والغسيل؛ ونزولاً عند رغبة الخوري تعلّمت الخياطة، وأضحت تعدّ ثياب طالبات الدار الفقيرات. ولكنّ عيبها أنّها كانت عصبيّةً، وحادّة الطباع، ونكدةً، فكانت لرفيقتيها صليبًا حقيقيًّا، ومصدر ضيقٍ يوميٍّ، ولكنّهما احتملاها بصبرٍ بطوليٍّ، وبمحبّةٍ ملائكيّةٍ.

وأطلق الأب "ڤـــيانّي" على كلٍّ من الفتيات الثلاث لقب "مديرة"، ولم يلزمهنّ لا بزيٍّ خاصٍّ، ولا بنظامٍ مكتوبٍ، ولا بنذورٍ، مكتفيًا بالتزامهنّ بالفضيلة والمحبّة. وقد ظلّت إحداهنّ، "كاترين لاسّانيي"، اثنتي عشرة سنةً، مشرفةً على مدرسة العناية، مثبتةً جدارتها بالثقة التي أولاها إيّاها الخوري القدّيس، متمثّلة بقداسته، وبزهده، وبعطائه. وقد أمست، لاحقًا، من أكثر الشهود على سيرته، جدارةً بالثقة، ومن أكثرهم اطّلاعًا على فضائله البطوليّة، وإعلانًا عنها. وكانت قد فُجعت، عام ١٨٣٠، بفقدان زميلتها في إدارة المدرسة، وصديقتها الرقيقة والحميمة "بينوات لارديه"، فاختار الأب "ڤـــيانّي"، بديلةً عنها، فتاةً من قريةٍ مجاورةٍ، تدعى "ماري فيّات" (Marie Filliat)، كانت تمتلك من قوّة الشكيمة، وصلابة الإرادة، أكثر من امتلاكها رقّة قلبٍ ووداعةً، فكانت للمسكينة "كاترين" صليبًا حقيقيًّا، ساعدها على الارتقاء في معارج الكمال.

وقد تميّزت جميع الفتيات اللائي تعاونّ مع خوري أرس، في إدارة مدرسة العناية بالتجرّد التامّ، ولم يحصلنَ، بمثابة أجرٍ، إلاّ على طعامهنّ الزهيد، وسكنهنّ المتواضع، ولم تُكافَأنَ إلاّ بالرضى عن عمل الخير.

عام ١٨٢٤، إذن، افتُتحت مدرسة العناية المجّانيّة، وتوافدت إليها فتيات أرس، وسرعان ما ذاع أمرها في القرى المجاورة، فهرع الأهالي إلى إرسال بناتهنّ للاستفادة من تدريسها المجّانيّ، وتربيتها المسيحيّة. واضطرّ المشرفون عليها إلى تحويل أهرائها إلى قاعة نومٍ للفتيات، امتلأت، في الحال بستّ عشرة طالبةً داخليّةً. ورفض خوري أرس استيفاء أي فلسٍ بالمقابل، ولكنّه، من جرّاء إملاقه، ارتضى أن يقدّم الأهالي لبناتهنّ أسرّةً، وأغطيةً، ومؤونةً للطعام. وشيئًا فشيئًا سارت الأمور بما تيسّر.

هذا المشهد أفعم قلب الأب فرحًا، وأوحى له بمشروعٍ آخر جريءٍ، بل فلنقُلْ بمخاطرةٍ أخرى. فقد كان شاهد، أثناء تنقّلاته في جوار أرس، فتياتٍ صغيراتٍ، منهنّ يتيماتٌ مفتقراتٌ إلى مأوى ومعيلٍ، ومنهنّ بنات والدين معدَمَيْن أو مجرّدَيْن

من الإنسانيّة والمسؤوليّة، ما اضطرّهنّ إلى التسوّل أو إلى خدمة أسيادٍ فاقدي الضمير. وأقضّت حال تلك الفتيات مضجع الكاهن، فاعتزم إقامة ملجأٍ لهنّ ينعمنَ فيه بدفء العيلة وعطفها، وبالأمان، وفرص الازدهار، وبمنطلقٍ إلى حياةٍ كريمةٍ. وارتأى أن يكون هذا المقرّ "ميتمًا" للّواتي فقدنَ آباءهنّ، وللّواتي كان آباؤهنّ وأمّهاتهنّ عوامل بؤسٍ وفسادٍ لهنّ، وآثر أن يكون هذا الميتم ملاصقًا للمدرسة، حاملاً اسم "العناية"، لأنّه لن يكون له مموّلٌ سوى الأب السماويّ. إلاّ أنّ الكاهن، تفاديًا للتهوّر، دعا أبناء رعيّته إلى مشاركته إقامة تساعيّة صلوات للعذراء أمّ الله، كي تبيّن لهم مشيئة الله بهذا الشأن. وفي ختام التساعيّة، كان أشدّ عزمًا على تنفيذ مشروعه. وفي الحال شرع بتوسيع المدرسة وإشادة بناءٍ ملاصقٍ لها. واستنفارًا للهمم أعدّ بنفسه مخطّطات البناء، واندفع إلى العمل بيديه، مساعدًا البنّاء والنجّار، والسقّاف، محضرًا الحجارة، حاملاً الملاط، ناقلاً الموادّ...

ولّما انتهت أعمال البناء، اقتضى ألاّ يستقبل ذلك البيت الجديد سوى الفقيرات المهملات، وبالتالي، بدءًا من السنة الدراسيّة التالية، امتنعت المدرسة عن قبول داخليّاتٍ غريباتٍ قادماتٍ من أُسرٍ ميسورةٍ، فسحًا في المجال للفتيات الفقيرات، وغدت فتيات أرس تعدنَ، مساءً، إلى بيوت ذويهنّ، فاسحاتٍ مكانًا للّواتي لا معيل لهنّ، ولا مكان إقامةٍ. وهنا أيضًا سرعان ما ضاقت الدار بنـــزيلاتها اللائي تنامى عددهنّ، يومًا فيومًا، حتّى تخطّى الستّين فتاةً تتراوح أعمارهنّ بين ثماني سنواتٍ وعشرين سنةً. وكان خوري أرس يفيض عليهنّ ينابيع عطفه وسخائه. ومانفكّ ينتزع من الطرقات الفتيات المشرّدات المهملات، وبعضهنّ كنّ مصاباتٍ بقروحٍ مقزّزةٍ. وطالما توفّرت في دار العناية زاويةٌ قادرةٌ على إيواء قادمةٍ جديدةٍ، كان الخوري القدّيس حريصًا على ألاّ يردّ واحدةً منهنّ. وقد جاء، ذات يومٍ، بإحداهنّ عثر عليها هائمةً في الطرقات، فقال لمسؤولة المركز: "يا كاترين، خذي هذه الفتاة التي أرسلها الله لك!". فاعترضت كاترين بسبب عدم وجود سريرٍ

شاغرٍ، ولكنّ الكاهن ردّ تلقائيًّا: "يوجد سريرك"، فخجلت المسؤولة من سهوها العابر عن سهر العناية الإلهيّة الدائم، وباندفاعٍ غمرت بذراعيها القادمة المسكينة، وأوسعتها تقبيلاً وعطفًا. وأثبت خوري أرس أنّ حنانه على الطفولة المهملة لم يكن مجرّد انتحابٍ عقيمٍ، بل كان فعلاً خصيبًا. ولم يتردّد عن تبنّي حديثي الولادة المرميّين، وأطفال نساءٍ انتقلنَ إلى رحمة الله.

ومع ذلك لم يقتضِ، قطّ، أيّ فلسٍ، من ذوي نزيلات دار العناية المعروفين، وبعضهم ميسور الحال، ولا حتّى من النــزيلات اللواتي عملنَ وحصلنَ على أجرٍ، فاضطرّ الأُسقف إلى لفت اهتمامه إلى هذه الثغرة، فأجاب أنّ كلّ همّه محصورٌ في تزويد الفتيات بتربيةٍ تجعل منهنّ مسيحيّاتٍ صالحاتٍ. ولا ريب أنّ هذه المجّانيّة المطلقة قد أرهقته، وحمّلته عبئًا باهظًا.

صحيحٌ أنّ النــزيلات كنّ يكتفينَ بالزهيد من الطعام، قوامه الخبز والبطاطا المسلوقة، وفواكه من ثمار بساتين القرية، ومع ذلك كنّ ينعمنَ بسعادة الجوّ الدافئ، والكرامة المصانة، والمقرّ الآمن، والعطف الصادق السخيّ. ومن جهته اعتاد الخوري، عقب وجبة الغداء أو العشاء، وتنظيف المكان، الجلوسَ عند طرف منضدةٍ، فيتحلّق الجميع من حوله، ويطلق هو لقلبه عنان الحديث المتدفّق من ينابيع عطفه، والذي غالبًا يستمطر العبرات. وكانت تغمره، حينذاك أُلفةٌ عذبةٌ، وراحةٌ لم يشعر، قطّ، بمثلها على منبر الوعظ.

كان الكاهن قد أمل أن يساعده أبناء رعيّته، ولو بقسطٍ زهيدٍ من غلالهم، فأطلق حملة تبرّعاتٍ لم تُؤتِه إلاّ كيس بطاطا. فقرّر العزوف عن مثل تلك الحملات لدى من يستأهلون الإحسان. وغدا، كلّما خوى صندوقه يتسلّح بما أسماه عصا العناية، والجرأة، ويمضي لقرع أبواب ساكني القصور، سائرًا على قدميه حتّى مدينة ليون، حيث يناشد سخاء أغنيائها، والمؤمنين الذين كان واثقًا من كرم عطائهم. وكان قد علّق على جدار كنيسة الرعيّة لوحةً دوّن عليها: "أعطوا تُعطوا".

وكان قد نُصِح بشراء أخشابٍ وأراضٍ يوفّر له بيعها وإيجارها دخلاً يدعم موارد دار العناية، ولكنّه لم يستسغ تلك التجارة، فأودع المبلغ الذي كان قد جمعه لدى كونت تعهّد بدفع دخلٍ سنويٍّ دائمٍ يبلغ خمس مئة فرنكٍ، كما تعهّد بتأمين كلّ حاجة الميتم ودار الرعاية من حطب التدفئة. وإثر عقد هذا الاتّفاق غمر الاطمئنان نفسَ الخوري القدّيس، وتضاعفت جرأته على تقبّل نزيلاتٍ جديداتٍ. ولكن، منذ عام ١٨٣٠، ضاقت الدار بنـــزيلاتها. ولم يكن قد خطر ببال المسؤولات إحصاؤهنّ، يومًا، وإذا سُئِلنَ عن عددهنّ كنّ يجبنَ: "لا ننشغل بإحصائهنّ، فلدينا من المهامّ الملحّة ما يشغلنا. ويكفينا أنّ الله عليمٌ بعددهنّ وباحتياجاتهنّ". فسُئِلنَ: "وماذا إذا غابت إحداهنّ؟" فأجبنَ: "كلّ واحدةٍ منهنّ عزيزةٌ علينا، ومن شأن غيابها أن يطلق في قلوبنا إنذارًا مدوّيًا في الحال!".

وكم لزم من تضحياتٍ، وبراعةٍ وإيمانٍ، من أجل توفير أوَد وكسوة تلك العصافير الصغيرة التي وقعت من أعشاشها، وإطعام تلك الأفواه الصغيرة التي تتطلّب الطعام بقابليّةٍ مشحوذةٍ! ولكان همّهنّ قد قضى على عائلهنّ لو لم يستسلم لعطف الله، تحدوه مجازفة القدّيسين السامية التي لم تُحبَط، يومًا، ولم تخيّب.

ومع ذلك اجتازت دار العناية أوقاتًا عصيبةً. ومع أنّ الكاهن القدّيس، كان، في تلك الحالات، يضحّي بأثاث بيته، اتّفق أن افتقرت النـــزيلات إلى قوام العيش الذي لا غنى عنه. وحينئذٍ كان الخوري ينحي باللائمة على المسؤولات عن الدار اللواتي لم يكن يسكن قلوبهنّ، مثل ما يسكن نفسه من إيمانٍ وثقةٍ بالله. ولم تكن لديهنّ طاقةٌ على احتمال ما لا يُحتمَل، ومع ذلك لم يكن يكفّ عن تكليفهنّ بما يفوق قدراتهنّ، مضيفًا إلى أعبائهنّ أعباءً. وذات يومٍ، سمعهنّ يتذمّرنَ، فحزن، وضاعف صلواته من أجلهنّ، مصدّعًا رؤوس القدّيسين حسب قوله.

وكانت السماء، أحيانًا، تبادر فتجعل له مخرجًا من أزماته، كما حدث في يومٍ من عام ١٨٢٩، وكان الموسم الزراعيّ، في تلك السنة، هزيلاً، فلم يستطع أبناء

رعيّة أرس تقديم سوى الزهيد من حنطتهم للرعيّة ولدار العناية. وهزلت، أيضًا، موارد "آنسة أرس"، فتضاءلت مساهمتها. وسرعان ما نفد مخزون الدار من القمح، ولم يبقَ منه سوى ما تناثر على أرض المستودع. حيال هذه الكارثة كان لا مفرّ للكاهن القدّيس سوى الاستغناء عن فئةٍ من النـــزيلات، لكيلا يقضي جميعهنّ جوعًا. ولكنّه لم يُطِق حتّى فكرة إعادتهنّ إلى أحضان البؤس، وتعريضهنّ للمخاطر الجسديّة والنفسيّة. وبما أنّه كان قد فقد الأمل في كلّ عونٍ بشريٍّ فقد لجأ إلى الحلّ الأقصى، وإلى شفاعة القدّيس الطيّب "فرانسوا ريجيس"، الذي كان أنقذه من مصاعب دراسته اللاهوتيّة والتمس منه أعجوبةً. فكنس ما انتثر على أرض العلّيّة من حبّات القمح، وجعل منها كومةً صغيرةً دسّ داخلها ذخيرة ذلك القدّيس. ثمّ أهاب باليتيمات أن ينضمِمْن إليه في التماس "خبز كلّ يومٍ"، وانتظر بسكونٍ.

وجاءته المسؤولة عن صنع خبز الدار، مستفسرةً عن حلٍّ لخواء مخزن الحنطة، فأشار إليها، بانتظار حلٍّ جذريٍّ أن تنظّف ما تمّ كنسه من حبوبٍ مبعثرةٍ. وصعدت كي تنفّذ المهمّة، ولكنّها لقيت مشقّةً في فتح باب العلّيّة، بسبب ما تكدّس وراءه. ولكن، من خلال الثغرة الضيّقة التي انفرجت، تدفّق سيلٌ من الحنطة الرائعة، فانحدرت راكضةً إلى الكاهن معاتبةً إيّاه، لإخفائه عنها أمر امتلاء الأهراء حنطةً. وذُهل الكاهن، مستهجنًا قولها، وصعد معها إلى الأهراء، حيث تبيّن حدوث المعجزة، فضلاً عن تميّز ذلك القمح العجيب بلونٍ زاهٍ، غير مألوفٍ. وعجبا، كلاهما، من صمود أرضيّة الأهراء الخشبيّة النخِرة، تحت ثقل غزارة الكمّيّة، التي لامست السقف.

ولم تكن تلك الأعجوبة هي الوحيدة. فقد حدث عام ١٨٣٠، ما يماثلها. ففي تلك السنة، أيضًا، حلّ الجفاف بالمنطقة، وحرمها الغلال، فندر الدقيق، وغلت أثمانه، ولم يبقَ منه في دار العناية ما يكفي لصنع ثلاثين كيلوغرام خبزٍ، وهي الكمّيّة اللازمة يوميًّا لإطعام ساكني الدار. وأثقل القلق قلوب المسؤولات، فرجونَ الكاهن

القدّيس أن يسأل الله ما يوفّر لهنّ مقدار الخبز الضروريّ. واكتفى الكاهن بالإيعاز لهنّ: "إشرعنَ بالعجن". فسكبت المسؤولة الزهيد من الطحين القابع في قعر المعجن، وأضافت إليه كمّيّةً وافيةً من الماء، وظلّ العجين كثيفًا، فضاعفت كمّيّة الماء، وإذ بمستوى العجين يعلو حتّى أطراف المعجن، مثلما كان يحدث عندما كان يلقى فيه ملء كيس طحينٍ. وأسفرت العجنة عن عشرة أرغفةٍ يزن كلٌّ منها عشرة كيلوغراماتٍ.

وعندما أُحيط الكاهن بما حدث هتف: "كم الله عطوفٌ، وكم يهتمّ بفقرائه!". ولا ريب أنّ دار العناية قد آتت ثمارًا يانعةً، وخيرًا جمًّا. فقد أنقذت نفوس مئات الفتيات وأعدّهنّ لكسب عيشهنّ كسبًا شريفًا. وقد التزمت العديدات منهنّ بإرشادات الكاهن القدّيس، وأصبحن ربّات أُسَرٍ فاضلاتٍ حكيماتٍ، أو خادماتٍ أميناتٍ مصوناتٍ، واعتنق بعضٌ منهنّ الحياة الرهبانيّة المكرّسة. واشتهرت فتيات الدار بنصاعة سلوكهنّ ونزاهتهنّ، بحيث لم يكن ملاّكٌ مشهورٌ ببخله، يمتلك كرمًا، يرضى بتكليف العمل فيه سوى يتيمات دار العناية، ليقينه بأنّهنّ لن يأكلنَ، خلسةً، حبّة عنبٍ واحدةً. وقد آلت ثلّةٌ منهنّ على أنفسهنّ التكفير عن المعاصي التي تُرتكب بمناسبة الاحتفالات في مرابع الرقص والحانات، والتي كانت تُحزن قلب خوري أرس. وفي هذا السبيل، كنّ يُحيينَ ليالي كاملةً مصلّياتٍ ومستغفراتٍ عن الخطأة، ومتناوباتٍ على السهر والاستغفار. ويقمنَ بهذه المهمّة بصمتٍ، فلا تلحظهنّ الفتيات النائمات. وتمثّلت كثيراتٌ من مسؤولات الدار ومن نزيلاتها بروحانيّة الكاهن القدّيس، ودأبنَ على التضحية، والزهد، وفرض كفّاراتٍ على ذواتهنّ من أجل ارتداد الخطأة. وتُروَى، في هذا السياق، قصّة فتاةٍ كانت شديدة التعلّق بدميةٍ لا تفارقها حتّى في الكنيسة، ورغب الأب "فــيانّي" في امتحانها، فدعاها إلى إلقاء دميتها المدلّلة في النار، فحزنت حزنًا عميقًا، وأُسقط في يدها، وما هي سوى لحظاتٍ حتّى استعادت جأشها، ووطّنت عزمها، ورمت دميتها في موقد

المطبخ. وقد فاقتها كثيراتٌ من أترابها بطولةً في ميدان التضحية، وارتقينَ في سلّم الكمال والفضيلة قممًا شامخاتٍ.

وقد أجمع الذين زاروا الميتم، في تلك الأيّام، أنّه معجزةٌ حقيقيّةٌ. ففي حيّزٍ من شأن ثلاثين شخصًا فيه أن يعانوا الضيق، استقبل الخوري ستّين فتاةً، انتشلهنّ من براثن التشرّد، والضياع، ومخاطر الرذائل، واستطاع ذلك الكاهن القدّيس الذي كان يعيش بما كان كفيلاً بالقضاء على سواه جوعًا وحرمانًا، أن يُعدّ تلك المسكينات لحياةٍ كريمةٍ. صحيحٌ أنّه لم يزوّدهنّ بعلمٍ رفيعٍ، فقاعة التدريس الوحيدة المتوفّرة، كان عليها أن تُستخدَم لتعليم فتياتٍ تتراوح أعمارهنّ بين اثنتي عشرة وثماني عشرة سنةً، يتوزّعن على ثلاثة صفوفٍ، وتدوّي أصواتهنّ معًا بدروسٍ مختلفةٍ. ومع ذلك ظفرنَ بمبادئ التعليم الأساسيّة، وتزوّدنَ بأدواتٍ تيسّر لهنّ الحياة القرويّة، بتلقينهنّ الأعمال اليدويّة، وحياكة الألبسة، وخياطتها، وفضلاً عن ذلك تعلّمنَ العيش النظيف، على شظافته، الطافح بالمحبّة والخدمة، والتعاون، وفي جوٍّ من الإيمان والتقوى، والتعاضد؛ وتسلّحنَ بقسطٍ وافٍ من الفضيلة والورع، ومنعة النفس، يؤهّلهنّ لمجابهة شتّى المخاطر الأخلاقيّة، والأزمات المادّيّة، لجعلهنّ أُمّهاتٍ فاضلاتٍ، وربّات أُسرٍ.

ذلك الميتم كان مؤسّسةً خارجةً عن المألوف، تدين بكلّ شيءٍ لقداسة مؤسّسها، ومحبّته، وغيرته. ولقاء ذلك كان المؤسّس يحصل من الميتم على ملء كوبٍ خزفيٍّ، حساءً، من وجبة اليتيمات، يحتسيه على عجلٍ، واقفًا، منتحيًا زاويةً، أو في طريقه إلى الكنيسة. وإذا تسنّت له لحظاتٌ، كان يختلط، في الباحة مع الفتيات، فيطالع في براءة ألحاظهنّ ما ينسيه أمواج الشرور والخبث المتلاطمة من حوله. كان يعرف كلاًّ منهنّ، فيستطلع أخبارهنّ، ويشجّعهنّ، وينصحهنّ، ويلقّنهنّ آداب السلوك. وكلّما احتاج إلى نعمةٍ إلهيّةٍ كان يلتمس منهنّ الاتّحاد معه في طلبها بالصلاة، موقنًا أنّ "صلوات الأولاد تصعد إلى السماء مضمّخةً بعطر البراءة".

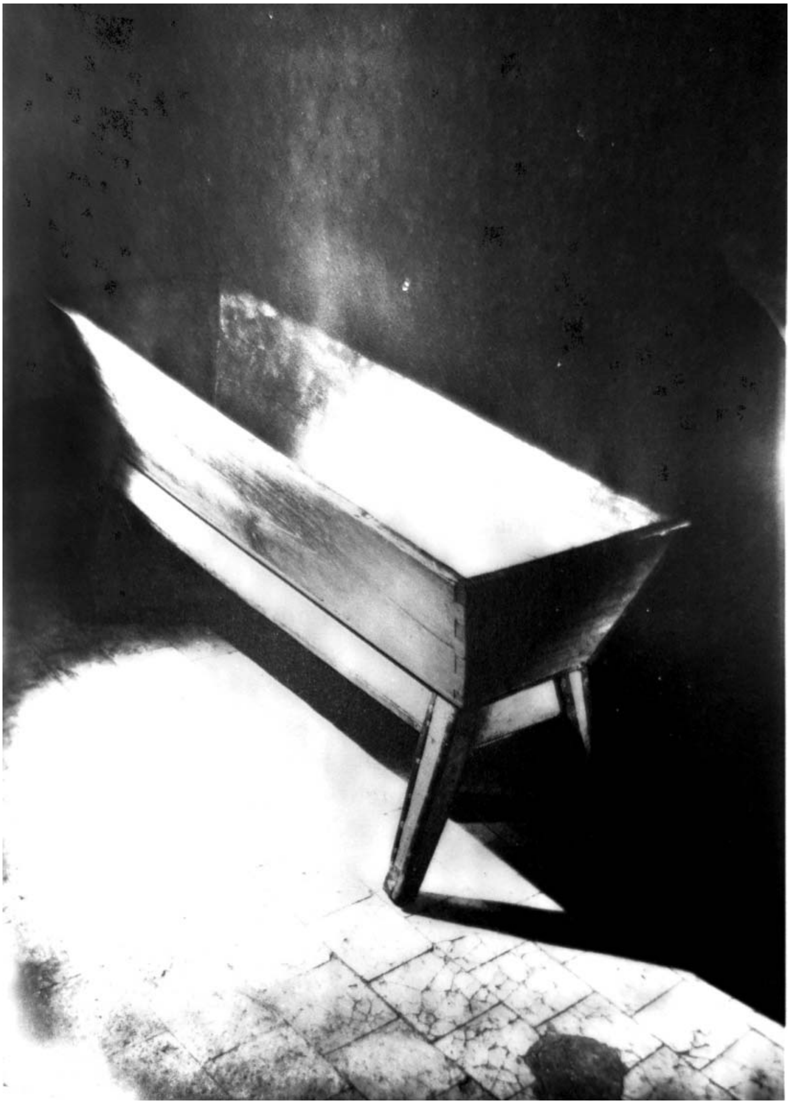

المعجن العجيب حيث كفَتْ قبضةُ طحينٍ لصنعِ ثلاثين كيلوغرامًا خبزًا

وكان قد ابتنى، في حديقة الميتم، خيمةً تفيء إليها الفتيات محتميات من القيظ، ولاحقًا تصدّر الخيمة تمثالٌ للسيّدة العذراء، غدا مصلًّى قرويًّا، وتنافست الفتيات على تزيينه بالأزاهير. وفي الأُمسيات الصاحية كان الجميع يلتئمون حول التمثال وينشدون التراتيل لأمّ الله.

كانت الفتيات تمكثنَ في الميتم حتّى سنّ التاسعة عشرة أو العشرين، وقبل مغادرتهنّ كان الكاهن يوجد لهنّ عملاً نظيفًا، في المزارع، وعندما تُطلَب إحداهنّ للزواج كان ينصحها، ويهديها ما يستطيع إهداءه من مالٍ وثياب، وكان يواكب ويرشد اللواتي تخترنَ الطريق الرهبانيّ. ويمكن الاعتقاد بأنّه كوفئ بأوفى وأنبل مشاعر حبٍّ يمكن أن تكنّه بناتٌ لآبائهنّ.

وكان من الطبيعيّ أن يجعل الخوري القدّيس، من قاعة الميتم مركز تعليمٍ دينيٍّ، يوفّر الغذاء الروحيّ لنـــزيلاته، وسرعان ما أخذ الزائرون يتقاطرون، وينتظمون تحت نوافذ القاعة لسماع تعاليمه، التي يؤدّيها معلّقًا بطرشيله على صدره، موشّيًا تعليمه بأمثالٍ مستقاةٍ من الحياة اليوميّة. ومنذ عام ١٨٤٥، تكاثف عدد الزائرين الراغبين في الإصغاء لتعليمه، فشرع يلقيه داخل الكنيسة.

ذلك الميتم لم يوفّر لمؤسّسه تعزياتٍ كبرى فحسب، بل لطالما كبّده جمًّا من الهموم والتضحيات. فقد كانت تغشاه، أحيانًا، مستعطياتٌ سابقاتٌ، كبرنَ في الشارع، وابتلينَ بكلّ أوصابه، وعببْنَ من ثقافته، وغدونَ قذرات الجسم واللسان والتفكير، فكان لا بدّ من سهرٍ يقظٍ ودائمٍ لكيلا ينقلنَ عدوى قذارهنّ إلى يتيماتٍ صغيراتٍ بريئاتٍ، ولاحقًا من أجل تنظيفهنّ.

ولكم طرد النوم عن جفونه همّ إطعام جميع النـــزيلات، كلّ يومٍ، وكم أرّقه خواء الأهراء المطّرد، وجفاف منابع المساعدات! صحيحٌ أنّ الله كان يرأف به وباليتيمات، فتمتلئ أهراء الحنطة، بغتةً، امتلاءً عجيبًا، وتكفي حفنة دقيقٍ لصنع

عشرات الكيلوغرامات من الخبز. وكان الطعام المعدّ، في بعض الأيّام، يبدو من القلّة بحيث لا يكفي لإشباع سوى عددٍ محدودٍ من اليتيمات، وتشرع المشرفات بسكب الحصص بأيدٍ مرتجفةٍ، وقلوبٍ واجفةٍ، فيسارع الخوري إلى تولّي المهمّة عنهنّ، وحينئذٍ يشهدنَ بذهولٍ كيف تنال كلّ يتيمةٍ على أكثر من حاجتها.

ولكنّ المعجزات لم تكن يوميّةً، وحينئذٍ كان الكاهن يتحوّل إلى مستعطٍ جوّالٍ، ولا يتورّع عن استدرار عطف الحجّاج، للإسهام في إطعام اليتيمات، ولتمكينه من إيفاء الديون التي كان قد التزم بها في سبيل إشباعهنّ يوميًّا.

وكانت التضحيات التي يتكبّدها طوعًا، هي الوسيلة الوحيدة التي يلوذ إليها، كلّما أعيته الحِيَل. وغالبًا ما كانت مديرات دار العناية يأتينه بوجبة عشائه، فيجدْنَ باب غرفته موصدًا، ويقرعنه فيجيب من الداخل: "أنا لست بحاجةٍ إلى طعامٍ اليوم، ولا تعدنَ حتّى (اليوم الفلانيّ)"، أي بعد عدّة أيّامٍ، يقضيها صائمًا، وكان يرفض بحزمٍ كلّ ما يضفنَه، بين فينةٍ وفينةٍ، إلى وجبة اليتيمات، رأفةً بصحّته، قائلاً: "ما أكثر الذين لا يجدون ما يأكلونه!"

ولطالما عثرنَ، في حجرته، على مجالد يقمع بها ذاته، ولمنَ كراتٍ معدنيّةً متناثرةً منها، كما عثرنَ على مسحٍ من وبرٍ خشنٍ، كان يرتديه تحت ثيابه، أثناء نومه. ولطالما وجدنَ غلالاته ملطّخةً بالدم وبالقيح اللذين أحدثتهما جروح كتفه، من جرّاء الجلد. ولم تكن تلك الإماتات مجرّد ترويضٍ لجسده، الذي أسماه "جثّته"، وتحصينٍ لذاته من سطوة الشهوات، بل كان استنـــزالاً لعون الله من أجل يتيماته.

مَسَاعٍ رَسوليّةٌ

تغلّب الأب "ڤـــيانّي" على مكائد الجهل والحقد والشرّ، واتّضح له أنّ الرقعة التي أوكلت إلى رعايته لم تكن تنبت أشواكًا فحسب، بل أنّ ثمّة براعم يجدر به مساعدتها على التفتّح، فتسعد العيون بتأمّلها، وتنتعش الصدور بفوح أريجها.

وكان، منذ وصوله إلى أرس، قد خطر له أن يؤلّف نخبةً تصبح له عونًا على ترسيخ الفضائل، والقضاء على الممارسات الذميمة. وفي الآن عينه، كان وطيد القناعة بأن الإفخارستيّا هي الوسيلة المثلى للتجدّد الروحيّ.

في سبيل إيجاد مثالٍ مؤثّرٍ، بدأ العمل على تحويل "آنسة أرس"، ساكنة القصر، التي كانت تتحلّى بالاستقامة ونصاعة السلوك، ولكنّها ما برحت متأثّرةً بالممارسة الجنسينيّة المغالية في التعنّت الذي ينتج جفافًا روحيًّا. فأقنعها باعتياد المناولة المطّردة، وبانتهاج عبادةٍ تزيّنها الرقّة. ومنذئذٍ غدت تؤمّ الكنيسة كلّ صباحٍ، سيرًا على قدميها، أيّةً كانت حال الطقس، متحدّيةً الثلج أحيانًا، ومقتّرةً نفقاتٍ نافلةً كي تنفق على الفقراء. وكانت تعود، مساءً إلى الكنيسة، لقضاء فترة تعبّدٍ أمام القربان المقدّس. وسرعان ما انضمّ إليها مؤمنون ورِعون من عامّة الناس، فضلاً عن بنات "أخويّة الورديّة"، ومن عاملين في مدرسة "العناية"، وهما المؤسّستان اللتان كان خوري أرس قد أسّسهما، وبثّ تقواه وفضائله في نفوس أعضائهما، فكانوا جميعُهم، معًا، عمّال الساعة الأولى المؤازرين لخادم الرعيّة. ومنذئذٍ لم تفرغ الكنيسة، لحظةً، من متعبّدين ومصلّين، في خشوع الصمت والعزلة.

ومع ذلك كان الأب "ڤـــيانّي" موقنًا أنّ الممارسات التقويّة لن تعمّ الرعيّة، ما لم يجتذب إليها الرجال والشبّان، مثلما اجتذب النساء والفتيات، فكثّف جهوده لتعميق روح هذه الممارسات لدى أعضاء "أخويّة القربان المقدّس"، التي كانت تحتضر، وكانت حجّته: "للرجال نفوسٌ ينبغي خلاصها، مثلما للنساء. هم الأوّلون

في كلّ مضمارٍ دنيويٍّ، فلمَ لا يكونون الأوّلين في خدمة الله، وفي تكريم يسوع المسيح في سرّ حبّه. هذه العبادة ستكون أعمق تأثيرًا عندما يمارسها الرجال...".

من المحقّق أنّ خوري أرس لم يحرز، مع الرجال، مثل ما أحرزه لدى النساء، ولم يحقّق رغبته في جعلهم يخصّصون وقتًا يوميًّا لعبادة القربان، إذ كانت أشغالهم الشاقّة في الحقول تستأثر بكلّ وقتهم، وتستنـــزف قواهم. إلاّ أنّه أفلح في اجتذاب أغلبيّتهم الساحقة إلى قدّاس يوم الأحد، حيث أضحى حضورهم محطّ إعجاب الغرباء. وكانت فئةٌ منهم تتريّث في الكنيسة عقب صلاة الغروب، من أجل تكريم القربان المقدّس.

وكان خوري أرس، منذ عام ١٨١٩، قد أولى اهتمامًا بالغًا بتنظيم الاحتفال بعيد الجسد الإلهيّ، وأنفق مبالغ طائلةً كي يصنع حللاً بيضاء للأولاد المشاركين في التطواف، وقال لهم، وهو يلبسهم إيّاها: "فكّروا أنّكم أمام الله، وتحلّون محلّ ملائكته". غير أنّه لقي عنتًا في إقناع رجالٍ بتخطّي الحياء البشري، والانضمام إلى التطواف حاملين شموعًا مضاءةً.

ثمّ إنّه، في سبيل تفعيل أخويّة القربان المقدّس، التي كانت حكرًا على الرجال، فتحها أيضًا للنساء، فدبّت فيها الحياة.

وحرص على أن يُدخل إلى كلّ أُسرةٍ من أُسَر رعيّته حياةً مسيحيّةً كثيفةً ومنيعةً. فإن كان همُّ كسب عيشهم لا يتيح لهم حضور القدّاس يوميًّا، أثناء الأُسبوع، أفلا يمكنهم تلاوة صلواتٍ مقتضبةٍ، صباحًا ومساءً، وقضاء لحظاتٍ في الكنيسة، مساءً؟ وقد جهد في إعادة إحياء عادة الصلاة المسائيّة العائليّة المشتركة، وشيئًا فشيئًا تحويلها إلى صلاةٍ جماعيّةٍ تضمّ جميع أبناء الرعيّة، وأمسى جرس كنيسة القرية، كلّما هبط الليل، يدعو الجميع للاشتراك في الصلاة وتلاوة المسبحة، في بيت الله.

وانطلق خوري أرس إلى شوطٍ أبعد، فدعا أبناء رعيّته إلى اعتياد فحص الضمير،

قبل النوم، ومطالعة كتبٍ تقويّةٍ، وسِيَر قدّيسين، قبل الإخلاد إلى النوم، ولا سيّما في أيّام الشتاء، حيث يطولُ الليل، ولا تشغل أعمالٌ شاقّةٌ ساعات النهار، بغية ترسيخ حقائق الخلاص في القلوب. وكان على يقينٍ بأنّ أولئك القوم البسطاء الذين يعيشون في أحضان الطبيعة، لن يصعب عليهم مناجاةُ الله، فكان يؤكّد لهم أنّ الله لا يستهوي الصلوات المدبّجة بتنميقٍ، بل يستجيب للأدعية المتفجّرة من أعماق النفوس.

وجهد في الارتقاء بالنفوس التي توسّم لديها صبوًّا إلى الكمال، إلى بعض الذرى التي سمت إليها نفسه، فخاطبها بمثل هذه الأقوال: "إذا أحببنا أحدًا، فهل من حاجةٍ إلى رؤيته كي نفكّر فيه؟ كذلك، إذا أحببنا الله ستُصبح لنا الصلاة طبيعيّةً كالتنفّس. وكم أنا أُحبّ هذه العبارات التي تقال، صباحًا: "أُريد، اليوم، أن أفعل وأعاني كلّ ما يؤول إلى تمجيد الله... لا شيء من أجل مصلحةٍ، أو إرضاءً للعالم، بل كلّ شيءٍ من أجل إرضاء المخلّص. على هذا النحو لا ترى النفس المتّحدة بالله، سواه. فلنكثر من قول: ارحمني يا لله، مثلما لا يكفّ ولدٌ يقول لأُمّه: مدّي لي يدك، وأعطيني خبزًا. وإذا رزحنا تحت عبءٍ باهظٍ، فلنذكر أنّنا نقتفي آثار يسوع المسيح حاملاً صليبه، ولنضمّ أتعابنا إلى أتعابِ المخلّص الإلهيّ...".

وقد استرشد عديدون من أبناء الرعيّة بهذه الإرشادات، فأدهش سجوُّ وجوههم، وسلامُ نفوسهم، الحجّاج الذين كانوا يصادفونهم على دروب أرس.

هذه الإنجازات لم تقتصر على رعيّة أرس، بل أشرك الكاهن القدّيس بفائدتها العديد من الرعايا المجاورة التي ما برحت مهملةً، مدمّرةً روحيًّا، معانيةً جراح الثورة. أجراس كنائسها راقدةٌ على الحضيض، ورعاياها محرومةٌ من كلّ خدمةٍ روحيّةٍ. ودفعت الغيرة الرسوليّة خدّام رعايا أخرى، ورهبانًا خرجوا، مؤقّتًا، من مناسكهم، بغية سدّ بعض الثغرات. وانضمّ الأب "ڤــيانّي" إلى أولئك المتطوّعين الغيورين، باندفاعٍ وفرحٍ. وربّما استخفّ كهنةٌ آخرون بطاقاته وعلمه، وارتابوا في قدرته على الخدمة، ولكن سرعان ما انقلب استخفافهم وشكّهم تقديرًا وإعجابًا،

ولا سيّما بعد أن شهدوا زهده، وتقشّفه، وفُتِنوا ببلاغته المجرّدة من كلّ تنميقٍ، والتي على بساطتها، كانت عميقة النفاذ والتأثير.

وقد تجلّت شخصيّته الفذّة، تجلّيًا متألّقًا، في رعيّة "تريـــڤـــو" (Trèvaux)، حيث شارك في رسالةٍ بين التاسع من كانون الثاني والرابع والعشرين من شباط ١٨٢٣، فحوصرت السكرستيّا حيث أُقيم له كرسيّ اعترافٍ، لم يفرغ نهارًا ولا ليلاً. وكان قد حلّ، في تلك المحلّة ضيفًا على زميلٍ قديمٍ له، افتتح فيها نزلاً، وكان يُعدّ له، كلّ مساءٍ، عشاءً، ولكنّ الكاهن لم يتسنّ له مشاركة زميله عشاءً واحدًا. وكان مضيفه يقصد الكنيسة، بعد منتصف كلّ ليلةٍ كي يعود بصديقه، فيجد طوابير التائبين الذين مازالوا ينتظرون دورهم. وقد اشتدّ تزاحمهم، ذات ليلةٍ، حتّى كادوا يطيحون بكرسيّ الاعتراف، وبالجالس فيه. وكان هذا الحدث هو الذكرى الوحيدة التي احتفظ بها عن تلك الرسالة، وكان يغرق في الضحك، كلّما رواها. وجديرٌ بالذكر أنّ قائد الشرطة كان بين المتقاطرين إلى كرسيّ اعترافه، إراحةً لضميره، والتماسًا لنصحه. ولطالما أشاد بحكمة الكاهن، وسداد رأيه، مع أنّه لم يرتح لموقفه الشاجب لحفلات الرقص التي كانت تنظّمها السلطات البلديّة.

وكان من المألوف، في ختام هذه الرسالات، أن يجدّد الكهنة المشاركون التزامهم الكهنوتيّ، بحضور المؤمنين. وفي "تريـــڤـــو" كُلِّف الأب "ڤـــيانّي" برعاية هذا الاحتفال، فسلّم كلاً من إخوته الكهنة نسخةً من الإنجيل، وسأله: "هل تؤمن بإنجيل ربّنا يسوع المسيح المقدّس؟". وكان لموقفه، آنذاك، ولنبرة صوته الحافلة بالورع والخشوع تأثيرٌ عميقٌ على جميعهم.

وعندما اشترك برسالةٍ أُخرى في "سان تريـــڤـــييه" (Saint-Trivier)، خصّت رعيّة أرس شائعةٌ زعمت وفاته من الإرهاق في كرسيّ الاعتراف. والواقع أنّه كان قد قصد تلك القرية سيرًا على قدميه، فوق الثلج، خاوي المعدة، فأُغمي عليه، وظلّ مرميًّا أرضًا، حتّى أنهضه مارّةٌ، ومضوا به إلى القرية، التي تقاطر إليها المؤمنون من

القرى المجاورة للاعتراف بين يدي كاهنٍ قدّيسٍ. وكان هو يشخص إلى الكنيسة التي يسود فيها بردٌ قاتلٌ، منذ الصباح الباكر، ويمكث في كرسيّ الاعتراف حتّى الظهر. ورأفةً به، جيء إليه بمدفأةٍ لقدميه، فتقبّلها بأدبٍ، ولكنّه لم يستخدمها قطّ.

ودعي الأب "فــيانّي"، أيضًا، للمشاركة بيوبيل، في قريةٍ أخرى. وبما أنّ دار الرعيّة لم تكن تتّسع لجميع المدعوّين، فقد طلب خادم تلك الرعيّة من سيّدةٍ ستّينيّةٍ استضافة خوري أرس في بيتها. وكان هذا الأخير، منذ قدومه، قد أوعز للمرأة المضيفة أن تسلق له ملء قدرٍ بطاطا، وتضعها في غرفة نومه. وبعد انتهاء الاحتفال، رغب كاهن الرعيّة تسديد كلفة ما قدّمته السيّدة للكاهن من خدمات، فأوضحت أنّه لا يتعيّن لها سوى أُجرة غسل أغطية سريره. فاستفسر عن نفقات إطعامه، بما أنّه لم يتناول، يومًا، طعامًا في دار الرعيّة، فأكّدت أنّه لم يتناول لديها أيّ طعامٍ، إذ كان يكتفي بمرورٍ خاطفٍ، لا يتجاوز خمس دقائق، ظهر كلّ يومٍ. وحينئذٍ تفقّدت الخادمة غرفة نومه، فوجدت قدر البطاطا مغطّى وفارغًا، واتّضح أنّ الضيف لم يتناول سوى البطاطا مدى يومين. وتحقّق خادم الرعيّة من ذلك بعد أن تحرّى لدى جميع أبناء رعيّته الذين أقرّوا أنّ خوري أرس لم يتناول أيّ طعامٍ عند أحدٍ منهم.

وبمناسبة يوبيل رعيّة "سان بيرنار"، كان خوري أرس هو المتطوّع الوحيد لمساعدة راعيها في الخدمة الراعويّة، وأبى جميع أبناء الرعيّة إلاّ التوجّه إلى الأب "فــيانّي". ولّما زار كهنةٌ آخرون خادم الرعيّة، واستفسروا عن موقفه من إيثار أبناء رعيّته، الكاهن الغريب، أجاب: "علامَ أشكو، ولديّ عاملٌ يجيد عمله، ولا يأكل شيئًا؟". وفي أثناء وجوده في تلك الرعيّة حرص عمّال الكروم، وخدّام المزارع على التخلّي عن أعمالهم وأجورهم، لكي تغذّيهم كلمةٌ واحدةٌ من عظات الضيف القدّيس. وكانوا يقولون لمستخدِميهم: "إن شئتم اقتطعوا جزءًا من أجرتنا مقابل الوقت الذي نقضيه مصغين لعظات خوري أرس، فنحن حريصون على ألاّ يفوتنا منها كلمةٌ". وقد حقّق عبور ذلك الخوري القدّيس في تلك القرية، خيرًا جمًّا، دام تأثيره طويلاً.

وكاد الأب "ڤـــيانّي" يقع ضحيّة خدعةٍ، عندما دعاه خادم رعيّة "ليماس" (Limas)، للوعظ في كنيسته، بمناسبة احتفالٍ كنسيٍّ هامٍّ يتعلّق بالقربان المقدّس. وهيّب هو الوعظ أمام جمهورٍ من المثقّفين، ولكنّ زميله طمأنه بأنّ الجمهور يتألّف من قرويّين. غير أنّه ذُهل، لدى دخوله إلى الكنيسة، فوجدها غاصّةً بكهنةٍ وإكليريكيّين، ومثقّفين، وبجمهورٍ من كلّ الطبقات الاجتماعيّة. وإثر لحظات تردّدٍ، تجرّأ وتحدّث عن محبّة الله، وما لبث أن أخذ معظمهم يذرّفون دموع التأثر.

وكان حريصًا، كلّما اضطرّ إلى الغياب عن رعيّته، على تكليف خادم رعيّةٍ مجاورةٍ، بتقديم الخدمات الدينيّة الطارئة، ولكنّه كان يعود بانتظامٍ، يوم الأحد، إلى رعيّته العزيزة، ويمضي يوم الربّ مع أبنائه. وعندما اضطرّ إلى غيابٍ طويلٍ، بمناسبة رسالة "تريـــڤـــو"، كان، فور فراغه من الاعترافات، يعود إلى أرس، في عتمة الليل، وفي عزّ البرد. وقد خشي عمدة أرس على الخوري القدّيس، فكلّف ابنه بالشخوص إلى "تريـــڤـــو" ليلة السبت/ الأحد، بغية مرافقة الخوري. ويروي ابن العمدة، الشابّ، أنّ الكاهن، رغم الثلوج والبرد القارس، كان يعزف عن سلوك الدروب المختصرة، كلّما كان عليه عيادة مريضٍ، أو مواكبة محتضرٍ. وأكّد ذلك الشابّ أنّه لم يسأم، يومًا، طول المشوار، إذ كان الكاهن لا يكفّ عن رواية أحداثٍ شيّقةٍ من سير القدّيسين. وعندما يتّفق للشابّ أن يشكو من قرس البرد، ووعثاء الطريق، كان الكاهن يجيب، دائمًا: "يا صديقي، لقد عانى القدّيسون أقسى من هذا بما لا يُقاس. فلنقدّم معاناتنا لله". وعقب تلك الأحاديث المنعشة، كانا يتلوان المسبحة معًا. وقد خلّف كلّ ذلك في نفس الشابّ أثرًا بنّاءً راسخًا.

وقد عهد عن الأب "ڤـــيانّي" أنّه لم يقُم، طوال حياته، بأيّة رحلةٍ سياحيّةٍ أو ترفيهيّةٍ، ولكنّه لم يتلكّأ، يومًا، عن الشخوص إلى أيّ مكانٍ تأتيه منه استغاثةٌ. وما أكثر ما استُغلّت جاهزيّته، في هذا المضمار! ولطالما هرع إلى سدّ فراغ رعايا محرومةٍ من راعٍ، وإلى مدّ يد العون لكهنةٍ مسنّين، قائمًا بالمهمّات المطلوبة منهم، مجتازًا، في هذا

السبيل، سيرًا على الأقدام، عشرات الكيلومترات، في كلّ وقتٍ وكلّ ظرفٍ! ولطالما عاد، وقد جمّد البرد وجهه ويديه، وكلّ أعضائه، ولطّخت الأوحال ثيابه، وعضّ معدته الصوم والجوع! ولكنّه لم يشكُ يومًا، بل كانت تلك الخدمات تفعمه حبورًا.

وذات يومٍ، كان، هو ذاته، معتلاًّ، ومع ذلك شخص إلى قريةٍ أخرى من أجل تزويد محتضرٍ بالزاد الأخير، وخارت قواه، فلم يقوَ على السير للعودة إلى مقرّه، فاضطرّوا إلى نقله على متن عربةٍ. وفي نوبةٍ أخرى، استدعي إلى فراش مريضٍ، في قريةٍ مجاورةٍ، وبلغ غايته مبلّلاً بالمطر، مرتجفًا بالحمّى، فتهالك وارتمى على فراشٍ بقرب فراش المريض، وبهذا الوضع استمع إلى اعترافه، وبرّر ذلك بقوله: "كنت أكثر اعتلالاً من المريض عينه".

على هذا النحو، ظلّ، طوال عمره، لا يتوانى عن أيّة خدمةٍ، أيّةً كانت حالته الصحّيّة، ومهما اقتضت منه الخدمة من تضحياتٍ، باذلاً ذاته، من أجل النفوس.

ولطالما تراصّ مؤمنو قرى مجاورةٍ، كان يشخص إليها استجابةً لطلب محتاجين إلى خدماتٍ روحيّةٍ، وشهدوا، بتأثّرٍ بالغٍ، ذلك الكاهن الهزيل القدّيس الذي غمرت الأوحال ثيابه، وأوهاه المسير، والذي يأبى طلب كأس ماءٍ، ويعود، عقب الفراغ من مهمّته، مثلما جاء، جارًّا قدميه، مستنفدًا بقايا قواه!

جَهنّم وزبائنها يشنّونَ حملاتِهم عَلى الكاهن القدّيس

ما من خيرٍ يتحقّق بمنأًى عن الألم، ولا من بناءٍ روحيٍّ ينهض إلاّ على أسس التضحية. ولا مراء أنّ كلّ شيءٍ يُطهَّر بالدم حسب قول الرسول بولس.

هذه القناعات ترسّخت في ذهن خوري أرس، وحدَت به إلى فرض أقسى التضحيات على ذاته، من أجل خلاص النفوس التي كُلّف برعايتها. غير أنّ خبث البشر حرص على أن يُلحق به آلامًا أُخرى أشدّ تبريحًا وإيلامًا ولا عجب في ذلك، فمن يهاجم الأسد في عرينه لا يسلم من مخالبه. وبعض المستفيدين من حلبات الرقص والحانات لم يسلّموا بخسارة موارد رزقهم الحرام، والذين كانت الثورة قد جنّدتهم من أجل معاداة الكنيسة ورعاتها وأبنائها، لم يسلّموا بفقدان نفوذهم، مجّانًا، وبلا مقاومةٍ.

هذا الواقع لم يكن خافيًا عن ذهن الخوري القدّيس، الذي طالما صرّح أنّ على الراعي الحريص على إعتاق رعيّته من أوصابها أن يدوس بقدميه الحياءَ البشريّ، وأن يتوقّع معاداة من يقاوم شرورهم ويفضحها، وألاّ يهاب الموت عندما يشنّ الحرب على الفساد، متمثّلاً بالرسول بولس الذي خاطب الكورنثيّين، قائلاً: "وأنا، بكلّ سرورٍ، أُنفق كلّ شيءٍ، بل أُنفق نفسي لأجل نفوسكم، وإن كنتم، مع حبّي الجمّ لكم، لا تبادلونني سوى القليل من الحبّ".

مدعومًا بهذا الإيمان، لم يتوانَ ذلك الكاهن القدّيس، منذ تولّيه رعاية أرس، وكلّما ارتقى منبر الوعظ، عن تأنيب من لا يَرْعَوون عن غيِّهم، وعن مناشدتهم، وإنذارهم بالمصير البائس. وعندما كان يلوّح بنار جهنّم، كان يَصفق يدًا بيدٍ، ويقرع صدره قرعًا عنيفًا يكاد يحطّم ضلوعه. وإزاء مثابرته على هذا النهج، وصفه بعضهم بالمزعج، وبات آخرون يتثاءبون أثناء وعظه، فيجيبهم: "أنا لا أملّ عندما أكون معكم".

بادئ الأمر، أزعجت صرامته بعض أبناء الرعيّة الذين لم يعهدوا مثلها لدى

أسلافه الذين لم يمسكوا، قطّ، الغفران عن خاطئٍ لم يعلن، صراحةً وجهارًا، عزمه على إصلاح نفسه والنأي عن سبُل الخطيئة، ولم يتجاسر أحدٌ منهم على إرجاء منح المناولة الأولى لطفلٍ لم يحصّل قدرًا كافيًا من التأهّل. وكانت فئةٌ من المتضرّرين من صرامته والمتمرّدين عليها يعبّرون عن ضيقهم بها، قائلين: "فليمارس قسوته على ذاته، وليدع الآخرين يعيشون كما يحلو لهم". وحتّى بين الذين كانوا يقدّرون فضائله أرفع تقديرٍ، وبين الورعين الأتقياء، لم يستسِغْ جميعهم شدّته، وصعب عليهم التكيّف الدائم مع اقتضائه الكمال، وشجبه حتّى الهنات الصغرى، وحرصه على اقتيادهم عبر دروبٍ شديدة الوعورة.

وكان الأشدّ امتعاضًا من صرامة الكاهن طغمةٌ من شبّانٍ فاسدي الأخلاق، لم يطيقوا أن تُبعَد عنهم فتيات القرية اللواتي امتثلنَ لإرشاد خوريهنّ، والذين حُرِموا مرابع السكر والقمار، فراحوا يختلقون ألوان التخرّصات والافتراءات الباطلة، ويلصقونها بالكاهن، محاولين تلويثه بالحمأة التي كانت تلفّهم من رؤوسهم حتّى أخامص أقدامهم. فمنهم من انتهك عرض فتاةٍ ساكنةٍ بجوار الكنيسة، ونسب حملها إلى الخوري المرائيّ، ونسب إليه وزر كلّ طفلٍ يولد سفاحًا في القرية، ومنهم من عزوا الهزال الذي ألحقه به إسرافه في التضحيات وقمع الذات إلى ممارساتٍ مشينةٍ، وألّفوا من تلك التلفيقات أغاني مسفّةً، راحوا يردّدونها، ليلاً، تحت نوافذ حجرته، ويطوفون بها عبر أزقّة القرية، أو ضمّنوها مناشير ألصقوها على باب الكنيسة، وعلى باب دار الرعيّة، وأمطروه برسائل شتيمةٍ، مغفلة التوقيع، ورابطوا تحت نوافذ حجرة نومه مالئين الأجواء ضوضاءَ جهنّميًّا. ومع أنّ أبناء الرعيّة استنكروا هذه الوقاحات، ولم يتسرّب إلى أذهانهم أيّ ظلّ ريبةٍ في نصاعة سلوك خوريهم القدّيس، وفي نأيه المطلق عن كلّ شائنةٍ، لم يكفّ الأوغاد، طوال ثمانية عشر شهرًا، عن تكويم الأقذار عند باب مقرّه، وقضاء الليالي في رشقه بالشتائم، وكأنّه حثالة القوم، ولم يضنّوا عليه بأيّة إهانةٍ.

وفضلاً عن ذلك أنفذوا رسائل إلى رؤسائه الروحيّين حشوها بافتراءاتهم القذرة. ولكنّ أُسقف ليون الذي كان موقنًا بقداسة خوري أرس كان يسارع إلى إتلاف تلك الترّهات. ولكن في عام ١٨٢٣، أضحت رعيّة أرس تابعةً لأُسقفيّة "بلّي" (Belley)، ولم يكن لأُسقفها الجديد أيّة معرفةٍ بالأب "ڤـــيانّي"، وارتأى من واجبه التحقّق من الاتّهامات المساقة بحقّه، وكلّف وكيله بتحرّي الأمر واستجلائه. وفي الواقع صدمت المحقّق رثاثة هندام خوري أرس، فجلبابه المهترئ تغشاه اللوثات، ومسكنه أشدّ إهمالاً. ومع أنّ الأشواك لم تكن قد نبتت، بعدُ، في مطبخه، إلاّ أنّ مظاهر الهجر كانت صارخةً فيه؛ وحجرة الكاهن أظهرت حرمانها من لفتة ترتيبٍ إلاّ في فتراتٍ متباعدةٍ، أمّا الحديقة، فقد أضحت قفرًا ويبابًا. وأوجز المحقّق تقريره بعبارةٍ واحدةٍ: "يا صاحب السيادة، صحيحٌ أنّ التنظيم المادّيّ مفقودٌ. ولكن لا بأس. فالكاهن قدّيسٌ!".

ولم يكتفِ الأُسقف بهذا التقرير، وآثر التأكّد من حقيقة الأمر بنفسه. ودُعي، بعد أيّامٍ إلى المشاركة بمناسبةٍ في رعيّةٍ مجاورةٍ لأرس، وطلب أن يدعى الأب "ڤـــيانّي"، أيضًا، وحرص على إجلاسه دائمًا بجانبه، أثناء وجبات الطعام، ولم يرُقْ هذا الأمر لأحد الكهنة، فقال غامزًا من قناة خوري أرس، ومندّدًا بهندامه المهمل: "إنّه دائمًا إلى جانب الأُسقف، ومع ذلك لا يعنى بشدّ وسطه بزنّارٍ"، فردّ عليه كاهنٌ عليمٌ بفضائل الأب "ڤـــيانّي": "إنّه، بلا زنّارٍ، لا يقلّ شأنًا عمّن يتمنطقون بأعرض زنّارٍ". فاستحسن الأُسقف هذا الردّ، وأيّده.

بيد أنّ انتقادات الخوري المسكين استمرّت، بل تكاثرت، وانتزعت منه زفرة شكوى من زملائه الذين يهملون التبشير بالإنجيل، ويسهبون في انتقاده، وتقويله ما لم يقُلْ. وقد شقّ عليه أن يُعَدّ حجر عثرةٍ، ومثالاً سيّئًا في الأخلاق. وتنامى حزنه وقلقه بعد أن أخذ الأُسقف الجديد التهم التي سيقت بحقّه مأخذ الجدّ، وتحرّى حقيقتها، فباح بحزنه: "خطر لي أنّه سيأتي يومٌ أُطرَد فيه من أرس، بضربات عصيٍّ،

فأهلي أيّامي في السجون". ولا ريب أنّ أشدّ الجراح إيلامًا التي قد يُمنى بها بارٌّ دائب الحرص على صون طهره، ونقاء سلوكه، أن يُتّهم بقذارة الفسق. وقد كشف الخوري القدّيس عن عمق ذلك الجرح، في غروب حياته، مشيرًا إلى تلك المحنة، بقوله: "لو علمتُ، لدى قدومي إلى أرس، كلّ ما كان عليّ أن أعانيه فيها، لقضيتُ نحبي، في الحال".

وكان يضاعف ثقل وطأة هذه الافتراءات عليه، ظنُّه أنّها تلوّث كهنوته الذي حرص أشدّ حرصٍ على صون طهره ونقائه، وشعورُه المرهق الراسخ بوهنه، وهزال أهليّته، وعدم استحقاقه. وقد شهد المقرَّبون منه أنّه كان دائمًا يرتجف وَجَلاً من تقصيره في أداء رسالته أداءً كاملاً. وقد اجتاز، من جرّاء ذلك، ليلاً روحيًّا دامسًا كاد يودي به إلى تخوم القنوط. ولطالما خُيِّل إليه سماع صوتٍ يقول له: "ها قد فتحتْ لك جهنّم أبوابها!". وبلغ به هذا الوسواس حدّ التماسه الله ألاّ يريه داخل نفسه، مضاءً بنورٍ كاشفٍ، لكيلا يتردّى إلى اليأس. ولكنّه، مع ذلك، لم يفقد الرجاء يومًا. فكان ذلك الشعور من شدّة الوطأة عليه، بأن نصح إحدى التائبات ألاّ تطلب من الله أن يريها كلّ حقيقة بؤسها، لكيلا تفقد الرجاء.

وقد أقرّ، يومًا: "عندما أسعى إلى اكتشاف ذاتي، لا أشهد سوى بشاعة خطاياي. ولكنّ رأفة الله لا تريني كلّ ذاتي وكلّ خطاياي، لكيلا أهوي إلى القنوط". وكان ينتابه، أحيانًا، شعورٌ مضنٍ بأنّ مناشداته الأهل بحماية بناتهم من الهلاك لا تؤتي دائمًا الثمار المرجوّة، فيخشى عليهم العقاب الأبديّ، وهو موقنٌ بأنّه سيلقى العقاب عينه بصفته مسؤولاً عنهم، وفشل في حمايتهم.

ومن ثمّ خاض نزاعًا مريرًا، ونضالاً مرهقًا ضدّ اليأس. ولكنّه، في هوّة مهالكه كان يتدفّق حبًّا، ويقبّل اليد التي يعتقد أنّها تحطّمه. وحينئذٍ كانت تراوده مثل هذه الخواطر: "غالبًا ما يجول ببالي أنّه حتّى لو لم تكن هناك حياةٌ أخرى، فإنّها لسعادةٌ كبرى أن نحبّ الله في هذه الحياة الدنيا، وأن نسعى في سبيل مجده". وكانت تتفجّر

منه هذه الصيحة: "يا إلهي، امتحنّي بأقسى آلامك، ولكن هبني نعمة ألاّ أهوي إلى جهنّم!" ولطالما أسرّ لمقرّبين منه: "بعد التكريس، وحين أكون ممسكًا، بين يديّ، جسد ربّنا، وأنا في حالة انهيارٍ نفسيٍّ، وعادًّا ذاتي جديرًا بجهنّم، أقول: ليتني أستطيع، على الأقلّ، أن آخذه معي إلى جهنّم. وكم ستكون جهنّم عذبةً معه! ولن يشقّ عليّ المكوث فيها أبديًّا، متألّمًا، ولكن بحضوره معي. ولكن حينئذٍ لن تكون تلك جهنّم، فلهيب الحبّ سيُطفئ لهيب العدل". وفي معاناته تلك، لم يكن إلى جانبه من يستطيع إدراك رهافة تلك المشاعر، ويبدّد تلك الوساوس، فكان يخوض نزاعًا نفسيًّا، ولم يكن له من ملاذٍ، حسب اعترافه، سوى إلقاء ذاته في مخبأ القربان مثل كلبٍ صغيرٍ، أمام سيّده".

وكان يعتريه شعورٌ بأنّ أمير الظلمات هو الذي يجهد في دفعه إلى هوّة القنوط، فيستعيذ عليه بملائكته الحرّاس، وملاك الرعيّة، وملاك الأبرشيّة.

ولكم خشي أن تشلّ الافتراءات الخسيسة جهوده الإصلاحيّة! وخطر له أن يفرّ من أرس، تفاديًا للفضائح، لو لم يهمس في أذنه أصدقاؤه وعارفوه أنّ فراره سيؤكّد لعامّة الناس صحّة ما أُلحق به من اتّهاماتٍ باطلةٍ وسفيهةٍ.

وانتهى به الأمر أن سلّم ذاته تسليمًا كلّيًّا بين يدي الربّ. ومع أنّ كلّ كيانه كان يضجّ ثورةً على العار الذي نُسبَ إليه افتئاتًا، لأنّه كان محاولةً لتلطيخ كهنوته، صفح عن المفترين، لا بل إنّه لم يكفّ عن معاملتهم معاملة أصدقاء، ولم يتوانَ عن مدّ يد العون لهم في مِحَنهم؛ وقد أحجم دائمًا عن ذكر أسمائهم، وكان يردّ على العمدة الثائر على فعلة أولئك الأنذال، والراغب في معاقبتهم: "بل الأحرى بنا أن نصلّي من أجلهم...". وقد نصح، أيضًا، كاهنًا آخر أقضّت مضجعه تهمٌ باطلةٌ: "افعل مثلي: تركتهم يقولون ما يشاؤون، وهكذا خرسوا".

كانت القدّيسة تيريزا الطفل يسوع قد قالت: "النفوس القدّيسة تتذوّق كلّ مرارةٍ". وهذا ما أثبته الأب "فـيانّي". فقد شهد أحد معارفه أنّ خوري أرس لم

يكتفِ بتحمّل الإهانات صابرًا، بل استمدّ من وجعها فرحًا فائق الطبيعة. وقد صرّح، لاحقًا، أنّ تلك المحنة كانت أجمل مرحلةٍ من حياته. ولكم تمنّى أن يصدّق الأُسقف ما نُسب إليه من افتراءاتٍ، ويبعده عن الرعيّة، فاسحًا له عزلةً لبكاء هزال حياته! وكان إثر التحقيق الذي أمر الأسقف بإجرائه بشأن الوشايات التي رفعت إليه، وعقب قراره إبقاء الأب "ڤـيانّي" في مركزه، وسعادة الأُسقف بهذه النتيجة، قد هتف متأوّهًا: "يبقونني، هنا، مثل كلبٍ صغيرٍ مقيّدٍ، مع أنّهم يعرفونني جيّدًا!".

لقد بلغ تواضع ذلك القدّيس وتجرّده مستوًى بطوليًّا، لم يجعله يزهد بالأمجاد فحسب، بل يزدري حتّى سمعته. ولم تحطّمه الآلام الأدبيّة، بل كانت له حافزًا ساعده على إكمال قداسته مثلما يكمل المثّال تمثالاً بضربات إزميله على الرخام.

كان بوسعه العمل بنصح أصدقائه، وتبرئة نفسه علنًا مثلما أُهين علنًا. ولكنّه آثر الانتحاب بين يدي الله، وحيدًا، صامتًا. وتكلّمت عنه نصاعة سيرته، فذادت عن حياضه، وأكّدت سموّ فضائله، ولا سيّما أنّ أبناء الرعيّة كانوا مجمعين على تقديره واحترامه. ولا ريب أنّ الذين تجرّأوا على اتّهامه افتئاتًا كانوا عميانًا وحمقى. فهل من عاقلٍ يجازف بالتشكيك بعفّة من كان يتعفّف عن تقبيل والدته، وعن لمس فتاةٍ صغيرةٍ، والذي، حتّى في مرضه لم يكن يقبل سوى عناية رجال ومعالجتهم، ولم يرضَ، قطّ، أن تقوم امرأةٌ بخدمته؟ وكان قد أوعز إلى السيّدات التقيّات اللواتي تطوّعن للعناية بالكنيسة وبمسكن الكاهن ألاّ يوجدنَ هناك وأداء مهمّتهنّ، إلاّ في أثناء غيابه عن تلك الأماكن، مع أنّ سمعتهنّ كانت منــزّهةً من كلّ شائبةٍ. وكانت النساء اللواتي يستمعنَ إليه، ويشهدنَ خفرَه، يريْنَ فيه ملاكًا، في جسدٍ بشريٍّ.

وقد شهدت إحدى بنات رعيّته: "كانت نظرته الأولى تخترق النفس حتّى أعماقها. وبعدئذٍ يشيح بنظره إشاحةً تامّةً. ولم يكن يرى، في كلّ إنسانٍ سوى النفس التي سيجهد في اقتيادها إلى الله. وكان يفعل ذلك ببساطةٍ فطريّةٍ، منــزّهةٍ من كلّ تصنّعٍ".

ولطالما صرّح أنّه لو لم يكن كاهنًا ومعرّفًا لما عرف الشرّ الذي أطلعته عليه اعترافات التائبين. ومن ثمّ لم يُعِرْ أيٌّ من عارفيه اعتبارًا لما أُلصق به من افتراءاتٍ، وأجمع الكهنة الذين عرفوه عن كثبٍ على وصفه بالقدّيس. وكذلك وصفه معظم أبناء رعيّته، وحتّى الملحدون منهم الذين كانوا يراقبون سلوكه بإعجابٍ.

وأبرزت العاصفة تألّقه الروحيّ. كان هو قد تمنّى أن يلطِّخ اسمُه، ويُشبَع مهانةً، ولكنّ الربّ صان ذلك الاسم الذي كان قد أعدّه لينشر عرف المخلّص الطيّب بين البشر.

ومع كلّ ذلك كان دائم الخشية من أن تودي به عيوبُه إلى جهنّم، وإلى تقصيره في القيام بواجباته القيام المثاليّ. وكان، دائمًا، ممَّا بين هذه الخشية، والشعور بتخلّي الله عنه، من جانبٍ، ورجائه الراسخ في رحمة الله وحبّه، من جانبٍ آخر. هذا التمزّق كان صليبًا يرين على كاهله، ولكنّه أحبّ هذا الصليب، فخفّت وطأته عليه، وعبّر عن ذلك أروع تعبيرٍ بقوله: "الألم المقترن بالحبّ ليس ألمًا... أمّا الفرار من الصليب فهو سعيٌ إلى إزهاق الذات. ينبغي التماس حبّ الصلبان، وحينئذٍ تصبح عذبةً. هذا ما خبرته على امتداد أربع أو خمس سنواتٍ، واجهتُ أثناءها جمًّا من المقاومة، وألوانًا من الافتراءات الكاذبة، والاتّهامات المتعدّدة بقصد الإساءة. كم من صلبانٍ هبطت على كاهلي، وربّما كانت تتخطّى قدرتي على الاحتمال! فملتُ إلى التماس عشق الصلبان، وسعدتُ، واتّضح لي أنّ لا سعادة بمعزلٍ عن حبّ الصليب!".

لقد انقضّت على نفسه العاصفة، هوجاءَ مدمّرةً، ولكنّها عجزت عن النفاذ إلى قمّتها حيث يسكن السلام والثقة. واتّفق، في تلك الحقبة، أن استفسره كاهنٌ شابٌّ هل حرمته الصلبان السلام، فأجابه، بنبرةٍ ملائكيّةٍ: "وهل يُعقَل أن تقضي الصلبان على السلام؟ بل إنّ مهمّة الصلبان هي تسريب السلام إلى قلوبنا. وما مآسينا كلّها إلاّ نتيجة افتقارنا إلى حبّ الصليب".

هذا الإيمان الصامد في مواجهة الزعازع هو الذي أنقذ خوري أرس من التردّي إلى هوّة القنوط، وأهّله لتحقيق إنجازاتٍ تعذّر نظيرها على كهنةٍ آخرين أوفر منه ثقافةً، ومواهب طبيعيّةً، ولكنّهم دونه روحانيّةً. لقد أيقن أنّ الإهانات تنطوي على مصدر نموٍّ أخلاقيٍّ، وحافزٍ صوب الكمال. ودأب على الجدّ في سبيل الله وحده، غير متوقّعٍ من البشر أجرًا، ونبراسه: "يكتسب عمل المرء في سبيل الله عظمةً عندما لا يستسيغه، ولا يلقى فيه متعةً. قد يطردونني، ولكنّي، في هذه الأثناء، أعمل وكأنّ عليّ البقاء دائمًا".

بيد أنّ الشفرة فيه كانت تثلم غمدها، شيئًا فشيئًا، ومع أنّ صبره أنقذه، وضمن له النصر، غير أنّ الصراعات الداخليّة كانت تهدّه، يومًا فيومًا. وفي عام ١٨٢٧، ارتضى، تحت ضغوط أصدقائه، الخضوع لفحص طبيبٍ أوصاه بالعدول عن التقشّف المفرط، والحصول على غذاءٍ أفضل، ونومٍ وافٍ، وقسطٍ أكبر من الراحة.
ومن المرجّح أنّ الكاهن لم يلتزم بوصفة الطبيب، وأنّ التنازل الوحيد الذي ارتضاه هو قبوله استخدام القليل من أوراق الشاي التي أهدته إيّاها سيّدة القصر.

كان، آنذاك، في الأربعين من عمره، ولكنّه كان منهكًا، لا تفارقه الحمّى. ولمّا شعر بعجزه عن مواصلة الاضطلاع بواجباته طلب نقله إلى رعيّةٍ أخرى. وتوسّلت رعيّة أرس الأُسقف أن يرفض طلبه. وكان الأُسقف نفسه يشعر بالخشية على مصير دار "العناية" إن غاب عنها مؤسّسها، تلك الدار التي رسّخت إيمان النشء، وآتت الرعيّة خيرًا جمًّا، فتلكّأ في اتّخاذ قرارٍ بهذا الشأن. ولكنّه بعد إعمال الفكر، تغلّب حرصه على صحّة الكاهن القدّيس، فقرّر تعيينه راعيًا لقرية "فارينس" (Fareins)، المجاورة لأرس. وكان ذلك التعيين، في يقينه ترقيةً للأب "ڤـيانّي"، فتلك الرعيّة الجديدة كانت تعادل خمسة أضعاف رعيّة أرس عددَ نفوسٍ، وخطورةَ شأنٍ. وكان الأُسقف يأمل أن يؤسّس فيها الأب "ڤـيانّي" مدرسةً مماثلةً لدار "العناية"، تضمن مقاومة بدعةٍ "جنسينيّةٍ"، كان قد غرسها في الرعيّة كاهنان

أخوان متطرّفان. وتدعو إلى المغالاة في جلد الذات، وكان نصف أبناء تلك الرعيّة، حينذاك، أي عام ١٨٢٨، منضوين إلى تلك البدعة.

وأعاد الأب "ڤـيانّي" النظر في هذه المهمّة الجديدة، فهالته جسامتها. واتّضح له أنّه إن كان يلقى مشقّةً في رعاية قرية أرس الصغيرة، فكيف له أن يفلح في العناية برعيّة تكبرها أضعافًا، وخشي، خاصّةً، عجزه عن مقاومة البدعة المنتشرة، إذ كان موقنًا أنّه من الأيسر إقناع وثنيّين، من إقناع المنتسبين إلى البدعة "الجنسينيّة". فالتمس من الأسقف إلغاء تعيينه هذا، ولم يجادله الأُسقف، في الأمر. ومكث خوري أرس، في أرس. ورأفةً به ارتأى الأُسقف تعيين كاهنٍ معاونٍ له، يتولّى قسطًا من مهمّاته.

وكانت سمعة قداسته قد تخطّت حدود أرس، وامتدّت بعيدًا، وأضحى أبناء رعايا قريبةٍ وبعيدةٍ يتقاطرون للاعتراف بين يديه، فيشعرون بنسمة نعمةٍ تنعشهم، وبتحوّلٍ روحيٍّ عميقٍ يسري في أوصالهم. ولوحظ أنّ "الطبقة المستنيرة" التي تضمّ مثقّفين، ومسؤولين سياسيّين، وقضاةً، كانت الأشدّ إيثارًا لنيل بركة ذلك الكاهن البارّ، وتشيد بحكمته، رغم صرامة مواقفه من بعض الممارسات الاجتماعيّة، ولم تكن تحجم عن العمل بنصائحه طوعًا.

وغدا حتّى مؤمنو مدينة ليون، كلّما شاهدوه يقود أفواج حجّاجٍ إلى سيّدة "فورڤـيير"، يكشفون رؤوسهم، إجلالاً. ولكنّ تميّزه أشعل غيرة فئةٍ قليلةٍ من زملائه، كهنة رعايا أخرى، كان ينتابهم الضيق وهم يشهدون أبناء رعاياهم يؤثرون اللجوء إلى ذلك الكاهن الذي كانوا يعدّونه دونهم علمًا وطاقاتٍ، ولكنّ إمعانه في الزهد والتجرّد والتأثير في النفوس كان شوكةً تنخزهم، ولم يجدوا مأخذًا عليه سوى مظهره الرثّ، وهندامه المهلهل الذي كان يثير اشمئزازهم. وقد تخطّت ملاحظات بعضهم، في هذا الشأن حدود اللياقة والاحترام، وتردّت إلى وقاحةٍ فجّةٍ.

حيال هذه المواقف الحاقدة، كان يضاعف ألَمه اعتقادُه بأنّ إخوته الكهنة محقّون

في مآخذهم عليه، فيرين عليه الشعور بالتقصير في أداء رسالته الأداء المثاليّ؛ ولولا اتّحاده الوثيق بالله لكان تردّى إلى وهاد القنوط.

وفي ما يلي نماذج من مواقف كهنةٍ منه، ومواقفه منها:

بعث إليه كاهنٌ، كانت الغيرة قد عصفت بنفسه، برسالةٍ لم يوقّعها، جاء فيها:

"يقال إنّك قدّيسٌ ولكن من المؤكّد أنّ جميع الذين يقصدونك لا يرتدّون إلى الله، فخيرٌ لك أن تحدّ من غيرتك الكاذبة، وإلاّ سنضطرّ، آسفين، إلى إخطار الأسقف". ولم تخفَ، على الأب "ڤــيانّي" هويّة المرسل، فردّ عليه: "أشكرك، أصدق شكرٍ، لنصحك بدافع محبّتك. أنا أعترف بجهلي وعجزي. وإن كانت الأسرار التي أمنحها لأشخاصٍ من رعايا أخرى، لا تؤتي ثمار توبةٍ صادقةٍ، فهذا يحزنني أعمق حزنٍ. وإذا ارتأيت من واجبك إخطار الأسقف فاكتب له، لعلّه يتكرّم بتأديبي... وأرجوك أن تسأل الله مساعدتي على الإقلال من عمل الشرّ، والإكثار من عمل الخير". هذا الردّ الطافح بالشهامة، نفذ إلى قلب الشاكي. فسارع إلى تدبيج رسالة اعتذارٍ ذيّلها بتوقيعه الصريح.

وفي نوبةٍ أخرى ضمّ مجمع كهنةٍ عددًا من الزملاء الذين ضاقوا ذرعًا بإقبال أبناء رعاياهم على خوري أرس، وبلّغه أحدهم أنّ رسالة وشايةٍ قد أعدّها عددٌ منهم لرفعها إلى الأسقف، وأطلعه عليها، فتناولها الأب "ڤــيانّي"، وذيّلها بتوقيعه، وقال له: "فليثقوا بنجاحهم، الآن، بما أنّي مهرت عريضتهم بتوقيعي". وتولّى الخوري بنفسه إيصال تلك العريضة إلى الأسقف. ولكن بما أنّ العريضة كانت تشير، في ما تشير، إلى نساءٍ مهووسات لا يكففنَ ينتقلنَ من كرسيّ اعترافٍ إلى آخر، وينشرن تفاصيل حوارهنّ مع خوري أرس، مشوّهاتٍ أقواله، ومؤوّلينها على نقيض ما قصده منها، فقد كلّف الأسقف بتحرّي الأمر.

وأوضح الأب "ڤــيانّي" للمحقّق أنّه لا يقوم بأيّة دعاوةٍ لجلب التائبين إلى

كرسيّ اعترافه، وأنّ لا همّ له سوى إراحة ضمائر من يبوحون له بما يثقل نفوسهم، واقتيادهم إلى حبّ الله الحقيقيّ. وأكّد أنّ اعترافات الغرباء تحمّله عبئًا إضافيًّا، فيما هو يتمنّى الاقتصار على الانصراف لشؤون رعيّته، وجدّد رغبته في الاختفاء عن أرس، إن رغب الأسقف ذلك.

وعاد الوكيل إلى رئيسه بانطباعٍ إيجابيٍّ، ووضع تقريرًا حافلاً بامتداح قداسة الأب "ڤـــيانّي"؛ ولكنّ الأُسقف الذي مازال يخشى أن يكون خوري أرس متأثّرًا بالنـــزعة "الجنسينيّة" (Jansèniste)، المغرقة في التعنّت والتشدّد، أوعز إلى وكيله أن يطرح على الخوري مئتي حالةٍ وجدانيّةٍ معقّدةٍ، ويقدّر صواب حكمه فيها، فجاءت أحكامه في جميع تلك الحالات محكمة الصواب، ولا مأخذ عليها. فقد كان الأب "ڤـــيانّي"، من جرّاء ممارسته المكثّفة لسرّ التوبة، قد خَبَر عن كثبٍ الضعف البشريّ الفطريّ، وأوهان البشر الملازمة لحياتهم اليوميّة، وأدرك أنّ الخاطئ الذي يقصد كرسيّ الاعتراف، يحتاج، لكي يتوب توبةً صادقةً، إلى استعادة سلام النفس، وإلى مشاهدة فرح غفران الله على محيّا ممثّله. وتوطّد لديه اليقين بأنّ الحبّ هو دائمًا أقوى من الشرّ، ومن ثمّ أضحى أكثر نزوعًا إلى التعاطف مع الخطأة، مع كرهه الشديد للخطيئة.

وجه أرس الجديد

كان الأب "ڤـيانّي" قد أعلن أنّ أرس لم تعد أرس التي أحزنته حالها عندما جاءها خادمًا لرعيّتها. هذا التحوّل استمرّ سنةً فسنةً، ولم يكفّ عن التوطّد والتنامي، وإدهاش المراقبين، ناقلاً تلك الرعيّة الصغيرة من التراخي الأخلاقيّ والدينيّ، إلى التشدّد في أمور الفضيلة، ومن إيمانٍ سطحيٍّ إلى حرارةٍ روحيّةٍ مضطرمةٍ.

فذلك الكاهن المناضل لم يستكن إلى ما أحرزه في سنواته الأولى من نجاحٍ في مكافحة الممارسات المشينة، والمناقضة للروح المسيحيّ، بل واصل، بلا هوادةٍ، نضاله حتّى استئصال كلّ سلوكٍ لا يليق بمسيحيٍّ، إذ ماانفكّ بعض المزارعين غير قادرين أو غير راغبين في الابتعاد عن حقولهم أيّام الآحاد؛ ولم تقوَ فئةٌ من الشبّان والشابّات على الانعتاق من سطوة حبّ الرقص والمجون المتمكّن منهم. واقتضى انتزاع أبناء الرعيّة من ربقة تلك الميول الوبيلة، ستّ سنواتٍ أخرى من الصلوات، والتضحيات، والاتّصالات الودّيّة، والمبادرات الحافلة بالعطف والمحبّة والغيرة الرسوليّة.

وفضلاً عن ذلك جهد الكاهن في تحرير أبناء رعيّته من الحياء البشريّ، الذي كان يردعهم عن إظهار تقواهم، فصاروا يستحيون من الإحجام عن الجهر بإيمانهم، والالتزام بواجباتهم الدينيّة، وعن أفعال الخير، والعبادة، بلا خجلٍ.

وأقرّ جميع الذين عرفوا الرعيّة، قبل تولّي الأب "ڤـيانّي" رعايتها، وتبيّنوا ما طرأ عليها من تبدّلٍ، أنّها قد تحوّلت من رعيّةٍ هزيلة التديّن، على غرار معظم الرعايا المجاورة، إلى واحة قداسةٍ يؤمّها حتّى الغرباء، ناشدين شفاءً لنفوسهم، وقيامتها، وسرّ حياةٍ أوفر سموًّا، وأعمق معنًى.

وبات من المشاهد المألوفة في أرس، شبّانٌ يقودون عرباتهم الزراعيّة، ممسكين

بمسبحة صلاةٍ؛ وسماع جرس الكنيسة يدعو إليها، كلّ مساء، للصلاة، فيلبّي نداءه كلّ من استطاع إلى تلبيته سبيلاً، أمّا الذين يحول عائقٌ دون شخوصهم إلى الكنيسة، فيركعون أمام هياكل مرتجلةٍ، في بيوتهم المزدانة بالصلبان والإيقونات، وصور القدّيسين، والتي تحوّلت إلى ملحقاتٍ بالكنيسة.

وتبارك كلّ حقلٍ بصليبٍ مصنوعٍ، بدائيًّا من غصنيْن، مثلما كان الصليب يبارك أغمار السنابل، أيّام الحصاد. وفي أيّام الحرث كان الفلاّحون يتبادلون التحيّات بمقاطع أناشيد كنسيّةٍ، استعاضوا بها عن الأغاني الماجنة، وعبارات السباب المسفّة.

وعندما كان غرباء يبدون دهشتهم من تلك الظاهرة، ويستوضحون عن دافعها، كان الأرسيّون يجيبون: "نحن لسنا أفضل من سوانا، ولكنّنا نخجل من التلفّظ بعباراتٍ مسفّةٍ، ونحن على مقربةٍ من قدّيسين". ولا مراء أنّ ظاهرة كبح فلاّحين ألسنتهم عن السباب والتجديف المقذع، حيال طوارئ مؤذيةٍ، كان محطّ دهشةٍ وإعجابٍ.

واعتاد الأرسيّون تلاوة صلاةٍ قبل تناولهم طعامًا وبعده، أينما وُجدوا، كما اعتادوا التوقّف عن العمل، وتلاوة صلاة التبشير، ثلاث مرّاتٍ في النهار، كلّما أعلن جرس الكنيسة أوانها. وبما أنّهم كانوا قد اعتادوا غرس صلبانٍ خشبيّةٍ، في حقولهم، أيّام الزرع والبذْر، التماسًا لحماية مواسمهم من الآفات والأضرار، فكانت مناجلهم، أيّام الحصاد تقتلع ما وقع منها ودفن بين الزرع، وحينئذٍ كان جميع الحاصدين يركعون ويصلّون، منشدين للصليب. وكان قرويّو الجوار الذين يلحظون ذلك يسخرون منهم، قائلين: "إذا استمررتم في اتّباع نصائح خوريكم فسيجعل من جميعكم رهبانًا كبوشيّين"، ولكنّهم كانوا يجيبون بجرأةٍ واعتزازٍ: "إنّ خورينا قدّيسٌ، وواجبنا إطاعته".

بيد أنّ الضيوف المارّين بأرس قد لحظوا أنّ جوّ القرية العامّ أمسى أكثر نقاءً

ورقّةً، وأنّ أهاليها قد غدوا أكثر ودًّا، وترحيبًا، وانفتاحًا؛ وأنّ بيوتهم قد ازدانت بتماثيل يسوع والسيّدة العذراء، والإيقونات وصور القدّيسين. كيف لا؟ والراعي لا يكفّ عن زيارتها بيتًا بيتًا، زارعًا فيها التقاليد المسيحيّة الأصيلة، وباثًّا فيها شيئًا من فضائله، والجميع يستقبلونه استقبالهم لقدّيسٍ. وهو كان يتوقّف في كلّ بيتٍ لحظاتٍ، ويستفسر عن أحوال الكبار والصغار، والأشغال والمواسم، مازجًا حديثه بخواطر دينيّةٍ، تزوّد الحياة الروتينيّة بأجنحةٍ، وبمُثُلٍ عليا. من فوق منبر الكنيسة كان يخاطب الجميع، ولكنّه في البيوت كان ينصح، ويلوم، ويعاتب فرديًّا. ولكم أسف أبناء الرعيّة عندما أفقدهم كرسيّ الاعتراف الذي بات قبلة القاصي والداني، عذوبة زيارات الخوري إلى بيوتهم التي كانت تنعشهم. ولمّا أصبح تهافت الحجّاج على كرسيّ اعترافه يستغرق كلّ ساعات أيّامه، والقسط الأكبر من لياليه، وحرصًا منه على استمرار تواصله مع أبناء رعيّته الأعزّاء، خصّص لهم يوم السبت. وفضلاً عن ذلك، كان، كلّما لمح أحدهم يستدعيه ويستفسر عن أحوال أسرته، وعن جيرانه.

ولم يتردّد، يومًا، في التخلّي عن كلّ شيءٍ، كي يسارع إلى عيادة مريضٍ، أو مواكبة محتضرٍ، في لحظاته الأخيرة؛ ولم يكن يردعه عن تلك الخدمات لا مرضٌ، ولا ثلجٌ، ولا حاجةٌ إلى نومٍ أو طعامٍ أو نقاهةٍ. وبالمقابل كان يتمتّع بمحبّة الجميع، واحترامهم، وانقيادهم لنصائحه، والاهتداء بإرشاداته.

وبفضل مناشدته الدائمة تقديس حياة الأُسرة، وسيادة الحبّ والاحترام والسلام فيها، حلّت البركة على أُسَر أرس، وتكاثر مواليدها، وخضع الأبناء لتربيةٍ حكيمةٍ ساهرةٍ، وصدفوا عن هدر أوقاتهم في اللهو والبطالة، وشغلوها بأعمالٍ ونشاطاتٍ مفيدةٍ، وظلّوا، بعد بلوغهم، ملتزمين بإطاعة والديهم وباحترامهم.

وبالإجمال، استنبت ذلك الكاهن القدّيس من أولئك المزارعين، الذين صاغتهم ممارسة الدين الصحيحة، نماذج للفضيلة أدهشت الغرباء. فقد زخرت أفكارهم

بالفطنة، وطفحت قلوبهم بالنعمة والإيمان، وازدان سلوكهم بتهذيبٍ بسيطٍ، ساذجٍ، ولكنّه زاخرٌ برقّةٍ، ولباقةٍ نادرتيِ المثال. وأصبح صدقهم واستقامتهم مضرب مثلٍ.

وغدت حشود الحجّاج تقصد، يوم الأحد من كلّ أسبوعٍ، قرية أرس، حيث أصبح ذلك اليوم، حقًّا، يوم الربّ، على نقيض الرعايا الأُخرى. فالكنيسة مزدحمةٌ، دائمًا، بالمصلّين، والإقدام على مائدة الإفخارستيّا كثيفٌ. وفي الساعة الواحدة، بعد الظهر، يلقي الخوري درسًا دينيًّا لا يتدنّى الإقبال عليه عن الإقبال على القدّاس. وفي المساء يشارك كثيرون في صلاة الغروب وصلاة النوم، تليهما تلاوة المسبحة الجماعيّة. وحينئذٍ كان الكاهن يختتم ذلك النهار المبارك بعظةٍ تنفذ إلى أعماق الضمائر والقلوب. ومن أكثر ما كان يثير الدهشة والإعجاب وقفةُ المؤمنين الحافلة بالوقار والخشوع، وقفةٌ تفرضها الأُمّهات، أيضًا، على صغارهنّ، حتّى يُخيَّل إلى الزائرين أنّهم وسط جماعة المسيحيّين الأوائل.

مأخذ الخوري الوحيد كان دخول بعضهم إلى الكنيسة، وقد انقضت دقائق على بدء الصلاة، جريًا على عادةٍ متأصّلةٍ، صعُبَ على فئةٍ منهم التحرّر منها، غير أنّ الكاهن، بفضل المثابرة والصرامة، تمكّن، أيضًا، من التغلّب على تلك العادة الذميمة.

وفيما كانت الكنيسة، يومذاك، غاصّةً بروّادها، كانت الحقول خاويةً خواءً تامًّا. وإن خطر لأحدهم، في موسم الحصاد، أن ينتهك، ولو لسويعاتٍ، قدسيّة يوم الربّ، فكان يفعل ذلك خلسةً، وبعيدًا عن العيون، تفاديًا للوم الرعيّة.

ورغب الراعي، أيضًا، أن تغلق الحوانيت أبوابها، يوم الأحد، وأن يتحاشى أبناء الرعيّة عن السفر، إلاّ في حالاتٍ اضطراريّةٍ. فصمتت جلبة العربات، في ذلك اليوم. وفي هذا السياق يُروى أنّ حَدَثًا عجبًا جرى يوم أحدٍ من عام ١٨٥٦، إذ تجرّأ قائد عربة نقلٍ على التوقّف، أثناء الاحتفال بالقدّاس، أمام الكنيسة التي كانت أبوابها ونوافذها مشرعةً، مسفرةً عن القربان المقدّس، فوق الهيكل، فجفلت الأحصنة، وجمدت في مكانها، وأبت التحرّك، صامدة تحت ضربات السياط التي

أوسعها قائدها بها ضربًا، مثلما صمدت أتان بلعام تحت ضربات عصا النبيّ. فاضطرّ قائدها إلى التراجع بها، عائدًا إلى الفندق.

وأضحى خشوعٌ يحاكي خشوع الأديرة يلفّ قرية أرس، كلّ يوم أحدٍ، خشوعٌ لا يتخلّله إلاّ نداء جرس الكنيسة. فقد خرس ضوضاء الأسواق المتنقّلة، والباعة الجوّالين، وغابت مشاهد رجالٍ تعتعهم السكر يترنّحون في الطرقات، وتسنّى لأبناء الرعيّة تبادل الزيارات والأحاديث الودّيّة البريئة، واللقاءات العائليّة.

وأرسى الخوري عادة احتفالاتٍ تقويّةٍ اختياريّةٍ، بمناسبة الأعياد الكبرى، لا يُلزَم أحدٌ بالمشاركة بها، ولا يُحظَر فيها العمل، ولا ينجذب إليها سوى من يدفعهم إليها صبوٌّ إلى التوغّل في التقوى. وحتّى في بحر الأسبوع، اعتاد نحو خمسين امرأةً، وخمسة عشر رجلاً حضور القدّاس الصباحيّ يوميًّا، كما اعتاد فلاّحون مباركة نهارهم، وتقديم الشكر عنه، عند غروبه، بزيارة القربان المقدّس. وغدا من المشاهد المنعشة، رؤية أدوات الزراعة الملطّخة بالوحل، مسنودةً على جدار الكنيسة الخارجيّ، صباحًا ومساءً.

وكان أكبر مبعث فرحٍ للخوري القدّيس، مناولة القربان المقدّس، الذي كان يقدّمه دامع العينين تأثّرًا. ولطالما سعى إلى حمل ولو فئةٍ ضئيلةٍ من الرجال على التناول الأُسبوعيّ، أو أربع مرّاتٍ في السنة، على أقلّ تقديرٍ، تناولاً مستكملاً كلّ شروط التقديس. وكان يأمل أن تدفع هذه الممارسة معظم أبناء الرعيّة على التوغّل في ميادين الخير. ولطالما حبّذ التقدّم إلى مائدة الإفخارستيّا في كلّ مناسبةٍ هامّةٍ، مثل عمادٍ، أو مناولةٍ أولى، أو زواجٍ، أو الاضطلاع بمهمّة عرّابٍ أو عرّابةٍ.

وكان يسكنه تقديسٌ رفيعٌ لكلّ ما يتعلّق بالليتورجيّا من شعائر؛ ولم يكتفِ بممارستها شخصيًّا بأعلى مستوىً من الحرص والاحترام، بل دفع أبناء رعيّته، ولا سيّما خَدَمة الهيكل الصغار والكبار على حذو مثاله، واقتباس روحه ودوافعه في هذا السياق، حتّى أمسى الأُسقف يحضّ الرعايا المختلفة التابعة لسلطته، على التمثّل برعيّة أرس في هذا المضمار.

وكان الخوري قد اعتاد أن يضفي على هيكل كنيسته، في مناسباتٍ كبرى، مثل يوم الخميس العظيم، أوفر قدرٍ من الأُبّهة والجمال، حريصًا على أن تسهم الزينة في شحذ خشوع المؤمنين، عوضًا عن تشتيت انتباههم. وفي مساء كلّ خميسٍ عظيمٍ، كان، إثر الاحتفال بالطقس الليتورجيّ، يقضي الليل كلّه راكعًا حتّى صباح يوم الجمعة العظيمة.

وكان، منذ تسلّمه خدمة الرعيّة قد أعاد إحياء تقليد الحجّ إلى مزار سيّدة "فورڤـــيير"، في مدينة ليون. وتمّ الحجّ الأوّل في السادس من آب ١٨٢٣، واشترك فيه نحو ثلث أبناء الرعيّة، وانضمّت إليهم، في أثناء الطريق رعيّتا قريتين جارتين، فرفعت كلّ رعيّةٍ رايتها الخاصّة، واشترك الجميع في إنشاد التراتيل والتسابيح. وكان على الحجّاج، في إحدى مراحل الطريق استخدام مركبٍ. ووصل الأب "ڤـــيانّي" أوّلاً إلى تلك المرحلة بصحبة قسمٍ من أبناء رعيّته، واعتلى المركب، وطال انتظار وصول المتخلّفين، فضاق البحّارة صبرًا، وأطلقوا عبارات تجديفٍ، أغضبت الكاهن، فغادر المركب في الحال، وواصل مشواره سيرًا على الأقدام.

وكان له عيد الجسد، هو عيد الأعياد. في ذلك اليوم كان يهجر كرسيّ الاعتراف مدى سويعاتٍ ويستسلم لفرحٍ غامرٍ، فرح أطفالٍ، ويتنفّس ملء رئتيه، وينتعش. وربّما كانت احتفالات رعايا أخرى بتلك المناسبة تفوق احتفالات أرس روعةً وأبّهةً، ولكن لم تفُقْها أيّةٌ منها إيمانًا وتعبيرًا عن الحبّ. يومئذٍ كان الكاهن يستعرض طابور الصبيان المرتدين حللاً بيضاء، ويروح ويجيء أمامهم مردّدًا: "إي أولادي، ليت نفوسكم في مثل نصاعة بياض حلَلِكم!". وكان يدعو الفتيات، أيضًا، ويتيمات دار العناية إلى ارتداء ثيابٍ بيضاء، ويحرّض على إقامة أكبر قدرٍ من الهياكل والمزارات المزيّنة في الأزقّة، كي تعمّ بركة الله على كلّ زوايا القرية. كان يطوف كلّ مطارح أرس، ونفسه تضجّ بهجةً، ويسترق بضع دقائق قبل بدء التطواف، كي يستمع إلى اعترافات عددٍ من الحجّاج.

كان التطواف يضمّ حشدًا غفيرًا جامعًا أبناء رعيّة أرس بأبناء رعايا مجاورةٍ

اعتادت الاحتفال بهذا العيد في موعدٍ آخر. ولم يكن الخوري يرضى أن يقف متفرّجون سورًا على جانبَيْ الموكب، بل كان يقتضي من الجميع الانضمام إلى التطواف. ومع أنّه، في جميع المناسبات الأُخرى كان يؤثر التواري في الصفوف الخلفيّة، إلاّ أنّه، في ذلك اليوم، لم يكن يتنازل عن امتياز حمل القربان، وتقدّم موكب التطواف، مرتديًا أفخر حلله الكنسيّة، سائرًا بوقارٍ مهيبٍ، شاخص النظر إلى القربان، مصلّيًا، مغرورق العينين بالدموع، فارضًا المهابة على الموكب أجمع. وفي هذه الأثناء كانت الرايات ترفرف على جميع النوافذ، وفوق أسطحة المنازل. وحتّى الطرقات كانت ترتدي ثوبًا من زهورٍ وورودٍ، وقلوب الجميع ترقص على أنغام الأناشيد والموسيقى، والخوري يسبح في بحرٍ من الحبور. وقد بلغت سعادته ذروتها يوم تقدّم تطوافه الأخير، أربعين يومًا قبل وفاته، عام **١٨٥٩**. وكان الكونت، ساكن القصر، بالاتّفاق مع آباءٍ يسوعيّين، قد أعدّوا له مفاجأةً، وجاؤوا بفرقةٍ موسيقيّةٍ. وفي إحدى مراحل التطواف، صدحت الآلات النحاسيّة، فأخذت بالخوري رعشة بهجةٍ، بل نشوة حبورٍ، مع أنّ وهنه وخَوَر قواه أقعداه، في ذلك اليوم، عن حمل معرض القربان إلاّ في مرحلةٍ قصيرةٍ من التطواف. وكان قد شوهد، في السنوات الأخيرة يترنّح يمنةً ويسارًا، ويخشى مشاهدوه من الغرباء وقوعه، في حين لم تكن تساور أبناء رعيّته الذين عهدوا صموده البطوليّ حتّى النفَس الأخير، أيّة خشيةٍ. ولّما عاد إلى الكنيسة، عقب انتهاء ذلك التطواف الأخير، وتبيّن معاونوه كيف كان العرق يبلّله، قالوا له: "يبدو أنّك متعبٌ، يا أبتاه!" فأجاب: "وكيف أتعب، والذي أحمله، كان هو يحملني؟!".

في سنواته الأخيرة كانت سيرة قداسته قد ذاعت في الأرجاء، فتوافد إلى قرية أرس المباركة حشودٌ ممّن قست عليهم ظروف الحياة، وسئموا رداءة العيش، فتقاطروا من المدن والقرى الفرنسيّة، ناشدين العيش في جوّ أرس العابق بعبير قداسة خوريها، وللموت فيها. وكان قد اتّسم موت أفرادٍ من رعيّة أرس بسجوّ

الإيمان وروعته. فعام ١٨٢٥، قضى نحبه رجلٌ بسيطٌ، في الخامسة والستّين من عمره، مشعًّا رجاءً، منشدًا في احتضاره، معلنًا فرحه: "سأراها، أخيرًا، تلك الأُمّ الحبيبة!". وكان موت العديدين من أبناء الرعيّة الذين واكبهم خوريهم، في اللحظات الحاسمة، قد جعل مشاهديهم يهتفون: "ليتني أنعم بمثل هذه الميتة!". وعبّر محتضرون من قرى مجاورةٍ عن رغبتهم في الموت على يدي خوري أرس القدّيس، فحملهم ذووهم إليه، وهم في حالة نزاعٍ.

وقد حضن المدفن الذي أحدثه الأب "ڤـــيانّي"، عام ١٨٥٥، وباركه، رفات كثيرين ممّن واكب، هو لحظاتهم الأخيرة، وأطلق على ذلك المدفن اسم "مستودع ذخائر مقدّسةٍ".

ولطالما آمن الأرسيّون أنّ الله وقى مواسمهم الزراعيّة من البرَد، الذي كان يتلف المواسم، بفضل صلوات راعيهم وشفاعته، ذلك الراعي كان يقضي لياليه راكعًا، مصلّيًا، ملتمسًا لأبنائه رأفة الله. ومنذئذٍ لم يعد يرعبهم صوت الرعد مهما اشتدّ دويّه.

وكان ينتاب الحجّاج الذين يؤمّون أرس، ولا تتسنّى لهم الإقامة فيها، ولو فترةً وجيزةً، أنّهم عندما يغادرونها، يمضون إلى منفًى. ففي تلك القرية المحرومة من كلّ جاذبٍ ماديٍّ، كانوا يتذوّقون سعادة النفس النادرة، وينعمون بجوٍّ من السلام والتناغم يفتقدون إليه في مدنهم. وكانوا يستمدّون من استذكار اللحظات السماويّة التي قضوها في أرس زادًا من العزاء والسلوى، يواكبهم طويلاً.

وكان بدَهيًّا أن يثير جوّ القداسة هذا غيظ الشرّير، الذي أعلن حنَقه، ذات يومٍ، في ساحة القرية، بلسان امرأةٍ كان يسكنها، ويحدث فيها اختلاجاتٍ مريعةً: "ما أقذر قرية أرس، وكم رائحتها كريهةٌ ومقزّزةٌ! إنّ رائحة جميع أبناء أرس كريهةٌ...".

ولم يقتصر إبليس على إعلان حَنَقه، بل جهد في التنفيس عنه بشتّى وسائله الجهنّميّة، أملاً في الفتّ من عضد الخوري القدّيس، و"تطفيشه".

حَملاتٌ شَيطانيّةٌ

لقد اكتشف أمير الشرّ، في خوري أرس، عدوًّا رهيبًا، سلبه، بمثابرةٍ، وصبرٍ، وانتظامٍ، أزلامه وعبيده وحلفاءه، وجفّف منابع قدراته، وأوصد معامل أسلحته؛ ولم يقتصر نفوذه على قرية أرس، بل امتدّ إلى الجوار، وإلى أطرافٍ بعيدةٍ من المدن. ويبدو أنّ الله قد سمح للشرّير تنكيد عيش خادمه الأمين، إثباتًا لقداسته، وإخزاءً لعدوّ الله والبشر الصالحين.

امتدّت حملات شراسة إبليس نحو ثلاثين عامًا، وارتدت وجوهًا مختلفةً، ومحاولاتٍ من كلّ لونٍ. وبعد أن أَلّب عليه ثلّةً من أنذال رعيّته، الذين حرمهم الكاهن مواردهم الحرام، ومُتَع الرذيلة، فأمعنوا في جرائم الافتراء عليه، وحاصروه، طوال ثمانية عشر شهرًا بالإهانات الحقيرة، والمضايقات التي لا تطاق، قابلها الخوري بالازدراء، وقابلتها الرعيّة بالتكذيب والاستنكار، حتّى أُسقط في يدهم، واضطرّوا إلى الانسحاب الذليل.

فانبرى الشرّير كي يحقّق مأربه بنفسه، مستهدفًا حرمانه النوم والراحة، وتنفيره من الصلاة والتضحيات، وإبعاده عن الممارسات التقشّفيّة، والنشاطات الرسوليّة، وإكراهه على التخلّي عن رعاية النفوس، وإنقاذها، ولكنّ الشرّير لم يظفر من كلّ مضايقاته، ووساوسه، وحملاته التنكيليّة، سوى الخزي والهزائم.

وقد احتدّ صراع خوري أرس مع الشرّير، في شتاء ١٨٢٤/١٨٢٥، إبّان انهماكه في تأسيس دار العناية. وكان، آنذاك، إسراف الكاهن في الإماتات التي فرضها على نفسه، والتي وصفها، لاحقًا، بأنّها "نوبات جنون الشباب"، قد أودت به إلى اعتلالٍ خطيرٍ، وانتابه شعورٌ بأنّه على شفا الموت، وحينئذٍ همس، في داخله، صوتٌ منكرٌ: "ها قد حان أوان هبوطك إلى جهنّم!". ولكنّه سرعان ما تماسك، وجدّد ثقته المطلقة بالله، فغمر نفسه السلام. ولمّا فشلت الوساوس الداخليّة في

النيل من مناعة نفسه، عمد الشرّير إلى مضايقاتٍ خارجيّةٍ من كلّ صنفٍ، حرمته الراحة، وطردت النوم عن جفونه.

ولنسمعه يروي بنفسه ما حدث:

« للمرّة الأولى، عند الساعة التاسعة مساءً، فيما كنت أتأهّب للإيواء إلى سريري، نزلت بباب الدار ثلاث طرقاتٍ عنيفةٍ، وكأنّ هناك من يجهد في اقتلاع الباب بمطرقةٍ. ففتحت نافذتي، وسألت: "من الطارق؟"، ولم أتلقّ جوابًا، فأوكلت نفسي للسيّدة العذراء ولملاكي الحارس، واعتزمت الإخلاد إلى النوم. وما كدتُ أُغمض جفنيّ، حتّى هزّتني ثلاث طرقاتٍ أخرى، أشدّ عنفًا. وسألت عن الطارق، وفي هذه النوبة أيضًا، لم أتلقّ جوابًا. وخطر ببالي أن يكون ثمّة لصوصٌ يبتغون اقتحام الدار، وسرقة حلل الكنيسة الفاخرة التي أرسلها لنا الڤيكونت من باريس. فانحدرت إلى فناء الدار، عازمًا على إطلاق صيحات استغاثةٍ، ولكنّي لم أسمع نأمةً، ولا صوت خطواتٍ، فأسرعت بإغلاق بابي، وحبست نفسي في حجرتي التي أوصدتها بالمزلاج. ».

وتحسُّبًا لمحاولات السرقة، استعان الخوري برجالٍ أشدّاء يتناوبون على حراسة الدار وعلى حماية كنوز الكنيسة التي اؤتمن عليها. وقد تولّى نوبة السهر الأولى نجّار عرباتٍ، جاء مسلّحًا ببندقيّته. وروى: "تحدّثت مع الكاهن، قرب الموقد، حتّى الساعة العاشرة، ثمّ قصدت الحجرة التي أُعدّت لنومي. وفي نحو الساعة الواحدة سمعت محاولةً عنيفةً لخلع قفل باب فناء الدار، وفي الآن عينه سمعت ما يشبه ضربات مطرقةٍ على ذلك الباب، كان يتردّد لها، في دار الرعيّة، ما يشبه صوت رعدٍ. فقفزت من سريري، وامتشقت بندقيّتي، وفتحت النافذة متبيّنًا الأمر، ولكنّي لم أرَ شيئًا. واستمرّ الضوضاء في أماكن أخرى من الدار، وشيئًا فشيئًا تضاءلت. وكان الخوري، منذ بدء الضجيج، قد أشعل مصباحًا، ووافى إلى غرفة الرجل، الذي روى له سبب هلعه وارتعاده. فهدّأ الكاهن روعه، ودعاه إلى العودة إلى

النوم. ولكنّ ما سمعه ذلك الرجل في تلك الليلة كان كافيًا ليجعله يرفض كلّ دعوةٍ إلى نوبة سهرٍ أخرى. وكان الخوري قد استوضح رأيه عن مصدر الضوضاء، فأجاب، بلا تردّدٍ، أنّه، بلا شكٍّ، إبليس. وكانت تبريرات استنتاجه هذا وفيرةً: فجميع الأبواب كانت محكمة الإيصاد، والضجيج الذي بدأ بالباب تسرّب إلى داخل الدار، حيث كان الدخول مستحيلاً، فضلاً عن استحالة قدرةٍ بشريّةٍ على جعل الدار بأكملها تهتزّ.

وانتهى الخوري إلى هذا الاستنتاج عينه، في ليلة شتاء، عندما أيقظته ثلاث طرقاتٍ عنيفةٍ، وكانت طبقةٌ كثيفةٌ من الثلج قد فرشت الأرضَ، فقفز الخوري من سريره، وأشعل مصباحًا، وانحدر إلى فناء الدار، ولكنّه لم يرَ ولم يسمع شيئًا. ولم يُظهر الثلج الناصع أيّ أثر أقدامٍ، ولم يعُد يساوره أيّ شكٍّ بأنّ الفاعل هو إبليس الساعي إلى إرهابه، فاستسلم لمشيئة الله، واتّخذ منه حارسًا، وناصرًا، ومدافعًا عنه، كلّما عاد العدوّ من أجل قضّ مضجعه. وقد صرّح: "حسبي أنّي عرفت أنّه إبليس. وأنا واثقٌ أنّه لا يستطيع شيئًا إلاّ بإذن الله، ومنذئذٍ اعتدتُ عليه". فاستغنى عن الحرّاس، وواجه بسجوٍّ تامٍّ، الأحداث التي استمرّت، ولم يعد يخيفه لا ستائر تُعرَك، وتهتزّ، وتُصدِر أصوات تمزّقٍ حادٍّ، وأحيانًا، ما يوحي بوجود قوارض دائبةٍ على قضمها، وكان الكاهن، بادئ الأمر، قد تأهّب لمكافحتها، فأعدّ رفشًا قرب سريره لطردها، ولكنّه عندما تأمّل الستائر وأغطية سريره صباحًا، لم يلمح فيها أيّة أذيّةٍ أو إصابةٍ.

وفي ليالٍ أخرى كان يحرمه النومَ صريرٌ صادرٌ عن الأرض الخشبيّة، وكأنّها تُنشَر أو تُصقَل، أو صوت مسامير تُثبَت في الأرض بطرقاتٍ عنيفةٍ، أو صوت حطَبٍ يُفسَخ بفأسٍ، أو قعقعة سلاح جيشٍ، يسير إلى ساحة الوغى، أو دبيب خرافٍ تمرّ فوق أرضيّة الأهراء الخشبيّة، فوق رأسه، أو وقع حوافر حصانٍ هائجٍ يقفز حتّى السقف، ويهوي على الأرض، أو تصادم أثاثٍ يُزاح من مكانه، أو كلّ ما يمكن تخيّله من أنماط الجلبة.

لا ريب أنّ كلّ أنواع الجلبة هذه كانت تزعج الكاهن، وتسلبه الراحة والنوم، ولكنّها باتت عاجزةً عن إسالة الخوف إلى نفسه. فأمسى لا يبالي بسماع أحاديث بشرٍ في فناء الدار، أو صيحات جنودٍ نمساويّين، أو خوار بقرٍ، أو نقيق طيور شؤمٍ. ولم تعُدْ تهزّه شتائم الشرّير، وتهديداته، وصيحاته المريعة: "ڤـــيانّي، ڤـــيانّي، يا آكل البطاطا، ألم تمُتْ بعد؟ سأنال منك قريبًا!".

واتّفق أن باح بهذه المضايقات لمعرّفه الذي استوضحه عن أسلوب مقاومته لها. فأوضح: "ألتفت إلى الله، وأرسم إشارة صليبٍ، وأوجّه للشرّير عبارات ازدراءٍ". غير أنّه ما لبث أن تبيّن أن مضايقات الشرّير تكتسب عنفًا وإلحاحًا كلّما كان عليه أن يستقبل، في كرسيّ اعترافه، كبار الخطأة، بمضايقاتٍ تعبّر عن حنقه، في حين كان هذا الحنق نفسه، مبعث سعادةٍ كبرى للخوري القدّيس.

ومع إخفاق كلّ مراوداته وحِيَله الخبيثة، لم يستسلم الشرّير بيُسرٍ، بل كان يضاعف شراسة حملاته، كلّما تمادت ساعات مكوث الخوري في كرسيّ الاعتراف، واستحوذت على كلّ نهاره، وعلى آناءٍ من ليله، ويعود إلى حجرته منهكًا، فيطالع صفحاتٍ من سيَر القدّيسين، ويطّرح على فراشه الرقيق، وفي الحال يمثل الشرّير، بلا إذنٍ ولا استدعاءٍ. لا يظهر له شكلٌ، ولكنّ وجوده الوبيل يملأ المكان، ويتجلّى من خلال مظاهر مقزّزةٍ، يفتنّ إبليس في اختراعها، فتارةً يُشعره بأنّ جرذانًا تسرح على جسده، أو بأنّ يدًا خشنةً قذرةً تمرّ على وجهه، أو يُسمعه دنين أسراب نحلٍ في غرفته، أو يريه جماعات وطاويط تحوم في جوّ حجرته، وتتعلّق على سقفها؛ وطورًا يقلّد قباع دببةٍ، وعواء كلابٍ... أو يشدّ فراشه بقوّةٍ بقصد إيقاعه أرضًا.

وفي أحيانٍ أخرى يحاول الشرّير إثارة غرائزه، فيشيع لديه الشعور بأن فراشه اكتسب طراوةً ورفاهةً، وكأنّه يغرق في ريش نعامٍ، ويراوده بإيحاءات فاسقةٍ.

وفي كلّ تلك الحالات كان حسب الخوري رسم إشارة صليبٍ كي ينعم بالهدوء والطمأنينة والسلام.

لقد أعيت حِيَل جهنّم الخوري المسكين، ولكنّها لم تنلْ من عزيمته. ففي الليالي التي يحرمه إبليس النوم، كان، عند منتصف الليل ينحدر إلى الكنيسة، وتجول بخاطره مواكب التائبين الذين سيتقاطرون إلى كرسيّ اعترافه، فيستغرق في الصلاة من أجلهم. وكان أعضاء جوقة الكنيسة يشهدونه، بعدئذٍ، قادمًا للإشراف على تدريبهم، شاحب الوجه، متعثّر الخطى، فيظنّون أنّه يعاني مرضًا. ولكنّه يُضطرّ إلى إبلاغهم أنّ الخبيث لم يوفّر وسيلةً لحرمانه النوم حرمانًا تامًّا.

وعندما كان، قبل الفجر، يقصد قريةً مجاورةً، سيرًا على قدميه، تاليًا المسبحة بخشوعٍ، ويتوجّس عدوّ الله والبشر من تأثير وعظه على النفوس، التي قد يجرّ بعضها إلى التوبة، والعزوف عن دروب الخطيئة، وقد يقتاد أخرى في سبل القداسة، كان أمير الشرّ يوهمه أنّ النار تلهب الجوّ، ويلتهم حريقها كلّ شيءٍ في طريقه، ساعيًا إلى إخافته، وردعه عن مقصده. غير أنّ الكاهن القدّيس كان يواصل سيره وصلاته، بلا وَجَلٍ.

وكان من الطبيعيّ أن تواجه أذهانُ الكثيرين هذه الظواهرَ الشيطانيّة بالشكّ، وأن تفسّرها تفسيراتٍ مادّيّةً متنوّعةً. ولكن لا بدّ من التنويه، في هذا السياق، بأنّ الأب "ڤـيانّي" نفسه كان، بالفطرة، ميّالاً إلى استبعاد وصف مثل هذه الظواهر بالشيطانيّة. وقد عهد عنه، على امتداد خدمته الكهنوتيّة عزوفه عن عزو ظواهر ينسبها آخرون من زملائه الكهنة أو من عامّة المؤمنين، إلى تسلّطٍ شيطانيٍّ، مثل هياج البعض لمجرّد مشاهدة كاهنٍ أو صليبٍ، بل كان ينـزع إلى إرجاعها لعللٍ عصبيّةٍ، أو نوبات جنونٍ، ونادرًا ما كان يرى فيها تأثيرًا شيطانيًّا مباشرًا.

ومع ذلك حيّرت المظاهر الجارية للأب "ڤـيانّي" مراقبيها، والسامعين بها عن بعدٍ. وارتاب كثيرون منهم بصدق ما كان يرويه هو أو يرويه شهود عيانٍ لها، ورفضوا عزوها إلى مداخلاتٍ شيطانيّةٍ، بل نسبها بعضٌ منهم إلى هلوساتٍ ناجمةٍ عن إرهاقه، وإفراطه في حرمان نفسه الطعام والراحة والنوم، وانحباسه ساعاتٍ

طويلةً في كرسيّ الاعتراف، وربّما ذهب بعضهم إلى اتّهامه بالكذب والرياء، والاختلال العقليّ. بيد أنّ الذين واكبوه وعرفوه عن كثبٍ تيقّنوا أنّ الموت كان له أحبّ من الكذب أو الخداع، وأكّد الأطبّاء الذين واكبوه سنواتٍ طويلةً متانةَ واقعيّته واتّزانه النفسيّ الراسخ، وسداد نظرته ورأيه، وسيطرته الكاملة على ذاته وعلى كلّ قواه، ودقّة حكمه، وصموده الجسديّ في غمرة الحرمان الذي أخضع ذاته له طوعًا، وسكونَه البطوليّ في مواجهة المِحَن التي انقضّت عليه؛ كما أكّدوا جدَّه وصدقه في كلّ قولٍ وفعلٍ. وقد أقرّ طبيبٌ وثيق القرب منه، بعد أن راقبه طويلاً، أنّ لا شيء يمكن أن يسرّب إلى ذهنه أن يكون ذلك الكاهن ضحيّة أوهامٍ أو هلوساتٍ. وأقرّ عالمٌ نفسيٌّ أنّ حبّ الأب "فـيانّي" للألم، منـزّهٌ من كلّ عاملٍ مرضيٍّ، وأنّه لم يحبّ الألم لذاته، بل لأنّه أدرك، في العمق، دوره، وقيمته بصفته خادمًا لحبّ الله والقريب، ورغبةً منه في الاتّحاد بآلام المسيح، الذي مثّله هو بين أبناء رعيّته، وتطوّعًا لتحمّل كلّ شيءٍ في سبيل خلاصهم.

وقد استبعد المحقّقون أيّة خدعةٍ مختلَقةٍ، إذ كان بقدرة الحرّاس الذين تطوّعوا لمساعدة الكاهن، داخل دار الرعيّة وخارجها أن يكتشفوا بيُسرٍ مثل هذه الخدع، مهما بلغت مهارة مختلقيها. هذا فضلاً، عن اعترافات شهودٍ لا يرقى إلى صدقهم وسلامة حكمهم أيّ شكٍّ.

ويجدر بالإشارة، في هذا الشأن، أنّ الشرّير، سعيًا منه إلى إشاعة الشكوك حول ما يسيمه للأب "فـيانّي" من تنكيلٍ ومضايقاتٍ، كان يخفيها عن إدراك بعض ضيوفه، أثناء حدوثها، ويحجب عن أسماعهم ضوضاءه الجهنّميّ، لكي يشهدوا بعدم حدوث أيّ أمرٍ غير طبيعيٍّ. وكان الكاهن نفسه يجهد، أحيانًا، في كتمان صراعه مع إبليس، ويخفيه عن علم الآخرين. وإذا اتّفق أن سمع جيرانٌ له أصواتًا منكرةً، في الليل، آتيةً من ناحية مسكنه، واستفسروا عنها، في الصباح، كان يموّه الأمر، ويجيب: "أنا، أيضًا سمعتُ أصواتًا، وربّما هي أصوات غرباء، عابري سبيلٍ".

ولكن ما أكثر الذين سمعوا صيحات الشرّير، وانتقامه الهستيريّ، وما أوفر شهاداتهم! فكثُرٌ هم الذين شهدوا الخوري القدّيس يُجَرّ من رجليه في غرفة نومه، انتقامًا من انتشاله زبائن إبليس من أشداقه، وتحريرهم من ربقته. وعديدون هم الذين عاينوا لوحة البشارة التي جاء بها الكاهن من الكنيسة، وعلّقها على جدار درج دار الرعيّة، فأمعن الشرّير في تشويهها، وفي تلطيخ وجه العذراء بالأقذار.

وكان مثّالٌ شهيرٌ، قد كُلِّف بصنع تماثيل، وأقام، أثناء عمله، في دار الرعيّة، واعترف، لاحقًا، لصاحب فندقٍ: "لست أفهم كيف تمكن الإقامة في تلك الدار حيث لا يفتر الضجيج، ولا يصمت الزعيق طوال الليل!".

وأفاد طالب فلسفةٍ أنّه حظي، مرّةً، بالاعتراف في حجرة خوري أرس، وفيما كان راكعًا في كرسيّ الاعتراف، اهتزّ به الكرسيّ، ومادت الحجرة بأكملها، فهبّ مرتعدًا، وهمّ بالفرار، فأمسك الكاهن بيده، وطمأنه بقوله: "لا شيء يحدث، إنّما هذه محاولة إخافةٍ شيطانيّةٌ، وأنا أدعوك إلى تكريس نفسك في الكهنوت". ولكنّ الرعدة التي أخذت بكلّ مشاعر الشابّ كانت من الحدّة، بحيث وطّن العزم على البعاد، نهائيًّا، عن كرسيّ اعتراف خوري أرس.

وأَلِفَت ثلّةٌ من الشبّان التلصّص، ليلاً، عند دار الكاهن، ترصّدًا لسماع ما يشاع عن الضوضاء، الذي يسود فيها. ولطالما سمعوا صوتًا أجشّ، مهدّدًا، مردّدًا: "ڤـــيانّي ڤـــيانّي، ارحل، ابتعد...!"

وفي ليلةٍ من عام ١٨٢٤، احتاج رجل أمنٍ إلى البوح لخوري أرس، بما يثقل وجدانه. ولّما شخص أمام مسكنه، عند منتصف الليل، سمع جلبةً، وصوتًا أجشّ مهدّدًا. فقرع الباب. ففتحه الكاهن حاملاً بيده مصباحًا. وقال له الضابط: "يبدو أنّ هناك من يهاجمك. وها أنذا هنا، كي أذود عنك". ولكنّ الكاهن أوضح له: "ليس الأمر كما تخيّلت. بل هو إبليس". ودلّ الكاهن حدْسُه إلى أنّ عبئًا باهظًا

يثقل كاهل الرجل، ولحظ ارتجاف يديه لمجرّد سماعه ذكر إبليس، فجرّه إلى داخل الكنيسة. وهناك استهلّ الرجل انطلاقةً جديدةً، وحياةً قشيبةً نظيفةً.

ليلة ٢٣/٢٤ شباط ١٨٥٧، كان الإقبال على كرسيّ اعتراف خوري أرس كثيفًا. وقبيْل الساعة السابعة صباحًا، وفيما كان الكاهن يغادر كرسيّ الاعتراف تأهّبًا للاحتفال بالذبيحة الإلهيّة، شاهد مارّةٌ نارًا تتصاعد من غرفة نومه، وهرع بعضٌ منهم لإخطاره، فلم يبدُ عليه أيّ تأثّرٍ، بل أعطاهم مفتاح البيت كي يطفئوا الحريق، وسمعه القريبون منه يدمدم: "يا لحقارة إبليس، وبشاعته! لقد فشل في النيل من العصفور، فأحرق القفص!" وما لبث أن أخبره معاونٌ له أنّ الحريق التهم سريره الوضيع. ومع ذلك لم يتخلّ عن هدوئه، وشرع بإقامة القدّاس.

ولّما صعد الأب "ڤيانّي" إلى حجرته، متفقّدًا أضرار الحريق، كان أكثر ما شقّ عليه فقدان لوحاتٍ تقويّةٍ وصور قدّيسين، طالما رافقت مسيرته الروحيّة، وكانت الكنز الأرضيّ الوحيد الذي يحتلّ من قلبه منزلةً. ولّما شاهد آثار سريره وأغطيته وستائر نوافذه التي التهمتها النار، قال، باسمًا: "أظنّ أنّني قد غدوت، الآن، أفقر فردٍ في الرعيّة. فلكلٍّ سريرٌ يرقد عليه، وأنا، بفضل الله، أمسيت مفتقرًا حتّى إلى سريرٍ".

وسارع رجلٌ فأتاه بسريرٍ بديلٍ، ولكنّه بما أنّه كان عالمًا بنزعة الكاهن إلى بيع كلّ ما يمكنه الاستغناء عنه، في سبيل غوث محتاجٍ، أنذره بأنّه يعيره السرير إعارةً.

وروى كاهنٌ شابٌّ، كان، في تلك الليلة ضيفًا على دار الرعيّة، وشهد أنّ النار التهمت السرير وستائره وأغطيته، وكلّ ما يحيق به، ولكنّها توقّفت عند ذخيرةٍ للشهيدة "فيلومينا"، مودعةٍ فوق خزانةٍ واطئةٍ. ولكأنّ خطًّا مستقيمًا كان قد رُسِم فوق الذخيرة ووقاها، ووقى حيّز الجدار المحيق بها من الحريق الذي طال كلّ ما يحيط بسواهما. وتبيّن للشاهد أنّ النار التي اشتعلت تلقائيًّا قد خمدت، أيضًا، تلقائيًّا. ومع

أنّها التهمت الستائر السميكة، لم تمسّ سقف الغرفة، ولا أرضيّة العلّيّة التي تعلوها والمصنوعة من خشبٍ جافٍّ، سريع الالتهاب. ولّما استوضح الكاهن الشابّ الشاهد خوري أرس هل للشرّير يدٌ في ما حدث، أجابه: "الأمر واضحٌ... وهو تعبيرٌ عن حنَق الشرّير، ودليل بُشرى بأنّ خطأةً كثيرين قادمون". وفي الواقع، شهدت أرس، في الأيّام التالية، إقبالاً غير معهودٍ، على كرسيّ اعتراف الكاهن القدّيس.

ودُعي الأب "ڤـــيانّي" إلى الوعظ وسماع الاعترافات في قريةٍ مجاورةٍ، ولم يرُقْ الأمر للشرّير، فدأب، طوال مدّة إقامته هناك، على جرّ سريره ليلاً جيئةً وذهابًا لكي يحرمه النوم. ثمّ دعي إلى رعيّةٍ أخرى للغاية عينها. وما إن كان الخوري يلقي رأسه، ليلاً، على المخدّة حتّى تدوّي غرفته بضوضاء يُقلق الكهنة الراقدين في جواره، أو في الطبقة السفلى، وكان هؤلاء يعاتبونه بعنفٍ، ولكنّه يردّ بأنّ اللوم يقع بالحريّ على الشرّير الذي يعبّر عن غيظه بسبب الخير الذي كان يتحقّق في تلك الرعيّة، وبالتالي، إن كان لديهم عقابٌ فليعاقبوا صانع الضوضاء، ولكنّ بعضًا منهم كانوا يسخرون منه، قائلين: "إنّك لا تأكل، ولا تشرب، ولا تنام، ولا ريب أنّ جرذانًا تسرح في دماغك". وفي الليلة التالية، ازداد الضوضاء دويًّا وإقلاقًا، واتّخذ عتاب الكهنة نبرةً صارخةً، فآثر الخوري القدّيس الإحجام عن الردّ. وفي الليلة الثالثة، استؤنف الضوضاء، ولكن بوتيرةٍ مرعبةٍ، وسمع الراقدون ما يشبه دويّ عربةٍ مثقلةٍ، وخاف بعضهم انهيار البناء بأكمله عليهم، وهبّوا واقفين، مترصّدين، مرتعدين، واستخلصوا من شدّة الضوضاء المنبعث من غرفة الأب "ڤـــيانّي" أنّه يتعرّض لاغتيالٍ، وأنّ معركةً حامية الوطيس ناشبةٌ في داخلها، وفتحوا الباب، فذهلوا لرؤية الكاهن راقدًا بهدوءٍ، بيد أنّ أيديًا غير مرئيّةٍ كانت قد جرّت سريره إلى منتصف الغرفة. فأيقظوه، ورووا له ما جرى. وشاهد، هو، مكان سريره، فقال باسمًا: "إنّه الشرّير الخبيث. أنا آسف بسبب إقلاقكم: ولكن لا عليكم. فأنا أتوسّم خيرًا جمًّا، وسنظفر غدًا، بصيدٍ ثمينٍ". وفي اليوم التالي ظلّ

المشكّكون بأقوال الأب "ڤـــيانّي"، يراقبون جميع القادمين إلى الكنيسة، بحثًا عن الصيد الثمين، وكاد ينقضي النهار كلّه، ولم يظهر أيّ صيدٍ غير عاديٍّ، وتواردت إلى أذهان المراقبين ظنونٌ بأنّ خوري أرس "حالمٌ مهووسٌ". وحدثت المفاجأة، إثر عظة المساء، عندما اجتاز الكنيسة وجيهٌ مرموقٌ، كان قد نأى عن الكنيسة، وأهمل الأسرار سنين طويلةً، وارتمى راكعًا في كرسيّ اعتراف الأب "ڤـــيانّي". وحينئذٍ، استقرّ في يقين جميع الكهنة الموجودين أنّ خوري أرس قدّيسٌ كبيرٌ.

وكان كاهنٌ شابٌّ من رعيّة "إيكويّي"، قد حلّ ضيفًا على خوري أرس، ومكث لديه بضعة أيّامٍ، وفي كلّ ليلةٍ شهد أعمال الشرّير، وسمع صوته الأجشّ الحادّ، الذي يحاكي أصوات الحيوانات المفترسة، والذي كان لا يكفّ يهزّ بعنفٍ ستائر حجرته، مردّدًا تهديده له: "ڤـــيانّي، ڤـــيانّي، ماذا أنت فاعلٌ هنا؟ هيّا ابتعد، ارحل!".

ومع كرّ الأيّام اعتاد الكاهن القدّيس مناورات الشرّير وحملاته المستمرّة، واليائسة والعقيمة دائمًا، ولم يعد يوليها أيّ اهتمامٍ. ولكنّ الشرّير لم يعهد كللاً ولا ملَلاً، وكان يستأنف هجماته بلا هوادةٍ. وكلّما حاول الكاهن إراحة جسده المنهك، عقب يومٍ حافلٍ بالجهد والتقشّف، كان الشرّير يرفع عقيرته: "ڤـــيانّي، ڤـــيانّي، سأنال منك، سأقضي عليك!". ويكتفي الكاهن بالردّ، من زاويته المعتمة: "أنا لا أخشاك!".

هذه السيطرة على الذات، وهذا الصمود في مواجهة الشرّير، جعلا من خوري أرس مقصدًا لضحايا الشرّير. فسمح له الأُسقف بممارسة أعمال التعزيم وطرد الشيطان، كلّما اقتضت الظروف مداخلةً من هذا النمط. وتعدّدت شهادات إنجازاته في هذا المضمار.

فقد جاءه، يومًا، رجلٌ من منطقةٍ بعيدةٍ بزوجته التي كانت في حالة هياجٍ، تطلق صيحاتها منكرةً مبهمةً. واقترح الخوري العودة بها إلى الأُسقف، فاستعادت المرأة النطق الواضح، بغتةً، وصاحت بنبرةٍ مريعةٍ: "حسنٌ. ستعود المخلوقة... آه! لو

كنت أملك قدرة يسوع المسيح، لدفنتكم، جميعكم، في جهنّم!". حينئذٍ قال الأب "ڤـــيانّي": "أنت تعلمين، إذن، يسوع المسيح! احملوها إلى أمام الهيكل الكبير". فحملها إليه أربعة رجالٍ رغم معارضتها الشديدة. ومرّ الأب "ڤـــيانّي" بعلبة ذخائر فوق رأسها، فبدت وكأنّها فقدت الحياة. وبعد لحظاتٍ هبّت ناهضةً، وغادرت الكنيسة، ثمّ عادت، بعد ساعةٍ، هادئةً، ساكنةً، وغمست يدها بالماء المقدّس، وجثت على ركبتيها، وكانت قد تحرّرت تحرّرًا تامًّا. ولبثت ثلاثة أيّامٍ في أرس، دليلاً على قدرات الربّ، وعلى قداسة الخوري.

وكانت امرأةٌ مسنّةٌ قد قدمت من مدينة "كليرمون فيرّان"، وأمضت النهار كلّه ترقص وتغنّي في ساحة الكنيسة. وحاول حاضرون تهدئتها بإسقائها جرعاتٍ من الماء المقدّس، ولكنّها ازدادت هياجًا، وراحت تعضّ جدران الكنيسة، حتّى سالت الدماء من فمها. وكان ابنها إلى جانبها، حائرًا، خجلاً، لا يدري ما يتوجّب عليه فعله. ومرّ كاهنٌ غريبٌ، فأدخلها إلى الممرّ الذي يفصل الكنيسة عن دار الكاهن، حيث كان يتوقّع مرور الأب "ڤـــيانّي"، الذي ما لبث أن حضر، واكتفى بتزويد المرأة ببركته، وفي الحال سكنت سكونًا تامًّا. وأقرّ ابنها أنّها كانت تعاني، منذ أربعين سنةً، اضطراباتٍ لا تهدأ، فظنّ جميع معارفها أنّ روحًا شرّيرًا يسكنها، ولكنّه لم يشهدها قطّ، لا في مثل هياجها، أثناء ذلك اليوم، ولا في مثل السكون الذي انقلبت إليه إثر بركة الخوري القدّيس. ومنذئذٍ تحرّرت من نوبات الهياج التي طالما واكبتها.

ومساء يوم ١٨٥٧/١٢/٢٧، جاء نائب أُسقف "أڤـــينيون"، ورئيسة دير راهباتٍ فرنسيسكانيّاتٍ بمعلّمةٍ، كانت تظهر عليها علامات التملّك الشيطانيّ، وكان الأُسقف بنفسه قد تحرّى أمرها، وأوصى باقتيادها إلى الأب "ڤـــيانّي". وفي صباح اليوم التالي أُدخلت إلى السكرستيّا حيث كان خوري أرس يرتدي حلّته الكهنوتيّة، تأهّبًا لإقامة القدّاس؛ وفي الحال همّت المرأة بالفرار، صائحةً: "هذا المكان مزدحمٌ بالحضور". فقال الكاهن: "فلنخرج، إذن!" وأوعز إلى الحضور أن

يغادروا المكان، غير أنّ النائب الأُسقفيّ ظلّ واقفًا عند الباب، متنصّتًا، متأهّبًا للتدخّل عندما تقتضي الحاجة. واستطاع التقاط جزءٍ من الحوار. وسمع الكاهن يسألها عن سبب إصرارها على الخروج، وهي تجيبه: "لأنّني مع إنسانٍ لا أحبّه"! فسألها "ألا تحبّينني، إذن؟" فردّت بحدّةٍ: "كلاّ". وفي الحال فتح الباب، وظهرت الفتاة، عند العتبة، خاشعةً، متواضعةً، باكيةً فرحًا وتعبيرًا عن شكرٍ لا محدودٍ. وفي لحظةٍ، طافت على محيّاها، علامة خوفٍ، والتفتت إلى الخوري قائلةً: "أخاف من عودته إليّ". ولكنّه طمأنها: "كلاّ، كلاّ، يا ابنتي. أؤكّد لك أنّه لن يعود قريبًا". وفي الواقع لم يعد قطّ. واستأنفت الفتاة التدريس في مدينتها.

ويوم ١٨٥٩/٧/٢٥، جاء رجلٌ بزوجته التي كان الجميع يعدّونها مسكونةً بالشيطان، ودخلا فناء دار الرعيّة، حيث احتشد جمعٌ غفيرٌ من الغرباء، وانضمّ إليهما الكاهن القدّيس، وسرعان ما خرجت المرأة محرّرةً تضجّ حبورًا. وفي تلك اللحظة، سُمع تحطّم أغصان الأشجار التي استفاؤوا بها، محدثًا ضجّةً مريعةً. ولكن تبيّن أنّ الأشجار والنباتات المحيقة بها لم تمسَّ بأذًى.

وكان، بعد ظهر يوم ١٨٤٠/١/٢٣، قد حدث أمرٌ غريبٌ مذهلٌ في كرسيّ اعتراف خوري أرس. حيث تخطّت امرأةٌ قادمةٌ من قريةٍ أُخرى دور نحو عشر نساءٍ كنّ ينتظرن دورهنّ للاعتراف، وركعت في كرسيّ الاعتراف، ولبثت صامتةً فترةً طويلةً، فدعاها الخوري إلى البوح بخطاياها، وبغتةً ارتفع صوتٌ حادٌّ يقول: "إنّي لم أقترف سوى خطيئةٍ واحدةٍ، أقتسم ثمارها مع كلّ راغبٍ فيها... فارفع يدك وحلّني. ألا تعلم أنّك غالبًا ما ترفع يدك من أجلي. فأنا غالبًا إلى جانبك في كرسيّ الاعتراف!".

وسأل الكاهن: "من أنت؟"

– "أنا الرأس والمعلّم". ثمّ استفاض في الشتيمة، قائلاً: "لِمَ أنت تؤلمني، أيّها الضفدع الأسود!؟، أنت تدّعي دائمًا أنّك راحلٌ، فلمَ لا ترحل؟... هناك ضفادع سوداء أُخرى، لا تؤلمني مثلك!".

– "سأكتب للأُسقف كي يخرجك".

– "وأنا سأجعل يدك ترتجف، فلا تقوى على الكتابة. سأتغلّب عليك مثلما تغلّبتُ على من هم أقوى منك. ولكنّك لم تمت. لولا تلك (... وهنا تلفّظ بكلمةٍ بذيئةٍ وصف بها السيّدة العذراء)، الموجودة في العلاء، لقضينا عليك. ولكنّها تسهر عليك وتحميك، مع ذلك التنّين الكبير" (الذي عنى به الملاك ميخائيل)، الواقف عند باب كنيستك... ولَمْ تعظ ببساطةٍ، فاضحًا جهلك، ولا تعظ ببلاغةٍ كما يفعلون في المدن؟". ثمّ استفاض الشرّير في شتم أساقفة الرعايا المجاورة وفئاتٍ من الكهنة، مبرزًا عيوب كلٍّ منهم، ولم يعفِ خوري أرس من شتائمه، ولكنّه أقرّ، مكرَهًا، بعجزه عن العثور على ما يهاجم به فضائله.

وكان قد شاع، في تلك الفترة، الولع بأعمال السحر واستحضار الأرواح، فحاربها الخوري بصرامةٍ. وكان للخوري صديقٌ وجيهٌ يملك كرومًا في المنطقة المحيطة بأرس، ولكنّه يقضي معظم أوقاته في باريس، حيث دعاه أقرباء له إلى حفلة استحضار أرواحٍ، فلبّى دعوهم. وعاد، بعد يومين، إلى كرومه، معلّلاً نفسه برؤية صديقه الكاهن، الذي كان ينتظره عند باب الكنيسة، فهرع نحوه مبتسمًا مادًّا يده للسلام. ولكنّ الكاهن أحجم عن تحيّته، وبإيماءةٍ منه سمّره مكانه، وخاطبه بنبرة حزنٍ وحزمٍ: "منذ يومين تعاملت مع الشيطان، فتعالَ اعترف!". وامتثل الصديق، ووعد بالإقلاع عن تلك الممارسة الذميمة. وبعد انقضاء أيّامٍ، وُجد الرجل في منزل أصدقاء، رغبوا في استحضار أرواحٍ، ودعوه إلى مشاركتهم، فأبى. وفيما هم تحلّقوا حول المنضدة، انتحى الرجل في زاويةٍ من القاعة. وجهد الوسيط في تحريك المنضدة، ولكن عبثًا، واضطرّ الوسيط إلى الاعتراف: "لقد فشلت، ولا حيلة لي. لا بدّ أنّ هناك قدرةً أقوى منّا تشلّ عملنا!".

وبالإجمال بدا أنّ الشيطان كان يُرعب أبناء الرعيّة أكثر ممّا يرعب خوريهم، الذي أوجز موقفه من الشرّير بقوله: "إنّ عطف الله يفوق شرّ إبليس. والله هو

الذي يحميني، وما يحميه الله هو في حرزٍ أمينٍ". هذه الثقة أهّلته لتحدّي الشيطان والسخريّة منه، بلا وجلٍ. فقد ذكر أحدهم، أمامه، أنّه يرى الشيطان جميلاً، فأجابه الكاهن أنّه رآه، دائمًا بشعًا مقيتًا.

وقال له رجلٌ ملحدٌ، ذات يومٍ، بلهجةٍ ساخرةٍ: "يقال إنّك ترى الشيطان!" فأجابه في الحال: "أجل، وها أنذا أراه أمامي، في هذه اللحظة".

وفي مقامٍ آخر أعلن: "الناس يرهقونني، في النهار، وإبليس يهاجمني ليلاً، ولكنّي، آنذاك، أونس سلامًا عميقًا".

ومع تقدّم الخوري سنًّا، وخَوَر قواه، تراخت هجمات إبليس عليه، بعد أن تيقّن الشرّير من فشله من النيل من تلك النفس البطلة. وربّما ابتغى الربّ أن تنهي تلك النفس رائعة الطهر، التي أُوسعت تنكيلاً، مسيرها الأرضيّة في سلامٍ عميقٍ.

ومنذ عام ١٨٥٥، خلت ليالي الكاهن من مضايقات الشيطان، غير أنّ النوم بات متعذّرًا عليه، إذ كانت نوبات سعالٍ حادٍّ وعنيدٍ تطرد الكرى عن جفنيه. ولكنّ افتقاره إلى النوم لم يردعه عن إنفاق ساعات نهاره في كرسيّ الاعتراف. وكانت ساعة نومٍ في النهار، أو أقلّ منها بدقائق، تكفيه كي يظفر بالحدّ الأدنى من الراحة. ولكنّ الشرّير حاول استئناف مضايقاته، وحرمانه من تلك النقاهة الوجيزة. واستمرّ الخوري القدّيس يُلحق به هزيمةً تلو هزيمةٍ.

زحفٌ إلى أرس

لقد خلّف الأب "ڤـــيانّي" أثر قداسةٍ راسخةٍ حيثما حلّ، بدءًا بقرية نوئيس" (Noës)، التي لاذ إليها، عندما تخلّف، مُكرَهًا، عن الخدمة العسكريّة، قبل سيامته الكهنوتيّة، ثمّ في رعيّة مسقط رأسه "درديّي"، وفي رعيّة "إيكويّي" (Ecully) حيث خدم مدّة ثلاث سنواتٍ. إلى أن تكرّست قداسته، وتأكّدت، وذاعت، وفاح عرفها في أرس.

ثمّ، بين التاسع من كانون الثاني والحادي والعشرين من شباط **١٨٢٣**، قام نسّاكٌ بحملةٍ رسوليّةٍ في رعيّة "تريـــڤـــو" (Trévoux)، القريبة من أرس، والتي كانت تتألّف من ثلاثة آلاف نسمةٍ. وكانت غاية الرسالة إيقاظ الروح الدينيّ، الذي همد بعد ثلاثين سنةً من الإهمال. وأحدثت تلك الرسالة انقلابًا روحيًّا عارمًا، وغدا المرسلون عاجزين عن تلبية كلّ طلبات المؤمنين واحتياجاتهم الروحيّة، فاستعانوا بخدّام الرعايا المجاورة، ولا سيّما لسماع الاعترافات. وكان خوري أرس أحد المتطوّعين لهذه الخدمة. وسُرعان ما أُخذ الذين لجأوا إلى كرسيّ اعترافه بطيبته، ونفاذ بصيرته، وسداد حكمه. وكان كلّ من يخرج من كرسيّ اعترافه ينطلق يشيد بمديحه. وسرعان ما انتظمت طوابير المنتظرين دورهم للركوع في كرسيّ اعترافه.

بعدئذٍ اشترك الأب "ڤـــيانّي" في رسالاتٍ أخرى عديدةٍ، في رعايا مختلفةٍ. وكثيرون ممّن اتّصلوا به في تلك المناسبات، باتوا لا يطيقون الاعتراف لسواه، فقصدوه إلى أرس، وغالبًا ما كانوا يستصحبون أصدقاءهم إلى من غدوا يصفونه بالقدّيس، أملاً في الاغتناء بإرشاداته. وبلغ تعلّق بعضهم به أن اتّخذوا من أرس موطنًا ومكان إقامةٍ دائمةٍ. ومع أنّ العديدين من أبناء رعايا أخرى، رأوا في خوري

أرس نموذجًا غير مألوفٍ للفضيلة والقداسة، والكمال، وغدوا يؤثرون اللجوء إلى كرسيّ اعترافه، عوضًا من كرسيّ اعتراف خدّام رعاياهم، كان معظم هؤلاء الكهنة الزملاء يعترفون بسموّ فضائله، ويجهرون بتقديره واحترامه، بيد أنّ هذا الواقع أثار غيرة فئةٍ من الكهنة وغيظهم.

ومنذ عام ١٨٢٦، حتّى مماته غدا خوري أرس محاصرًا في كرسيّ اعترافه، حيث تقاطر عليه، بلا انقطاعٍ، آلاف المؤمنين المتوافدين من كلّ صوبٍ، ناشدين غفران الله، وعلّة رجاءٍ، ونبراسًا لسلوكهم. وفي السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته، كان كرسيّ الاعتراف يأسره نحو خمس عشرة ساعةً، كلّ يومٍ.

عام ١٨٣٤، قدّر الكونت "دي غاريت" الذي كان، آنذاك، عمدة أرس، عدد الحجّاج، بنحو ثلاثين ألفًا في السنة، مع أنّ عدد سكّان القرية كان دون ثلاث مئة نسمةٍ، وكانت القرية خاليةً من فندق، ومطعمٍ، ومخبزٍ، ولا مأوى فيها سوى الكنيسة الضيّقة، التي إذا احتشد فيها مئتا شخصٍ، لاختنقوا.

بادئ الأمر، اقتصر الحجّاج على أبناء الرعايا المجاورة، وعلى منطقة ليون، التي كانت تتيح لحجّاجها العودة في المساء عينه، نظرًا لقرب المسافة. بيد أنّ سمعة قداسة الكاهن المتنامية غدت تستقطب، باطّرادٍ، مزيدًا من الحجّاج القادمين من أماكن أبعد مسافةً. وكان بعضهم يقضون لياليهم في أهراءٍ، أو في إسطبلاتٍ، فوق أكوام القشّ، أو في العراء، تحت قبّة السماء، صيفًا. فاضطرّ رئيس البلديّة إلى إعداد غرفٍ للضيافة، واستحدث شخصٌ فندقًا، أطلق عليه اسم "فندق سيّدة النعم"، وافتتح آخر مطعمًا.

لقد أعادت قداسة خوري أرس التي ذاعت شهرتها زخم الحجّ إلى مواقع وجود قدّيسين أحياء، مثلما كان يُحجّ، قديمًا، إلى الصحارى والأديرة، حيث يقيم نسّاكٌ ورهبانٌ قدّيسون.

وروى أُسقفٌ أنّه، لّما كان أُستاذًا في إكليريكيّةٍ، جاء إليها الأب "ڤـــيانّي" كي يزور زميل دراسةٍ له كان قد أضحى رئيسًا لتلك الإكليريكيّة عينها. ولّما مرّ بالملعب، تعرّفه إكليريكيٌّ فهتف: "هذا هو خوري أرس القدّيس"، فتوقّف اللعب، وساد الصمت، وشخصت الأبصار، بتجلّةٍ، إلى الزائر الذي توجّه، مباشرةً، إلى الكنيسة حيث أمضى فترة عبادةٍ أمام القربان المقدّس، قبل قيامه بزيارة صديقه. وكان الإكليريكيّ الذي هتف للقدّيس قادمًا من رعيّةٍ مجاورةٍ لرعيّة أرس، مطّلعًا على كلّ ما تعرّض له ذلك الكاهن من اضطهاداتٍ وافتراءاتٍ أثيمةٍ ومهينةٍ، وكلّ ما أثبته، هو، من نصاعة سلوكٍ، ومن قداسةٍ بطوليّةٍ.

منذ ١٨٢٩، تكثّف الحجّ إلى أرس، وأمسى خوريها أسير النفوس، وخادمًا لها، لا يعتقه من ربقة عبوديّته المقدّسة لها، ولا يزيحه عن كرسيّ الاعتراف سوى الموت. ولم تكن الرغبة في الاعتراف هي الدافع الوحيد إلى ذلك الحجّ. فقد كانت قد شاعت، أيضًا، شهرة قدرة الأب "ڤـــيانّي" على قراءة كمائن الضمائر، وصنع المعجزات، فضلاً عن اكتسابه شهرة "قدّيسٍ حقيقيٍّ"، نادر المثال.

ولا ريب أنّ للقداسة سحرًا يتعذّر تفسيره، يجتذب حتّى غير المؤمنين، فيهرعون إليها حالما يلمحونها. ولله سبله للتسلّل إلى القلوب، ولا ريب أنّ خوري أرس كان أحدها. واتّضح أنّ معظم الذين كانوا ينالون بركته وإرشاده، ينقلبون عن كرسيّ اعترافه، وقد تحوّلوا إلى الله، وأضحوا نماذج للفضيلة. وما أكثر الذين عثروا، عند ركبتي ذلك الكاهن القدّيس، على جرأة البوح بأمراضٍ روحيّةٍ، طالما حبسوها في صدورهم، ونالوا الدواء الشافي!

لم يكن ذلك الكاهن البسيط، البارّ، بحاجةٍ إلى السعي وراء الخطأة كي يعيدهم إلى الله، بل كانت مواكبهم تتدافع إلى كرسيّ اعترافه، الذي أضحى مسكنه، حتّى إذا اضطرّوا إلى الانتظار ساعاتٍ قبل أن يحين دورهم للركوع فيه، ولكنّهم كانوا واثقين من وجوده فيه، ومن إصابة ما جاؤوا ينشدونه لديه.

في عام ١٨٣٤ اجتذبت شهرةُ قداسة خوري أرس، إلى مسقط رأس ذويها، إحدى بنات صاحب قصر أرس، من مسكنها الباريسيّ. واستقرّت في أرس التي أمست لها محطّ افتخارٍ، واندمجت، بلا تحفّظٍ، في حياة الرعيّة، وألِفَت الشخوص، كلّ مساءٍ، إلى الكنيسة الصغيرة المزدحمة بالمؤمنين وبالحجّاج. وقد جاء في رسالةٍ إلى والدها: "... جدران الكنيسة مزدانةٌ بالأعلام، ومخبأ القربان يتألّق بالأغطية المذهّبة، ومعرض القربان يتوهّج بالأحجار الكريمة؛ والمكان يشعّ بالشموع الكثيرة المضاءة؛ والكاهن المرهق بالأصوام والسهاد، يلقي بصوتٍ خافتٍ صلاةً ينفث فيها كلّ حبّه. هذه هي اللوحة التي تعرض لنا كلّ مساءٍ.".

ومن دواعي التقاطر إلى أرس ذيوع صيت العجائب التي تحدث استجابةً لتوسّل خوريها. هذا الصيت شرع ينتشر منذ تكاثُر الحنطة والطحين في دار الرعاية، تكاثرًا معجزًا. وفي الواقع كان بعض ملتمسي الشفاء، ينالون تحسّنًا في أوضاعهم، وكان آخرون يحظون بالشفاء، بفضل صلوات الكاهن؛ ولكنّ هذه الأشفية استجرّت أرتالاً من ملتمسي المعجزات، فضاق الكاهن القدّيس بالضجّة التي أثارتها هذه الأحداث، وخشي أن ينسبها الناس إلى قدراته الذاتيّة، فغدا يعزوها إلى قدّيسته المفضّلة، الشهيدة فيلومينا، التي كان يحتفظ ببعض ذخائرها، والتي كان، غالبًا، يستغيث بها. وفي الواقع كانت تلك الشهيدة، حتّئذٍ، مجهولةً، وهو الذي أشاع تكريمها، وعقد معها علاقةً وثيقةً، وصلاتٍ روحيّةً مقدّسةً، ساعدته على تخطّي اضطهادات الأشرار، وهجمات إبليس المتمادية، ومكّنته من الحفاظ على الفرح، والمنعة النفسيّة، وشباب القلب الذي يميّز مختاري الله؛ وقد نسب إليها القدّيس كلّ الأفعال الخارقة التي كانت تتحقّق بشفاعته، والتي كان يجريها الله إكرامًا له.

بين عامي ١٨٤٠ و١٨٤٥، استقرّت في أرس نحو ثلاثين أسرةً جديدةً، ونشطت حركة نقلٍ نظاميّةٌ إلى أرس من ليون ومن عدّة مدنٍ أخرى، وافتُتحت حوانيتُ عديدةٌ، وشاع في بعضها بيع صور الخوري القدّيس، "صانع المعجزات،

وشافي العاهات". واتّفق أن مرّ الخوري القدّيس، يومًا بقرب أحد تلك الحوانيت، فصُدِم، واعتزم العمل على إغلاقها، ولكنّ أصحابها استرحموه مؤكّدين أنّها مصدر رزقهم الوحيد. فسأل عن ثمن صورةٍ من صوره، ولمّا أُجيب أنّه فلسان، رآه باهظًا لقاء أمرٍ تافهٍ. غير أنّه رأفةً بالبائعين تغاضى عن الأمر. ولكنّه كان يبثّ شكواه للمقرّبين منه قائلاً: "ها قد صرتُ سلعةً تُصنع وتُباع وتُشترى!". وذات يومٍ، وقف أمام صورةٍ كان صانعها قد سعى لإخراجها إخراجًا جميلاً، فعلّق عليها: "هذه صورةٌ تشبهني فهي تصوّر إوزّةً حمقاء!".

ومنذئذٍ ماانفكّ الحجّ إلى أرس يتنامى. واتّخذ، عقب وفاة الكاهن القدّيس، حجمًا جسيمًا، وأمسى يجتذب إلى أرس ملايين الحجّاج سنويًّا.

كرسيّ التوبة في أرس

على امتداد ثلاثين سنةً، لم ينقطع تدفّق الحجّاج إلى كنيسة أرس العتيقة. ولم يردع لا البرد القارس شتاءً، ولا القيظ الخانق صيفًا هذا التدفّق، الذي لم يعرف فتورًا، قطّ. وكان الخوري القدّيس يقضي في كرسيّ الاعتراف ساعاتٍ طويلةً، منهكةً، تخطّت خمس عشرة ساعةً يوميًّا، وتمادت حتّى ثماني عشرة ساعةً، في سنواته الأخيرة. ولو هو أمضى فيه أربعًا وعشرين ساعةً، لما توقّف تدفّق التائبين إليه. وكان الخوري، عندما يضطرّ إلى مغادرة كرسيّه يحتفظ بردائه الكنسيّ الأبيض وبالبطرشيل، فيوقن المنتظرون أنّه راجعٌ، وإلاّ لحاصروه، ومنعوه من البعاد خطوةً واحدةً. وكان طابوران من طالبي الاعتراف ينتظمان باستمرارٍ أمام ملجأ النفوس ذاك، ويظلاّن ممتلئين، إذ كلّما انصرف تائبٌ، يحلّ مكانه آخر.

هذا السيل بدأ يتدفّق منذ عام ١٨٣٠، وظلّت وتيرة تدفّقه تتصاعد باطّرادٍ، حتّى تراوح عدد الحجّاج الزاحفين، يوميًّا، إلى أرس، بين ثلاث مئةٍ وأربع مئةِ حاجٍّ. وقد افتتحت محطّة قطارات "پـيرّاش" الكبرى في ليون نافذةً خاصّةً لبيع تذاكر إلى أرس صالحةٍ لثمانية أيّامٍ، إذ كان الحصول على دورٍ للمثول في كرسيّ اعتراف الكاهن القدّيس يستلزم نحو أُسبوع انتظارٍ. وكان المتقاطرون إلى ملاذ ذلك الكرسيّ، بدافع التوبة، ينشدون فيه الغفران، والتزوّد بإيمانٍ مستنيرٍ، وبدليل سلوكٍ أمينٍ.

لا ريب أنّ فضوليّين كانوا يندسّون بين جموع التائبين، ولكن كان حسبهم إيماءةٌ أو نظرةٌ، أو دمعةٌ من الكاهن القدّيس، حتّى يتوبوا إلى الله. وقد ضمّت صفوف المتهافتين على ذلك الكرسيّ كلّ الفئات: أساقفةً، وكهنةً، ورهبانًا، ونبلاء وعامّةً، مثقّفين وأُمّيّين؛ من اعتادوا مناقشة القضايا الخطيرة، ومن لا دافع لهم سوى بساطة إيمانهم. وطالما شوهدت عرباتُ فلاّحين قادمين من قرى نائيةٍ، كي يستمعوا إلى خادم الله، ويصلّوا في كنيسة أرس، فضلاً عن أبناء الجوار، الآتين سيرًا على الأقدام.

واستُخدمت للوصول إلى أرس شتّى وسائل النقل من عرباتٍ ومراكب. ولهذه الغاية أُسِّست شركات نقلٍ منتظمٍ بين أرس والقرى المجاورة لها، وكلّ منطقة ليون. وفي السنتين الأخيرتين من حياة الخوري القدّيس، ارتقى عديد الحجّاج إلى أكثر من مئة ألفٍ سنويًّا، مع أنّ وسائل النقل كانت ما زالت بدائيّةً، مفتقرةً إلى رفاه وسائل نقل اليوم وتعدّدها وتوفّرها، ومع أنّ قرية أرس كانت تفتقر لأماكن إقامةٍ للغرباء، ما عدا خمسة بيوتٍ حُوِّلت إلى فنادق بدائيّةٍ، وما عدا وفادة أهالي القرية الذين كانوا يستقبلون في منازلهم غرباء، ويطعمونهم لقاء أجرٍ زهيدٍ. وفي أيّام الصيف كان كثيرون يقضون لياليهم في العراء، تحت الأشجار، وبذلك يتمكّنون، باكرًا، من حجز دورٍ قريبٍ للشخوص إلى كرسيّ الاعتراف.

ومع كلّ ذلك الزحف لم تشكُ أرس من صخب الغرباء، الذين قدموا بغية رؤية قدّيس أرس، والاعتراف لديه، ووفاء نذرٍ للقدّيسة فيلومينا. وفي العموم ساد القرية جوٌّ من الانتظار الخاشع المفعم رجاءً.

كان ينتاب الحجّاج الداخلين إلى قرية أرس شعورٌ بالولوج إلى معبدٍ. وكان معظمهم، بمجرّد لمحه قبّة الآجرّ، يكشفون رؤوسهم، ويرسمون إشارة صليبٍ. ومع أنّ الكنيسة لم تكن تُغلَق إلاّ بين الساعة التاسعة مساءً ومنتصف الليل، كي يُتاح للخوري المسكين تناول لقمةٍ تقيم أَوَده، وإصابة لحظات راحةٍ خاطفاتٍ، كان الوافدون يلقون، دائمًا، صعوبةً في دخولها، بسبب الازدحام الدائم، فيضطرّون إلى معاناة انتظارٍ قد يطول، في المقبرة القديمة، أو في الأزقّة المحيطة بالكنيسة، ويقضون الوقت في ابتياع مسابح صلاةٍ، وإيقوناتٍ كي يباركها القدّيس، أو شموعٍ يشعلونها أمام مزار القدّيسة فيلومينا، أو رسومٍ لخوري أرس كان رسّامون قد استوحوها من مشاهداتهم الخاطفة للكاهن القدّيس الذي أبى، دائمًا، الوقوف أمام رسّامٍ أو مصوّرٍ. وكانت آلافٌ من هذه الصور تُطبَع بمقاساتٍ وألوانٍ مختلفةٍ، ويعود بها الحجّاج ذكرياتٍ ثمينةً. وكان القادمون من كلّ صوبٍ يتلاقون، ويتبادلون

الأحاديث والروايات عمّا سمعوه، وعرفوه من الخوري القدّيس، وأحبّوه قبل أن يشاهدوه. وكانت رغبتهم الطاغية في مقابلة الخوري القدّيس، وجهًا لوجهٍ، في كرسيّ اعترافه، والتي دفعتهم دفعًا لا يُقاوم للحجّ إلى أرس، تسهّل عليهم تمادي الانتظار وتبرّره. ومع أنّ الكاهن لم يكن يخصّص لكلّ اعترافٍ إلاّ الوقت الكفيل بجعله مثمرًا، كان على كثيرين انتظار بين خمسين وسبعين ساعةً كي يتسنّى لهم الركوع أمام القدّيس، معانين قيظ الصيف الذي يحوّل الكنيسة إلى أتّونٍ ملتهبٍ، وقرس برد الشتاء الذي يحوّلها إلى ثلاّجةٍ. ولطالما حاول أغنياء تقصير مدّة انتظارهم، فأغروا فقراء بالمال كي يتنازلوا لهم عن دورهم الذي اقترب، بعد انتظارٍ طويلٍ.

وكانت كثافة الحجّ قد استنفرت متطوّعين ومتطوّعاتٍ من أهالي أرس، من أجل حفظ الأمن، وتنظيم طابورين، أحدهما للرجال وآخر للنساء، وإيصال كلّ منتظرٍ إلى كرسيّ الاعتراف في دوره.

وعند إغلاق الكنيسة، مساءً، كان الذين انتظروا ساعاتٍ، يسجّلون أرقامهم لكيلا يفقدوا أولويّتهم، ويقضون في فناء الكنيسة بضع ساعات نقاهةٍ ريثما يرجع الخوري وتفتح أبواب الكنيسة.

ولطالما وجّه كرسيّ اعتراف خوري أرس مصائر نفوسٍ، ووجّه مسيراتٍ حاسمةً. واتّفق أنّ ممرّضةً رغبت في اعتناق الحياة الرهبانيّة، وقدمت إلى أرس التماسًا لنُصح الخوري القدّيس. وعقب انتظارٍ تمادى ثلاثة أيّامٍ، فقدت الأمل في الوصول إلى مقصدها، وعزمت، باكيةً، العودة من حيث جاءت. وفي تلك اللحظة عينها، كان الأب "ڤـيانّي" يخرج من كرسيّ الاعتراف، فناداها، وأخذ عليها نفاد صبرها، قائلاً: "لم تقضِ هنا إلاّ ثلاثة أيّامٍ، وتعتزمين العودة! عليك المكوث خمسة عشر يومًا. والآن صلّي للقدّيسة فلومينا، وهي ستُنيرك بشأن دعوتك. ثمّ ستأتين إليّ". فقامت بما أوعز إليها، وكان ذلك أساسًا ونبراسًا لمستقبلها كلّه.

واعتاد الخوري القدّيس تكريس وقتٍ لسماع اعتراف الرهبان ورجال الإكليروس، عند الساعة التاسعة صباحًا، وكان يلتقيهم في معزلٍ خاصٍّ، قائمٍ خلف الهيكل الرئيسيّ. وهناك شوهد أُسقفه واقفًا منتظرًا دوره، أُسوةً بالآخرين.

ومع أنّه، داخل قوس محكمته، قد التزم المساواة بين الجميع، إلاّ أنّه كان، أحيانًا، يولي أولويّةً لاستقبال أبناء رعيّته، والمرضى والمعاقين، والذين لا يستطيعون انتظارًا. وكان حدْسه النيّر يرشده إلى من هم، وسط الجموع، يحتاجون إلى مقابلته في الحال، وبلا تلكّؤٍ، فكان يسارع إلى استدعائهم إليه. وبما أنّ إيثاره لهم كان منــزّهًا من كلّ هوًى، أو غايةٍ شخصيّةٍ، لم يكن يثير أيّ تذمّرٍ من قبل من طال انتظارهم. واتّفق، يومًا، أنّ أُمًّا لستّة عشر ولدًا، انتظمت في طابورٍ، فخرج الخوري من كرسيّ الاعتراف، وأشار إليها بيده، قائلاً: "أنت على عجلٍ، فتعالي في الحال".

وكان عطفه يدفعه، أحيانًا، إلى إيلاء الأولويّة لبعض من قصدوه خلسةً، حريصين على ألاّ يراهم ويعلم بمسعاهم أحدٌ، ومحتاجين إلى عودةٍ سريعةٍ.

وكان الحياء قد أفقد امرأةً فقيرةً دورها، ثلاث مرّاتٍ، فمكثت في أرس ثمانية أيّامٍ، ولم تملك جرأة الاقتراب من كرسيّ الاعتراف، فأحسّ بحَرَجها، وخرج هو من كرسيّ اعترافه، وأدخلها. وكم كان منظرها رائعًا، وهي تدخل ضاجّةً سعادةً، ممسكةً بثوب الكاهن الذي شقّ لها طريقًا وسط الجموع!

وكانت خبرته قد لقّنته أنّ للنعمة سوانح يجب اقتناصها في الحال. ولذلك كان متيقّظًا للتشبّث بالنعم التي تنصبّ على النفوس. فذات يومٍ قرّر فريقٌ من شبّان ليون الحجّ إلى أرس. وكانوا مؤمنين ملتزمين ما عدا رجلاً مسنًّا، كان قد رافقهم مصانعةً، وإرضاءً لهم وانتهوا إلى أرس في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، فقال ذلك الرجل المسنّ للشبّان: "امضوا إلى الكنيسة، إذا شئتم، وأنا سأهتمّ بطلب العشاء". ولكنّه ما لبث أن تراجع وهتف لهم: "ها أنذا آتٍ معكم، فالأمر لن يطول". وفيما كانوا يجتازون عتبة الكنيسة كان الأب "ڤــيانّي" يخرج من كرسيّ الاعتراف،

وبعد أن انحنى أمام الهيكل، التفت إلى الوراء، وأشار إلى الرجل المسنّ الذي تلبّث عند باب الكنيسة، داعيًا إيّاه إلى الاقتراب منه. فتقدّم مرتبكًا، وسط ابتساماتٍ ساخرةٍ من مرافقيه الذي حدّثوا أنفسهم مفكّرين: "لقد وقع العصفور في القفص". وفيما كان الخوري يشدّ على يده، فاجأه بقوله: "يبدو لي أنّك لم تعترف منذ ثلاثين سنةً، بل منذ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وكنت، حينئذٍ في المكان الفلانيّ...". واعترف الرجل بصواب قول الخوري الذي أجاب: "إذن، فلنعترف الآن، أليس كذلك؟!". وأُسقط في يد الرجل، ولم يجد ما يجيب به. وقد أقرّ، لاحقًا: "في الحال اعترائي شعورٌ بالراحة النفسيّة، يتعذّر وصفه". استغرق الاعتراف عشرين دقيقةً، وكان كافيًا لتحويل الرجل تحوّلاً جذريًّا.

وكان للخوري القدّيس، صيدٌ آخر. فقد كان لرجلٍ ملحدٍ ولدٌ معاقٌ، جاء به، هو وزوجته، إلى من تتحقّق المعجزات على يده، وبادرت الزوجة إلى الاعتراف، في حين لم يكن الرجل يبالي إلاّ بشفاء ابنه، ولم يتخطَّ عتبة الكنيسة. ولمحه الكاهن فأومأ إليه بالاقتراب، ولكنّه لم يتحرّك. فسأل الكاهن الزوجة التي كانت قريبةً من الهيكل: "هل بلغ به الإلحاد هذا المبلغ؟". وأومأ إليه بالاقتراب ثانيةً وثالثةً، وأخيرًا لم يجد الرجل مفرًّا من الاستجابة، مطمئنًا نفسه: "من المؤكّد أنّ الخوري لن يأكلني". وأمسك الكاهن بيده، وانتحى به خلف الهيكل، وأشار إلى كرسيّ الاعتراف، داعيًا إيّاه إلى الركوع فيه. ولكنّ الرجل عبّر عن عدم رغبته في تلبية تلك الدعوة. بيد أنّ الخوري الذي لم يكن شيءٌ يثنيه عن إنقاذ نفسٍ، قال بحزمٍ: "فلنبدأ". وأُسقط في يد الرجل، فركع، واستهلّ الكاهن استنطاقه:

– منذ مدّةٍ طويلةٍ... ربّما عشر سنواتٍ...

– بل أكثر.

– اثنتي عشرة سنةً؟

– أكثر قليلاً.

– أجل، أجل، منذ اليوبيل الكبير، عام ١٨٢٦.
– تمامًا. من يجهد في البحث يجد".

واعترف الرجل مثل الأطفال. وفي اليوم التالي تقدّم مع زوجته إلى المناولة. أمّا ابنهما فترك عكّازَيْه في أرس، إذ لم تعد له بهما حاجةٌ.

لقد غدا طريق أرس، لنفوسٍ كثيرةٍ، هو طريق دمشق، طريق التحوّل الجذريّ. وكان سلاح الخوري القدّيس إلى تلك التحوّلات صلواته المتواصلة، وتضحياته الصارمة، وعظاته النفّاذة. وكانت ضربته القاضية حواره من القلب إلى القلب، مع التائبين. ضربةٌ تصرع وتبعث إلى حياةٍ جديدةٍ.

وهو في استماعه إلى الاعترافات، وفي ما عدا الاعترافات العامّة، التي كانت تشمل سنين طويلةً، كان شديد الإيجاز، فاسحًا للمعترف إصلاح نفسه بنفسه. وكان سموّ إيمانه يرتقي به فوق كلّ حياءٍ بشريٍّ، ويجعله يتوقّع، من الله، كلّ شيءٍ. ولكم أعتق سيفُ كلامه ضمائر من سمومٍ خفيّةٍ كانت تفتك بها! كان يصيب موطن الداء، وقلّما يخطئ مرماه. ولم يكن يتوانى عن توجيه أقوالٍ مثل هذه: "خلّص نفسك... كم مؤسفٌ أن تهلك نفسٌ كلّفت ربّنا ثمنًا باهظًا! بمَ أساء الربّ إليك لكي تقابله على هذا النحو؟..."

ولم يكن يتحرّج من رشق من يلمس لديهم إصرارًا على الخطيئة بسهم قوله: "إنّك هالكٌ، يا صديقي! ما لم تتحاشَ عن هذا الخطأ، أو ما لم تتحرّر من هذه العادة، أو ما لم تسلك طريقًا مغايرًا، قويمًا...". ولكم خلّصت هذه الأقوال نفوسًا كانت على شفا الهلاك!

وغالبًا ما كان لعبارةٍ موجزةٍ يتلفّظ بها القدّيس مفعول قنبلةٍ. فهو، على سبيل الشاهد، لم يتورّع عن القول لأسقفه الراكع في كرسيّ اعترافه: "أحببْ كهنتك!". وللذين كانوا يحاولون تبرير إهمالهم وأخطائهم بحسن نواياهم، كان يجيب بالقول الذي أمسى مأثورًا: "إنّ أرض جهنّم مرصوفةٌ بالنوايا الحسنة!". وشهد كاهنٌ

اعترف لديه أنّه كلما كان يقرّ بخطأٍ، كان القدّيس يهتف: "كم هذا مؤسفٌ!" وكانت نبرة صوته الزاخرة بالعطف والتأثّر تعبّر عن جسامة الأذى الذي ألحقه المعترف بنفسه، من جرّاء هذا الخطأ.

وكانت قداسته تضفي على أقواله الموجزة، البسيطة، صدمةً وجدوى، لا تستطيع شفاهٌ أُخرى إحداثها إذا تلفّظت بها. وغالبًا ما كان القدّيس يدعم أقواله بدموعه، مشيرًا إلى الصليب المعلّق على الجدار، وبتأوّهاتٍ تفتّت القلوب المتصلّبة. ولطالما استدرّت دموعه دموع المعترفين، وأصدت لتأوّهاته حسراتُ توبةٍ صادقةٍ!

وقد استفسره، يومًا، أحد المعترفين: "علامَ تمعن في البكاء، يا أبتِ؟" فأجاب: "لأنّك لا تبكي، أنت، بقدر ما يتوجّب عليك البكاء!". ولطالما شوهد معترفون يغادرون كرسيّ اعترافه بعيونٍ تفيض دموعًا، وينتحب بعضهم نحيبًا مفجعًا!

وما زالت كنيسة أرس محتفظةً بالكرسيّ الخشن الذي كان الخوري القدّيس يتلقّى، وهو جالسٌ عليه، اعترافات التائبين، ومنه يغدق دواء الخلاص. وكم من أحداثٍ مصيريّةٍ كان ذلك الكرسيّ الرثّ شاهدًا عليها!

لقد اعترف خوري رعيّةٍ أُخرى: "إنّ أبناء رعيّتي الذين يقابلون الأب "فــيانّي"، يتحوّلون نماذج تقوًى وإيمانٍ. وليت رعيّتي كلّها تأتي إليه!".

ولا ريب أنّ معجزة خوري أرس الكبرى، والفصل الأكثر روعةً في مسيرته هما الحصاد الوفير من الارتدادات الصاعقة التي أنتجها كرسيّ اعترافه. ومع أنّ أشفيةً جسديّةً عجيبةً قد حدثت أيضًا بشفاعته، إلاّ أنّه لم يكن يعيرها كبير اعتبارٍ، بل كانت الأشفية الروحيّة هي التي تسرّب النشوة إلى نفسه.

كان شغوفًا بإرجاع النفوس الضالّة إلى الله، بقدر ما كان يمقت الخطيئة. كان يتأمّل الصليب، ويخاطب المصلوب بقلبٍ دامٍ، وبعينين دامعتين، مردّدًا: "هل يُعقَل أن تكون قد كابدت كلّ هذه الآلام، ومع ذلك، مازالت نفوسٌ تهلك؟". وفي أثناء دروسه الدينيّة كانت تفلت منه عباراتٌ مثل هذه: "يا للوجع الذي يجتاحنا كلّما

خطر ببالنا أنّ بشرًا يموتون، ولم يحبّوا الله؟..."، ولا يتمالك عن ذرف الدموع، مردّدًا: "ليتني أستطيع التوبة عنهم!". ولكم سكب من دموعٍ، واستدرّ من دموع مستمعيه، عندما كان يجول الهالكون بخاطره، وهو على منبر الوعظ، وما أحرّ صلواته وأكثرها، وما أقسى تضحياته من أجل ارتداد الخطأة!. هذا ما أكّده الكونت، عمدة أرس: "إنّ غيرته على خلاص النفوس الخاطئة هي التي دفعته، مدى عمرٍ طويلٍ، على مواصلة خدمةٍ مرهقةٍ، بلا هوادةٍ، وبلا تحفّظٍ، ولا مراعاةٍ للذات، وجعلته ينهض عند منتصف الليل، وينـــزوي في الكنيسة التي لا يغادرها إلاّ في وقتٍ متأخّرٍ من الليل. لقد حرمته غيرته النومَ حرمانًا يكاد يكون كلّيًّا، ولكنّها لم تنل من صبره الصامد، وسط مضايقات تهدّ الأعصاب".

كان يحيط الخطأة بأعذب عطفٍ، ولكنّه لم يتهاون، قطّ، بشأن الخطيئة. ولم يكن يحلّ مرتكبيها منها، إلاّ بعد التثبّت من صدق ندمهم وتوبتهم. غير أنّه، شيئًا فشيئًا، أدرك مدى الوهن البشريّ، وازداد رأفةً، وتضاءلت قسوته في امتحان ضحايا الضعف. ولكنّه لم يتخلّ عن صرامته حيال المصمّمين على اقتراف الخطيئة، وظلّ يقتضي منهم إثباتًا لتوبتهم، وتضحياتٍ تكفيريّةً باهظةً. فعلى سبيل الشاهد، تلكّأ في منح الحلّ لامرأةٍ قبل حرقها كلّ ما حوته مكتبتها من مؤلّفاتٍ تحتوي على كفرٍ أو رذيلةٍ.

كان يقيس الكفّارات التي يفرضها بمعيار نوايا المعترفين، لا بجسامة خطاياهم. وكان، قبل منح بركة الحلّ، يدعو، في حالاتٍ معيّنةٍ إلى سلسلةٍ من الحوارات مع التائبين، كي يرسّخ في نفوسهم القناعات، ويوطّد المقاصد الصالحة. وكثيرًا ما يقتضي انفصالاً نهائيًّا عن شخصٍ، أو شريكٍ في الشرّ؛ أو التخلّي عن مهنةٍ مهلكةٍ، أو التوقّف عن ممارساتٍ ذميمةٍ. وكان، أحيانًا، يمنع الاقتراب من مائدة الإفخارستيّا، فترةً محدّدةً، ورغم مقته الشديد للخطيئة، كان شديد الرأفة بمن لمس لديهم توبةً صادقةً، ونيّة اصطلاحٍ حقيقيّةً.

وبالإجمال، كانت نصائحه في كرسيّ الاعتراف مقتضبةً، واضحةً، لا تحتمل

اعتراضًا أو مساومةً، وكان حسبه إشهار الصليب في وجه المعترفين كي يقضي على تردّدهم.

وقد شكا له، يومًا، كاهنٌ عُقْمَ مساعيه لردّ الخطأة، ودفعهم إلى توبةٍ حقيقيّةٍ، فلم يتردّد القدّيس باستيضاحه: "هل وعظتَ وصلّيتَ بالقدر الكافي؟ وهل صمتَ، وضحّيت بذاتك، ورقدتَ على الحضيض؟ ما دمتَ لم تفعلْ ذلك، فلا حقّ لك بالشكوى".

وقد أقرّ الذين عرفوه أنّ كلمةً واحدةً منه كانت كافيةً لإشاعة السكون في نفسٍ قلقةٍ ومضطربةٍ، ولدفع الكسالى إلى العمل الدؤوب، والمتردّدين إلى التفاني.

وكانت بعض مواقفه الصامتة درسًا بليغًا لا يُنسى. فقد انضمّت فتاةٌ إلى جماعة حجّاجٍ قادمين إلى أرس. وفي أثناء الطريق شاركت رفاقها بهجتهم وأحاديثهم التي تناولت شؤونًا اجتماعيّةً تافهةً. ووصلت إلى أرس حين كان الخوري يحتفل بالذبيحة الإلهيّة، ثمّ انضمّت إلى الجاثين أمام الهيكل لتقبّل الأسرار، وأعطى الكاهن سرّ الحياة للآخرين، ولكنّه لما انتهى إليها أخذ قربانةً مكرّسةً ورفعها عاليًا وتلكّأ في منحها للفتاة، التي اجتاحتها كلّ أصناف الشكوك. وتلقائيًّا تلت أفعال الإيمان والرجاء والمحبّة. وعندئذٍ أخفض الكاهن يده، ووضع القربانة على لسانها. ولّما التقاها بعد القدّاس، قال لها: "يا ابنتي، من لم يتلُ صلاة الصباح، وتلهّى بالأحاديث السخيفة في الطريق ليس مستعدًّا لتلقّي المناولة".

والتمست منه سيّدةٌ السماح لها بالتناول المتواتر، مع كونها ضحيلة الإدراك لمعنى الأسرار، ففرض عليها، بمثابة كفّارةٍ، الطلب من كاهن رعيّتها إطلاعها على التعاليم المتعلّقة بالأسرار، والاستعدادات اللازمة لتقبّلها. ومع أنّ السيّدة لم تكن راغبةً في طلب ذلك من خادم رعيّتها، التزمت بكفّارة الخوري القدّيس. وتفاديًا لإحراجها أعطاها كاهن رعيّتها كتابين، وأرشدها إلى الصفحات التي يحسن تصفّحها وتمثّلها. ولم تكتفِ السيّدة بالتصفّح بل استظهرت الصفحات المذكورة، ولّما أعادت الكتابين

عبّرت عن سعادتها بالكفّارة التي فرضها عليها خوري أرس، لأنّها أتاحت لها الاطّلاع على معلوماتٍ ثمينةٍ، جزيلة الفائدة، كانت غريبةً عن ذهنها.

وعن تناول الأسرار المتواتر، يقول خوري أرس: "عندما شاء الله أن يعطي نفوسنا غذاءً كفيلاً بدعمها، في أثناء حجّها الأرضيّ، أجال نظره في الخليقة، ولم يجد ما يليق بنفوسنا، فانكفأ على ذاته، وأعطى ذاته... ما أعظمك، يا نفسي، فلا شيء يرويك سوى الله، وغذاؤك هو جسد الله ودمه! يا له من غذاءٍ رائعٍ، لا تستطيع النفس التغذّي إلاّ به. وليس سوى الله بقادرٍ على إشباع جوعك. النفس بحاجةٍ مطلقةٍ إلى الله. وما أسعد النفوس الطاهرة التي تتّحد بالله من خلال المناولة...!".

وقد أرست مثابرته على حضّ مؤمنين ومكرّسين على تناول الأسرار تناولاً متواترًا، في تعميم هذه الممارسة، التي أحدثت، أيضًا تطوّرًا إيجابيًّا ظاهرًا، في روحانيّة رعايا أخرى، دأب أبناؤها على التناول المتواتر وأذهلوا رعاتهم. بما أحرزوا من ترقٍّ في معارج التقوى.

كان موقنًا أنّ الله أسرع في الغفران لتائبٍ من مسارعة أُمٍّ إلى انتشال ابنها من النار. وكانت دموعه وتأوّهاته الوجيعة تأخذ بكلّ أوتار قلوب المعترفين، وتدفعهم دفعًا لا يُقاوَم إلى توبةٍ سحيقةٍ. ويضاعف هذا الشعور فيهم عطفه الطافح، ومخاطبته لهم بأسماءٍ محبّبةٍ: "يا صديقي"، "يا بنيّ"، "يا صغيرتي"... وقد أجمع قاصدو كرسيّ اعترافه على الإقرار بأنّه كان يصيب مرمًى في أعماق نفوسهم. فقد كان ينفعل وهو يصغي إليهم، ويبكي خطاياهم، وكأنّه هو من اقترفها، وكانت دموعه هي التحريض الأشدّ تأثيرًا عليهم.

وكان حَسْبَ المعترف، أحيانًا، التفوّه ببضع كلماتٍ حتّى يدرك الكاهن كلّ ما يعتزم الراكع أمامه الإقرار به، والذي لم يكن قد عثر على صيغةٍ للتعبير عنه، أو لم يكن قد استوعب خطره استيعابًا كافيًا. وبالمقابل، كان الكاهن يوجز نصحه بكلمةٍ، بعبارةٍ، بسؤالٍ مباشرٍ، أو بنصيحةٍ.

صورة رأس المصلوب المكلّل بالشوك المعلّقة في كرسيّ اعترافه

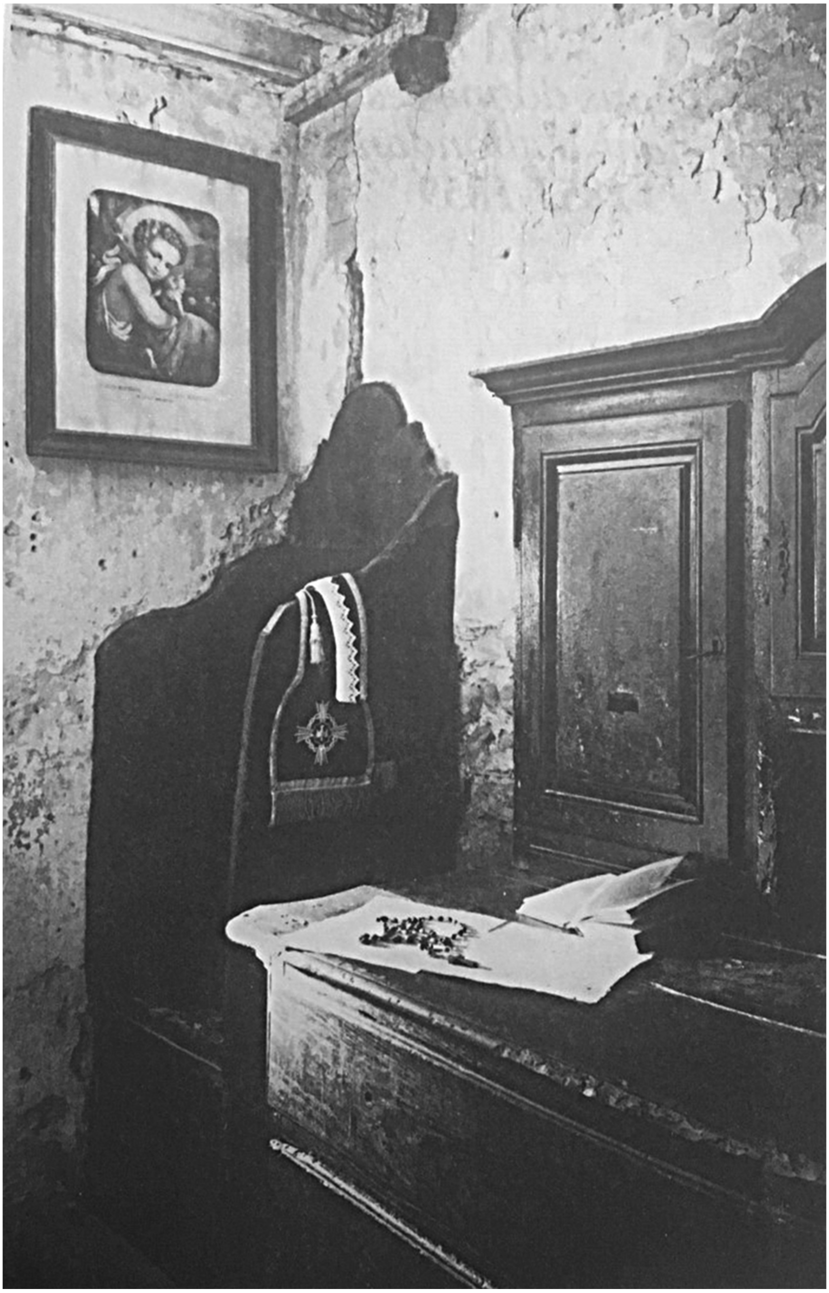

السكرستيّا وكرسيّ الاعتراف

وكانت موهبة التمييز التي حظي بها، كاريسما فعّالةً، وأنجع عونٍ له على النفاذ إلى مكامن القلوب. فنظرته الصافية، الثاقبة، كانت ترى ما لا تراه العين، وتوحي للراكعين في كرسيّ اعترافه ثقةً بلا حدودٍ، وكأنّ أشعّة نورٍ كانت تشعّ منه، وتكشف لهم زوايا مظلمةً في داخلهم، وتدعوهم إلى مكافحة عيوبهم، وميولهم الذميمة، والعزوف عن دروب الخطيئة.

ولا ريب أنّه كان يستمدّ سعادةً غامرةً بمساهمته في إنقاذ نفوسٍ، ويتذوّق عزاءً في ردّ خطأةٍ إلى الله. غير أنّ غوصه في مستنقع الخطايا التي كانت تنصبّ على مسامعه كان يغرقه في لجّةٍ من الاضطراب النفسيّ. وقد باح لأحد المقرّبين منه: "لا تسمع أذني سوى أشياء قبيحةٍ، ترهق خيالي. في شبابي كنت أجهل الشرّ، ولم أُحَط به علمًا إلاّ بعد أن أصبحت كاهنًا. ولم يعدْ يتسنّى لي وقتٌ كي أدعو الله مثلما أرغب. وبتّ أخشى أن أُدان وأهلك". وربّما كان هذا الضيق هو الذي يسرّب إليه رغبةً ملحّةً في التخلّي عن مهمّته، والاعتكاف في منسكٍ يتفرّغ فيه للتأمّل والصلاة، وما كان يدعوه "بكاء حياته البائسة".

لقد تبيّن للجميع أنّ أسلوب تعريف الأب "فـيانّي" هو الأنجع والأكثر استقطابًا وتأثيرًا. ومن ثمّ منحه الأُسقف حقّ التعريف في كلّ الرعايا التابعة لسلطته، كما منحه حقّ حلّ القضايا المحصورة بالأُسقف. ولكنّ جماعةً من الكهنة اعترضوا على هذا الامتياز مدّعين أنّ خوري أرس مصابٌ بضربٍ من الجنون. وردّ عليهم الأُسقف بقوله: "أتمنّى لكلٍّ منكم شيئًا من هذا الجنون الذي تدّعونه للتهكّم بالخوري القدّيس. وإنّي لواثقٌ بأنّ ذرّة جنونٍ لا تُنقص من حكمتكم شيئًا. وجديرٌ بجميعنا احترام الأب "فـيانّي" والتمثّل به".

واتّفق أن نُظّمت رياضةٌ روحيّةٌ للكهنة عام ١٨٣٥، وانتظم فيها خوري أرس، فقال له الأُسقف: "أنت لست بحاجةٍ إلى رياضةٍ. ففي أرس خطأةٌ هم في أشدّ حاجةٍ إليك".

وقد اتّضح أنّ من أسرار انجذاب التائبين إلى كرسيّ اعتراف الأب "ڤــيانّي"، هو إشعاع الروح القدس منه. فقد كان قد أفرغ ذاته من ذاته، فملأه الروح القدس بذاته. هذا الواقع أوجزته معاونته "كاترين لاسّانيي" بقولها: "كان، في نظر ذاته، من الصغر والامّحاء، بحيث كان يروق للروح القدس أن يردم هذا الفراغ بفيضٍ من الأنوار المدهشة".

وكان أُستاذ فلسفةٍ قد ردّ على صديقٍ له ادّعى أن ليس لدى الأب "ڤــيانّي" سوى القداسة، بقوله: "بل فيه أنوارٌ عظيمةٌ، تتفجّر من أحاديثه في شتّى المواضيع. آه! كم هو صحيحٌ، وجميلٌ ما يُرى بواسطة الروح القدس! وإلى أيّ سموٍّ من المشاعر والتفكير، يرتقي بنا الإيمان!".

وكانت موهبة قراءة خفايا النوايا التي ينعم بها، تساعده على اتّخاذ الموقف السليم، وإسداء النصح الملائم. فقد جاءه رجلٌ مدّعيًا الإلحاد، والرغبة في محادثته خارج كرسيّ الاعتراف، وأنّه إنّما قصده بدافع الفضول والنقاش، لا غير. وسارع الكاهن إلى الردّ بأنّه ليس فيلسوفًا ولا مفكّرًا، وأنّ سماع الاعترافات هي المهمّة الوحيدة التي يجيدها. ودعاه إلى الركوع، فامتثل، ونهض إنسانًا آخر، متحوّلاً. ثمّ أمره بالتناول، مضيفًا: "لا تحتجّ بأنّك غير مستأهلٍ. فأنت، حقًّا، غير مستأهلٍ، ولكنّك بحاجةٍ ملحّةٍ إلى المناولة!". وعديدةٌ هي الحالات المماثلة.

ولم يكن تأثير إرشاده ناجمًا فقط عن فحواه، بل كان لأسلوبه نصيبٌ راجحٌ. فإرشاده لم يكن كلامًا فحسب، بل كان روحًا، وكان نفسًا قدّيسةً، مفعمةً إيمانًا وحبًّا، تسكب ذاتها، وتُشعِر باتّصالها المباشر، وبإشعاعها على كلّ الذات. وكان المستمع، حينئذٍ، يرقى فوق الأرض، وينتقل إلى السماء مصدر التعاليم والأسرار. وكانت كلّ عبارةٍ يتفوّه بها تفتح آفاقًا قشيبةً.

كان يأتيه غرباء مثقلين بتعاليم العصر وميوله ورغباته، ولكنّهم منذ سماعهم له، يذهلون، وتعتمل أفكارٌ جديدةٌ في نفوسهم، نافذةً إلى أعماقهم، مسرّبةً إليها

الاقتناع والإيمان. أقواله النابعة من قداسته كانت تحرق وتشعّ. لم تكن سحرًا عابرًا، بل كانت سيطرةً على النفس، تقودها إلى الله. وكان تأثيره يطال، على السواء، نفوس أبناء رعيّته البسطاء، والزائرين العابرين، وشخصيّاتٍ مدنيّةً ودينيّةً ذائعة الشهرة في فرنسا وأوروبا والعالم.

أقواله كانت تذهل وتشيع الرعشة. كانت تحدّيًا صارخًا للعصر، يبدأ بإدهاش المستمع الذي لا يلبث أن ينتابه تأثّرٌ عميقٌ ورقيقٌ، فتسيل دموعه تلقائيًّا.

ما من بلاغةٍ استدرّت هذا القدر من الدموع، وما من أقوالٍ نفذت إلى أغوار القلوب مثل كلامه. فحتّى أشدّ القلوب تحجّرًا كانت تذوب ذوبان الشمع بفعل حرارة أقواله، التي كانت تحرق، وتشعّ، وتنتصر. ولم تكتفِ بافتتان الروح، بل كانت تسيطر على نفوس وتقتادها إلى الله، لا عبر النقاش والإقناع، بل على دروب التأثير المختصرة، التي تصيب هدفها مباشرةً.

كان يصف لكلّ خطيئةٍ الكفّارة الشافية الملائمة. فالرجال الذين كان يدفعهم إلى خطيئة الإهمال حياؤهم البشريّ، كان يقتضي منهم الصلاة ركوعًا أمام جموع المؤمنين، وعدم الاستحياء من إمساك مسبحةٍ ظاهرةٍ بيدهم. وكان، غالبًا، هو من يهديهم هذه المسبحة. ومن ثمّ شاعت رؤية رجالٍ اكتسح الشيب رؤوسهم، وكانوا قد طالما هجروا الكنيسة، وأهملوا الصلاة، راكعين على أرض الكنيسة، ممسكين بمسبحةٍ يكرّون حبّاتها بخشوعٍ مدهشٍ.

أمّا الشابّات اللواتي كان يتوسّم فيهنّ دعوةً ساميةً، فكان يعدّهنّ لها، بتحريرهنّ من الزهو بالذات الكفيل بجرّهنّ إلى كبرياء تحول دون غايتهنّ. وكان قد توسّم نفسًا مختارةً في فتاةٍ أصبحت، لاحقًا، راهبةً ومؤسِّسة جمعيّة راهباتٍ، ودأب على إعدادها لرسالتها النبيلة، فأمرها بالركوع باسطةً ذراعيها على شكل صليبٍ، عند عتبة الكنيسة، آن خروج المؤمنين منها.

ومع تقدّمه في السنّ نزع إلى اقتضاء كفّاراتٍ طفيفةٍ من خطأةٍ لمس لديهم توبةً راسخةً. ولمّا استفسره زملاء له عن هذه النــزعة، كان يجيب: "حسب هؤلاء ما تكبّدوه من عناءٍ وتضحياتٍ، فلا مبرّر لأن أُثقل العبء عليهم. وبما أنّهم صادقون في توبتهم، أقتضي منهم كفّاراتٍ طفيفةً، وأتولّى بنفسي التكفير الكامل".

ولم ينجُ مدمنو الخمرة من تأثيره الشافي. فقد استوضحه كاهنٌ هل تعامل مع سكّيرين، فروى له أنّ سيّدةً جاءته فرحةً شاكرةً، وأخبرته أنّها كانت، من قبلُ، غارقةً في التعاسة، وضحيّة زوجٍ سكّيرٍ يطعمها من اللطمات أكثر ممّا يطعمها خبزًا، ولكنّه، مذ قابل خوري أرس تحوّل إلى مثل حملٍ وديعٍ. وأفاد كاهنٌ آخر أن أحد أبناء رعيّته كان مدمنًا على السكر، وقُيِّض له الحجّ إلى أرس. ومنذئذٍ وطّن العزم على انتباذ كلّ سكرٍ. ولهذه الغاية كان يسلك إلى الكنيسة طريقًا طويلاً متعرّجًا، حرصًا على تفادي المرور قرب حانةٍ، والتعرُّض للتجربة. وما أكثر عبيد السكر الذين حرّرهم خوري أرس، فانقلبوا نماذج استقامةٍ وتقوًى! وما أكثر الأُسر المفكّكة التي استعادت، بفضله، التناغم والمحبّة المتبادلة! وكم من متكبّرٍ متشكّكٍ تحوّل إلى الإيمان والتواضع، وكم من ماجنٍ لاذ إلى عزلة ديرٍ!

أَشفِيَةٌ روحِيّةٌ وجسَديّةٌ

في مدينة ليون كان مهندسٌ لا تكفّ زوجته تلومه على تصرّفاته الذميمة. وذات صباحٍ، إثر نقاشٍ حادٍّ بينهما، صفق باب البيت صائحًا: "لن تريني، بعدُ، أبدًا". ولدى وصوله إلى ساحة المدينة، شاهد عربةً دُوِّن عليها: "بوسطة أرس". فسأل أحد الركّاب: "ما هي أرس هذه؟". فقيل له إنّها قريةٌ فيها كاهنٌ مدهشٌ يقصده الناس من كلّ صوبٍ. ودفعه الفضول والرغبة في الترويح عن نفسه، إلى امتطاء العربة التي انطلقت في الحال، بغية الوصول إلى أرس قبيْل بدء جلسة التعليم الدينيّ التي كان يستهلّها الخوري في الساعة الحادية عشرة. ودخل المهندس إلى الكنيسة، واستمع إلى الخوري القدّيس، فقلب ما سمعه منه كلّ كيانه. ثمّ صادف مرسلاً، له به معرفةٌ، فأقرّ له: "إنّ هذا الكاهن غارقٌ بكلّيّته في الله، وأقواله ملتهبةٌ، وإذا تسنّى لي سماعه مرّةً أُخرى، فسأغطس أنا أيضًا". وشجّعه المرسل على تلبية نداء قلبه. وبعد ظهر ذلك اليوم عينه، خرج الرجل من كرسيّ اعتراف خوري أرس، وقد تبدّل تبدّلاً جذريًّا، وغمره شعورٌ بأنّه أسعد بني البشر. ونظير الابن الشاطر، العاقّ، عاد إلى البيت، وارتمى بين ذراعي تلك التي كان قد هدّدها بألاّ يراها أبدًا. وكان إنسانًا آخر.

وكان قد حدث ارتدادٌ مدوٍّ آخر، لنحو عشر سنواتٍ خلت، لأستاذٍ في معهد الفنون في ليون، وكان، في الآن عينه، عالمًا في طبقات الأرض، ذائع الصيت، يدعى "ميسّيات" (Maissiat)، ويطلق على نفسه لقب "الفيلسوف"، ويعلن أنّه لا يؤمن إلاّ بالعقل. كانت رحلة صباه قد درجت في جوٍّ كاثوليكيٍّ ملتزمٍ، ثمّ فقد الإيمان، واعتنق على التوالي الإسلام، واليهوديّة، والبروتستانتيّة، ومناجاة الأرواح، وبعد اختباره شتّى البدع، انتمى إلى الشيوعيّة. وفي شهر حزيران من عام ١٨٤١، خطر له أن يقضي عطلةً في منطقة "بوجوليه" الجبليّة، المكسوّة بكروم العنب.

وجمعته الصدفة، داخل عربة نقلٍ، بصديقٍ قديمٍ، كان معتزمًا الحجّ إلى أرس، ودعاه إلى مرافقته إلى تلك القرية حيث سيتسنّى له رؤية كاهنٍ يحقّق معجزاتٍ. وسارع الفيلسوف بالردّ بأنّه لا يؤمن بالعجائب والمعجزات. ولكنّ صديقه ألحّ في دعوته، واعتبارها مجرّد نزهةٍ. وامتثل الفيلسوف، مبرّرًا قبوله باستساغته لفظة "أرس"، بما أنّه فنّانٌ. وفي الغداة حضر القدّاس بدافع الفضول، وفيما كان الخوري قادمًا إلى الهيكل، رمقه بنظرةٍ ثاقبةٍ. وما إن فرغ من إقامة القدّاس حتّى عاد إليه وحطّ يده على كتفه ودعاه إلى اتّباعه. ولدى دخولهما إلى السكرستيّا أشار إليه بالركوع في كرسيّ الاعتراف. فجفل الرجل، وتمنّع، ولكنّ الكاهن رماه بنظرةٍ أصابته في الصميم. فهبط على ركبتيه، وهو يجيل في خاطره أنّ لا ضير عليه بما أنّه بمنأًى عن الأبصار. وبلا شعورٍ أخذ يسرد مراحل حياته المتقلّبة، واكتفى الكاهن بالإصغاء إليه، وبما أنّه لم يلمس لديه مشاعر توبةٍ، قال له: "ارجع إلى هنا غدًا. وفي هذه الأثناء، توقّفْ عند مزار القدّيسة فيلومينا، والتمسْ منها أن تطلب من الله ارتدادك". وامتثل الفيلسوف، بلا اعتراضٍ، ووقف أمام صورة القدّيسة، وإذ بمآقيه تفيض دموعًا. فاخترق الحشود المتراصّة، وخرج من الكنيسة، باكيًا. وقد أقرّ، لاحقًا: "كم آتتني تلك الدموع سعادةً!". وتبخّرت من ذهنه الرغبة في التنــزّه بين تلال "بوجوليه". ومنذ استيقاظه في الصباح التالي، هرع إلى الكنيسة، تحدوه النعمة، وأقرّ أمام الكاهن: "أنا لا أومن بشيءٍ، فساعدني، يا أبتِ". وظلّ القدّيس يحاوره على امتداد تسعة أيّامٍ. ولّما عاد إلى ليون كانت نفسه آهلةً بالإيمان، ولم يستحيِ من إعلان إيمانه هذا أمام زملائه الأساتذة والفلاسفة، وأنهى مسيرته الأرضيّة، مؤمنًا ملتزمًا، ونموذجًا للورع والتواضع.

وتوالت سلسلة الارتدادات العجيبة. ففي منتصف شهر تشرين الثاني من عام ١٨٥٥، حلّت في فندقٍ بأرس سيّدةٌ، وابنها الشابّ العليل المدعوّ "سيلــڤـــان"، الذي كان قد امتهن الحياة العسكريّة، في سنّ السادسة عشرة، وتوغّل في المجون،

فاعتلّت رئتاه، وأُعفي من الخدمة. وفيما كان، ذات يومٍ، مارًّا بأحد شوارع "مونـــپـــلييه"، لمح صورة الخوري القدّيس، فسخر منها. ولكنّ شقيقته التي كانت ترافقه، عاتبته، وهمست في أُذنه: "ربّما ستنال الشفاء، إذا وثقتَ في هذا القدّيس". فأمعن في السخريّة. وفي تلك الليلة، رأى، في الحلم، خوري أرس حاملاً تفّاحةً تعفّن نصفها. وأقضّ هذا الحلم مضجعه. فطلب الشخوص إلى أرس. وتنامى أمره إلى الكاهن القدّيس، فدأب على زيارته وإرشاده، كلّ صباحٍ، في فندقه. وفي يوم السبت الثامن من كانون الأوّل، الموافق لعيد الحبل بالعذراء بلا دنسٍ، كانت التوبة قد أخذت بكلّ نفس الشابّ، فجيء به إلى الكنيسة، وبما أنّ البرد كان قارسًا، حُمل إلى قرب المدفأة. وعندما حلّه الكاهن من خطاياه وباركه، هتف: "ما أسعدني! لم أتذوّق مثل هذه السعادة، طوال حياتي". ولّما أُعيد إلى الفندق ارتمى بين ذراعي والدته، وأقرّ، باكيًا: "إنّ فرحي بهذه المناولة أنساني كلّ آلامي. لم أعد أُطيق البعاد عن هذا القدّيس، وأودّ الموت هنا!". وفي تلك الليلة عينها لقي وجه ربّه.

وعام ١٨٥٩، احتال على بحّارٍ خاطئٍ متصلّب النفس أصدقاؤه، وجاؤوا به إلى أرس. وما إن هو شاهد الكنيسة الغاصّة بالحجّاج، وكرسيّ الاعتراف المحاصر بالتائبين حتّى اتّضحت له خديعة رفاقه، فانهال عليهم شتمًا، واعتزم مغادرة القرية في الحال. ولكنّهم جهدوا في تهدئة روعه، محتجّين بأنّ حلول الليل يحول دون مغادرتهم، فلا مفرّ من قضاء الليل في تلك القرية اللعينة. غير أنّ أحدهم أبلغ الخوري بوجود تلك "السمكة الضخمة". ولّما فرغ الكاهن من خدماته في الكنيسة، وافى إلى حيث كان البحّار يبيت، فصاح هذا الأخير في وجهه: "أنا لست هنا كي أمارس سخافاتٍ تقويّةً، وأتمنّى مغادرة هذا المكان في أقرب مهلةٍ، فدعوني وشأني!". ولكنّ الخوري أمسك بيده، وقال له برقّةٍ: "ألا تريد أن ترأف بنفسك؟"، ومضى.

لم يدرِ أحدٌ ما الذي حدث، ليلاً. بيد أنّ البحّار، في صباح الغد، مَثُل بين يدي الخوري، وعيناه مغرورقتان بالدموع، وبين يديه صليبٌ، وقد تجلّت عليه أمارات

توبةٍ صادقةٍ. وقد سرت شائعةٌ تقول إنّ الكاهن أسرّ للبحّار بأنّ المعرّف والتائب سينتهيان إلى القبر في موعدين متقاربين. وبعد مضيّ أيّامٍ على وفاة الكاهن، وُجد البحّار راكعًا فوق سريره، فاقدًا الحياة.

ونُنهي هذا الفصل بالرواية التالية: في يومٍ خريفيٍّ من عام ١٨٥٢، أَمَّ أرس عاملُ جصٍّ، في الثانية والثلاثين من العمر، طافحٌ بالعزيمة، مرتدٍ زيّ الصيّادين، مشرعًا بندقيّته، وفي إثره كلبُ صيدٍ رائعٌ. وكان صديقه الذي يرافقه قد همس في أُذنه: "هيّا نمضِ إلى أرس غدًا. فهناك كاهنٌ يحقّق معجزاتٍ، ويعرّف الخطأة ليلَ نهار، وهو يستأهل أن نراه". فأجابه الصيّاد متهكّمًا:

– "أوَتنوي أن...

– "لِمَ لا؟

– "هذا شأنك. أنا سأرافقك. وبعد مشاهدتي هذا الكاهن "الرائع"، سأمضي لأصطاد بضع بطّاتٍ في المستنقعات المجاورة. ولك أنت أن تعترف إذا شئت". وفيما كان المسافران يدخلان القرية، كان الخوري يجتاز فناء الكنيسة، وسط سورين من الحجّاج، موزّعًا البركات ببطءٍ. وكان الصيّاد قد اندسّ بين الجمع، ولمّا اقترب منه الكاهن القدّيس توقّف، وطاف بنظره بينه وبين كلبه. ثمّ قال له بنبرةٍ طافحةٍ وقارًا: "كم أتمنّى أن تكون نفسك، في مثل جمال كلبك!". فخجل الرجل، وأطرق صامتًا، وجال بخاطره أنّ كلبه بقي على نحو ما خلقه الله، وفيًّا، نشيطًا، فيما هو دمّر، في نفسه، عمل الله... هذه الخاطرة رانت بثقلٍ على ذهنه. وانتهى بإيداع بندقيّته وكلبه لدى أبناء القرية، ومضى فارتمى جاثيًا في كرسيّ اعتراف الأب "فــيانّي"، مبلّلاً وجهه بدموعه المدرارة. فقد أدرك ثمن نفسه، وبطلان العالم، وجدّيّة الحياة؛ وأخيرًا اعتزم اعتناق الحياة المكرّسة للعبادة. وفعلاً لم يلبث أن قرع باب دير رهبانٍ، يوم ١٨ كانون الأوّل ١٨٥٢. وبعد سنةٍ أعلن نذوره، ولقي وجه ربّه عقب مسيرةٍ تفوح منها القداسة، يوم ١٨/١٢/١٨٨٨.

غِيرةٌ وانتقـَادات

تكاثف حركة الحجّ إلى أرس، بغية الظفر ببركة خوريها القدّيس، سعّر غيرة فئةٍ من الكهنة المزدهين بطلاء علمهم السطحيّ، والذين عجزوا عن استيعاب سرّ القداسة الذي يجتذب آلاف المؤمنين، ناشدي الاسترشاد، والاستعانة بكاهنٍ ضئيل الزاد من العلم، قرويّ المظهر، رثّ الهندام، كانوا، هم، يصفونه بغرابة الأطوار، ويدّعون تصنّعه هذا المظهر والحرص عليه، بقصد لفت الأنظار، وتغطية هزال علمه... في حين كانت للمؤمنين نظرةٌ أخرى. فقد كانوا يتوسّمون فيه نمطًا مختلفًا وأصيلاً من الكهنة، متميّزًا عن سواه، ويستشفّون، من وراء بساطة مظهره، ورثاثته أحيانًا، قداسةً ساميةً.

وقد أكّد القائمون على خدمته حرصه على نظافته الشخصيّة، التي كان يطمسها تجرّده، وإهماله لمظهره الخارجيّ، ولمقتضيات العيش الراقية المألوفة، بدافع تواضعه وزهده، اللذين حرّراه من حرج ارتداء ثوبٍ بالٍ، وقبّعةٍ عتيقةٍ، وأحذيةٍ مرقّعةٍ، لا عهد لها بطلاءٍ، كما حرّراه من استحياء المشاركة في الاجتماعات الكهنوتيّة بهذا المنظر الزريّ. وكان من البدَهيّ أن يعزو كهنةٌ آخرون حريصون، بل مغالون في الحرص على أناقة مظهرهم الخارجيّ، إهماله لمظهره إلى مجموعةٍ من العيوب تراوحت بين اللامبالاة والبخل، والرياء، ووَهن الحكم، ونيّةٍ مبيَّتةٍ في لفت الأنظار. ومن ثمّ أبدى له بعضٌ من إخوانه الكهنة نفورًا، بل اشمئزازًا، عبّروا عنهما قولاً وفعلاً. فكان أحدهم، في أثناء اجتماعات كهنة الأبرشيّة الدوريّة، يرفض الجلوس إلى جانبه، ما لم يستبدل قبّعته الرثّة بأُخرى جديدةٍ. وكان بعضهم يرشقونه بمزاحٍ جارحٍ، يأخذه، هو، مأخذ الدعابة، وكان يردّ أحيانًا: "حسبكم ذكر "خوري أرس"، كي يدرك المستمعون مآخذكم عليه!".

غير أنّ أصحاب البصائر الثاقبة كانوا يدركون سموّ الفضائل المتوارية وراء

مظاهره الزريّة. ومن هؤلاء أُسقف "بيلّي" (Belley)، الذي كان يحرص على إجلاسه إلى جانبه، بمناسبة ختام الاجتماعات الأبرشيّة، كي يعوّضه، ولو بعض التعويض، عن الافتراءات القذرة التي تُلصَق به افتئاتًا.

وكان الكاهن القدّيس قد بلغ مرحلة اللامبالاة بانتقاد مظهره الخارجيّ، بعد أن اقترن بالفقر على غرار فرنسيس الأسّيزي وآخرين، ولم تعد رثاثة مظهره تسرّب إلى نفسه أيّ شعورٍ بالاستحياء. غير أنّ ما جرحه في الصميم هو مشاركة كهنةٍ في تشويه سمعة زهده وعفّته، ومحاولة بعضهم ردع تائبين عن كرسيّ اعترافه، مدّعين أنّهم كانوا كفيلين بالتغاضي عن رثاثة مظهره، لو كان هو قد سعى إلى ردم هوّة جهله اللاهوتيّ الذي لم يؤهّله إلاّ إلى خدمة أصغر رعيّةٍ، وأوضعها.

وادّعى منتقدوه أنّ قاصدي كرسيّ اعترافه هم سذّجٌ نظيره، وأنّ الإرشادات التي يسديها ليست سوى خبرة النفوس التي أكسبته إيّاها السنون، والمتوفّرة لدى أيّ كاهنٍ؛ وأنّه لا يملك شيئًا يتفرّد به، وأنّ موجات الحجّ إلى أرس للاستماع إليه ليست سوى سخافةٍ وفضيحةٍ لا بدّ من وضع حدٍّ لها.

ومن ثمّ تجرّأ كهنة بعض الرعايا الأخرى على منع مؤمنيهم من الحجّ إلى أرس، تحت طائلة حرمانهم من الغفران. وبلغت قحة بعضهم أن أعلنوا هذا الحظر من على منابر وعظهم. وقد استلّ بعضهم أقلامهم المسنونة، وتسلّحوا بفصاحتهم، كي يقنعوا الأُسقف بالأخطار المحيقة بنفوسٍ مسكينةٍ، غرّرت بها شهرة خوري أرس الزائفة، وكانت حجّتهم الرئيسة جهله المطبق.

وفي هذا المجال لا بدّ من الإقرار بأنّ ذلك الخوري القدّيس لم يساوره، قطّ، فضولٌ أدبيٌّ، ولم تجتذبه متعة المطالعة، ولم يكن يطالع حتّى من الصحف إلاّ تلك التي تتناول قضايا دينيّةً ولاهوتيّةً. وجديرٌ بالتذكير أنّه، في صغره وصباه، قد افتقر إلى الدراسة المنتظمة، ولّما أقدم على الدراسة، تمهيدًا للكهنوت، تضافرت الظروف على بلبلة دراسته التي اجتازت فترات انقطاعٍ قسريٍّ، واستئنافٍ متعثّرٍ، فضلاً عن صعوبة استيعابه اللغة

اللاتينيّة. ومع ذلك بذل جهودًا بطوليّةً في سبيل الظفر بما يؤهّله للسيامة الكهنوتيّة، واطّلع على مؤلّفات كبار الكتّاب والشعراء، غير أنّها لم تلقَ من نفسه حماسًا، ويتّضح من عظاته أنّها لم تخلّف في ذاكرته كبير أثرٍ، فهو لم يستشهد، يومًا، بمقطعٍ منها.

بيد أنّه لا تسوغ المغالاة في وصفه بالجهل، مع أنّه، في تواضعه المفرط، اعترف بهزال زاده من العلم، وبالصعوبة التي واجهها في الدراسة، وبأنّه الأقلّ علمًا بين إخوته الكهنة. ولكنّ وهن علمه لم يُنقصْ ولو ذرّةً من حبّه لله وللنفوس، ومن اندفاعه إلى الخدمة. وقد اعترف العديد من مستمعيه المثقّفين أنّه كان يعظ ويرشد بلغةٍ فرنسيّةٍ سليمةٍ، مجرّدةٍ من أساليب البلاغة، ولكنّها بليغة التأثير. وقد شهدت سيّدةٌ رفيعة الثقافة: "لم يكن يملك ما يدعوه العامّة عبقريّةً، ولكنّ ذكاءه كان يتمتّع بقدرٍ وافٍ من الرهافة والوضوح". وشهد آخرون أنّهم سمعوه يروي ما لم يسمعوه من أحدٍ، وما لم يقرأوه في أيّ كتابٍ.

وكان أحد أشهر وُعّاظ فرنسا، الأب "لاكوردير" قد جذبته إلى أرس شهرة قداسة خوريها، وتسنّى له سماع إحدى عظاته، فصرّح، بعدما تبيّن عمق تأثيرها فيه، وفي المؤمنين: "أتمنّى أن أعظ مثله!".

ومن المحقّق أنّه كان يُعِدّ عظاته بجهدٍ وعنايةٍ، وأنّها خلت دائمًا من كلّ خطأٍ عقائديٍّ، وأنّه لم يكفّ، يومًا، عن إعادة مطالعة مراجعه الدينيّة واللاهوتيّة، وسِيَر القدّيسين، حتّى تمثّل بعمقٍ جوهر اللاهوت، وقد احتوت عظاته أقوالاً رائعةً، عن مواضيع جوهريّةٍ، مثل الإفخارستيّا، وعظمة الكهنوت، ووساطة السيّدة العذراء، ولم تتدنَّ أقواله، عمقًا، عن أقوال آباء الكنيسة. وسنفرد صفحاتٍ لأقواله، في نهاية هذا الكتاب.

وكان يجيد، فوق كلّ شيءٍ، العلم الذي جعل منه كاهنًا قدّيسًا، يحترم دعوته، ويخلص لها، ويضطلع بها أكمل اطّلاعٍ. ولا ريب أنّ القادمين للاستماع إليه، وللاسترشاد به، ما كانوا ينشدون علمًا بشريًّا، بل دواءً لنفوسهم كان يجيد

إغداقه. وفضلاً عن ذلك، امتلك علم القدّيسين الذي يحتوي أنوارًا لا تؤتيها سوى نعمةٍ هابطةٍ من العلاء.

وقد شهد كاهنٌ كان يتخبّط في حلّ مسألةٍ لاهوتيّةٍ معقّدةٍ، أنّه استشار بشأنها خوري أرس، وذُهِل للحلّ السريع المدهش الذي استنبطه ذلك الكاهن البسيط. بيُسرٍ، وتلقائيّةٍ، ودقّةٍ. أوَلم يقلْ هو ذاته: "إنّ للمنقادين للروح القدس آراءً صحيحةً. وهذا ما يفسّر وجود جهلةٍ يعرفون أكثر ممّا يعرفه كبار المثقّفين". والروح القدس يعمل في محراب النفس، بمنأًى عن الألق الخارجيّ، بلا استعجالٍ، ولا إكراهٍ، وبالتالي ظلّ كهنةٌ، متأثّرين بما عرفوه عن إخفاقاته المدوّية في دراسة اللاهوت، يتعامون عن تفوّقه في ميدان القداسة الذي يطغى على كلّ علمٍ، ولا يرون فيه سوى جاهلٍ ومتهوّرٍ يقارب القضايا الشائكة ببساطةٍ تلامس الاستهتار، ويتّخذ حيال التائبين الذين يلجأون إلى كرسيّ اعترافه مواقف موغلةً، حينًا، بالصرامة، ومغاليةً حينًا آخر، بالتغاضي، وهي عمومًا تناقض مواقف سائر الكهنة، ويصعب فهمها. ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ مثل هذه الأحكام لم يكن يُصدرها سوى الذين لم يسترشدوا بالخوري القدّيس مباشرةً، ولم يركعوا في كرسيّ اعترافه. أمّا الذين انتقدوه مواجهةً، ورأوا ردّ فعله الطافح بالتواضع والمحبّة فقد سارعوا إلى استصفاحه. وما أكثر الذين رموا السلاح الذي امتشقوه للقضاء على خوري أرس، حالما اتّصلوا به عن كثبٍ!

ولطالما عاد من أرس، من قصدوها مندّدين بتزمّت خوريها، ورجعوا مشيدين بسموّ فضائله! والذين كانوا يسخرون به، باتوا يذرّفون دموعًا حارّةً حال سماعهم عظاته، وينقلبون من أشدّ المعجبين به. وكان كهنةٌ مزدهون بعلمهم وجرأتهم في الوعظ أمام أساقفةٍ وأساتذة لاهوتٍ، ينوون إرباك خوري أرس بأسئلةٍ عويصةٍ، ولكنّهم يصابون بالرهبة حالما يحدّقون إليه، ويُرتَج عليهم. وشيئًا فشيئًا بين عامي ١٨٢٧ و١٨٤٠، تضاءلت حملات التشهير به.

وقد شنّ عليه آخر حملةٍ معروفةٍ كاهنٌ شابٌّ، نزق المزاج، جارح القول، كان قد عُيِّن خادمًا لرعيّةٍ تبعد نحو ثمانية كيلومتراتٍ عن أرس، وفوجئ، منذ وصوله إلى رعيّته الجديدة، بمواكب حجّ أبناء رعيّته إلى أرس التماسًا لإرشاد خوريها القدّيس؛ فلم يرُقْ له الأمر، واستنكره، مع جهله للأب "ڤـيانّي". وأُسوةً بخدّام رعايا أخرى ذهل عن التبشير بالإنجيل، ووقف عظاته على التنديد بالحجّ إلى أرس.

ثمّ حدث ما ألهب نار غيظه. فقد خطر لنساءٍ ورعاتٍ من رعيّته تأسيس أخويّةٍ تحت رعاية خوري أرس، وجمعنَ تبرّعاتٍ لهذه الغاية، مُغفلاتٍ استئذان خوري رعيّتهم، وضاعف حنَقه أنّ أولئك النسوة كنّ قد كلّفنه بإقامة قدّاسٍ عن نيّةٍ لم يفصحنَ عنها، وتبيّن، لاحقًا، أنّ نيّتهنّ كانت استبداله بخوري أرس عينه، في خدمة رعيّتهنّ. فانبرى، في عظة الأحد، للتنديد بهنّ، وبالكاهن الذي كنّ يجلِلْنه، مستخدمًا عباراتٍ تقطر قسوةً وسمًّا. ولم يخفَ على أحدٍ من كان يقصده. ولم يكتفِ بذلك، بل أشهر قلمه، ودبّج رسالةً إلى خوري أرس تعجّ بالسهام الحادّة، استهلّها بهذه العبارة: "حريٌّ بمن لا يعرف من اللاهوت سوى الزهيد، مثلك، الابتعاد عن كرسيّ الاعتراف...". والتمس الأب "ڤـيانّي" شيئًا من العزاء لدى صديقه، عمدة أرس، وأطلعه على الرسالة، مغفلاً اسم مرسلها. وحاول العمدة تسريب السلوى إلى نفسه، بقوله: "لا ريب أنّ كاتب هذه السطور شخصٌ فظٌّ، قليل التربية، فلا تبالِ به". وسارع الخوري إلى الإيضاح بأنّ كاتب الرسالة مثقّفٌ ثقافةً رفيعةً، وأردف: "ما كنتُ لأهتمّ بها، لولا خشيتي من أن تكون هذه الرسالة إهانةً لله". ثمّ عاد إلى غرفته، ومع أنّه نادرًا ما دبّج رسالةً، دوّن جوابًا قرن البساطة بالسموّ، جاء فيه: "أخي الحبيب، جزيل الاحترام. ما أكثر ما يدعوني إلى محبّتك! فأنت وحدك عرفتني معرفةً صحيحةً. وبما أنّك على مستوًى رفيعٍ من العطف والمحبّة بحيث تنازلتَ فاهتممتَ بنفسي المسكينة، ساعدني كي أنال النعمة التي طالما التمستها، فأُبعَد عن مركزٍ لا أستأهله، بسبب جهلي. وحينئذٍ سيتسنّى لي

الاعتكاف في زاويةٍ كي أبكي حياتي البائسة. فلكم يتوجّب عليّ من أفعال توبةٍ، وتكفيرٍ، وتذريف دموعٍ!...".

أقوالٌ لا يُمليها تواضعٌ زائفٌ، ونبرةٌ لا تلهمها فضيلةٌ مصطنعةٌ أو سطحيّةٌ، ولا يستطيع الإدلاء بها إلاّ من ألِف الاستغراق في تقبيل الصليب بوَلَهٍ، ومن أمست آلام الفادي موضع تأمّله الدائم. وفي الواقع، كان لهذه الرسالة من شدّة التأثير على الكاهن الشابّ ما دفعه إلى انتهاز السانحة الأولى للمجيء إلى أرس، والاطّراح عند ركبتي الخوري القدّيس، الذي كان قد محا الإهانة من ذاكرته، وفتح ملء ذراعيه لزميلٍ أهانه، وبابتسامةٍ ملائكيّةٍ ضمّه إلى صدره. وقد أثبت الكاهن الشابّ، لاحقًا، جدارته بهذا الغفران، فاطّردت زيارته لأخيه الأكبر القدّيس، التماسًا لنصحه، وتمثّلاً بفضائله. وقد عقد معه علاقة صداقةٍ راسخةٍ مبنيّةٍ على تقديرٍ رفيعٍ، واحترامٍ جمٍّ.

ولم تغرب عن علم الأب "فـيانّي" الوشايات التي يسعى بها بعض إخوانه الكهنة إلى الأُسقف الذي طالما نصحه بالردّ عليها، ودحضها، دفاعًا عن نفسه. ولكنّه اعتصم دائمًا، بصمتٍ يبرّره بما تعلّمه من سيَر القدّيسين. فقد طالع، مرّةً، أنّ رئيس ديرٍ أمر راهبًا بالشخوص إلى المقبرة، وصبٍّ وابلٍ من الأقوال المشينة المندّدة بأمواتٍ. وامتثل الراهب، ولمّا عاد سأله رئيسه:

– بم أجابوك؟

– لا شيء

– إذن، عُد وأغدق عليهم المديح.

فامتثل ولمّا عاد سأله الرئيس ثانيةً:

– بمَ ردّوا؟

– لا شيء.

– إذن، سواءٌ وُجّهت لكَ الشتائم، أو غُمِرتَ بالمديح، افعل كالأموات.

وقد باح، في أحد دروسه الدينيّة: "استلمت اليوم، رسالتين: إحداهما تصفني بالقدّيس، والثانية تؤكّد أنّني لست سوى دجّالٍ مشعوذٍ. الأولى لم تضفْ إليّ شيئًا، والثانية لم تسلبني شيئًا". ولطالما علّق على الرسائل المسيئة بقوله، ضاحكًا: "هوذا من يعرفني معرفةً صحيحةً. فإن ساورتني، يومًا، تجارب الغرور والكبرياء، فمن شأن رسالته أن تشفيني".

ولكم وقّع رسائل وشايات كان كهنةٌ يرفعونها إلى الأسقف، ويحشونها بالافتراءات عليه، وكان يتمنّى أن يجري الأُسقف بشأنها تحقيقًا يُفضي إلى إعفائه من مهمّةٍ كان يعدّ نفسه غير مؤهّلٍ لها! ولكن طالما خاب ظنّه، في هذا الشأن. واتّفق، ذات يومٍ، أن لم يلاحظ النائب الأُسقفيّ المكلّف بالتحقيق في مؤهّلات خوري أرس، وجود ذلك الخوري إلى جانبه، فقال: "لو كانت هذه الوشايات بحقّه صحيحةً لما شوهد هذا الحشد من الحجّاج الذين يقصدونه، وبينهم رهبانٌ وكهنةٌ".
وقد شهدنا كيف اضطرّ أُسقفه إلى امتحانه فطرح عليه مئتي قضيّةٍ ضميريّةٍ، ودهش لسلامة حلّه لها، وصوابه. وأيقن أنّ الروح القدس هو الذي يرشده إلى كلّ ما يفعل ويقول.

وكان الأُسقف الذي استشفّ في ذلك الكاهن قداسةً نادرة المثال، قد فوّضه بممارسة التعريف في كلّ رعايا أبرشيّته، وبمنح الحلّ حتّى من الخطايا المحصور حلّها بالأسقف. وقد لقّن موقفه هذا جميع معارضي الأب "ڤـيانّي" درسًا حاسمًا، فتضاءل عدد منتقديه، وتفشّت النـزعة إلى الإشادة بفضائله.

مرشد الضمائر

ذلك الكاهن الذي كان يسبر أعماق القلوب، ويبذل ذاته في سبيل ارتداد الخطأة إلى الله، مضحّيًا، من أجلهم بنومه، وطعامه، وراحته، أبى دائمًا هدر وقته في الاستماع إلى اعترافات من توسّم فيهم النعمة الساكنة في نفوسهم. فقد جاءته، يومًا، راهبةٌ رئيسة ديرٍ، تستشيره في أمرٍ يخصّ جمعيّتها. فبلّغها رأيه في هذا الشأن عينه، قبل أن تتحرّك شفتاها بالكلام. وحينئذٍ التمست منه الاستماع إلى اعترافها، فأجابها: "لا حاجة بك إلى الاعتراف. فدعي وقتي للمحتاجين إليه".

وجاءته فتاةٌ برفقة عمّها الكردينال مسترشدةً، فأفسح لها فرصةً لرسم إشارة الصليب، وقبل أن تفتح فاها، قال لها: "أجل، أنت تصلحين للانضمام إلى جمعيّة القلب الأقدس. وتقدّمي إلى المناولة، بلا حاجةٍ إلى الاعتراف".

غير أنّ حالاتٍ مثل هذه كانت نادرةً. وهو كان، عمومًا، يفسح لكلّ متقدّمٍ من كرسيّ الاعتراف الوقت الضروريّ، وحتّى للأولاد الصغار الذين كان يغمرهم بعطفه، ويدعهم يسندون رؤوسهم على كتفه، وكانوا يعبّرون عن سعادتهم الفائقة باقترابهم من قدّيسٍ. وهو، مع كلّ ما كان يلتهم وقته وحياته من خدماتٍ روحيّةٍ ملحّةٍ، لم يلتقِ جاهلاً وتخلّف عن تثقيفه، ولا نفسًا مستقيمةً لم يدفعها إلى قمم الكمال، ولا نعجةً ضالّةً لم يسعَ إلى إعادتها للحظيرة. وكانت قداسة نفسه، وحكمة إرشاداته تنفثان في النفوس الورعة ثقةً بلا حدودٍ. وما أكثر الذين استلهموا مثاله، ووجدوا فيه خلاصةً للشريعة والأنبياء!

وبالإجمال، كانت أجوبته سريعةً، واضحةً. وكان، إذا سُئل، يرفع ناظريه إلى السماء، وبلا تردّدٍ يبدي رأيه بثقةٍ. ولكنْ بما أنّ الاستشارات كانت تنهال عليه من جهاتٍ متباينةٍ، وتتناول مواضيع متشعّبةً مختلفةً، كان يستمهل، أحيانًا لإعمال الفكر، أو لاستشارة رئيسٍ أو زميلٍ، وفي الواقع، لم يتحرّج، يومًا، من استشارة كهنةٍ أصغر منه سنًّا، وأفقر خبرةً، ولم يكن يتردّد، في أحوالٍ معيّنةٍ، في دعوة

مستشيريه إلى اللجوء لمن هم أوفر منه علمًا، أو أحقّ بإسداء المشورة، بسبب علاقاتهم المباشرة بهم، وبكونهم مسؤولين عنهم.

بعض مستشيريه كانوا يتوقّعون حلولاً مدهشةً تدعم رغباتهم، أو يتسلّحون بها في خصامهم مع الغير. وغالبًا ما كان يخيّب ظنّهم بأحكامه الملتزمة بالحكمة والاعتدال، والحيطة، والبعيدة عن مصانعة غاياتٍ دفينةٍ، وإرضاء رغباتٍ أنانيّةٍ، وتحقيق أحلامٍ مفتقرةٍ إلى الحقّ والواقع. فالأب "ڤـــيانّي"، الملتزم بقناعاته الثابتة كان يدفع أو يلجم، فيرغّب في منحًى أو ينهى عنه، والأمثلة، في هذا المضمار وفيرةٌ:

فهذه "لويز مارتان"، ذات الطبيعة المرحة، والقلب السخيّ، التي في سنّ الثامنة عشرة، طرقت قلبها دعوةٌ إلى الحياة الرهبانيّة، فوصفها ذووها بالجنون. واتّفق أن زارت قريبةً لها في دير راهباتٍ حبيساتٍ. وكان حسبها أن تعاين الحاجز المشبّك الذي استقبلتها من خلفه قريبتها، كي تعلن صدوفها عن رغبتها في الحياة الرهبانيّة. ولكن ما لبثت أن اعتملت في نفسها التساؤلات القلقة. فماذا لو كانت الحياة المكرّسة هي حقيقة دعوتها؟ وأسرّت بقلقها لجدّتها التي كانت توليها ثقتها، وترتاح إلى نصحها. فاستصحبتها الجدّة إلى أرس، حيث انتظرت الفتاة طويلاً قبل أن يتسنّى لها الدنوّ من كرسيّ الاعتراف في اللحظة التي كان الخوري يغادره، كي يتأهّب لتطوافٍ بالقربان، فجرت في إثره صائحةً: "أنا راغبةٌ في التناول، ولم أعترف بعدُ". وكان الازدحام في أشدّه بحيث يتعذّر التحرّك، فالتفت الكاهن نحوها وسألها، باسمًا:

- "وهل تستحين؟
- "كلا، أبتِ
- "اركعي، إذن، واعترفي".

فركعت وباحت بهواجسها، فقال لها: "دعوتك آتيةٌ من السماء، فانضوي، حالاً إلى راهبات الزيارة". وهكذا قُيِّض للأخت "ماري أنستازيا" أن تخدم الربّ بكلّ اندفاع طبيعتها.

عام ١٨٣٦ قضى زوجان أسبوعًا في أرس، أملاً بالتحاور مطوّلاً مع خوريها، وتسنّى لهما التحدّث إليه. غير أنّ ابنتهما الصبيّة التي رافقتهما، مع ورعها، أبت الاقتراب من الكاهن. وقبل عودة الأسرة إلى موطنها رغب أفرادها في وداع أرس بزيارةٍ إلى كنيستها. وفي أثناء دخولهم إليها، دفع حدْسٌ سماويٌّ الخوري القدّيس إلى الالتفات وإجالة النظر في الحضور، وبغتةً أومأ إلى الفتاة بكتاب صلاته، داعيًا إيّاها إلى الاقتراب، فأفسح لها الحشد ممرًّا، وما إن اقتربت منه حتّى أشار إلى كرسيّ الاعتراف، وعقب حوار مقتضبٍ هبط عليها قرار مصيرها: "ستصبحين راهبةً في جمعيّة راهبات الزيارة... هذه هي مشيئة الله...". وعلى نحوٍ مدهشٍ، ذُلّلت كلّ العقبات، ودخلت الفتاة الدير حيث حلّقت عاليًا في أجواء القداسة.

وعام ١٨٥٦، استصحبت سيّدةٌ فتاةً قريبةً لها إلى أرس، كي يرشدها الخوري القدّيس إلى مستقبلها. وكانت تلك الفتاة شديدة التعلّق بذويها، والكَلَف بدروسها، ولا مطمح لها سوى الحصول على شهاداتٍ علميّةٍ عليا. وقالت السيّدة للأب "ڤـيانّي": "إنّي أتيتك بعالِمةٍ صغيرةٍ". وسارع الكاهن إلى الردّ: "كلّ علمها لا يساوي فعل محبّةٍ لله!". وسألت السيّدة: "ما سيكون مصير الفتاة، إذن؟". فحدّق الكاهن، من خلال عيني الفتاة، إلى أعماق نفسها، وأعلن: "ستكون راهبةً!". فاعترضت الفتاة بحدّةٍ: "كلاّ، أبدًا... كلاّ، كلاّ، كلاّ". وردّ الكاهن مبتسمًا: "بلى، بلى، بلى!". وركعت الفتاة في كرسيّ الاعتراف، ولمّا نهضت منه، كان قد تحقّق، في ذهنها وقلبها، انقلابٌ جذريٌّ، وفي عواطفها وأحلامها تحوّلٌ كلّيٌّ. وبعد ثلاث سنواتٍ توفّي الكاهن القدّيس، وأبرزت الفتاة نذورها الرهبانيّة، وأنفقت سنوات عمرها الطويلة في خدمة الله.

هكذا كان الخوري القدّيس يدفع إلى القمم نفوسًا يلجم اندفاعَها الضعفُ والتردّد، ولم يكن لها أن تتكرّس لله، لولاه. ولكنّه، في الآن عينه، كان يبدّد من نفوسٍ أُخرى أحلام كمالٍ وهميّةً. فقد روى مرسلٌ أنّه شاهد ضابطًا رفيع الرتبة

يخدم قدّاس الخوري القدّيس، واقفًا إلى جانبه أثناء المناولة ممسكًا شمعةً مضاءةً. واتّفق أن استفسر ذلك الضابط الكاهن هل عليه اعتناق الحياة الرهبانيّة، بعد أن توفّيت زوجته، فأجابه: "إيّاك من فعل ذلك. فما أشدّ حاجة الجيش إلى أمثالك!".

ولطالما نصح الأب "ڤـيانّي" شبّانًا ورجالاً راغبين في اعتناق الكهنوت ألاّ يتخلّوا عن المهامّ التي كانوا يزاولونها، مؤكّدًا: "امكثوا في أماكنكم. فقد يُنبِت الله أحيانًا رغباتٍ لا يقتضي تحقيقها في هذه الدنيا". وكان يوضح لبعض الراغبين في الكهنوت أنّ أجمل مهمّةٍ يمكن القيام بها في العصر الراهن هي تثقيف الشبيبة تثقيفًا مسيحيًّا.

والذين كانوا يلتمسون نصحه بشأن الصلوات التقويّة، كان يحذّرهم من التظاهرات التقويّة التي تزدحم بها نفوسٌ، فتعيث فيها العقم، وتغذّي الكبرياء. ولكنّه كان يحضّ على تلاوة المسبحة، والأدعية القصيرة المرتجلة، وعلى المشاركة في القدّاس، وجميع الممارسات التي توصي بها الكنيسة. وكان يؤثر الصلوات الجماعيّة، وفي هذا السياق كان يقول: "الصلاة الفرديّة تشبه قشّةً منثورةً هنا وهناك في حقلٍ، إذا أُشعلت فهي لا تحدث سوى لهيبٍ خافتٍ. أمّا إذا جُمّعت حزمةً كثيفةً، وأُضرمت فيها النار فلهيبها يرتقي عاليًا إلى السماء. تلك هي حال الصلاة الجماعيّة المشتركة". وكان دائم التحريض على الصلوات الذهنيّة المتواصلة. ومن القراءات التي كان ينصح بمطالعتها: الإنجيل، وكتاب "الاقتداء بالمسيح"، وسيَر القدّيسين.

وكان يشدّد على التمييز بين ما هو واجبٌ وضروريٌّ، وما هو مجرّد خيارٍ، محذّرًا من كلّ ما يموّه حبًّا للذات، وينبع من غيرةٍ راغبةٍ في التظاهر، ومن كلّ مغالاةٍ في الممارسة التقويّة التي تؤثّر سلبًا، على أداء الواجب. وهو، على سبيل المثال، لم يكن يستسيغ إهمال المرأة منـزلها لكي تغشى الكنيسة، عندما لا يكون وجودها في الكنيسة واجبًا كنسيًّا. ولم يتردّد في نصح زوجةٍ أُمٍّ بالعزوف عن الصوم، أثناء الصيام الكبير. ولمّا اعترضت تلك المرأة بأنّه هو نفسه يصوم أجابها أنّ

صومه لا يمنعه من الاضطلاع بكلّ واجباته، في حين أنّ صيامها قد يمنعها من القيام بواجباتها قيامًا كاملاً.

ولا ريب أنّ موهبته برؤية الأحداث والأخطار قبل حدوثها، والمستقبل قبل أوانه قد ساعدته على إنقاذ كثيرين. وخليقٌ بنا أن نروي، في هذا السياق حفنة أمثلةٍ:

روى أحد منظّمي طوابير الانتظار أمام كرسيّ اعتراف الخوري القدّيس: "كان، ذات يومٍ، يسمع الاعترافات في السكرستيّا، وبغتةً ظهر عند عتبتها، وطلب منّي استدعاء سيّدةٍ عدّد لي أوصافها، قائلاً: "ستجدها في صدر الكنيسة. ولكنّي لم أجدها حيث توقّع وجودها، فعدت وبلّغته بذلك، قال: "اركض خارجًا فتجدها قرب البيت الفلانيّ. وركضت ووجدتها، فعلاً، حيث حدّد مكان وجودها. وكانت عائدةً خائبةً، لأنّها لم تطِق انتظارًا".

وكان لرجلٍ زوجةٌ تعاني علّةً خطيرةً، وتنامى إليه أنّ أشفيةً عجيبةً تجري بشفاعة كاهنٍ في أرس، فيمّم شطر أرس، حيث بُلّغ أنّ مقابلة الكاهن مستحيلةٌ إلاّ في داخل كرسيّ الاعتراف، فجفل لأنّه كان قد طلّق ذلك الكرسيّ منذ سنواتٍ عديدةٍ. ومع ذلك انتظر دوره ولّما حطّ في كرسيّ الاعتراف، تظاهر بسرد بعض هفواته تمهيدًا للتحدّث عن مرض زوجته، فقاطعه الكاهن، وأوعز إليه بالعودة إليه في الغد، وفي اليوم التالي تكرّرت المهزلة عينها، وفي اليوم الثالث، سرد عددًا من أخطائه، وكأنّه يتلو درسًا. وبعد أن استمع إليه الكاهن لحظاتٍ، واجهه بقوله: "يا صديقي، أهكذا تتهكّم بالله؟ لَمَ لم تذكر تلك الخطيئة، وتلك الجريمة، ولماذا سُجنتَ، ولماذا ضُربتَ بالعصيّ في المكان الفلانيّ؟..." . فذهل الرجل، وكان ما سمعه سهمًا أصابته في الصميم، ولم يعد له مهربٌ من الإقرار بكلّ جرائمه، مستعيدًا ذاكرته، وتائبًا توبةً صادقةً. وساد السكون قلبه. كان قد جاء بحثًا عن شافي أجساد، فنال شفاء نفسه.

وكانت سيّدةٌ قد فُجعت بفقدان زوجٍ عزيزٍ، من جرّاء سقوطه عن متن حصانٍ. وقد ملأها موته المفاجئ، الذي لم يتهيّأ له روحيًّا، فانتابها قلقٌ هاصرٌ على مصيره

الأبديّ. وقد أدّى هذا القلق إلى إغراقها في بحرانٍ من الحزن، شلّها، ولم يجد المقرّبون منها سبيلاً إلى تعزيتها، وخشيت عليها أسرتها مغبّات اليأس، فنصحتها بقضاء فترة نقاهةٍ مع ولديها في منـــزل والديها، على أن تتوقّف، أثناء الطريق، في أرس، لعلّ خوريها القدّيس يسرّب إلى نفسها أشعّة عزاءٍ. وما إن تسنّت لها مقابلة الكاهن، وباحت له بما كان يقضّ مضجعها، حتّى صعقها بقوله: "علامَ تقلقين؟ هل نسيت أنّ زوجك هو الذي كان يعدّ لك باقات الورود كي تضعيها أمام صورة العذراء في شهر أيّار؟". لقد أذهل المرأة اطّلاعُ رجل الله على أمرٍ لم يكن محيطًا علمًا به سواها، ولكنّ سيلاً من العزاء تدفّق إلى نفسها، وأشاع فيها الطمأنينة.

وكانت سيّدةٌ قد اشتركت في رياضةٍ روحيّةٍ في أرس، وبعد يومين من الانتظار استطاعت الوصول إلى كرسيّ اعتراف الخوري القدّيس. ولّما همّت بمغادرته سألها عن توقيت عودتها إلى موطنها، فأجابت أنّها عازمةٌ على المكوث يومًا آخر في أرس، قبل عودتها. ولكنّه نصحها بالعودة فورًا، وبلا تلكّؤٍ، لأنّ في بيتها أفعى. وشقّت عليها التضحية بالسلام الذي كانت تتذوّقه في أرس، ولا سيّما بعد اعترافها بين يدي قدّيسٍ، بيد أنّ ثقتها المطلقة في حدْس الكاهن، وخوفها على ذويها، دفعاها إلى المغادرة في الحال. وفي مزرعتها سارعت إلى إخراج بنيها إلى العراء، وتحرّت غرف المنـــزل بحذرٍ ودقّةٍ. ولّما لم تعثر على شيءٍ مريبٍ، استوضحت زوجها عمّا جرى في غيابها، فأوضح لها أنّه لم يفعل سوى إخراج فراشهما، وعرضه لأشعّة الشمس. فهتفت تلقائيًّا: "الأفعى في الفراش!". وهرعت مع زوجها إلى السرير وهزّاه بعنفٍ، فتدلّت منه رقطاء مرعبةٌ، وتسلّلت إلى فناء الدار حيث قضى الخدم عليها.

من المحقّق أنّ خوري أرس لم يستخدم موهبة الحدْس، ورؤية ما لا تراه العين إلاّ للخدمة، ولحماية من يقصدونه من المخاطر. والله وحده يعلم الخير الذي حقّقه، بفضل قداسته، ومواهبه الخارقة. بيد أنّنا نستطيع تقييم جسامة هذا الخير من خلال شهادة إبليس الذي خاطب القدّيس بفم امرأةٍ كان يسكنها، قائلاً: "كم تعذّبني!... لو وُجد على الأرض ثلاثةٌ أمثالك لانتهت مملكتي إلى دمارٍ".

بَرنامجٌ يَوميٌّ

في ما خلا خمسة أيّامٍ كان يكرّسها الأب "ڤـيانّي" لرياضةٍ روحيّةٍ في رعايا أخرى حتّى عام ١٨٣٥، وما عدا فترة نقاهةٍ غير مكتملةٍ أمضاها في بيت ذويه عام ١٨٤٣، لم يغادر قرية أرس التي تبنّاها لنفسه موطنًا، وأنفق فيها حياته التي اتّصفت برتابةٍ ساميةٍ. كان نشاطه الراعويّ اليوميّ يملأ لا أقلّ من عشرين ساعةً كلّ يومٍ، وفي جميع الفصول. وكان كرسيّ الاعتراف يأسره نحو ستّ عشرة ساعةً صيفًا، وبين إحدى عشرة ساعةً وثلاث عشرة ساعةً شتاءً.

منذ مطلع خدمته الكهنوتيّة كان يشخص إلى الكنيسة، عند الساعة الرابعة فجرًا. وفي أرس غدا يلبّي نداء مخبأ القربان في ساعةٍ أكثر بُكرةً. فهو لم يكن يقوى على مقاومة جاذب حبيس الهيكل، ولاحقًا حملت التقوى المستعرة التي أورى الخوري نارها في نفوس رعيّته مؤمنين كُثُرًا، أُحيطوا علمًا بسهره في الكنيسة، للتقاطر إلى كرسيّ اعترافه، في حلك الليالي. وبات بعضهم، ومعظمهم من النساء، لا يطيقون إغماض جفونهم، والاستسلام للكرى، قبل أن يحرّروا وجدانهم، وينالوا بركة الكاهن القدّيس، ولا سيّما أنّ الخوري يكون في تلك الآناء من الليل متحرّرًا من محاصرة الجموع، وقادرًا على منح كلّ معترفٍ فسحةً وافيةً من الوقت للنصح والإرشاد. والذين نعموا بتلك الاعترافات الليليّة المضمّخة بالطيبة والورع، لم تبارحهم ذكرياتها العذبة حتّى مماتهم.

ثمّ أخذ سيل الحجّاج يتدفّق بكثافةٍ متصاعدةٍ يومًا فيومًا، فأمسى الخوري يقرع بنفسه الجرس عند الساعة الواحدة ليلاً، معلنًا فتح أبواب الكنيسة، وتأهّبه لاستقبال التائبين وسماع اعترافاتهم. وبانتظار توافدهم كان يستغرق في الصلاة، راكعًا أمام الهيكل. وقد وصفته شاهدةٌ، وهو على ذلك الوضع، فكتبت: "كم كانت رائعةً وجديرةً بالاقتداء رؤيته، على ضوء شمعةٍ، بوجهه الذي وسمته الأصوام

بالنحول، مصلّيًا بخشوعٍ جمٍّ، رافعًا، بين فينةٍ وفينةٍ، ناظريه صوب مخبأ القربان، وشفتاه تفترّان عن بسمةٍ ساحرةٍ توحي بأنّه يشاهد الربّ".

وعندما تفاقم تدفّق الحجّاج، وازداد كثافةً، أمسى الخوري، في أيّام الصيف ينـــزوي في كرسيّ الاعتراف قبل منتصف الليل. وحينئذٍ كان يأخذ عليه بعض معاونيه، على سبيل الدعابة، إغفاله تلاوة صلاة الصباح. أمّا هو فكان، في تلك الليالي التي يقضيها ساهرًا داخل كرسي الاعتراف، يُمنّي جسده المنهك – الذي كان يدعوه "جثّته" – بلحظات راحةٍ في أثناء النهار. ولكنّه غالبًا ما كان يحنث بوعده هذا، ولا يتيح "لجثّته" لحظات راحةٍ إلاّ في أوّل الليل.

ومهما بكّر الخوري القدّيس في احتلال كرسيّ اعترافه، كان يجد طابور منتظرين أمامه. وبما أنّه، على مدى سنواتٍ، لم يكن للحجّاج القادمين مكان انتظارٍ، فكانوا ينتظرون دورهم في المقبرة المحاذية للكنيسة؛ وكانت الساعات التي يقضونها هناك خير مساعدٍ على التوبة.

وأخيرًا، عام ١٨٤٥، أُعِدّ رواقٌ إلى يسار قبّة الجرس، كانت تحتمي تحته النساء القادمات ليلاً للاعتراف.

كان يشخص إلى الكنيسة مستنيرًا بمصباحٍ عتيقٍ، متّشحًا بالثوب الكنسيّ والبطرشيل، ويجتاز الرواق، ويفتح باب الكنيسة، فتسارع التائبات إلى كرسيّ الاعتراف. ودرءًا للازدحام تطوّعت ثلّةٌ من نساء القرية، وتناوبنَ على ضبط النظام، وتنظيم الدور، وإجلاس كلّ قادمةٍ في مكانها، منعًا للفوضى؛ وتولّينَ، هنّ، إشعال مصابيح الكنيسة، وقرع الجرس.

وفي هذه الأثناء كان الكاهن يركع على درج الهيكل، ويرفع نفسه إلى العلاء، ويقدّم للربّ عناء النهار الذي لم ينبلج صبحه، بعدُ، ملتمسًا الرحمة للخطأة، قبل أن يأوي إلى محبسه الذي لن يغادره، مؤقّتًا، إلاّ في الساعة السادسة صيفًا، والسابعة شتاءً، من أجل الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة. ومع أنّه لم يكن يلتزم بموعدٍ لطعامه ونومه،

لم يكن يزيح دقيقةً واحدةً عن موعد القدّاس، مرحلة يومه الأخطر والأرفع تقديسًا. وحينئذٍ كان يذهل عن العالم بأسره، ويتحرّر محيّاه من كلّ علامة حزنٍ أو همٍّ. ولطالما أكّد: "لست راغبًا في أن أكون خوري أيّة رعيّةٍ. ولكنّي سعيدٌ جدًّا بكوني كاهنًا مؤهّلاً لإقامة القدّاس". وكان يعدُّ كلّ ما يفعله، في أثناء النهار والليل تأهّبًا لتلك المهمّة السامية. وقبل مباشرته القدّاس، كان يركع على الحضيض، ويمكث ضامًّا يديه، محدّقًا إلى مخبأ القربان، ولم يكن شيءٌ قادرًا على صرفه عن تأمّله، فيما كان علمانيّون مكرّسون يتنافسون على حظوة خدمة قدّاسه.

وتكريمًا للقدّاس ورموزه كان يرغب في ارتداء أفخر الحلَل الكنسيّة، وأن يودع دم المخلّص في كأسٍ من ذهبٍ خالصٍ. وكان حريصًا على أن يزدهي الهيكل بأبهى حلّةٍ، وأن تزدهي الكنيسة بمؤمنين موغلين في الخشوع والورع. ومع أنّه لم يكن يطيل وقت القدّاس إلاّ أنّه، عقب رفع القربان، كان يركع ويرفع ذراعيه وناظريه، ويلبث نحو خمس دقائق مأخوذًا في انخطافٍ، متأمّلاً الربّ. وقبل تناوله كان يجمد لحظاتٍ، وكأنّه يحاور المخلّص، فيُخيّل إلى مشاهديه أنّهم يعاينون ملاكًا أمام الهيكل. وما أكثر الذين كانوا يقدمون إلى حضور قدّاسه بغية التمتّع بهذا المشهد الأخّاذ. فقد كانت ملامح سماويّةٌ تطوف، حينئذٍ، على محيّاه، المبلّل بالدموع. وكان منظره الخارجي هذا تعبيرًا أمينًا عمّا يعتمل في نفسه. فما من حركةٍ من حركاته كانت تمثيلاً. عيناه كانتا تتأمّلان وتصلّيان، سواءٌ إن تطلّعتا إلى العلاء، أو إن أطرقتا، ويداه كانتا تلتمسان سواءٌ بسطهما أو ضمّهما. وكان مشهده بجملته، عظةً صامتةً، بليغة التأثير، طالما حوّلت نفوسًا، واخترقت أفئدةً. حركاته ونظراته، وموقفه كانت تعبّر، تارةً عن امّحائه، وطورًا عن صُبوّه السامي، ودائمًا عن حبّه ورجائه. ومشاهدوه كانوا يشهدون يسوع واقفًا إلى جانبه.

ولكن، كان يسمح الله أن تشوب، أحيانًا، تلك المشاعر السامية ومضاتُ خوفٍ، وامتحانات إحباطٍ. فقد صاولته وحاصرته، ذات صباحٍ، فكرة جهنّم

ولوّحت لروعه بفقدانه لله، فأفلت منه هذا التوسّل المفجوع: "أبقوا لي العذراء على الأقلّ!". وإثر هذه التجربة اتّفق أن كان عليه، في أثناء احتفاله بالذبيحة الإلهيّة، أن يظلّ ممسكًا بالقربانة المقدّسة حتّى يحين موعد تلاوة "أبانا"، وتمادت الجوقة في تلاوة نشيدٍ، وحينئذٍ شاهد خادم الكنيسة الكاهن محدّقًا إلى القربانة، تارةً باكيًا، وتارةً باسمًا، وكأنّه يتحدّث إلى الربّ حينًا بدموعه، وحينًا آخر ببسمته. وعقب القدّاس سأله: "ماذا كنت تفعل وأنت ممسكٌ القربانة، فقد لحظتك شديد التأثّر؟"، فأجابه: "في الواقع خطرت لي فكرةٌ غريبةٌ، وكنت أقول للربّ: "إن علمتُ أنّ عليّ أن أفقدك، مدى الأبديّة، وبما أنّني ممسكٌ بك الآن، فلن أفلتك!". ثمّ، بعد خلعه حلّته الكهنوتيّة، ركع أمام الهيكل، شاكرًا. وتجرّأ حجّاجٌ فدنوا منه، وحدّقوا إليه بفضول، متبادلين تعليقاتٍ بشأنه. ولكنّه بدا كأنّه لا يرى ولا يسمع شيئًا، وظلّ مستغرقًا في محاورة الربّ. أوَلم يسبق له قول: "عندما يتناول المؤمن، تغوص نفسه في أريج الحبّ، غوْصَ النحلة في الزهور"؟

بعد القدّاس، كان ينفق بضع دقائق على مباركة طالبي بركته، وعلى توقيع الصور المقدّسة التي جاؤوه بها، وعلى مؤاساة المفجوعين بعباراتٍ مقتضبةٍ، وكان معظمهم آنذاك، من الرجال. ثمّ عقب زيارةٍ خاطفةٍ إلى دار العناية، كان يرجع إلى كرسيّ الاعتراف داخل السكرستيّا.

ومنذ عام ١٨٢٣ كان، امتثالاً لتوصية طبيبه، ولأمر أُسقفه يتناول قليلاً من الحليب عند الساعة الثامنة. بيد أنّه كان يمتنع عن ذلك، أيّام الصيام.

عند الساعة العاشرة كان يسترق دقائق لتلاوة صلوات السواعيّة الصباحيّة. وإذا جاءه، حينذاك، طالب اعترافٍ فكان يوعز إليه بالاستعداد، ويتابع هو صلواته راكعًا على الحضيض. ولم يكن يطيق التخلّي عن السواعيّة، رفيقه الأمين الذي يستصحبه أينما ذهب. وقد وصفه محامٍ راقبه وهو منصرفٌ إلى تلاوة صلواته: "ملامحه تعكس مشاعر نفسه. فمه يتلمّظ ما يتناوله فكره ويدركه، وعيناه تتألّقان. يبدو كأنّه يتنشّق

نسيمًا أنقى من هواء الأرض، متحرّرًا من حلبة العالم، فلا تنفذ إلى سمعه سوى أقوال الروح القدس". أثناء صلاته كان يبدو جامدًا جمود تمثالٍ، لا يسلب انتباهه لا حدثٌ خارجيٌّ، ولا هاجسٌ داخليٌّ. ولطالما ردّد في تعليمه: "لا يتوقّف الذباب على الماء المغليّ، ولا يسقط إلاّ في الماء الفاتر أو البارد".

بعد الفراغ من صلواته الصباحيّة كان يعود إلى كرسيّ اعترافه حتّى الساعة الحادية عشرة، موعد دروسه الدينيّة، التي دأب على تزويد الحجّاج بها، منذ عام ١٨٤٥، حتّى عام ١٨٥٩، والتي كانت تجتذب مختلف فئات المستمعين. قبل هذه الحقبة كان يقف ساعاتٍ طويلةً من أجل إعداد هذه الدروس وعظة الأحد بعنايةٍ فائقةٍ، غير أنّ سيل الحجّاج الذي ماانفكّ تدفّقه يتنامى باطّرادٍ لم يعدْ يفسح له متّسع وقتٍ لهذا الإعداد، فنذر تساعيّة صلواتٍ للروح القدس كي يلهمه ما يقول ارتجالاً، وغدا يتكلّم مستسلمًا لإيحاء الروح القدس. واستمرّ على هذا المنوال حتّى مماته. وظلّت تتراصّ لسماع تلك الدروس شتّى الفئات ضامّةً مؤمنين ورعين، ومدّعي علمٍ ومعرفةٍ بكلّ شيءٍ ما عدا أمور الدين. ولطالما اختلط بالمؤمنين كهنةٌ وأساقفةٌ. وقد اتّفق أن أمضى أُسقفٌ أسبوعًا في أرس، ولم يفوّت فرصة الاستماع إليها، يومًا واحدًا. وكان يعود منها، كلّ مرّةٍ، أشدّ إعجابًا ودهشةً، وأعمق تأثّرًا.

وأيًّا كان تكوين الحضور، لم يستهدف الخوري سوى تغذية النفوس وإصلاحها، وكان يخاطب الجميع ببساطته العذبة. ولم يكن مستمعوه يرون فيه مجرّد واعظٍ، بل كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى مرسل الله، إلى معمدانٍ جديدٍ مطّلعٍ على شؤون الآخرة. كان يقرأ في كتاب التعليم المسيحيّ عنوانًا أو عنوانين، ويلقي الكتاب على دفٍّ أمامه، وغالبًا ما امتدّت، خلسةً، إلى ذلك الكتاب وسلبته أيدي من عدّوه ذخيرةً ثمينةً. وكان الخوري القدّيس يشرع في تفسير العناوين المطروحة للبحث، ولكنّه لا يلبث أن ينصرف عنها، ويقفز فكره إلى الخواطر الجوهريّة التي طالما أشبعها تأمّلاً، بحضور الربّ، واستمدّ منها غذاءً لنفسه. وكان كلامه يطفح بالأبديّة، ونظره يحطّ

تارةً على مستمعٍ، وتارةً على آخر. وكأنّه يجهد في غرس سيف كلامه في قلوبهم، منـــزلاً سوطه بالرذائل، لاعنًا الخطيئة، وفي معظم الأحيان مشيدًا بأفراح حبّ الله.

ربّما لم يجد، دائمًا، صوتُه النحيل طريقه إلى أسماع الجميع، بيد أنّ صيحاته وانتحابه كانت تحرّك أعماق النفوس، وتستدرّ دموع حتّى الذين كانوا يأبون تصديق ما يُشاع عن تأثير أقواله، ويجعلون منها مادّة استهزاءٍ. فقد كان للدموع التي يذرّفها على الخطايا المعترفة تأثيرٌ شديد العدوى حتّى على أقسى القلوب تحجّرًا.

وظهرًا، يُقرع جرس البشارة، فيتلو الكاهن الصلاة، راكعًا أمام الهيكل. وبعدئذٍ يرجع إلى حجرته لتناول غدائه، ويتجلّى المشهد اليوميّ الأشدّ إدهاشًا، والأكثر مدعاةً للإعجاب، عندما يجتاز القدّيس الرواق القصير بين الكنيسة ومقرّ إقامته، وسط سياجين كثيفين من الحجّاج المتدافعين سعيًا إلى همس كلمةٍ في أذنه، أو إلى لمس ثوبه، وإلى تأمّله عن كثبٍ، فيستغرق اجتيازه الأمتار العشرة، لا أقلّ من ربع ساعةٍ. ذلك الحيّز الضيّق والممرّ الإلزاميّ كان، أيضًا، الملاذ الذي ينتظره فيه مرضى ومعاقون جسديًّا، متّكئين على عكاكيزهم، أو راقدين على محفّاتٍ، أو محمولين على أيدي ذويهم وأقربائهم. وكان الكاهن يعانق بنظره كلّ أولئك المتألّمين ويستنـــزل عليهم رحمة الله. وكان الحجّاج الذين لم يتسنّ لهم رؤيته داخل الكنيسة، لدى مشاهدته على مقربةٍ منهم، يهوون تلقائيًّا على ركبهم راكعين، وتملأ الجوّ توسُّلاتٌ من كلّ لونٍ: "باركني يا أبتِ!"، "صلِّ من أجل مريضنا"...، "إشفِ هذا الصغير العليل"، "ردّ والدي الملحد"، "انتشل زوجي من الضلال"... وهو، وسط هذا المهرجان الحزين يردّ بكلمة عزاءٍ، أو ببسمةٍ، أو بدمعةٍ، أو بإيماءةٍ إلى السماء. وحينئذٍ، لكي يتمكّن من دخول مسكنه وحيدًا، والظفر بلحظات هدوءٍ، كان ينثر حفنةً من الإيقونات، وفيما ينشغل الناس بالتقاطها، يفتح باب مقرّه، خلسةً، ويدخل، ويقفل الباب.

في غرفته كان يجد وجبة الطعام القشفة التي أُعدّت له في دار العناية، فيتناولها واقفًا، على عجلٍ. وإلى جانب الوجبة كان يجد بريده، فيطّلع عليه اطّلاعًا خاطفًا.

وفي غضون ساعةٍ، وقبل أن تحين الساعة الواحدة، يكون قد تناول غداءه، وكنّس غرفته، ونال بضع دقائق نومٍ، وزار مرضاه.

وكانت زيارة المرضى مهمّةً يحرص على الاضطلاع بها بنفسه، وبانتظامٍ لا يحتمل تراخيًا. ومع أنّه كان قد كلّف معاونه بعدّة مهامّ راعويّةٍ، لم يتنازل لأحدٍ عن مهمّة عيادة المرضى. ولم يكن أولئك المرضى من أبناء رعيّته فحسب، بل كانوا أيضًا غرباء راقدين في فنادق أو في منازل أبناء القرية، وراغبين في رؤية القدّيس والاستماع إليه. وكان منهم من انتهوا إلى حالاتٍ حرجةٍ وخطيرةٍ، وطلبوا نقلهم إلى أرس كي يموتوا فيها مزوّدين بمعونة خوريها، وعزائه، وبركته.

وعندما كان الخوري يخرج من غرفته بعد الغداء من أجل عيادة مرضى، كانت الحشود تنتظره مجدّدًا، فيحيط به متطوّعون وهو يهبط الدرج، لكي يقوه من كلّ أذًى قد يُلحقه به تدافع الحشود. ومع ذلك لم يكونوا يُفلحون دائمًا في حمايته من قصّ نتفٍ من ثوبه، أو من زيّه الكهنوتيّ، أو خصلٍ من شعره، أو من سلبه كتاب صلواته الذي لا يُعاد له، أو يُعاد بعد انتزاع صُوَرٍ منه. واتّفق أنّ بعضًا من الراغبين في الاحتفاظ بأثرٍ من الخوري القدّيس والذين لم يكونوا يعرفونه شخصيًّا، كانوا يسرقون أثرًا من أيّ كاهن يشتبهون بأنّه خوري أرس.

كان، إذن، الأب "ڤـــيانّي" محاصرًا، دائمًا، بالحشود، حيثما توجّه، وأينما وُجد. وقد رغب العديد من الكهنة في مواكبته إلى حيث كان يواسي مرضى، ويمنح الأسرار والزاد الأخير لمحتضرين، بغية احتذاء مثاله، والتعلّم من سلوكه. وكانوا يُعجَبون بما تنطوي عليه أقواله من إيمانٍ راسخٍ، ومن رؤًى سماويّةٍ، فيدركون سبب رغبة محتضرين كثيرين في الموت بين يديه.

وعندما كان يغادر المرضى كانت الحشود غالبًا في إثره، طمعًا في الظفر ببركته، أو في الحصول على إيقوناتٍ كانت دائمًا تملأ جيوبه، والتي كانت للحاصلين عليها ذكرياتٍ غاليةً وذخائر ثمينةً. وفي هذا السياق ذكرت راهبةٌ أنّها لمّا كانت فتاةً

صغيرةً زارت أرس حيث مكثت ثلاثة أيّامٍ، ولاحقت القدّيس في ذهابه وإيابه، وفي كلّ مرّةٍ كانت تجمع ثروةً من الإيقونات. وكان الخوري قد لحظها، وفي اليوم الثالث أعطاها صليبًا، وقال لها: "ها قد حصلت، حتّى الآن، على سبع عشرة إيقونةً". فأحصت غلّتها، وتبيّنت أنّها، في الواقع، قد بلغت سبع عشرة إيقونةً.

واتّضح، يومًا، لحجّاجٍ أتقياء، أنّ مؤونة الكاهن القدّيس من الإيقونات كادت تنفد، فسارعوا إلى تزويده بمزيدٍ منها. وكان بين هؤلاء شقيقان يهوديّان اعتنقا المسيحيّة.

ومثلما حرص الخوري القدّيس بانتظامٍ، على عيادة المرضى، حرص، أيضًا، على زيارة أيتام دار العناية، وكذلك مرسلين كانوا قد وجدوا مأوًى في أحد أجنحة الدار، كان يدعوهم "رفاقه"، ويخاطبهم بلهجةٍ مرحةٍ، ويمازحهم، ويتقبّل منهم فنجان قهوةٍ بلا سكّرٍ، يرتشفه بسرورٍ، مع مرارته.

وفور فراغه من زياراته كان يهرع إلى الكنيسة، ويركع على بلاطها الذي ينـــزّ بردًا، ويتلو صلوات الغروب والنوم، قبل الانصراف إلى "خطأته"، فيبدأ بتعريف النساء حتّى الساعة الخامسة، ثمّ، إثر استراحةٍ لا تتعدّى خمس دقائق في حجرته، يعود إلى السكرستيّا كي يستمع إلى اعترافات الرجال. وعند الساعة الثامنة يرتقي المنبر ويتلو صلوات المسبحة، وصلوات المساء، ثمّ يستقبل، في دار الرعيّة، مرسلين وكهنةً، وعلمانيّين من رعيّته، ويتجاذب معهم أحاديث ودّيّةً. وبعدئذٍ كان يختلي في حجرته، ويُرجّح أنّه كان ينفق معظم ساعات الليل مصلّيًا.

وقد شهد مقرّبٌ منه أنّه كان يعود إلى حجرته، ليلاً، منهكًا، ويصعد الدرج مترنّحًا، وكثيرًا ما يضطرّ إلى الاستناد على الجدار، ولطالما اتّخذ هو نفسه من وهنه وإرهاقه مادّةً للسخريّة بذاته. ومع ذلك لم يكن يستسلم للكرى قبل تلاوة صلواته، ومطالعة صفحاتٍ من سيَر القدّيسين.

ولم يكن يغفو أكثر من ثلاث ساعاتٍ ليليًّا، وكان القائمون على خدمة دار

الرعيّة يجدونه مستيقظًا في أيّة ساعةٍ جاؤوه، ويلمحون ضوء مصباحه مشعًّا من خلال نافذته. وكلّما أدّى قلقه على النفوس إلى طرد النوم من عينيه، كان يعالج السهاد بتأمّل الصلبان والإيقونات المقدّسة المعلّقة على الجدار، والتي كان يدعوها "لوحاته"، إلى أن تأخذه سنّة نومٍ. وحالما يفتح جفنيه، إثر إغفاءةٍ قصيرةٍ، كانت أنظاره تطفر تلقائيًّا صوب تلك "اللوحات"، ويُخيَّل إليه أحيانًا أنّها تعاتبه، آخذةً عليه كسله واستسلامه للإغفاء، فيما هي ساهرةٌ، تسبّح الله.

ولكنّه لم يبُحْ، يومًا، بالأوجاع التي كانت تشيعها في كلّ أعضائه أتعاب النهار والتي كانت تعكّر راحة نومه، وبالسعال العنيد الذي يلازمه طوال الليل. ومع ذلك لم يتلكّأ، يومًا، عن موعد شخوصه إلى الكنيسة، في عتمة الليل، واستئناف جهاده المقدّس المرهق.

والمدهش في هذه المسيرة المكرّسة، كلّيّةً، للخدمة، أنّها استطاعت القرن، قرنًا مذهلاً، بين غوصٍ كلّيٍّ في لجّة الجماهير المتدافعة حوله، والمحافظة على خشوعٍ عميق الغور، واتّحادٍ وثيقٍ بالله، فلا شيء كان قادرًا على تعكير صفو حياته الداخليّة الكثيفة. وكان قد باح لزميلٍ كاهنٍ: "كم أودّ أن أضيع، وألاّ ألتقي ذاتي إلاّ في الله!". وكلّ من شهد سلوكه اليوميّ، استطاع التيقّن من أنّه حقّق هذه الأمنيّة، أكمل تحقيقٍ، فهو، في غمرة نشاطاته المنهكة، متعدّدة الوجود، ملتهبة الاندفاع، كان يبدو دائمًا كأنّه يؤدّي طقوس عبادةٍ آخذةٍ بكلّ أوتار نفسه، وأنّ لا همّ يشغله سوى ملء كلّ لحظةٍ راهنةٍ بحبّ الله. وكلّ من راقبه، صبحًا، أو ظهرًا، أو مساءً، كان يتبيّن فيه إشعاع السلام الداخليّ الساجي عينه، والدماثة العذبة، وحرّيّة الروح الراسخة، التي لا يبارحه أيٌّ منها، مؤكّدةً اتّحاده الوثيق بالله، وبلوغه أسمى مراقي الحبّ الكامل. فقد كان قلبه وذهنه ملتصقَيْن بالله، سواءٌ هو كان على منبر الوعظ، أو داخل كرسيّ الاعتراف، أو محادثًا الناس، أو في غمرة انشغالاته كلّها. لقد أتقن سلوك القدّيسين المتمثّل في الخروج من الله، كلّما

استدعت مقتضيات العمل، ثمّ المسارعة للعودة إلى الغوص فيه في أقرب موعدٍ، فالصلاة كانت لنفسه العزاء، والسلوى، والقوّة، والملاذ الدائم. وهو كان يصفها بأنّها "الندى العطريّ... وبقدر ما يصلّي المرء تضطرم رغبته في المزيد من الصلاة... ويتلاشى شعوره بمرور الزمن". وقد شقّ عليه أن يُحرَم حتّى الرياضة الروحيّة السنويّة التي كانت تجمع كلّ كهنة الأبرشيّة، بعد أن طلب منه الأُسقف الاستغناء عن رياضةٍ ليس بحاجةٍ إليها، والعودة إلى الخطأة الذين ينتظرونه.

وكان كَلَفه بالوحدة والانصراف، بكلّيّته، إلى الصلاة يهيج فيه التوق إلى أيّام الصبا، فيبوح: "آه! كم كنتُ سعيدًا حينذاك! فلا شيء كان يصدّع رأسي كما هو مصدّعٌ اليوم، وكم كنتُ حينئذٍ أُصلّي براحةٍ تامّةٍ...!". وقد يتّفق أن يضيف باسمًا: "ربّما كانت دعوتي أن أبقى راعيًا، عمري كلّه". وهو، عندما أضحى راعي نفوسٍ، استطاع، في السنوات الأُولى، إشباع جوعه إلى الصلاة، ممارسًا "صلاة البساطة"، حيث يقوم الحدْس مقام إعمال الفكر، وحيث يتمّ التعبير عن المشاعر والنوايا بعباراتٍ مقتضبةٍ. وخلال سنوات كهنوته الأولى، كان يُشاهَد راكعًا في الكنيسة، مصلّيًا، غير مستعينٍ بأيّ كتابٍ، محدّقًا إلى مخبأ القربان، مبلّغًا الربّ حبّه. ولكن عندما رانت عليه ضغوط أمواج الحجّاج المتلاحقة بلا هوادةٍ، وحالت دون انصرافه بحرّيّةٍ إلى سكب نفسه في صلواتٍ صامتةٍ، لجأ، إلى اختيار موضوع تأمّلٍ يوجّه كلّ نشاطه اليوميّ. وسأله زميلٌ كاهنٌ، ذات يومٍ، أن يرشده إلى طريقة صلاةٍ نموذجيّةٍ، فأفاده أنّه لم يعد يملك من الوقت ما يمكّنه من اتّباع طريقة صلاةٍ منتظمةٍ، فغدا يجهد، منذ مطلع كلّ نهارٍ، في عقد اتّحادٍ وثيقٍ بالله، يعمل طول اليوم بهديه، فيجعل من مسيرته كلّها صلاةً مستمرّةً. وكان يؤثر أن يستمدّ من آلام المخلّص نبراسًا لنشاطه اليوميّ. فطلب من مساعدةٍ له أن تدوّن على هوامش كتاب صلواته اليوميّة (السواعيّة) مراحل آلام الربّ الخلاصيّة، فيستطيع مواكبة صلاة كلّ ساعةٍ بتأمّل مشهدٍ من مشاهد تلك الآلام.

ومن جرّاء استغراقه في هذه التأمّلات كان يُخيَّل إليه، أحيانًا، أنّه وحيدٌ مع الربّ حتّى في غمرة انغماسه في لجّة الجماهير. وكان يحدّث الربّ مثل تحدّثه لأحد أصدقائه ومعارفه. ومع كرّ السنين، وبعد أن أثقلت الأتعاب البطوليّة كاهله، وحنت ظهره، وغضّنت جبينه، وحفرت في وجنتيه أخاديد، لم تفلِح في إذبال شباب قلبه الذي لم يعهد سوى فصل التجدّد الدائم. وهذا ما عناه بقوله العذب: "في النفس المتّحدة بالله، الربيع دائمٌ". وكان شعوره العميق بحضور الله يثير فيه فورات فرحٍ تفتن مشاهديه، وتساعده على إبقاء جذوة اندفاعه متّقدةً، مؤكّدةً له استمرار عطف الله عليه، وصداقته له، واستعداده لتنفيذ رغباته المقدّسة. غير أنّ هذه المشاعر الأخّاذة لم تنتزعه، قطّ، من بساطته وتواضعه، بل كانت تشيع على محيّاه بسمةً ساحرةً، تفوق كلّ ما عهده البشر من دلائل الفرح، والتي تعذّر نسيانها على من شاهدوها طائفةً على شفتيه.

اعتِلالٌ خطيرٌ، وفرارٌ قصير الأمَد

كان خوري أرس، دائمًا، نهبًا بين نزعة تحقيق رغبته في الاعتكاف والانقطاع للتأمّل والصلاة، والاستعداد للمثول بين يدي الربّ، وخشيته على مصير دار الرعاية وأحوال رعيّته، من جرّاء غيابه. فدار الرعاية كانت ربيبته، وهو كان روحها، وضمان بقائها؛ والرعيّة التي حوّلها تحوّلاً جذريًّا كانت مهدّدةً بتحوّلٍ مناقضٍ إلى بعض ما كافحه، بتأثير تدفّق أفواج الحجّاج، ولكلٍّ منهم عاداته، وتقاليده ونمط سلوكه، ومن جرّاء استيطان العديد من الغرباء الذين افتتحوا حوانيت من كلّ لونٍ، ولكلّ مهنةٍ وتجارةٍ. وتملّكته الحيرة في الجهة التي يتعيّن عليه توجيه عنايته لها: أللحجّاج القادمين من بعيدٍ، ناشدين راحةً لضمائرهم، وخلاصًا لنفوسهم، أو لأبناء رعيّته الذين باتوا جزءًا جوهريًّا من روحه، في حين أنّ كل ساعات أيّامه كانت مزدحمةً بالعمل والجهد، وأنّ طاقاته كانت محدودةً، وأنّ محاولته إرضاء الجميع قد هدّت قواه، وأفضت به إلى شفا الموت.

ومن ثمّ لم يكن ليخطر ببال من يشاهده مبتسمًا وسط الجموع أنّ التوق إلى الاعتزال والوحدة كان لا ينفكّ ينهش قلبه. ولكنّ هذا ما أدركه بعض المقرّبين منه فمساعدته "كاترين لاسّانيي" كتبت: "لقد مكث في رعيّة أرس إحدى وأربعين سنةً، ولكنّه كان دائمًا مُكرَهًا على ذلك". وهو نفسه كان قد باح لها يومًا: "منذ سنّ الحادية عشرة كنت أسأل الله أن يتيح لي حياة الوحدة. ومع أنّه يهبني تقريبًا كلّ ما أطلبه من أجل الرعيّة، فهو لا يعطيني شيئًا ممّا أطلبه لنفسي. ولم تتحقّق أبدًا أمنيّتي في حياة الوحدة"، فردّت عليه: "ذلك أنّك تطلب البعاد عن هذه الرعيّة، وهذا ما لا يرضاه الله".

هذه الأمنيّة كان قد أسالها إلى نفسه، منذ صباه، كَلَفه بالصلاة، بعد أن تبيّن أنّ الصمت والخشوع يدفعان بالنفس صوب الله. ولكن بعد أن أصبح كاهنًا اقترنت

هذه الأمنيّة التي نشأت باكرًا بعاملٍ آخر. فقد داخله الخوف من أن يكون قد أقدم على "تجربة الله" بقبوله رعاية النفوس، مع ما كان يعرفه عن ذاته من جهلٍ وعجزٍ. ولطالما تنهّد شاكيًا: "ليس الجهد هو ما أخشاه، بل إنّ ما يرعبني هو الحساب الذي سيتعيّن عليّ أداؤه عن كهنوتي". هذه الخشية أقضّت مضجعه حتّى آخر يومٍ في حياته. ففي عام ١٨٥٨، وكان القدّيس حينئذٍ في الثانية والسبعين من سنيه، وفيما كان واعظٌ يقيم رياضةً روحيّةً في رعيّة أرس يتأهّب لاعتلاء المنبر، دنا منه الأب "ڤـيانّي"، باسمًا، وقال له: "أرجو أن تردّنا جميعنا، اليوم، إلى الله"، فأجابه الواعظ: "أنت لا خوف عليك. أؤكّد لك ذلك على مسؤوليّتي". فتنهّد الأب "ڤـيانّي" وردّ بلهجةٍ جادّةٍ، وبشيءٍ من الرعدة: "ليتك تعلم ما يعني العبور من خدمة الرعيّة إلى منبر الله الديّان!".

إذن، رغبته في الاعتزال، والاختلاء في "زاويةٍ صغيرةٍ كي يبكي حياته البائسة"، حسبَ تعبيره، لم تبارحْه قطّ. ومنذ عام ١٨٢٧ كان قد سعى إلى التماس تكليفه بمهمّةٍ أخرى، وظنّ أسقفه أنّ رغبته هذه ناجمةٌ عن ضيقه من النمائم التي أُشيعت بحقّه، والتخرّصات التي تناولته بتهمٍ مشينةٍ باطلةٍ. فعرض نقله إلى رعيّةٍ أخرى. ولم يتسنّ للخوري الإفصاح عن دوافعه الحقيقيّة، فآثر المكوث في أرس، آملاً، بذلك، الظفر بفرصة الاعتكاف في دير رهبانٍ حبيسين.

رغبته هذه لم تفتُر حتّى بعدما حاصره الحجّاج بقوافلهم. وقد أسرّ لزميلٍ له من رعيّةٍ أخرى جاءه مستشيرًا: "ينبغي ألاّ نبقى كهنة رعايا حتّى آخر حياتنا، بل علينا أن نحتفظ بوقت نستعدّ فيه للموت". وقد كرّر هذا التمنّي عينه بعد خمسةٍ وعشرين عامًا، إذ أسرّ لكاهنٍ آخر: "لستُ راغبًا في الموت وأنا خوري رعيّةٍ. فأنا لست أعرف قدّيسًا لقي حتفه وهو يشغل هذا المنصب. أودّ أن أنعم بسنتيْن لكي أبكي حياتي البائسة. ويبدو لي أنّني، حينئذٍ، سأستطيع حبّ الله على أكمل وجهٍ".

ومع أنّ هذه الأمنيّة كانت للأب "ڤـيانّي" حاجةً، ومع أنّ صداها بلغ آذان

الأُسقف الذي لم يستجب لها، إلاّ أنّ الخوري القدّيس لم يفقد الأمل في تحقيقها، ولم يكفّ عن التذكير بها كلّما سنحت له مناسبةٌ لمقابلة الأُسقف، ولم يكفّ عن الاسترسال في الإلحاف في التماس تحقيقها، من خلال رسائله، وإليكم إحداها:

« صاحب السيادة،

إنّني أزداد وهنًا باطّرادٍ. وقد بات عليّ أن أُنفق آناءً من الليل جالسًا على كرسيٍّ، وأنهض ثلاث أو أربع مرّاتٍ في الساعة. وتنتابني نوبات إغماءٍ داخل كرسيّ الاعتراف تدوم دقيقتين أو ثلاث دقائق. ونظرًا لعللي ولتقدّمي في السنّ أودّ أو أودّع أرس وداعًا نهائيًّا".

"ڤيانّي"، الكاهن المسكين البائس. »

وكان يكرّر هذه الالتماسات الملحّة، بالصوت الحيّ لدى كلّ زيارةٍ أُسقفيّةٍ. وفي سبيل تحقيقها كان، عشيّة زيارة الأُسقف، يضاعف تضحياته، مصلّيًا، منتحبًا، صائمًا. وحالما يحضر الأسقف كان ينتعش فيه الأمل الذي طالما خاب. وكان الأسقف يأتي ويعود، ويسعد برؤية صديقه القدّيس، ويبقى هذا الأخير "خوري أرس". وقد درج الأساقفة المتعاقبون على رفض تلبية طلبه، ولكنّه، هو، لم ينفكّ، حتّى نفسه الأخير، يأمل أن يعفى من مهمّته كي يتسنّى له وقتٌ لبكاء خطاياه، ولكنّ الأُسقف كان يردّ عليه بأنّ دموع الخطأة الذين يعيدهم إلى الله تعوّض عن دموعه. ولكن ما من حجّةٍ كانت تقنعه بالتخلّي عن ملتمسه. فهو في قرارة نفسه لم يكن راغبًا في شيءٍ أكثر من رغبته في المكوث جاثيًا أمام مخبأ القربان، باكيًا ما كان يعدّه خطايا.

وربّما استشفّ الأُسقف في رغبة الاعتكاف التي كانت تراوده وسوسةً شيطانيّةً، يعبّر عنها الشرّير عن ضيقه من الارتدادات الجوهريّة التي كانت قداسته تثمرها، لا في أرس وجوارها فحسب، بل في كلّ أنحاء البلاد، والتي سيمتدّ أثرها إلى العالم المسيحيّ أجمع، وإلى مستقبلٍ بعيدٍ. وشاءت حكمة الله الفائقة ألاّ يُحرم العالم المسيحيّ من أثره الخيّر على النفوس، ومن رسمه لها دروب القداسة. لم يلبِّ الله رغبته، ربّما لأنّه بعد أن

اقتاده على معارج القداسة، ومكّنه من اكتساب كلّ الفضائل، ابتغى التوغّل به في عالم الكمال، بحمله على التضحية بإرادته، وبأسمى تطلّعاته. وفي الواقع، أقام الله توازنًا رائعًا بين صبوّه إلى الخلوة للتأمّل، وغيرته الملتهبة لخدمة النفوس. فالأب "ڤـــيانّي" كان يحلّ الخدمة الكهنوتيّة في أسمى مواقع النعمة، ولطالما صرّح: "حتّى لو كنت في السماء، وطُلِبت منّي العودة إلى الأرض كي أُساعد خاطئًا على التوبة والارتداد، فسأعود بطيبة خاطرٍ. وإن كان عليّ، في سبيل إنقاذ خطأةٍ النهوض دائمًا عند منتصف الليل، ومعاناة أكثر ممّا أعانيه الآن، فسأُقدِم على ذلك راضيًا، سعيدًا".

ومع كلّ العقبات التي انتصبت في طريق اعتكافه، لم يستطع طرد فكرتها من ذهنه، وطغت عليه في ليلةٍ معتمةٍ من عام ١٨٤٠، فتسلّل، تحت جنح الظلام الدامس، ومضى وحيدًا باتّجاه أقرب مدينةٍ. وبعد مسيرةٍ قصيرةٍ، توقّف بغتةً، وألحّ عليه التساؤل: "هل هذه هي، حقًّا مشيئة الله؟ أوَليس ارتداد نفسٍ واحدةٍ خيرًا من كلّ صلاةٍ أتلوها وحيدًا؟". وعاد أدراجه إلى النفوس المحتاجة إليه، التي تنتظره.

ولم يستسلم الشرّير الوسواس، بل انتهز تراكم العلل والأمراض على الكاهن المسكين كي يوقظ في نفسه الرغبة في الاعتكاف. ولم تكن معاناة الأب "ڤـــيانّي" خافيةً على أُسقفه، الذي أيقن بضرورة دعمه بمعاونٍ يأخذ على عاتقه قسطًا من واجباته الراعويّة. ولكن لم يكن لديه فائضٌ من الكهنة، فيكلّف أحدهم بهذه المهمّة، في الحال.

عام ١٨٤٣ بلغ بالكاهن الإرهاق أشدّه، حتّى ظنّ الجميع أنّ آن حتفه قد أزف، فدوّن وصيّةً مقتضبةً جاء فيها: "أهب جسدي، جسد الخطيئة، للأرض، وأهب نفسي المسكينة لأقانيم الثالوث الأقدس". ثمّ حلّ شهر أيّار، شهر مريم. وكان الخوري القدّيس قد دأب، مدى ستّ عشرة سنةً، على الاضطلاع بكلّ طقوس ذلك الشهر بمفرده، بادئًا بتلاوة نصٍّ من الكتاب المقدّس، ثمّ التعقيب عليه طويلاً، ولكنّه يوم الثالث من أيّار ١٨٤٣، ما كاد يشرع بالقراءة حتّى انتابه

اختناقٌ، فركع كي يتلو الصلاة، ولكنّه لم يستطع سوى التلفّظ ببضع عباراتٍ، وبغتةً انطفأ صوته، ونشبت به حمًّى حارقةٌ، فحُمل إلى حجرةٍ قريبةٍ من حجرة نومه، حيث يتيسّر تقديم الإسعافات الضروريّة له، وسُجّي على سريرٍ مغميًّا عليه.

واستدعي، على عجلٍ، طبيبٌ شخّص التهابًا رئويًّا حادًّا. وهرع إلى المكان الكونت العمدة، ولمّا رأى رثاثة فراش القشّ الذي كان يفترشه، وسماكته التي لا تتعدّى سماكة كفٍّ، استبدله بفراشٍ آخر أوفر راحةً، ولم يتقبّله الخوري القدّيس إلاّ بعد لأيٍ وإلحاحٍ، وسيلٍ من التوسّلات. وخُيّل للطبيب أنّ حالة ذلك الكاهن الذي قد بلغ من العمر ثمانيةً وخمسين عامًا، ومن الوهن أقصى درجاته، ميؤوسٌ منها، ولا توحي بأيّ أملٍ بالشفاء. وسرعان ما انضمّ إليه ثلاثة أطبّاء آخرين، وأجمعوا على وجوب وقايته من كلّ كلامٍ، وكلّ تأثرٍ، فقد كان قلبه يخفق بوتيرةٍ شديدة الضعف. وفجأةً استعاد الكاهن وعيه، وأجال نظره في كلّيّة الطبّ المحيقة به، وقال مازحًا: "أرى أنّني، الآن، أشنّ معركةً كبرى!". فسُئل: "ضدّ من؟" فأجاب: ضدّ أربعة أطبّاء. ويكفي أن يحضر طبيبٌ خامسٌ حتّى تعلَن وفاتي!".

كان يرعبه، في غمرة مرضه، أن يلقى حتفه قبل أن يُتاح له وقتٌ لبكاء خطاياه، ولأداء المزيد من أفعال الخير. هذه الخشية أرّقت لياليه، وملأتها كوابيس مريعةً. وقد باح، ذات صباحٍ: "خُيّل إليّ، في هذه الليلة، سماع الأبالسة يطلقون هتافات نصرٍ، ويصيحون: "لقد قبضنا عليه، إنّه في حوزتنا!".

غير أنّ هذه المحنة لم تنلْ منه، فلم يتخلَّ عن صبره، وثقته بالله، وتقبّل، طائعًا، العلاجات والأدوية، وتحمّل الآلام بخضوعٍ تامٍّ للمشيئة الإلهيّة، التي كان يستشفّها في كلّ ما يحدث.

اعتلال الخوري هذا أشاع، في أرس، جوًّا من الهلع والحزن. وخُيّل لكلّ منزلٍ أنّ في إحدى غرفه ميتًا. وغدا الحجّاج يطوفون حول الكنيسة، مثل قطيعٍ بلا راعٍ. كان ثمّة نحو ثلاث مئة حاجٍّ لم يتسنّ لهم الاعتراف، وأبوا اللجوء إلى كرسيّ اعتراف

كاهنٍ بديلٍ. وكان بعضهم يودّون أن يُتاح لهم الركوع على عتبة الغرفة التي يرقد فيها الأب "ڤـــيانّي"، فيلقي عليهم نظرةً وبركةً، فيسود السلام نفوسهم. وبغية تزويد الحجّاج بشيءٍ من العزاء، حُملت إلى سرير الخوري المعتلّ سلالٌ ملأى بالإيقونات والمسابح والصلبان والصور، فباركها، ووزّعت على الحجّاج الذي تسلّموها بمثابة ذخائر ثمينةٍ، ولا سيّما أنّ كثيرين كانوا يتوقّعون وفاته قريبًا.

ولم يبقَ من أملٍ سوى معجزةٍ سماويّةٍ. فتراصّ الحجّاج أمام مزار القدّيسة فيلومينا، الذي أُحيط بمئات الشموع المضاءة، وحيث كان كهنةٌ قد باشروا تساعيّة صلواتٍ التماسًا لشفاء زميلهم.

يوم الحادي عشر من أيّار بدت نهاية الخوري وشيكةً، والتفّ سبعة كهنةٍ حول سريره، وقرّروا مسحه وتزويده بالزاد الأخير، وارتأوا فعل ذلك بكتمانٍ تجنّبًا لإرعاب أبناء الرعيّة والحجّاج، غير أنّ المحتضر اعترض وطالب بقرع الجرس منذرًا بوفاة الراعي، لأنّه بحاجةٍ إلى صلواتٍ غزيرةٍ. فهطلت من قبّة الجرس رنّاتٌ وئيدةٌ، حزينةٌ، وفي غضون لحظاتٍ غشت الجموع فناء دار الرعيّة، وأروقتها، وأدراجها.

وسأل الكاهن الذي ترأّس طقس صلاة الوداع، بصوتٍ مرتجفٍ، الأب "ڤـــيانّي": "هل أنت تؤمن بكلّ العقائد التي تعلّمها الكنيسة؟" فأجاب: "لم أشكّ بها قطّ". وحينئذٍ تلقّى الأسرار الأخيرة بخشوعٍ وإيمانٍ رائعين، كان لهما أشدّ أثرٍ على الحضور. وبعد انسحاب الكهنة أسرّ المحتضر للكاهن الوحيد الذي تلبّث إلى جانبه أنّه كان يلتمس شفاعة القدّيسة فيلومينا، وطلب منه أن يقيم مئة قدّاسٍ، تكريمًا لها، وأن يُشعل شمعةً كبيرةً أمام إيقونتها.

وفي الحال بدا أنّ المحتضر قد هوى إلى غيبوبةٍ تامّةٍ. ولم يخامر الطبيبَ شكٌّ بأنّ نهايته قد حانت. وسمع المحتضر حكم النطاسيّ. وبعد مضيّ بضعة أشهرٍ روى الأب "ڤـــيانّي" لقريبةٍ له: "فيما كانوا يزوّدونني بمسحة المحتضرين، سمعت الطبيب الذي جسّ نبضي يعلن: "لم يبقَ له سوى ثلاثين أو أربعين دقيقةً، حينئذٍ جال في خاطري:

"يا الله هل يتوجّب عليّ أن أمثل أمامك صفر اليدين؟"، وانتابني الخوف من العودة إلى الله خالي الوفاض، فالتمست شفاعة السيّدة العذراء والقدّيسة فيلومينا لشفائي، لعلّي أستطيع ردم فراغ حياتي، والإسهام في إنقاذ بضع نفوسٍ أُخرى". وحينئذٍ نصح قريبته: "إذا وُجدتِ إلى جانب محتضرٍ، فاقرأي بصوتٍ مرتفعٍ، فهو يسمع، وإن بدا في غيبوبةٍ".

وحدث ما لم يتوقّعه أحدٌ. إذ ما كاد الأب "ڤيانّي" يفرغ من الاستشفاع، قلبيًّا، بالسيّدة العذراء وبالقدّيسة فيلومينا، حتّى تحسّنت حاله، ففتح عينيه، واستعاد القدرة على الكلام. ونَعِمَ، حينئذٍ، بثلاث ساعات سكونٍ، ظلّ خلالها هادئًا، ضامًّا يديه، مصلّيًا بحرارةٍ ملائكيّةٍ. ولكن ما لبث أن نشبت به، مجدّدًا، حمًّى عنيفةٌ. وتعذّر على الطبيب إصدار قرارٍ. ولكن تمّ الاتّفاق، في حال قضى المحتضر تلك الليلة، حيًّا، على أن يقيم الكاهن الذي منحه مسحة المحتضرين، وتلقّى وصيّته، القدّاس الأوّل من القداديس المئة، على هيكل القدّيسة فيلومينا، تنفيذًا لرغبته.

ومع انبلاج فجر الثاني عشر من أيّار، كان الأب "ڤيانّي" مازال يتنفّس. وما أن أُذيع هذا النبأ حتّى غصّت الكنيسة بالمؤمنين المشاركين بقدّاس شكرٍ، على هيكل القدّيسة فيلومينا. وربّما لم تتصاعد، يومًا، صلواتٌ تحاكي حرارة الصلوات التي تصاعدت في ذلك الصباح. في هذه الأثناء، كان الخوري القدّيس يرتجف من الحمّى، وكأنّه يصارع قلقًا طاحنًا. وفيما كان الطبيب يتوقّع في كلّ لحظةٍ أن يراه يلفظ نفَسه الأخير، ساده هدوءٌ مباغتٌ، وبدا مطمئنًّا، مأخوذًا برؤيا فاتنةٍ. وما كاد ينتهي القدّاس في الكنيسة حتّى هتف: "لقد حدث فيّ تغييرٌ كبيرٌ... لقد شُفيت!". وكان، في أثناء انخطافه قد تلفّظ، عدّة مرّاتٍ، باسم "فيلومينا". وشاع الاعتقاد أنّ "قدّيسته الصغيرة العزيزة" ظهرت له. وهو نفسه عزا لها شفاءه غير المتوقّع. وفي الواقع، كان قد استعاد عافيته بسرعةٍ عدّها الأطبّاء "مذهلةً"، وآثر هو، أن يعدّها "معجزةً".

وكان عليه أن ينتظر ستّة عشر يومًا خالها دهرًا، قبل أن يعود إلى كنيسته، ويجثو أمام مخبأ القربان، ويسترسل في تأمّله. ويوم العشرين من أيّار، استطاع، مستندًا على ذراع مساعده، الاحتفال بالقدّاس، ثانيةً. ولكنّه كان مازال في حالةٍ من الهزال لا تتيح له الصوم، فاضطرّ إلى إقامة ذلك القدّاس في الساعة الثانية صباحًا. ورغم ذلك الوقت المبكّر جدًّا، كانت الرعيّة بأجمعها حاضرةً. وهو اختار للاحتفال بهذا القدّاس هيكل السيّدة العذراء الذي اعتاد إقامة القدّاس عليه كلّ يوم سبتٍ. وكان قدّاسًا يتعذّر نسيانه، يذكّر بقداديس المسيحيّين الأوائل في الدياميس.

بيد أنّ الأطبّاء حظروا عليه استئناف وتيرة نشاطه المرهق قبل استعادته كامل قواه. وخضع الأب لطلبهم الذي شقّ عليه. فكان كلّما غشى الكنيسة يلقي على كرسيّ الاعتراف نظرةً وجيعةً، ويتمنّى متلهّفًا الشفاء الكامل، في أقرب موعدٍ، واستئناف خدمة النفوس، بلا تحفّظٍ.

غير أنّ أبناء رعيّة أرس الذين سعدوا بقيامة خوريهم سكنهم هاجس بعاده عنهم، لتحقيق أمنيّةٍ طالما راودته، أمنيّة الاعتزال للتأمّل والصلاة والتوبة، في الوحدة، استعدادًا للمثول أمام محكمة الديّان. لقد امتلكهم الخوف من أن يفجعوا به وهو حيٌّ، بعيدًا عنهم. وكرّت الأسابيع، والخوري جاهدٌ في استعادة قواه، وليس ما يشير إلى تأهّبه للرحيل، مع أنّ فكرة الاعتكاف لم تبارح ذهنه، وهاجس رحيله لم يبارح نفوس أبناء رعيّته.

وما إن شرع يتعافى حتّى أوعز بإعادة الفراش الوثير الذي جاءه به العمدة. ثمّ، مذ أتاح له طبيبه العودة، تدريجيًّا إلى كرسيّ الاعتراف، أضحى يهرع إليه منذ الساعة الواحدة ليلاً، مقاومًا اعتراض معلّم المدرسة الذي تطوّع للسهر عليه أثناء مرضه، كان يردّه قائلاً، جازمًا: "عندما كنت عليلاً، كنت أطيعك عملاً بمشيئة الله، أمّا الآن فعليك، أنت أن تطيعني. عُدْ، إذن، إلى فراشك، ودعني وشأني". وتغاضى الطبيب، رأفةً بالمؤمنين والحجّاج المرابطين عند كرسيّ الاعتراف، ولكنّه لم يتهاون

بشأن نظام الخوري الغذائيّ، بل فرض عليه وجبتَيْن، يوميًّا، على أن تحتوي وجبة الظهر شيئًا من اللحم، وربع كأس نبيذٍ مع كلّ وجبةٍ. وحيال تردّد الأب "ڤــيانّي" في الالتزام بهذا النظام الذي يناقض كلّ ما درج عليه سابقًا، وكلّ ما اعتاده من زهدٍ، استنجد الطبيب بالأُسقف الذي أيّد وصفة الطبيب، ودعا الكاهن إلى الالتزام بها. وغدا الخوري يشكو للمحيطين به والذين كانوا شهودًا على الصراع الداخليّ الذي يشنّه على نفسه في هذا السبيل، وهو ينتحب: "كم أصبحت همًّا! وها قد تضاءلت النِعَم التي كنّا ننالها!... وكم أشعر بالضيق كلّما اعترفت!...".

لم يكن القدّيس قد تخطّى، حينئذٍ، الثامنة والخمسين من عمره، ومع ذلك تجلّت عليه أمارات شيخوخةٍ متقدّمةٍ. وهذا ما أقرّ به خادم رعيّةٍ أُخرى، زاره فاستخلص: "مع سوقه حياة التضحية والزهد هذه، فضلاً عمّا أعرفه، بصفتي مرسلاً، عمّا يعني قضاء أيّامٍ في سماع اعترافاتٍ، ووعظٍ، وتعليمٍ مسيحيٍّ، لم أستطع، وفقًا للمنطق البشري، أن أتوقّع استمراره في العيش أكثر من ثلاثة أشهرٍ". ولم يكن الأطبّاء أكثر تفاؤلاً من ذلك الكاهن، وارتأوا من الواجب والضروريّ أن ينال الأب "ڤــيانّي" قسطًا وافيًا من النقاهة. وكانوا يعنون، ضمنًا، ضرورة هجره، مؤقّتًا، كرسيّ الاعتراف. ولكنّهم لم يمتلكوا جرأة مصارحته بذلك خشية القضاء عليه. وتولّى الأُسقف هذه المهمّة، فذكّره بحقّه في الحصول على عطلةٍ سنويّةٍ، مدّة خمسة عشر يومًا، على أن يضمن حضور بديلٍ له، في أثناء غيابه. وفي الواقع، كان خوري رعيّةٍ أخرى مجاورةٍ لأرس، قد قضى معظم وقته في أرس، طوال مدّة اعتلال الأب "ڤــيانّي"، وبالتالي كان مهيّأً للنيابة عنه، أثناء غيابه. ومع أنّ الأب "ڤــيانّي" قد التزم دائمًا بدقّة المواعيد، ووضوح القرار، إلاّ أنّه أظهر تردّدًا في قضيّة العطلة. وماانفكّت تساوره رغبةٌ أخرى لا تلبث أن تتفجّر في نفسه، وهي الانغماس في الوحدة، بلا عودةٍ.

وجال في خاطره الاعتكاف مدّة أسبوعين في منــزل ذويه، حيث يقرّر، بهدوءٍ،

الخيار بين مواصلة سيرةٍ مرهقةٍ، ورعايةٍ روحيّةٍ لم يكن يعدّ نفسه مؤهّلاً لها، أو الاكتفاء بخدمة كاپيلاّ في رعيّةٍ صغيرةٍ تتيح له فسحةً رحبةً للتأمّل والصلاة. وحرص على أن يتمّ ذلك في كتمانٍ تامٍّ، تفاديًا لاعتراض رعيّته التي كان ينهشها خوفٌ دائمٌ من غيابه عنها.

وفيما كان يتخبّط في دوّامة الحيرة هذه، كتب إلى أخيه فرانسوا طالبًا منه أن يعدّ له غرفةً في المنزل الأبويّ. وأخيرًا يوم الحادي عشر من أيلول، أطلع الكاهن الذي كان يساعده على مشروعه. وربّما كان هذا الأخير طامعًا في خلافته على رعاية أرس، ولم يلبث أن اقترح على الأُسقف أن يكلّف الأب "ڤيانّي"، من أجل إراحته، برعاية مصلًّى صغيرٍ في قريةٍ، حيث لا يتعيّن عليه سوى الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة، والانصراف بحرّيّةٍ، إلى التأمّل والصلاة. ومساء ذلك اليوم عينه لم يستطع الخوري الإحجام عن توديع دار العناية الغالية على قلبه، وكادت هذه المبادرة تطيح بمشروع فراره. فقد سارعت المسؤولات عن تلك الدار، حانثاتٍ بوعدهنّ كتم هذا الأمر، حتّى بعد رحيله، إلى استنفار أبناء الرعيّة، الذين احتشدوا حول منافذ مقرّ الكاهن للحؤول دون رحيله عنهم.

بُعَيْد الساعة الواحدة ليلاً، سُمِع تسلُّلٌ عبر سياج الحديقة. وكان المتسلّل هو الخوري القدّيس، متأبّطًا كتاب صلواته، وبيده رزمةٌ صغيرةٌ، وحاول بعض الموجودين إيقافه، طالبين منه مباركة ما كانوا يحملونه من إيقوناتٍ وأغراض تقويّةٍ. ولكنّه لم يستمع إليهم، وحثّ الخطى، وغاص في العتمة. فاستُدعي، على عجلٍ، معلّم المدرسة الذي كان يتولّى حراسة الخوري فلحق به، غير بعيدٍ عن المقرّ الراعويّ. وكأنّه قد تاه في الأرضي الزراعيّة. وبادره المعلّم بالسؤال: "علامَ تهجرنا، يا أبتاه؟" فأجابه: لا تهدرنّ الوقت، لقد التمست من الأسقف إذنًا بالاعتزال. وسأنتظر جوابه في مسقط رأسي "درديّي". وسأقيم قدّاسًا في كنيسة سيّدة "فورڤيير"، بليون، استيضاحًا لمشيئة الله. فإذا استجاب الأُسقف لملتمسي،

تكون أُمنيّتي قد تحقّقت. وإن هو أمرني بالعودة فسأعود. وفي هذه الأثناء لن تفتقر الرعيّة لشيءٍ. فقد تداركت كلّ احتياجاها".

وواصل الكاهن وحارسه مسيرهما إلى قرية "درديّي". ولكنّ الهارب توقّف بغتةً. فعلى امتداد الفترة الطويلة التي قضاها حبيس كرسيّ الاعتراف، كانت الطرقات قد تغيّرت، فخيّل إليه أنّ حارسه يقصد تحويله عن الطريق الصحيح والعودة به إلى أرس. ولكنّ الحارس أكّد له بطلان ظنونه. فتابعا السير، يصلّيان ويتجاذبان الأحاديث. واستغرق وصولهما إلى غايتهما سبع ساعاتٍ. تلوا، في أثنائها المسبحة، سبع مرّاتٍ. وبما أنّه لم يكن أيٌّ من المسافريْن يملك فلسًا، فقد أشفق عليهما المسؤولون عن عبور الجسور، وأصحاب المطاعم، وأعفوهما من دفع المبالغ المطلوبة للعبور وللطعام.

وأخيرًا، اجتاز الأب "ڤـــيانّي" عتبة بيت أُسرته. وكان من الإرهاق بحيث ارتمى للحال على سريرٍ. وبعد أن نال حارسُه قسطًا من الراحة، طلب منه الكاهن الرجوع إلى أرس، ثمّ العودة، يوم الجمعة، من الأسبوع التالي، على أن يصلّيا يوم السبت في كنيسة "فورڤـــيير".، ويقرّرا ما يتوجّب عليهما.

وفي صباح اليوم التالي، استفاق الأب "ڤـــيانّي" سعيدًا بوجوده في البيت الذي رأى فيه النور في أحضان أمٍّ تفيض حنانًا وأبٍ مستقيمٍ، وبين إخوةٍ وأخواتٍ أحبّاء. وتذوّق ساعات فرحٍ عذبةً تبادل، أثناءها، ذكريات الصبا، حلوها ومرّها، مع شقيقه الأكبر، فرانسوا، واسترجعا صور الوالدين الغاليَيْن؛ وتعرّف عن كثبٍ على أفراد أُسرة أخيه وأحوالهم، وملأ رئتيه برائحة حساء البيت الشهيّة. ولكنّ هذا الهناء لم يعش أكثر من نهارٍ. ففي أرس كان الوجوم قد ارتسم، في ذلك اليوم، على جميع الوجوه، وقبض جميع النفوس، إذ سرت شائعةٌ تزعم أنّ خوري الرعيّة قد لجأ إلى دير رهبانٍ حبيسين، بلا رجعةٍ. وتلقائيًّا هجرت الحياة القرية، وهجرها الفرح والاندفاع. وكتبت ساكنة القصر، واصفةً المشهد الكئيب، فبيّنت أنّ دار

العناية تئنّ بنحيب اليتيمات، وأنّ نصف نزلائها غادروها قانطين، وأنّ حشود الحجّاج تبدّدت، وأنّ الكنيسة خوت؛ وهنا وهناك فتياتٌ راكعاتٌ مصلّياتٌ، وسط شموعٍ مشعلةٍ، ومظاهر الحزن تهصر القلوب؛ ولكأنّ الموت حلّ مكان الحياة، وأنّ الكتاب الذي كان الأرسيّون والحجّاج يقرأون فيه، كلّ يومٍ، صفحةً من سيرة قدّيسٍ قد طُوي. ولم يلبث الكاهن الذي ناب عن الأب "ڤـــيانّي"، والذي كان يراوده أملٌ في خلافته، وفي مواكبة حركة الحجّ إليها أن أدرك أنّ لا حجّ، ولا حركة، في غياب خوريها الأصيل، الذي جعل منها قبلة حجٍّ، وموطن قداسةٍ.

لا ريب أنّ ذلك الكاهن البديل، الأب ريمون، كان نشيطًا، ومثابرًا على أداء مهامّه، ولكنّه كان يفتقر إلى الصبر والدماثة والطيبة، وكلّ ما يجتذب قلب مؤمنٍ أو حاجٍّ. وسرعان ما تيقّن ذلك الكاهن، وشاركه الجميع يقين أنّ كلّ حركة الحجّ، وكلّ التطوّرات التي جرت في أرس، كانت مرتبطةً بشخص الأب "ڤـــيانّي"، ومحصورةً به.

يوم الخميس، ١٤ أيلول، عاد أستاذ المدرسة، رفيق الخوري في فراره، إلى أرس وأطلع عمدتها على مكان الكاهن، فجرى ساعيًا إليه. وحاول شقيق الأب "ڤـــيانّي" إيهام العمدة بأنّ أخاه سافر إلى مكانٍ لم يطلعه عليه، فاكتفى العمدة بتدبيج رسالةٍ إلى الخوري القدّيس جاء فيها: "تريّث في اتّخاذ قرارٍ. إنّك تحتاج إلى راحةٍ ونقاهةٍ. وأنا أدرى الناس بحاجتك هذه. فامكث لدى شقيقك كلّ الوقت الذي يمكّنك من استعادة قواك. ولكن لا تنسَ رعيّتك المسكينة في أرس... ولا يغيبنّ عن ذهنك كلّ النفوس التي تقتادها على درب السماء، وكلّ النفوس التي ضلّت طريق السماء وأعدها إليها. وفكّر بدار العناية، فأنت روحها وسندها، وهي لا قدرة لها على البقاء بمعزلٍ عنك. وفكّر، أخيرًا، بمصلحة الإيمان الذي انتدبك الله نفسه لدعمه وتمجيده".

وفيما كان العمدة يعبّر عن تأثّره، من خلال تلك السطور، كان الخوري

القدّيس يصلّي في حجرةٍ تعلو تلك التي كان العمدة يدبّج فيها رسالته. ولكنّه لم يُحطْ علمًا بمجيء العمدة إلاّ بعد رحيله. فقرأ رسالته وأعاد قراءتها، فأخذ التأثّر به كلّ مأخذٍ. وتوالت الرسائل المطالبة بعودته. وأتت إحداها من معاونته المكلّفة بدار العناية، حاملةً أنباءً مقلقةً، فقد هجر تلك الدار معظم نزلائها، ولم يبقَ فيها سوى خمس عشرة فتاةً صغيرةً.

وكان الكاهن البديل قد قابل الأسقف الذي أكّد له أنّه لن يسمح أبدًا للأب "ڤــيانّي" بمغادرة أبرشيّته. وكان قد سبق له أن أعلن: "إذا سمحت له أن يغادر أبرشيّتي، فأكون قد بدّدت كنـــزًا".

ومن الرسائل المؤثّرة الواردة، رسالةٌ بعث بها صاحب مقهًى في أرس، "اخترب بيته"، إذ خوى مقهاه، إثر غياب الكاهن، فرجاه ألاّ يتخلّى عن قرية أرس، مؤكّدًا عزمه الثابت على إلغاء كلّ مظهرٍ أو سلوكٍ في مقهاه، لا يرضى به رجل الله.

أمّا الحدث الحاسم فكان تحوّل بيت آل "ڤــيانّي" في "درديّي"، إلى "أرس" أُخرى، إذ تقاطرت إليه مواكب الحجّاج بغزارةٍ، ولم يقوَ الكاهن على ردّهم، فالتمس من أسقف ليون إذنًا بسماع اعترافاتهم، وعاد إلى الاحتباس في كرسيّ اعتراف كنيسة قريته، زاهدًا بالراحة والطعام. وغدا قادمٌ جديدٌ يقرع باب بيت ذويه، في كلّ لحظةٍ، طالبًا مقابلة الأب "ڤــيانّي"، حتّى ضاق شقيقه ذرعًا باحتلال غرباء منـــزله، وتعكير حياة أُسرته.

وصباح يوم الأحد، السابع عشر من أيلول مثُل عند أبواب مزرعة آل "ڤــيانّي" موكبٌ من ثلاثةٍ وعشرين شابًّا من رعيّة أرس. وأبى أصحاب المزرعة السماح لهم بالدخول، وعلت الجلبة، وتنامت إلى مسامع الخوري الذي كان مستيقظًا منذ الفجر، منقطعًا للصلاة. فأطلّ على زائريه من نافذة حجرته، وناداهم، فانتعشت نفوسهم لدى سماعهم صوته الرقيق الحبيب، وأدخلهم إلى غرفته وتلا معهم صلاة المسبحة، ثمّ اقتادهم إلى الكنيسة، وأقام لهم قدّاسًا، وقبل عودتهم طلب منهم أن

يحضروا قدّاسًا في أرس يوم الثلاثاء، ويصلّوا من أجله، وكان هو عازمًا على إقامة قدّاسٍ في كنيسة سيّدة "فورڤـــيير"، في ليون، استيضاحًا لمشيئة الله.

وأوضح الله مشيئته على نحوٍ غير متوقّعٍ. فمساء يوم السبت، السادس عشر من أيلول قدم إلى "درديّي"، كاهنٌ حاملاً رسالةً من الأُسقف، ولم يكن ذلك الكاهن سوى الأب "ريمون" الطامح في خلافة الأب "ڤـــيانّي"، في رعيّة أرس. ولكنّه تجنّبًا لأيّة مقاومةٍ شعبيّةٍ أو إثارة أيّة شبهةٍ، لم يقرع باب خوري الرعيّة إلاّ في الساعة الثامنة مساءً. ومع ذلك لقي ترحيبًا فاترًا، إذ لم يخفَ على أحدٍ أنّ غاية مجيئه هي استعادة الأب "ڤـــيانّي". ولكنّه حرصًا على إشاعة جوٍّ من الطمأنينة، اقترح أن يحتفل شخصيًّا بقدّاس الأحد، على أن يتحدّث بعدئذٍ إلى الأب "ڤـــيانّي". وخدم الأب "ڤـــيانّي" ذلك القدّاس، ثمّ اقتاده مرسل الأُسقف إلى بيت ذويه، وسلّمه رسالة الأسقف فاطّلع عليها، وتجهّم محيّاه، ولكنّه لم يفُهْ بلفظةٍ. وطمأن الأب "ڤـــيانّي" أخاه الذي لم يعُد يطيق صبرًا على محاصرة أبناء أرس والحجّاج لمنـــزله، مؤكّدًا له اعتزامه الرحيل في الغد.

كان عرض الأسقف يتضمّن تكليف الأب "ڤـــيانّي" بخدمة مزار سيّدة "بومون" (Beaumont)، حيث سيتسنّى له جوٌّ من الراحة. ولكنّه لم يفرض عليه ذلك التعيين بل دعاه إلى إعمال الفكر، وتقرير ما يلهمه الله. وارتضى الكاهن أن يشدّ الرحال إلى تلك القرية، التماسًا لإلهام العذراء حول مشيئة الله، والتمكّن من التقرير وفقًا لتلك المشيئة. ورغب القدّيس في وداع البيت الوالديّ قبل رحيله، فهرعت إليه ثلّةٌ من أعيان القرية متمنّين منه قضاء أيّام تقاعده في ما بينهم، وواعدين بالحصول له على تفويض الأسقف بممارسة جميع المهامّ الكهنوتيّة في كنيسة رعيّتهم، واكتفى بالردّ: "إذا استطعتم إلى ذلك سبيلاً فستحقّقون لي أغلى أمنيّةٍ". وحينئذٍ انصرفوا مطمئنّين.

وكان قد عُقد بين الأب "ڤـــيانّي" ورسول الأسقف اتّفاقٌ على أن يغادر هذا

الأخير ليلاً، زاعمًا أنّه ماضٍ لتبليغ الأُسقف قرار خوري أرس، على أن يتوقّف في قريةٍ يلحق به إليها الأب "ڤـيانّي" في صباح الغد الباكر. هذا الاتّفاق لم يطّلع عليه سوى شقيق الأب "ڤـيانّي"، الذي سعد به لأنّه سيضمن تحرّره من محاصرة جموعٍ لا تنفكّ تأتي وتعود، ويأتي سواها. وعند الفجر يمّم الأخوان "ڤـيانّي" صوب مكان اللقاء الذي يبعد عن قريتهما نحو خمسين كيلومترًا. وعند عبورهما بإحدى القرى لمحهما عمدتها، وتعرّف خوري أرس القدّيس، وألحّ في استضافته، ولو سويعاتٍ. وسرعان ما ذاع نبأ وصوله، وفي الحال غصّت كنيسة القرية بالحضور، وألقى الخوري فيها عظةً مقتضبةً دعا، من خلالها، إلى التجرّد من متاع الدنيا، وتحدّث عن قِصَر الحياة، وعن السعادة السماويّة الأبديّة. وتطوّع صاحب عربةٍ لإيصال الواعظ إلى مقصده الذي انتهى إليه مع هبوط الليل.

وصباح اليوم التالي اقتاد رسول الأسقف الأب "ڤـيانّي" إلى مزار سيّدة "بومون"، حيث ستتسنّى له الراحة والانقطاع للتأمّل والصلاة، إذا قرّر تولّي رعايته. وهو مزارٌ عتيقٌ يقصده الحجّاج، صيفًا، التماسًا لنعم أُمّ الله، التي قيل إنّها أجرت هناك العديد من المعجزات. واحتفل الأب "ڤـيانّي" بالقدّاس، مستوحيًا أنوار الروح القدس. واستوضحه رسول الأسقف عن قراره، فأجابه: "لم أقرّر بعد. وسأواصل الصلاة والاستلهام فيما أخدم القدّاس الذي ستحتفل أنت به". وما إن فرغ رسول الأسقف من قدّاسه، وقبل خلع حلّته الكهنوتيّة، صارحه الأب "ڤـيانّي"، بقراره: "لا يريدني الله هنا!"، "أين تودّ، إذن، أن تمضي؟"، "فلنعُدْ إلى أرس!".

كان هذا قراره الحاسم. وفي الحال همّ بالعودة إلى رعيّته. وانطلقت عربةٌ بالكاهنين، فأمضى الخوري القدّيس مدّة الرحلة، مصلّيًا، باكيًا. ولمّا صارا على مسافة سبعة كيلومتراتٍ من أرس، قال: "إنّ العربة تتعبني. أوثر مواصلة الطريق سيرًا على قدميّ".

كان قد غادر رعيّته المحبوبة بحثًا عن مشيئة الله، فأعادته مشيئة الله إليها. ولدى

وصوله إلى قريةٍ مجاورةٍ لأرس، دعاه رسول الأسقف الذي كان خادم رعيّتها إلى التوقّف للراحة. وجرى الأب "ڤـــيانّي" إلى كنيستها، حيث تخشّع أمام القربان المقدّس. فيما جرى ساعٍ إلى أرس القريبة زافًّا نبأ رجوع خوريها إليها، في غضون ساعةٍ. وفي الحال نشرت الأجراس في الأجواء رنّات الفرح، وألهبت البهجة النفوس، وألقى جميع أبناء القرية جانبًا كلّ ما كان يشغلهم. حتّى الفلاّحون ألقوا فؤوسهم ورفوشهم، وجروا بثياب عملهم للترحيب براعيهم الحبيب الذي فجعهم غيابه طوال أسبوعٍ. وعند الساعة الخامسة تسارعت رنّات البهجة، وظهر الخوري القدّيس متوكّئًا على عصًا، وغاص في لجّة أبناء رعيّته المحتشدين للترحيب بعودته. وبادرهم بالقول: "ظننتم أنّكم فقدتم كلّ شيءٍ، وها كلّ شيءٍ يعود إليكم. بعد اليوم لن أبعد عنكم، يا أبنائي الأحبّاء". ولم يقوَ على التلفّظ بأكثر من هذه العبارات، فقد كان التأثّر آخذًا بخناقه. ولكنّ أنظاره الشاخصة إلى السماء، ويديه المرتجفتين كانت أبلغ تعبيرٍ عن سعادته. وبمساعدة رسول الأسقف طاف ساحة الكنيسة عدّة مرّاتٍ، مباركًا أبناءَه، فذرّف بعضهم الدموع، وتلعثم بعضهم بعبارات الترحيب والشكر، وعبّر آخرون عن مشاعرهم بالركوع الخاشع.

وأطلّ الأب العائد، لحظاتٍ، على دار العناية التي ضجّت فرحًا بمؤسّسها ووليّ أمرها. وكان التعب قد أخذ به كلّ مأخذٍ، فسُبِّق موعد صلاة المساء، التي حرص على تلاوتها بنفسه، وسط أبنائه المحيقين به.

وبما أنّ مواكب الحجّاج كانت قد تشتّتت أثناء غيابه، فقد نعم الخوري العائد ببضعة أيّام راحةٍ نسبيّةٍ، قبل أن يستأنف سيل الحجّ تدفّقه من كلّ صوبٍ.

وأيقن الأب "ڤـــيانّي" أنّ الله أراد بقاءه في أرس.

معَــاوِنٌ لخوري أرســـ

مع تنامي حركة الحجّ، ومحاصرة التائبين القادمين من كلّ صوبٍ، لكرسيّ اعتراف خوري أرس الذي كانت الأصوام والأسهار والتضحيات، والجهد المتواصل الذي لا يفسح له سانحةً لالتقاط أنفاسه، قد هدّت قواه وأوهتها، وأشعرته، رغم جَلَده البطوليّ، وبذل ذاته في الخدمة، بلا تحفّظٍ، بعجزه عن مواصلة قيامه بالأعباء المتنامية، وعن التوفيق بين تلبية احتياجات الحجّاج والاضطلاع بواجباته الراعويّة. وكان قد باح لمرسلٍ لاهوتيٍّ أمضى بضعة أيّامٍ في ضيافته بأرس: "يا صديقي، لن أستطيع مواصلة العمل بهذه الوتيرة، إلاّ بنعمةٍ إلهيّةٍ استثنائيّةٍ، وأنا لا أتناول سوى الزهيد من الطعام. ولو تعلم كم أنا أتألّم! فغالبًا ما تنتابني نوبات مغصٍ مريعةٌ؛ وهي الآن قد غدت يوميّةً. ولكنّها من الإيلام بحيث لا أقوى على احتمالها. إنّ جسمي ينتفخ، وأكاد أقع إغماءً، ما لم أخرج بسرعةٍ وأتناول مهدّئاتٍ".

وأدرك أبناء رعيّته وأُسقفه ضرورة دعمه بمعاونٍ يتولّى جزءًا من مهامّه الراعويّة اليوميّة، فيتيح له الاهتمام بالحجّاج وطالبي الاسترشاد والغفران. وترك له الأُسقف حرّيّة اختيار ذلك المعاون. وهو كان يؤثر معاونًا يستطيع إيلاءه ثقةً كاملةً، ويمكّنه التعاون معه من الحفاظ على الطابع الذي دمغ به الحجّ، وفي الآن عينه مواصلته أسلوب عيشه الممعن في التقشّف. وخُيّل إلى الأب "ڤــيانّي" أنّه عثر على ضالّته في شخص الأب ريمون، خادم رعيّةٍ قريبةٍ جدًّا من أرس، كان قد سبق للأب "ڤــيانّي" أن موّل دروسه الإكليريكيّة ونفقاته حتّى سيامته الكهنوتيّة. وكان ذلك الكاهن يقضي معظم وقته في أرس مساعدًا خوريها كلّما اشتدّ الزحام، وثقلت أعباء الرعاية. ولكنّ ذلك الكاهن كان يداعب في سرّه، أمل خلافة الأب "ڤــيانّي" على رعاية أرس، أملاً في اكتساب شهرةٍ من تدفّق الحجّاج إليها.

وفي الواقع كان الأب ريمون، بطباعه، نقيضًا للأب "ڤــيانّي". فهو حادّ المزاج،

جافٌّ وقاطعٌ في علاقته بالآخرين، محبٌّ للسيطرة، وفرض ذاته وآرائه على الآخرين. ولم يكن يملك أيّةً من الخصال الكفيلة بحمل الآخرين على محبّته، مع أنّ البعض كانوا يقدّرون مؤهّلاته وقدراته الإداريّة. وربّما كان الأب "ڤـــيانّي" مستعدًّا للامّحاء أمامه تسهيلاً لمهمّته، غير أنّ الأرسيّين لم يرتاحوا لذلك المعاون، ولم يقبلوا سلطته عليهم، من جرّاء تعاليه، وتسلّطه، وجفائه، وعنفه، وصرامته المفرطة. وفي سبيل الحدّ من اعتراض أبناء الرعيّة، وقّع الأب "ڤـــيانّي" معه اتّفاقًا حدّد مسؤوليّات كلٍّ منهما، وأوضح أنّ خادم الرعيّة، هو، وسيبقى الأب "ڤـــيانّي"، وما الأب ريمون إلاّ معاونٌ له. ولكنّ الواقع أثبت أنّ ذلك المعاون، مع ارتضائه توقيع ذلك الاتّفاق، طوعًا، لم يمكّنه طبعه الاستثاريّ من الالتزام به. فقد أظهرت السجلاّت الكنسيّة أنّه لم يكن يتورّع عن التوقيع على وثائق العماد والزواج وسواها التي قام بها، بصفته "خوري أرس". وكان يسعى، دائمًا إلى الظهور بمظهر صانع القرار والمسؤول الرئيسيّ عن كلّ شؤون الرعيّة. وبالإجمال، كان، طوال سنواتٍ، صليبًا مرهقًا للأب "ڤـــيانّي"، أوسعه إيلامًا. غير أنّ الخوري القدّيس مانفكّ يعامله بمحبّةٍ، ويكذّب حملات التشهير به، ويعترض بحزمٍ على محاولات الأُسقف استبداله، مشيدًا بخصاله، وبنجاعة أعماله. وفي سرّه، كان يعدّه امتحانًا من الله، يساعده على إصلاح عيوبه، والتخلّص من رواسب نفاد الصبر. ولطالما أعلن أنّه يذكّره بحقيقته وبنقائصه.

وفي الواقع كان الأب ريمون مجتهدًا، مثابرًا على القيام بمهامّه، ولكنّه كان يفتقر إلى التواضع والدماثة والعطف، وإلى كلّ ما يجتذب مؤمنًا أو حاجًّا. فكيف لمن خوى قلبه من العطف أن يدعو مستمعيه: "أبنائي الأحبّاء"، وهو لا يعدّ نفسه أبًا وخادمًا لهم؟ وكيف لهم أن يصدّقوه؟ وكان قد سبق له أن خدم رعايا عديدةً، ولم يتوفّق إلى اكتساب محبّة أيٍّ منها.

وكان من المهامّ التي أوكلها إليه الأسقف مراقبة أموال التبرّعات الواردة،

والتي كان الأب "ڤـــيانّي" فاشلاً في إدارتها، بسبب ضعفه أمام كلّ سائلٍ حتّى إذا كان محتالاً. فكان الأب ريمون قيدًا متعبًا للخوري القدّيس في هذا المجال.

كاهنان كانا يختلفان في كلّ شيءٍ، ظاهرًا وباطنًا. فالأب "ڤـــيانّي" قصير القامة، نحيل الجسم، شاحب اللون، يوحي بالوهن. في حين كان الأب ريمون مكتنـــز الجسم، مفتول العضلات، ومحيّاه المتألّق بألوانٍ زاهيةٍ يوحي بصحّةٍ طافحةٍ.

وكان الأب "ڤـــيانّي" مسرفًا في الزهد والتواضع، متدفّقًا عطاءً وسخاءً، ودماثةً، وتسامحًا، على نقيض معاونه الذي أوهمه امّحاء رئيسه أمامه بتفوّقه عليه، وبحقّه في السيطرة والتفرّد بالقرار. تفكيران متناقضان، وأسلوبان متباينان، ومع ذلك جمعتهما العناية الإلهيّة، في حكمتها التي لا ندركها.

وحلّ يومٌ ضاق الأب ريمون ذرعًا من ازورار أبناء رعيّة أرس عنه، وتذمّرهم من أساليب سلوكه، ورفضهم لوجوده في رعيّتهم، فطلب من الأسقف نقله. ولكنّ الأُسقف تريّث، تلبيةً لرغبة الأب "ڤـــيانّي" الذي كان يخشى الاضطرار إلى تولّي جميع الشؤون الراعويّة التي فقد القدرة عليها. ولم يكفّ عن امتداح الأب ريمون لدى الأسقف، وعن تأكيد رغبته في بقائه، لكيلا يُكرَه على هجر الرعيّة والاعتكاف في بيت ذويه.

ولكنّ الأرسيّين والراهبات اللواتي كُلِّفن بإدارة دار الرعاية، والإخوة الذين أُوكلت إليهم إدارة مدرسة الذكور، ماانفكّوا يبلّغون الأسقف شكاواهم من تدخّلات الأب ريمون وتعاليه، ولم يجد الأسقف بدًّا من تعيينه خادمًا لرعيّةٍ بعيدةٍ عن أرس، التي ودّعها الأب ريمون في الرابع من أيلول ١٨٥٣، بعد أن جرّع الأب "ڤـــيانّي" أمرّ الكؤوس، على امتداد سنين، متيحًا للخوري القدّيس إثبات قدراته الهائلة على الصبر والصفح والمحبّة. ولكنّه قبل رحيله، لم يكفّ عن امتحان صبر الخوري القدّيس ومعاونيه، كما سنرى.

تطوّراتٌ وتغييرٌ، وتأسيسٌ مستمرٌّ

عندما أسّس الأب "ڤـيانّي" دار العناية، كان هدفه الرئيس تنشئة أمّهاتٍ مستقبليّاتٍ، فاضلاتٍ، مشبعاتٍ بالروح المسيحيّ، على غرار أُمّه البارّة التي غرست فيه بذور دعوته الكهنوتيّة. وكان يأمل، أيضًا، أن تحرّره هذه المؤسّسة من شؤون طعامه، وخدماته الشخصيّة الضروريّة، مثل غسل ثيابه، وتكنيس حجرته، على أن يلقى، في هذه المجالات، مثل ما تلقاه أيّة يتيمةٍ من يتيمات الدار. وكان يرجو أن يقضي أيّامه الأخيرة في ظلّ تلك الدار، فخطّط لبناء كاپيلاّ محاذيةٍ للدار يقيم فيها القدّاس للنـزيلات، ويجعل منها موئل عبادةٍ دائمًا، وملاذًا لأيّامه الأخيرة. وبدأ بناءها، عام ١٩٤٤، على أرضٍ قدّمتها له البلديّة. وفي موازاة ذلك، لم يكفّ عن تكبير الكنيسة، وإضافة ملحقاتٍ إليها، وإقامة أروقةٍ ينتظر فيها الحجّاج دورهم للمثول إلى كرسيّ الاعتراف.

ولكن غالبًا ما يسمح الله بمعاكسة مخطّطات أوليائه وقدّيسيه. وكان الخوري القدّيس قد استنفر ثلاث فتياتٍ مندفعاتٍ لإدارة تلك الدار، فبذلنَ ذواتهنّ بسخاءٍ لا محدودٍ، واستدرّ كرم الحجّاج والمحسنين لسدّ احتياجات الدار المادّيّة، ولم يوصد باب الدار في وجه أيّ طارقٍ. وأسهمت العناية الإلهيّة في تأمين الاحتياجات الطارئة، حتّى بمعجزاتٍ. ومن المحقّق أنّ تلك الدار نمت بوتيرةٍ مدهشةٍ، وآتت رعيّة أرس خيرًا جمًّا.

وكان الأب "ڤـيانّي"، تحسُّبًا للمستقبل، وضمانًا لاستمرار الدار، قد أعدّ ثلاث فتياتٍ أخرياتٍ لمساعدة مديراتها عند الحاجة، وخلافتهنّ عندما يحين الأوان. ولكن، ربّما غرب عن باله أنّ استمرار مستقبل تلك الدار، بالزخم الذي بثّه فيها، متعذّرٌ بمعزلٍ عن شخصٍ يمتلك قدرته على استدرار سخاء النفوس الكريمة، وعلى استمطار معجزات السماء. وهذا ما تبيّنه، وأقلقه، مع تقدّمه في السنّ، ولا سيّما

عقب ما أصاب الدار من ضعضعةٍ وبوادر انهيارٍ، بمجرّد غيابه بضعة أيّامٍ، وذيوع شائعة اعتكافه.

ومن جانبٍ آخر، رغم الرضى الشعبيّ الذي واكب إقامة تلك الدار، سرعان ما شرعت تتعالى انتقاداتٌ تنحي باللوم على جوانب متعدّدةٍ من أحوالها. فقد انتاب القلق أولياء النـــزيلات من جرّاء اختلاط فتياتٍ من كلّ الأعمار، ومن شتّى المناشئ، ومجاورة متسوّلاتٍ قذراتٍ مفتقراتٍ إلى تربيةٍ أساسيّةٍ، ومعتاداتٍ على مقذع الأقوال والعبارات، لفتياتٍ فقيراتٍ بريئاتٍ.

واستدعى، أيضًا، أُسلوب التدريس أشدّ الانتقادات حدّةً وجدّيّةً. فالمدرسة كانت قاعةً واحدةً تضمّ، معًا، الطالبات المبتدئات والمتوسّطات والكبيرات. وكانت المعلّمات أنفسهنّ مفتقراتٍ إلى مستوًى تعليميٍّ مُرضٍ، في حين أخذت تتكاثر، في الجوار، مؤسّساتٌ تعليميّةٌ تمتلك عناصر تعليمٍ لائقةً.

وفي حين كان الخوري يرى أنّ معظم الفتيات، عندما يبلغنَ سنّ الثانية عشرة سيُنتزَعنَ من المدرسة، ويُكرهنَ على العمل في الحقول، أو في خدمة البيوت، ومن ثمّ لا حاجة لهنّ إلاّ إلى اكتساب مبادئ التعليم الأساسيّة الكفيلة بعونهنّ على مواجهة مشاكل الحياة، كانت أُسَرٌ عديدةٌ تطمح إلى تزويد بناتها بمستوًى علميٍّ يؤهّلهنّ لمستقبلٍ أفضل.

تصاعدت، إذن، الانتقادات حدّةً، وشارك المنتقدين الأب ريمون، معاون الخوري نفسه، وارتأت فئةٌ من أبناء الرعيّة إيكال دار العناية إلى جمعيّةٍ رهبانيّةٍ خبيرةٍ في شؤون التربية والتعليم. ومال الأُسقف نفسه إلى هذا الرأي، حرصًا منه على بقاء دار العناية، واستمرار فوائدها وثمارها.

ومع أنّ الأب "ڤـــيانّي" كان موقنًا أنّ المعجزات التي أجراها الله في تلك الدار كانت دليلاً على رضاه عنها، شرعت تتسرّب إلى ذهنه فكرة إيكالها إلى جمعيّةٍ رهبانيّةٍ. ولكنّه لم يكن مستعجلاً، فقد كان يقضّ مضجعه، ويرين على ضميره، همّ

مصير الفتيات اللواتي ضحّينَ بشبابهنّ، ومستقبلهنّ، من أجل إحياء تلك الدار التي أصبحت بيتهنّ، وعلّة وجودهنّ، وربطتهنّ بنـــزيلاتها علاقة أمّهاتٍ ببناتهنّ. فهنّ لا بيت لهنّ، ولا مهنة أخرى تضمن لهنّ مورد عيشٍ، ولا مال لديهنّ. فهل يجوز رميهنّ في الشارع، عزلاواتٍ، معدماتٍ؟

أمّا الأسقف فمع اقتناعه بضرورة تكليف جمعيّةٍ رهبانيّةٍ، بإدارة الدار، كان حريصًا على مداراة مشاعر الخوري القدّيس، وعلى تجنّب صدمه أو جرحه. فكلّف رئيس إكليريكيّةٍ كان قد أسّس دار عنايةٍ في رعيّةٍ أخرى، وانتدب راهبات القدّيس يوسف لإدارتها، بسبر نوايا الأب "ڤـــيانّي"، ومفاوضته في هذا الشأن. وإذ لم يكن الخوري القدّيس، بعدُ، مستعدًّا لقبول ذلك التغيير، أجاب رئيس الإكليريكيّة، رسول الأُسقف: "إذا كان سيادة الأسقف يرى في هذه المبادرة مشيئة الله، فأنا لا أراها". وللّذين احتجّوا بأنّ الراهبات هنّ أفضل من الفتيات الثلاث في إدارة المدرسة، كان يجيب أنّ أولئك الفتيات هنّ، واقعيًّا، راهباتٌ في أعماقهنّ وسلوكهنّ، ولا ينقصهنّ سوى ارتداء الثوب الرهبانيّ.

وبعد مقاومةٍ متماديةٍ، ومفاوضاتٍ دؤوبٍ اشتركت فيها رئيسة جمعيّة راهبات القدّيس يوسف، وأدارها الأسقف بواسطة معاونيه، معبّرًا عن رغبته في إبرام الاتّفاق، بلا تلكّؤٍ، ولكن متجنّبًا ممارسة ضغوطٍ على الأب "ڤـــيانّي"، استسلم هذا الأخير لرغبةٍ بدت إجماعيّةً بعد أن ضمن مصير الفتيات الثلاث؛ فقد نصّ الاتّفاق على أن تمكثنَ، بقيّة حياتهنّ مع الراهبات، وتساعدهنّ بخبرتهنّ وتفانيهنّ، وفي كلّ عملٍ يتقنّه. وفي ١٨٤٧/١١/٥، وقّع الأب "ڤـــيانّي" الاتّفاق، ملبّيًا رغبة الأُسقف، طائعًا، ولكن حزينًا، غير راضٍ. ولّما بلّغ المديرات هذا الاتّفاق حطّم قلبه حزنهنّ، ودموعهنّ، وشاركهنّ الخشية من سوء تنفيذ نصّ الاتّفاق.

وفي الذكرى السنويّة لتوقيع ذلك الاتّفاق، أي في ١٨٤٨/١١/٥، باشرت جمعيّة راهبات القدّيس يوسف إدارة دار عناية أرس.

بتوقٍ عارمٍ انتظر خوري أرس وصول الراهبات، وفي هذه الأثناء دأب على إعداد مصلًّى لهنّ، متمنّيًا أن يباركه الأُسقف ويدشّنه بنفسه. ويوم الخامس من تشرين الثاني ١٨٤٨، كان المصلّى مزدانًا بكلّ زينته، وإيقوناته وتماثيله؛ فأطلق عليه الأُسقف اسم "كاپـــيلاّ العيلة المقدّسة". واحتفل بتدشينه مؤمنو أرس وعمدتها، احتفالهم بعيدٍ كبيرٍ.

وفي هذه الأثناء كانت كلّ الوثائق المتعلّقة بملكيّة الدار، وبمواردها الثابتة قد نقلت لصالح جمعيّة راهبات القدّيس يوسف التي تسلّمتها في الأوّل من أيّار ١٨٤٨. وكانت كبيرة مسؤولات الدار السابقة، الآنسة "كاترين لاسّانيي"، التي أنفقت شبابها وحياتها في خدمة الدار، عقب ثورة غضبٍ وإحباطٍ، قد استسلمت للواقع، وشاركت الأب "ڤـــيانّي" مواقفه، ولكنّها، على غراره، كان يسكنها هاجس مستقبل رفيقتيها. ويوم وصول الراهبات في ١٨٤٨/١١/٤ سلّمتهنّ مفاتيح الدار، وكلّ محتوياتها، قائلةً: "أهلاً بكنّ في داركنّ".

في البدء، بدا التعايش بين الراهبات و"المديرات" السابقات ليّنًا، وديًّا، كما تدلّ رسالةٌ بعثت بها رئيسة المدرسة الجديدة إلى رئيسة جمعيّتها العامّة، وقالت فيها: "هؤلاء الفتيات يتعاملنَ معنا كالأخوات. صحيحٌ أنّ إحداهنّ "جانّ ماري شاناي" تتلفّظ، بين حينٍ وآخر بعباراتٍ نابيةٍ وجافيةٍ، ولكنّ ذلك نابعٌ من طبعها وفطرتها، ولا يشير إلى قصدٍ سيّئٍ. ستسير الأمور على ما يرام".

ولكنّ هذه الحال ما لبثت أن تغيّرت. ففي مطلع عام ١٨٤٩ اتّضح أنّ بناء دار العناية قد أُهمل، وأنّ الرطوبة قد نالت من الجدران وأتلفتها شيئًا فشيئًا، فبات تداركه وإصلاحه ملحًّا، وغدا تدخّل البنّائين ضروريًّا، ومستلزمًا إفراغ الدار من ساكنيها. واضطرّت "المديرات" السابقات إلى الانفصال عن الراهبات، في جوٍّ وديٍّ، متفاهمٍ فأقامت الخيّاطة "جانّ ماري شاناي" لدى شقيقةٍ لها في القرية. أمّا الأخريان: "كاترين لاسّانيي" و"ماري فيات"، فأقامتا في شقّتَيْن ملاصقتيْن لدار

العناية، وعنيتا بالحلل والأغطية الكنسيّة، وبتزيين الهيكل، وبإعداد طعام الأب "ڤـــيانّي"، وتقديم الخدمات اليوميّة له، وبعيادة المرضى، ومنفقتين أوقات فراغهما في غزل الكتّان. وفي هذه الأثناء، ماانفكّت "كاترين لاسّانيي" تزور الراهبات، وتدرّب بديلاتٍ عنها للاهتمام بدار العناية. وكانت تترأّس، كلّ شهرٍ، اجتماع "جمعيّة الورديّة الحيّة".

والتزم الأب "ڤـــيانّي" موقفًا متحفّظًا، مراقبًا، طوال أسبوعين. ولكنّه أقلع عن تناول طعامه في دار العناية. ومنذئذٍ غدا يتناول وجباته في حجرته. ولا ريب أنّ تخلّيه عن عاداتٍ راسخةٍ قد شقّ عليه. ولكنّه لم يشكُ، ولم يعبّر إلاّ عن أسفٍ واحدٍ هو بعده عن يتيماته العزيزات، اللواتي كان يشركهنّ بصلواته، ويعزو إلى شفاعتهنّ الكثير من النعم التي تحظى بها الدار.

وبعد انقضاء أحد عشر يومًا من الترقّب، أخذ الكاهن القدّيس يختلط بطالبات المدرسة ويمازحهنّ، في أوقات استراحتهنّ. وكان ظهوره بينهنّ مبعث فرحٍ طاغٍ للفتيات ولمعلّماتهنّ. وبما أنّه كان للراهبات نظامهنّ وتقاليدهنّ، فقد أتاح لهنّ حرّيّة العمل، واحتفظ لنفسه بإرشاد الفتيات الروحيّ.

ولمّا بدأت الراهبات باستقبال طالباتٍ داخليّاتٍ، أظهر لهنّ تعاطفه وتضامنه، وأوكل إلى رعايتهنّ إحدى بنات أخيه، وكانت هذه تتّصف بالعفرتة، وشكت له المعلّمات، يومًا، طيشها المستمرّ، فأجاب، باسمًا: "إنّ أفراد أسرتنا لا يصلحون لشيءٍ".

ولكم كان يسعده احتفال الراهبات بتجديد نذورهنّ، بمناسبة عيد زيارة العذراء الواقع في الثاني من تمّوز من كلّ عامٍ. وكان يعلّق على ذلك بقوله: "إنّ الربّ والراهبات يتنافسون سخاءً. ولكنّ الربّ هو دائمًا الأكرم. فهنّ يعلنّ التزامهنّ بنذور الفقر والعفّة والطاعة، والربّ يردّ عليهنّ بلسان الكاهن: "فليحفظ جسد الربّ نفوسكنّ للحياة الأبديّة".

غير أنّ أقسى ما حطّم قلبه كان إغلاق الميتم. فمع أنّ الراهبات لم يفصحنَ عن نيّتهنّ إقفاله، إلاّ أنّهنّ توخّين إعادة تنظيم الدار على أسُسٍ جديدةٍ، بدءًا بتنظيم مدرسة الفتيات، بإحداث مدرسةٍ داخليّةٍ مجّانيّةٍ، قد تحلّ محلّ الميتم. وربّما سرّبن إلى روع الكاهن أنّ تلك كانت مشيئة الأُسقف. ولكنّه لم يقتنع بهذه الرؤية، ولم يرتح لهذا المشروع، وظلّ موقنًا أنّ إقفال الميتم يعني نعوة دار العناية. وفي الواقع، كان يطوف في الجوّ شعورٌ عامٌّ بأنّ تلك الدار لن تستعيد صورتها المحبّبة، وضجيج حياتها، في غياب الميتم.

ونتيجةً للتغييرات الطارئة، نشأت مشكلة تعايشٍ بين الأب "ڤـــيانّي" ومعاونه. فحتّئذٍ كان هذا الأخير يقيم في أحد بنائين وضعتهما محسنةٌ بتصرّف خوري أرس. ولكنّ المعاون كان طامعًا في احتلال دار الرعيّة، ومع ذلك رافضًا اتّباع نهج عيش الأب "ڤـــيانّي" الممعن في الزهد والتقشّف. وتوجّس أبناء الرعيّة من أن ينغّص إصرار الأب ريمون على الإقامة في دار الرعيّة عيش خوريهم الحبيب، فهبّوا معلنين رفضهم مطلبه هذا، ومهدّدين بإحداث فضيحةٍ إذا تجرّأ أيٌّ كان على إزعاج خوريهم. واستعان الأب ريمون بالأُسقف الذي استطلع رأي الأب "ڤـــيانّي" في الأمر، فأجابه: "لا مانع لديّ. ولكن عليّ، في هذه الحال، أن أعثر على إسطبلٍ أُقيم فيه، فهذا هو المسكن الذي يليق بي". وأدرك الأسقف أنّ سكن الكاهنين في دار الرعيّة سيولّد العديد من المشاكل. فلم يلحّ، ونأى بنفسه عن القضيّة، ولم يتبدّل في الأمر شيءٌ. وحيال المعارضة الشعبيّة العارمة، أدرك الأب ريمون استحالة أن يرضى الأرسيّون بإقامته في دار الرعيّة، فعزف عن ذلك المشروع.

ومرّةً أخرى، برهنَ خوري أرس عن استماتته في العمل، وعن إزرائه بالتعب والوجع. ومع أنّه غدا خائر القوى، لم ينقطع عن الإرشاد وسماع الاعترافات، مضطلعًا بجهودٍ لا يُقدم عليها شبابٌ في عزّ نشاطهم. ومع أنّه كان غالبًا ما ينتهي إلى تخوم اليأس، فيبكي، ويرزح تحت وقر وهنه وجهله، ويرتعد خشيةً من ثقل

مسؤوليّاته الراعويّة، ومن ضياع نفوسٍ بجريرة عجزه، لم يكن يتوانى، قطّ، عن المبادرة إلى مشاريع جديدةٍ، بسيطرةٍ تامّةٍ على ذاته. وبعد تحقيقه بناء كاپـــيلاّ لراهبات دار العناية، انبرى لتأسيس مدرسة ذكورٍ مجّانيّةٍ ذات مستوًى لائقٍ.

فقد حرص دائمًا على تزويد الصبيان بزادٍ وافٍ من التعليم. وكان قد سبق له أن افتتح مدرسةً لهذه الغاية، بالتعاون مع عمدة القرية، وشهد، لاحقًا، الشابّ الذي اختاره معلّمًا لتلك المدرسة: "غالبًا ما كان الخوري القدّيس يزور صفوفي. وكان لكلٍّ من زياراته وقعٌ إيجابيٌّ على الطلاّب، إذ كانت كلمةٌ واحدةٌ يوجّهها لهم، تبقيهم هادئين مدى عدّة أيّامٍ. وكان يسدّد أقساط الطلاّب الفقراء".

ومثلما أوكل دار العناية لراهباتٍ، اعتزم إيكال مدرسة الذكور أيضًا إلى جمعيّةٍ رهبانيّةٍ، وجعلها مجّانيّةً بالكامل. فراسل مؤسّس "إخوة العيلة المقدّسة"، الأب غبرييل تابوران" (Gabriel Taborin)، ولهذا الأخير مع خوري أرس روايةٌ طريفةٌ. فهو كان قد سمع عنه الكثير، لسبع سنواتٍ خلت قبل ذلك التاريخ، وكان حينذاك منهمكًا في تأسيس جمعيّته الجديدة، مصطدمًا بتلالٍ من المصاعب، فطار فكره إلى الأب "ڤـــيانّي"، ويمّم شطر أرس، واندسّ بين جموع الحجّاج، مداعبًا أمنيّة اقتناص سانحةٍ لمشاهدته، وربّما لتبادل بضع عباراتٍ معه، والظفر بنصائحه بشأن جمعيّته الوليدة، التي كانت مابرحت متعثّرةً. وأخذ به الذهول عندما انتهى الخوري القدّيس الذي كان يمخر عباب الحشود إلى مقربةٍ منه، فتوقّف بغتةً، وصوّب إليه نظرةً نفّاذةً، تواكبها بسمةٌ ساحرةٌ، وخاطبه مخاطبة صديقٍ قديمٍ، قائلاً: "أهلا، مرحبًا أخي تابوران. كيف هي جمعيّتك الصغيرة؟".

– "أنت تعرفني، إذن، يا أبتِ!

– "إن أصدقاء الله يعرف بعضهم بعضًا!".

وبما أنّ تأسيس مدرسةٍ كان يقتضي تأمينًا ماليًّا يتيح انطلاقتها ويضمن استمرارها، فقد التمس خوري أرس من محسنين تزويده بالمال الذي كان مازال

يحتاج إليه من أجل إطلاق هذا المشروع، إلى أن توفّر له مبلغ ثمانية عشر ألف فرنكٍ سلّمه للأُسقف، لحساب جمعيّة إخوة العيلة المقدّسة. ولكنّ الأُسقف أودع المبلغ في صندوق الأبرشيّة، مغفلاً إعلام الجمعيّة المذكورة. ولمّا وافى الأخ تابوران، في نهاية عام ١٨٤٨، إلى أرس للتباحث مع الأب "ڤـياني" بشأن إجراءات افتتاح المدرسة عبّر الخوري القدّيس عن امتعاضه من تلكّؤ الجمعيّة في إرسال الإخوة المعلّمين، مع أنّه كان قد أودع المبلغ المطلوب لهذا الغرض، منذ أشهرٍ عديدةٍ، وكان الأب تابوران على غير إحاطةٍ بالأمر.

وفي العاشر من آذار ١٨٤٩ وصل الإخوة الثلاثة المكلّفون، وكانت مهمّتهم: "التعليم، والتربية المسيحيّة، والخدمة الكنسيّة، والعناية بشؤون الكنيسة". وكان قد اختير لإدارة المدرسة، ولتعليم صفوف الكبار الأخ "أثناس"، الذي مع أنّه لم يتخطّ الرابعة والعشرين كان قد اكتسب خبرةً غنيّةً، نتيجةً لإدارته بنجاحٍ مدارس عديدةً، وكان يضجّ اندفاعًا ونشاطًا ونفوذًا، قارنًا الحزم الصارم بالطيبة السمحاء الجذّابة، وسرعان ما اكتسب محبّة التلاميذ وثقة أوليائهم اللامحدودة، محبّةً وثقةً شجّعتاه على افتتاح فرعٍ داخليٍّ، تلبيةً لطلبات رعايا مجاورةٍ. ومنذئذٍ ماانفكّت أعداد الطلاّب تتنامى. حتّى اضطرّ الأخ أثناس إلى شراء أرضٍ محاذيةٍ للمدرسة، وأقام عليها أبنيةً إضافيّةً، ولم يتلكّأ الأب "ڤـياني" عن مؤازرة هذا التوسّع مخصّصًا له شطرًا من تبرّعات الحجّاج، خفيةً عن الأب ريمون. وقد أهدى الأخوة كاپـيلاّ تمكّنهم من تجديد طاقاتهم الروحيّة باستمرارٍ، وتفسح للطلاّب موئل تأمّلٍ وصلاةٍ.

استمرّ الأخ "أثناس" في إدارة هذه المدرسة إحدى وأربعين سنةً بكفاءةٍ عاليةٍ، ونجاحٍ متصاعدٍ، بفضل علمه، وحزمه، وفضائله، ومحبّة الناس له. وقد أضحى، مدى عشر سنواتٍ، رفيقًا للأب "ڤـياني"، وكاتمًا لسرّه، وكاتبًا لرسائله التي كان يحرص على إحاطتها بالكتمان، وشاهدًا مميّزًا على السنوات العشر الأخيرة المدهشة من حياة الخوري القدّيس. وفي الآن عينه كان مشرفًا على الصلوات الجماعيّة والطقوس

الكنسيّة، ومدرّبًا للجوقة. وعقب وفاة القدّيس أمسى مؤرّخ سيرته الأشدّ دقّةً وإيحاءً بالثقة، والمتحدّث عنها بأكثر العبارات صدقًا وواقعيّةً واندفاعًا. ولّما أزف أجَلُه، في سنّ الثامنة والثمانين، وفيما كان يُزوَّد بالأسرار الأخيرة، كان ينتهز ما تبقّى له من نسمة حياةٍ كي يتحدّث عن لمحاتٍ مضيئةٍ بارزةٍ من سيرة خوري أرس.

وكان قد شغل، في أرس، مهمّة أمين سرّ بلديّتها، بلا أجرٍ. ولكنّه، بفضل جاهزيّته الدائمة، ودماثته، وتأهّبه الدائم للخدمة، اكتسب محبّة الجميع، فلم يكن يتوانى عن أداء أيّة خدمةٍ تُطلب منه، وبالمقابل كانت كلّ احتياجاته المتعلّقة بشؤون المدرسة تُلبّى بسرعةٍ، وخيرَ تلبيةٍ.

ولم يسلم الأخ "أثناس" من الاصطدام بحدّة الأب ريمون. ولكنّ الأب "ڤـيانّي" دعاه إلى التذرّع بالصبر والتآلف مع طباع معاونه، صعبة الاحتمال. غير أنّ الأب ريمون دأب على تسعير التنافس بين إخوة العيلة المقدّسة وراهبات القدّيس يوسف، ساعيًا، دائمًا، إلى ترجيح كفّة الراهبات، ومساعدتهنّ على حساب الإخوة. ومع ذلك اكتسب الإخوة ثقة أبناء الرعيّة واحتلّوا قلوبهم. واستجابةً لإلحاح خوري أرس شرعوا يستقبلون طلبةً داخليّين، مع افتقارهم إلى المكان والموارد، ولم يضنّ عليهم الخوري القدّيس بما وسعه من عونٍ وأزرٍ.

كان همّ الإخوة الأوّل تنظيم المدرسة تنظيمًا مثاليًّا، وتزويد فتيان أرس بتعليمٍ لائقٍ، وإعدادهم لخدمة الهيكل، واحترام رغبات خوريهم القدّيس، وقد أفلحوا في اكتساب ثقة الرعيّة. وكان الأخ "أثناس" الذي تولّى إدارة تلك المدرسة متميّزًا بعزيمةٍ نابضةٍ، وبحنكةٍ راسخةٍ. وسرعان ما فرض هيبته على الطلاّب وعلى أوليائهم. لم يكن، حينذاك قد تخطّى الرابعة والعشرين من سنيه، ولكنّه كان يفيض عزيمةً وخبرةً.

ومع بدء العطلة السنويّة الأولى استُبدل الأخ "كونستانس" (Constance)، الذي كان يهتمّ بشؤون السكرستيّا بأخٍ آخر يدعى "جيروم" (Jèrôme)، سرعان ما استولى على قلب الخوري القدّيس وعلى ثقته، ولازمه كظلّه، حتّى وفاته.

وقد تولّى الأخ "جيروم"، فضلاً عن العناية بشؤون الكنيسة وظائف طبّاخٍ، وبستانيٍّ، وبوّابٍ، ومُشرفٍ على صيانة الأبنية. وخشي عليه الأخ "أثناس" الإنهاك، بعد ما رأى تفانيه اللامحدود، فالتمس تزويده بأخٍ معاونٍ يتولّى الشؤون المنـــزليّة، ويتيح له التفرّغ لشؤون الكنيسة، ولتنظيم تدفّق الحجّاج، والاهتمام بالخوري القدّيس، وحمايته من زحام الجموع، ولا سيّما بعد أن بلغ الحجّ حجمًا غير متوقّعٍ.

وكان يطيب للأب "ڤـــيانّي" أن يدعو الأخ "جيروم" رفيقه، وإخوة العيلة المقدّسة، أسرته.

وكان الأب "ڤـــيانّي" يودّ تخصيص الإخوة بجزءٍ من التبرّعات الواردة، ولكنّ معاونه الساهر على الإنفاق كان يعارض، مؤثرًا تحويل هذه المبالغ إلى الأسقف كسبًا لرضاه. ومع ذلك فبدافع تقديره لفوائد التعليم استخدم خوري أرس قسطًا من الصدقات التي كان يتلقّاها للمساهمة في تأسيس مدارس في شتّى الرعايا المجاورة، وفي رعيّة مسقط رأسه. وكان موقنًا أنّ التعليم والتربية السليمة يستحقّان أن تُبذَل في سبيلهما كلّ التضحيات.

وبقدر تقييمه للتربية السليمة كان يقدّر، أسمى قدرٍ، الرياضات الروحيّة. ولهذه الغاية خصّص، في سنواته الأخيرة، قسطًا وافيًا من الصدقات التي كان يتلقّاها من أجل تنظيم رياضاتٍ روحيّةٍ سنويّةٍ، في مختلف الرعايا، وبذلك ظلّ يعيد نفوسًا ضالّةً إلى الله حتّى بعد مماته. وكان تلكّؤه في اتّخاذ هذه المبادرة موضع أسفه الشديد. ودأب على جمع فلسٍ فوق فلسٍ من أجل توفير موارد لرسالاتٍ جديدةٍ، وعلّق على ذلك بقوله: "ها قد صرت بخيلاً من أجل الله". فهو كان اعتاد، من قبلُ، إنفاق كلّ فائضٍ لديه، هدايا لكنائس رعايا أخرى فقيرةٍ، مزوّدًا إيّاها بالحلل الكهنوتيّة الجميلة، بالآنية الكنسيّة الثمينة، وبزيناتٍ لهياكلها. ولكن بعد أن أخذ همّ الرسالات بكلّ رغباته وأحلامه، انقلب مقتّرًا، ضنينًا بكلّ فلسٍ كفيلٍ بالمساعدة على تأسيس رسالات وعظٍ. وقد بلغ به الاندفاع في إحدى عظاته أن

أعلن: "إنّ حبّي للرسالات من الجسامة بحيث لو تمكّنتُ من بيع جسدي في سبيل تأسيس رسالةٍ جديدةٍ، لبعتُه".

اندفاعه هذا أشاع عدواه إلى نفوسٍ كريمةٍ. فذات صباحٍ باح للأخ "أثناس"، بعد القدّاس: "فيما كنت خارجًا من دار العناية، باكرًا، التقيت شابًّا كان ينتظرني، وأعطاني ألف فرنكٍ مساهمةً منه في تأسيس رسالةٍ. وما لبث أن تبعه شابٌّ آخر أعطاني ألفًا آخر. وجاء ثالثٌ فنفحني أكثر ممّا كنت أحتاج إليه من أجل إكمال ما يلزم لتأسيس رسالةٍ جديدةٍ. ولم تكن الساعة، حتّئذٍ، قد تخطّت السابعة، صباحًا".

وروى الأب ريمون، أيضًا، هذا الحدث: "جاءت، يومًا، إلى الأب "ڤـيانّي" سيّدةٌ تقيّةٌ وسألته: "هل استلمت رسالتي التي أعلمتك فيها عن إرسالي لك خمسين فرنكًا من أجل الإسهام في عملك الخيريّ؟".

– "نعم استلمتها. ولكن، في الوقت عينه، قدّم لي رجلٌ كريمٌ خمسة آلاف فرنكٍ، إسهامًا في مشروعٍ غالٍ على نفسي، ومن شأنه المساعدة على خلاص نفوسٍ كثيرةٍ. فأنستني هذه الهبة رسالتك.

– "وما هو هذا المشروع الذي توليه اهتمامًا جمًّا؟

– "إنّه مشروع الرسالات.

– "ألا يسعني، يا أبتِ أن أُسهم فيه؟ وما المبلغ المطلوب من أجل تأسيس رسالةٍ؟

– "ثلاثة آلاف فرنكٍ".

وكانت تلك السيّدة أرملةً من مدينة ليون، تنعم بريعٍ سنويٍّ قدره عشرة آلاف فرنكٍ، فتبرّعت بما يكفي لتأسيس رسالتين.

وذات يومٍ، أرسل خوري أرس إلى مركز الرسالات ما يكفي لتأسيس ثلاث رسالاتٍ. وكان في ذلك اليوم، إكمالاً للمبلغ المطلوب، قد استدان مالاً، وفي المساء، بلّغ الأخ "أثناس" والأخ "جيروم" بالأمر، وقال مازحًا: "إن لم يساعدني أحدٌ على تسديد هذا الدين. فسأبيع خروقي، وإن لم يكفِ ثمنها لوفاء الدين فسأودع في السجن...".

وقد اتّفق له أن باع قميصًا يرتديه تحت حلّته الكهنوتيّة أثناء القدّاس، لقاء مئتي فرنكٍ، كانت تنقصه لإكمال المبلغ المقتضى من أجل تأسيس رسالةٍ.

ومع كلّ هذه الإنجازات، تكدّست في سماء سنوات الخوري القدّيس الأخيرة غيومٌ قاتمةٌ، عكّرت صفوها. كان أوّلها أنّ ناشرًا في مدينة ليون أقنعه بنشر عظاته ونصوص تعاليمه الدينيّة، ملوّحًا له بأنّ هذا النشر سيؤتي النفوس خيرًا جمًّا، وسيدرّ دخلاً كفيلاً بدعم دار العناية. وأخذت هذه الرؤية المزدوجة: إفادة النفوس، ودعم دار الرعاية بلبّ الأب "ڤـــيانّي"، فاستجاب لطلب الناشر، ذاهلاً عن استشارة أحدٍ.

وما إن صدرت الصفحات الأولى من هذه النشرات، حتّى انبرى للتنديد بها لاهوتيّون، عدّوها، مع ما انطوت عليه من ورعٍ وتقوى، حافلةً بالأخطاء اللغويّة، والعبارات الركيكة الكفيلة بالإساءة إلى سمعة الخوري القدّيس. ومع أنّ نصوصه كان قد استقاها من مراجع لاهوتيّةٍ معتمدةٍ، إلاّ أنّه نقلها بأسلوبه الهشّ، الكفيل بفسح المجال لتأويلاتٍ خاطئةٍ، مناقضةٍ لما كان هو يقصد، وقد يُفضي إلى تشويه التعليم. فطالبوا الأسقف بوقف هذه النشرات، ومنع إصدارها، واضطرّ الأسقف إلى الاستجابة لهذا المطلب. وقد حفرت هذه المحنة، محنة وقوع الخوري في خطأٍ فادحٍ، وفي فخٍّ لم يتوقَّ شروره، جرحًا موجعًا في قلبه.

وأسهمت محنةٌ أخرى في تعميق الجرح. فقد خطر لصديق الخوري، الأخ "تابوران"، مؤسّس جمعيّة إخوة العيلة المقدّسة التي تولّت إدارة مدرسة الذكور، وتنظيم الحجّ إلى أرس، وضع كتيّبٍ يحتوي تأمّلاتٍ وخواطر روحيّةً، وصلواتٍ، يساعد الحجّاج على جعل حجّهم مثمرًا، ويغذّي تأمّلات القائمين برياضاتٍ روحيّةٍ. وقد أيّد الأسقف هذا المشروع، وتحمّس له الأب "ڤـــيانّي"، توقّعًا لما قد يؤتيه من نفعٍ روحيٍّ. وبات ينتظر صدوره بتوقٍ ونفاد صبرٍ. وكان الأخ "تابوران"، في سبيل جعل الكتيّب دليلاً أمينًا ومفيدًا، قد استقى معلوماتٍ من الأخ "أثناس"، ومن الأب

"ريمون"، واستعان بالملاحظات التي دوّنها بنفسه أثناء زياراته إلى أرس. وصدر الكتاب حاملاً عنوانين: "الملاك، دليل حجّاج أرس" و"موجزٌ تقويٌّ".

ويوم صدور الكتيّب، وصل الأخ "تابوران" إلى أرس مساءً. وقابل الخوري في حجرته، وسلّمه ستّ نسخٍ منه، ومضى ليرتاح. أمّا الأب "ڤـــيانّي" فما إن خلا بنفسه حتّى أقبل بنهمٍ على مطالعة الكتيّب، فصُعق، منذ الصفحة الأولى. بما تضمّنته مقدّماته من مدائح مفرطةٍ لشخصه، تصفه بنظيرٍ للمعمدان، سابق المخلّص. وكان، كلّما قلب صفحةً، تطالعه أخرى أكثر إمعانًا في تقريظه. فاستحوذ عليه حزنٌ هاصرٌ، وقضى ليلته منتحبًا، يعاني كوابيس.

وفي صباح اليوم التالي، مذ أطلّ الأخ "تابوران" عند باب الكنيسة، أشار إليه الخوري بالمجيء إلى السكرستيّا، حيث فجّر بركان أساه وعتابه، قائلاً وسط هطل الدموع: "كيف خدعتني هذه الخدعة؟ لم أكن أتخيّل قدرتك على وضع كتيّبٍ بهذا السوء، أرفض صدور هذا الكتيّب، بأيّة طريقةٍ. احرقه في الحال، وأنا كفيلٌ بتعويضك عن نفقات طبعه". واستفاض الأخ اعتذارًا، وحينئذٍ هدأت حدّة الخوري بعض الهدوء، وقال له: "في كتابك قسمٌ جيّدٌ ونافعٌ. ولكن لا بدّ من حذف كلّ ما صدّرته به من مديحٍ لشخصي. كيف استطعت أن تغدق عليّ كل هذه المدائح الكاذبة، وأنا خاطئٌ بائسٌ، وأكثر الكهنة جهلاً، وقد أُدان وأهلك، يومًا؟ وفيما يحقّق كهنةٌ آخرون خيرًا جمًّا، أنا لا أنسج سوى شباك عنكبوتٍ. ليس من يجهل ذلك، وإن لم يجاهر به".

ولّما بلّغ الأخ "تابوران" الأسقف بموقف خوري أرس هذا، أجاب، إثر لحظات وجومٍ: "يا له من درسٍ في التواضع لي ولك!".

وشقّ على الأخ "جيروم" حزن الخوري القدّيس من جرّاء هذا الكتيّب، فاقترح على رئيسه، الأخ "تابوران" إصدار طبعةٍ أخرى، خاليةٍ من مديح الأب "ڤـــيانّي".

واستشار الأخ "تابوران" الأسقف في الأمر، فكان جواب الأسقف قاطعًا: "إيّاك وهذا الخطأ! أنا أمنعك من حذف أيّة كلمةٍ من الكتاب".

وامتلأت حوانيت أرس بنسخ الكتيّب الدليل، الذي تهافت الحجّاج على شرائه. ولكنّه ظلّ جرحًا نازفًا في قلب الخوري القدّيس الذي ماانفكّ يبوح للأخ جيروم بحدّة الألم الذي يسبّبه له هذا الكتيّب، وشكا له، ذات يومٍ، أنّه كلّما انزاح عن كاهله صليبٌ، يحلّ مكانه صليبٌ أثقل وطأةً، وظلّ يطالب بحذف صفحات الكتيّب الأولى. ولكن حيال إصرار الأسقف على منع حذف أيّة كلمةٍ منه، استسلم، حزينًا، ولكنّه رفض، رفضًا قاطعًا، توقيع أيّة نسخةٍ منه، أيًّا كان طالب التوقيع.

وجهد الأخ "تابوران" في توفير شيءٍ من العزاء له، فجاءه، من زيارةٍ قام بها إلى روما بمسبحةٍ كان قد التمس من البابا بيوس التاسع أن يباركها له، كي يخصّ بها الأب "ڤـــيانّي".

وما كاد جرح كتيّب "الملاك، دليل الحجّاج" يشرع بالاندمال، حتّى أُشرع جرحٌ آخر بسبب سوء فهمٍ حصل بشأن ظهور "لاساليت" الذي كان الأب "ڤـــيانّي" قد آمن به بكلّ أوتار كيانه، وطالما تحدّث عنه خلال تعاليمه الدينيّة، إلى أن سرّب البلبالَ والريبةَ إلى نفسه أحدُ الرائيين، بسبب أقوالٍ أُسيء قولها، وأُسيء فهمها وتفسيرها.

فمساء ١٨٥٠/٩/٢٤ توقّفت أمام كنيسة أرس عربةٌ انحدر منها خمسة أشخاصٍ، أحدهم فتىً في الخامسة عشرة وصفته الصحف، آنذاك، بأنّه نحيفٌ، متألّقٌ صحّةً، تنير محيّاه عينان واسعتان جميلتان، كان اسمه "مكسيمان جيرو" (Maximin Giraud)، وهو أحد رائيَي "سيّدة لاساليت"، التي ظهرت عام ١٨٤٦. أمّا الأربعة الآخرون فشقيقته "أنجيليك" وثلاثة شبّانٍ مدسوسون من قبل سياسيٍّ محتالٍ من أجل غايةٍ مشبوهةٍ. وكانت قد انقضت أربع سنواتٍ على ظاهرة "لاساليت"، ولم يصدر أيّ قرارٍ عن الكنيسة بشأنها. وكان الحجّ إلى "لاساليت" قد

انطلق منذ ربيع عام ١٨٤٧، واعتاد حجّاجٌ اتّخاذ أرس محطّةً مؤقّتةً في طريقهم إلى حيث ظهرت العذراء. وكان الأب "ڤـــيانّي"، مع إيمانه الراسخ بتلك الظاهرة، مازال متحفّظًا في إعلان موقفه منها، حتّى إعلان الكنيسة كلمتها بشأنها. غير أنّه كان يشجّع الراغبين في الحجّ إلى ذلك المزار المريميّ، وكان يزيّن جدران حجرته برسمٍ لذلك الظهور، رغم اعتراض معاونه، الأب ريمون، الذي سبق له الصعود إلى جبل لاساليت، وقابل هناك الرائي مكسيمان، ولكنّ هذا الأخير رفض الردّ على أسئلته، فعاد غاضبًا، رافضًا الظاهرة بأكملها.

وجديرٌ بالتنويه، في هذا السياق، أنّ الأسقف الذي تخضع لاساليت لسلطته الكنسيّة، كان قد أوعز إلى الرائي مكسيمان، وإلى الرائية ميلاني، أن يتجنّبا الظهور في العلن، ريثما ينتهي التحقيق الكنسيّ بشأن الظاهرة، وألاّ يغادرا الأبرشيّة. فعلامَ، إذن، جاء مكسيمان إلى أرس؟ الواقع هو أنّه رغب في استشارة الخوري القدّيس، الذي يقرأ كوامن النفوس، ويستشفّ المصائر، بشأن دعوته الكهنوتيّة، واستغلّ مدسوسون رغبته هذه وسهّلوا مجيئه.

ومنذ وصولهم، طلبوا مقابلة الأب "ڤـــيانّي"، الذي كان سجين كرسيّ الاعتراف. فطُلب منهم الانتظار حتّى الغد. وانتهز الأب ريمون هذه السانحة كي يستنطق مكسيمان الذي كان قد سبق أن رفض الردّ على أسئلته، عندما زار لاساليت، واستخدم أسلوبًا حادًّا، صارمًا، نزقًا، يغلب عليه طابع العدائيّة، ولكأنّه كان ينتقم من موقفه السابق الجافي حياله، معبّرًا عن ارتيابه بمجمل الظاهرة، ممعنًا قسوةً وصرامةً، حتّى أوقع الاضطراب في ذهن الفتى، ولمّا أنذره بالردّ بنعم أو لا على سؤاله: "هل رأيت السيّدة العذراء، أم لم ترَها؟" أجاب في سورة ضيقٍ ونفاذ صبرٍ: "اعتبر أنّني كذبت وأنّني لم أرَ شيئًا". والتقط الأب ريمون هذا الجواب بمثابة اعترافٍ صريحٍ ببطلان الظاهرة، وسارع إلى زفّ نبأ اكتشافه هذا إلى الأب "ڤـــيانّي"، وهو خارجٌ من كرسيّ الاعتراف.

وصباح اليوم التالي التقى الأب "ڤـــيانّي" مكسيمان على انفرادٍ، ولم يتسرّب شيءٌ ممّا تجاذباه من حديثٍ. غير أنّ المقرّبين من الخوري القدّيس لحظا أنّه، إثر هذا اللقاء، أحجم عن توقيع صور لاساليت، ومباركة إيقوناتها. وكان هذا التحوّل المفاجئ في موقفه ناجمًا عن سوء تفاهمٍ. فالخوري كان ممتعضًا من مسايرة مكسيمان لأشخاصٍ يستغلّون وضعه في سبيل غايةٍ سياسيّةٍ حقيرةٍ، وآخذًا على الرائي موقفه الطائش هذا؛ وقد اعترف مكسيمان بحماقة سلوكه، وأفاد، لاحقًا، أنّ الأب "ڤـــيانّي" استوضحه هل رأى، حقًّا، السيّدة العذراء، فأجاب أنّه رأى سيّدةً جميلةً، ولكنّه غير قادرٍ على تأكيد أنّها السيّدة العذراء، وطلب من الخوري القدّيس، إذا كان موقنًا، حقًّا، أنّها العذراء، أن يؤكّد ذلك علنًا، كي يصدّق الناس الظاهرة.

بعد أيّامٍ استوضح الأسقف خوريَ أرس عن رأيه في القضيّة، على ضوء ما سمعه من مكسيمان فأجاب: "عندما قال لي الفتى أنّه لم يرَ السيّدة العذراء، أتعبني قوله، مدى يومين. ولكنّ الجرح ليس كبيرًا جدًّا. فإذا كان الحدث عمل الله، لن يقوى إنسانٌ على تدميره".

وكان الخوري قد سأل مكسيمان هل سبق له أن كذب. وخُيّل إلى الفتى أنّ سؤال الكاهن يعني هل كذب، يومًا، طوال حياته. فأكّد أنّه كذب، مشيرًا إلى ردّه الخاطئ على استفسار كاهن رعيّته عن الأماكن التي كان يرتادها، وعن جدّه في الدراسة. ويبدو أنّ الأب "ڤـــيانّي" فهم أنّه كذب بشأن ظهور العذراء في لاساليت.

وعاد الزائرون الخمسة من حيث أتوا، ولكانت زيارتهم عَبَرت بلا أثرٍ، لو لم يفضحها الأب ريمون، الذي كان قد استوضح الأب "ڤـــيانّي" عمّا جرى بينه وبين مكسيمان، فاكتفى بالقول: "لقد امتعضت منه، وهو امتعض منّي". وفشلت جميع المحاولات التي بذلها كهنةٌ عديدون في سبيل استجلاء واقع ما حدث بين الخوري القدّيس، والفتى الرائي. وتشابكت عوامل كثيرةٌ ألقت الارتباك والقلق في نفس خوري أرس. وأهمّ هذه العوامل نقل الأب ريمون قول مكسيمان له: "اعتبر

أنّي لم أرَ شيئًا، وأنّي كذبت". على أنّه تأكيدٌ لبطلان الظاهرة؛ والعامل الآخر إحجام مكسيمان عن تأكيد أنّ السيّدة التي رآها هي السيّدة العذراء، واعترافه بكذب حول توافه ماضيةٍ أخذه الكاهن مأخذ كذبٍ بشأن ظهور العذراء.

ومع أنّ مكسيمان كان قد كتب إلى خوري أرس، غداة عودته من أرس، موضحًا: "أنا لم أقصد أن أقول لك، ولم أقل صراحةً، لأيٍّ كان، أنّني لم أرَ، وأنّني كذبت، بل قلت فقط، وأنت على باب السكرستيّا التي كنت خارجًا منها، أنّني رأيت سيّدةً، ولم أعلم هل هي السيّدة العذراء أم سيّدةٌ أخرى، وفي هذه الأثناء، كنتَ قد انغمست في عباب الحشد، وتوقّف حديثنا". أشرع هذا الحدث، في نفس خوري أرس جرحًا، طال أمد اندماله. فقد راوده الشكّ حول كلّ ما جرى في لاساليت، شكٌّ لم تخفَ دلائله على الذين لم يطّلعوا على دوافعه. وتضاعف قلقه، عندما تناولت وسائل الإعلام هذه القضيّة، وضخّمتها، وأوسعتها تشويهًا، واستغلّ أعداء الظاهرة ما وصفوه شهادة خوري أرس، كي يثبتوا زيف الظاهرة. وكان أشدّ المروّجين لبطلان الظاهرة الأب ريمون الذي دأب على انتزاع صور لاساليت من كلّ مكانٍ وجدها فيه، متذرّعًا بإنكار خوري أرس لصحّتها. لا بل إنّ كرادلةً وأساقفةً كانوا يقفون موقف التشكيك بظاهرة لاساليت، باتوا يتّخذون ممّا دعوه إنكار خوري أرس لها، وانقلابه عليها، حجّةً لدحضها ومقاومتها. وقد أدمى هذا السلوك، وما واكبه من دعاوةٍ إعلاميّةٍ، قلب الأب "فــيانّي". وسكنته خشيةٌ قاتلةٌ من أن يكون سببًا في إعاقة رسالة العذراء، من جرّاء سوء تفاهمٍ عابرٍ. وقد صرّح لمقرّبين منه: "إنّ ضميري يبكّتني خشيةَ أن أكون قد أسأت إلى السيّدة العذراء. ولكم أودّ أن يُنيرني الله! وسأصلّي بحرارةٍ لذلك. فإذا كان الحدث صحيحًا فسأعلنه، وإلاّ سيطوى الأمر. إذا كان الحدث صحيحًا فلن يقوى إنسانٌ على هدمه". ومنذئذٍ آثر انتظار قرار الكنيسة. ومذ أعلن الأُسقف تصديق الظاهرة، غدا يكتفي بالردّ على مستوضحي رأيه بشأن ظهور لاساليت، داعيًا إلى التوغّل في حبّ العذراء.

وبعد صراعٍ نفسيٍّ طويلٍ ومضنٍ، تبدّدت المحنة. وفي شهر تشرين الأوّل من عام ١٨٥٨، أي قبل نحو عشرة أشهرٍ من وفاته، استعاد إيمانه المطلق بظاهرة لاساليت، وباح لكاهنٍ صديقٍ: "كنت أعاني منذ نحو خمسة عشر يومًا، اضطرابًا نفسيًّا حادًّا. فتلوت فعل إيمانٍ بظاهرة لاساليت، وفي الحال ساد السلامُ نفسي... وحينئذٍ راودتني رغبةٌ في لقاء كاهنٍ من غرينوبل أبوح له بما حدث فيّ. وفي اليوم التالي قدم من غرينوبل كاهنٌ مرموقٌ، واستوضحني عن الموقف الذي ينبغي حيال ظاهرة لاساليت. فأجبته: "يجب الإيمان بها". وكنت، حينئذٍ بحاجةٍ إلى مبلغٍ من المال لإكمال تأسيس رسالةٍ، فاستغثت بسيّدة لاساليت، فجاءني المبلغ الذي كنت أحتاج إليه، ورأيت في ذلك إشارةً عجيبةً".

ومنذئذٍ، مع تحاشيه النقاشات بشأن الظاهرة، بات يُشجّع الراغبين في الحجّ إلى لاساليت، بتسلّق الجبل المقدّس، واستأنف مباركته إيقوناتها، وتوقيع صور العذراء الباكية وتوزيعها.

وكان، في تلك المرحلة قد فقد أسنانه، وأضحى كلامه همسًا، يصعب فهمه، فحصر عظاته في الدعوة إلى حبّ الله، والإشادة بحضور يسوع الفعليّ في القربان، ومع ذلك لم يكن يفوّت سانحةً للإشادة بظهور لاساليت.

وغدا يجيب على كلّ من يستوضحه عن تلك الظاهرة: "إنّي أُومن بها إيمانًا راسخًا"، أو: "إنّي أومن بها، بكلّ قلبي".

من أحداث السنوات الأخيرة: مُبَـادراتُ تكريمٍ

عام ١٨٥٠ كان خوري أرس قد أمسى أوسع كهنة فرنسا شهرةً، وأكثرهم استقطابًا للحجّاج. وبعد أن كانت كاتدرائيّة نوتردام تستجلب عشّاق البلاغة للاستماع إلى خطباء ذائعي الصيت، أمثال الأب لاكورديير وأضرابه، أضحت كنيسة أرس المتواضعة قبلةً للتوّاقين إلى مشاهدة إنسانٍ استثنائيٍّ وسماعه. وأجمع الفرنسيّون على اعتبار وتسمية الأب "ڤـــيانّي" قدّيسًا. وارتأى أُسقفه، الذي كان يقدّر قداسته أرفع تقديرٍ، أنّ ما من مبادرة تكريمٍ كفيلةٌ بإضافة ذرّةٍ إلى هذا التكريم الشعبيّ العارم، فامتنع عن منحه أيّة رتبةٍ كنسيّةٍ رفيعةٍ.

ولكن عقب استقالة ذلك الأسقف، أصرّ خلفه على تكريم خوري أرس بمظهرٍ كنسيٍّ، وتقليده شعارًا يُحصر ارتداؤه بنوّاب الأساقفة، والمسؤولين الكنسيّين رفيعي المقام. ويوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الأوّل، ظهر الأُسقف أمام كنيسة أرس، يصحبه نائبه العامّ، ورئيس إكليريكيّةٍ كبرى، والكونت العمدة، وكان بانتظارهم الأب ريمون معاون الأب "ڤـــيانّي"، الذي أُحيط علمًا بالمبادرة الأسقفيّة، فيما كُتمت عن الخوري القدّيس، الذي كان داخل كرسيّ الاعتراف. ولّما أُبلغ بوصول الأُسقف خفّ للترحيب به، وتقديم الماء المقدّس له، وفقًا للتقاليد الكنسيّة. وبما أنّه كان يقابل أُسقفه الجديد للمرّة الأولى، ارتأى إلقاء خطبة ترحيبٍ موجزةٍ، ولكنّ الأُسقف سارع إلى مفاجأته، واستلّ صدريّةً من الحرير الأسود، والأحمر اللمّاع، كان يخفيها طيّ معطفه. وما كاد الخوري يشاهدها حتّى تراجع رافضًا تقبّلها، وهاتفًا: "كلاّ يا صاحب السيادة، بل امنحها لمعاوني فهي تليق به، وهو أشدّ منّي استئهالاً لها". ولكن، قبل أن ينهي اعتراضه، كان كلٌّ من النائب الأُسقفيّ، ومن رئيس الإكليريكيّة قد أمسك بإحدى ذراعيه، متيحين للأسقف إلباسه الصدريّة عنوةً. ودخل الموكب إلى الكنيسة مقتادًا الكاهن المكرّم، وكأنّه

محكومٌ بالإعدام يُقاد إلى المقصلة. وهرع الأب "ڤـــيانّي" إلى السكرستيّا، فلحق به الكونت العمدة، ووجده يتخبّط محاولاً الانعتاق من تلك الشارة التي فُرضت عليه. وبذل العمدة الكثير من الجهد كي يقنع الخوري بأنّ خلعه للشارة سيُعدّ إهانةً للأسقف. وحينئذٍ ارتضى الوقوف عند باب السكرستيّا، مشيحًا عن توسُّلات معاونيه، باحتلال موقعه الأصليّ. واضطرّ، مكرهًا إلى الاحتفاظ بالصدريّة التكريميّة فيما كان الأسقف يحتفل بالقدّاس، ويلقي كلمة المناسبة.

وأعلن الأسقف للرعيّة ترقية خوريها إلى مرتبةٍ عليا، في حين كان المكرّم يصارع أقسى نوبات الضيق، غير مبالٍ بتصحيح وضع الشارة التي أُلبسها، والتي حادت عن مكانها. ولحظ الحضور أثناء انتقال الموكب الأسقفيّ إلى مقرّ سكن الخوري أنّ هذا الأخير بدا في مظهرِ مدانٍ يُقاد بحبلٍ في عنقه إلى موقع تنفيذ الحكم. وقال ابن العمدة السابق، في هذا الشأن، إنّ الخوري بدا وكأنّ أشواكًا تلسع ظهره، متحيّنًا أوّل سانحةٍ لخلع الصدريّة.

وبعد أيّامٍ معدوداتٍ أرسل له الأُسقف وثائق لقبه الجديد، فقال وهو يتسلّمها: "يبدو أنّ الأمر جدّيٌّ، وليس مزاحًا! إنّ الأسقف يبغي منحي هذا اللقب، لي أنا، الراعي الفقير لثلاثة خرافٍ. فما الذي فعلته لأستحقّه؟ إنّ الأسقف لعلى خطأٍ، وأنا لن ألبس أبدًا هذه الشارة التي لم أستأهلها".

وفي الواقع كان الأب "ڤـــيانّي"، مذ غادر الأسقف قرية أرس، قد راح يبحث عن مشترٍ للصدريّة التي كُرِّم بها، وأجرى عليها شبه مزايدةٍ، ووقع المزاد على سيّدةٍ اعتادت أن تؤدّي للخوري خدماتٍ ماليّةً، وكانت قد بدأت بعرض مبلغ خمسةٍ وعشرين فرنكًا، ولكنّها بعد استفسارها عن ثمنها الحقيقيّ، وتبيّنها أنّ كلفة تصنيعها تبلغ خمسين فرنكًا، قدّمت هذا المبلغ ثمنًا للصدريّة، مع عرضٍ بإبقائها بتصرّف الخوري حتّى مماته. وسعد الخوري بهذا المبلغ الكفيل برفد مشروع

الرسالات، الغالي على قلبه. وتمنّى أن يجود عليه الأسقف بمزيدٍ من شارات التكريم التي يساعده ناتج بيعها على مضاعفة رفد الرسالات.

ولم يُخفِ الأمر عن الأُسقف، بل إراحةً لضميره، بعث إليه برسالة شكرٍ، وأفاده أنّه احتاج إلى مالٍ لإكمال تمويل رسالة وعظٍ، فباع الصدريّة التي كرّمه بها، وسعد جدًّا بمبلغ ثمنها. ولكنّه، أبى دائمًا، ارتداء تلك الصدريّة، حتّى بحضور الأُسقف، رغم محاولات زملائه إقناعه بارتدائها إكرامًا للأسقف. وغالبًا ما صرّح بأنّها لا تتناسب مع نحوله، ومن ثمّ فهي تجعل منه مادّةً للسخريّة. وقد أجاب، ذات يومٍ، كاهنًا كان يحثّه على ارتدائها إكرامًا للأسقف الذي لم يقلّد مثلها لأيٍّ سواه، أنّ الأسقف، إثر تقليده إيّاها، تبيّن خطأه، فأقلع عن تقليدها أيًّا كان.

ولم يقتصر الاعتراف بأفضال خوري أرس على السلطات الكنسيّة، بل اعترفت بها أيضًا السلطات المدنيّة، التي قدّرت الفورة الاقتصاديّة، غير المسبوقة، التي أحدثها سيل مواكب الحجّ الذي تدفّق على أرس بغية رؤية قدّيسها، والانتفاع من النعم الإلهيّة التي كانت تنهمر بشفاعته. فقد تأسّست شركات نقلٍ ناشطةٌ لهذه الغاية، وأُنشئت فنادق لإيواء الحجّاج، واستفاد مواطنون من تأجير أقسامٍ من دورهم لحجّاجٍ، وازدهرت التجارة. وبناءً على هذا الازدهار، وجّه نائب محافظ المنطقة التي كانت قرية أرس تابعةً لها، إلى رئيسه، رسالةً جاء فيها:

« توجد قريةٌ في قضائنا تضمّ خمس مئة نسمةٍ يخدمها كاهنٌ اكتسبت قداسته الإنجيليّة، وورعه السامي، شهرةً أوروبيّةً... إنّه الأب "ﭬيانّي"، خوري أرس... قرية أرس التي كانت أكثر قرى قضائنا موضع إغفالٍ وإهمالٍ تشهد اليوم تدفّق حجّاجٍ هائلاً، وقد تأسّست لهذه الغاية خدمات نقلٍ تعمل بانتظامٍ.

"هذا الإقبال مستمرٌّ من عدّة سنواتٍ، بفضل سمعة قداسةٍ يتمتّع بها كاهنٌ متواضعٌ، يمثّل واقعًا مدهشًا في عصرٍ ورث التعاليم المعادية للدين، وأعلن مقاومته للمسيحيّة. إنّ ثقة الناس بخوري أرس لامحدودةٌ، وهي تعبيرٌ عن

الإيمان الإنجيليّ الذي يحرّك الجبال... إنّ الأب "ڤيانّي" هو بمثابة القدّيس منصور دي پول، ومحبّته تُحدث المعجزات. ».

وعدّدت الرسالة أفعالاً معجزةً تحقّقت بشفاعة الكاهن القدّيس والتي لا يطال مصداقيّتها وشفافيّتها أيُّ ريبٍ. واختتم نائب المحافظ رسالته بالقول: "من ملحظٍ ماديٍّ، إنّ هذا الكاهن ذو فائدةٍ جمّةٍ". ومن ثمّ اقترح منحه وسام جوقة الشرف. وصدر قرارٌ إمبراطوريٌّ بمنحه هذا الوسام، يومَ الحادي عشر من شهر آب ١٨٥٥، ونُشر في الجريدة الرسميّة. وزفّ عمدة أرس النبأ إلى الكاهن الذي تلقّاه بلامبالاةٍ، ولكنّه استوضح هل لهذا الوسام ريعٌ ماديٌّ يمكن إفادة الفقراء منه، فأُجيب أنّه شرفيٌّ فحسب. وحينئذٍ قال الكاهن: "بما أنّ ليس للفقراء نصيبٌ من هذا الوسام، فأرجوكم إبلاغ الإمبراطور أنّني لا أريده". وتنامى نبأ الوسام إلى علم رسّامٍ، فهرع إلى الأب طامعًا في رسم سيادة الكاهن حاملاً وسام الشرف. وردّه الكاهن بدماثةٍ، قائلاً، مازحًا: "شرط أن ترسمني بصدريّة الأسقف، وصليب الإمبراطور، وتكتب على أسفل اللوحة: (باطلٌ، كبرياء)".

واتّفق أن مازحه كاهنٌ بقوله: "جميع سلطات الأرض كرّمتك، وسيكرّمك الله أيضًا في السماء". فأجابه مطرقًا: "إنّ هذا ما يُخيفني. فعندما سيأخذني الموت، وأمثل أمام الله، حاملاً هذه الترّهات، ألن يقول لي: "لقد تلقّيت مكافأتك فاغرب عنّي!".

وكان الأسقف قد كُلِّف بتعليق وسام الشرف على صدر الخوري، وتمّ الاتّفاق على إقامة احتفالٍ لهذه الغاية في تشرين الثاني. وفي هذه الأثناء وردت إلى الأب "ڤـيانّي" رسالةٌ رسميّةٌ تطالبه بمبلغ اثني عشر فرنكًا بدل إرسال براءة الوسام والصليب. ولدى قراءته لها انتفض الخوري، مستنكرًا، هاتفًا: "ماذا؟ اثنا عشر فرنكًا؟ من المؤكّد أنّني لن أدفع، وأوثر استخدام هذا المبلغ لإطعام اثني عشر فقيرًا". غير أنّ معاونه، الأب "توكانييه"، قد بادر إلى دفع المبلغ المطلوب، خلسةً.

ومنذئذٍ اعتاد الخوري أن يردّد، ضاحكًا، في مناسباتٍ عديدةٍ: "طلبوا منّي مبلغًا من أجل إرسال الوسام، ولم أدفع، ومع ذلك، أرسلوا الوسام".

وقدم المحافظ بنفسه لكي يهنّئ الخوري في ساحة أرس، فأجابه: "أرجوك أن تقلّد الوسام من هو أجدر به منّي. أمّا أنا فكنت أوثر شيئًا آخر يستفيد به الفقراء". وردّ المحافظ: "بمنحك هذا الوسام لم يبتغِ الإمبراطور تكريمك، بل تكريم الوسام بك". ولكي لا يستبحر المحافظ في كيل المديح له، قاطعه الكاهن بقوله: "سأسأل الله أن يبقيك طويلاً، في وظيفتك، لكي يستفيد الناس بنصائحك، ويقتدوا بمثالك الطيّب". ثمّ أهداه إيقونةً للعذراء، وهرول إلى كرسيّ الاعتراف.

وحان موعد تقليد الوسام بيد الأسقف الذي تذكّر ما حلّ بصدريّة "الشنوان" التي كرّمه بها، لسنواتٍ خلت، فسارع إلى بيعها، وكان موقنًا أنّ صليب الشرف سيكون من نصيب الفقراء، يوم تقليده إيّاه، ولم يرَ مبرّرًا لتكليف نفسه عناء السفر من أجل تقليد كاهنٍ زاهدٍ في التكريم جوهرةً سيبادر في الحال إلى بيعها. ومن ثمّ كلّف معاون الخوري بهذه المهمّة. وانتهز هذا الأخير سانحة وجود الأب "فـــيانّي" وحيدًا في حجرته، ظهرَ ذات يومٍ، فجاءه، بصحبة مديرات دار العناية السابقات، وقدّم له العلبة التي كانت مختومةً بخاتم الإمبراطور الشمعيّ، وقال له: "يبدو أنّ هذه ذخائر مقدّسةٌ مرسلةٌ إليك". ولم يلحظ القدّيس أنّ هذا القول كان مجرّد مزاحٍ، ولم يدقّق في طبيعة الختم، بل أقبل، على كسره، وفتح العلبة، وخاب ظنّه لدى رؤيته وسام الشرف، فهتف، مُحبَطًا: "أهذا كلّ شيءٍ؟" فأجابه معاونه: "ألم تلاحظ أنّ الوسام مزدانٌ بصليبٍ حقيقيٍّ، فهلاّ باركه". وحينئذٍ توسّل إليه معاونه أن يسمح له بتعليقه على صدره، ولو لحظةً واحدةً. ولكنّ الأب "فـــيانّي"، رفض بصرامةٍ قائلاً: "أخشى أن يقال لي ما قاله البابا بينيدكتس القدّيس لحامل سلاح الملك "توتيلا"، الذي جاءه مرتديًا زيّ سيّده الأرجوانيّ: "اخلع هذا الزيّ الملكيّ الذي لا يحقّ لك ارتداؤه". وفي الحال ردّ الوسام إلى معاونه قائلاً: "اسعد

بتلقّيه، مثلما سعدت أنا بمنحك إيّاه". ذلك الوسام الذي رفض الخوري القدّيس تعليقه على صدره، حتّى مدى لحظاتٍ، عُلّق، هنيهةً، على نعشه.

مرّةً أخرى أثبت ذلك القدّيس ازدراءه لأمجاد الأرض، ومصالحها، وأنّ لا شيء يفتن قلبه سوى ما يسهم في نشر مجد الله، ولا داعي يثلج صدره إلاّ الخواطر الدينيّة، والأعياد الكنسيّة. وقد ظلّ رجال أرس وشيوخها، سنين طويلةً، يذكرون الفرح الغامر الذي اجتاح خوريهم بمناسبة إعلان عقيدة الحبل بلا دنسٍ، والرعشة التي سرت في نفوس المؤمنين عندما هتف خوريهم، من فوق منبر الوعظ: "لو كان بوسعي بيع ذاتي، كي أُقدّم مزيدًا من الهدايا للسيّدة العذراء، لفعلتُ". فقلبه كان قد علق بحبّ أمّ الله منذ المهد. وعلى امتداد خدمته الكهنوتيّة، لم يضنّ بجهدٍ كي يعمّم تكريمها، فلم يخلُ بيتٌ في أرس من تمثالٍ لها، هديّةً منه، أو من صورةٍ لها تحمل توقيعه. وكان قد زيّن مدخل الكنيسة بتمثالٍ كبيرٍ للمنــزّهة من الدنس، التي كرّس لها رعيّته، وتخليدًا لهذا التكريس كان قد استصنع قلبًا من الفضّة المذهّبة، أودعه شريطًا حريريًّا، دُوِّنت عليه أسماء جميع أبناء الرعيّة. وبمناسبة جميع الأعياد التي تحتفل، فيها، الكنيسة بالسيّدة العذراء، كانت تغصّ كنيسة أرس بالمؤمنين الذين يتقاطرون إليها بغية الاستماع لعظة خوريهم النابضة تأثّرًا، واندفاعًا، وإشادةً بقداستها الفائقة، وقدراتها وحبّها.

وقد أضفى الأب "ڤـيانّي" أُبّهةً فريدةً على الاحتفال بإعلان البابا بيوس التاسع عقيدة الحبل بلا دنسٍ يوم الثامن من كانون الأوّل ١٨٥٤، وختم الخوري الاحتفال مساء ذلك اليوم بقوله: "كان يجول دائمًا بخاطري أنّ ألق الحقائق الكاثوليكيّة كان يفتقر إلى هذا الشعاع، ولم يكن مسوِّغٌ لاستمرار هذه الثغرة". واحتفاءً بهذه المناسبة الفريدة كان قد زيّن بالأضواء قبّة الجرس، وجدران الكنيسة، وواجهات بيوت القرية، وأطلق الأجراس تقرع بلا انقطاعٍ حتّى خُيِّل لأبناء الرعايا المجاورة، وهم يسمعون قرع الأجراس، ويشهدون الأنوار المتلألئة في كلّ مكانٍ أنّ في أرس حريقًا، فتهافتوا إليها مستطلعين.

وبالإجمال كان ذلك اليوم من أسعد أيّام الأب "ڤـــيانّي" الذي بدا وكأنّه استعاد رونق شبابه، بل كأنّه ولدٌ أخذت به نشوة فرحٍ طاغيةٌ، بانتصار أمّه انتصارًا زاهيًا مجيدًا.

لقد جعل خوري أرس من ذلك الاحتفال حدثًا بارزًا في حياة رعيّته، ومَعْلَمًا مضيئًا في سجلاّت تاريخها.

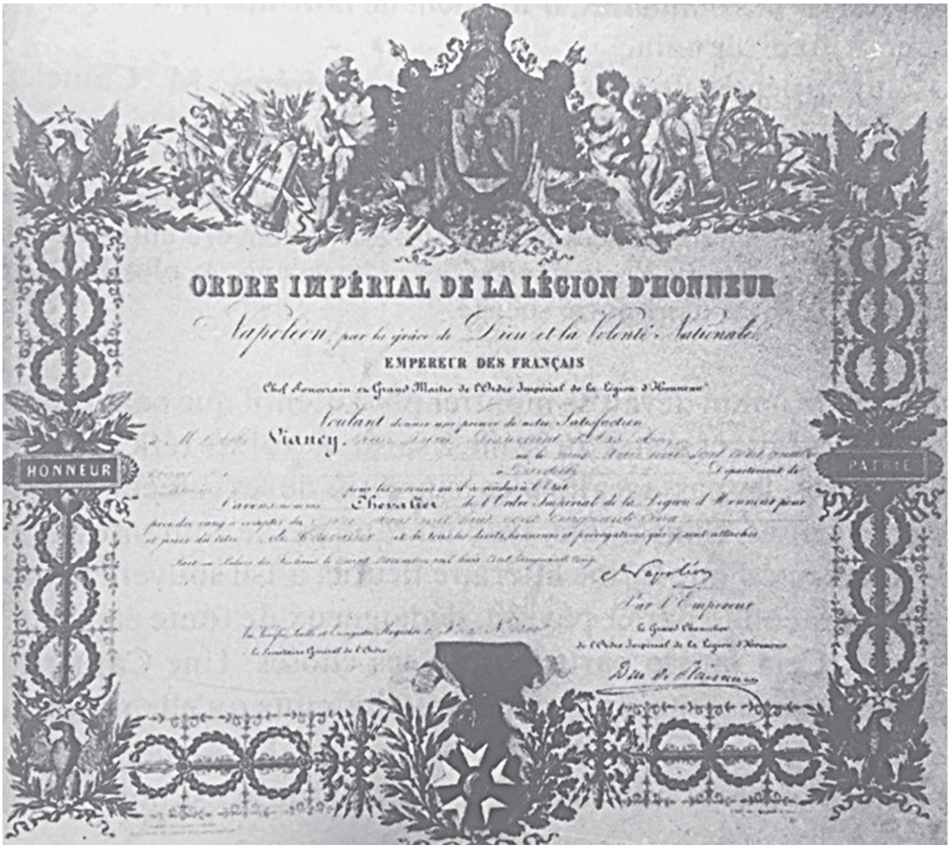
ORDRE IMPÉRIAL DE LA LÉGION D'HONNEUR
Napoleon, par la grâce de Dieu et la Volonté Nationale
EMPEREUR DES FRANÇAIS
Chef Souverain et Grand Maître de l'Ordre Impérial de la Légion d'Honneur
Voulant donner une preuve de notre Satisfaction
Vianey.
HONNEUR
PATRIE
Chevalier de l'Ordre Impérial de la Légion d'Honneur
Napoléon
Par l'Empereur
Le Grand Chancelier
de l'Ordre Impérial de la Légion d'Honneur

الوسام الإمبراطوريّ

هوس الاعتزال

رغم وعد خوري أرس أبناء رعيّته بألاّ يبعد عنهم مرّةً ثانيةً، كانت ذكرى فراره في شهر أيلول ١٨٤٣، مازالت عالقةً في ذاكرهم، ومصدر خشيتهم الدائمة. وقد استيقظت هذه الخشية واحتدّت، عندما انتسب الأب "ڤـــيانّي" إلى الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة الثالثة. فقد كان يعترف، غالبًا، بين يدي راهبٍ كبّوشيٍّ، وعبّر له، غير مرّةٍ، عن رغبته في الانتماء إلى الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة. غير أنّ الراهب المذكور، مع تقديره للمكسب الكبير التي ستحرزه رهبانيّته بانضمام الخوري القدّيس إليها، أوضح له أنّه أقدر على فعل الخير ببقائه في رعيّته، ممّا يستطيع بدخوله ديرًا فرنسيسكانيًّا، ولكنّه لكيلا يخيّب رجاءه كلّيًّا، عرض عليه الانتساب إلى الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة الثالثة، التي تتيح له الاستمرار في خدمة رعيّته، مع اعتناقه روحانيّة القدّيس فرنسيس. وبعد أن ارتدى الأب "ڤـــيانّي" ثوب هذه الرهبانيّة اندفع كثيرون من أبناء رعيّته في احتذاء حذوه.

غير أنّ الرغبة في الاعتكاف والانقطاع للصلاة فحسب، لم تفارق، قطّ، خاطر الأب "ڤـــيانّي" الغارق في لجّة النشاط الراعويّ. وتعدّدت دوافعه إلى هذا الاعتكاف. فهو لطالما حذّر زملاءه خدّام الرعايا من إنفاق حياقم كلّها وكلّ وقتهم في الخدمة الراعويّة، ونصحهم بالاحتفاظ ببضع سنواتٍ ينقطعون فيها للصلاة والتأمّل، والتوبة عمّا قصّروا في أدائه من واجباتٍ، والتأهّب للمثول بين يدي الديّان. ومن دوافعه، أيضًا، شعوره الملازم المرهق بجهله، وافتقاره إلى الكفاءة، وبعدم جدارته بإرشاد من هم أوفر منه علمًا وفضيلةً، وأعلى مكانةً.

وعندما تنامت حركة الحجّ وتكثّفت، أرهقه الخوف من أن يكون قد أهمل أبناء رعيّته بسبب وقفه معظم وقته على تلبية احتياجات الحجّاج الروحيّة، بدليل انتكاس سلوك فئةٍ من أبناء رعيّته، وإهمالهم واجباتهم الدينيّة، ووقوعهم مجدّدًا في وهاد الأمراض الاجتماعيّة التي طالما كافحها بضراوةٍ.

وربّما انتابته شكوكٌ في إخطائه بالإصرار على بقاء الأب ريمون، مع ما مارسه من ديكتاتوريّةٍ وقسوةٍ، وتسلّطٍ على الرعيّة والإخوة المعلّمين والراهبات، فنفّرهم جميعًا، فضلاً عن تكبيده شخصيًّا فيضًا من التنكيد والمضايقات.

كلّ تلك الهواجس والشكوك كانت توحي له بارتكاب أخطاءٍ فادحةٍ، تستلزم منه التنحّي، وإفساح مجالٍ لمن هو أوفر منه كفاءةً وجدارةً، وبواجب قضاء فسحة خلوةٍ كي يبكي أخطاءه قبل مثوله أمام منبر الديّان.

وخُيّل إليه أنّ فرصته في الاعتكاف قد لاحت عندما تنامى إلى علمه أنّ أُسقفه نفسه قد طلب التقاعد والتنازل عن مركزه إلى آخر، بسبب عجزه عن مواصلة الاضطلاع بمهمّته الراعويّة، فسارع إلى توجيه رسالةٍ له، قال فيها:

« "يا صاحب السيادة،

بما أنّكم سعداء بالعمل على التقاعد، وحصر عنايتكم بشؤون السماء، أرجوكم أن تمنحوني هذه السعادة عينها، ملتمسًا منكم ألاّ تحرموني هذه النعمة، وإلاّ فسأموت حزنًا ».

ولكنّ الأسقف كان مازال موقنًا بأنّ بعاد الأب "ڤيانّي" عن أرس هو خسارةٌ فادحةٌ للرعيّة، وأنّه سيحرم آلاف الخطأة من نعمة الغفران والعودة إلى الله. فكان يتجاهل طلبه ويماطل. ولكي يسرّب إلى نفسه بعض عزاءٍ، ويبدّد هواجسه سعى إلى رفده بمعاونٍ كفءٍ، يحرّره من أعباءٍ كثيرةٍ. ولكنّ الوقت لم يُتحْ له تحقيق هذا الحلّ، فحقّقه، لاحقًا، خلَفه في الأسقفيّة.

وكان الأب "ڤيانّي" قد كتب إلى أسقفه منذ عام ١٨٤٧: "إذا كنت حريصًا على خلاص أبناء رعيّة أرس، فلا بدّ لك من السماح لي بالرحيل عنهم". ولمّا ازداد شعوره بخَوَر قواه، وبدنوّ أجله، وبما أنّ هاجس الخطأة مانفكّ يحاصره ، فقد كتب ثانيةً إلى الأسقف: "مازال في الرعيّة خطأةٌ، وعليّ أن أرحل لكي يستطيع آخر إعادتهم إلى الله". فأجابه الأسقف: "إذا أنا سمحت لك بالرحيل لارتكبت خطيئةً كبرى لن يرضى أحدٌ حلّي من وزرها".

حيال هذا الجدار الصامد قرّر الأب "ڤــيانّي" وضع الجميع أمام أمرٍ واقعٍ. وبلّغ زوج أخته المقيم في ليون أنّه سيوافيه يوم الإثنين، الخامس من أيلول، ويقيم لديه بضعة أيّامٍ، ريثما يتسنّى له الالتحاق بمركز تعبّدٍ دائمٍ، كان قد أنشأه الأب "كولان" (Colin) مؤسّس جمعيّة الإخوة المريميّين، والذي كان زميلاً له أثناء دراسته اللاهوت، على تلّةٍ تبعد نحو خمسةٍ وأربعين كيلومترًا عن مدينة ليون، حيث ينقطع رهبانٌ للصلاة وأفعال توبةٍ، ملتزمين الصمت التامّ. ولكنّه ارتكب هفوة إيداع هذا السرّ لدى معاونتيه، المديرتين السابقتين لدار العناية وسلّم إحداهما، "كاترين لاسّانيي" رسالةً إلى الأسقف كي توصلها إليه بعد وصوله إلى غايته، وقد شرح فيها دوافع اضطراره إلى الرحيل والتمس موافقته وبركته. وحاولت الآنستان عبثًا ثنيه عن عزمه هذا، مذكّرتين بما حدث عندما فرّ إلى مسقط رأسه لعشر سنواتٍ خلت. ولكنّه أصمّ أذنيه، واكتفى بالقول: "لدى الأُسقف ما يكفي من الكهنة يتولّون مهمّتي في أرس".

في هذه الأثناء كان معاونه، الأب ريمون، قد تيقّن من أنّ حلمه في تولّي رعيّة أرس قد تبخّر، وأعلن أبناء الرعيّة عدم ارتياحهم لطباعه النــزقة، فأوكل إليه الأسقف رعيّةً أخرى بعيدةً عن أرس، وعيّن بديلاً عنه، بصفة معاونٍ مقيمٍ، المرسل الأب "توكّانييه" (Toccanier)، الذي كان في الحادية والثلاثين من العمر، متين البنية، يضجّ عزيمةً، على نقيض الأب "ڤــيانّي" الذي هدّه الإعياء. وكان ذلك الكاهن الشابّ يتميّز بخطابٍ حيٍّ، مباشرٍ، تلقائيٍّ، صريحٍ، يطفح سدادًا وبساطةً، على غرار الخوري القدّيس. وفضلاً عن ذلك، كان ينتمي إلى جمعيّة مرسلين أبدت تأهّبها لإدارة حركة الحجّ المتعاظمة في أرس. وظنّ الجميع أنّ هذا التدبير كفيلٌ بتسريب الطمأنينة إلى نفس الأب "ڤــيانّي"، وإقناعه بالعزوف عن الرحيل. ولكنّ الخوري لم يُطلَع على هذه الترتيبات إلاّ عشيّة إعلانها في قدّاس يوم الأحد الواقع في الرابع من أيلول ١٨٥٣. وحينئذٍ أُبلغ أيضًا أنّ الأسقف مستعدٌّ لتوفير جميع

المساعدين الذين قد يحتاج إليهم من أجل مواصلة مهمّته. وكان الخوري القدّيس يصغي بهدوءٍ إلى معاونه السابق ومعاونه المعيّن حديثًا اللذين بلّغاه هذه الترتيبات، ولكن بدا عليه الشرود، وشيءٌ من اللامبالاة، وكأنّه في مكانٍ آخر.

ومساء يوم الأحد جاءته معاونتاه، ملتمستيْن بدموعهما المنسابة بقاءه في أرس. ولكنّ قراره كان نهائيًّا، لا رجوع عنه. فخرجتا محطّمتيْن، ووقفتا في فناء الكنيسة تتبادلان مخاوفهما ممّا قد يصيب راعيهما الحبيب الذي تخطّى السبعين من سنيه، وهُدّت صحّته، في طريقه الطويل إلى ليون. وفيما كانتا تتشاوران مرّ الأخوان خادما الكنيسة، واستهجنا وقوفهما خارجًا في تلك الساعة المتقدّمة من الليل، فتوقّفا متنصّتَيْن، وصُدِما بما كان الخوري يبيّت من قصدٍ، وفوجئت الفتاتان بوجود الأخوين، وجرى بين كاترين والأخ جيروم الحوار التالي الذي استهلّته كاترين بالسؤال:

- "تبدو سعيدًا أيّها الأخ جيروم!
- "وعلامَ أكون تعيسًا؟
- "أمّا أنا فحزينةٌ
- "ولِمَ؟
- "لا أستطيع إفشاء السبب، فأنا مقيّدةٌ بوعد كتمانٍ".

غير أنّ حرصها على بقاء الأب "ڤـيانّي" في أرس، وعلى الفوائد الجمّة التي يسديها للقرية والرعيّة تغلّب على وعدها، فلجأت إلى حيلةٍ خُيِّل إليها أنّها تريح ضميرها، فأدارت ظهرها، وحدّقت إلى نافذة حجرة الأب "ڤـيانّي"، وخاطبت الأخوين بأسًى ولهفةٍ: "هل ستسمحان لأبينا بالرحيل؟". وأدرك الأخوان خطورة الأمر، فهرعا لإيقاظ معاون الكاهن الجديد الأب "توكّانييه"، والذي ظنّ، للوهلة الأولى، أنّه مدعوٌّ إلى فراش محتضرٍ، ولكنّه صُعِق عندما اطّلع على الحقيقة المقلقة، فطلب من الأخوين مراقبة المخارج، واستدعاءه حالما يلحظان الخوري خارجًا. وعند منتصف الليل قرعا بابه، ومعًا راقبوا الأب "ڤـيانّي" من خلال نافذة حجرته

المضاءة، وهو يعتمر قبّعته، ويتأبّط كتاب صلواته ومظلّته. ثمّ رأوه يدعو الآنستين اللتين كانتا قد تطوّعتا لمواكبته على الطريق، وكانت إحداهما، كاترين لاسّانيي، تحمل مصباحًا، والأخرى، ماري فيات، تحمل زادًا للطريق. وما كان الخوري يخطو معهما بضع خطواتٍ، حتّى وقف الرجال الثلاثة في وجهه معترضين طريقه. وحينئذٍ وجّه نظرة صارمةً إلى الآنسة كاترين، معاتبًا: "لقد بعتِني!"، فانفجرت بالنحيب. أمّا الأخ أثناس، خادم الكنيسة، فأنذره: "إذا غادرتنا فسنقرع جرس الحزن... وستواكبك الرعيّة كلّها في موكبٍ لاجبٍ". ولكنّه ردّ: "افعلوا ما يحلو لكم، ولكن دعوني أمضي!". وحينئذٍ شرع المعترضون ينفّذون خطّةً كانوا قد بيّتوها، فقالوا: "هيا، نحن سنواكبك حتّى خارج القرية". وانتزع أحدهم المصباح من يد الآنسة كاترين، وعوضًا عن الانطلاق باتّجاه ليون، سلك طريقًا داخل القرية، سعيًا إلى الطواف خلال قرية أرس، والعودة إلى دار الرعيّة، أملاً في التباس الأمر على الكاهن الشيخ، وسط الظلام الدامس الذي كان يلفّ كلّ شيءٍ، ويطمس كلّ معلَمٍ. ولكن سرعان ما اكتشف الخوري الخديعة، وحينئذٍ، تدخّل الأب "توكّانييه"، قائلاً: "إن كنتُ أنا سبب رحيلك، فسأرحل في الحال، وابقَ أنت". ولكنّ الخوري أكّد له أنّ لا شأن له في قرار رحيله. وحينئذٍ أكّد المعاون الجديد أنّه سيواكبه حيثما يشاء، إذا أصرّ على الرحيل. وسرعان ما ومضت في ذهنه فكرةٌ قد تكون ناجعةً: "كيف ترحل بلا إذن الأسقف؟". فأجابه: "الأسقف يعرف دوافعي ولن يلومني".

في هذه الأثناء كان موكب المعارضين لرحيله ماانفكّ يتضخّم بمن ينضمّون إليه باطّرادٍ من أبناء الرعيّة المتمسّكين ببقاء راعيهم بينهم، ومن الحجّاج المطالبين ببقاء معرّفهم ومرشد نفوسهم. ووسط الضوضاء لم يكفّ المعاون الجديد عن دعوته إلى اتّقاء تحطيم قلوب محبّيه الكُثُر. ولمّا انتهى الموكب إلى الممرّ النهريّ المفضي إلى طريق ليون، وقف الأب "توكّانييه" حاجزًا، مانعًا الخوري القدّيس من عبوره. فقد كان يسكنه اليقين بأنّ عبور الأب "ڤـيانّي" له سيكون عبورًا نهائيًّا لا رجوع عنه. وراح الخوري القدّيس يتوسّل: "دعوني أعبر، دعوني أعبر!". ولكنّ الأب

"توكّانييه" فاجأه بانتشال كتاب صلواته الذي كان يتأبّطه، وبإعطائه لأقرب شخصٍ منه، موعزًا إليه بالفرار به؛ وأمعن الخوري في توسّل استعادة كتاب صلواته، ولّما لم يلقَ توسُّله استجابةً، التفت إلى معاونته التي كانت تحمل حقيبة أشيائه، وزاد الطريق، وهمس: "فلنذهب الآن، وفي ليون سأحصل على كتاب صلواتٍ آخر". وحينئذٍ استلّ الأب "توكّانييه" من جعبته حيلةً أخرى، فقال بصوتٍ عالٍ: "ستقضي، إذن، نهارك، مهملاً صلوات الفرض، يا له من مثال يُحتذى!". هذا القول أصاب مقتلاً في ضمير الأب "ڤـــيانّي"، فصمت برهةً، ثمّ استدرك قائلاً: "في حجرتي كتاب صلواتٍ آخر، ورثته من الأسقف السابق". وسارع الأب "توكّانييه" إلى انتهاز نوبة التردّد هذه، فهتف: "لنعُدْ، إذن، ونأتِ به!". ولم يخطر بباله، آنذاك، أنّه كان قد كسب المعركة. وعاد الجميع إلى دار الرعيّة، في موكبٍ كان قد ازداد تضخّمًا. ولم يكد الموكب يجتاز ثلاثين مترًا، حتّى أطلق جرس الكنيسة رنّاتٍ حزينةً، كان لها وقعٌ كئيبٌ في ذلك الليل الدامس. وتعالى صوتٌ قائلاً: "إنّه جرس التبشير". ولكي لا يخيّب الخوري صاحب هذا القول، ركع، وتلا ثلاث مرّاتٍ "السلام"، بحرارةٍ ملائكيّةٍ. وحاول معاونه الجديد انتهاز هذه السانحة، واقتناص مزيدٍ من الوقت، فاقترح: "ولِمَ لا نتلو بضعة أبيات مسبحةٍ عن نيّة رحلتك؟". واشتمّ الخوري القدّيس رائحة خديعةٍ جديدةٍ، فردّ: "بل فسأتلو المسبحة في طريقي إلى ليون".

وفيما كان الخوري يصعد بخطًى سريعةٍ إلى حجرته، أسرّ الأخ "أثناس" للمعاون الجديد أنّ الكونت العمدة قد أُطلع، وأنّه قادمٌ، فيحسن إعاقة الأب "ڤـــيانّي" ريثما يصل. ودخل الأب "توكّانييه" بمفرده إلى حجرة الخوري، وحاول إفساد ترتيب الكتب، وتغيير أماكنها، وكان ملمّا بالتقدير الجمّ الذي يكنّه الأب "ڤـــيانّي" لهذه الكتب التي ورثها عن الأسقف السابق، والتي كان يعدّها كنـــزًا ثمينًا، وذكرى غاليةً. وفيما كانت أنظاره تطوف في الحجرة، رأى صورة ذلك الأسقف الذي حرص دائمًا، أشدّ حرصٍ على بقاء الأب "ڤـــيانّي" في أبرشيّته،

وخادمًا لرعيّة أرس. وومضت خاطرةٌ في ذهنه، فقال للخوري: "تأمّل صورة الأسقف "ديــــڤــــي" (Dévie) الذي يرشقك، من سمائه، بنظرات امتعاضٍ! وإن كان علينا احترام مشيئته وهو حيٌّ، فكم بالأحرى، علينا احترامها بعد موته! ألا تذكر ما قاله لك، لعشر سنواتٍ خلت؟".

هذا القول هزّ أعماق خوري أرس، ولكنّه ردّ بسذاجة وبراءة ولدٍ مهدّدٍ بتأنيب أبيه: "لن يؤنّبني سيادته، فهو يعرف حاجتي إلى الاختلاء من أجل بكاء حياتي البائسة!". ثمّ تناول، على عجلٍ، كتاب صلواته، وهبط الدرج، وكاد يصطدم بالكونت العمدة الذي أقرّ أنّه ألفاه مكفهّر المحيّا، حزينًا، حتّى خُيّل إليه أنّ الخوري واقعٌ تحت تأثير شعوره بحتفه الوشيك.

في هذه الأثناء، كانت النساء محتشداتٍ في الكنيسة ملتمساتٍ أن يلهم الله الخوري القدّيس العدول عن قرار الرحيل، وكان رجال القرية الذين استنفرهم قرع الجرس ليلاً، ففسّروه إنذارًا بنشوب حريقٍ، أو بمحاولة سرقةٍ واعتداء، فتهافتوا على فناء الكنيسة. بعضهم حاملين دلاء ماء، وبعضهم رفوشًا أو عصيًّا. وعندما شاهدوا خوريهم عند أسفل الدرج وقفوا سدًّا منيعًا في وجهه، متوسّلين إليه ألاّ يبارحهم. وفي سبيل إقناعه بالعزوف عن الرحيل وعده العديد من الرجال بإصلاح ذواتهم، والتكفير عن أخطائهم، والإقلاع عن عاداتهم القبيحة. ولكنّه، في هذه الأثناء، كان ماانفكّ يجري في كلّ اتّجاهٍ، بحثًا عن مخرجٍ، مردّدًا: "دعوني أمرّ! دعوني أمرّ...". حيالَ هذه التوسّلات المؤثّرة أفسح له رجلٌ كان يحرسُ بابًا، مجالاً للخروج؛ غير أنّه عندما انتهى إلى الحيّز الواقع بين مقرّه والكنيسة، توقّف مُعمِلاً الفكر، يروز عواقب قراره، وحينئذٍ حدث ما غيّر مجرى الأحداث، إذ كانت هناك نساءٌ، معظمهنّ غريباتٌ عن أرس، وقد قصدنَه للاعتراف بين يديه، والظفر بإرشاداته الخلاصيّة. وكنّ خارجاتٍ من الكنيسة مثقلاتٍ بالخيبة، وما إن لمحنَه حتّى ارتمينَ راكعاتٍ، باكياتٍ، متوسّلاتٍ منحهنّ فرصةً للقيام بما جئن لأجله: "يا أبتِ، قبل رحيلك، امنحني فرصة الاعتراف"، "استمع إليّ..."، "نرجوك لا تهجرنا!". وحينئذٍ ألهم الله

معاونه الجديد، الأب "توكّانييه"، القول المقنع، فخاطبه بهدوءٍ، قائلاً: "كيف تهجر ساحة المعركة، أنت من يحفظ سيَر القدّيسين، عن ظهر قلبٍ؟! هل نسيت مثال القدّيس فيليب دي نيري (de Nèri) الذي أعلن أنّه لو وصل إلى عتبة الفردوس، وطلب منه خاطئٌ خدمةً، لما تلكّأ في هجر البلاط السماويّ من أجل الاستماع إليه، ومع ذلك تتجرّأ على الإعراض عن طالبي الاعتراف القادمين من بعيدٍ!".

ولدى سماع الحجّاج هذا القول، تعالت نبرة توسّلاتهم، ومن خلالها سمع الأب "ڤـيانّي" مشيئة الله. وحينئذٍ همس الكونت، عمدة أرس، في أذن الخوري: "هيّا ندخل إلى السكرستيّا، فلديّ ما أقوله لك". والتفت الخوري إلى الحجّاج، ودعاهم إلى داخل الكنيسة، وكان هو أوّل الداخلين. وتعبّد، طويلاً، أمام الهيكل، قبل الدخول إلى السكرستيّا. وحاول العمدة تأييد أقوال الأب "توكّانييه"، ولكنّ الخوري لم يتح له إكمال خطابه وحججه، بل سارع إلى وضع بطرشيله، وانسلّ إلى كرسيّ الاعتراف، بعد أن تلا، مع الجمهور، راكعًا أمام الهيكل، خمس مرّاتٍ، كُلاًّ من "أبانا" و"السلام"، جريًا على عادته. ثمّ شرع يستمع إلى الاعترافات.

وبعد احتفاله بقدّاس الساعة السابعة، لمح في الكنيسة، المعاون الأسقفيّ، الذي كانت قد جاءت به عربةٌ ليلاً، كي يبلّغه رغبة الأسقف في البقاء حيث هو. وما لبث أن وصل معرّفه الخاصّ وكاهنان آخران، للغاية عينها.

هكذا انتهت إحدى أقسى محن حياته، التي أفقدته السيطرة على ذاته. وبعد سُوَيْعاتٍ اتّضح لزائريه أنّه استعاد سكونه، واستسلامه التامّ للمشيئة الإلهيّة التي تبيّنها في مشيئة الأسقف. ولّما ذُكِّر بكلّ ما حدث في تلك الليلة، اكتفى بالردّ: "كان تصرّفي صبيانيًّا".

غير أنّه أوضح، لاحقًا، لصديقٍ استوضحه عمّا دفعه إلى ذلك الفرار، فأوضح: "أردت أن أُحرج الله، وأقول له إذا متّ، وأنا خادم رعيّةٍ، فلأنّك أنت شئت ذلك، ولستُ مسؤولاً عن هذا الخطأ". فشعوره الباهظ بثقل مسؤوليّة الرعاية الروحيّة كان قد وطّد في ذهنه اليقين بأنّ على خادم الرعيّة أن يقضي أيّامه الأخيرة

معتكفًا، منقطعًا للصلاة، والتأمّل، ومراجعة الذات، والتوبة عن كلّ تقصيرٍ أو إهمالٍ. وهو، لّما عجز عن تحقيق هذه الأمنيّة، حاول أن يثبت لله أنّ بقاءه خادم رعيّةٍ، كان فعل طاعةٍ، لا مشيئةً ذاتيّةً.

في الواقع، كان خوري أرس متلهّفًا إلى الانقطاع للصلاة والعبادة في خلوةٍ تامّةٍ، ولكن، في الآن عينه كان همُّ النفوس لا ينفكّ يؤرّقه، فبات نهبًا بين النـــزعتين، وتأرجحت إرادته، وتخبّطت. وكان قد افتقر إلى الفطنة عندما أودع سرّ رحيله بين أيدي آنستين كان عليه أن يعلم عجزهما عن حفظ سرٍّ، في حين كان من الأيسر له، تكليف المدرّس المتولّي حراسته اقتياده، في عربةٍ إلى ليون، بلا إفصاحٍ عن نواياه. غير أنّ العناية الإلهيّة الساهرة دائمًا، لم تشأ أن تحرم نفوسًا عديدةً إرشاده الخلاصيّ. وبالإجمال كانت له هذه المحاولة الفاشلة إشارةً منيرةً. ومنذئذٍ وقف كلّ ما تبقّى له من طاقةٍ وحياةٍ على أداء رسالته، وغدا أكثر تبكيرًا في الحضور إلى الكنيسة، ليلاً، وتمادى وقت مكوثه في كرسيّ الاعتراف.

ومع ذلك لم تبارحه فكرة الاعتزال للصلاة والتوبة. ففي شهر آذار من عام ١٨٥٧ نُقِل أسقفه إلى أبرشيّةٍ أخرى، فلاح للخوري أملٌ في أن يسمح له الأُسقف الخَلَف فرصةً للاستقالة، كي يعتكف ويخلو بنفسه ويبكي أخطاء حياته. واتّفق أن زاره الأسقف الجديد، وقضى معه نحو ساعةٍ، على انفرادٍ، في حجرته. وجاع الأسقف فطلب طعامًا، وإذ لم يكن لدى الخوري أيّ طعامٍ طلب أن يؤتى له بحليبٍ مغليٍّ وخبزٍ. واعتذر معاونو الأب "ڤـــيانّي" من الأسقف عن هذا الزهد والشحّ. ولكنّ الأسقف أكّد سعادته بمشاركة خوري أرس فقره وتقشّفه.

وبعد أن أخفقت جميع مساعيه إلى الظفر بالاعتزال، وطّن الأب "ڤـــيانّي" عزمه على المكوث في أرس حتّى مغادرته الدنيا. ولكنّ آخرين ظلّوا راغبين في انتزاعه منها. ففي إحدى ليالي عام ١٨٥٤ توقّفت عربةٌ يجرّها حصانان أمام كنيسة أرس وانحدر منها رجالٌ قادمون من مسقط رأسه، وترصّدوا خروجه، ولّما أقبل، عند

منتصف الليل، صوب الكنيسة، أمسك أحدهم بذراعه، وجرّه قائلاً: "إن كنت راغبًا في الرحيل، فها هي العربة جاهزةٌ". ولكنّ الكاهن احتجّ بأنّه لم يحصل على إذن أسقفه، وأفلت من أسر الخاطفين، واحتمى في الكنيسة.

ويبدو أنّ العناية الإلهيّة، أيضًا، نهضت عائقًا دون مغادرته أرس، حتّى لدوافع ملزمةٍ وبريئةٍ، فمع دنوّ عيد الميلاد من ذلك العام نفسه، ورده نبأ اعتلال أخيه الأكبر فرنسوا اعتلالاً خطيرًا. وكانت تربط الأخويْن أواصر محبّةٍ متينةٍ. فدبّج الكاهن لأخيه رسالةً أعرب له فيها عن قلقه الشديد، مؤكّدًا له أنّه، لولا ارتباطه بواجبات طقوس العيد واحتفالاته لهرع لعيادته. ومرّت الأيّام، ولم يظهر الكاهن، فأوفد شقيقه ابنه إلى أرس كي يعود منها بالأخ الحبيب. وذاع في قرية "درديّي" نبأ قدوم الكاهن القدّيس، وخطر لأبناء قريته أن يستبقوه لديهم، ويمنعوه من العودة. ويوم ١٨٥٥/١/٢٦ انطلقت من أرس عربةٌ تقلّ الأب "ڤـيانّي" وابن أخيه، ومعاون الكاهن الأب "توكّانييه"، وخادم كنيسة أرس، الأخ "جيروم". وعند انطلاق العربة ركع أبناء الرعيّة والحجّاج، ملتمسين بركة القدّيس، وداعين له بعودةٍ سريعةٍ.

كانت الطرقات، حينذاك، مغمورةً بالثلج والجليد، وشقّ على الأب "ڤـيانّي"، المرهق المكدود، والذي لم يألف السفر في عرباتٍ، احتمال وعثاء الطريق، وكاد يغمى عليه، فانحدر من العربة، محاولاً متابعة المشوار سيرًا على الأقدام. وفجأة أخذت به رجفةٌ، وبدت عليه أمارات الإعياء، وحاول مرافقوه انتزاع عصًا من سورٍ، كي يتكّئ عليها، ولكنّه رفض، عادًّا ذلك سرقةً، فابتاعوا له عصًا من فلاّحٍ عابرٍ، استعان بها على اجتياز أربعة كيلومتراتٍ، ببطءٍ، مستقلاًّ، تارةً، متن العربة، وسائرًا على قدميه تارةً أخرى. ولّما عجز عن المتابعة، قرّر العودة برفقة الأخ جيروم، فيما واصل معاونه الأب "توكّانييه" دربه إلى قرية "درديّي"، ليكون إلى جانب فرنسوا المحتضر، الذي خاب رجاؤه عندما لم يحضر الإنسان الوحيد الذي كان ينتظر قدومه كي يودّعه الوداع الأخير. ومع ذلك سُرّ بحضور معاونه.

واستفسر الأب "توكّانييه" المحتضر هل من أمرٍ خطيرٍ يودّ تبليغه لأخيه الكاهن، فأجاب أنّه لم يكن راغبًا إلاّ في رؤيته ووداعه.

عاد، إذن، الأب "ڤـيانّي" مع الأخ جيروم في العربة عينها إلى أرس. والغرابة أنّه، مع كلّ ما كان قد انتابه، في طريقه إلى مسقط رأسه من اضطرابٍ، وتعبٍ، واعتلالٍ، بدا عليه، في طريق عودته إلى أرس ارتياحٌ تامٌّ، فبدا وكأنّه إنسانٌ آخر، يمتلئ نشاطًا وعزيمةً، فتابعت العربة مسيرها حتّى مقرّه، بلا توقّفٍ، فانحدر وهرع إلى كرسيّ الاعتراف، وأقام صلاة المساء، وفقًا للمألوف. واتّفق، أيضًا، أثناء تلك العودة، أن التقى حافلةً عائدةً إلى ليون، مليئة بحجّاجٍ كانوا قد قصدوا أرس للاعتراف، ومنهم من كان قد قاطع الاعتراف منذ أربعين سنةً، ولّما لم يجدوه عادوا خائبين، ولكنّهم لّما لمحوه عائدًا، انحدروا من الحافلة وواكبوه، مشيًا، حتّى أرس.

وطال احتضار "فرنسوا ڤـيانّي" حتّى الثامن من نيسان ١٨٥٥. وفي هذه الأثناء وافى إلى أرس، كاهن رعيّة "درديّي"، متوسّلاً الخوري القدّيس الشخوص إلى مسقط رأسه، تلبيةً لرغبة أخيه المحتضر في الإفضاء إليه بسرٍّ خطيرٍ. ولكنّ الخوري القدّيس كان قد تأكّد من الأب "توكّانييه" أنّ ليس لدى أخيه ما يبوح له به، وأنّ لا رغبة له إلاّ في مشاهدته ووداعه. وفي الآن عينه كان خوري أرس يتوجّس خشيةً من أن يحتجزه أبناء قريته، ويمنعوه من العودة إلى رعيّته، حيث كان تدفّق الحجّاج وطالبي الاعتراف يشهد، يومًا فيومًا، تناميًا هائلاً، بمناسبة اقتراب عيد الفصح.

وانتقل شقيقه، فرانسوا، إلى جوار ربّه، يوم جمعة أُسبوع الآلام، فلم يطق الخوري القدّيس التخلّي عن التائبين القادمين للاعتراف من نعمة الغفران والمناولة الفصحيّة، ولا البعاد عن رعيّته عشيّة عيد الفصح، فآثر ألاّ يشارك في جنازة أخيه، واكتفى ببكائه وحيدًا في كرسيّ الاعتراف. وأقرّ، الخارجون من ذلك الكرسيّ أنّه لم ينفكّ ينشج وينتحب، ويتنهّد بحزنٍ. ولّما غادر كرسيّ الاعتراف كان محيّاه مغمورًا بالعبرات.

أيّامه الأخيرة

أخيرًا تيقّن الأب "ڤـــيانّي" أنّ لا الله، ولا الرعيّة، ولا إخوة العيلة المقدّسة سيسمحون له بمغادرة أرس، بأيّة حجّةٍ. وهذا ما بلّغه إيّاه أسقفه، الذي أكّد له، أيضًا، أنّه حيثما سيكون، سيحاصره طالبو عونه الروحيّ، فخيرٌ له أن ينهي في أرس رحلته الأرضيّة.

يوم ١٨٥٣/٩/٤، غادر أرس، معاونه السابق، الأب ريمون. ومع أنّ الأب "ڤـــيانّي" كان قد عانى ما عانى من قسوته، وذاد عنه كلّ محاولات مناوئيه لإقصائه، إلاّ أنّه أشار إلى معاناته المتمادية معه، ببوحه لمعاونته: "لو لم أمكث سنواتٍ مع الأب ريمون، لما عرفت أنّي أحبّ الله".

وربّما خُيِّل إليه أنّ الأب "توكّانييه"، الذي عُيّن معاونًا بديلاً عنه، لن يعوّضه عن عون الأب ريمون. ولكن سرعان ما بدّد الواقع مخاوفه، واتّضح له أنّ الأب "توكّانييه" هو هديّةٌ من السماء. فقد كان، على نقيض الأب ريمون، متواضعًا، بسيطًا، محبًّا للجميع، منـــزّهًا من كلّ مطمعٍ شخصيٍّ، متفانيًا حتّى الامّحاء في خدمة الأب "ڤـــيانّي". وما لبث أن عُقدت بينهما علاقات ودٍّ صافيةٌ، منعشةٌ، وشاع في الرعيّة مناخ ارتياحٍ، وتنفّس الصعداء كلٌّ من أبناء الرعيّة، والإخوة المعلّمين، والراهبات، ومعاونات الخوري، وجميع من لهم بالرعيّة صلةٌ. فقد كان المعاون الجديد يتعامل مع الجميع بدماثةٍ، ومحبّةٍ، وتجرّدٍ، فاكتسب رضاهم ومحبّتهم، وكان للأب "ڤـــيانّي" ابنًا بارًّا، متفانيًا في خدمته، وأحاطه بعنايةٍ ساهرةٍ، وحبٍّ مُعدٍ، وتولّى عنه العديد من المهامّ بنجاعةٍ. ولم تكن قد مضت سوى أيّامٍ معدوداتٍ على وجوده إلى جانبه حتّى قال له الأب "ڤـــيانّي": "سأتنازل لك عن الرعيّة، وأعتزل في دار الرعاية"، ولكنّ معاونه ردّ بقوله: "بل بقدر ما أنت تعمل، سنعمل نحن". هذا الجواب أنساه قسوة الأب ريمون وإيثاره لنفسه، وأشرق محيّاه، تأثّرًا.

وذات يومٍ عاتبه الخوري على ما كان يعدّه إفراطًا في العناية به وخدمته، فردّ الأب "توكّانييه": "إنّما أفعل وفقًا لوصيّة الله بإكرام الوالدين!". قولٌ سرّب إلى نفس الكاهن الشيخ دفقًا من التأثّر والفرح.

ثمّ حدث ما اضطُرّ الأب "توكّانييه" إلى الغياب، مدّة ثلاثة أسابيع. ولّما عاد، كانت سعادة الخوري غامرةً، وقد عبّر عنها بقوله: "لقد طال غيابك، وشقّ عليّ، فأدركت كم الهالكون بائسون في جهنّم من جرّاء بعدهم عن الله، بقدر ما يؤلمنا نحن، على الأرض، بعد أحبّائنا عنّا".

وفضلا عن علاقة الصداقة التي انعقدت بين الكاهنين، غدت جمعيّة المرسلين التي ينتمي إليها الأب "توكّانييه"، عائلةً حاضنةً للأب "ڤـــيانّي". وقد برز منها، لاحقًا، شابٌّ، أصبح من كتّاب سيرة الخوري القدّيس، ومن أكثرهم توغّلاً في روحانيّته، وفي كوامن نفسه، هو الأب "مونّان" (Monnin).

وفي أيّام اشتداد الازدحام، كانت جمعيّة المرسلين تكلّف عددًا من مرسليها بالمساعدة في سماع الاعترافات، وتنظيم مواكب الحجّ، وأداء جميع الخدمات الملحّة. وكانوا يحيطون الخوري بعنايةٍ رقيقةٍ، ويسرّبون الفرح والسكون إلى نفسه. وكانت مديرات دار العناية السابقات، يغدقن عليه عطفًا أُموميًّا، ويسهرن على إعداد طعامه، وجعله، على تقشّفه وزهده، أوفر تغذيةً ومدًّا بالطاقة، عملاً بنصائح طبيبه. وكانت راهبات القدّيس يوسف يغمرنَه بالمودّة كلّما وافى مقرَّهنّ من أجل تلقين الفتيات التعليم المسيحيّ. وكان الجميع يسهرون كي يوفّروا له مناخ شيخوخةٍ هنيئةٍ، ساجيةٍ، ويشيعوا الدفء في قلبه.

غير أنّ ماضي التقشّفات القاسية، والحرمان الطوعيّ، وممارسات قمع الذات المتمادية، كانت قد أتت على قواه الجسديّة. فغدا يشنّ على نفسه صراعًا مريرًا، يتكرّر كلّ يومٍ، كي يُكره ذاته على النهوض باكرًا، ومقاومة رغبةٍ طبيعيّةٍ في

اقتناص حفنة دقائق نومٍ إضافيّةٍ. وقد باح، يومًا: "كم اشتهيتُ، اليوم، إطالة وقت نومي. ولكنّني لم أتردّد في النهوض، في الموعد المعتاد، فخلاص النفوس، مهمّةٌ خطيرةٌ جدًّا".

وأمسى الخوري الشيخ يقضي ليالي رقاده القصير، على فراشٍ رقيقٍ، متقلِّبًا في كلّ اتّجاهٍ، بحثًا عن راحةٍ لا يعثر عليها، وكان ينهض مبلّلاً بالعرق.

سابقًا كان يردّد القول: "لي جثّةٌ متينةٌ. وحسبي تناول الزهيد من الطعام، وساعتا نومٍ، حتّى أستأنف عملي بنشاطٍ". ولكن، بعد أن أخذ به الإرهاق كلّ مأخذٍ، أمسى يكتفي بالقول: "في الآخرة، سأنعم بالراحة". وغدا يردّ، مبتسمًا، على الكونت العمدة الذي يستحلفه بمراعاة صحّته: "يا صديقي، سيتدبّر الله تعالى كلّ شيءٍ".

وذات يومٍ، دخل إلى المطبخ، شاكيًا لمعاونته كاترين: "لم أعد أطيق احتمالاً!". فقالت له:

– "اجلس لحظةً، كي أُعدّ لك حليبًا ساخنًا.

– "لا حاجة بي إليه، بل السرير هو ما أحتاج إليه".

غير أنّها أعدّت له كوب حليبٍ، ارتشف جرعاتٍ منه، وهو في طريقه إلى كرسيّ الاعتراف، مُعرضًا عن نداء السرير.

وكان الهزال الذي نال منه قد أكرهه على تناول رشفات حليبٍ، ليلاً. وغدت معاوناته يُضفْنَ، صباحًا، القليل من الشوكولاتة إلى كوب حليبه، بناءً على توجيه طبيبه، إذ كانت الشوكولاتة، آنذاك، تُعَدّ علاجًا. وكان ذاك هو التعديل الوحيد الذي أدخلنَه على نظامه الغذائيّ، ولا سيّما أنّ تلك الجرعات الصباحيّة من الحليب، كانت، غالبًا، كلّ ما يتسنّى له التغذّي به طوال النهار.

وأقرّ الأب "ڤـيانّي" لمعاونه، أنّه، ذات يومٍ، وقع أرضًا، أربع مرّاتٍ، من شدّة الإعياء، ونهض أربع مرّاتٍ بمشقّةٍ، وعلّق على ذلك بقوله: "سينتهي الخطأة

بالقضاء على هذا الخاطئ البائس"، مشيرًا إلى نفسه، وما يكبّده ضيوف كرسيّ اعترافه من إرهاقٍ.

ومع أنّ معاونيه، باتوا، في تلك المرحلة من حياته، يُكرهونه على قضاء خمس عشرة أو عشرين دقيقة نومٍ، وهو جالسٌ في السكرستيّا، صباحًا، قبل إقامته القدّاس، إلاّ أنّ تائبين راكعين في كرسيّ اعترافه كانوا يلحظون، أحيانًا، تغلّب النعاس عليه وعلى جهوده للبقاء متيقّظًا، فيشفقون عليه، وينسلّون بصمتٍ، ويمهلونه بضع دقائق. متيحين له هنيهات إغفاءٍ مريحٍ.

ومَاانفكّت آلامه الجسديّة تتفاقم، وتزداد حدّةً، ولكنّ ذهنه كان، دائمًا، حرًّا طليقًا، وفي الآن عينه، كانت رغبته في ردّ الخطأة إلى الله، ونشر ملكوت الله على الأرض، تزداد كلّ يومٍ، اتّقادًا.

ومع أنّ محيّاه ظلّ ساجيًا باشًّا، لا يفضح للآخرين معاناته، كانت أمارات حتفه الوشيك تتجلّى للعيان، يومًا فيومًا، ويتناقل الحجّاج أخبارها، فتتقاطر مواكب القادمين إلى كنيسة أرس، ولا تني تتضخّم أعدادهم، فقُدِّر عدد الذين أمّوها في سنة حياته الأخيرة، بما ينيف على مئة ألف حاجٍّ غريبٍ. وتطوّعت ثلّةٌ من المرسلين لسماع اعترافات الذين لم يطيقوا على الانتظار صبرًا. أمّا الذين كانت تلحّ عليهم الرغبة في مقابلة الخوري القدّيس شخصيًّا، فلم يخشوا الانتظار أسبوعًا كاملاً، كي تتسنّى لهم فرصة الاقتراب منه. وفي مواجهة هذا الزحف المتواصل، ارتضى الخوري القدّيس تمديد فترة استقباله طالبي الاعتراف إلى ما تخطّى العشرين ساعةً في اليوم، مستهلاًّ هذه المهمّة المقدّسة المنهكة بُعيْد منتصف ليل كلّ يومٍ، ومستمرًّا فيها حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ جدًّا من الليل.

وربّما غرب عن بال المتعطّشين إلى نيل حظوة نيل بركته، وغفران الله من خلاله دون سواه، أنّهم إنّما كانوا يستنفدون أنفاسه الأخيرة، ورواسب قطرات

طاقته، ولا سيّما أنّ حياة التضحية والدأب المتواصل، التي لم تفسح له، يومًا، ولو نصف ساعة استرخاءٍ وهدنةٍ، ونقاهةٍ حقّةٍ، كانت قد هدّته.

وروى صحافيٌّ أَمَّ كنيسة أرس قبل أشهرٍ من وفاته، أنّه سمع أصوات تنهّدٍ، ونحيبٍ قادمةً من كرسيّ الاعتراف، ومنبعثةً من صدرٍ يعاني الاختناق، ويتحوّل صرخة حبٍّ، وجهد نفسٍ أرهقتها الأرض، فانطلقت تشقّ دربًا إلى السماء.

وكان صوته في تلك الفترة قد خفت حتّى الانطفاء، وأمست كلّ كلمةٍ يتلفّظ بها، مبعثَ مشقّةٍ وجيعةٍ، وتمتماتٍ مبهمةٍ يصعب استجلاؤها. وبين فينةٍ وفينةٍ، كان ينشب بصدره سعالٌ جافٌّ يحاكي صرخة وجعٍ. غير أنّ حبّه لله، وغيرته على النفوس كانا يطغيان على إعيائه. وكان المؤمنون يتوجّعون لدى سماعهم هذا السعال، وتتمزّق أفئدتهم إشفاقًا وهلعًا على قدّيسهم الحبيب، في حين لم يكن هذا الضيق الطارئ يعني له سوى هدر وقتٍ ثمينٍ يضاعف أسفه وأساه. وقد أكرهه الإعياء والوهن، في تلك المرحلة، على التخلّي عن عادة تلاوة صلواته ركوعًا، إلاّ أنّهما لم يثنياه عن جلد ظهره، مع أنّ هذه الممارسة كانت تقوده إلى الإغماء، أحيانًا.

وكان الأب "توكّانييه" يشهد ما يعانيه الكاهن الشيخ من إعياءٍ وخَوَرٍ، وتواتر حالات الانهيار المقلقة، فسأله، يومًا:

– "إذا خيّرك الله تعالى بين المثول، توًّا، إلى السماء، أو الاستمرار في عملك من أجل ارتداد الخطأة، فما تختار؟

– "سأستمرّ

– "ولكنّ القدّيسين ينعمون بأقصى سعادةٍ في السماء، حيث لا أتعاب ولا تجارب.

– "أجل القدّيسون ينعمون بسعادةٍ جمّةٍ. فهم ينعمون بريع أعمالهم. ولكنّهم لا يستطيعون، مثلنا، أن يكتسبوا لله نفوسًا بأعمالهم.

– "وإن أبقاك الله على الأرض حتّى نهاية العالم، سيكون لك متّسعٌ من الوقت. فهل ستكفّ عن النهوض باكرًا.

– "بل سأظلّ أنهض، دائمًا، عند منتصف الليل. فليس التعب هو الذي يخيفني. ولكنتُ أسعد كاهنٍ، لولا فكرة المثول، أمام محكمة الله، بصفتي راعي نفوسٍ".
ورافقت قوله هذا دمعتان كبيرتان تدحرجتا على وجنتيه.

مثلما تتألّق الشمس بأزهى ألوانها وهي تتهاوى في الأفق عند المغيب، هكذا كان الأب "ڤـــيانّي" في أيّامه الأخيرة، رغم أوهان جسده المهدود المثخن، ألمًا، متوقّد الذهن، ساجي المحيّا، باشّ الأسارير. وعندما تبرّح به الأوجاع، كان يبذل جهودًا بطوليّةً لكتمها، حتّى يخلو المحيط إلاّ من المقرّبين منه والمطّلعين على آلامه، فيهوي على مقعدٍ، ويهمس ساخرًا: "... أمرٌ مضحكٌ، حقًّا!".

ومع ذلك، لم يكفّ حتّى الأشهر التي سبقت وفاته يطلق مشاريع جديدةً. ففي عام ١٨٥٨، اتّفق، شخصيًّا، مع مهندسٍ على إعداد مخطّطات بناء كنيسةٍ تكريمًا لقدّيسته الأثيرة الشهيدة فيلومينا، وأدّى للمهندس أتعابه مسبّقًا، مسبحةً من المرجان منظومةً في سلسلةٍ ذهبيّةٍ: وبما أنّ بناء الكنيسة كان يستلزم أموالاً طائلةً، افتتح حملة تبرّعاتٍ استهلّها بتقديم ألف فرنكٍ. وكانت العبارة الأخيرة التي خطّها بيده: "سأسأل الله من أجل الذين سيساعدونني على بناء كنيسةٍ جميلةٍ لتكريم القدّيسة فيلومينا". وقد اندفع لتنفيذ هذا المشروع، بكلّ غيرته، الأب "توكّانييه"، الذي بذل جهدًا دؤوبًا، لا عهد له بهدنةٍ، في سبيل جمع التبرّعات، مسخّرًا كنوز مهارته ودماثته في استدرار الأموال اللازمة لإخراج تلك الكنيسة في أجمل حلّةٍ وزينةٍ.

وفضلاً عن هذا البناء ابتاع خوري أرس، بناءً لسكن المرسلين الذين تولّوا إدارة الحجّ وإعانته في واجباته الراعويّة، كي يتمكّنوا من متابعة رسالتهم في أرس.

عيد فصح ١٨٥٨ وقع في ٢٤ نيسان. وإعدادًا لهذا العيد كان الأب "ڤـــيانّي" قد وضع نفسه، ووقته كلّه، في تصرّف طالبي الاعتراف، حتّى افتقر إلى وقتٍ لتلاوة صلواته الفرضيّة. فقد كان يشرع بسماع الاعترافات منذ منتصف الليل حتّى

ساعاتٍ متأخّرةٍ منه. ولّما شعر بنفاد قواه، دعا أبناء رعيّته إلى اجتماعٍ قبيْل عيد الفصح، وبلّغهم وصيّته الأخيرة التي جاء فيها:

« تأمّلوا كم سخا الله عليكم. قليلةٌ هي الرعايا التي ظفرت بما أنتم ظفرتم به. أنا أترك لكم المرسلين كي يرشدوكم، والإخوة كي يثقّفوا أبناءكم، والأخوات لتثقيف بناتكم، فاشكروا لله ما أغدقه عليكم. واعلموا أنّ الله سيقتضي منكم الكثير ».

وقد طفح قلبه سرورًا لأنّ معظم أبناء الرعيّة تقدّموا من مائدة الإفخارستيّا، وأدّوا واجبهم الفصحيّ. وعقب القدّاس جمع من حوله الرجال والشبّان الذين تناولوا الأسرار المقدّسة، وألقى فيهم الكلمة الوداعيّة التالية:

« يا أولادي، ما أجمل ما قمتم به! فبأدائكم واجبكم الفصحيّ، أعددتم لله مسكنًا في قلبكم، وستقيمون له مسكنًا آخر، بإشادتكم كنيسةً جميلةً. سابقًا كنت أنا آتي إليكم، ولم ترفضوا لي أمرًا، وإنّي لشاكركم. واليوم، فالمرسل هو الذي سيزوركم، نيابةً عنّي، وسيواكبه قلبي... مازال في الرعيّة خطأةٌ، وعليّ أن أمضي لكي يتمكّن آخر من ردّهم إلى الله ».

واستخلص مستمعوه أنّ أجله قد بات وشيكًا.

وكانت خشيته من دينونة الله ما برحت تراوده، ولكنّ كلّ هاجسٍ بشأن دعوته قد تبدّد. ورويدًا رويدًا، حلّت ثقته التامّة في حبّ الله محلّ الخشية من دينونته. وغدا لا يقوى على حبس فيض دموعه كلّما تحدّث عن حبّ الله. ومهما تناول من مواضيع في عظاته، كان يعرّج، لا شعوريًّا، على حضور الربّ الفعليّ في الإفخارستيّا، فتغرق كلماته في دموعه، ويشرق محيّاه، وتتحوّل عباراته هتافات حبٍّ. كان قد تمكّن من سلامٍ وطيدٍ، بفضل جهادٍ مستمرٍّ، فأقرّ: "كانت أمورٌ تقضّ مضجعي، أمّا الآن فلم يعُدْ شيءٌ يخيفني". وكان مناوئوه قد رموا، أخيرًا، أسلحتهم المثلومة، وأجمع كلّ عارفيه على إجلاله. ولم يعُدْ له مأخذٌ عليهم سوى إفراطهم في العناية به.

وحتّى بعد تسنّمه قمّة القداسة، كان شعوره بنقائصه وتقصيره يؤرّقه، ولا يفهم لتكريم الناس له سببًا. وكان يحزنه نشر صوره على واجهات الحوانيت، فيسير مطرقًا. وإذا وقع نظره على صوره المعلّقة، كان يرى فيها مهزلةً تدعو للأسف. ويدمدم: "انظروا كم أنا تعيسٌ! إنّهم يشنقونني، إنّهم يبيعونني، يا لبؤس خوري أرس!". وفي عام ١٨٥٨ فوّض الأب "توكّانييه" باتّخاذ الإجراءات القانونيّة الكفيلة بمنع تجارة صوره.

وقد باح، مرّةً، للأب "توكّانييه": "أخافتني، هذا الصباح، خاطرة وقوعي، عند موتي، في الجانب الآخر، الجانب السيّئ. فإن حدث ذلك سأندم على مغادرة الأرض حيث تتوفّر للإنسان سعادة حبّ الله". وسُمِع، مرّةً، يقول: "إن لم يكن بدٌّ من الإدانة، فثمّة فرصة عزاءٍ للمرء بأنّه أحبّ الله على الأرض". وكان كلّما لاح له طيف قنوطٍ، يضاعف جهوده المعبّرة عن حبّه لله، ويزداد تشبّثًا بالربّ.

ولوحظ أنّ معظم عظاته باتت تدور حول الإفخارستيّا، واشتدّت إلحاحًا في الدعوة إلى اللجوء لرحمة الله وحبّه. وكان يردّد باستمرارٍ:

« إنّ الله يغدق علينا نِعمَه بغزارةٍ. فما علينا إلاّ أن نرغب في الشخوص إلى السماء، كي يحقّق الله إرادتنا. لن يكون، بعدُ، في الفردوس إيمانٌ ورجاءٌ، ولن يبقى سوى الحبّ. سنسكر به، سنغرق فيه، سنتيه في محيط الحبّ الإلهيّ. سنمتزج بحبّ قلب يسوع الجمّ... ».

وغدت صلاته موجزةً بعبارة:

« يا إلهي أحبّك. وليكبر حبّي لك في قلبي باطّرادٍ، منذ الآن حتّى مماتي! ».

ومع خوفه الدائم من حساب الله، وهواجسه المضنية في هذا الشأن، لم يكفّ لحظةً، عن إغداق العزاء على كلّ محتاجٍ، وما أكثر المحتاجين! فقد أمست أرس محجّ كلّ ألوان البؤس الروحيّ والجسديّ، التي تنسيه جراحه النازفة، وتدفعه إلى

مواساة الآخرين. واتّفق أن زارته، قبَيْل وفاته، امرأتان فقيرتان بائستان، كابدتا في سبيل الوصول إليه لسع الريح والثلج والصقيع، ووصلتا مقرورتين. وجهد الأب في توفير بعض الدفء لهما، فأدخلهما إلى غرفته، بغية إشعال نارٍ لإدفائهما، وجاء بقدرٍ من القشّ والأحطاب، ولكنّها كانت رطبةً مبلّلةً، فبعثت من الدخان أكثر ممّا بعثت من دفءٍ. فتوسّلت إليه إحداهما أن يعزف عن محاولة إشعال نارٍ، فلطالما تآلفتا مع البردِ، والتمست أن يدفئ، بالحريّ، نفسهما المسكينة، ببضع قبسات إيمانٍ ورجاءٍ، فبذل من كنوز عطفه ما يكفل سكب بلسم العزاء، على تينك النفسين الثمينتين في تقدير الله، ولكن لم يتسنّ له الإمعان في تلك المهمّة، إذ ما لبث أن جاء من ألحّ في دعوته إلى الحضور إلى الكنيسة، حيث احتشد طالبو الاعتراف. فاكتفى بإهداء كلٍّ من المرأتين صليبًا خشبيًّا، بمثابة دعوةٍ إلى التسليم بمشيئة الله، وباركهما فيما كان يسارع إلى تلبية نداءٍ جماهيريٍّ آخر. فتدفُّق الحجّاج، وطالبي غفران الله، كان لا يني يتكثّف ويتنامى.

ومع أنّ الشعور بالوحدة ينشر، عمومًا، سُحُب الكآبة على أيّام المسنّين الأخيرة. وتملأها مرارةً مواكب الأمراض والأوهان والإرهاق، إلاّ أنّ نفس الخوري القدّيس قد احتفظت بالطيبة العذبة، حتّى النفس الأخير.

كان صوته قد خفت، وبسبب فراغ فمه من الأسنان غدت أقواله مبهمةً. صعبة الفهم، وأصبحت عظاته هتافاتٍ ولعثماتٍ مخنوقةً غارقةً بالدموع. فكان المستمعون يلتصقون به كي يسمعوا ويدركوا أقواله. ومع ذلك ظلّت طريقة احتفاله بالقدّاس تهزّ نفوس المستمعين. وكانت عزيمته التي تتحدّى الشيخوخة وخوَر القوى مبعث إعجاب أبناء الرعيّة والحجّاج على السواء. وباتت تعاليمه الدينيّة تأوّهاتٍ ودموعًا، وكادت تقتصر مواضيعها على حضور الله الحقيقيّ في القربان. وربّما من أروع ما قاله، في هذا الشأن، بصوتٍ متهدّجٍ تخنقه العبرات:

« **ما أعظمكِ يا نفسي! فأنت لا يرضيكِ سوى الله. غذاء النفس هو جسد الله ودمه. وحده الله يكفيها، ووحده يملأها، ووحده يشبع جوعها. وهي بحاجةٍ أساسيّةٍ إليه. ما أسعد النفوس الطاهرة التي تتّحد بربّنا من خلال المناولة! ستتلألأ في السماء مثل الألماس، لأنّ الله يشعّ منها. ما أسعد أصحاب تلك النفوس! فهم يتغذّون بإلهٍ. وما أعظمك، أيّها الإنسان الذي يروي عطشه ويشبع جوعه جسد الله ودمه! فأقبلوا، يا أبنائي، على المناولة!** ».

ولطالما أخذ به الوجد الإلهيّ، فظلّ يردّد، مدى عشر دقائق:

« **يا إخوتي، سنراه، سنراه، سنراه! هل خطر ذلك ببالكم؟ سنرى الله، سنراه حقًّا، سنراه كما هو، وجهًا لوجهٍ!** ».

مشيته أمست شاقّةً، فاضطرّ غالبًا إلى الاتّكاء على ذراع أحد مرافقيه. وسبق لنا أن ذكرنا كيف كان معاونوه يلزمونه بسنّة نومٍ وجيزةٍ قبل القدّاس، ويوفّرون له جوًّا من الهدوء كي ينعم بهذا الاستجمام.

وبما أنّه كان يعاني، في الشتاء، قسوة البرد التي تحدث تشقّقاتٍ في قدميه، أقنعه أصدقاؤه، بمشقّةٍ، بوضع مدفأةٍ على مقربةٍ من كرسيّ اعترافه، ولكي يضمنوا قبوله هذه المبادرة، صوّروا له أنّها تستهدف راحة المعترفين الذين غالبًا ما يرتعدون من البرد الصقيعيّ. وهو، مع ارتيابه في صدق حججهم، استسلم لرغبتهم.

وفي الصيف كان القيظ والاكتظاظ في الكنيسة الصغيرة الضيّقة، إضافةً إلى الشموع المشتعلة باستمرار في كاپـيلاّ القدّيسة فيلومينا، يجعلان الجوّ خانقًا، فيضطرّ التائبون المنتظرون دورهم إلى الخروج، بين فينةٍ وأخرى، إلى العراء، من أجل استنشاق نسيمٍ عليلٍ. وكان الخوري يحذو حذوهم كلّما اعترته نوبة اختناقٍ. ولكنّ خروجه لم يكن يوفّر له أيّة راحةٍ، إذ كانت تحاصره حشود الحجّاج، ولا يتورّع بعضهم عن قصّ أجزاءٍ من ثوبه أو من حلّته الكهنوتيّة، فاضطرّ أربعة حرّاسٍ إلى مواكبته وحراسته باستمرارٍ.

ومن أحداث أيّامه الأخيرة احتراق غرفة نومه بفعلٍ شيطانيٍّ، عام ١٨٥٧، كنّا قد أشرنا إليه في معرض صراعاته مع إبليس. ومن تلك الأحداث، أيضًا، سقوطه في ١٨٥٨/٢/٢٥، على درج كاپــيلاّ دار العناية، بسبب تدافع الحجّاج، وزحمهم له. هذا السقوط أحدث جرحًا طفيفًا في جبينه، وجرحًا بليغًا في ساقه، لم يشفَ إلاّ بعد ثلاثة أشهرٍ، مكبّدًا إيّاه أوجاعًا حادّةً، ومثيرًا الخشية والقلق في نفوس مرافقيه وأصدقائه.

ولوحظ أنّه، في تلك الأيّام الوداعيّة، أمسى يقرن مهمّة منح غفران الله بنعمة إغداق العزاء، وتوفير أسباب الحياة. وقد شهد كثيرون بأنّه، آنذاك، أعتقهم من القنوط، ومدّهم بالشجاعة على مواصلة الحياة والجهاد.

وفي هذه الأثناء كان الأب "توكّانييه" ماضيًا، بكلّ غيرته في بناء كنيسة القدّيسة فيلومينا، تحقيقًا لرغبة الخوري القدّيس الذي لن يتسنّى له عزاء رؤيتها مكتملةً، متألّقةً. فقد كانت ساعاته الأخيرة تتساقط قطرةً، قطرةً، في هوّة الأبديّة.

وفَـاة الخوري القدّيس

عام ١٨٥٨، شرعت تتجلّى بوادر خَوَر قوى الأب "ڤــيانّي". ففي عيد الجسد، كان قد حرص على حمل معرض القربان والطواف به، جريًا على ما أَلِفه طوال سنواتٍ. وكانت معاونته، "كاترين لاسّانيي"، تفاديًا لوقوع معرض القربان من يده قد ربطتهما، معًا، بشريطٍ. وعند انتهاء التطواف باح لها: "هذه هي المرّة الأخيرة". وفي الواقع عجز، عام ١٨٥٩، عجزًا تامًّا عن حمل معرض القربان.

ولّما أوكل إلى الأب "توكّانييه" قبض راتبه الأخير أوعز إليه الاحتفاظ به، من أجل إنفاقه على دفنه. وكان، حينذاك، قد بلغ الثالثة والسبعين من العمر، وانتهى إلى أقصى درجات الإعياء، وأمسى يضطرّ إلى التوكّؤ على ذراع أحد معاونيه من أجل اجتياز المسافة بين حجرته والكنيسة.

وكان صيف ١٨٥٩، قائظًا، خانقًا، يحوّل الكنيسة الصغيرة الضيّقة، في النهار، أتّونًا. وفي الليل كانت تزدحم بطالبي الاعتراف، فيتعذّر فيها التنفّس. وكان التائبون المنتظرون يخرجون بين فينةٍ وفينةٍ من أجل استنشاق نسيمٍ عليلٍ، في حين كان الخوري ملتصقًا بكرسيّ الاعتراف.

وكان يشعر بالموت يحبو نحوه، فالتمس من أسقفه قبول استقالته كي تتهيّأ له مقابلة الربّ مقابلةً لائقةً. وبعد أسبوعين، أشار الأسقف إلى هذا الحادث، أثناء تأبينه الخوري القدّيس، فقال: "منذ أقلّ من أسبوعين طلب منّي أن أفسح له وقتًا كي يبكي خطايا حياته، فقلت له: "إنّ دموع توبة الخطأة تقوم مقام دموعك. وإيّاك أن تطلب منّي ذلك ثانيةً، وإلاّ فسأقلع عن زيارتك. ولكنّ كلّ عبارات محبّتنا وتشجيعنا وتعزيتنا كانت عاجزةً عن إقناعه".

ومنذئذٍ غدا الأب "ڤــيانّي" يرى، بوضوحٍ ودقّةٍ، موعد وفاته، ويرفق كلّ طلب خدمةٍ من أحد معاونيه، أو إيكاله مهمّةً له، بعبارة "للمرّة الأخيرة". ومع ذلك

واصل عمله المعتاد، بمشقّةٍ، ولكن بمثابرةٍ، ولم يعدّل شيئًا من برنامجه اليوميّ. واستمرّ ينهض عند منتصف الليل كي يهرع إلى الكنيسة، ويحتبس في كرسيّ الاعتراف.

وفي شهر تمّوز من عام ١٨٥٩، زارته سيّدةٌ كانت قد أَلِفت، منذ سنواتٍ طويلةٍ، الحجّ سنويًّا إلى أرس برفقة زوجها. وكانت قد طعنت في السنّ، فودّعته لأنّها لم تكن تأمل القدرة على العودة ثانيةً، ولكنّه فاجأها بقوله: "سنلتقي بعد ثلاثة أسابيع". هذا القول أثار فضولها، فتساءلت هل الكاهن الشيخ عازمٌ على زيارة قريتها في الأسابيع القادمة؟. وأفضت إلى أفراد أسرتها بقول الخوري القدّيس الذي استغمض عليهم مغزاه. وبعد مضيّ ثلاثة أسابيع انتقلت تلك السيّدة ومعرّفها إلى ربّهما، معًا، في الآن عينه، والأرجح أنّهما التقيا في الفردوس.

ويوم ١٨ تمّوز جاءته آنسةٌ قد سبق لها مباغتة القدّيس، وهو في حالة انخطافٍ في حجرته، وقد شاركت برياضةٍ روحيّةٍ في قريةٍ مجاورةٍ لأرس، ولمّا ركعت في كرسيّ اعترافه أقرّت أنّ قلقها على صحّته قد شوّش ذهنها، أثناء الرياضة. فأوضح لها أنّه، في الوقت الراهن، لم يكن يشكو علّةً خطيرةً، إلاّ أنّه قد انتهى إلى غاية شوطه، ولم يبقَ له من العيش على الأرض سوى أيّامٍ معدوداتٍ. ورجاها بإلحاحٍ ألا تبوح بأيّ حرفٍ من اعترافه هذا، لكي لا تشتدّ محاصرته من قبل الحجّاج، فهو في حاجة إلى الأيّام القليلة التي مازالت متاحةً له كي يتأهّب للرحيل. فاعترضت بقولها إن كان عليه، هو، أن يقلق، قبل مثوله أمام الديّان، فأيّ قلقٍ يتعيّن عليها وعلى أمثالها. فبيّن لها أنّ واجباته بصفته خادم رعيّةٍ، مسؤولاً عن نفوسٍ، تفرض عليه عبئًا أثقل من جميع أعباء الآخرين. وكرّر، عدّة مرّاتٍ، قوله: "كم أنا خاطئٌ!". وتجاسرت الفتاة فاستوضحته عن يوم رحيله، فأجابها: "إن لم يكن في نهاية هذا الشهر، ففي مطلع الشهر القادم". وألحّت في معرفة تاريخ وفاته بالتحديد، ولكنّه أبى الكشف عنه لئلاّ يضطرّها إلى المكوث إلى جانبه مهملةً واجباتها الأخرى، ولا سيّما أنّه كان قد أوكل إليها العديد من المهمّات في القرى المجاورة.

كان القيظ خانقًا نهاية شهر تمّوز، وقد تحوّل الهواء لهيب نار، وتحوّلت كنيسة أرس الضيّقة أتّونًا، والكاهن سجين كرسيّ الاعتراف، باذلاً جهودًا بطوليّةً، مستنفدًا رواسب الزيت من سراج جسده المتهالك، محقّقًا حلمًا طالما راوده. فقد سبق له أن قال: "إذا لقي كاهنٌ حتفه، من جرّاء المشقّات والأتعاب التي كابدها في سبيل مجد الله، وخلاص النفوس، فنعمَ مصيره".

ولوحظ، في تلك الأيّام الأخيرة، أنّه أمسى أكثر إظهارًا لمشاعر مودّته، وغدا تدفّق عطفه أشدّ فيضًا، وأبلغ تعبيرًا عن تعلّقه بمن أحبّهم، وكأنّه التعبير الأخير عن عمق حبّه لهم. وفي هذا السياق جاء في شهادةٍ للأخ "أثناس": "يوم ٢٨ تمّوز، لمّا خرج من الكنيسة بعد الصلاة، وافى إلى المدرسة، مثلما كان يفعل غالبًا. ولكنّه توقّف طويلاً معنا ومع الطلاّب، وحدّثنا جميعنا، بفيضٍ من العطف، حتّى إنّه جلس في الأكواخ التي يبتنيها الصغار في الحدائق الصغيرة المحيقة بالملعب. ولمّا غادرنا باركنا بدفقٍ من المحبّة المؤثّرة. وقد أدهشتنا هذه الزيارة التي تمادت عن المألوف، وزخرت بالمشاعر الرقيقة. ولم يخطر ببال الإخوة والطلاّب أنّها كانت زيارة وداعٍ.
وكان الأب ريمون قد عاده، قبل وفاته بثمانية أيّامٍ، وتبيّن تغيُّر حاله، وانحطاطه الجسديّ. ولمّا عبّر له عن ذلك، أجاب: "لا أستطيع المكوث في حجرتي. وأنا، دائمًا، أحسن حالاً عندما أعمل. في الليلة الفائتة ران عليّ التعب وشعرت بنهايتي". ومع ذلك كان ممتلئًا صبرًا وتسليمًا، مرحّبًا بالموت الذي يراه قريبًا جدًّا. ومع ذلك لم يُدخل أيّ تعديلٍ على وتيرة عمله.

يوم الجمعة، ٢٩ تمّوز ١٨٥٩، شعر، منذ استيقاظه، بتفاقم سوء حالته، ومع ذلك تحامل على ذاته، وهبط إلى الكنيسة عند الساعة الواحدة ليلاً. وفي كرسيّ الاعتراف تعاقبت عليه حالات اختناقٍ، وألهبت الحمّى جسده، فكان ينتهز لحظات راحةٍ بين حينٍ وآخر. ولمّا حان موعد تعليمه الدينيّ، في الساعة الحادية عشرة، عجز عن الانتقال إلى موقع التعليم، فالتمس من أحد معاونيه أن يسكب في قعر

يده بضع قطرات نبيذٍ لعلّها تزوّده بالقدر اللازم من الطاقة. ولكنّ صوته كان من الخفوت والإبهام بحيث لم يدرك مستمعوه أنّه كان يتحدّث عن حبّ الله إلاّ من خلال عينيه الدامعتين، الشاخصتين إلى مخبأ القربان. وكان تعليمه الأخير عن الحبّ الإلهيّ، قد بلّغه بلا حاجةٍ إلى كلامٍ.

عاد مساءً إلى حجرته محنيًّا، مطويًّا على ذاته، متّكئًا على ذراع الأخ جيروم، وقد طافت على محيّاه أمارات الاحتضار. وكان بانتظاره أصدقاؤه المحسنون داعمو مشاريعه، الكونت العمدة وأسرته، ولكنّه لقي مشقّةً في رفع يده من أجل مباركتهم، فأيقنوا أنّها البركة الأخيرة التي يتلقّونها من خوريهم القدّيس.

وفي أسفل السلّم المؤدّي إلى حجرته، أُغمي عليه، وبمشقّةٍ، وبعون مساعديه بلغ سريره، فساعده الأخ "جيروم" على الاستلقاء عليه. وحينئذٍ طلب من الجميع أن يدعوه وحيدًا. وكانت معاونته كاترين قد لحظت مدى إعيائه، فلزمت حجرةً ملاصقةً لغرفته، مستعدّةً للجري إلى مساعدته حالما تشعر بحاجته إلى عونٍ.

وعند الساعة الواحدة، ورغم القيظ الخانق، اعترى جسده بردٌ صقيعيٌّ، فصفّق مستغيثًا، وهرعت لغوثه مساعدته فهمس: "إنّها نهايتي المسكينة، فاستدعوا خوري "جاسنس" (قريةٍ مجاورةٍ)، وهرع أيضًا الأخ جيروم، الذي كان، هو أيضًا، ساهرًا متأهّبًا، فطلب منه أن يأتيه بمعرّفه، فقال الأخ "سآتي أيضًا بالطبيب". ولكن المحتضر قال له: "لم تعد إلى الطبيب حاجةٌ، ولا لحضوره جدوى". وجرى نحوه، أيضًا معاونه الأب "توكّانييه". وقال: "لقد شفتك القدّيسة فيلومينا لستّ عشرة سنةً خلت، وستشفيك، هذه النوبة، أيضًا"، فأجاب الخوري متنهّدًا: "حتّى القدّيسة فيلومينا، لن تستطيع الآن شيئًا".

ومع انبلاج الفجر، وصل في آنٍ واحدٍ، الطبيب والكاهن والمعرّف. وتبيّن للطبيب وهن المحتضر الأقصى، حتّى العجز عن كلّ حركةٍ. ولكنّه إفساحًا لفرصة أملٍ قال للمحيطين به: "إذا تدنّت درجة القيظ، فقد تلوح لنا بارقة أملٍ، وإلاّ

فسنفقده". غير أنّ تصاعد القيظ مضى تفاقمًا. وما إن تنامى إلى الأرسيّين قول الطبيب حتّى نظّموا فريقًا، عمل على محاولة ترطيب غرفته، فغلّفوها بأقمشةٍ، وتناوبوا على تبليلها بالماء.

وكانت الصدمة الأشدّ وطأةً هي التي حلّت بالحجّاج الذين وصلوا ليلاً، لّما تبلّغوا تعذّر شخوص الخوري القدّيس إلى الكنيسة، واستحالة مقابلته من بعد، فحاصروا فناء الكنيسة مذهولين. بيد أنّ الخوري المحتضر تذكّر، في الصباح، أنّه التقى ثلاثةً منهم مساء الأمس، ولم يتمكّن من الاستماع إلى اعترافاتهم، فطلب استدعاءهم واستمع، من سريره، إلى اعترافاتهم، ومنحهم الحلّة والبركة.

وحيال إصرار أبناء الرعيّة على وداعه، ورغبتهم الملحّة في نيل بركته وإعلانهم: "سندخل لنراه رغمًا عنكم، فقد كان خورينا قبل أن تعرفوه أنتم". وتفاديًا لنشوب أعمال شغبٍ، فسح لهم الأخ جيروم فرصةً للتوجّه صوب غرفته، مقتضيًا التزامهم الصمت والهدوء، وعدم تخطّي العتبة. ورآهم الخوري، وتعرّف سِحَنهم، وأسند الأخ جيروم ساعده فباركهم. وإرضاءً للحجّاج المحتشدين في الكنيسة وفنائها، والمصلّين ملتمسين شفاء الكاهن القدّيس، طاف الأخ جيروم بسلالٍ أُودعت فيها كلّ الأشياء من صلبانٍ، ومسابح، وإيقوناتٍ، وصورٍ مقدّسةٍ. كانوا يرغبون في مباركتها والاحتفاظ بها ذكرياتٍ غاليةً، وجاء بها إليه، وساعده على مباركتها.

ودرءًا لخصامٍ محتملٍ بين رعيّة أرس، وقرية "درديّي" مسقط رأس الخوري التي كان أهلها قد أعلنوا عزمهم على اختطاف جثمانه، وإيداعه تربة ذويه، جاء الأب "توكّانيه" بأربعة شهودٍ، وبكاتبٍ بالعدل، وسجّل وصيّته التي أوصى بموجبها بكلّ ممتلكاته لجمعيّة المرسلين، وأوصى بدفن جثمانه – الذي قال عنه أنّه لا يساوي شيئًا – في أرس. وبما أنّه لم يملك القوة على توقيع الوصيّة، فقد تليت على مسمعه ومسامع الشهود فأيّدها، وعندما جيء فيها على دفنه في أرس، همس: "هديّةٌ صغيرةٌ". وطابت نفوس الأرسيّين، فخوريهم كان مصدر فخرهم واعتزازهم وصانع شهرة قريتهم.

وفي تلك اللحظات الحاسمة تخلّى الكاهن القدّيس عن رفضه القاطع لكلّ وسائل الراحة. وبعد أن كان قد استبعد بحزمٍ وعنادٍ الأسرّة الليّنة التي قُدّمت له، تقبّل ببسمةٍ فراشًا وثيرًا، وُضِع فوق فراش القشّ الموغل في الرقّة الذي طالما كان أداة راحته الوحيدة. ولم يردّ أيّ دواءٍ أُعطيه. ولكن، عندما حاولت راهبةٌ طرد الذبابات التي حطّت على وجهه المبلّل بالعرق، أومأ إليها أن تكفّ عن طردها، وكأنّه ابتغى إفهامها: "دعي ذباباتي المسكينة، فلا شيء يضايقني سوى الخطيئة".

وشهد معرّفه أنّه احتفظ، حتّى اللحظة الأخيرة، بكامل وعيه، وأنّ اعترافه الأخير اندرج بورعه المعتاد، وبسكونٍ تامٍّ، وأنّه لم يُبدِ أيّة رغبةٍ في الشفاء. ومع أنّ فكرة الموت والدينونة كانت، آنفًا، تسرّب الرعدة إلى نفسه، ولطالما خشي التردّي إلى اليأس في لحظاته الأخيرة، إلاّ أنّه، آنذاك، كان قد تحرّر من كلّ هاجسٍ وخشيةٍ. وبعد أن تجرّع، حتّى الثمالة، كلّ مرارة أرض المنفى، بات يتذوّق عذوبة الموت، محقّقًا ما سبق له قوله: "ما أطيب الموت لمن قضى حياته على الصليب!".

وهنُه كان ماضيًا تفاقمًا، ولكنّه كان يستغرق في سجوه، ولا تفلت منه أنّةٌ، ولكأنّه تحرّر من الآلام. ومع أنّه كان يتمنّى الوحدة، كانت أرتال المودّعين المفجوعين، التي تضمّ كهنةً، وإخوةً مساعدين، وراهباتٍ، وعلمانيّين ورعين، وأصدقاء، تتوالى مرورًا أمام سريره. وكان أبناء رعيّته الذين تسنّى لهم الوصول حتّى باب غرفته يركعون عندها، طمعًا في الظفر بنظرة وداعٍ يحتفظون بها ذكرى ثمينةً، جاهدين في كبت نشيجهم، فيما استمرّ شبابهم برشّ أسطحة البيوت المجاورة والطرقات، والأقمشة التي غلّفوا بها حجرته لعلّهم يؤتون راعيهم شيئًا من الرطوبة، وقسطًا من الراحة.

وبُلِّغ الحجّاج أنّ الكاهن سيباركهم من سريره، فكانوا كلّما سمعوا رنّات جرسٍ صغيرٍ، يرسمون إشارة صليبٍ، فيما كان الكاهن يباركهم بقلبه.

وبدا الكاهن المحتضر، وكأنّه غادر العالم إلى دنيا أخرى، فكفّت شفتاه عن الحركة، ولكنّ عينيه ظلّتا شاخصتين إلى السماء، سارحتين في بهائها.

صباح يوم الثلاثاء، الثاني من شهر آب، جاء الطبيب، فهمس الخوري المحتضر في أذن الأخ جيروم: "بقي لديّ ستّةٌ وثلاثون فرنكًا، فقل للآنسة كاترين أن تؤدّيها للطبيب، وتسأله ألاّ يعود، فأنا لم يبقَ لديّ ما أدفعه له". وشكا له معاونه مخاوفه من المستقبل، فالحكومة كانت منعته من إجراء يانصيبٍ كفيلٍ بجمع مالٍ يساعد على بناء الكنيسة الجديدة، فضلاً عن أنّ غياب الأب "ڤـيانّي" سيؤدّي إلى تجفيف الموارد والتبرّعات. ولكنّ الخوري المحتضر أكّد له أنّ كلّ شيءٍ سيتحقّق بعد ثلاث سنواتٍ. وفي الواقع، بعدَ ثلاث سنواتٍ، كانت قد تجمّعت لدى الأب "توكّانييه" كلّ المبالغ اللازمة لبناء الكنيسة، وإخراجها في أجمل زينةٍ.

مساء يوم الأربعاء، الثالث من آب، ارتأى الأب "توكّانييه" أنّ الآن قد حان لتزويد الخوري المحتضر بالأسرار الأخيرة، التي كان طالب هو بها، وألحّ على عدم إرجائها إلى الغد. وقال: "ما أعظم عطف الله، فعندما يتعذّر علينا المضيّ إليه يأتينا، هو!". ولما رنّ جرسٌ صغيرٌ منبئًا بقدوم معرّف الأب "ڤـيانّي" حاملاً القربان، يواكبه نحو عشرين كاهنًا حاملين شموعًا مضاءةً، انفرجت عيناه عن سيل دموعٍ، فسأله الأخ جيروم: "علامَ تبكي، يا أبتاه؟" فأجابه: "إنّه لحزنٌ أن يتناول المرء للمرّة الأخيرة!".

ولدى وصول الموكب بذل المحتضر كلّ ما تبقّى لديه من طاقةٍ، وجلس بمفرده على سريره، وضمّ يديه، وفاضت دموعه. ومنحه معرّفه الزاد الأخير ومسحة المحتضرين. وبما أنّ جوّ الحجرة أمسى خانقًا، أطفأ الكهنة شموعهم.

وتطوّع خوري رعيّةٍ مجاورةٍ لمواكبة لحظات المدنف الأخيرة. وقال له: "أنت، الآن، مع الله". فردّ مبتسمًا: "أجل يا صديقي".

وذكّره ذلك الكاهن بأنّ الكنيسة كانت تحتفل، في ذلك اليوم، بذكرى نقل رفات الشهيد إِسطفانُس، الذي رأى السماء، وهو يغادر الأرض، فشخصت أبصار الخوري القدّيس إلى السماء، معبّرةً عن عظمة إيمانه، ورجائه، وسعادته.

وتوالى توافد كهنة القرى التي سبق للخوري القدّيس أن ألقى فيها مواعظ، وممثّلين عن تلك القرى.

أمّا أُسقف الأبرشيّة. فكان يزور إكليريكيّةً، مشاركًا في توزيع جوائز السنة الدراسيّة، عندما تنامى إليه نبأ احتضار خوري أرس، فنهج، في الحال، طريق أرس، التي وصل إليها في الساعة السابعة مساءً، وجرى إلى دار الرعيّة، لاهثًا، شديد التأثّر مصلّيًا بصوتٍ مرتفعٍ، مخترقًا جموع الراكعين. وتعرّف المحتضر أُسقفه، فابتسم له، وجهد في التعبير له عن شكره، ولكنّه لم يقوَ على التفوّه بلفظةٍ واحدةٍ. فقبّله الأسقف وقال له إنّه ماضٍ إلى الكنيسة كي يصلّي من أجله، فشاعت بسمةٌ عريضةٌ على محيّا الكاهن المحتضر. وكانت تلك هي اللحظة الوحيدة التي بدا فيها، وقد عاد إلى الأرض.

عند الساعة العاشرة مساءً، بدا أنّ أجَل الخوري القدّيس قد أزف، فمنحه مساعده الغفران الكامل، وقدّم له معرّفه صليبَه فقبّله، وشرع يتلو صلوات المحتضرين، ببطءٍ، حافرًا بين دعاءٍ وآخر مساحات صمتٍ عميقةً. في هذه الأثناء كان الكاهن المحتضر قد بلغ أقصى تخوم الوهن، ولم يتلفّظ بأيّة كلمةٍ يمكن سماعها، ولكنّه كان ينصت بانتباهٍ وفرحٍ إلى الإرشادات التي كانت تُتلى على مسامعه. وفيما كان الأب "توكّانييه" يتلو عبارة: "فلتلاقِه ملائكة العليّ، ولتدخله إلى أورشليم السماويّة"، وفي بادرة محبّةٍ وعرفان جميلٍ أخيرةٍ، التمس المحتضر من الأخ جيروم أن يرفع ظهره قليلاً، وحينئذٍ أسلم لله نفسه الطاهرة، على ذراعي ذلك الأخ الذي طالما خدمه بأمانةٍ ومحبّةٍ.

وكان موته بسيطًا ومتواضعًا مثل حياته. وتمتم الأب "توكّانييه": "قُضي الأمر، وأصبحنا يتامى!". وجرى إلى الكنيسة، ولكنّه لم يستطع التلفّظ بأيّ دعاءٍ.

وفيما كانت تتفجّر في سماء أرس عاصفةٌ مصحوبةٌ برعودٍ وبروقٍ، كان القدّيس "جان ماري ڤـــيانّي" يغادر الدنيا الفانية، بهدوءٍ وبلا نزاعٍ، مثلما يخلد إلى الرقاد عاملٌ أنجز مهمّته. وكانت رحلته على الأرض قد امتدّت على ثلاثٍ وسبعين سنةً وشهرين، وسبعةٍ وعشرين يومًا. وكان قد خدم رعيّة أرس مدى إحدى وأربعين سنةً، وخمسة أشهرٍ، وثلاثةٍ وعشرين يومًا.

انتقل خوري أرس إلى الديار السماويّة في الساعة الثانية من فجر يوم الخميس الرابع من شهر آب ١٨٥٩. وفي الساعة الرابعة صباحًا هبط إلى الكنيسة كاهنٌ زميلٌ له، كي يرفع قدّاسًا، راحةً لنفسه، وقدّم له خادم الكنيسة حلّةً سوداء، تردّد في ارتدائها، لأنّه كان موقنًا أنّ المتوفّى لم يرتكب طوال حياته الحافلة بالقداسة حتّى خطيئةً واحدةً طفيفةً.

وقرعت أجراس أرس والرعايا المجاورة أنّات الأسى معبّرةً على الفاجعة الجلّى. وسرعان ما أذاع الأثير النبأ المفجع، في كلّ أرجاء البلاد، وغصّت الطرقات بأفواج المفجوعين بغياب قدّيسٍ قلّما عرف الأنام نظيرًا له، فتدفّقوا للمشاركة في تشييع من جعل من قرية أرس المغمورة منارةً للقداسة، وقبلةً للحجّاج.

زمن المجد

عجزت وسائل النقل من قطاراتٍ وعرباتٍ عامّةٍ وخاصّةٍ عن استيعاب جموع المتقاطرين إلى أرس للمشاركة في تشييع قدّيسٍ منقطع النظير.

ولوحظ طغيان إجلال الشعب على وصايا الفقيد الذي حرص على الامّحاء في مماته، مثلما امّحى في حياته.

فهو كان قد أوصى بالامتناع عن تعريته، عقب وفاته، ، تفاديًا لافتضاح شواهد الإهانات التي كان قد ألحقها بجسده. ولكنّ الكهنة والإخوة المحيطين به لم يراعوا رغبته، ولا التزموا بوصيّته، فشاهدوا، بذهولٍ وتجلّةٍ، تلك الذخيرة الجليلة، وتلك الأعضاء التي قدّستها وشوّهتها الإماتات، والتي عرضتْ صورةً للإرهاق البشريّ في أقصى تخومه.

وكان الفقيد قد أوصى أيضًا أن يُدفن في مقبرة القرية. ولكنّ العمدة والأُسقف ضفرا جهودهما من أجل الحصول على إذن السلطات بدفنه داخل الكنيسة. وقبل حصولهما على ذلك الإذن حقّقا رغبتهما، ودفنا القدّيس داخل كنيسته، ولّما جاء قرار السلطات المدنيّة برفض الإذن المطلوب، كان الأمر الواقع قد تمّ، وتغلّب.

وكان الكاهن المتوفّى، قد أُلبس في نحو الساعة الخامسة صباحًا حلّته الكهنوتيّة، وأُنزل جثمانه إلى قاعةٍ في أسفل دار الرعيّة، حيث بدا محيّاه ساجيًا، موحيًا بأنّه ما زال حيًّا. وانطلق تطواف المودّعين الذين على مدى ثمانٍ وأربعين ساعةً ماانفكّوا يمرّون بخشوعٍ أمام من كان هيكلاً حيًّا، مدّخرين، من تأمّله، ذكرى لن تمحو الأيّام أثرها، ومستمدّين منه بركةً تشيع في وجدانهم النعمة والطمأنينة.

وكان عمدة أرس قد استعان برجال أمنٍ من أجل ضبط اندفاع الجماهير، وتأمين النظام، إذ كان كلّ مُودِّعٍ يودّ الاقتراب من خادم الله الراقد، وملء عينيه وقلبه

بقسماتِ مَن كان الأب، والصديق، والمعزّي، والمرشد والراعي. فكان يُسمح للمودّعين بالدخول، جماعاتٍ صغيرةً، وبالمكوث المدّة الكافية لتلاوة "أبانا" و"السلام".

وفي هذه الأثناء كانت حوانيت الأشياء التقويّة قد أُفرغت من محتوياتها إفراغًا كاملاً؛ إذ كان كلّ قادمٍ يبتاع كلّ ما يستطيع إلى ابتياعه سبيلاً، من صُوَرٍ مقدّسةٍ، وصور الفقيد، وصلبانٍ وإيقوناتٍ ومسابح. وكان أربعة شبّانٍ واقفين، اثنين اثنين، على جانبي الجثمان، يتولّون ملامسة تلك الأشياء للذخيرة المسجّاة، ويعيدونها لأصحابها. وبعض الذين لم يتسنّ لهم شراء أشياء يباركونها لم يتورّعوا عن محاولة خلع أبواب الكنيسة وحجرة الخوري المتوفّى، من أجل استلاب ذخائر منها.

بعد ظهر الرابع من آب، أُخرج الجثمان من نعشه الموشّى بالزهور، فاقتنص مصوّرٌ فوتغرافيٌّ هذه السانحة لكي يسترق صورةً تخلّد قسمات القدّيس. وكانت تلك هي الصورة الأولى التي تؤخذ، بلا ممانعةٍ من قِبَل صاحبها.

حُدّد موعد الجنازة يوم السبت، السادس من آب. وعشيّة ذاك اليوم غُصّت قرية أرس بحشود الحجّاج، حتّى خوت الحوانيت والمنازل من المؤن والأغذية، واضطرّ معظم الوافدين إلى قضاء ليلتهم في العراء.

وعند الساعة الثامنة من صباح يوم السبت تألّف موكبٌ ضخمٌ ضمّ نحو ستّة آلاف مؤمنٍ، يتقدّمه نحو ثلاث مئة كاهنٍ وراهبٍ. وبما أنّ النعش لم يكن قد أُغلق، بعدُ، تدافعت الجموع من أجل استلاب نظرةٍ إلى ملامح القدّيس... وبعد لأيٍ، تحرّك الموكب، واجتاز القدّيس الراقد أزقّة القرية التي طالما طوّقها بخدماته، وقدّسها بأعماله وبالقربان المقدّس التي كان يطوف به فيها، يوم عيد الجسد من كلّ عامٍ، والتي أغدق على سكّانها حبّه، وبذل في سبيل خلاصهم كلّ حياته، وبلّغهم حبّ الله بكلّ قطرةٍ من قلبه، وأثبت أنّه أروع مثالٍ للكاهن الأمين.

وسرعان ما تحوّل المأتم إلى موكب نصرٍ، فخلف فتياتٍ صغيراتٍ مرتدياتٍ ثيابًا

بيضاء، سار الإكليروس بحللٍ كهنوتيّةٍ، أمام النعش الثقيل المصنوع من الرصاص وخشب السنديان، والذي تعاقب على حمله كهنةٌ، وإخوة العيلة المقدّسة، وشبّان الرعيّة. ولدى مروره كان الأشخاص الذين يؤلّفون سياجًا على جانبي الممرّ يركعون لكي يتلقّوا البركة الأخيرة، فيما جميع العيون تفيض دموعًا صامتةً. هذا المشهد انتزع، حتّى من غير المؤمنين، هتاف: "أجل! كان قدّيسًا!...". وكانت الأجواء تردّد أصداء الرنّات الحزينة، المتساقطة من نواقيس جميع القرى المجاورة والنائية.

وتوقّف الموكب في ساحة القرية، حيث نُصب صليبٌ جسيمٌ، أُودع النعش عند قدميه، وألقى الأُسقف خطبة الوداع، فكانت بمثابة تطويبٍ مسبّقٍ للفقيد، وجاء فيها:

« طبْ نفسًا أيّها الخادم الأمين، وادخل إلى فرح ربّك...

"اصمتوا، يا إخوتي، واسمعوا، أيّها المؤمنون الورعون، الذين استدعاهم الإجلال والحزن إلى هذا الاحتفال المهيب. سأردّد عبارة ربّنا هذه. فهل منكم من لا يسمعها، وكأنّها صادرةٌ من فم الله ذاته، لحظةَ انطلاق نفس خورينا القدّيس الجميلة التي انفصلت أخيرًا عن جسده الذي قضت عليه خدمة معلّمنا الإلهيّ المتمادية؟ فلنتأمّل، مدى لحظاتٍ، هذا القول العذب الغالي، ولنستمدّ منه رجاءنا وعزاءنا، ولنستخلص من هذه العبارة إنذارًا خلاصيًّا، باسم من لن يحدّثكم، بعد الآن، إلاّ بمثُل سيرته، ومن المرجّح، أيضًا، بمعجزات قبره... ».

وبعد أن رسم الأُسقف ملامح سريعةً لسيرة خوري أرس، التي تحدّت الطبيعة البشريّة، والتي عدّها "معجزة حبّ الله وقدرته"، استأنف قائلاً:

« منذ كم سنةٍ، بل منذ كم قرنٍ، لم تُشاهَد سيرةٌ كهنوتيّةٌ تحاكي هذه وتضاهيها إثمارًا وقداسةً، ودأبًا، وبذلاً في خدمة الله؟ إنّه ليتعذّر، حقًّا، تعويض خوري أرس. والله نفسه، حرصًا على مجده، لا يعدّد أمثال معجزة النعمة والقداسة هذه. إنّ فرنسا جمعاء فقدت كاهنًا كان صانع عزّتها، وكان القوم يتقاطرون من جميع الأقاليم بغيةَ استشارته وزيارته.

"طبْ نفسًا، أيّها الخادم الأمين، وادخل إلى فرح سيّدك. فيومك بلغ نهايته، وأنت أدّيتَ قسطك من العمل، فتعالَ وتناول مكافأتك، وأجر أتعابك... واعلم أيّها الخوري الحبيب، والمبجّل، أنّ يوم أسقفيّتي الأجمل، والذي أتطلّع إليه بتوقٍ، هو عندما يسمح لي قرار الكنيسة المنزّه عن الخطأ أن أُعلن قداستك، وأُنشد لك: "أحسنت أيّها الخادم الصالح الأمين... ادخل إلى فرح سيّدك". ».

ثم أُدخل النعش إلى الكنيسة، وبمشقّةٍ فائقةٍ ضبط رجال الأمن تدافع الجموع، ولكن لم تعكّر الجوّ المهيب صرخةٌ. وفي أثناء الجنازة ساد صمتٌ خاشعٌ، وتحوّلت أرس بأسرها كنيسةً غاصّةً بالحضور الذين كانوا يركعون معًا، على وقع رنّات الجرس الصغير.

وفي نهاية طقوس الجنازة أُودع النعش في كاپـــيلاّ القدّيس يوحنّا المعمدان، إلى جانب كرسيّ الاعتراف الذي طالما احتبس فيه الخوري القدّيس مرشدًا وهاديًا ومصالحًا مع الله آلاف النفوس التي شدّدها وباركها وحرّرها. وظلّ الجثمان، مدى عشرة أيّامٍ، مسجًّى في ذلك المكان حيث دأب أبناء الرعيّة على حراسته، ليلَ نهار، إلى أن أُودع في مدفنٍ حُفر وسط صحن الكنيسة، وخُتمَ برخامةٍ سوداء حُفِرت عليها عبارة "هنا يرقد "جان ماري باتيست ڤـــيانّي خوري أرس". ولبث رفات القدّيس في ذلك المدفن خمسًا وأربعين سنةً (١٨٥٩–١٩٠٤).

وكانت قد تدفّقت، منذ الرابع من آب ١٨٥٩، طلبات الحصول على ذخائر القدّيس، وأشيائه الخاصّة، والأدوات الكنسيّة التي مسّتها يداه. وبعد انقضاء بضعة أيّامٍ على دفنه بعث الأُسقف إلى عمدة أرس طلبًا مرسلاً من أهالي "دردّيي"، مسقط رأس الخوري القدّيس، وموقّعًا من الكردينال رئيس أساقفة ليون، يعربون فيه عن رغبتهم في امتلاك جثمان الكاهن الفقيد، أو الحصول على قلبه، على أقلّ تقديرٍ. وجاء ردّ العمدة حازمًا، قاطعًا: "يوم الجنازة كنتُ قد وعدتُ رعيّة "دردّيي" بمنحهم ذخيرةً قيّمةً من ذخائر ابن قريتهم، حالما يصبح إخراج الجثمان ممكنًا. وكان عليهم الاكتفاء بهذا الوعد، عوضًا عن الاستمرار في مطالباتٍ تبدو،

في الوقت الراهن، غير لائقةٍ، ولا صادرةٍ عن تقوًى حقيقيّةٍ. وأنا بصفتي عمدة أرس، وصديقًا قديمًا للكاهن القدّيس، سأقاوم، دائمًا، بحزمٍ، مثل هذا الانتهاك لإرادته ولحرمة قبره".

واستعاد الحجّ تدفّقه، فقد كان صوت الشعب، في هذه المناسبة، هو صوت الله حقًّا، وكان هذا الصوت قد أعلن قداسة خوري أرس. وأمسى أولئك الذين كانوا يقصدونه من أجل استشارته، وشفاء نفوسهم المتعبة، يحجّون إلى أرس من أجل تكريم ذكراه واستشفاعه.

وكان قبره قد أُحيط بسياجٍ حديديٍّ سرعان ما ازدحم بباقات الزهور، وبسواعد لحمل الشموع. غير أنّ المرسلين المكلّفين بخدمة الكنيسة سارعوا إلى إزالة ذلك السياج، ووقف مظاهر التكريم هذه، ريثما تصدر الكنيسة، رسميًّا، قرارها بهذا الشأن. ولكن أُتيح لكلّ مؤمنٍ استشفاع الخوري القدّيس في سرّه. ولم ينقطع سيل الحجّاج الذين استمرّوا يتدفّقون، ويركعون على رخامة القبر، وكثيرًا ما شوهد بين هؤلاء أحبارٌ بزيّهم البنفسجيّ المهيب، وبشعرهم الشائب، ينحنون حتّى تقبيل الرخامة التي قدّسها جثمان الثاوي تحتها.

ونشط مسؤولو الأبرشيّة من أجل إعلان قداسة خوريهم الذي ارتقى أرفع معارج الكمال. وبتاريخ ١٨٦٢/١١/٢١ ألّف الأسقف محكمةً كنسيّة كلّفها بالتحقيق في سيرة خادم الله، وفضائله، وفي المعجزات التي جرت بشفاعته، وبسلامة كتاباته الروحيّة، لاهوتيًّا. واستمرّت هذه المحكمة في الاضطلاع بمهمّتها حتّى السادس من شهر آذار ١٨٦٥، وعقدت في هذه الأثناء مئتي جلسةٍ، وجمعت إقرارات ستّةٍ وستّين شاهدًا.

وما إن فرغت المحكمة من تحقيقها حتّى تأبّط الأسقف ملفًّا يضمّ ألفًا وستّ مئةٍ وأربعًا وسبعين صفحةً، وانطلق به إلى روما، وسلّمه إلى اللجنة الـڤـاتيكانيّة

المختصّة. وفي غضون أيّامٍ معدوداتٍ عيّن البابا بيوس التاسع كردينالاً كلّفه بدراسة الملفّ، وبترجمته إلى الإيطاليّة. وكلّف لجنة لاهوتيّين بدراسة النصوص المكتوبة التي خلّفها الأب "ڤـــيانّي" والتي تضمّنت تعاليمه الدينيّة، ووعظاته وخواطره.

وكان النظام الكنسيّ يقتضي، عقب مرحلة دراسة الملفّ الابتدائيّة، مرور خمس سنواتٍ قبل مباشرة المرحلة المسمّاة "رسوليّةً". ولكنّ البابا بيوس التاسع الذي كان ملمًّا بفضائل خوري أرس الاستثنائيّة، أعفى ملفّه، من هذه المهلة، فقد كان راغبًا في أن تعلن الكنيسة، بلا تلكّؤٍ قداسة ذلك الكاهن المتواضع، ووقّع، في غروب عام ١٨٧٢ قرارًا بافتتاح الجلسات النهائيّة الحاسمة.

واقتضت التحرّيات النهائيّة التي تعاقب على إدارتها ثلاثة أساقفةٍ على أبرشيّة "بيللي" (Belley)، اثنتي عشرة سنةً، امتدّت من ١٨٧٤/٨/٣ حتّى ١٨٨٦/١٠/١٢، عقدت أثناءها ثلاث مئةٍ وإحدى عشرة جلسةً، وأدلى، خلالها، مئةٌ وسبعةٌ وأربعون شخصًا بشهاداتٍ، ملأت ألفين وثماني مئةٍ وستًّا وثمانين صفحةً كبيرةً.

بتاريخ ١٨٩٠/٥/١٣، أيّد مجمع الطقوس في الـــڤـــاتيكان مقرّرات المحكمة الإعداديّة، والدعوى الرسوليّة. وفي اليوم التالي صدّق البابا لاون الثالث عشر قرار مجمع الطقوس، فقد كان ذلك الحبر العظيم، على غرار سلفه البابا بيوس التاسع يقدّر أسمى تقديرٍ فضائل خوري أرس. وكان قد سبق له أن حرّض أُسقف "بيللي" على المضيّ قدمًا، وبلا تلكّؤٍ، في إجراءات إعلان قداسة من عدّه مجد فرنسا الروحيّ. وكان يعتبر دعوى التقديس هذه من أجمل القضايا، وكان يتمنّى أن يعلن قداسة المكرّم الأب "ڤـــيانّي" بنفسه، ولكنّ الحياة لم تفسح له فرصة تحقيق هذه الأمنيّة، فآل هذا الشرف إلى قدّيسٍ عظيمٍ آخر هو البابا بيوس العاشر الذي انتخب حبرًا أعظم بتاريخ ١٩٠٣/٨/٤، أي يوم الذكرى الرابعة والأربعين لوفاة خوري أرس.

في هذه الأثناء كانت أُسقفيّة "بيللي" قد نظرت في سبعة عشر شفاءً عجيبًا تمّت بشفاعة خوري أرس. واختار محامي الدفاع عن القضيّة شفاءين عدّهما مقنعيْن

وحاسمين. أحدهما نعمت به "أديلائيد جولي" (Adèlaïde Joly)، التي كانت تقيم مع شقيقتها الكبرى في ميتمٍ بمدينة ليون. وفي سنّ التاسعة شخّص جرّاحٌ في ذراعها "ورمًا أبيض" شلّ حركتها. فأوصاها بجهازٍ يساعدها على تحريك ذراعها. ولكنّ مسؤولات الميتم آثرن الاستشفاع بخوري أرس. ونظّمنَ تساعيّة صلواتٍ لهذه الغاية. وربطنَ بذراع الفتاة حذاءً عتيقًا كان ينتعله الخوري القدّيس. وبعد انقضاء سبعة أيّامٍ، زال ألم ذراع الفتاة؛ وفي اليوم التاسع، مع اختتام التساعيّة، فككنَ حذاء الكاهن العتيق، ولم يجدنَ للورم أثرًا، وغدت ذراع الفتاة تتحرّك في كلّ اتّجاهٍ. وذُهل الجرّاح لمّا تبيّن هذا الشفاء العجيب، ولم يتردّد في تدبيج تقريرٍ، اعترف، من خلاله، بالواقعة المعجزة.

الشفاء الثاني نعمَ به صبيٌّ في السادسة من العمر، يُدعى "ليون روسّا" (Léon Roussat)، ألّمت به نوباتٌ عصبيّةٌ سرعان ما تفاقمت شدّةً وتواترًا. وجرّب الطبيب علاجاتٍ عديدةً متنوّعةً، مستبعدًا، على التوالي، كلّ الأسباب الكفيلة بإحداث مثل هذه النوبات، إلى أن تيقّن بأنّ السبب هو الصرع. وفشلت جميع علاجاته في شفائه، بل تفاقمت حالته سوءًا. ووصف طبيبٌ آخر مياهًا مشبعةً بالحديد كان يوليها ثقةً مطلقةً، ولكنّها ضاعفت حالة الطفل سوءًا. وألقى الطبيب سلاحه، موصيًا ذوي الطفل بألاّ يعودوا إليه...

وكان كلّ يومٍ يمرّ يزيد وضع الطفل سوءًا. فتواترت النوبات واشتدّت، وأدّت إلى حالاتٍ خطيرةٍ، إذ غدا الطفل، إثر بعضها، يتجمّد جسمه، ويبدو ميتًا، إلى أن شُلّ شللاً تامًّا، وفقد القدرة على النطق.

ويوم إثنين الفصح اعتزم والداه حمله إلى قبر خوري أرس، التماسًا لشفاعته. ولكنّ كاهن الرعيّة حذّرهم من خطر نوبةٍ تحدث في الطريق، وتودي بحياة الطفل. غير أنّ ذلك الكاهن عينه دُعي إلى أرس يوم الأوّل من أيّار للمشاركة في وضع

حجر الأساس للكنيسة الجديدة، فانتهز والدا الطفل تلك الفرصة، ورافقاه، معتمدين على مساعدته، في حال حدوث مكروهٍ طارئٍ.

وفي ختام احتفال وضع حجر أساس الكنيسة، قدّم الوالدان وراعيهما الطفل للأسقف، فباركه، ونصح والديه بالشروع بتساعيّة صلواتٍ استشفاعًا بخوري أرس، ووعدهما بمشاركتهما الصلاة. وحينئذٍ أودع الوالدان طفلهما على بلاطة قبر الخوري القدّيس. ولمّا عادا إلى الفندق دهشا لرؤية الصبيّ الذي كان يعاني شللاً كاملاً، يتناول كأس ماءٍ، ويشربه، ثمّ يلهو بعيدان كبريتٍ كان يشعلها ويرميها بعيدًا.

أثناء عودة الأسرة إلى المنــزل لم تنتبْ الطفلَ سوى نوبتين خفيفتيْن، أعقبهما نومٌ هادئٌ. وفي البيت أُجلس الطفل إلى المائدة، ولكنّه ما لبث أن طلب إبعاد كرسيّه عن المائدة، وقفز منه، وراح يجري في كلّ أنحاء البيت. ولكنّ قدرته على النطق ظلّت مرتبكةً. بيد أنّه في يوم التساعيّة الأخير، استعاد هذه القدرة كلّيًّا. ومنذئذٍ نعم الصبيّ بصحّةٍ لا تشوبها شائبةٌ، واستعاد نشاطه كاملاً. وأسهم شفاؤه في ارتداد والديه، بلا تحفّظٍ، إلى إيمانهما بالله.

وفي ١٩٠٤/٢/٢١، أقرّ البابا بيوس العاشر صحّة الشفاءين، واعتمادهما لإعلان طوباويّة الأب "جان ماري باتيست ڤــيانّي، خوري أرس"، وكانت الكنيسة، بحكم حذَرها، وتحفّظها، قد أنفقت خمسًا وأربعين سنةً قبل تصديق قرار الشعب الذي هتف، تلقائيًّا، يوم وفاة الأب "ڤــيانّي": "إنّه قدّيسٌ". وقد أشاع إعلانه طوباويًّا فرحًا غامرًا في الكنيسة الكاثوليكيّة، ولا سيّما في قلوب الكهنة.

وقد علّق البابا القدّيس بيوس العاشر على هذا الحدث بقوله: "ليس أمتع وأجدى لنا ولجميع الكهنة خدّام الرعايا في العالم الكاثوليكيّ من رؤية هذا الخوري الموقّر محاطًا بأمجاد الطوباويّين، ولا سيّما أنّ مجده سينعكس على جميع الذين كرّسوا ذواتهم لرعاية النفوس...".

وصباح يوم الأحد، الثامن من كانون الثاني **١٩٠٥** أضاءت سماءَ روما شمسٌ ساطعةٌ، وازدانت كاتدرائيّة القدّيس بطرس بأحلى زينةٍ، وبلوحاتٍ أبدعها كبار الفنّانين تبرز صورة خوري أرس القدّيس، ومراحل من نشاطه الراعويّ، وتمثّل الأعجوبتين اللتين اعتُمدتا داعمًا لإعلانه طوباويًّا فقدّيسًا. وعند الساعة العاشرة استهلّت حفلة التطويب التي اتّسمت بمهابةٍ تليق بمن كانت سيرته كلُّها امّحاءً، وتواضعًا، وبذلاً، وتضحياتٍ. ولمّا أُعلن الخوري أرس طوباويًّا أُزيحت ستارةٌ عن لوحةٍ تمثّله محاطًا بملاكين منطلقين به إلى السماء، فانحنت الهامات، وركعت الركب، وفاضت العيون دموع فرحٍ. وعند الساعة الرابعة، عصرًا، حضر الحبر الأعظم وتخشّع أمام ذخائر الخوري القدّيس المودعة على الهيكل، وغمرها بالبخور.

هكذا بادلت المدينة الخالدة حبًّا بحبٍّ. فلطالما كان مجرّد ذكر اسم روما يستمطر دموع الأب "ڤـــيانّي". ولكم تمنّى أن ينعم برؤيتها، وبالركوع أمام الحبر الأعظم! ولكم غبط جميع معارفه الذين تسنّت لهم هذه الحظوة. وها هي روما تكرّمه تكريمها لأعظم قدّيسيها!

وحرصت أرس، أيضًا على تكريم قدّيسها، وصانع مجدها، فأقامت احتفالاً ضخمًا امتدّ على ثلاثة أيّامٍ (**٢ و٣ و٤ آب ١٩٠٥**) بمناسبة تدشين الكنيسة التي أطلق فكرتها، وساهم في تصميمها، الفقيد القدّيس تكريمًا لقدّيسته الأثيرة، الشهيدة فيلومينا، تلك الكاتدرائيّة التي كانت حلم حياته، والتي انتصبت، بعد انقضاء ستٍّ وأربعين سنةً على وفاته، نشيدًا من حجرٍ ورخامٍ وبرونزٍ، وقداسةٍ، قارنةً اسميْ "جان ماري ڤـــيانّي" وفيلومينا، وكُرِّمت باحتضان جثمان من ولدها من قلبه وفكره.

وبضعة أشهرٍ قبل تطويبه، أي في **١٩٠٤/٦/١٧**، كان جثمانه قد أُخرج من القبر، فوجدت أعضاؤه كاملةً، بيد أنّ لون بشرته كان قد دكن، وجسده تيبّس،

ولكنّه حافظ على كامل شكله. وكانت عوامل الموت قد خلّفت بصمتها على محيّاه، ولكنّ قلبه كان ما زال سليمًا، فأمكن استئصاله، وحفظه. ولُفّ الجثمان بأربطةٍ، وأُلبس جبّةً، وزيًّا كهنوتيًّا موشًّى، وأُسبلت مسبحةٌ ثمينةٌ بين أصابعه، وغُلّف وجهه بقناعٍ مثّل ملامحه بدقّةٍ، وأودع الجثمان في صندوقٍ نحاسيٍّ مزيّنٍ برسومٍ، تبرّع به إكليروس فرنسا، ووُضع فوق هيكلٍ من رخامٍ، تعلوه قبّةٌ من حجرٍ مزيّنٍ برسومٍ منحوتةٍ، مرتكزةٌ على أعمدةٍ رخاميّةٍ، ومحاطةٌ بلوحتيْن.

وبتاريخ ١٩٠٥/٤/١٢ أعلن البابا القدّيس بيوس العاشر، خوري أرس الطوباويّ شفيعًا للكهنة رعاة النفوس في فرنسا والبلدان التابعة لها. ولكنّ ذلك البارّ، نادر المثال، كان يستحقّ تكريمًا أوسع شمولاً، فاستأنفت أبرشيّة "بيللي" جهودها في سبيل إعلان قداسته التي تتيح تكريمه على كلّ هياكل العالم. ودعمت مطلبها بعجيبتيْن جديدتين أُضيفتا إلى الأعجوبتين اللتين دعمتا إعلانه طوباويًّا.

وأُعلنت قداسته، يوم ١٩٥٢/٥/٣١، في احتفالٍ وُصف بالسماويّ، ولا سيّما أنّ كاتدرائيّة القدّيس بطرس كانت قد شهدت، قبل أسبوعين، إعلان قداسة تيريز الطفل يسوع، وزُيّنت لهذه الغاية بأروع زينةٍ، وأُبقيت تلك الزينة عينها كي تواكب إعلان قداسة فرنسيٍّ آخر، فأُحيطت بالمجد عينه نفسان رائعتان كانتا فخر قرنٍ واحدٍ، ووطنٍ واحدٍ، وكان الاحتفال المزدوج بمثابة عنصرةٍ جديدةٍ.

ولمّا أعلن البابا بيوس الحادي عشر، عند الساعة العاشرة من ذلك اليوم: "نعلن قدّيسًا، ونسجّل في قائمة القدّيسين، الطوباويّ "جان ماري ڤـيانّي"، دوّت كاتدرائيّة القدّيس بطرس برعد التصفيق، وصدحت الأبواق، وأطلقت نواقيس روما كلّها رنّاتها الجذلى، وخفقت قلوب ملايين المؤمنين فرحًا.

وفي تلك الليلة تألّقت بأبهى الأنوار معالم الڤـاتيكان، شكرًا لله الذي أنعم على كنيسته بكاهنٍ قدّيسٍ، وأهداه للمؤمنين ضرام نارٍ، ونورًا لا ينوس ولا ينطفئ.

وكان ذلك الحبر الأعظم قد أعلنه، أيضًا شفيع الكهنة، خدّام رعايا روما. ثمّ في ١٩٢٩/٤/٢٣ أعلنه شفيع الكهنة خدّام الرعايا، في العالم كلّه.

وقد ألهمت سيرة ذلك الخوري القدّيس يوحنّا الثالث والعشرين، رسالةً بابويّةً وجّهها إلى جميع كهنة العالم من أجل مساعدهم على "المثابرة في إنماء الصداقة الإلهيّة التي تولّد فرح كلّ حياةٍ كهنوتيّةٍ، وتدعمها بالمنعة"، وأضاف قائلاً: "إنّ القدّيس "جان ماري ڤـــيانّي" يدفعنا، جميعًا، نحو قمم القداسة الكهنوتيّة... فقد كان لقطيعه الصغير الراعي الصالح الذي يعرف نعاجه، ويدرأ عنها الأخطار، ويقتادها بحزمٍ وحكمةٍ. أوَلم يكن، من غير أن يدري، يشيد بذاته، عندما قال في إحدى عظاته:

"إنّ الراعي الصالح، وفقًا لرغبة الله، هو الكنـــز الأثمن والأعظم، الذي يسع الله الإنعام به على رعيّةٍ".

أمّا البابا يوحنّا بولس الثاني الذي كان يعُدّ الأب القدّيس، "جان ماري ڤـــيانّي" المثال الأسمى والأكمل للكاهن، فقد تخشّع عند قبره، أثناء زيارته لفرنسا، عام ١٩٨٦، وقال: "هكذا، إذن، توقّف يسوع المسيح هنا، في أرس، لمّا كان "جان ماري ڤـــيانّي" خوريها. أجل، توقّف وتأمّل رجال القرن الفائت ونساءه، الذين كانوا متعَبين، مُرهَقين، مثل خرافٍ، لا راعي لها، توقّف المسيح هنا، وقفة الراعي الصالح".

فليجد جميع كهنة العالم، في ذلك الخوري القدّيس شفيعًا، وأخًا أكبر، وليزدادوا، في دعوهم، عزاءً، وعزيمةً، وإيمانًا.

- "قلوبُ جميعِ أُمّهاتِ الأرض
ليستْ سوى قطعةِ جليدٍ،
مقارنةً بالحنان الذي تُحيطنا به مريم العذراء."

- "بمعزلٍ عن الكاهن
لما أفادنا في شيءٍ موتُ ربّنا وآلامُه...!
بعدَ الله، الكاهنُ هو كلّ شيءٍ...
احرموا رعيّةً من كاهنٍ عشرين سنةً،
فيعبد أبناؤها البهائم."

خوري أرس

الفصل الرابع

ملامح كاهنٍ قدّيسٍ

« الإكليرُس القدّيس يصنع شـعبًا فاضـلاً
والإكليرُس الفاضل يصـنـع شعبًا مستقيمًا
والإكليرُس المستقيم يصنع شعبًا ملحدًا »

مكوّناتُ شخصيّةٌ

قُيِّضت لجان ماري ڤـيانّي النشأة في بيئةٍ وجّهت طاقاته الوجهة القويمة، وغرست في تربة نفسه بذور الصلاح، وصقلت طباعه الفطريّة، وحرّرتها من كلّ انحرافٍ ومَيْلٍ وبيلٍ.

فمن والده تعلّم احترام الفقراء ومحبّتهم، والمبادرة إلى غوثهم ومواساتهم، وتخفيف وطأة بؤسهم، ومشاركتهم ما يملك. وتعلّم منه، أيضًا، قيمة الجهد. فالأرض التي كانت مورد رزق الأُسرة لا تعطي إلاّ بقدر ما تُعطى، ولا يمكن خداعها، ولا يجوز التلاعب بمواعيد احتياجاتها إلى حرثٍ، وبذرٍ، وتسميدٍ، ومن ثمّ تلقّن تنظيم الوقت بدقّةٍ، والتضحية برغبات الراحة أحيانًا، والسهر الدائم على مقتضيات الواجب، وتوجيه العمل إلى ما يضمن القدر الوافي من الجدوى.

ورسّخت فيه والدته محبّة الله، والحرص على فعل كلّ ما يرضيه، وتجنّب كلّ ما لا يرضاه، وتقديم الواجبات نحوه على كلّ واجبٍ آخر.

ولّما لبّى الشابّ "ڤـيانّي" نداء دعوته الكهنوتيّة اقتادته العناية الإلهيّة إلى كاهنٍ قدّيسٍ، ساعده على تخطّي عقباتٍ كأداء نهضت في طريقه، وكادت تسدّه. ومن ذلك الكاهن اهتدى إلى دروب القداسة الوعرة.

هذه العوامل الأساسيّة الخيّرة لم تكن كافيةً لتصنع منه الشخصيّة الفذّة التي ارتقت قِممًا شامخاتٍ من البطولة الروحيّة، فأدهشت العالم، لو لم يوسعها "جان ماري ڤـيانّي" صقلاً وإنماءً، وما لم يروِها بدموع جهوده وتضحياته، وبذل ذاته بلا حسابٍ، وبحياة خدمةٍ لا تحفّظ فيها، ولا حدود لها، وما لم تلقّحها النعمة الإلهيّة وتخصبها، مغدقةً عليها أضعاف ما هي أعطت، وبذلت، وعانت.

وبذلك تكوّنت شخصيّةٌ نادرة المثال، قرنت أرفع الخصال الإنسانيّة بأسمى الفضائل الروحيّة. وقد استعرضنا أمثلةً ساطعةً منها، أثناء استقرائنا سيرته، ويسرّنا أن نلقي مزيدًا من الضوء عيها في الصفحات التاليات.

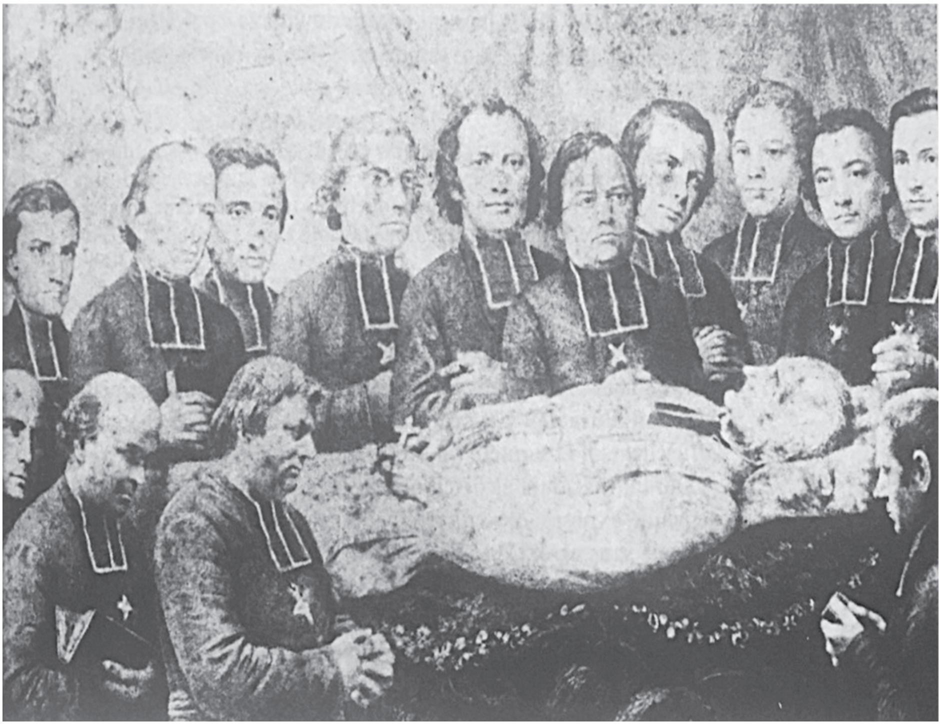

مرسلو أرس ملتفّون حول جثمان الخوري القدّيس

صورة خوري أرس

من يتأمّل صورة خوري أرس يتبيّن تزاوجًا مذهلاً بين قسماتٍ حادّةٍ حفرها قسوة التضحيات، وسنوات الحرمان الطوعيّ حتّى من مقوّمات العيش الأساسيّة، والدأب على قمع الذات، من جانب، وطيبةٍ تقطر عذوبةً، من الجانب الآخر. فعيناه الواسعتان البريئتان تعكسان عطفًا أقصى، وكأنّهما تحدّقان دائمًا، بوَلَهٍ، إلى طفلٍ رائعٍ غير مرئيٍّ.

بصفته خادمَ رعيّةٍ ومعرِّفًا، كان قد اكتسب سمعة قسوةٍ مفرطةٍ، ولكنّه بطبعه كان يقطر طيبةً. ولكنّه كبح اندفاع قلبه، خدمةً لرسالته، وعلى غرار إيليّا والمعمدان، أعمل سوط عباراته الناريّة، بكلّ ما يتنكّر لحبّ الله.

كان الأب "ڤـيانّي" ربع القامة؛ غير أنّه، في سنواته الأخيرة، بعد أن انحنى رأسه على صدره، وتهدّلت كتفاه، غدا يبدو أقصر قامةً. وكان محيّاه قد نحل واستطال. حتّى اتّخذ شكل قلبٍ. ولون بشرته الذي أشبعه عمل الحقول سمرةً، أبهتته الإقامة المتمادية في عتمة كرسيّ الاعتراف، وحفرت الأسهار والأتعاب والتضحيات في وجنتيه أخاديد. جبينه كان عاليًا، واسعًا، متألّقًا، يعلو حاجبين بارزين، وعينين زرقاوين، زرقةً حادّةً، خارقةً، تشعّان نظراتٍ تفيض براءةً وعمقًا، وكثافةً، وقدرةً على سبر الخفايا، واكتشاف مكنونات النفوس، وأسرار العالم الآخر. وقد وصف أحد معاصريه عينيه بماستيْن متألّقتين. ولكن ما إن تجول في خاطره فكرة الله المهان، والخاطئين الذين يهينونه حتّى تغشى عينيه كآبةٌ صامتةٌ. ومن ثمّ كانت تبدّلات قسماته لا تتيح معرفة هل هو فرحٌ أم حزينٌ، فقد كان الحزن والفرح يتعاقبان على محيّاه، وفقًا للخواطر التي تداخله، ووفق ما يتوقّف عنده ذهنه من حبّ الله وعطفه، أو بؤس الخطأة وتعاسة مصيرهم.

المنعة التي اكتسبتها بنيته من أعمال الحقول سرعان ما أطاحت بها الأسهار والتضحيات، فألّم به الهزال والوهن. وشيئًا فشيئًا أمست طاقاته الداخليّة هي الوحيدة التي تمكّنه من الوقوف على رجليه. وغدت يداه المعروقتان اللتان برزت عروقهما وعظامهما، تُنبِئان بما يمارسه من تضحياتٍ. غير أنّ الهمّة الجيّاشة في أعماقه ساعدته على الاحتفاظ بليونة الحركة، وبسلامة الحواسّ، التي تعينه على النهوض بمهامّه. فسمَعه احتفظ برهافته، ونظَره استبقى كلّ دقّته وحدّته، وذاكرته لم تفقد ذرّةً من نضارتها. وتثاقلت مشيته ولكنّها لم تفقد اندفاع من يؤرّقه كرّ الساعات والدقائق، ومقتضيات الواجب الملحاح، الذي يزري بالتعب، ويسعى إلى تلبية نداء كلّ محتاجٍ إلى خدمةٍ ومعونةٍ، في الحال. وبدا أنّ السماء لم تكفّ عن دعمه جسديًّا، وعن تزويده بقوّةٍ فائقةٍ، لا ينعم بها حتّى أشدّ الشباب قوّةً واندفاعًا.

غلاف جسده الذي أوغل في النحول غدا شفّافًا يلفّ نفسًا تشعّ على جبينه، ومن خلال عينيه، وتتجلّى أعماقها بساطةً، ورقّةً، وطيبةً.

- "سَهلٌ أن ندركَ أنّنا عَملُ الله.
ولكن ما لا يُفهَم،
أن يكونَ صلبُ الله عملَنا...!"

- "مَن لا يؤمن أعمَى."

- "لقَد عَانى ربُّنا أكثر ممّا لزم...
من أجْل افتدائنا.
فمَا كان كافيًا لإرضاء عَدل أبيه،
لم يكن كافيًا لإرضاء حبِّه."

خوري أرس

الفصل الخامس

فضائل إلهيّةٌ

إيمانه

حرص الأب "جان ماري ڤــيانّي"، طوال حياته، على ممارسة الفضائل الإلهيّة أسمى ممارسةٍ، مؤمنًا أنّ التمرّس بالفضائل يقتضي جرأةً، وتصميمًا، وعنفًا مستمرًّا. فأوغل في الجرأة، وأمعن في تعنيف ذاته، واجتاز في دنيا الفضائل أشواطًا شاسعةً.

كان قد مُنح نعمة الإيمان منحةً سخيّةً، كاملةً. فقد نشر الروح في نفسه أنواره بوضوحٍ، فغدا يرى الأمور الإلهيّة رؤيةً بسيطةً، في جوٍّ من اليقين، والتذوّق، والعذوبة، يفتنه، ويستثيره، ويستدرّ دموعه، ويساعد فكره على معانقة الحقائق التي تتجلّى له، عناقًا حميمًا.

اتّحاده الوثيق بالله جعله يلمس الحقائق الإلهيّة لمسًا. فما نفهمه نحن فهمًا مبهمًا، غائمًا كان يراه بوضوحٍ ودقّةٍ، فيخفق له قلبه، وتؤسر به نفسه. هذا ما أشار إليه بقوله: "عندما نكون في طريقٍ ونلمح قبّة جرسٍ، على هذه الرؤية أن تجعل قلبنا يخفق، مثلما يخفق قلب رجلٍ يلمح سقف البيت الذي تسكن فيه أُسرته. وحينئذٍ علينا أن نثبّت عليه بصرنا، ولا نشيحه عنه".

يسوع طوّب أنقياء القلوب فهم يعاينون الله. و"جان ماري ڤــيانّي" عاين الله بقلبه كلّيّ النقاء. وقد أفلت منه هذا البوح: "هناك كهنةٌ يشاهدون يسوع كلّ يومٍ أثناء القدّاس". ألم يكن يشير إلى خبرةٍ شخصيّةٍ، وألم يكن يعني ذاته؟.

وقال أيضًا: "إنّ من يفتقرون إلى الإيمان تعاني نفسهم عمًى أقسى ممّن حُرموا البصر. نحن، في العالم، كأنّنا وسط غيومٍ كثيفةٍ، والإيمان هو الريح التي تبدّد الغيوم، وتطلع على نفسنا شمسًا ساطعةً".

حياته الغائصة في الله هي، إذن، تفسّر كيف أنّ ذلك الكاهن البسيط الذي كاد يُطرد من الإكليريكيّة، وتُحجَب عنه السيامة الكهنوتيّة، بسبب تلبّد ذهنه، تلقّى أنوارًا متألّقةً حول أعمال الله، وطبائع النفوس ومسيراتها، ارتقت به إلى مصافّ

ملافنة الكنيسة أمثال الذهبيّ الفم، وأوغسطينُس، وتيريزا الأفـيلاّويّة. لقد أظهر الله له ما استغلق على أذهان العلماء، فأدرك، تلقائيًّا، وأعلن ما هم أنفقوا سنواتٍ في البحث كي يستوعبوه. كان قلبه طاهرًا، منـزّهًا من كبرياء العقل، فحفر فيه الله سامي علمه بيُسرٍ، مثلما يُحفَر على رخامٍ صقيلٍ نظيفٍ.

إيمانه عوّضه عمّا افتقر إليه من العلم الذي تلقّنه من المدارس، بل عن كثيرٍ من الاختبارات الواقعيّة، وعرّفه كلّ ما يمكّنه من أداء رسالته أداءً كاملاً. فامتلك الحكمة العمليّة الفاعلة، وإحساسًا عميقًا بطُرُق الله، وبأوهان البشر، وتمرّس بفطنةٍ رائعةٍ، وامتلك ذاكرةً مدهشةً، ورقّةً عذبةً، ودقّة ملاحظةٍ كفيلةً بإرباك المتعاملين معه، لو لم تُضفِ عظمة محبّته طابع التسامح على كلّ أحكامه.

ومع أنّه حُشِر في زاويةٍ ضيّقةٍ، مغمورةٍ، أشعّت منه حتّى أقاصي الأرض أنوار المسيح، حاملةً طيبةً آسرةً، وفضيلةً تُحتذى، وحقيقةً مضيئةً. وعلى الذين ادّعوا أن ليس فيه سوى القداسة، اعترض لاهوتيٌّ كبيرٌ، مؤكّدًا أنّ فيه أنوارًا ساطعةً تتفجّر من أحاديثه حول شتّى المواضيع، حول الله والعالم، حول البشر والأشياء، حول الحاضر والمستقبل. فمن يرى من خلال الروح القدس يجعل كلّ ما يراه جليًّا وجميلاً. والإيمان يسمو بنا إلى أرفع قمم الشعور والفكر.

ومع أنّ خوري أرس كان، دائمًا، منهمكًا في مهمّات الصلوات والتعليم والإدارة، لم يكن شيءٌ ممّا يتعلّق بالنظام الكنسيّ والشؤون الاجتماعيّة، غريبًا عنه. وكانت لديه رؤًى واضحةٌ حول أمورٍ استبهمت على الخبيرين. وكان يكتشف له الحلّ الأمثل الذي يصون مجد الله وخلاص النفوس.

وقد أخطأ خطأً مريعًا من ظنّوا أنّ ذلك الرجل الذي فُطِم عن كلّ متع العالم، ولم يتذوّق حلاوة حياة المجتمع، ولم ينعم برفاه الحضارة المادّيّة الحديثة، ومارس الحرمان باستمرارٍ، وأنفق حياته في ظلمة كرسيّ الاعتراف، لم يكن يستطيع أن

يرى شيئًا إلاّ بنظرةٍ ضيّقةٍ محدودةٍ. فالإيمان قد نمّى قدرات الأب "ڤــيانّي" الذهنيّة والأخلاقيّة، والنعمة سمت بها. والنعمة تطهّر الينابيع ولكنّها لا تجفّفها، والقداسة لا تجرّد ما تمسّه من نضارتها، بل ترتقي بها وترفد استعداداتها الحميدة بعمل الحكمة، وهو عمل الروح القدس.

ما من إنسانٍ ضاهاه تجرّدًا من الزمنيّ، وإماتةً للذات، وسكبًا للدموع، وتأمّلاً في روعة جوهر الله، وفي نقاء حقيقته، ورغبةً في السماء. كان قد توغّل في عباب النور، فهبط النور تلقائيًّا على نفسه. كان قد انتزع قلبه من صدره، ووهبه لروح الحقّ الذي ملأه جمالاً إلهيًّا.

إيمانه كان مدرسته، ويسوع كان كتابه، وهو لم ينشد علمًا إلاّ في حياة يسوع وصليبه. لم يتعلّم من تصفّح المجلّدات، بل من الركوع والتأمّل والصلاة عند أقدام المعلّم الإلهيّ، ومن تقبيلها وغمرها بدموعه. أمام مخبأ القربان تزوّد بكنوز العلم الذي هزّ به النفوس وحوّلها. وكانت تلك النفوس تشعر أنّ ذلك الكاهن الورع يرى، حقًّا، الأمور السامية التي يتحدّث عنها بتلك النبرة الملتهبة، الواثقة، المضمّخة بحنانٍ إلهيٍّ، وبعذوبةٍ وطلاوةٍ منقطعتي النظير. وحينئذٍ، كان يغشى صوته وحركاته، ونظرته، ومحيّاه المتجلّي، ألَقٌ من شدّة التأثير بحيث يتعذّر على مستمعيه ألاّ يُؤخذوا بسحره. فللأفكار والأقوال الموحاة مباشرةً من الله تأثيرٌ يتعذّر نظيره على الجهد البشريّ الصرف، ولها قدرةٌ على طرد الشكّ من الأذهان، وإضفاء وضوحٍ ساطعٍ على الحقائق السماويّة.

رجاوه

مع خشيته الدائمة من الدينونة، كان يتمنّى الموت بكلّ جوارحه، ويرى فيه وسيلة "اتّحاد النفس بالخير الأسمى". وفي حين يحتاج معظم الناس إلى الاستعانة بكلّ قواهم من أجل تقبّل فكرة الموت، كان الأب "ڤـــيانّي" يحتاج إلى جهودٍ شاقّةٍ لتحمّل فكرة البقاء على قيد الحياة. وغالبًا ما كانت نجاواه تعبيرًا عن توقٍ ملتهبٍ يذكّر بتنهّدات القدّيس بولس، رغبةً حارقةً في التحرّر من سجن الجسد، وذوبان كلّ ما هو فيه فانٍ، في خضمّ الحياة الأبديّة.

ولطالما استشهد بمثال السنونو التي تلامس الأرض أحيانًا، ولكنّها لا تستقرّ فيها، بل تستأنف التحليق، وبمثال لهب النار الشاخص دائمًا إلى الأعلى. وبالبالون الذي يشب إلى السماء، حالما يُقطع الخيط الذي يشدّه إلى الأرض. وله، في هذا السياق، أقوالٌ رائعةٌ نذكر منها:

"خُلق الإنسان من أجل السماء. ولكنّ إبليس حطّم السلّم الذي نرقى به إليها. بيد أنّ ربّنا ابتدع لنا، بآلامه، سلّمًا آخر، وفتح لنا باب السماء. إنّ العذراء القدّيسة تقف عند أعلى السلّم، ممسكةً إيّاه بيديها كلتيهما. وهاتفةً: "تعالوا، تعالوا". ما أجملها دعوةً، ويا لروعة مصير الإنسان: أن يرى الله، ويحبّه، ويسبّحه، ويتأمّله أبديًّا".

"من يفكّر بالسماء، هل يقيم للأرض وزنًا؟"

في السماء، سيتوه قلبنا، وسيغرق في سعادة حبّ الله، فنذهل عن ذواتنا وعن الآخرين، ولن يهمّنا إلاّ الله وحده".

"ما أصدق قول القدّيس أُوغسطينُس إنّ من يخاف الموت لا يحبّ الله!". فإذا كنت، منذ زمنٍ طويلٍ، بعيدًا عن والدك، ألا تسعد برؤيته؟".

"ما أجمل الحصول على السماء! فما المطلوب لنيلها؟ نقاء القلب، وازدراء العالم الأرضيّ، وحبّ الله".

"يميل القلب إلى أكثر ما يهواه. فالمتكبّر يميل إلى التكريم، والبخيل إلى الثروة، والمنتقم إلى الاثّار، والفاسق إلى الملذّات الدنسة. أمّا المسيحيّ فما الذي يستهويه؟ وإلى أين يصبو قلبه؟ إلى السماء حيث إلهه وكنـــزه". ولطالما استشهد بالقدّيسة تيريزا الأڤــيلاويّة التي بعد أن جالت في رحاب السماء كانت تردّد، بلا انقطاعٍ: "رأيت... رأيت". وتفقد القدرة على الإفصاح عمّا رأت".

ولطالما روى قصّة راهبٍ افتُتن بنشيد عصفورٍ جميلٍ، فراح يتعقّبه من مكانٍ إلى آخر. ولّما خُيِّل إليه أنّ ساعةً قد مضت على مغادرته الدير، قفل عائدًا إليه، فلم يعرف أحدًا من الرهبان فيه، ولم يعرفه أحدٌ منهم. وبيّن التفتيش عن اسمه أنّه غادر منذ مئة عامٍ، ولم يشعر بعبورها.

محبّته

مارس الأب "ڤـــيانّي" كبرى الفضائل، المحبّة، أسمى ممارسةٍ وأسخاها. كان والده قد رسّخ فيه تلك الفضيلة التي أضحت له طبعًا ملازمًا. ففي المنـــزل الأبويّ كان قد تلقّن الاكتفاء بالقليل كي يجود على المحتاج، وتلقّن الامتناع عن تناول الطعام قبل أن يشبع الضيف الفقير.

ثمّ كان له "الفقير الصغير"، فرنسيس الأسّيزيّ، مدرسةً في التضحية من أجل المحتاجين. ولكم من وجوه تشابهٍ مدهشةٍ بين الأسّيزيّ والأرسيّ في عطفهما على المحتاجين، وإيثارهما المنبوذين، وتجرّدهما حتّى أقصى تخوم التضحيات! وتشابها، أيضًا، حتّى في مطالعتهما لكتاب الطبيعة بمتعةٍ ووَلَهٍ.

فكان خوري أرس يتخلّى عن الجديد والجيّد من ثيابه ويهبها للمقرورين، مكتفيًا لنفسه بالعتيق المهترئ. وقد رأينا كيف كان يتخلّى عن الثياب التي يُهديهُها أصدقاؤه، المشفقون على صحّته من البرد والمرض، لأوّل بائسٍ يلتقيه، ويستمدّ من هذه التضحية أعذب سعادةٍ.

كان الفقراء يحتلّون الموقع الأثير من قلبه. أحبّهم لأنّ يسوع يحبّهم، ويتمثّل بهم، ولأنّهم، من جرّاء معاناتهم الحرمان والضيق، والنبذ، كانوا الأكثر احتياجًا إلى الرعاية، والتكريم، والمواساة. وماانفكّ يردّد: "يجب أن نقدّم كلّ الخير الذي يسعنا تقديمه للجميع، غير منتظرين مكافأةً إلاّ من الله وحده. ولطالما أعلن: "نظنّ، غالبًا، أنّنا نواسي فقيرًا، في حين أنّنا نواسي ربّنا يسوع".

ولطالما أثبت، على أرض الواقع، احترامه للفقراء والمنبوذين. فذات يومٍ، فيما كان يلقي تعليمه الدينيّ، علت الجلبة داخل الكنيسة، حيث كثيرون لم يجدوا مكانًا للجلوس، وحيث لم يبقَ موطئ قدمٍ شاغرًا. وإذ بشحّاذٍ رثّ الأثمال، متّكئٍ على عصًا، وجعبة استعطائه على كتفه، يجهد في اختراق جدار الحشد المتراصّ، سعيًا إلى

التقدّم نحو منصّة الكاهن. فهبّ بعضهم لردع ذلك الدخيل القذر، فاقد الحياء والتهذيب، فأوسعوه دفعًا، وأغلظوا له في القول. ولحظ الخوري ما يحدث، فتوقّف عن التعليم، وبمشقّةٍ شقّ لنفسه طريقًا وسط الحشد، إلى أن أمسك بذراع الشحّاذ، وأدخله معه. وتساءل القوم أين عسى يُجلس الخوري ذلك الدخيل، وذُهلوا لّما أجلسه على مقعده، وتابع تعليمه واقفًا.

ومع أنّ الخوري القدّيس كان يتلقّى مبالغ طائلةً، إسهامًا في مشاريعه الخيريّة، لم ينفِق فلسًا واحدًا على ذاته. وكان يتغذّى بما تقدّمه له دار العناية، أُسوةً بالأيتام. ولم يقلقه يومًا مصير الغد. وكان المال الذي يُعطاه يحرق يديه، فيسارع إلى توزيعه على المحتاجين. وكان يشفق على المهووسين بجمع المال، ويشبّههم بمن يملأون كيسهم غيومًا، أو بمن يجمعون ثمار الكوسا، صيفًا، زاعمين ادّخارها، ولكنّهم عندما يفتحون، في الشتاء، المستوعب الذي أودعوها فيه يجدونها تالفةً.

وهو في سبيل إغاثة ملهوفين لم يكن يتلكّأ عن بيع أثاثه وثيابه، وكلّ ما يملك. وكثيرًا ما كان، قبل إشراقة الشمس، قد تبرّع بأكثر من مئة فرنكٍ. وكان يشبّه جيب جبّته بالمكّوك الذي لا يكف يدخل ويخرج. وفي المساء كان يعدّ ما يسمّيه "أرباحه"، أي القليل الذي تبقّى معه. وإذا كان خالي الوفاض، كان يقترض بعض نقودٍ، لأنّه لم يكن يطيق أن يردّ سائلاً، خائبًا. ولم يكن إحسانه عشوائيًّا، بل كان متبصّرًا، ويعطي الأولويّة إلى الأشدّ حاجةً. وكان حدْسه يرشده إليهم.

في أيّامه الأخيرة، كان قد أخذ على عاتقه دفع إيجار سكنٍ لأكثر من ثلاثين عيلةً في أرس وجوارها. وعندما كانت تدنو آجال الدفع، كان يمعن في التقتير، لكيلا يتلكّأ في الوفاء بما التزم به. وكان يزوّد مئات الأُسر الأشدّ فقرًا بالطحين وبحطب التدفئة والطهو.

وفي جميع الحالات كان شديد الحرص على تجنّب جرح مشاعر الفقراء، أو

الانتقاص من كرامتهم. وكان، عندما يأتيه من يفتقرون إلى ثيابٍ يُصعدهم إلى حجرته ويدعوهم أن يأخذوا ما يروق لهم. ولذلك ألِفت مساعدتُه ألاّ تودع في خزانته إلاّ الثياب التي يحتاج إليها كلّ يومٍ، معرضةً عن طلبه وضع المزيد الذي يستطيع التبرّع به، ولا سيّما أنّه لم يكن يملك سوى الضروريّ. وكان يُصعد المقرورين، المرتجفين بردًا، إلى غرفته ويوقد لهم نارًا، وفيما كانوا يستدفئون، كان يدفئ نفوسهم بحبّ الله. وكان المحتاجون يرفضون أن ينوب عنه أيٌّ من معاونيه في استقبالهم، لأنّهم، فضلاً عن عونه المادّيّ، كانوا يحتاجون إلى عذوبة قلبه ومحبّته. وكان يشكر لله مجيء الفقراء إليه، إذ لم تكن تتسنّى له فسحةٌ للمضيّ إليهم.

وكان كلّ التقاءٍ له بفقيرٍ مناسبةً لتخلّيه عمّا يلبسه. واتّفق له، يومًا، إذ كان قاصدًا دار العناية أن التقى فقيرًا بائسًا منتعلاً حذاءً مهترئًا، فتخلّى له عن حذائه الجديد الذي كانت قد أعدّته له مساعدته في ذلك اليوم عينه، وزوّدته ببطانةٍ تقيه البرد، وانتعله للمرّة الأولى. وواصل سيره حافيًا جاهدًا في إخفاء جواربه. ولّما رأته مساعدته، مساءً، عائدًا بحذائه العتيق المهترئ التي كانت قد أغفلت إزالته من غرفته، سألته هل تبرّع بحذائه الجديد، فاكتفى بقول: "ربّما".

وكان قد دُعي إلى إحياء رياضةٍ روحيّةٍ في رعيّةٍ مجاورةٍ، حيث دأب على سماع الاعترافات نهارًا وليلاً، بلا انقطاعٍ. وتضامن زملاؤه كهنة الرعايا المجاورة، وابتاعوا له بنطالاً مخمليًّا، يقيه قوارس البرد، ويستطيع استعماله سنين طويلةً. وبعد أيّامٍ، كان عائدًا إلى رعيّته، سيرًا على الأقدام، جريًا على عادته، فصدف رجلاً فقيرًا، يرتعد بردًا، ولا يُغطّي جسده سوى الزهيد من الثياب الرقيقة. فقال له الخوري القدّيس: "انتظر لحظات يا صديقي"، واختفى خلف سياجٍ، ثمّ عاد إلى الرجل وقدّم له البنطال الذي أُهديه. وبعد بضعة أيّامٍ زار الرعيّة المجاورة التي أهدته البنطال، فسئل هل أرضته الهديّة، فأجاب: "سعدت بها كثيرًا، واستخدمتها أروع استخدامٍ. فقد استعارها منّي رجلٌ فقيرٌ ولا ريب أنّها أسعدته، وآتته خيرًا".

وكان يتذوّق سعادةً جمّةً، كلّما قدّم صدقةً لامرأةٍ عمياء، كانت تسكن بجوار دار الرعيّة، لأنّها لم تكن ترى ولا تعرف هويّة المحسن إليها. فقد كان يأتيها صامتًا، ويضع في مئزرها ما جاءها به من غذاءٍ ومالٍ، وينصرف كالخيال فتظنّ المرأة أنّ جارةً لها هي التي تحسن إليها، فتقول: "شكرًا لكِ، يا صديقتي". ويخرج الكاهن ضاحكًا.

ولم يكن يتلكّأ عن إرسال معوناتٍ إلى محتاجين بعيدين عن أرس. وذاعت شهرة سخائه، فتقاطر مستعطون من كلّ صوبٍ. ومن ثمّ، غدا، كلّما خرج من القرية، تواكبه ثلّةٌ من الفقراء المستعطين، وأمست أرس قبلة المتسوّلين، وضاق سكّان القرية ذرعًا بهم، ورفعوا شكواهم إلى العمدة، ولفت العمدة، بدوره، نظر الخوري إلى شكوى مواطنيه. فأجابه: "ألم يقل يسوع: "سيكون دائمًا فقراء بين ظهرانيكم"؟ وتوسّله ألاّ يزجر أحدًا منهم. وحذّره مساعدوه من اندساس محتالين بين هؤلاء، ولكنّه كان يردّ عليهم بقوله: "لا يُخدع من يعطي الله".

وبالإجمال، كان ينظر إلى الفقراء نظرةً مشبعةً بتعاليم الفقير الإلهيّ الذي طوّب الفقر. وكان يطيب له، من خلال تعليمه الدينيّ، أن يروي قصصًا عن إيثار الربّ للفقراء. وكان لا يتمالك عن تذريف الدموع كلّما روى قصّة قدّيسٍ برتغاليٍّ لحظ، أثناء عنايته بفقير، ندوبًا في قدميه فهتف: "هذا أنت، إذن، يا ربّ!".

ومضى بعيدًا في حبّه للآخرين، فحرص على توقّي الحكم على أيّ إنسانٍ، وجرح أيٍّ كان، متمّمًا وصايا يسوع بحذافيرها، فأحبّ أعداءه، وبارك لاعنيه، ودافع عن المسيئين إليه، ولم يشكُ ممّن دأبوا على تنغيص عيشه.

حبّ الخوري القدّيس للفقراء واحترامه لهم كانا نابعين من حبّه لله، وكان جسرًا إلى هذا الحبّ. فهو، في خدمة حبّه للربّ، وظّف كلّ طاقات نفسه، وكلّ أنوار عقله وكلّ قدرات إرادته. فيسوع كان حياته وسماءه، حاضره ومستقبله، فإذا تكلّم عنه، تهبّ نيرانٌ من قلبه إلى شفتيه، فلا يستطيع أحدٌ إلاّ التأثّر بطريقة

تلفّظه باسمه. وكانت دموعه تنهـــمر كلّما ذكر قـــول القدّيسة كوليت للربّ: "يا سيّدي الحنون كم أودّ أن أحبّك، ولكنّ قلبي ممعنٌ في الصغَر!".

ولطالما هتف: "لو أدركنا كم ربّنا يحبّنا لقضينا نحبنا سعادةً. أنا لا أتخيّل وجود قلوبٍ بلغت بها القسوة أن تعزف عن حبّه بعد تبيّنها حبّه لها".

وكان قد استهلّ إحدى عظاته بهذا الحوار:

– "يا إلهي، لماذا أوجدتني في هذا العالم؟

– "لكي أخلّصك.

– "ولماذا تريد خلاصي؟

– "لأنّي أحبّك".

وختم عظته بإعلانه: "إنّ رحمة الله تشبه سيلاً هادرًا يجرف القلوب في تيّاره".

وكانت له الإفخارستيّا هي الرمز الأبلغ تعبيرًا عن حبّ الله لنا، والمادّة الأشدّ استئثارًا بقلب خوري أرس، وإلهامًا لتعابير حبّه. فكلّما ذكرها كان قلبه يذوب ولهًا وعرفانًا بالجميل، فيشرق جبينه، وينطلق الشرر من عينيه، وتخنق العبرات صوته. فالإفخارستيّا، له، هي "حمّام حبٍّ"، و"عندما يتناول المرء تنغمس النفس في عبير الحبّ انغماس النحلة في الزهور".

وفي هذا السياق، قال أيضًا: "على من يقيم القدّاس أن يكون ملاكًا. فهو يمسك الربّ بين يديه، يحمله إلى اليمين فيبقى إلى اليمين، ويحمله إلى اليسار، فيبقى إلى اليسار... لو أدركنا ما هو القدّاس لمتنا. ولن ندرك ما تنطوي عليه إقامة القدّاس من سعادةٍ إلاّ في السماء... يا إلهي، كم جديرٌ بالرثاء الكاهن الذي يقيم القدّاس، وكأنّه يقوم بعملٍ عاديٍّ".

وقد شهدناه، عندما غيّب المرض والشيخوخة صوته، وأصبح عاجزًا عن إسماع أقواله، كيف كان يعبّر عن حبّه للربّ بتحديقه إلى مخبأ القربان بعينين تذرّفان الدموع.

ومن أقواله في هذا الموضوع:

- "حبّ الله، ما أجمله! السماء وحدَها تفهمه. وقد تساعد الصلاة على ذلك، لأنّ الصلاة هي الارتقاء بالنفس حتّى السماء.

- "بقدر ما نعرف البشر يتضاءل حبّنا لهم. أمّا معرفة الله، فتُحدث نقيض ذلك، إذ بقدر ما نعرفه يتعاظم حبّنا له، ولا نرغب إلاّ في حبّه. الحبّ خلق الإنسان، ولذلك يندفع الإنسان إلى الحبّ...

- "السمكة خارج الماء لا تعيش، كذلك الإنسان بمعزلٍ عن الله.

- "لولا موت ربّنا الفادي لما استطاع كلّ البشر مجتمعين التكفير عن كذبةٍ صغيرةٍ".

حياةٌ روحيّةٌ كثيفةٌ

من أقواله: "نحن في العالم، ولكننّا لسنا من العالم، بما أنّنا نردّد كلّ يومٍ: "أبانا الذي في السماوات".

وهو، في الواقع، عاش على الأرض، فيما قلبه وذهنه في السماء، على اتّصالٍ وثيقٍ بالربّ، والصلاة المتواصلة، بكلّ ألوانها، هي الرابط المتين الذي يصله بالله، بلا انقطاعٍ.

كَلِف بالصلاة منذ طفولته، وظلّت الصلاة رفيقته، وسند حياته، ومعين قوّته حتّى نفَسه الأخير. وحتّى عندما انغمس، حتّى عنقه، في خضمّ المشاريع العمرانيّة والاجتماعيّة، وما كانت تقتضيه من تأمين الأموال اللازمة، لم تتراخَ متانة اتّصاله الدائم بالربّ. غير أنّه عهد، آنذاك، فترات توقٍ إلى الماضي الهادئ التي كان ينصرف أثناءها بلا عائقٍ ولا حدودٍ، إلى الصلاة والتأمُّل، يملأ بهما حياته سعادةً وسلامًا. ولكم سُمع يبوح: "كم كنتُ سعيدًا، عندما لم يكن يتعيّن عليّ سوى رعاية نعجاتي الثلاث وحماري... يومئذٍ، كنت أستطيع الانصراف إلى الصلاة، براحةٍ مطلقةٍ، ولم يكن شيءٌ يصدّع رأسي، كما هو مصدّعٌ الآن... لو تسنّى لي، الآن، وأنا أرعى النفوس وقتٌ للعناية بنفسي، وللصلاة والتأمُّل، مثلما كنت أفعل وأنا أعمل في حقول والدي لنعمتُ بسعادةٍ كبرى. فحينذاك، كنّا ننعم بفسحات نقاهةٍ، وكنّا ننال قسطًا من الراحة عقب الغداء، قبل استئناف العمل، فكنتُ أفترش الأرض، أُسوةً بالآخرين، وأتظاهر بالنوم، فيما كنت أدعو الله بكلّ قلبي. آه! كم كان ذلك الوقت جميلاً!".

لقد أدرك عظمة شأن الحياة الداخليّة، فقال: "إنّ مَن لا يصلّي يحاكي دجاجةً أو بطّةً لا تقويان على التحليق، وإن همّا حاولتا التحليق لا تلبثان أن تهويا أرضًا. أمّا من يصلّي فهو نسرٌ جبّارٌ يطوف في الجوّ، وكأنّه دائم السعي إلى الالتصاق بالشمس".

وهو، في سبيل الحياة دائمًا في الله ومعه، ضحّى براحته واستجمامه، ولم ينعم بدقيقةٍ لذاته. وحتّى عندما تضاءلت، إلى الحدّ الأدنى، سويْعات راحته، ولم يعدْ يتعدّى وقت نومه القلِق على فراش القشّ الرثّ ساعتين، لم يكن يخلد إلى فراشه، قبل مطالعة كتُبٍ روحيّةٍ ولاهوتيّةٍ، وسِيَر قدّيسين، من أجل تغذية سيرته الروحيّة وشحذ أدواته الرسوليّة. وكان، تلبيةً لنداء المحتشدين عند كرسيّ اعترافه، قد ضحّى بمتعة تلاوة صلوات السواعيّة، وهو يجوس خلال الحقول، كما كان يفعل في مطلع عهده بالرسالة الكهنوتيّة. وكان ما آلمه أشدّ إيلامٍ حرمانه من وقف ساعاتٍ طوالٍ على تأمّل حبّ الله، عند أقدام الهيكل، محدّقًا إلى مخبأ القربان. وربّما كان هذا الحرمان هو الذي يوقظ فيه، بين آنٍ وآخر، هَوَس الفزع إلى ديرٍ، يكرّس فيه كلّ ثانيةٍ من وقته على التأمّل والصلاة. وهذا ما يفسّر مثابرته على التماس من جميع الأساقفة الذين خضع لسلطتهم فرصةَ الاعتكاف، وإعفائه من الخدمة الراعويّة بغيةَ تحقيق توقه إلى الصلاة والتأمّل، في عزلة منسكٍ.

غير أنّ ما خفّف عنه وطأة هذا الحرمان هو غيرته المضطرمة على النفوس، وهمّ خلاصها، الذي كان يؤرّقه في كلّ لحظةٍ، فضلاً عن نعمةٍ إلهيّةٍ مكّنته من قرن العمل الرسوليّ بالتأمّل والصلاة. وقد أنقذه هذان العاملان معًا من القنوط، ومرارة الخيبة.

فالأب "فـــيانّي" لم يتوانَ، يومًا، عن المضيّ قدُمًا في تسلّق قمم الاتّحاد بالله، حتّى بلغ منها مكانًا لم يعد، فيه، يحتاج إلى كلامٍ للتعبير عن حبّه لله، بل كان حسبه ألاّ يغيب الله عن خاطره، كي يعبّر له عن أعظم حبٍّ.

وحتّى في ليالي السهاد، عندما كانت أتعاب النهار، ومحاصرة الشرّير له بأساليب إزعاجه الجهنّميّة، تطرد عن جفنيه النوم، وتفرغ من كلّ راحةٍ الساعتيْن اللتين يسترقهما لاستعادة بعض قواه، كان يرفع قلبه صوب الله، سعيدًا بتضحية ذاته، تمجيدًا لخالقه ولمخلّصه، وفرحًا بكلّ ما يعانيه تكفيرًا عن الخطأة. وعندما تدقّ ساعة منتصف الليل يهبّ لاستئناف نهارٍ جديدٍ من التضحيات في سبيل مجد الله، وتوبة

الخطأة. فكانت نيران لياليه تلهب نهاراته الوليدة. وعند الساعة الواحدة ليلاً كان يأوي إلى سجن كرسيّ الاعتراف، ويستأنف سيرة التضحية الرتيبة السامية.

كانت الصلاة هي روح رسالته ومحرّكها، ولا سيّما أنّه اعتاد صلاةً يتولاّها القلب بلا كلامٍ، وبلا حاجةٍ إلى كتبٍ، صلاةً هي خفقات قلبٍ، أكثر منها استنتاجات عقلٍ. صلاته كانت تحاكي صلاة فلاّحٍ من رعيّته يمضي ساعاتٍ، كلّ يومٍ، يرمق الله في مخبأ القربان، والله يرمقه، ويتحاوران صامتين، من خلال تبادل النظرات، ولا سيّما أنّ كرسيّ اعتراف الأب "ڤـيانّي" كان مجاورًا لمخبأ القربان، الذي لا ينفكّ يغذّي تواصلاً نشيطًا بينهما. وبما أنّ كلّ ما كان يفعله يستهدف مجدّ الله، كانت كلّ بادرةٍ يقوم بها، وكلّ لفظةٍ يتفوّه بها، وكلّ خفقةٍ من قلبه، أفعالَ حبٍّ، وصلاةً حيّةً، واتّحادًا وثيقًا بالله، في غمرة نشاطه. ألم يسبق له أن قال: "لا نحتاج إلى كثيرٍ من الكلام كي نجيد الصلاة. فنحن نعلم أنّ الله هنا، في مخبأ القربان، فلنفتح له قلبنا، ولنبتهج بحضوره القدّوس. هذه هي الصلاة المثلى".

وأليست هذه الصلاة الصامتة المستمرّة هي أساس القداسة، واتّحادًا دائمًا بالله؟ ولكنّ هذا الاتّحاد لا يتحقّق إلاّ ببذل جهودٍ شاقّة ومتماديةٍ ومتجدّدةٍ باستمرارٍ، مثلما يُجدَّد زيتُ السراج كي يبقى مشعًّا. هكذا كان "جان ماري ڤـيانّي"، منذ صباه. فعندما شارك ذويه في أعمال الحقول، قرن كلّ خطوةٍ بتمجيد الله، وبسعيٍ جادٍّ إلى إرضائه. وفيما كان العاملون معه لا يرون في أعمال الزراعة سوى مهمّةٍ مادّيّةٍ، كانت تلك الأعمال له صورةً لعمل النعمة التي تنقّي النفس من شوائبها، وتحرثها كي تفتحها على مؤثّرات الخصب، وتنثر فيها البذار وتوفّر الحصاد.

ولّما تولّى، كاهنًا، العناية بالنفوس، كان كلّما سمع اعترافًا بخطيئةٍ يحزن لما أدّت إليه من إهلاكٍ للنفس، ومن إغضابٍ لله. وعندما كانت الكلمات تخونه للتعبير عن حزنه كانت دموعه الحارقة تعبّر عنه. ولم يكن يخفّف وطأة حزنه سوى إيمانه بعظمة رحمة الله.

وكان مرسلٌ شابٌّ قد استوضحه عن الطريقة المثلى للصلاة فباح له: "أنا، منذ مطلع النهار، أجهد في توثيق اتّحادي بالربّ، ثمّ أُمضي النهار كلّه عاملاً بوحي هذا الاتّحاد. ولا ريب أنّ النهار الذي يُمضى في اتّحادٍ وثيق، وبلا فكاكٍ مع الربّ، هو الذي يصنع ملائكةً ومختارين". فكان من يشهدون رقّة نظرات خوري أرس الصافية، وبسمته العذبة، والطهر المتألّق على محيّاه وجبينه، يرون تجلّي البشريّ بفعل اتّحاده بالإلهيّ.

وقد علّمته خبرته أنّه "بقدر ما يصلّي المرء يزداد رغبةً في الصلاة، مثل سمكةٍ تبدأ بالغوص في سطح الماء، ولكنّها عندما تجرّب الأعماق لا تكفّ عن الغوص أعمق فأعمق. هكذا هي النفس التي تغوص في العمق، وتذوب في عذوبة الحوار مع الله. السمكة التي تسبح في ساقيةٍ تشعر براحةٍ، لأنّها داخل عنصرها الحيويّ. ولكنّها أشدّ سعادةً في البحر".

"إنّ مَن يتناول يتيه في الله مثل قطرةٍ في محيطٍ، فيتعذّر فصلهما. هكذا يذوب الإنسان أبديًّا في هوّة الحبّ".

وما أعظم سعادة الذين شهدوا خوري أرس مقيمًا القدّاس، وآمنوا، حسّيًّا بوجود الربّ الحقيقيّ في القربان، ولكأنّهم ينعمون برؤية يوحنّا الحبيب عند أقدام الصليب في الجلجلة، فقد كانوا يشهدونه مأخوذًا في انخطافٍ مدى دقائق، ويوقنون أنّه يعاين الله ويحاوره. وكان منظره، أثناء التكريس وبعده، يستقطب جموع الراغبين في مشاهدة قدّيسٍ يحاور الله.

ولكم شوهد يتلمّظ، على مهلٍ، مقاطع من صلوات الفرض، ثلاث أو أربع مرّاتٍ كلّ يومٍ. ذلك التذوّق كان الترفيه الأعذب لنفسه، يُنسيه أتعابه الجسديّة، فلا يكلّ من الركوع ساعاتٍ، على البلاط العاري، القاسي، الصقيعيّ، في حين أنّ كهنةً شبّانًا ودّوا مشاركته هذه المتعة، فلم يقووا على المكوث راكعين أكثر من دقائق معدوداتٍ. ولكن كان ينتابهم شعورٌ بأنّ الأب "ڤـيانّي"، غائصٌ بكلّيّته في لجّة تمجيد الربّ.

وهو كان يستعين على تمجيده، أيضًا، بمن يدعوهم "القدّيسين الطيّبين" الذين غطّت صورهم جدران الكنيسة، ودار الرعيّة، وحجرته. وكان يناجيهم كلّما جفاه النوم، ويستمدّ من سِيَرهم مواضيع لوعظه، وغذاءً لروحه، ونبراسًا لمسيرته، وحافزًا للتصعيد الدائم، أعلى فأعلى.

كان مجرّد شعوره بقرب الله يسعده كما يسعد طفلاً وجودُ أُمّه بقربه، فلا يحتاج إلى مظاهر تقوًى مصطنعةٍ. وكانت قداسته طبيعيّةً، بسيطةً، بدَهيّةً، صامتةً. وكان تحقيقه لمشيئة الله يفعم قلبه حبورًا، ورضًى صامتًا، فكان يحذّر الآخرين من إهمال واجباتهم العيليّة والمهنيّة، بحجّة قضاء مزيدٍ من الوقت في الصلاة.

وبالإجمال كان مثالاً فذًّا لقرن حياة الرسول بحياة الناسك المتأمّل.

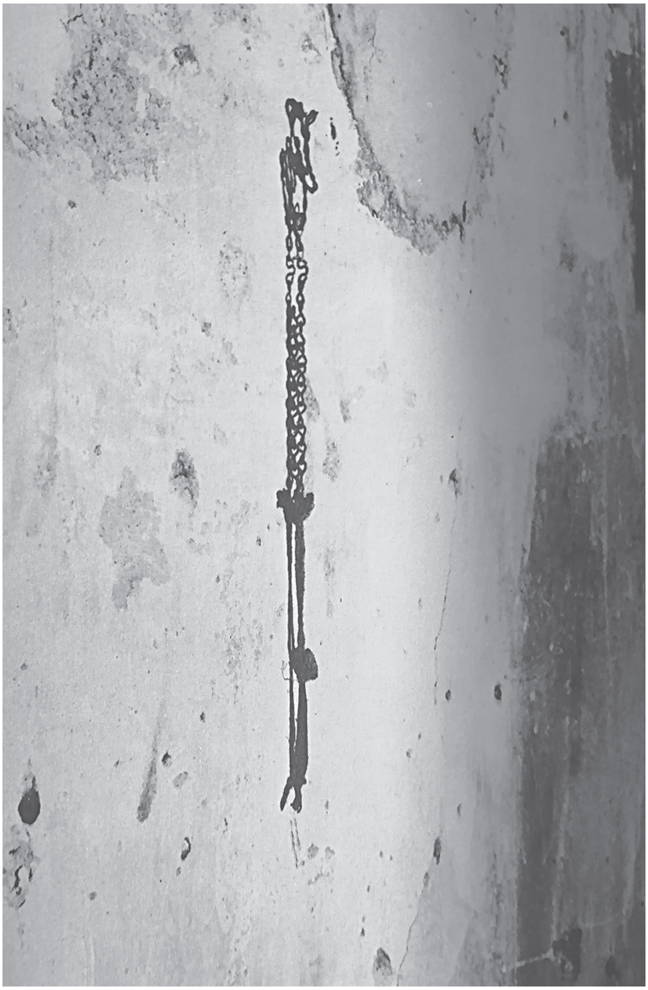

مجلدته وآثار دمائه على الجدار

الفصل السادس

فضائل بطوليّةٌ

فقره

النفس المتواضعة تحبّ الفقر والفقراء. كان القدّيس فرنسيس يعلن أنّه اقترن "بالسيّدة الفقر". وحقّ للأب "ڤـيانّي" تبنّي هذا القول بحذافيره، فحجرته كانت فقيرةً، وأثاثها فقيرًا، وطعامه كان طعام الفقراء، وكذلك كانت ثيابه. وكان بوسع فنّانٍ راغبٍ في رسم الفقر أن يرسم مظاهر خوري أرس. فقد كان فقيرًا مادّيًّا، وتمرّس بروح الفقر والتجرّد من كلّ مطمعٍ أرضيٍّ، ولم يكن لأيّ متاعٍ دنيويٍّ، سطوةٌ على نفسه.

ولطالما أخذ عليه المقرّبون إهماله لمظهره، ولا سيّما في مطلع عهده برعاية أرس، حيث كان له متّسعٌ من الوقت ينفقه في ترقيع ثيابه الممزّقة. ومع افتقاره إلى خبرةٍ إعمال الإبرة، يمكن تخيّل النتائج الكارثيّة التي كان ينتهي إليها. وقد شهدت إحدى معاوناته: "لقد أمعن في رفو جواربه، النوبة تلو النوبة، حتّى غدت تمزّق قدميه ورجليه". وقد جاءته، يومًا في أمرٍ، فوجدته يرقّع بنطاله، عند مكان الركبة، فوقفت مشدوهةً عند عتبة غرفته. ولمحها الكاهن فضحك، وقال: "جئتِ طالبةً الخوري، فألفيتِ خيّاطًا!".

وقد ظلّ، حتّى أوان تقاطر الحجّاج إلى أرس لا يملك سوى جبّةٍ واحدةٍ، يتعذّر إحصاء الرقع المنتشرة عليها. وقد وضعه هذا التجرّد ذات يومٍ، في وضعٍ مربكٍ. فقد كان يزور رعيّةً مجاورةً، وفي طريق عودته، انهمر المطر مدرارًا، وبلّله حتّى العظام. وكان قد تعثّر عدّة مرّاتٍ في الطريق، ولطّخ الوحل ثيابه. ولم يُطِق المجيء إلى حجرته بهذا المظهر، لا سيّما أنّه لم يكن لديه ما يستبدل به ثيابه المبتلّة والمتّسخة. فلجأ إلى إنسانٍ طيّبٍ من أبناء رعيّته، وشكا له حاله، فتأثّر الرجل، وبكى بغزارةٍ، وأعاره ملابس جافّةً، وعلّق أمام الموقد ثياب الخوري التي كانت تقطر ماءً ووحلاً، حتّى جفّت.

ولمّا تكثّفت مواكب الحجّاج من كلّ صوبٍ، أقنعه أبناء الرعيّة أنّه لا يسوغ له الاحتفاظ بثياب البؤس، وأهدوه جبّتين جديدتين، وقف فُضلاهما على أيّام الأعياد والمناسبات، واستقبال شخصيّاتٍ رسميّةٍ، واستخدم الأخرى لكلّ يومٍ، وظلّ يلبسها حتّى اهترأت. ولكنّه كثيرًا ما سها عن ارتداء الجبّة الجديدة، لدى استقباله رسميّين. وقد أبى، بعنادٍ، امتلاك أكثر من جبّتين في آنٍ واحدٍ. وإذا حاول بعضهم استبدال جبّته القديمة الرثّة بإهدائه جبّةً جديدةً، كان يرفض الهديّة، ويخيّب رجاء الطامعين في الحصول على ذخيرةٍ ثمينةٍ. وبالتالي عمد خيّرون إلى إيداع جبّاتٍ جديدةٍ في حجرته، خلسةً، ولكنّه كان يسارع إلى إهدائها.

وقد لوحظ، في سنواته العشر الأخيرة، ارتداؤه ثيابًا نظيفةً لائقةً. ولكنّه ظلّ يأبى ارتداء معطفٍ. ولمّا أُهدي معطفًا سارع إلى التبرّع به لفقيرٍ. وبما أنّ الجبّة التي كان يرتديها في عزّ الشتاء، هي عينها التي كان يرتديها في قيظ الصيف، كان معاونوه يبطّنون جبّته في الشتاء، خلسةً.

وإن هو تغاضى عن ترميم واجهة دار الرعيّة، إلاّ أنه رفض رفضًا قاطعًا ترميم حجرته من الداخل أو طلاءها، مؤكّدًا ارتياحه فيها، وإيثاره أن يتولّى خَلَفه إجراء أيّ تعديلٍ عليها، كما يحلو له. وكان بلاط غرفته قد انقبع، وجدرانها تشقّقت، فكان العمدة يتحيّن غيابه كي يجري الإصلاحات الملحّة، منعًا للدمار التامّ.

ولم يقلق خوري أرس، قطّ، بشأن الغد، حتّى عندما كانت الاحتياجات باهظةً والموارد شحيحةً، كما كانت حال دار العناية. ولم يؤرّقْه، يومًا، همّ طعامٍ أو لباسٍ. فكان ينفق، في الحال، كلّ ما يتلقّاه على مشاريع اجتماعيّةٍ، وعلى فقرائه الأحبّاء، ولا سيّما على الذين كانت عزّة نفسهم تمسكهم عن الاستعطاء.

وكان راسخ اليقين بأنّ كنــز القلب الوحيد هو التجرّد، وأنّ التضحية ليست تدميرًا، بل هي بناءٌ لما هو أفضل وأبقى، وهي قضاءٌ على العوائق، وتحطيمٌ للقيود

الحائلة دون حرّيّة النفس من جرّاء ارتباطها بالأشياء الفانية؛ وهي تحرُّرٌ، وانعتاقٌ، واغتناءٌ بما لا يفسد ولا يزول. هذا ما عناه بقوله: "إنّ ملكنا الخاصّ هو إرادتنا، وهي الشيء الوحيد الذي يسعنا تقديمه لله".

كان فقره طوعيًّا، بطوليًّا، وكان لمعاصريه، وللأجيال القادمة تجسيدًا ليسوع، وتذكيرًا بالفقير الصغير، الأسّيزي.

تواضعه

إلى جانب فضائله الإلهيّة التي مارسها أسمى ممارسةٍ، تحلّى خوري أرس بباقةٍ من الفضائل التي تمثّل مداميك أساسيّةً في صرح القداسة، واحتلّ تواضعه مكان القمّة منها.

كان قد تغلّب على حبّ الذات والكبرياء، والمطامع المادّيّة، وتحرّر من مقتضيات الجسد، فتوغّل في دروب التواضع.

ذلك الكاهن، ضئيل الزاد من العلم، والذي لم يجد رؤساؤه ما يكلّفونه برعايته أكثر من قريةٍ مغمورةٍ، لا يتجاوز عدد سكّانها مئتين وثلاثين نسمةً، ومع ذلك استقطب إلى تلك القرية وإلى كنيستها الممعنة في الضيق والافتقار إلى أدنى وسائل الراحة، آلاف الحجّاج من كلّ أنحاء فرنسا وأوروبا، توّاقين إلى رؤية "قدّيسها". ذلك الكاهن، إذن، كان قد اكتسب من الشهرة ما كان كفيلاً بنفخ أيّ كاهنٍ آخر زهوًا وتباهيًا، ولكنّه لم يسرّب إلى روع الأب "فـــيانّي" أيّ ادّعاء، ولم يفقده ذرّةً من تواضعه السحيق، ولم يثنِه عن تأكيده الدائم والصادق بأنّ كلّ ما حدث في أرس بواسطته، كان عمل الله وحده، الذي لم يجد أكثر منه جهلاً وضآلة شأنٍ، فاتّخذه أداةً لإظهار عظمة رحمته.

التواضع ملك الفضائل العمليّة. ولا وجود لفضيلةٍ حقّةٍ بمعزلٍ عنه. والتواضع كان لخوري أرس معلّم حياةٍ، وهادي كمالٍ. وكان يشعّ من كلّ كيانه. وقد أقرّ أُسقفٌ قابله في غروب حياته: "إنّ تواضعه يبدو معجزةً، وسط سيل الحجّاج المتدافعين من كلّ صوبٍ من أجل رؤيته، والاتّصال به، ونيل بركته، والذين كانوا كفيلين بتسريب تجربة الزهو إلى نفسه".

وهذا ما أكّده، أيضًا، الأب "توكّانييه" الذي كان له خير معاونٍ في سنواته

الأخيرة: "ما أدهشني فيه هو صموده المدهش، ومقاومته لنشوة مظاهر التبجيل المنهالة عليه بلا انقطاعٍ. كان يدرك بوضوحٍ أنّه، هو، هدف الحجّاج المتدفّقين إلى أرس. ولكنّني لم ألحظ، قطّ، شعورًا بالكبرياء انساب إلى نفسه، ولم أكتشف على شفتيه لفظة تباهٍ. لم يكن بوسع إنسانٍ مقابلة هذا السيل من التبجيل الشامل، بلامبالاةٍ مطلقةٍ، ما لم يكن مسلّحًا بتجرُّدٍ سحيقٍ، وبقداسةٍ راسخةٍ". فقد كان خوري أرس يسير وسط هتافات التعظيم، وهو ساهٍ عنها لا يوليها اهتمامًا، محافظًا على براءة طفولةٍ روحيّةٍ فاتنةٍ.

لقد تخطّى تواضعه، بلا قياسٍ، التواضع الواقعيّ، تواضع من يقيسون قدرهم بقسطاسٍ دقيقٍ، فينجون من ادّعاء أكثر ممّا يملكون، ويتحاشون عن الازدهاء بخصالهم، غافلين عن كلّ ما هم مازالوا مقصّرين دونه. وكان تواضعه بطوليًّا تدعمه النعمة الإلهيّة، تواضع من لا يرى، في ذاته سوى مساقط الوهن والتقصير. وقد دلّل على هذا التواضع بقوله لإحدى التائبات: "يا ابنتي، لا تسألي الله أن يطلعك على كلّ نقائصك دفعةً واحدةً. فأنا قد سألته، يومًا، إطلاعي على كلّ ما أرسف فيه من عجزٍ، ونقصٍ. ولو لم يتداركني، عندئذٍ، بمؤازرته لهويت، في الحال، إلى القنوط". وقد أدلى بمثل هذا الاعتراف للأخ أثناس: "لقد أخذت بي الرعدة، عندما أُحطتُ علمًا بعيوبي. فالتمست من الله نعمة نسيانها. واستجاب لي الله، ولكنّه أبقى لي قدرًا كافيًا من النور كي أتبيّن عدمي، وكي أوقن أنّني بذاتي لا أستطيع شيئًا".

من المحقّق أنّ الخير الجمّ الذي تحقّق بواسطته لم يكن خافيًا عليه. ولكنّه كان موقنًا أنّه، شخصيًّا، لا يتعدّى كونه أداةً. فكان ينسب هذا الخير كلّه إلى صانعه ومصدره. ولطالما أعلن أنّ الله، لو عثر على كاهنٍ أكثر منه جهلاً، وهشاشةً، وقلّة جدارةٍ، لاستبدله به، من أجل إظهار عظمة رحمته. ولم يكن يتحرّج من الاعتراف

بوقاية الله له من التردّي إلى وهادٍ سحيقةٍ، وبانتشاله من مهالك مريعةٍ، ويقرّ، منتحبًا: "أنا أدنى البشر، ولست أدري أين كنت انتهيتُ لو لم يحمِني الله".

وقد لوحظ أنّ حديثه عن عجزه وقلّة أهليّته، لم يكن يشوبه ظلّ تصنّعٍ، أو غايةٍ مبيّتةٍ، بل كان "تواضعًا حيًّا، فعليًّا". هذا ما أكّده أُسقفٌ عرفه عن كثب، فقال: "مشاهدته، وأقواله، ومثال سلوكه علّمتني عن التواضع أكثر ممّا علّمتني كلّ الكتب. فهو حين يصف ذاته بالخاطئ المسكين الذي يحتاج إلى ندب حياته البائسة، يفعل ذلك ببساطةٍ، وبنبرة صدقٍ لا تفسح أدنى مجالٍ للارتياب بصدق مشاعره".

ولكن، بقدر ما هو كان يجهد في إظهار ذاته بمظهر الخاطئ، كانت قداسته تزداد تألّقًا في أذهان الناس. وكان يعبّر عن تواضعه بإحساسٍ مرهفٍ، ولباقةٍ، وكتمانٍ. فإذا انصبّت عليه المدائح لا يسارع إلى تكذيبها (وكأنّه يؤكّدها)، بل لا يعيرها اهتمامًا، ويثير موضوعًا آخر كفيلاً بإثارة اهتمام الآخرين. ومع كلّ تواضعه، كانت المهابة تشعّ منه في نظر الحجّاج والمعترفين. وهو لم يكن يندب وهنه إلاّ وسط المقرّبين منه. بيد أنّه لم يكن يتحرّج من إعلان تواضعه، أحيانًا، على الملأ، ببساطةٍ ملائكيّةٍ، ولا يخجل، على سبيل المثال، من اختراق حشود الجماهير، حاملاً وجبته الزهيدة من الحليب، مثل الشحّادين، عابرًا المسافة بين دار العناية وحجرته، كسبًا للوقت، ورغبةً في العودة السريعة إلى كرسيّ الاعتراف.

وكان يوجعه مديحه، علنًا، بحضوره، فيتقوقع على ذاته، عندما يسمعه، ويبدو كأنّه تلقّى صفعةً أو إهانةً. واتّفق أنّ واعظًا كرز رياضةً روحيّةً في أرس. وفي عظته الختاميّة أسهب في الإشادة بخوري الرعيّة القدّيس. وما إن انحدر عن المنبر حتّى لحق به الأب "ڤـيانّي"، وقال له: "يا صديقي، لقد أجدتَ الوعظ طوال أيّام الرياضة، ولكنّك، للأسف، كدتَ تُفسد كلّ شيءٍ في الختام".

وقد أفلتت، مرّةً، من أسقفه، عبارة: "يا أبتِ القدّيس..."، فاعتراه حزنٌ هاصرٌ، وردّ: "أحتّى سيادته يخطئ الظنّ فيّ؟ أإلى هذا الحدّ، أنا مراءٍ؟".

وسبق لنا أن أتينا على ذكر الخلاف الذي نشب بينه ورئيس جمعيّة مرسلي العيلة المقدّسة، الذي وضع دليل حجٍّ إلى أرس، وخصّص صفحاته الأولى للإطناب بقداسة خوري أرس. فطالب مولّفَه بحرق الكتاب، وإصدار دليلٍ آخر خالٍ من أيّة إشارةٍ إلى الأب "ڤـــيانّي"، متعهّدًا بتحمّل كلّ النفقات الناتجة عن ذلك. ولّما رفض الأسقف هذا الاقتراح، رفض خوري أرس مهر أيّة نسخةٍ من الدليل بتوقيعه.

وكان يحزنه أبلغ حزنٍ سعي كثيرين إلى الحصول على آثارٍ منه بمثابة ذخائر. وقد حدت هذه الرغبة بالبعض إلى قصّ نتفٍ من ثوبه الكهنوتيّ، خلسةً، أو الحصول على خصلاتٍ من شعره. فغدا، كلّما قصّ شعره، يسارع إلى جمع كلّ المتساقط منه، وإحراقه، أمام عينيه. غير أنّه لم يُفلح دائمًا في منع حلاّقين مرتشين، وبعض أخصّائه، من سرقة بعض شعراته.

ومنذئذٍ، أضحى مراقبًا يقظًا، محتاطًا، فكلّما استقطر طبيبٌ شيئًا من دمه بغية تخفيف احتقان رأسه، كان يقتضي دفن هذا الدم المسيحيّ في مقبرةٍ بحضوره، ومع ذلك، لم يحُلْ هذا الحرص، دائمًا، دون سلب بعض مقرّبين منه قطراتٍ من هذا الدم، وتحويلها إلى ذخائر.

ولا بدّ من التنويه بأنّه رفض، دائمًا، رفضًا قاطعًا، الوقوف أمام مصوّرٍ أو رسّامٍ أو مثّالٍ. وكانت الصورة الفوتغرافيّة الوحيدة له، هي صورته مسجًّى في نعشه.

واتّفق أنّ مثّالاً استعان بأسقفٍ زوّده بتوصيةٍ إلى الأب "ڤـــيانّي" يسأله السماح بصُنع تمثالٍ له. ولجأ المثّال إلى حيلةٍ، فركع في كرسيّ الاعتراف، وتظاهر بالندم على خطاياه. ولّما رفع الكاهن يده كي يمنحه البركة، ناوله المثّال رسالة الأسقف، فتصفّحها، ونهض منتفضًا، وفتح باب الكرسيّ، وأمر الفنّان بالانصراف في الحال مؤكّدًا بحزمٍ: لا، لا لك، ولا لأُسقفك!".

ومع أنّ قمّة القداسة التي تسنّمها، وخبرة إدارة النفوس التي جلّى في مضمارها كانتا خليقتيْن بإعفائه من إذن الأسقف بممارسة سرّ التوبة، غير أنّه، حتّى مماته، لم يتلكّأ، قطّ، في التماس هذا الإذن، وتجديده بانتظامٍ. وظلّ، هو، يعترف بين أيدي كهنةٍ شبّانٍ، ويلتمس بركتهم وصلواهم، عادًّا نفسه أدنى منهم علمًا وأهليّةً.

ولم يأخذه، يومًا، زهوٌ أو غرورٌ، وهو يرى أساقفةً، وواعظين ذائعي الصيت، وكبار القوم يجلسون عند أقدام منبر وعظه، أو يركعون في كرسيّ اعترافه. وكان يؤثر على جميع هؤلاء فقيرةً تسأله إحسانًا، أو تائبًا يطلب غفرانًا وإرشادًا.

واستشاره، مرّة، قاضٍ شهيرٌ كان يتخبّط في شِباك قضيّةٍ عويصةٍ، لم يعثر لها على حلٍّ، فأرشده الخوري القدّيس إلى الحلّ الصحيح، في الحال، ولم يخطر له أن يستوضحه عن اسمه وهويّته. ومضى القاضي مذهولاً.

ولطالما قصده رؤساء أديرةٍ، ووُعّاظٌ مفوَّهون، طامعين في أن يتلقّنوا منه حرارة الغيرة، والبلاغة الحقيقيّة الفعّالة، وكانوا يعودون مأخوذين بما تلقّنوا. وقد واظب أسقفٌ على الإصغاء إلى دروسه الدينيّة، على امتداد ثمانية أيّامٍ متتاليةٍ، متخفّيًا، مندسًّا بين الجموع. ولطالما قصده كرادلةٌ، وأساقفةٌ، مستشيرين. بيد أنّ لا التقدير، ولا التمييز اللذان حظي بهما، سرّبا إلى روعه ذرّة غرورٍ، بل كان الخوري يستقبل هؤلاء الكبار، مثل استقباله لأصغر فردٍ في رعيّته.

ومساء الثالث من أيّار ١٨٤٥، قدم إلى أرس، متخفّيًا، الأب لاكوردير، الذي كان يُعدّ أفصح وُعّاظ عصره بلاغةً. وحلّ ضيفًا على أصحاب قصر أرس. وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، قدم إلى الكنيسة، فرحّب به الخوري بفرحٍ، وقبّله بحرارةٍ، وشدّ بقوّةٍ على يده، وشكر له قدومه، بسعادةٍ طاغيةٍ. ثمّ حضر الواعظ الشهير القدّاس الاحتفالي، واستمع إلى عظة الخوري التي تناول فيها موضوع "تقبّل الروح القدس". ثمّ عاد الأب لاكوردير، عند الساعة الواحدة

ظهرًا، واستمع إلى التعليم الديني الذي كان يقدّمه الخوري القدّيس. وفي المساء احتفل بصلاة الغروب ووعظ، ولكنّه حرص على تجريد خطابه من بلاغته المعهودة. فخاب ظنّ معظم الحجّاج الذين كانوا يؤثرون متعة وعظ الأب "ڤــياني" البسيط، والنفّاذ إلى الأعماق، في حين استمع الخوري القدّيس إلى وعظ زميله، متأثّرًا، ملتهمًا كلّ كلمةٍ منه!

وفي اليوم التالي التأم كهنة الرعايا المجاورة، في قصر أرس، حول غداء، ترأّسه الأب لاكوردير. وهمس أحد الكهنة في أُذنه: "لا ريب أنّ وعظ الأب "ڤــياني" بدا لك مفتقرًا إلى البلاغة". وجاء ردّ الأب لاكوردير قاطعًا: "لقد تكلّم مثلما يتعيّن على خوري رعيّةٍ أن يتكلّم". وانتهز الأب "ڤــياني" هذه السانحة كي يؤكّد سموّ تواضعه، فأسرّ إلى معاونه: "صدق المثل القائل إنّ الأضداد تتماسّ. وهذا ما حدث أمس في منبر كنيستنا، حيث التقى العلم الأقصى والجهل الأقصى".

بالإجمال كان خوري أرس مدرسةً في التواضع. وكان التواضع أحبّ الفضائل إلى قلبه، ولم يكفّ، يومًا، عن الدعوة إلى ممارسته. وكان يردّد باستمرارٍ على مسامع إخوة العيلة المقدّسة: "التزموا التواضع، التزموا البساطة! فبقدر ما تلتزمون بهما تزداد قوّتكم على فعل الخير". وكان يشبّه مكانة التواضع من الفضائل بمكانة السلسلة من المسبحة. فإذا انتزعت السلسلة، فرطت الحبوب جميعها؛ وإذا غاب التواضع تلاشت الفضائل جمعاء.

وقلّما أشاد أحدٌ بالتواضع مثل إشادته به. فقد سُئل، مرّةً، عن الوسيلة المثلى لحبّ الله، فأجاب: "التواضع، التواضع! فالكبرياء، هي التي تعيق مسيرة القداسة. الكبرياء هي سلسلة مسبحة الرذائل جمعاء، أمّا التواضع فهو سلسلة مسبحة الفضائل كلّها".

ومن أقواله في هذا الميدان:

- "التواضع كالميزان، بمقدار ما تهبط كفّةٌ تعلو الكفّة الأُخرى".

- "القدّيسون يعرفون ذواتهم أفضل ممّا يعرفهم الآخرون، ولذلك يتواضعون".

- "ظهر إبليس، يومًا، للقدّيس مكاريوس، وقال له: "كلّ ما أنت تفعله، أفعله أنا: فأنت تصوم، وأنا لا أتناول طعامًا، أبدًا؛ أنت تسهر، وأنا لا عهد لي بالنوم. شيءٌ واحدٌ تفعله أنت، ولا أقوى أنا على فعله". - "وما هو؟" - "التواضع!".

هذه الباقة من الخصال التي جلّى خوري أرس في ميدانها، كانت الأساس التي أشاد عليه صرح قداسته، ومنها انطلق إلى قمّة الفضائل الروحيّة واللاهوتيّة.

طاعته

الطاعة من متمّمات التواضع.

منذ طفولته كان "جان ماري ڤـــيانّي"، لإخوته، مثالاً في إطاعة الوالدين. فكانت والدته تحثّ إخوته على التمثّل به في هذا المضمار. ولكنّه، في الآن عينه، آمن أنّ واجب إطاعة مشيئة الله تتقدّم على كلّ مشيئةٍ أُخرى. ومن ثمّ لم ينثنِ أمام مقاومة والده لدعوته الكهنوتيّة.

ولّما أبعدته الإكليريكيّة، بسب هشاشة طاقاته العلميّة، لم يتخلَّ عن رسالة خدمة النفوس، لأنّه أيقن أنّ الربّ يريده عاملاً في كرمها، فطلب الانضواء إلى "جمعيّة إخوة العقيدة المسيحيّة". ولكان نهج نهجًا مختلفًا لو لم يضع الله في دربه الأب "بالّي" الذي أكّد له: "تشجّع، يا بنيّ. فرغم كلّ العوائق الظاهرة يريدك الله كاهنًا". وحقّق له ذلك الكاهن البارّ حلم حياته، حلم خدمة الهيكل، ورسّخ إيمانه بأنّ الكلمة الأخيرة هي من نصيب الإنسان المطيع.

وعندما توفّي الأب "بالّي"، سارع أعيان رعيّة "إيكوبّي" إلى الأُسقفيّة، مطالبين بتعيين الأب "ڤـــيانّي" الذي خبروا ورعه وتفانيه، خادمًا أصيلاً لرعيّتهم. ولكنّه، هو، لم يستغلّ هذا المطلب الشعبيّ كي يتمسّك بالمنصب، ولم يطالب به. بل خضع لإرادة أسقفه، الذي كان مازال متأثّرًا بما أُشيع عن ضآلة زاد الأب "ڤـــيانّي" من العلوم اللاهوتيّة، والعلم عامّةً، فاختار له خدمة "كاپـــيلاّ" أرس، التي لم تكن قد رُقّيت، بعدُ، إلى رتبة رعيّةٍ، بسبب ضآلة عدد سكّانها الذي لم يتخطّ مئتين وثلاثين نفسًا. ولم يشكُ الأب "ڤـــيانّي" من ذلك التعيين في ضيعةٍ مغفلةٍ، محاطةٍ بمستنقعاتٍ تلوّث جوّها، وحيث كان الإيمان المسيحيّ يحتضر. ولم يتأفّف من راتبٍ سنويٍّ لا يتعدّى خمسين فرنكًا، ولا من الاستقبال الفاتر الذي لقيه عند وصوله إلى أرس، واقتصر على المختار وشخصٍ آخر اقتاداه إلى دار الرعيّة المهجورة المعتمة، حيث

كان سَلَفه لقي حتفه مصدورًا، ولّما يقضِ فيها أيّامًا معدوداتٍ، ولّما يتخطَّ الثامنة والعشرين من سني حياته.

لا ريب أنّ قلبه ارتعد وَجَلاً من وحدةٍ سحيقةٍ، باردةٍ. ولكنّ كلّ تلك المثبّطات لم تسرّب إلى نفسه ثورةً على واقعٍ ممعنٍ في دواعي الرثاء، لأنّ قلبه كان ملتهبًا رغبةً في خدمة النفوس، أينما كُلِّف بخدمتها، ومدعومًا بفرح أداء واجب الطاعة.

ومع أنّه بذل نفسه بكلّيّتها في سبيل خدمة تلك الحفنة من النفوس، وإعادتها إلى دروب الخلاص، ظلّ يراوده توقٌ إلى التفرّغ للصلاة والتأمّل. وكان هذا التوق يطغى عليه، أحيانًا، فيحاول تلبيته، ويشرع بالرحيل. وقد نجح فيه، مرّةً، لأيّامٍ معدوداتٍ. ولكنّ مشيئة الله المتمثّلة في رغبة رؤسائه كانت تعيده، دائمًا، إلى الغوص في مهمّات خدمة الرعيّة الصغيرة.

وظلّ حلم الاعتكاف والاعتزال من أجل الانقطاع للتأمّل والصلاة يراوده حتّى ساعته الأخيرة. وكلّما عُيِّن أُسقفٌ جديدٌ للأبرشيّة كان يسارع إلى الالتماس منه تحقيق حلمه هذا. ولكن لم يلبِّ رغبته أحدٌ من الأساقفة المتعاقبين، وظلّ هو يكرّس كلّ لحظةٍ من حياته، وعمره كلّه، من أجل إنجاز المهمّة المطلوبة منه خير إنجازٍ. لقد كلّفته طاعته تضحياتٍ بطوليّةً، تفوق الطاقات البشريّة، ومع ذلك ظلّت الطاعة هي النجم الذي ينير دربه، ويضيء عتمة نفسه، والربّ يُسيل إليها اليقين بأنّ لارتداد نفسٍ واحدةٍ وزنًا يرجح على كلّ الصلوات التي قد يتلوها في العزلة والصمت. وكانت الطاعة تعيده كلّ يومٍ، محنيًّا، موجعًا، مرهقًا، ولكن مندفعًا، وفرحًا إلى كرسيّ الاعتراف.

وكان قد نصح إكليريكيًّا عبّر له عن رغبته في هجر وظيفة التدريس من أجل اعتناق حياةٍ نسكيّةٍ: "إنّ الله يثير فينا رغباتٍ، وغالبًا ما لا يتيح لنا تحقيقها في هذا العالم". فهو نفسه طالما حلم بحياة نسكٍ، ولكنّه ارتضى بمنسك كرسيّ الاعتراف الذي أثبت أنّه أشدّ قسوةً وصلبًا من كلّ منسكٍ.

وكم من أفعال طاعةٍ كلّفته انسلاخًا عاطفيًّا موجعًا! فقد كانت دار العناية من أحبّ مشاريعه على قلبه، ومع ذلك، امتثالاً لرغبة الأسقف، تنازل عنها لجمعيّة راهباتٍ. ومع أنّ هذا التنازل شقّ عليه، لم يتذمّر، ولم يثُر.

وقد أوجز خوري أرس موقفه من الطاعة بقوله: "إنّ تخلّيًا واحدًا عن الإرادة الذاتيّة يروق لله أكثر من صيام ثلاثين يومًا". "أنا عرفتُ نفوسًا ضحّت بإرادتها الخاصّة، وماتت عن ذاتها. وهذا ما يصنع القدّيسين. عندما يشرع المرء في ممارسة حياة التجرّد هذه تسير الأمور تلقائيًّا. ومن يمتلك هذه الفضيلة يملك الفضائل كلّها".

تضحياته

الفقر يقتضي التضحية، وكان خوري أرس من أبطال التضحية الأفذاذ، فقد حاكت نسيج حياته، وكانت حجر أساس قداسته.

التضحية هي قاعدة الأخلاقيّة المسيحيّة، وخلاصة الإنجيل، وسنّة التقدّم الأدبيّ، والدرب الذي لا بدّ من انتهاجه في السعي إلى القداسة. التضحية هي الوجهة التي تنهجها نفسٌ تزدهر في اتّجاه أنبل خصالها، وأسمى وظائفها، وفي صبوّها إلى حرّيّة أبناء الله المجيدة، متخطّيةً كلّ العوائق الناهضة في طريقها، والحدود، والحواجز، وكلّ ما يعيقها ويقيّد حركتها. هي سبيل العبور من الموت إلى الحياة، ومن الظلمة إلى الأنوار، ومن العبوديّة إلى الحرّيّة.

فكلٌّ منّا عصفورٌ يصبو إلى الطيران، ولكنّه مربوطٌ بخيطٍ. وطالما لم يحاول الطيران يظنّ نفسه حرًّا. ولكنّه ما إن يسعى إلى الانعتاق من السجن المفروض عليه حتّى يرين على نفسه الشعور بقيود السجن. والمؤمن لا يتحرّر إلاّ إذا عاش دعوة يسوع إلى التضحية بالذات من أجل إنقاذها، تضحيةً لا تدمّر كما تفعل الأهواء البشريّة، بل توفّر أسباب الحياة الخصبة، والمناعة الصلبة. إنّها شعاع شمسٍ يخترق الزجاج، فيضيء، ويلوّن، ويجمّل كلّ شيءٍ، ولا يدمّر شيئًا.

وقد تطوّع خوري أرس للتضحية، وأوغل في ممارستها كي يردّ إلى الله أبناء رعيّته، ثمّ أرتال الحجّاج الذين قصدوه تائبين. وقدّم تضحياته لله كي يمكّنه من حبّه كلّ يومٍ أكثر.

وكان تجرّده من ذاته أشقّ من زهده في أعراض الدنيا. فهو نظير كلّ إنسانٍ، كانت لديه، بالفطرة، أهواءٌ كفيلةٌ بإهلاكه. ولكنّه شنّ على ذاته صراعًا دائمًا في سبيل قمعها.

لقد ضحّى، من أجل مجد الله، بكلّ رغبةٍ إنسانيّةٍ، في اكتساب الشهرة،

واحتلال مراكز مرموقةٍ في المجتمع. ومن أجل خدمةٍ مثلى للنفوس ضحّى بالميل الطبيعيّ إلى الكسب والامتلاك، وضحّى حتّى برغبة الحبّ البشريّ.

وكانت تضحياته السلّم الذي ارتقاه، بتصميمٍ ودأبٍ، وبطولةٍ، حتّى بلغ أسمى مراقي القداسة.

لقد توغّل، في مضمار التضحيات إلى أقصى تخوم الطاقات البشريّة، بل تخطّاها. وقد شهد الكونت عميد أَرس أنّ الأَب "فـــيانّي" قد قضى، في ذاته، قضاءً مبرمًا على آدم العتيق، ولم يمنّ، قطُّ، على طبيعته البشريّة بأيّ عزاءٍ. وكانت إماتاته لجسده مستمرّةً، شاملةً، حتّى أقصى الحدود، وواكبت كلّ مراحل حياته، وقلّما تخطّاه راهبٌ في هذا المضمار. ومع أنّه أقرّ بأنّ الخطوة الأولى في ميدان الإماتة هي الأقسى مشقّةً، غير أنّ اجتياز هذه الخطوة وتعدّيها حتّى تسنّم القمّة هو فضيلةٌ عسيرة المنال تقتضي بطولةً فائقةً مستمرّةً، تدعمها النعمة.

ما برحت رعيّة أرس محتفظةً بالمجلدة والمسح الخشن والأدوات التي استخدمها خوريها القدّيس في قمع طبيعته البشريّة. غير أنّ أداة القمع الأشدّ إماتةً، بلا منازعٍ، كانت كرسيّ اعترافه، ففيه صلب نفسه، وأضحى شهيد الاعتراف. وهو الذي أنفق سنوات صباه في الهواء الطلق، بين تلالٍ مخضلّةٍ تداعبها الشمس والنسيم العليل، ارتضى طوْعًا الانحباس داخل الحيّز الخَشبيّ الضنك المعتم، سجين النفوس الخاطئة، حارمًا نفسه رؤية الطبيعة بألوانها الفتّانة، وتنشّق نسيمها المنعش، والتمتّع بطلاوة أفياء أشجارها التي تُسيل إلى الأعصاب راحةً وانشراحًا.

لقد أقرّ العارفون بمحنة كرسيّ الاعتراف، أنّ قضاء بضع ساعاتٍ فيه كافٍ لتحطيم الكاهن الأَشدّ متانةً، فهو يغادره مخدّر الأعضاء، محتقن الرأس، عاجزًا عن تركيز فكره، فاقدًا الرغبة في النوم، وشهيّة الطعام؛ وإذا أقدم على استئناف هذه الجلسات التي لا تنتهي، فتخونه همّته. ومع ذلك إنّ ما حقّقه الأب "فـــيانّي" في النهوض بهذه المهمّة المرهقة، مع كلّ معاناته الصحّيّة، وقسوة تقشّفه، لَلغزٌ محيّرٌ.

أجل، لقد كان كرسيّ الاعتراف نعش خوري أرس، ومصدر أعتى آلامه. ففي أيّام الصيف كانت الكنيسة الصغيرة تتحوّل أَتّونًا. وقد أقرّ الأب "ڤــيانّي" نفسه أنّ الحرارة السائدة، آنذاك، في كرسيّ الاعتراف كانت توفّر له تصوّرًا لحال جهنّم. وكان الصداع يجتاحه، حينذاك، ويضطرّه إلى ترطيب جبينه بكمّادات باردةٍ. وفي الأيّام العاصفة كان تلوّث الهواء في الكنيسة الضنكة يصيب الكاهن بالغثيان، فلا يقوى على الصمود إلاّ باستشمام خلٍّ، أو مياهٍ معطّرةٍ، بين فينةٍ وأُخرى. وبالمقابل كان البرد القارس الذي يسود تلك المنطقة الجبليّة شتاءً، يحدث جليدًا كفيلاً بفلق الصخور وتفتيتها، وكان ذلك القرّ المقرون بعلَل الأب الجسديّة يصيبه بالإغماء، أحيانًا. واتّفق أن استوضحه زميلٌ له كيف يقوى على المكوث في كرسيّ الاعتراف، ساعاتٍ طويلةً، في هذه الظروف فائقة القسوة، وليس لديه ما يدفّئ به قدميه. وجمع جواب الخوري الفكاهة والبساطة إلى الإقناع، إذ قال: "ذلك أنّني، في الفترة الممتدّة بين عيد جميع القدّيسين والفصح، أفقد الشعور بوجود قدميّ!". ولطالما شهد كهنةٌ زملاء له جزءًا من جلد عقبه ملتصقًا بجواربه، وهو يخلعها مساءً.

وحاول مؤمنون تخفيف قسوة مقعده فوضعوا فوقه مخدّاتٍ محشيّةً قشًّا، ولكنّه رمى بها خارجًا حالما لمحها. واحتال آخرون، في السنتين الأخيرتين من حياته (١٨٥٧– ١٨٥٨) فأخفوا تحت كرسيّ اعترافه دفّاءاتٍ كانوا يستبدلونها خلسةً، أثناء النهار. وخفي عليه الأمر طويلاً، ولمّا لحظه تغاضى عنه، فقد كانت قواه تنهار ساعةً فساعةً.

في كرسيّ اعتراف الرجال، داخل السكرستيّا، كان الخوري يضطرّ أحيانًا، عندما تشتدّ قسوة البرد إلى إحراق أوراقٍ كي يحرّر يديه من الخدَر. وبمشقّةٍ تمكّن مساعده من إقناعه بوضع مدفأةٍ، متذرّعًا بحجّة أنّ الرطوبة المفرطة تسبّب تعفّن الحلى الكهنوتيّة، وأغطية الهيكل.

وكانت غرفة نومه خاليةً من وسائل التدفئة. فكان مساعدوه يستبقون مجيئه

إليها، فيشعلون حطبًا في المدفأة، ولكنّ ذلك الدفء المصطنع كان يجعل نومه مضطربًا. ولم يكن يستعيد شعوره بالراحة إلاّ مع عودة الطقس الجميل.

مواظبته على ملازمة كرسيّ الاعتراف، كانت، وحدها، كفيلةً بالارتقاء به إلى أسمى قمم القداسة. بيد أنّه، فضلاً عن ذلك، كان كلِفًا بالإماتات مثل كَلَف آخرين بالملذّات، ولم يكن يرتوي منها أبدًا. فقد ألزم نفسه بألاّ يشتمّ وردةً، وبألاّ يتجرّع قطرة ماءٍ، حتّى في أشدّ أيّام الصيف قيظًا. وكان يُحجم عن طرد ذبابةٍ حطّت على جبينه، ويتحمّل إزعاجها صابرًا راضيًا. وعندما يركع كان يتجنّب الاتّكاء على مسندٍ أمامه. وكان يربأ بنفسه عن إظهار أيّ إحساسٍ بالنفور، وأيّ اشمئزازٍ فطريٍّ. وامتنع عن كلّ نزعةٍ إلى فضولٍ بريءٍ.

ومع أنّه نزّه نفسه من الخطيئة، دأب على الصوم، وجلد نفسه نيابةً عن الخطأة. ومنذ تكليفه برعيّة أرس، شرع يمعن في جلد نفسه، كي يُنعم الله على أبناء رعيّته بالارتداد إلى الإيمان، ونصاعة السلوك. ولّما تحقّق ذلك، لم يمنح أدوات الإماتة هدنةً، إلى أن أكرهه انهيار قواه على الحدّ من استعمالها، وعلى الرأفة "بجثّته" المهدودة، فأمهل قروحه فرصة التئامٍ. وقد اكتشف أحد معاونيه، في غرفته، مجلدةً مصنوعةً من أسلاكٍ حديديّةٍ، مخفيّةً وراء الستائر. واتّفق أن سرق أحدهم مجلدته، فلم يعهد راحةً حتّى جيء إليه ببديلٍ عنها، واصطنع هو لنفسه أُخرى صنعها من كتلٍ ضخمةٍ تمكّن كلّ جلدةٍ من إصابة موجعٍ.

وكان الخوري قد كلّف عدّة أشخاصٍ بتزويده بسلاسل حديديّةٍ، ولكنّ جميع المقرّبين منه أبوا الاستجابة لملتمسه، فكلّف شابًّا ساذجًا بهذه المهمّة، وحصل عليها الشابّ من حدّادٍ، ولكنّه كان يجهل الغاية منها. وذات يومٍ ألّم بالكاهن إعياءٌ مباغتٌ، واضطرّ ذلك الشابّ عينه إلى حمله إلى سريره، وحينئذٍ تبيّن أنّ الكاهن قد لفّ السلسلة على خصره. ولطالما حار مراقبوه بشأن حركاته الآليّة العاجزة عن

الإلتواء، حتّى تبيّنوا أنّه كان مقيّدًا بأساور حديديّة. واتّضح أنّ مسحه كان قد أحدث في جسده قرحًا كاد يتحوّل إلى أُكالٍ (غرغرينا).

هذه الإماتات أمعنت في إنهاكه. ومن المحيّر أنّه استطاع، معها، البقاء واقفًا على قدميه، مع أنّه كان يكتفي من مقوّمات العيش بما كان كفيلاً باقتياد آخرين إلى حتفهم. وربّما، مع كرّ السنين، وتفاقم أمراضه، أحجم عمّا سمّاه "جنون الشباب"، وأقلع عن الأصوام الكاملة الطويلة، التي كانت تدوم، أحيانًا، ثلاثة أيّامٍ متعاقبةٍ. ومع أنّه منذ عام ١٨٢٧ بات يتناول طعامه في دار العناية. وكان ما يتناوله لا يزيد كثيرًا عن الصوم، إذ لم يكن يتسنّى له وقتٌ للإفطار، وعند الظهر، كان يأخذ من المطبخ كوب حساءٍ أو حليبٍ، ويرتشفه وهو في طريقه إلى الكنيسة أو إلى حجرته. وفي عام ١٨٣٤ أمره أُسقفه بتناول إفطارٍ، فغدا يتناول، عقب القدّاس، كوب حليبٍ، ومع ذلك كان يستغني عنه، في أيّام الصوم. ولحظ الأخ "أثناس" أنّه، طوال فترة الصوم الكبير، كان يقتصر على وجبةٍ وحيدةٍ زهيدةٍ. وظلّ، حتّى اعتلاله الخطير، عام ١٨٣٤، يستغني عن وجبة العشاء.

ومنذ عام ١٨٥٤ حتّى وفاته، اضطرّ إلى الخضوع لأوامر طبيبه، والحدّ من قسوة تقشُّفه. وغدا يشكو: "بعد أن أُكرهتُ على تناول أطعمةٍ أكثر قدرةً على توفير الطاقة، أمسيت أقلّ ارتياحًا أثناء قيامي بسرّ التعريف". وأضحى يأخذ على ذاته رذيلة النَهَم، مع إمعانه في الزهد والتقشّف. وكان قوام وجبته خضارًا مسلوقةً، تضاف إليها أحيانًا بيضتان مسلوقتان، وعندما يكون مريضًا تزاد عليها قطعة لحمٍ صغيرةٌ، وإبريقُ ماءٍ، وكسرةُ خبزٍ. وكانت السرعة التي يتناول بها طعامه، واقفًا، لا تتيح له تذوّق طعم غذائه، فهو لم يكن يخصّص للطعام سوى أقلّ من عشر دقائق، تكاد تكفي لقضم لقمتي خبزٍ، وارتشاف جرعة ماءٍ.

ولفت نظرَ أحد زائريه، في غرفته رغيفٌ أُحدث في طرفه ثقبٌ صغيرٌ يحاكي قضمة فأرة، وتبيّن أنّ هذه الذرّة من الخبز هي كلّ ما التهمه الكاهن سحابة نهاره.

وكانت معدته قد ضمرت يومًا فيومًا، فلم يعد يطيق كمّيّة طعامٍ تزيد عن مقدار طعامه اليوميّ. وغدا يعتذر أثناء اجتماعات الكهنة، في قصر أرس، عن مشاركة زملائه الطعام المقدّم، بحجّة وجود غرباء ينتظرونه في الكنيسة. واتّفق أن دعت سيّدة القصر، يومًا، الأُسقف على غداء، وأعدّت له مأدبةً، وأصرّ الأُسقف على جلوس "الخوري العزيز" إلى جانبه، ومشاركته الطعام أُسوةً بالآخرين. فأُصيب الكاهن المسكين، من جرّاء ذلك، بتلبّكٍ معويٍّ مؤلمٍ وخطيرٍ، إذ لم تُطق معدته الخروج عن الزهيد المألوف. ومنذئذٍ أقلع الأُسقف عن إلزامه بأيّ طعامٍ، وأتاح له، حتّى في المناسبات الجماعيّة، ألاّ يتناول من الطعام إلاّ ما تتقبّله معدته.

ولا بدّ من التنويه بأنّ ذلك الكاهن القدّيس الزاهد، لم يكن يُلزم ضيوفه بوجباته الزهيدة، بل كان يوعز بإعداد أطباقٍ شهيّةٍ لهم، ولا يمسّها. واتّفق أن زارته ابنة أُخته، طالبةً بركته عشيّة زواجها، فأوعز بتقديم طعامٍ خاصٍّ لها ولمرافقيها، وارتضى إكرامًا لها، تذوّق القليل منه. وكان، أحيانًا، يخدم ضيوفه بنفسه، ويقرع كأس مائه بأقداح شرابهم، ولكنّه حرص، دائمًا، على تجنّب المشروبات الكحوليّة.

ومنذ عام ١٨٥٤ غدا مؤتمر كهنة الأبرشيّة يُعقد في دار الرسالة، عوضًا من القصر. وأخذ خوري أرس على عاتقه تقديم وجبة طعامٍ لجميع الكهنة المؤتمرين، في ختام المؤتمر، وأمعن في السخاء، فأقرّ الحاضرون أنّ ذلك الغداء كان من أشهى ما تناولوه، في مثل هذه المناسبة. ولم يشارك الخوري بالغداء، ولكنّ لمّا بلّغه معاونه رضى زملائه، فرح مؤكّدًا أنّ هذا ما تعلّمه من الأب "بالّي"، الذي طالما صرّح: "عندما نستقبل إخوتنا يجب أن يكون استقبالنا لهم نبيلاً".

وما أحلى أن نختتم هذا الفصل بإقرار رئيس دير رهبانٍ حبيسين: "نعترف، نحن، المتوحّدين، النسّاك، الرهبان، ممارسي كلّ أصناف الزهد والتوبة، أنّنا لا نتجاسر على اقتفاء خطى خوري أرس القدّيس، إلاّ محدّقين إلى مثاله بإعجابٍ صادقٍ، ومعترفين أنّنا لا نستأهل حتّى تقبيل آثار أقدامه، وغبار حذائه".

صبره

وقد تمرّس خوري أرس بالصبر. وصبره يستأهل الإعجاب بقدر ما كان بسليقته مندفعًا، عصبيّ المزاج. واستعانةً على الصبر اعتاد أن يمسك بيده منديلاً يضغط عليه بكلّ قواه، كلّما استُفزّ، درءًا لانفجار غيظه. وشهدت معاونته "لاسّانيي": "مع أنّه حادّ الطباع، اكتسب من الصبر ما أدهش مراقبيه، الذين كانوا يشهدون سيطرته المحكمة على ذاته، حتّى في غمرة أسباب الإزعاج".

ويحتلّ الصبر مكانةً بارزةً في قائمة فضائله البطوليّة. وهي فضيلة لم يتلقّها بالفطرة، ولو لم يكتسبها بالجهود المريرة لما تحرّر من نزعته الفطريّة إلى النـــزق والعنف. ولكنّه بجهوده حوّل هذه النـــزعة إلى رقّةٍ عذبةٍ تُوهِم بأنّه منـــزّهٌ من الأهواء، وعاجزٌ عن الغضب. ولطالما أشار من فوق منبره: "يا أبنائي تشكون عجزكم عن ممارسة الصبر. والله يعلم كم نحن جميعنا نملك كفايتنا من الميل إلى الغضب!".

وقد استوضحه معاونه يومًا كيف يسعه قرن هدوئه بنـــزق طباعه، فأجابه: "إنّ الفضيلة، يا صديقي، تقتضي الشجاعة، وقمعًا دائمًا للذات، وفوق كلّ شيءٍ عونًا من العلاء".

وقد صرّح الكونت عمدة أرس: "لا ريب أنّه أنفق الكثير من الدأب، وتحمّل جمًّا من الآلام كي يكتسب هذا الصبر الذي يثير إعجابنا. فصبره هو أكثر ما أدهشني، وأثّر فيّ. وإنّي لأعتقد أنّه يتعذّر التوغّل في هذه الفضيلة أكثر ممّا هو توغّل.... لقد رأيته دائمًا متماسكًا، ودودًا، مهما كانت المواقف المتّخذة منه".

وقد تبيّن للأخ "أثناس"، وهو من أوثق المقرّبين من الأب "ڤـــيانّي"، كم كان يقتضي منه لجم انفجار غضبه من قمعٍ لذاته. وكان قد شاهده، كلّما تمادى أُناسٌ مزعجون في استفزازه، كيف كان يشدّ على منديلٍ يحمله في يده، ويوسعه ضغطًا، ممعنًا في ضبط نفسه كي يتجنّب الانفجار.

ولا ريب أنّ مشاعر نفورٍ عفويّةً كانت تنتابه حيال بعض الأشخاص، ولكنّه كان يغلّف هذه المشاعر بالمحبّة، مخفيًا كوامنه، وقد تفشل، أحيانًا، تغيّراتٌ تطوف بملامحه، وومضات بروقٍ في عينيه في كتم العواصف المتلاطمة في داخله كتمًا كلّيًّا. غير أنّ هذه العواصف كانت نادرة الهبوب، وغالبًا ما توأد في مهدها.

وما أكثر الأمثلة على صبره الملائكيّ. فقد اتّفق أن باغت أحد معاوني الأب ولدًا من أبناء الرعيّة وهو يسرق صندوق حسنات الكنيسة، فأخبر العمدة، وبصحبته قصدا والدة الصبيّ محذّرين. وظنّت تلك الوالدة أنّ الخوري هو الذي وشى بابنها فجاءته في الغد وصبّت على رأسه كلّ ما حوته جعبتها من شتائم وأوصافٍ جارحةٍ، بل مقذعةٍ. وكان معاون الخوري يتنصّت عند عتبة السكرستيّا، وصعق عندما سمع الخوري يجيبها، بكلّ هدوءٍ وكياسةٍ: "أنتِ محقّةٌ يا ابنتي، فأرجوكِ أن تصلّي لكي يُصلحني الله".

وكذلك فعل حيال رجلٍ أوسعه تجريحًا وشتيمةً، فلم يردّ عليه بكلمةٍ، بل حرص على مواكبته إلى الخارج، وعانقه مودّعًا، ولكنّه كان من شدّة التأثّر بحيث هرع إلى غرفته، وارتمى على سريره، وفي الحال غشت كلّ جسمه البثور.

وكثيرًا ما كان يقابل الأقوال الجارحة بهدوءٍ وصمتٍ، ثمّ لا يلبث أن يرتجف، لا إراديًّا. وكان يعلّق على هذه الظاهرة بقوله: "عندما نقمع أهواءنا، ندع أعضاءنا ترتجف".

وذات يومٍ تلقّى صفعةً، فقال لصافعه: "يا صديقي، الخدّ الآخر يغار!". وقد تجلّى صبره، بأروع صوره، من خلال تدافع الجموع نحوه. فالجميع متحرّقون لرؤيته، وعندما يتسنّى لهم ذلك، يرغبون في الاحتفاظ به لأنفسهم. وهو كان يشعر بثمن الوقت الذي ينساب سريعًا، وبحاجات النفوس الحارقة إليه، فكان يضيق ذرعًا بمن لا يكفّون يردّدون على مسامعه الأقوال عينها، والذين يلتهمون وقته برواية ترّهاتهم.

فكان دائمًا مضغوطًا، مختنقًا، ومع ذلك لا يتخلّى أبدًا عن عذوبته ومحبّته، وصبره ووداعته، وكان كلّ إنسانٍ يرتدّ عنه راضيًا سعيدًا. وقد ترتسم على محيّاه أمارات الإرهاق الجسديّ، ولكنّ قسماته لم تعبّر قطّ عن امتعاضٍ أو ضيقٍ.

وفيما يكون محاصرًا بعشرات طالبي الاعتراف، يُستدعى أحيانًا لمنح المناولة لشخصٍ مستعجلٍ، فيغادر كرسيّ اعترافه ويلبّي الطلب، وما يكاد يستعيد مكانه في منبر التوبة، حتّى يستدعيه شخصٌ ثانٍ فثالثٌ، طلبًا لمناولةٍ أو استشارةٍ ملحّةٍ. ومع ذلك لا يتخلّى، لحظةً، عن هدوئه وصبره، ولا يصدر عنه تأفّفٌ أو تذمّرٌ. وهذا ما دفع أحد المؤمنين إلى الخروج من الكنيسة وإعلان غضبه من تصرّف المتطفّلين، بديلاً عن الخوري القدّيس الذي لا يعرف الغضب إلى نفسه سبيلاً. وهكذا فعل معاون القدّيس، الأب "توكّانييه" الذي صارحه يومًا: "لو حدث للملائكة ما يحدث لك، لانفجروا غيظًا! وقد أضطرّ أنا إلى الانفجار غيظًا، نيابةً عنك".

وكان ذات يومٍ من عام ١٨٥٤، بعد أن فرغ من إلقاء تعليمه الدينيّ، يجتاز الفناء الممتدّ بين الكنيسة ودار الرعيّة، فأمعن أفرادٌ في مضايقته، إذ حاول بعضٌ منهم قصّ نتفٍ من ثيابه الكهنوتيّة، وآخرون حاولوا قصّ خصلٍ من شعره، فاستنكر بعض الحضور هذه التصرّفات وخاطبوه: "أيّها الكاهن ألا يجدر بك أن تزجر الجمع وتبعدهم؟ لو كنّا مكانك لجأرنا غضبًا". فردّ القدّيس بكلّ هدوءٍ: "أنا موجودٌ في أرس منذ ستٍّ وثلاثين سنةً، ولم يسبق لي أن غضبت، ولست مستعدًّا للبدء بالغضب الآن، بعد أن طعنت في السنّ".

ولكم من كاهنٍ ابتغى تعلّم الصبر والوداعة منه، وقضى ساعاتٍ في مراقبته وتأمّله، محاصرًا، مخنوقًا بين الجموع، ومع ذلك محافظًا على سجوّه وعذوبته وكياسته الدمثة. وكثيرون ترصّدوا، من قِبَله، سدًى، اقتناص لحظة سأمٍ أو نفاذ صبرٍ، أو تعبيرٍ عن ضيقٍ. وخاب توقّعهم. فقد كان، في أشدّ المواقف مدعاةً للضيق والاستفزاز، لا

يريم عن بسمته، وسجوّه، ووداعته. وعلى من كانوا يستفسرون عن سرّ هذا السكون، كان يجيب: "وما عسايَ أكسب إن انفعلت وانفجرت غضبًا؟".

وربّما كان الصبر على مضايقة الجماهير أسهل احتمالاً من احتمال فظاظة رفيقٍ يوميٍّ، لا تتوقّف استفزازاته. هذا ما عاناه، سحابة ثماني سنواتٍ من قبل كاهنٍ يصغره بعشرين سنةً، هو الأب "ريمون"، وكان الخوري القدّيس قد سدّد كلَّ نفقات تعليمه الإكليريكيّ، وطالب به معاونًا له. ولكنّ ذلك الكاهن الشابّ كان يفتقر إلى الكياسة والتمييز وسلامة التقدير، وعدّ نفسه هو معلّم أخيه الأكبر، ووليّ أمره. كان طامعًا في "سحب البساط من تحت قدميه"، وفي خلافته على إدارة الرعيّة، فينعم بشهرة خوري أرس. وقد غرب عن باله أنّ أرس بمعزلٍ عن الأب "ڤـــيانّي"، ستفقد كلّ نورٍ، ولن تحطّ فيها قدمٌ.

وبلغت بالأب "ريمون" القحَة أن لم يتورّع عن معارضة الخوري القدّيس جهارًا، والتعبير عن امتعاضه لأنّه لم يكن يطلعه على أسراره، ولم يكن يطلق يده في تنظيم حركة الحجّ. وبلغ به انعدام الذوق إلى احتلال غرفة الأب "ڤـــيانّي" منذ وصوله إلى أرس، وإكراه الكاهن الشيخ على الانزواء في حجرةٍ معتمةٍ ورطبةٍ في الطبقة السفلى من الدار، إلى أن قامت قيامة الرعيّة، وهدّدت بتفجير فضيحةٍ مدوّيةٍ. فأعاد الدخيل للخوري غرفته، واستأجر مسكنًا لنفسه في القرية.

ومع ذلك احتمل القدّيس ربيبه العاقّ ثماني سنواتٍ، ساعيًا إلى إصلاحه، ومحيطًا إيّاه بأرقّ مبادرات المحبّة. وكان يذود عنه ويقاوم كلّ الحملات التي كان سكّان أرس يشنّونها عليه، انتصارًا لخوريهم، مؤكّدًا: "إن أُصيب مساعدي بأذًى، فسنهجر معًا هذه الرعيّة. ولمّا أوفد الأسقف رسولاً للتحقيق في سلوك الأب "ريمون"، غير اللائق، حيال أخيه الأكبر، دافع عنه الأب "ڤـــيانّي" بحجّة أنّ الكاهن الشابّ يرشده إلى عيوبه الشخصيّة، في حين أنّ الآخرين كانوا يكتمونها عنه، وهو، من ثمّ، يعترف بفضله.

وعندما استفسر الأسقف الخوري القدّيس عن علاقته بذلك الكاهن الشابّ، أجابه: "أتمنّى أن تُحِلّوه أجمل مكانٍ في قلبكم، تقديرًا لكلّ مشاعره الطيّبة حيالي، ولا تصدّقوا كلّ الافتراءات التي يشيعها عنه أصحاب الألسنة الخبيثة". ولمّا رفع عمدة أرس إلى الأسقف شكواه من تصرّفات الأب "ريمون"، أراه الأسقف كتاب الأب "ڤـيانّي" المناقض لشكوى العمدة. وقد اعترف الأب "ريمون" ذاك بعد أن أوكلت إليه رعيّةٌ أُخرى: "أسفي الأكبر أنّني لم أستفِدْ بالقدر الكافي من مَثَل الخوري القدّيس. ومع ذلك ما زلت أعتمد على ما أحاطني هو به من مودّةٍ".

وكان الأب "ريمون"، بعد أن تيقّن من تبخّر أحلامه بأن يصبح هو "خوري أرس"، طلب نقله إلى رعيّةٍ أُخرى. وحتّئذٍ لم يكفّ الأب "ڤـيانّي" يبدي له أرقّ مشاعر المودّة، وحتّى بعد انتقاله كتب له: "لقد قدّمت لي من العون والخدمات ما قيّدتَ به قلبي".

ولم يكن صبر الخوري القدّيس على أوجاعه الجسديّة التي لم يُطلع عليها سوى حفنةٍ من المقرّبين منه، بأقلّ بطولةً من صبره على المحن النفسيّة. فقد كان يحمل في ذراعه اليمنى قرحًا واسعًا مؤلمًا، يشيع فيه أوجاعًا حادّةً كلّما ضغط عليه حجّاجٌ، فكان يصدر عنه، حينذاك أنّةٌ: "مهلَكم، إنّكم توجعونني". ولكنّه لم يعبّر قطّ عن امتعاضٍ أو تأفّفٍ.

وقد عانى طويلاً من داء المفاصل (روماتيزم) من جرّاء رقاده في حجرةٍ رطبةٍ وباردةٍ، وكان هذا الداء يسبّب له أوجاع رأسٍ حادةً. وكانت تنتابه حالات إغماء، فيضطرّ إلى معالجتها بحجم الدم. وكان الوعظ المتواتر قد أحدث لديه فتقًا مزدوجًا، فكان كلّما خرج من كرسيّ الاعتراف يبدو محنيًّا، وبعد سنواتٍ من المعاناة اكتشف طبيبٌ علّته.

ولطالما تألّم من أسنانه وأضراسه، حتّى إنّه ذات يومٍ طلب من أحد معاونيه اقتلاع إحداها بكمّاشة. ولكن، فيما كانت "جثّته" (هكذا كان يسمّي جسده) تئنّ

ألَمًا، كان يحتفظ برباطة الجأش، وبحرّيّة الذهن، ولم يكن شيءٌ في حديثه يُنبئ بآلامه الداخليّة. وقد شعرت إحدى مساعداته يومًا بمعاناته الصامتة، فدعته إلى تناول مشروبٍ كفيلٍ بإراحته، فأجاب مبتسمًا: "وما الذي نستطيع إنجازه، إن تعيّن علينا التوقّف لتجرّع شرابٍ كلّما توجّعنا؟".

وكان الوجع يتغلّب عليه أحيانًا، أثناء صلاة المساء، فيهوي في منبره، ويتلاشى، ولكنّه سرعان ما ينهض ويستأنف الوعظ، باندفاعه المألوف، وكأنّه لم يعانِ أيّ وجعٍ.

غرفة نومه

غيرته الرسوليّة

كانت غيرته المضطرمة هي دافع فقره وتضحياته

فقد كان همّ خلاص النفوس يؤرّقه. فلا يني يردّد: "كم مؤسفٌ أن تهلك أبديًّا نفوسٌ كلّفت الله آلامًا جمّةً!... لا شيء يُحزن قلب يسوع مثلما يُحزنه هلاكُ العديد من النفوس التي كلّفته آلامًا جمّةً، احتمَلَها من أجل افتدائها. إنّ أجمل صلاةٍ وأوفرها جدوى هي الصلاة من أجل ارتداد الخطأة... من ينقذ نفسًا من جهنّم ينقذ معها نفسه".

وعن ثقل مهمّة خادم الرعيّة قال: "ليس، في العالم، أتعس من خادم رعيّةٍ. فهو يقضي حياته مشاهدًا حبّ الله مهانًا، واسمه القدّوس مجدَّفًا عليه، ووصاياه منتهكةً. لا يرى ولا يسمع سوى ذلك. إنّه، باستمرارٍ، مثل القدّيس بطرس في محكمة بيلاطس، يعاين ربّنا مهانًا، محتقرًا، موضع هزءٍ، مثقلاً بالخزي، ويشهد وجهه عرضةً للبصق والصفع، وجبينه مكلّلاً بالشوك، وكلّ جسده ضحيّة الضرب الموجع، يُدفع بخشونةٍ، ويُرمى أرضًا، ويُداس بالأقدام، ويُصلَب، ويُطعَن قلبه. فلو كنتُ، في البدء، علمتُ مصير خوري الرعيّة لكنتُ قصدتُ منسك رهبانٍ حبيسين، عوضًا من قصد إكليريكيّةٍ".

طهره

من أكثر فضائل خوري أرس فوحًا، طهرُه الذي صانه منذ طفولته. ومنذئذٍ حرص على النأي عن كلّ ما يُشتَمّ منه رائحةُ شهوةٍ جسديّةٍ. وحمى نفسه من كلّ ميلٍ مشوبٍ بلوثة فسقٍ، حتّى الطفوليّ البريء.

من المحقّق أنّ قلبه لم يكن مقدودًا من صخرٍ، ولم يكن جسده معجونًا بصلصالٍ مختلفٍ عن صلصال عامّة البشر، وأنّ عينيه كانتا تشاهدان فتنة المخلوقات، ولكنّ الله كان أودع في ذهنه، باكرًا، أنّ الكنـــز الحقّ هو قلبٌ طاهرٌ في جسدٍ نقيٍّ، فقرّر، في سنٍّ مبكّرةٍ، أن يحفظ قلبه، وكلّ كيانه لله وحده، وأوصده في وجه كلّ حبٍّ بشريٍّ، وقمع جسده أقسى قمعٍ لكي تظلّ نفسه طاهرةً ومقدّسةً.

ومنذ فجر حياته، كمن القدّيس في أكمام الفتى، كما يكمن العطر في أكمام براعم الورود. ومنذئذٍ كان يقدّر أسمى تقديرٍ، الفضيلة الملائكيّة، ونأى بنفسه عن كلّ ما من شأنه تلويثها وإبهات سناها. وفي سبيل صيانتها لم يضنّ بأيّة تضحيةٍ، وحمّل نفسه ما لا تطيقه الطبيعة البشريّة، لكي لا يلوّث أيُّ ميلٍ بشريٍّ النصاعة التي أضفاها العماد على نفسه. وفي هذا السبيل شنّ على ذاته صراعًا يوميًّا، بطوليًّا، قارنًا المتعة بالحَذَر، داعمًا التضحية بالصلاة.

وتجنّب، دائمًا، كلّ أُلفةٍ مفرطةٍ، واضعًا لكلّ علاقةٍ بالآخرين حدودًا لا يجوز تخطّيها، ومنفّذًا نصيحة القدّيس فرنسيس الساليزيّ: "رؤية الجميع، وتجنّب التحديق إلى أيٍّ كان". وهذا ما يفسّر شهادة سيّدةٍ صرّحت: "نظرته الأولى كانت تخترق حتّى أعماق النفس. وبعدئذٍ يشيح بنظره عنك، إذ لا همّ له سوى اقتياد نفسك إلى الله". وشهد أحد أبناء رعيّته: "كان يبدو لنا ملاكًا، في جسدٍ بشريٍّ. ومع ذلك، لم يتظاهر قطّ، ولم يتباهَ بالفضيلة، بل قرن، دائمًا، البساطة والتلقائيّة، بأسمى فضيلةٍ".

وكان يجتذبه طهر القلوب، فأظهر للأطفال رقّةً عذبةً، وتناغمًا رائعًا مع براءهم.

منعة نفسه

يقول القدّيس توما الأكوينيّ: "إنّ القوّة هي شرط كلّ فضيلةٍ". وكم من قوّةٍ لزم خوري أرس كي يمارس أسمى الفضائل، محافظًا على بساطةٍ وطبيعيّةٍ مطلقتَيْن، بمنأى عن كلّ تظاهرٍ وتصنّعٍ.

القوّة كانت فضيلته الكبرى، وقد اقترنت دائمًا بالتقوى. وقد شهد معاونه الأب "توكّانييه": "لم أشهد، قطّ، مثيلاً لطاقته، وقوّة إرادته. فلا شيء كان يهدّه: لا التناقضات، ولا الأمراض، ولا الاضطهادات، ولا التجارب. وقد أظهر باستمرارٍ قدرًا مماثلاً من الجرأة في ممارسة الفضيلة، ومن التفاني في خدمة الآخرين. هذه الفضيلة فيه كانت من البروز بحيث كانت تثير إعجاب جميع من عرفوه. كانت قوّةً هادئةً، ونظير القوّة الآتية من الله، كانت قوّةً لا تُقهَر. وكان الحجّاج، وحتّى الرهبان منهم الملتزمون بنذور أقسى الممارسات يقرّون بأنّهم يكتفون بمعجزة قوّته، تأكيدًا لقداسته".

تجلّت قوّته في حياته الخاصّة، مثلما تجلّت في حياته العامّة. وفي هذا السياق أقرّ الكونت، عمدة أرس: "لقد وجدتُه، دائمًا، متماسكًا، ودودًا، مهما كانت مواقف الآخرين منه. لم تحرّكه، يومًا، انطباعاتٌ آنيّةٌ، بل التزم، دائمًا بمبادئ راسخةٍ، ومع أنّه كان مرهف الحساسيّة، لم يسمح، قطّ، لمشاعر آنيّةٍ أن تتحكّم به، وتنقله من أقصى إلى أقصى. إرادته المنيعة الهادئة التي تدعمها نعمةٌ قديرةٌ، كانت هي المسيطرة على نفسه المحرَّرة من الأنانيّة والكبرياء. فلم ينتشِ بمديحٍ، ولم يهدّه أقذع هجاءٍ، لأنّه كان قد عثر على سرّ السلام، واستقرّ فيه.

وكم من قوّةٍ اقتضى منه إرضاء الجموع المطالبة برؤيته والتحدّث إليه، غير راضيةٍ عنه بديلاً، ومستعبدةً إيّاه لرغباتها، غير متيحةٍ له لحظة هدنةٍ. وقد دعّمت

قوّته غيرتُه الرسوليّة الخلاّقة، ومثابرتُه التي كانت تحوّل الأحلام وقائع، والمشاريع الجريئة حقائق ماثلةً. فتغلّب على كلّ ثَقبٍ، وواجه بصبرٍ كلّ مقاومةٍ وعداوةٍ.

وقد شهد الأخ جيروم: "إنّه أولى الله ثقته، فلم تقوَ المصاعب على هدّه. وبهذه الأدوات أنشأ من العَدم دار عنايةٍ حضنت حتّى ثمانين يتيمةً، وأمّن لها مستلزمات العيش والاستمرار، وسط اصطخاب الهموم المادّيّة والأدبيّة، مُصمًّا أذنيه عن نصائح الحكماء الذين حذّروه من المشاريع المتعبة، خلاّقة الهموم، وأوصوه بتجنّبها".

لا ريب أنّه، عند أقدام الهيكل، كان يستمدّ منعةً وعزاءً، وقدرةً على الصمود، وعلى تخطّي نوبات القحط النفسيّ، والمحن الداخليّة والخارجيّة. وكان عمل النعمة فيه عاملاً بلا هوادةٍ.

ومن المحقّق أنّ قوّة شكيمته لم تنــــزلق قطّ، إلى القسوة، بل انقلبت دماثةً عذبةً، لأنّها كانت نابعةً من القلب الإلهيّ الذي يقرن القوّة بالعذوبة والعطف، والتي حوّلت حساسيّته المرهفة، ومحبّته المتّقدة، تمجيدًا لله وخدمةً للنفوس.

درب الطفولة

في كنيسة أرس لوحاتٌ تخلّد مراحل من سيرة خوري أرس. إحداها تظهره خارجًا من الكنيسة، تحاصره الجموع من كلّ صوبٍ، مثلما كانت جموع فلسطين تحاصر المخلّص أينما مرّ. وفي لجّة هذا الحشد المزركش الذي يضمّ أصدقاء، وفضوليّين، وأصحاب احتياجاتٍ، يستقرّ نظر الخوري القدّيس على طفلٍ تحضنه أمّه، فيتوقّف ويرنو إليه بنظرةٍ تفيض عذوبةً، ويضع يديه على رأسه، ويغمره بعطفه. فالصغار هم أصفياؤه مثلما هم أصفياء يسوع وأثيروه. والنفس التي لم تلوّثها الخطيئة تفتن الكاهنَ ببراءتها، لأنّ الربّ يحبّها. وهو كان يكتشف النفس البريئة من صفاء نظرةٍ، ومن لعثمة شفتين.

عملاً بنصيحة الربّ، أصبح "جان ماري ڤـيانّي" واحدًا من أولئك الصغار الذين دعا الربّ إلى التمثّل بهم، فكان، مثلهم، بريئًا، متواضعًا، طاهرًا، ومتجرّدًا، منـزّه القلب من كلّ حقدٍ ومرارةٍ، وخالي السلوك من كلّ التواءٍ وازدواجيّةٍ. وكانت حقيقة نفسه تتجلّى، دائمًا، في مرآة نظره الصريح، الصافي. فإذا خطر بباله حبّ الله ضجّ فرحًا، وإذا ما جالت في خاطره الخطايا التي تهين الله، فلا يخجل من تذريف الدموع على الملأ.

بالإجمال ساق خوري أرس حياة الطفولة الروحيّة التي أبدعت في وصفها وفي ممارستها زميلته القدّيسة تيريز الطفل يسوع.

هذه الظاهرة كانت الأكثر لفتًا لانتباه من اتّصلوا به عن كثب. فقد أعلن شاعرٌ، إثر مقابلته: "يا للقداسة!... لن أنسى أبدًا هذا الرأس المكلّل منذ الآن بهالةٍ، وهذا النظر الناريّ، وهذه البساطة الطفوليّة!".

وقال البحّار المرسل "مارسو" (Marceau): "وجدتُ في خوري أرس ولدًا، بل رجلاً صار ولدًا من أجل الله. إنّه النموذج الأجمل للطفولة المسيحيّة. ولذلك الله معه".

وكم يصحّ فيه قول الشاعر العبقريّ ڤـيكتور هوغو:

"عندما يظهر الطفل تتحلّق من حوله العيلة مصفّقةً، معلنةً فرحها؛
نظره الرقيق المتألّق يجعل كلّ العيون تتألّق،
وأعتى الجباه اكفهرارًا، وربّما أقذرها تلوّثًا،
سرعان ما تشرق وتنبسط أساريرها،
عندما يطلّ الطفل، بريئًا، سعيدًا".

هكذا كانت إطلالة خوري أرس تشيع تأثيرًا عذبًا، تأثير البراءة المنـزّهة من كلّ لوثةٍ. فقد كان يشعّ فرحًا وطيبةً. هذا ما أكّده الأب "مونّان" (Monnin) الذي واكبه مدى سنواتٍ، وأقرّ: "كلّ ما فيه، حتّى صمته، كان ينفث نفحةً سماويّةً، تطرد الشرّ، وتغذّي الخير. إنّه يُشيع من حوله شعورًا بالطهر والطيبة. دموعه رقيقةٌ، والهواء المحيق به يطفح فتنةً سرّيّةً. القرب منه يذكّر بقول "فينلون" (Fènelon): "البساطة تعيد إلى الأرض أيّام الفردوس الأرضيّ الجميلة؛ فيزداد الصالحون صلاحًا، ويقترب الخطأة من الله. بسمته، بمفردها، كانت تعجّل ساعة التوبة والغفران، وتحت يديه المبسوطتين، كانت تنحني وتتجلّى أشدّ الجباه اكفهرارًا، وربّما أكثرها قذارةً".

لقد مارس، طوعًا، الطفولة الروحيّة؛ فوقاه الله من العودة إلى طفولة الشيخوخة المهينة، فاحتفظ، حتّى ساعته الأخيرة، بصفاء ذهنه، وبنضارة قلبه. وكان فرحه وعطفه يتناميان مع توغّله في شتاء الشيخوخة. ولكأنّه أُعفي من قتام تلك المرحلة من العمر وكآبتها، وعُوِّض بما يحاكي شباب الحياة الطوباويّة الأبديّة، وبنضارة الخيال والشعور التي نجت من صقيع السنّ.

ولطالما عادت به طفولة روحه إلى عهد الطفولة، وأيقظت في فؤاده طيف أُمّه، فكانت عيناه تغرورقان بالدموع، عرفانًا بجميلها، وبفضلها في غرس حبّ الله في نفسه. وكانت تلك الذكريات تؤكّد له، مجدّدًا، تأثير الأُمّهات الحاسم على مصير أبنائهنّ، فكان يعلن: "تنتقل الفضيلة من قلب الأُمّهات إلى قلب الأبناء الذين يفعلون، طوعًا، ما يرونَ أمّهاتهم تفعلنَه".

ولطالما شبّه أُمّهات الأولاد الكثيرين بالأُمّ العذراء، فهي، أيضًا، لها أولادٌ لا يُحصَوْن، وهي لا تني عاكفةً على الانتقال من أحدهم إلى الآخر.

وباستمرارٍ كان يحذّر الآباء والأُمّهات: "فليذكر أبناؤكم أفعالكم أكثر من تذكّرهم أقوالكم!".

محبّته للعذراء

جميع القدّيسين أحبّوا العذراء، ولكنّ قليلين ضاهوا خوري أرس حبًّا لها. كان معاونه قد سأله، يومًا: "منذ متى تحبّ العذراء؟" فأجاب: "أحببتُها قبل أن أعرفها. إنّها أقدم حبٍّ لي. في صغري كان لي مسبحةٌ جميلةٌ، طمعتْ بها شقيقتي، وألحّت رغبةً في امتلاكها، وأوصتني أُمّي بالتنازل عنها لأختي، حبًّا بالله، فامتثلت لطلب أُمّي، ولكنّ هذا التنازل كلّفني جمًّا من الدموع، وكان أوّل أحزاني". بيد أنّ أُمّه، لكي تنسيه هذا الحزن، أعطته تمثالاً خشبيًّا للعذراء، كان يزيّن رفّ موقد المنـــزل، وكان الصبيّ يتوقّف أمامه متأمّلاً، مسحورًا، كلّما مرّ من أمامه. ومنذئذٍ أصبح ذلك التمثال رفيقًا ملازمًا له، لا يبارحه نهارًا ولا ليلاً، ويرافقه أينما كان. وإن كان معظم البالغين يخجلون من الدمى التي أسعدت أيّام صغرهم، فجان ماري ڤـــيانّي ظلّ يفاخر بذلك التمثال الخشبيّ الصغير حتّى بعد بلوغه السبعين من سني عمره، ذاكرًا، بتأثّرٍ، كيف كان يجفوه النوم إن لم يكن ذلك التمثال إلى جانبه، في سريره. وعندما كُلِّف، صغيرًا، برعاية سائمة الأُسرة، كان يقيم لذلك التمثال هيكلاً أخضر من أغصانٍ وأزاهير، حيثما يجد كلأً للبهائم، في حين كان الثوّار دائبين على تحطيم تماثيل العذراء أينما وجدوها، زاعمين محو اسمها والقضاء على تكريمها.

تكريمه الرائع للعذراء كان فطريًّا، وتنامى وازدهر، يومًا فيومًا، حتّى ساعته الأخيرة. كانت أُمّه قد كرّسته للعذراء قبل ولادته، وكانت تسعد برؤيته، في السنّ الثالثة، راكعًا، ضامًّا يديه، يتلو "السلام" كلّما سمع جرس التبشير.

ولطالما شفع به تكريمه للعذراء، ونجّاه من مآزق، وذلّل له عقباتٍ، وحقّق له رغباتٍ مقدّسةً. فشفاعة العذراء نجّته من إبعاده عن الكهنوت، وزوّدته بالثقة والقدرة على تحويل قرية أرس حيث كانت الصلاة نادرةً، وإغراءات اللهو طاغيةً، إلى قريةٍ مكرّسةٍ لله، وللأُمّ السماويّة، باب السماء، ملاذ الخطأة، معينة المسيحيّين،

ملكة الرسل والعذارى... وشفاعة العذراء هي التي جعلت ذلك الكاهن الذي كادت تُمنع عنه السيامة الكهنوتيّة من جرّاء ضآلة علمه، مرجعًا يقصده، من كلّ صوبٍ، ألوف ناشدي الظفر برحمة الله، وبسماع تعاليم تحوّل نفوسهم، وتقودهم إلى الخلاص.

وكان، من أولى إنجازاته في أرس تأسيس أخويّة الورديّة، وبناء هيكلٍ في الكنيسة لأمّ الله، حيث كان يحرّر الخطأة من قيود خطاياهم. وفوق مدخل الكنيسة، وضع تمثالاً للعذراء، باسطةً ذراعيها، مرحّبةً بالقادمين. وفي أثناء تعليمه المسيحيّ، كان اسم العذراء هو الأكثر تردّدًا على شفتيه. وكلّما تفوّه به كانت عيناه تغرورقان بالدموع. ولطالما هتف: "صلاة السلام يا مريم لا تُمَلّ أبدًا"... إنّ قلب مريم يحتوي من الحنان لنا ما يجعل قلوب جميع الأُمّهات مجتمعةً، لا تتعدّى كونها قطعة جليدٍ، مقارنةً بقلبها... لطالما استقيتُ من هذا النبع، ولكان نضب لو لم يكن عصيًّا على النضوب"، "للابن عدله، ولكن ليس للأمّ سوى حبّها"؛ "عندما يهمّ الابن بمعاقبة خاطئ، تنبري مريم، وتوقف السيف، وتطلب الرحمة بالمذنب البائس، فيقول لها الربّ: "يا أُمّاه، لا أستطيع رفض طلبٍ منك. ولو كان بمكنة جهنّم أن تتوب، فسيكون بقدرتك أن تنالي لها الرحمة".

كم من عزاءٍ للخطأة، في هذه الأقوال!

كان بمكنة الله خلق عالَمٍ أكثر جمالاً من عالَمنا، ولكنّه لم يكن يستطيع إبداع مخلوقٍ أكثر كمالاً من مريم العذراء.

وقد بثّ خوري أرس حبّه للعذراء في قلوب أبناء رعيّته. ولحظ حجّاجٌ أنّ فلاّحي أرس اعتادوا التوقّف عن العمل، مدى لحظاتٍ، كاشفين رؤوسهم احترامًا، كلّما رنّت ساعة الكنيسة. واستوضحوهم عن سبب فعلهم هذا فأجابوا: "خورينا المحترم علّمنا أن نحيّي هكذا السيّدة العذراء".

وكان "جان ماري ڤـــيانّي"، حتّى قبل سيامته الكهنوتيّة قد اعتاد، كلّما رنّت ساعة الكنيسة، أن يتلو هذا الدعاء: "فليبارَك حَبَل الطوباويّة مريم العذراء، أُمّ الله، بلا دنسٍ! ويا مريم التي تمجّدها جميع الأُمم، فلتلتمس الأرض كلّها شفاعة قلبك الطاهر!". وظلّ دائمًا يقطع خطابه أو تعليمه، ويتلو هذا الدعاء، كلّما رنّت ساعة الكنيسة.

ومن الجليّ أنّ السيّدة العذراء، حرصًا منها على أن يواصل ابنها المخلّص إجراء خوارق روحيّةٍ بواسطة ذلك الكاهن القدّيس، قد فشّلت كلّ محاولاته الرامية إلى التخلّي عن الخدمة الراعويّة التي أرعبته مسؤوليّتها. وهذا ما يتّضح من إقرار إبليس، بأنّ السيّدة العذراء هي التي حالت دون مغادرة الأب "ڤـــيانّي" لرعيّة أرس، رغم كلّ مكائد الشرّير، وأساليب ضغطه الجهنّميّة.

وقد أكّدت أُمّ الله حرصها على بقاء الأب "ڤـــيانّي" خادمًا لرعيّة أرس، فلم تتوانَ عن زيارته بانتظامٍ، وشدّ أزره. وفي هذا السياق روت آنسةٌ كانت قد قدمت إلى دار الرعيّة حاملةً حسناتٍ كُلِّفت بإيصالها إلى الخوري، وفيما كانت تصعد الدرج المؤدّي إلى حجرته سمعت حوارًا بينه وبين سيّدةٍ، ولم يكن أحدٌ قد دخل إلى الدار في ذلك اليوم، ولا سيّما أنّ الأب "ڤـــيانّي" يرفض استقبال نساءٍ في حجرته، ولا يقابلهنّ إلاّ في الكنيسة. وكان باب غرفة الخوري مشقوقًا فألقت الآنسة نظرةً، ورأت الكاهن واقفًا، ضامًّا يديه، في وضع تضرّعٍ وانخطافٍ، أمام سيّدةٍ مرتديةٍ ثيابًا بيضاء. كان يلتمس منها ارتداد خاطئٍ. وسمعت السيّدة تقول له: "سأحصل لك على هذه النعمة". ثمّ ارتعشت الآنسة عندما طلب الكاهن من ضيفته السماويّة شفاء تلك الآنسة عينها من علّةٍ مميتةٍ، مبرّرًا ملتمسه بأنّها تسدي له عونًا في مساعيه الرسوليّة. حينئذٍ تحرّرت الآنسة العليلة من خجلها، والتمست من العذراء أن تأخذها إلى السماء، فأجابت أُمّ الله أنّ وقتها لم يحن بعدُ، وأضافت قولها: "ستكونين دائمًا ابنتي، وسأكون دائمًا أمّك". وتوارت العذراء، في حين لم يخرج الكاهن من انخطافه، ولم يعدْ إلى الأرض، إلاّ عندما

شدّته الآنسة من جبّته، لأنّها خافت أن يكون قد لقي حتفه، وصارحته: "ظننتُ أنّك مُتَّ". فأجاب: - "بل كنت غارقًا في سعادة مشاهدة أُمّي".
- "عندما ستعود، كرّسني لها".

فوعدها بذلك. وكان وعده التلقائيّ إثباتًا بأنّ زيارات أمّ الله له أمرٌ مألوفٌ، وكأنّ لا شيء استثنائيًّا قد حدث له قبل دقائق. وقد أقرّ بنفسه، يومًا: "السيّدة العذراء، والقدّيسة فيلومينا وأنا تجمعنا الأُلفة".

ولطالما ذكر، في خلال تعليمه ومواعظه، أوصافًا للسيّدة العذراء يصعب الإلمام بها على من لم يرَها، ومن لا يعرفها عن كثبٍ.

واتّفق أن أراه مثّالٌ تمثالاً للعذراء نحته وفقًا لوصف أحد رؤاها فهتف تلقائيًّا: "إنّه مطابقٌ للواقع!".

وشهد أحد أبناء رعيّة أرس أنّ الاحتشاد في الكنيسة كان يبلغ ذروته كلّما احتفل بأحد أعياد العذراء، رغبةً في الاستماع إلى أقواله عنها، فحينذاك كان محيّاه يُشرق ببسمة سعادةٍ، وكان من أعلى المنبر، يلتفت نحو تمثال العذراء، بفرح ولَدٍ يحادث أُمّه الحبيبة. وما أكثر الذين شهدوا بأنّه كان يتكلّم باندفاعٍ طاغٍ، عن قداسة مريم، وقدراتها، وحبّها الأموميّ!

وقد ذكرنا مدى الفرح الذي طغى عليه يوم احتفاله بإعلان عقيدة الحبل بلا دنسٍ، فارتدى أجمل حلّةٍ كنسيّةٍ، وضجّ حبورًا، ولم يُشاهَد، قطّ، ولدٌ أسعد منه برؤية تكريم أُمّه.

حـَديثُهُ عن القدّيسين

لطالما تحدّث خوري أرس عن القدّيسين، ورافقت الدموعُ حديثَه. ومن كان يسمع هذه الأحاديث الموشّاة بالدراما، والتفاصيل الدقيقة الشيّقة، والشعر، كان يُخيّل إليه أنّ الخوري قد عرف أولئك القدّيسين، وعاش معهم في حميميّةٍ. إيمانه الصلب لم يردعه عن رواية ما يبدو أُسطوريًّا، مردّدًا قوله: "لا تتوارى الشمس خشية إزعاج البوم". وكان مؤمنًا أنّ الله يُجري معجزاتٍ إذا طلبها أصدقاء له، طاهرو القلوب، ولا يرفض لهم ملتمسًا.

ولم يكن يتحرّج من رواية أفعال القدّيسين الخياليّة، لأنّ قلبه ظلّ طفلاً. وكان يتوخّى من تلك الروايات إثبات مفاعيل الإيمان، وطهر القلب. وكانت روايته عذبةً بقدر ما كانت مصحوبةً بدموع التأثّر، وببسمةٍ ملائكيّةٍ، وباستسلامٍ ساذجٍ لشتّى المؤثّرات. وبقدر ما كانت نفسه تزدهر في حضن الآب السماويّ، وتمتزج بأفكارٍ ساميةٍ، وبسيرةٍ موغلةٍ في التقشّف، وبتضحياتٍ شاقّةٍ، وبمساعٍ رسوليّةٍ جاهدةٍ، سعى دائمًا، إلى الحفاظ على طفولة قلبه.

ولوحظ أنّ مرحه وعطفه كانا ينموان مع تقدّمه في السنّ. فمع تفاقم آلامه وأمراضه ازدهر لديه شباب القدّيسين الدائم، ولم يعهد ركود الشيخوخة، وبهتانها، وكآبتها، وكانت حكاياه عن القدّيسين تكتسب مزيدًا من عذوبةٍ، وقدرةٍ على الإمتاع. ولا غروَ في ذلك، فالأفكار الأخيرة، في قلبٍ طافحٍ بحبّ الله، تحاكي أُخريات أشعّة الشمس، فهي أكثف لونًا، أوان غيابها.

وعظه وتأثيره

في مطلع عهده بالرعاية، كان خوري أرس يقف أيّامًا وليالي على إعداد عظة يوم الأحد، فيعكف على مطالعة كتبٍ روحيّةٍ، ويقتبس أقوال وُعّاظٍ طائري الشهرة، ويؤلّف ممّا جمعه نصًّا يقضي ساعاتٍ من لياليه على حفظه غيبًا، ولكنّه لم يكن دائمًا يجيد إلقاءه، فلا تؤتي عظاته التأثير المنشود.

ولحسن طالع رعيّته، ومسيحيّين كثُرٍ، لم تلبث أفواج الحجّاج، الذين حاصروا كرسيّ اعترافه ليلَ نهار، أن حرمته الوقت اللازم لإعداد عظاته وتعاليمه الدينيّة كما كان يعدّها، فاكتفى باختياره، كلّ يومٍ، فقرةً من الإنجيل، أو خاطرةً مستوحاةً من تعاليم يسوع والكنيسة، يُنضجها تأمّلاً خاشعًا، ويشبعها بأنوار الروح القدس، ويلقيها ارتجالاً، ساكبًا فيها كلّ ما اختمر في ذهنه وقلبه، منسابًا مع انسكاب قلبه، بائحًا بما يضجّ في حنايا صدره من حبٍّ له، وغيرةٍ على النفوس، وتحرُّقٍ لإنقاذ الخطأة.

وهو بذلك حذا حذو القدّيس فرنسيس الساليزيّ. فذلك الأسقف والخطيب المفوّه الذي كان يتدافع ملوكٌ ومثقّفون لسماع مواعظه، والتمتّع ببلاغته، قد روى أنّه كان، أحيانًا، ينسى الخطاب المنمّق الذي جهد في إعداده، ويرتجل مستسلمًا لإلهام الروح الذي يضع، حينئذٍ، على لسانه حقائق ساميةً لم تخطر له، قطّ، ببال.

وصار المستمعون إليه، من شتّى الطبقات الاجتماعيّة، يتلقّون كلامًا مختلفًا عن كلّ قولٍ بشريٍّ، ويدهشون للتأثير العصيّ على المقاومة، تأثير صوتٍ طافحٍ إحساسًا، ولسانٍ لا صلة له بالبلاغة الأدبيّة، ولكنّه يلتهب بنارٍ مقدّسةٍ تحوّل الأقوال البسيطة النابضة، تحفةً نادرةً، وموسيقى أخّاذةً. فقد كانت نفسه كلّها تتسرّب إلى نفوس الجموع، وتجعلها تؤمن، وتحبّ، وترجو مثله. وأمسى وعظه

مثالاً للبلاغة الإنجيليّة الساحرة بعمق بساطتها. فكان يعلن أسمى العقائد بأبسط العبارات، التي تنفذ إلى روع كلّ مستمعٍ.

كان يقدّر أرفع تقديرٍ بلاغة الآخرين التي افتقر هو إليها، ولم يرغب فيها لنفسه، ولم يكن يتحرّج من هفواته اللغويّة، مؤمنًا بقول القدّيس جيروم: "سلامة الأقوال اللغويّة تدغدغ الآذان فحسب، أمّا القول الزاخر بالحقيقة، وإن شابته هفواتٌ لغويّةٌ، فيشقّ طريقه إلى القلوب".

وكان لأقواله وقع السهام المنطلقة من نفسه قارنةً سموّ المعاني، وعمق التأثير، بالبسيط العامّيّ. وكان يصعب تدوينها كتابةً، مثلما يتعذّر تدوين همس النسيم ووسوسة الأمواج.

كان يعظ بكلّ كيانه، فيؤثّر بنظراته، وبصمته، وبوقع النبوّة المنبعث من أقواله. وكان ينتاب كلّ مستمعٍ إليه أنّه يتوجّه إليه شخصيًّا، دون سواه، ويسبر أعماق نفسه، ويكشف خباياه الدفينة، واضعًا يده على جراحه، ومساقط أوهانه، وهواجسه، ونداماته. أقواله كانت تخترق أقسى النفوس، وتلهب فيها نارًا تحرقها، وتطهّرها، ولا تكتفي بإقناع الفكر، بل تسيطر على النفس، وتقتادها إلى مخلّصها، لا عبر النقاش المستفيض، بل بالنفاذ المباشر إلى غايتها.

انتدبه الربّ رسولاً إلى كنيسته كي ينعش روح القداسة الذي تبخّر من نفوسٍ كثيرةٍ. ومن دواعي الدهشة أن أصغت إليه، بإعجاب، أذهانٌ طالما تغرّبت عن أجواء الروح، ومع ذلك استساغت حرارة أقوالٍ لا تدور إلاّ حول الصلبان، والمهانات، والتضحيات، والتوبة، وودّت أن تتّخذ منها نهج حياةٍ.

وكلّ من سمعه، مرّةً، متحدّثًا عن يسوع وتعاليمه، تمنّى أن يسمعه أيضًا مرارًا، فيعود إليه مصغيًا كي ينعم بالعثور على الجميل الحقيقيّ. وكلّ من يتغذّى بذلك

الطعام الروحيّ يزداد إليه جوعًا لا عهد له بشبَعٍ. وهو كان ينتقل باستمرارٍ، وبيُسرٍ، من كرسيّ الاعتراف إلى منبر الوعظ، وأيًّا كان مستمعوه، لم ينتَبْهُ، يومًا، ارتباكٌ أو حياءٌ بشريٌّ، لأنّه كان يدع الروح القدس يتكلّم بلسانه. ورغم خَفَره وتواضعه الفطريَّيْن، كان يخترق الجموع إلى موقع التعليم المسيحيّ، شامخ الرأس، وعيناه تطلقان بروقًا، واثقًا بمن يعمل فيه. ولم يكن يغيّر حرفًا من الخطاب الذي يعتمل في داخله، مهما علا شأن بعض مستمعيه. وكانت ثقته الراسخة بالربّ تعوّضه من افتقاره إلى أساليب البلاغة. وكان الاعتراف الوطيد بقداسته، الساكن في قلوب مستمعيه، يقيه من كلّ انتقادٍ باطلٍ، ولا سيّما أنّه قد حقّق، في ذاته، المُثُل العليا التي دعا إليها، وكان منــزّهًا من الخطايا والمعاصي التي ندّد بها. وكانت فضائله هي التي تنطق بالحقيقة. وكانت أمثلة تمرّسه بحبّ الله، وبالتواضع، والطيبة، والتجرّد، والفقر وتقبّله الآلام بفرحٍ، تُفرغ على أقواله وزنًا راجحًا.

جنون الصليب

من ينكرون الصليب يرون فيه حماقةً، وعارًا، وجنونًا. أمّا المسيحيّون فلا يخجلون بهذا الجنون، بل يفاخرون به، لأنّهم أدركوا عمق مغزاه، وجسامة قدراته الخلاصيّة.

وجنون الصليب أخذ بكلّ كيان خوري أرس، الذي آمن أنّ الصليب هو وسيلة القداسة الطبيعيّة، وارتضى نيره بحبٍّ، مؤمنًا أن لا خير في الألم إن لم يكن دافعه الحبّ، وأنّ الرب الذي يسعّر في الإنسان عطش الحبّ، ينمّي لديه الرغبة في الألم، ألمٍ هو اقتسامٌ لآلام المخلّص الفدائيّة، واقتفاءٌ لخطاه على درب الجلجلة، وتعاطفٌ، وتكفيرٌ، وافتداءٌ، وتسديدٌ لديون الخطأة، وعونٌ آخرين على المضيّ قدُمًا في نهج التوبة، ألمٍ وصفه بولس الرسول بأنّه "ذبيحةٌ حيّةٌ، مقدّسةٌ، مرضيّةٌ من الله". ألمٍ يتغلّب على ميول الطبيعة البشريّة، ويسمو بالنفس، ويؤلّهها، ويذوب ويكتمل في الحبّ الإلهيّ.

منذ طفولته تعلّم "جان ماري ڤـيانّي" التضحية بالذات، وسوْق عيشٍ خشنٍ، والاكتفاء بالقليل من أجل غوث الفقراء والمحتاجين. وعندما صار كاهنًا مسؤولاً عن خلاص النفوس، أدرك جدوى الألم الطوعيّ الفدائيّ في تحقيق رسالته. وكان قد قُيِّض له، في مطلع عهده بالخدمة الكهنوتيّة أن اتّخذه معاونًا له، الأب "بالّي" (Balley) الذي كان متوغّلاً في دروب التضحية، والتقشّف، وقمع الذات، بحيث هرم، ولمّا يتخطَّ الثالثة والخمسين من عمره، فكان الكاهن الجديد، الأب "ڤـيانّي"، خير تلميذٍ لذلك البطل في التضحية، فضاهاه، وربّما تقدّم عليه في هذا المضمار.

وقد شهدنا كيف كان الأب "ڤـيانّي" يحرم نفسه حتّى من مقوّمات العيش الأساسيّة، ويمعن في التقشّف، والزهد، وقمع الذات، وجلدها، وحرمانها من النوم

والراحة، إلى إن حان وقتٌ قال له الربّ ما قاله لطوباويٍّ آخر: "حتّى الآن كنت تضرب ذاتك عندما تشاء، وتتوقّف عن الضرب متى تشاء. وآن لي أن أمتحنك بوسائلي الخاصّة". فانهالت عليه المحن من كلّ صوبٍ، ومن كلّ لونٍ: حملاتٌ شيطانيّةٌ استخدمت كلّ وسائل الترويع والترهيب، وكلّ مبتدعات الإزعاج والإقلاق. وواكبت هذا الحملات وأكملتها حملات أزلام إبليس الذين حاصروه بأدهى المنغّصات، وصبّوا عليه أقذر الافتراءات والتخرّصات، والاتّهامات المشينة. فما كان من كلّ تلك الحملات التي تحمّلها بصبرٍ بطوليٍّ، إلاّ أن دفعته قدُمًا وبعمقٍ في التمثّل بآلام الفادي، ومشاركته إيّاها.

وكانت أدهى الافتراءات والاضطهادات هي تلك التي أتت من زملائه، خدّام رعايا أُخرى، واضطرّت حتّى أُسقفه إلى التحقيق بشأنها. ومع أنّ نتيجة التحقيق أبرزت نصاعته، ونزاهته من كلّ ما نُسب إليه افتئاتًا، إلاّ أنّها أحدثت في نفسه جرحًا نازفًا.

وحيال كلّ تلك الإهانات، التمس الخوري القدّيس من الربّ أن يساعده على تجرّع كأس المرارة طائعًا، فأحبّها، واستعذبها، وتبدّدت هواجسه. وهذا ما أكّده بقوله: "علينا أن نلتمس محبّة الصليب. حينئذٍ تصبح الصلبان عذبةً. هذا ما خَبَرْتُه طوال أربع أو خمس سنواتٍ، أُوسِعتُ، خلالها، افتراءاتٍ ومقاوماتٍ. وكم من صلبانٍ حملتُ، ربّما أكثر من طاقتي على الاحتمال! فالتمستُ حبّ الصليب، وسعدتُ". وكان الأسّيزي قد سمع، من الربّ، قولاً مماثلاً: "يا فرنسيس، يجب أن تزدري وتمقت كلّ ما كانت حواسّك تستهويه وتشتهيه... وحالما تنهج هذا الدرب كلّ ما كان يبدو لك، سابقًا، عذبًا ومرغوبًا، سيصبح لك مرًّا، وسيتعذّر عليك احتماله. وكلّ ما كنت حينئذٍ تمقته سيتحوّل لك عذوبةً كبرى، وفرحًا غامرًا".

من المحقّق أنّ هذا الانقلاب الجذريّ لا يتحقّق إلاّ بفضل إرادةٍ صلبةٍ، وما كان بوسع خوري أرس طلب الصلبان ما لم تحدُه إرادةٌ بطوليّةٌ.

وقد استعان على تحمّل الصلبان، باستغراقه في تأمّل آلام الربّ الخلاصيّة الذي كاد يصبح موضوع تأمّله الوحيد، المواكب لكلّ صلواته، ووسيلةً إلى اقتفاء خطى المخلّص على درب الجلجلة. بطلبه حبّ الصليب وثّق اتّحاده بالمخلّص، وفي هذا الاتّحاد عثر على سعادته، وترسّخ لديه اليقين أن لا سعادة إلاّ في عشق الصليب.

ألم يقلْ القدّيس أوغسطينُس: "من يحبّ يتحرّر من الألم، وإن ظلّ يتألّم، فهو يحبّ ألمه"؟

وبذلك تسنّم خوري أرس قمّة "جنون الصليب"، وانضمّ إلى نادي صوفيّين آخرين سبقوه أو تبعوه على هذا الدرب.

وكان قد سبق للقدّيس فرنسيس الأسّيزي أن قال: "فوق كلّ النعَم التي يغدقها الربّ على أصدقائه نعمة احتمال الشدائد، والشتائم، والمنغّصات، برضًى، حبًّا بيسوع. ذلك هو الفرح الكامل".

وصرّح الأب "أود" (Eudes)، الذي أُعلنت قداسته بالتزامن مع إعلان قداسة خوري أرس: "أُعلن على الملأ أنّني لا أبتغي، في هذا العالم، أيّ فردوسٍ سوى صليب ربّي يسوع المسيح".

وكان مؤلّف كتاب "الاقتداء بالمسيح"، قد أوصى: "أحبّوا الاستراحة في آلام ربّنا يسوع المسيح، والسكن في جراحه المقدّسة".

جميع هؤلاء انتهوا إلى اليقين بأنّ الألم المحتمل مشاركةٌ في آلام الفادي، الألم السامي المتألّه يذوب ويكتمل في الحبّ الإلهيّ. وكلّ ما نشَده خوري أرس من آلامه الطوعيّة هو الإمعان في حبّ الله.

وكان خوري أرس قد قال لإحدى التائبات: "الألم، مع الحبّ، ليس ألمًا. بل إنّ تجنّب الصليب هو المصاب الأدهى. لا سعادة حقيقيّة إلاّ في حبّ الصلبان".

ومن أقواله في هذا الشأن: "ضعوا عنبًا جيّدًا تحت المعصرة، يتدفّق منه عصيرٌ عذبٌ. هكذا نفسنا تحت معصرة الصليب تنتج عصيرًا يغذّيها ويقوّيها.

"الأشواك تقطر عطرًا، والصليب يقطر عذوبةً. ولكن ينبغي سحق الأشواك باليدين، وضمّ الصليب إلى القلب، لكي تجود بمحتواها من العصارة.

"الصلبان المتحوّلة في نيران الحبّ تحاكي حزمة أشواكٍ ترمى في نارٍ تحوّلها رمادًا. الأشواك حادّةٌ، ولكنّ الرماد ليّن الملمس".

وكان إكليريكيٌّ قد استوضح، يومًا، خوري أرس: "هل أفقدتك المِحَن، والافتراءات والاضطهادات السلام؟" فردّ، باندفاعٍ، وبنبرةٍ سماويّةٍ: "أَيُفقدنا الصليبُ السلام؟ الصليب هو الذي أعطى العالم السلام، وهو الذي يوطّده في قلوبنا. إنّما كلّ مصائبنا ناتجةٌ عن نفورنا من الصليب. وخشيتنا من الصلبان هي التي تجعلها باهظةً. فالصليب الذي يُحمَل ببساطةٍ، وبمنأًى عن حبّ الذات، ليس بصليبٍ. والألم الهادئ، المرحّب به ليس ألمًا. ولا شيء يجعلنا شبيهين بربّنا سوى حمل الصليب. ما أجمل النفس المتّحدة بربّنا يسوع المسيح، عبر حبّ الصليب، وبقوّته! أنا لستُ أفهم كيف يستطيع مسيحيٌّ ألاّ يحبّ الصليب، وأن يسعى إلى تجنّبه. ألا يعني ذلك تجنّب الذي ابتغى أن يعلَّق عليه، ويموت عليه من أجلنا؟".

وكان الأب "ڤـــيانّي"، في غمرة مِحَنه قد كلّف معاونًا له بتدبيج رسالةٍ إلى أسقفه طالبًا إعفاءه من خدمة الرعيّة ومن الافتراءات والمضايقات التي تلاحقه. ولّما جيء إليه بالرسالة كي يمهرها بتوقيعه، مزّقها قائلاً: "اليوم هو يوم جمعةٍ، النهار الذي فيه حمل ربّنا صليبه، فعليّ أن أحمل صليبي. اليوم كأس الإهانات أقلّ مرارةً".

لقد تجرّع خوري أرس كؤوس المرارة، من كلّ لونٍ وكلّ منشأٍ، وتقبّلها طواعيةً وبحبٍّ، ورحّب دائمًا بالمزيد منها، مثبتًا في كلّ المناسبات صبرًا بلا حدودٍ. وبكلّ تلك الصلبان صقل الله بهاء قداسته.

#

ذري السلام

قال يسوع لتلاميذه: "سلامي أعطيكم". وسلام يسوع ليس وهمًا، فقد تذوّقه بعمقٍ قدّيسون كثُرٌ. سلام يسوع ليس سلام العالم السطحيّ، مخيّب الآمال. وهو يفوق كلّ شعورٍ هنيئ، ويُقعد النفس في ملء الفرح، لأنّه نابعٌ من الاتّحاد الوثيق بالله.

سلام الربّ يزري بالمضايق والمعاكسات، ويبارك المِحَن، لأنّه يسود نفوسًا محرَّرةً من الحسد، والطمع، والكبرياء، والرغبات التي يتعذّر إشباعها. يقابل بالترحيب والمباركة المِحَن الآتية من الله، ويقابل مضايقات الآخرين وافتراءاتهم بالمحبّة.

سلام الربّ يُكتَسَب بانتصاراتٍ أليمةٍ ومتتاليةٍ على الذات، ولا سيّما على الطباع الحسّاسة مثل طباع الأب "ڤـيانّي"، الذي سمح الله أن تعبث به الأنواء، في ليالٍ عتماء.

وكما أنّ الصراعات الأليمة المنتصرة ترسّخ القوّة، يرسّخ السلام الفضائل. وكما أنّ لا فضيلة كاملةً في نفسٍ شابتها الخطيئة الأصليّة، كذلك ما من سلامٍ بمنجاةٍ من غيومٍ عابرةٍ، وما من نفسٍ، مهما سمت في معراج القداسة، وطالما هي ساعيةٌ إلى إرضاء الله، في منجاةٍ من القلق حول استواء سلوكها. ولكنّ هذا القلق يحاكي غمامًا تسوقه الرياح على سفوح قممٍ شامخاتٍ راسياتٍ. ولكم شهدنا ذلك الكاهن المنهمك في شؤون النفس، يتوق إلى لحظات عزلةٍ وصمتٍ، توفّر له فسحةً للاستبحار في التأمّل والصلاة.

لقد عانى خوري أرس نزاع الاتّهامات الباطلة، والافتراءات القذرة، التي أكرهت الأُسقف على التحقّق من سواء سلوكه، مثلما عانى الخوف الدائم من دينونة الله لأدائه الرسوليّ ونصاعة نفسه، لأنّه لم يكن يرى في ذاته سوى حياته البائسة، وما كان يعدّه خطايا، ما جعله يوصي تائبةً: "لا تسألي الله معرفة كلّ هوانك، واكتفي بمعرفة نصفه، فأنا لّما عرفته سحقني".

حيال الافتراءات لم يكن يعهد سلامًا، حتّى يشكر للمفترين أنّهم عرّفوه بحقيقته. وحيال الصلبان التي تنكّبها، تذوّق تعزياتٍ جلّى: فاحتفاله بالقدّاس كان انخطافًا، وإخفاق إبليس في بلبلة كيانه كان يفسح للفردوس طريقًا لاجتياح نفسه. وكانت العذراء تغدق عليه السلام، ونفسه التي ذهلت عن ذاتها، باتّحادها الوثيق بالله، تحرّرت من عبوديّات العالم، وحرّرت "جثّته" من أوهامها.

على الذين كانوا ينصحونه بالراحة كان يجيب: "سأرتاح في الفردوس". وهو كان يخشى الموت قبل إكمال بكائه كلّ نقائصه، وعندما أزف الموت، رحّب به. وشهد الكاهن الذي واكب ساعاته الأخيرة أنّه كان يتذوّق حلاوة الموت، وكان مبعث انتحابه الوحيد الانقطاع عن المناولة، بعد الموت.

كان قد أُعفي من عذاب الشكّ في قضايا الإيمان. ودخل في السلام الأبديّ مقبّلاً الصليب وقال الأُسقف في تأبينه: "نحن ما زلنا بحاجةٍ إليه، ولكنّه بحاجةٍ إلى الراحة والمكافأة التي استحقّها". وأعلنه البابا القدّيس بيوس العاشر "رفيقًا" له.

وأخيرًا "رأى" من طالما حلم برؤيته، فهتف: "إلهي أراك... أمسكك... لن تفلت منّي أبدًا".

- "تصوّروا أُمًّا مسكينةً مُكرَهةً
على إنزال شفرة المقصلة،
على عنق ابنها.
هكذا هو الله،
عندما يدينُ خاطئًا".

- "نحن مَرايا صغيرةٌ، يتأمّل فيها الله ذاتَه!
فكيفَ له أن يتعرّفَ ذاتَه
في نفسٍ مدنّسةٍ؟"

خوري أرس

الفَصْلُ السَّابِعُ

إنسانيّةٌ فوّاحةٌ

امّحاءٌ ودماثةٌ

كان عاشقًا للامّحاء، والذين عرفوه عن كثبٍ أقرّوا أنّ منظره الخارجيّ لم يكن يلفت الأنظار، فهو لم يتميّز إلاّ بخدمته الكهنوتيّة. ولطالما خيّب توقّع الحجّاج الذين كانوا يشهدونه عائدًا من الميتم حاملاً بيده وجبته من الحليب، مثل مستعطٍ نال نصيبه من الصدقات.

واتّفق أنّ سيّدةً باريسيّةً كانت قد رسمت له في مخيّلتها صورةً فائقة الروعة، ولّما رأته، أفلت منها هذا القول: "أليس سوى هذا؟". وسمعها الخوري، فأشرق وجهه ببسمةٍ عريضةٍ، وقال: "أجل لقد ذكّرتني بملكة سبأ عندما شاهدت الملك سليمان، فدهشت، لأنّ ما رأت تخطّى ما تخيّلته. أمّا أنت، فعلى نقيضه، دهشتِ لأنّك وجدتِ أقلّ كثيرًا ممّا توقّعتِ".

ولكن لم يكن هذا ردّ فعل الحجّاج القادمين لمشاهدة القدّيس، الذين لم تكن تخدعهم المظاهر، بل كان يأخذ بهم الإعجاب منذ الوهلة الأولى لدى مشاهدته، فقد كان بهاء نفسه يتجلّى على محيّاه، ويطمس كلّ مظهرٍ تتوقّف عنده العيون الحسيرة.

وكان قد اجتاز في ميدان البساطة والأصالة أشواطًا بعيدةً. فلا شيء فيه مصطنعٌ، ولا تمييز عنده بين أُسقفٍ أو حاكمٍ أو فقيرٍ، بل نظرته واحدةٌ إلى جميعهم. وقد كتب أُسقفٌ بريطانيٌّ عقب زيارته لخوري أرس، عام ١٨٥٤: "لقد استقبلنا استقبالاً فاتنًا ببساطته ومودّته، خاليًا من تبجيلٍ مفرطٍ يموّه تواضعًا زائفًا، استقبالاً مزدانًا بتهذيب القدّيس الصادق".

وجاءه، يومًا، من مرسيليا شابٌّ كريم المحتد، وعقب اعترافه لديه، استفسر الأخَ أثناس، مديرَ المدرسة، عن أُسرة الأب "ڤـيانّي"، وعن المدرسة التي تلقّى

فيها علومه، وعن المجتمع الذي يخالطه، وعن المراكز التي احتلّها قبل مجيئه إلى أرس، فأوضح له الأخ أثناس أنّ الخوري ابن فلاّحين، وأنّه لم يغشَ أيّة مدرسةٍ مشهورةٍ، ولم يتلقّ دراساتٍ عليا... وكانت الدهشة تأخذ بالشابّ لدى كلّ جوابٍ يسمعه، فاستفسره الأخ عمّا دفعه إلى طرح كلّ تلك الأسئلة، فأقرّ: "لقد أذهلتني الكياسة العذبة التي استقبلني بها. فقد حيّاني أرقّ تحيّةٍ، وأنا داخلٌ إلى السكرستيّا، وأجلسني على كرسيّ الاعتراف، وبعدئذٍ جلس هو. وعندما فرغتُ من اعترافي نهض قبلي، وفتح لي الباب، وحيّاني ثانيةً، ثمّ أدخل معترفًا آخر. وحينئذٍ أوضح الأخ للشابّ، أنّ الأب "فـــيانّي" يتصرّف على هذا النحو، حيال الجميع، بلا تمييزٍ. فقال الشابّ: "الآن أدرك: فهو قدّيسٌ يمتلك المحبّة، والمحبّة هي نبع كلّ تهذيبٍ حقيقيٍّ". ومن خصال الخوري التي اشتهر بها، رفضه الجلوس قبل إجلاس أيّ ضيفٍ يأتيه، قائلاً: "أُقدّم لك احترامي".

كان القوم يتنافسون على الوقوف قريبين منه للتمتّع بنظرته المفعمة مودّةً، وللاستماع إلى دعوته الرقيقة إلى التقوى ومحبّة الله. وكانوا يترصّدون مروره، كي ينعموا بتحيّته المنعشة. وكانوا يأتون بأبنائهم وبناتهم، فيلاطف الصبيان، ويجود على الفتيات ببسمةٍ تفرح قلوبهنّ.

كان من أكثر بني البشر وداعةً ورقّةً، ولكنّه حرصًا على ألاّ تتحوّل رقّته إلى ضَعْفٍ، لم يسمح لأحدٍ أن يستأثر به أكثر ممّا تتيح له واجباته. وكان يفسح للفقير والمفجوع كلّ الوقت اللازم للغوث والمواساة، وبلسمة الجراح. ولكنّه كان يقتصر على تحيّة الذين لا يبتغون سوى التباهي بمقابلته، ثمّ يجري إلى حيث تدعوه المحبّة. ولطالما خيّب ضيوفًا مرموقين قدموا إليه على متن عرباتٍ فارهةٍ، فاستقبلهم برقّةٍ ساحرةٍ ملأتهم سعادةً وزهوًا، ولكنّه غادرهم بعد دقائق معدوداتٍ.

وقد حاولت، يومًا، سيّدةٌ مزدهيةٌ بألقابها وأوسمتها وشهرتها تخطّي دور المنتظرين، واحتلال كرسيّ الاعتراف قبل الآخرين، ولمّا دعاها المسؤولون عن

النظام إلى انتظار دورها أُسوةً بالآخرين، رفعت عقيرتها معترضةً: "أنا لا أنتظر في أيّ مكانٍ، ولا أقف في الطابور حتّى في الـــڤـــاتيكان". حينئذٍ خرج الخوري القدّيس، وخاطبها: "ولكن في محكمة خوري أرس، لا مفرّ لك من الانتظار".

وكان يمتلك طيبة قلبٍ فطريّةً. فكانت تغرورق عيناه بالدموع لمجرّد رؤيته مريضًا، أو أيتامًا فقراء، أو أُمًّا ثكلى، أو أرملةً مفجوعةً. ولم يكن يخجل بدموعه ولا يسعى إلى إخفائها. ولكنّ تأثّره المرهف لم يكن مَرَضيًّا، وكان دائمًا يُحكم سيطرته على ذاته. وإن كان آخرون ممّن يعانون مثل ما كان يعاني من إرهاقٍ، ومحاصرةٍ مستمرّةٍ، ينـــزعون تلقائيًّا إلى ردود فعلٍ عصبيّةٍ. إلاّ أنّه احتفظ، هو، دائمًا، بطبعٍ متوازنٍ، وكانت الفضائل التي تمكّن منها تُزوّده، في كلّ لحظةٍ، وفي كلّ سانحةٍ بالاعتدال الساجي، فلم يقْوَ أدهى إزعاجٍ على دفعه إلى الغضب، ولم تفلحْ أيّة مؤامرةٍ في إخراجه عن السيطرة على ذاته، وعن صموده، وتشبّثه بمبادئ المحبّة، ولم يُظهر، يومًا سوى المحبّة، والغفران، والشكر، والصبر الشجاع.

وكان يجتذبه طهر القلوب، فأظهر، دائمًا، رقّةً عذبةً للأطفال ولبراءتهم، فكان يتوقّف في الطريق كيّ يحيّي من يلتقيهم من الصغار بكلمةٍ طيّبةٍ، ويحطّ عليهم نظرةً تقطر عذوبةً. وكان منظر أيتام دار العناية وهم يلعبون أثناء فترات الاستراحة مبعث أعمق سعادةٍ له.

وإن تجرّأ أحدهم فعبث بشعره، كان يكتفي بقوله له، باسمًا: "من الأفضل أن تحبّ الله".

وقد جاءه، يومًا، من مدينة ليون، صبيٌّ في الحادية عشرة، راغبًا في استطلاع دعوته، واندسّ بين جمعٍ من الكهنة والعلمانيّين المنتظرين فراغ الخوري القدّيس من خلع ثيابه الكنسيّة، بعد القدّاس. والتفت الأب "ڤـــيانّي"، ووقع نظره عليه، أوّلاً، فاستدعاه من وسط الحشد، واستوضحه عمّا يبتغي، فبدأ الصبيّ بالقول:

– "أودّ، يا أبتِ، أن أعلم...

فقاطعه القدّيس مطمئنًّا، وقال بلا تردّدٍ:

– "ستكون كاهنًا جيّدًا.

وكان يرافق ذلك الصبيّ أخوه الصغير الذي لم يتخطّ السادسة، وكان قد أُعطي، حديثًا، كتاب تعليم القراءة، فوجده مليئًا بالأسرار والمعميّات، ولم يُطِقْه، ولمّا سمع ما حصل لأخيه، أصرّ على استطلاع رأي الخوري، فجاءت به أُمّه في الغد إلى فناء الكنيسة حيث كان يتجمّع الراغبون في رؤية القدّيس، ونيل بركته، واستشارته. وعند الظهر، إذ كان الكاهن قادمًا من الكنيسة إلى حجرته، مارًّا وسط الجمع، وقع نظره على ذلك الطفل الراغب في التحدّث إليه، فتوقّف أمامه، وبادر الطفل بسؤاله: "يا حضرة الأب، هل عليّ أن أدرس أم أن ألعب؟". وجاءه الجواب:

– "إلعب، يا بنيّ، فعمرك هو عمر اللعب". واستطار الفرحُ الطفلَ، وركض كي يزفّ البشرى لوالدته.

وكان خادم الله شديد التقدير للصداقة، ويستجيب لها باندفاعٍ، لأنّه راسخ اليقين بأنّ الصداقة توسّع القلب، وتذيب قسوته، ولطالما أكّد: "كان للقدّيسين قلبٌ مائعٌ. فالقلب الطاهر لا يستطيع الإحجام عن الحبّ، لأنّه يكون قد اكتشف الله، منبع الحبّ". وسبق لنا ذكر الصداقة التي ربطته بمعاونه الأب "توكّانييه"، وكيف اضطرّ هذا الأخير إلى الغياب ثلاثة أسابيع في قريته حيث نشبت آفة الكوليرا، فقصدها من أجل تقديم كلّ ما يسعه من عونٍ لمواطنيه. ولمّا عاد، كان توّاقًا إلى رؤية الخوري القدّيس، فجاءه إلى كرسيّ الاعتراف حيث كان قد حبس نفسه منذ منتصف الليل. ونهض الأب "ڤـيانّي" وعانقه بحرارةٍ، قائلاً: "أحمد الله على عودتك، يا صديقي العزيز. كم طال عليّ غيابك الذي جعلني أدرك مدى بؤس المدانين، في جهنّم، وكم يشقّ عليهم بُعدُهم الأبديّ عن الله. فهنا، على الأرض، يؤلمنا أشدّ ألمٍ، بعاد من نحبّهم عنّا".

وكان عرفان الجميل من أجمل خصاله. فكان يتحدّث بنبرةٍ تفيض تأثّرًا عمّن

قدّموا له عونًا، أمثال والدته، والأب "بالّي" الذي ساعده في دروسه اللاهوتيّة، ومكّنه من الوصول إلى الكهنوت، واختاره معاونًا له في خدمة رعيّته، وكان يجهش بالبكاء كلّما ذكره. وكان يذكر بتأثّرٍ "آنسة أرس"، وجميع أفراد أُسرهما الذين أعانوه في رسالته الكهنوتيّة. وكان يستهلّ رسائله إلى الكونت العمدة بعبارة: "يا محسني جزيل الاحترام...". ولم ينسَ، قطّ، العيلة التي أوَتْه وساعدته أثناء فراره القسريّ من الخدمة العسكريّة، ومانفكّ يعبّر لهم عن شكره في كلّ مناسبةٍ. ولمّا تولّى إخوة العيلة المقدّسة إدارة مدرسة أرس، عوضًا من المعلّم الذي كان قد أسند إليه هذه المهمّة، حرص على تأمين وظيفةٍ لائقةٍ لذلك المعلّم، مثلما حرص على بناء دارٍ للإخوة المرسلين تسهيلاً لرسالتهم في أرس.

وكان يقدّر، أعظم تقديرٍ، كلّ ما يُهداه، ولو كان صورةً أو إيقونةً صغيرةً.

ولطالما أشاد عارفوه بقدرته على بثّ العزاء. ولا غرابة إن لجأت إليه كلّ ألوان البؤس التماسًا للعزاء: والِدون مفجوعون، أُمّهاتٌ قلقاتٌ على مصير أبناء ضالّين، جرحى نفوسٍ وأجسادٍ، ضحايا ظلم الحياة، قلوبٌ محطّمةٌ، قانطةٌ، يائسةٌ. فكان الخوري ينسى همومه وآلامه الطاحنة، ويلتفت إلى مآسي جميع هؤلاء وهواجسهم، ويصغي إلى شكاواهم وبوحهم، رافعًا صوب السماء يديه المعروقتيْن، المرتجفتين، ويبلسم الجراح برقّةٍ كهنوتيّةٍ، ويكفكف الدموع. وكان معظم اللائذين به يغادرونه أكثر تسليمًا، وسكونًا، وتأهّبًا لمواجهة الواجب والمحنة، والمستقبل، ومزوّدين بأفكارٍ طافحةٍ سموًّا، وبعزيمةٍ صامدةٍ على مواجهة معارك الحياة. وقد اعترف كاهنٌ: "لم أُغادره قطّ إلاّ وقلبي طافحٌ بالعزاء. ولا عجب إن لُقِّب "معزّي المفجوعين" و"صانع سعادةٍ إنسانيّةٍ إلهيّةٍ مدهشًا".

لقد أمعن في القسوة على ذاته، ورسم على "جثّته" آثارًا مريعةً للتوبة والتكفير، ولكنّه مع الآخرين كان ودودًا، بشوشًا، يتلفّظ بعباراتٍ رقيقةٍ، فاتنةٍ، ويردّ بأجوبةٍ تطفح ذكاءً. ومثلما كانت شفتاه تشيعان فتنةً آسرةً، كانت الحقيقة والمواساة تنطلق منهما.

لم يكن يضحك، ولكنّ شفتيه كانتا دائمًا مزدانتين بابتسامةٍ نابعةٍ من سكون نفسه وصفائها، داعيتين إلى الفرح، وموحيتين بالثقة. وكان روح الله الذي يسكنه يضفي على كلّ أقواله سدادًا، وبساطةً، وجدوى مدهشةً.

عملاً بنصيحة القدّيس بولس، كان ينأى عن الأحاديث العالميّة الباطلة، والمماحكات الفارغة التي لا تفضي إلى البناء الروحيّ. وإذا دار حديثٌ من هذا النوع بحضوره، كان يلزم الصمت والحياد. وإذا طُلب منه إبداء الرأي، كان يتفوّه بأقوال مودّةٍ ومصالحةٍ، أو بمبادئ كبرى لا مجال لمناقشتها، تُحِلّ السلام، وتُقصي الخلاف، وتفرض التوافق.

نفسه تطوف، دائمًا، مثل ملاكٍ، فوق اصطراع الأهواء، والمصالح الدنيئة، وتنظر إلى كلّ أمرٍ بمنظار القدّيسين، حيث الضياء صافٍ لا غيم يشوبه، ولا رائد له سوى الضمير المستقيم، ولا شيء يفتنه إلاّ ما يتحدّث عن الله. فذلك الإنسان الذي كانت سكّة الحديد تأتيه، كلّ يومٍ، بمئات الحجّاج، لم يشهد، يومًا، قطارًا، ولا رغب في رؤيته.

وبالمقابل كان كلّ ما يسهم في نشر وترسيخ ملكوت الله على الأرض، وفي إنقاذ النفوس، محطّ عنايته، ومبعث فرحه وعزائه، وخفقان قلبه. غير أنّه، حتّى في تحدّثه عن هذه الشؤون الإلهيّة، وعن القدّيسين، كان يحتفظ ببساطةٍ ملائكيّةٍ.

وكان يمتلك سرّ الكلمة الشافية. وما كان يعجز آخرون عن فعله بخطاباتهم المستفيضة كان يحقّقه هو بكلمةٍ واحدةٍ تنفذ إلى الأعماق، مع أنّه لم يكن يوحي إلاّ بخواطر إيمانيّةٍ، ويسعى دائمًا إلى الارتقاء بالنفوس إلى ما يفوقها، مردّدًا أقوالاً مثل: "فلتكن مشيئة الله"، "فلنقبل ما يريده الله"، يجب أن نرضى بما يرسله لنا الله". والرازحون تحت عبء مِحَنهم كان ينصحهم بسبر عمق معاناة ربّنا يسوع، فيُقبلون على حمل صلبانهم بتسليمٍ ورضًى. وللمؤمنين المبتلين بأمراضٍ لا شفاء منها، كان يؤكّد أنّ علّتهم هي سلّمٌ يتسلّقون إلى السماء.

فقد جاءته، يومًا، سيّدةٌ قريبةٌ له، ملتمسةً صلواته من أجل حفيدتها الصغيرة المصابة بعلّةٍ خطيرةٍ، فقال لها: "هذه الفتاة ثمرةٌ ناضجةٌ للسماء، أمّا أنت فتحتاجين إلى صليبٍ يجعلك تفكّرين بالله".

وكان لامرأةٍ ملتزمةٍ بإيمانها المسيحيّ زوجٌ مغرقٌ في الإلحاد، واعتلّ فنصحته باللجوء إلى خوري أرس، وللوهلة الأولى استكبر الزوج المزدهي برفعة أفكاره أن يولي كاهن رعيّةٍ هذا الشرف. غير أنّ رغبته في استعادة العافية حملته على تلبية رغبة زوجته، بعد لأيٍ؛ وصارع نفسه صراعًا طويلاً وشاقًّا قبل اجتياز عتبة كنيسة أرس، في الوقت الذي كان فيه الخوري القدّيس يلقي دروسه الدينيّة، وحدّق إليه الكاهن بنظرةٍ ثاقبةٍ هزّت كلّ كيانه، وفي الحال غادر الكنيسة عاقدًا العزم على العودة من حيث جاء، بلا تلكّؤٍ، والامتناع عن اجتياز عتبة كنيسةٍ، في أيّ ظرفٍ. وحزنت الزوجة حزنًا عميقًا، غير أنّها ظلّت تجاهد حتّى وصلت إلى الكاهن، والتمست معونته من أجل شفاء زوجها. ولكنّه بيّن لها أنّ العلّة الجسديّة ليست هي الأدهى خطرًا، بل ينبغي بالأحرى شفاء النفس، وأكّد لها: "لقد باشرتِ مبادرةً مازلتِ في مستهلّها". وغادرت السيّدة أرس بنفسٍ تموج إعجابًا وقوّةً، وحاملةً أملاً ثابتًا لا يتزعزع، وبعد مضيّ أربع سنواتٍ انتقل الزوج الملحد إلى جوار ربّه بمشاعر إيمانٍ رائعةٍ.

وكانت فتاةٌ فقيرةٌ قد فقدت البصر، فقصدت أرس بصحبة أمّها. وفي أثناء الطريق كانتا تستعطيان الطعام، وترقدان في الإسطبلات. وسَبَر الخوري القدّيس، بنظرته الثاقبة، أعماق الفتاة المسكينة، وصارحها: "من الممكن أن تستعيدي بصرك، ولكن، في هذه الحال، لن يكون خلاص نفسك مضمونًا. ولكن إذا تقبّلت عاقتك، فستنتهين إلى السماء حيث أضمن لك مكانًا مرموقًا". وعزفت الفتاة عن التماس الشفاء، وعادت إلى بيتها يحدوها تسليمٌ راضٍ بمشيئة الله.

واعترفت أُمٌّ كانت قد فقدت اثنين من أبنائها، بعد أن تلقّت مواساته لها: "عندما يخرج المرء من لقائه، يشعر أنّه وُلد من جديدٍ، ويضحي قادرًا على التسليم وحمل الصليب".

وبما أنّ جميع المفجوعين لم يتيسّر لهم المجيء إليه، فكانوا يكتبون له، أو يستكتبون من يجيدون الكتابة، ملتمسين نصحًا وصلاةً، أو مفضين بنجاوى وجيعةٍ، أو مطلقين صرخات استغاثةٍ. وكان انشغاله بالاعترافات لا يدع له هدنةً تتيح له الردّ بنفسه على تلك الرسائل، فأوكل هذه المهمّة إلى معاونيه المتعاقبين، الذين كان يوحي لهم بفكرة الردّ، ثمّ يوقّعه بيده.

وكان يتلقّى سيلاً من رسائل ممّن أيقنوا بقدرته على قراءة كوامن القلوب، فأطلعوه، بلا خجلٍ على تجاربهم ومِحَنهم الداخليّة. من هذه الرسائل لم يبقَ سوى النـــزر اليسير، ولا سيّما أنّ الكاهن القدّيس كان يسارع إلى إتلاف ما كان مسرفًا في امتداحه وتبجيله.

وكانت ترد إليه رسائل من كهنةٍ يلتمسون أدعيته من أجل منع مخازٍ، وأعمالٍ شائنةٍ في رعاياهم، وممّن يخوضون صراعًا داخليًّا بشأن دعواتٍ كهنوتيّةٍ أو رهبانيّةٍ، والعديد من هذه الرسائل كانت تصل إليه مبلّلةً بالدموع، زاخرةً بالهواجس. وكان آباءٌ يتوسّلون إليه أن يثني بناتهم عن الانخراط في نظامٍ رهبانيٍّ شديد القسوة، قد لا يطقنَه، وتوجيههنّ بالأحرى إلى أنظمةٍ أقلّ قسوةً. وكانت أمّهاتٌ تلتمسنَ منه المساعدة على شفاء أبناء يعانون أمراضًا مضنيةً، أو تلتمسنَ صلواته لعلّهنّ تصبرنَ على مواكبة فلذات أكبادهنّ وتعزيتهم. وكان الخوري القدّيس يحمل، يوميًّا، إلى الهيكل، باقةً من هذه التوسّلات. ويرويها بدموعه. ولطالما أنبتت دموعه ثمارًا يانعةً.

ولا ريب أنّ ما يَسَّرَ للأب "فــيانّي" كشف خفايا النفوس، وبثّ العزاء في القلوب المضطرمة، موهبة الحدْس والتنبّؤ التي كرّمه الله بها، وما أكثر الدلائل عليها!

دهاليز إلى القلوب

ومع كلّ ما تحلّت به صداقته من بهجةٍ وصراحةٍ، كان خَفَرٌ مقدّسٌ يسود علاقاته بالمحيطين به، والقائمين على خدمته ومساعدته. وكان هؤلاء يتعاملون معه باحترامٍ جمٍّ، ويداخلهم شعورٌ منعشٌ بأنّ كلّ ما يقدّمونه له من مساعدةٍ وخدمةٍ يسهم في تمجيد الله. وكان هو يستمع منهم إلى كلّ نبأٍ يتعلّق بفرنسا وبالكنيسة، أمّا شؤون السياسة فما كان يستوقفه منها سوى ما له بالدين صلةٌ. وقد شهد معرّفه: "كان يتذوّق متعة التحدّث في الأمور الروحيّة. وإذا أكرهه التهذيب على سماع أحاديث تتناول أُمورًا دنيويّةً، فكان يتّضح أنّه لا يوليها من الاهتمام إلاّ ما تفرضه مبادئ الأدب الاجتماعيّ... لقد كنت شاهدًا على السعادة التي تغمره كلّما زُفّت إليه بشرى تتعلّق بالكنيسة، وخلاص النفوس، مثل نجاح رياضةٍ روحيّةٍ. وبالمقابل كان يرين عليه الحزن كلّما تنامى إليه خبر فضيحةٍ أو عملٍ شائنٍ...".

وشهد الكونت، عمدة أرس: "كان قلبه طافحًا بحبّ الله، وكانت كلّ أحاديثه تتناول هذا الحبّ، وتتغنّى به. ولطالما قطع أحاديثه، وضمّ يديه، ورفع عينيه صوب السماء هاتفًا: "ما أعظم عطفك يا الله!". واتّفق أن قال له معاونه الأب "توكّانييه"، مرّةً: "إنّ الطقس سيّئٌ اليوم". فأجابه: "الطقس جميلٌ دائمًا للأبرار، وهو سيّئٌ فقط للخطأة البائسين".

وكان بريئًا، براءةً تلامس السذاجة. ولكنّه كان ثاقب النظرة، يكشف النوايا السيّئة، ولكنّه يتجاهلها بدافع المحبّة. وكان يغلّف ملاحظاته الناقدة بكثيرٍ من الرقّة والفكاهة. ومن أجوبته المأثورة أنّ سيّدةً طلبت منه ذخائر قدّيسين، فأجابها، بلهجةٍ مرحةٍ: "ولِمَ لا تصنعين، أنتِ، من ذاتك ذخائر؟"، داعيًا إيّاها إلى انتهاج دروب القداسة.

وقالت له، يومًا، راهبةٌ ساذجةٌ، وبلهجة استنكارٍ: "يظنّ الناس أنّك جاهلٌ".

فأجابها: "ليسوا مخطئين. ولكنّي لا أهتمّ لذلك. وبوسعي أن أقول لك، عن جهلي، أكثر ممّا تستطيعين أنت قوله".

وذات يومٍ مازحه كاهن رعيّةٍ كان مفرط البدانة، قائلاً: "إنّي أعتمد عليك للصعود إلى السماء، فعندما ستذهب إليها سأتعلّق بثوبك". فابتسم الخوري القدّيس بسمةً زاخرةً بمكرٍ عذبٍ وقال له: "ولكن احذر يا صديقي، فمدخل السماء ضيّقٌ، وقد نتعرّض للبقاء، كلانا، عند الباب". وسألته فتاةٌ بدينةٌ: "يا أبتاه، ما العمل كي ندخل الفردوس؟". فأجاب: "ثلاثة أصوامٍ كبرى، يا ابنتي".

وكان قادمًا، يومًا، من زيارة مريضٍ، فهطل المطر بغتةً، ولمحه أخٌ، فجرى نحوه حاملاً مظلّةً، معربًا عن خشيته من تبلّل رجل الله، الذي أخذ المظلّة باسمًا، شاكرًا، وقائلاً: "لا تخشَ عليّ، فلست مصنوعًا من سكّرٍ".

غير أنّه، مع فرحه وفكاهته، تحاشى دائمًا عن الأجوبة الجارحة، وتجنّب التلفّظ بأيّة عبارةٍ قد يندم عليها. وإن أفلت منه قولٌ ينطوي على ظلّ إساءةٍ للآخرين، فكان يعلن اعتذاره، وكأنّه ارتكب خطيئةً مميتةً.

وكان شيّق الحديث، يزركشه ويرصّعه بالطُرَف المستملحة كما يتّضح من الطرف التالية:

– وافى أرس واعظٌ شهيرٌ، وكانت تلك هي زيارته الأولى إلى تلك الرعيّة، فطلب منه الخوري أن يحلّ محلّه في التعليم المسيحيّ، ذلك اليوم. ولكنّ الضيف آثر الإدلاء ببضعة أقوالٍ عقب فراغ خوري أرس من تعليمه. وقدّم الأب "فـيانّي" تعليمه كالمعتاد، وختمه قائلاً: "تمنّى قدّيسٌ سماع إنشاد السيّدة العذراء، وبما أنّه يطيب لله الاستجابة لرغبات أصدقائه، أراه سيّدةً رائعة الجمال تنشد، بصوتٍ لم يسمع، قطّ، مثل عذوبته، وبلغت به النشوة أن هتف: "كفى! كفى! فإذا استمررتِ في الإنشاد سأموت طربًا!". وحينئذٍ قالت له السيّدة: "لا تتعجّل، فما سمعته ليس بشيءٍ مقارنًا بما ستسمعه، فأنا لست سوى كاترين العذراء. والآن

ستستمع السيّدة العذراء". وأنشدت أمّ الله، فكان إنشادها من الروعة ما أصاب القدّيس بالدوار، وقضى نحبه من شدّة العذوبة، والغرق في أريج الحبّ".

وإثر فراغه من هذه الرواية قال الأب "ڤـيانّي" لمستمعيه: "هكذا سيكون الأمر اليوم، فقد استمعتم إلى القدّيسة كاترين، والآن ستسمعون إلى السيّدة العذراء". ودعا ضيفه إلى الكلام.

– شكا له الأخ أثناس أنّ الحصان الذي كان يجرّ عربته تعثّر، وألقاه في حفرةٍ. فعبّر له الخوري القدّيس عن تعاطفه، ولكنّه، بغية إشاعة جوّ انشراحٍ، قال له: "يا صديقي إنّ القدّيس أنطوان لم يقع، قطّ، من عربته". فسأله الأخ: "وماذا كان القدّيس أنطوان يفعل لتفادي الوقوع؟" فأجابه: "كان يسافر دائمًا سيرًا على الأقدام".

– في يومٍ قائظٍ كان مكشوف الرأس، فقدّم له كاهنٌ زميلٌ قبّعته، فقال له: "إنّ رأسي يحتاج إلى علمك وفضائلك، أكثر من احتياجه إلى قبّعتك".

– سأله كاهنٌ لعازريٌّ هل بوسع زميلٍ له أُصيب بالشلل أن يستمرّ في الوعظ، فأجابه بالإيجاب موضحًا: "وعظ القدّيسين يتمّ بقدوتهم ومثالهم".

– قال شاكرًا رفاقًا أسدوا له خدماتٍ في أداء رسالته: "إنّ الله يطعمني خبزًا أبيض في أيّامي الأخيرة، فهو يعلم أنّ المسنّين يحتاجون إلى لبّ الخبز الطريّ. وهو يعاملني مثل معاملة ربّنا لعرسان قانا، ويقدّم لي أخيرًا الخمرة الطيّبة".

– نُقِل إليه قول رجلٍ باريسيٍّ: "الأخت روزالي هي أُمّي، وخوري أرس هو أبي"، فتنهّد وقال: "يا له من يتيمٍ مسكين! فليس بقدرة أبٍ أن يعوّض عن الأُمّ".

– سُئل، يومًا: "كيف ينبغي أن نمضي إلى الله؟" فأجاب: "مثل قذيفة مدفعٍ".

وقد كلّل تلك الخصال بأروعها، أي بالتواضع الذي صبغ كلّ سلوكه، وحاك نسيج سيرته. وبفضل تواضعه تمرّس بالحكمة، والواقعيّة، والتوازن النفسيّ.

واتّفق أن تلقّى، يومًا، رسالةً طافحةً بالمديح والتقريظ. وفي اليوم التالي تلقّى رسالةً

أُخرى زاخرةً بالشتائم والافتراءات. ومن ذلك استخلص واجب عدم الاكتراث بأحكام العالم. فلا كان للشتيمة قدرةٌ على هدّه، ولا كان المديح يسرّب النشوة والغرور إلى نفسه. بل استقرّ في خلده أنّ السائر في نور الله لا تنتقص الشتيمة من قدره شيئًا، ولا يضيف إليه المديح شيئًا. وما قيمة الإنسان إلاّ ما يقيّمه الله.

وهو قد أقرّ: "اختارني الله أداةً للنعَم التي يفيضها على الخطأة، لأنّني أكثر الكهنة جهلاً وبؤسًا. ولو وُجد في الأبرشيّة من هو أشدّ منّي جهلاً وحقارةً، لكان فضّله عليّ". ولكأنّ الله لم يجد أسحق منه تواضعًا، فأظهر، من خلاله عظمة رحمته حيال الخطأة البائسين. أمّا هو فلبث صغيرًا في نظر ذاته، شاعرًا بعدم أهليّته، متلاشيًا في نظر الربّ، فأفاض عليه الله علم القدّيسين، وحقّق بواسطته خوارق أمسكها عن العلماء والعباقرة، وأرباب الفصاحة.

ولم يكن يتحرّج من إعلان حاجته إلى عون الآخرين، ولطالما قال لمعاونيه: "عندما تكونون بجانبي تسير كلّ الأمور سيرًا حسنًا. ولكن عندما أكون بمفردي لا أساوي شيئًا، بل أكون مثل أصفارٍ لا قيمة لها إلاّ إذا وضعت بجانب أرقامٍ أُخرى. فأنا عجوزٌ جاهلٌ، ولا أصلح لشيءٍ".

وكان يصف كلّ شيءٍ يخصّه بالفقر والمسكنة، فنفسه مسكينةٌ، وبؤسه مسكينٌ، وخطاياه مسكينةٌ، وحياته مسكينةٌ. وكان شعوره هذا بضآلة حاله يستدرّ دموعه إشفاقًا على وهنه وجهله، وحزنًا بسببهما. وكان لا يني يُنحي على ذاته باللوم، فيُخيَّل إلى مستمعيه أنّه بدّد حياته في اقتراف الشرور، وأنّه أحقر الخطأة وأتعسهم، ولطالما ردّد قول: "ما أعظم عطف الله الذي يتحمّل مساوئي الجسيمة، فهو في رحمته الكبرى، لم يهبني ما أتّكئ عليه، لا علمًا، ولا قوّةً، ولا فضيلةً. وعندما أتبيّن ذاتي لا أعثر فيها إلاّ على خطاياي. ولكنّ الله شاء ألاّ أعرف ذاتي معرفةً كاملةً، لكيلا أهوي إلى اليأس، ولست أملك لمقاومة تجربة القنوط سوى الارتماء عند أقدام مخبأ القربان، ارتماءَ كلبٍ صغيرٍ عند أقدام سيّده".

"مهما تنقّلتَ من عالَمٍ إلى عالَمٍ،
ومن مملكةٍ إلى مملكةٍ،
ومن ثروةٍ إلى ثروةٍ، ومن لذّةٍ إلى لذّةٍ،
لن تعثرَ على سعادتِكَ،
فليسَ بوسعِ الأرضِ كلّها،
إرضاء نفسٍ خالدةٍ،
مثلما تعجزُ قبضةُ طحينٍ
على إشباعِ جائعٍ."

خوري أرس

الفصل الثامن

خـوارق

حدسٌ وتنبّؤٌ

في يوم ٣ أيلول ١٨٥٦ قدم إلى قرية أرس، من مدينةٍ فرنسيّةٍ، رجلٌ فرنسيٌّ وجيهٌ مستصحبًا خادمةً له مبتلاةً بالصمم. وكان الرجل، على غرار معظم أبناء جيله، ملحدًا، ولكنّه كان قد سمع الكثير عن المعجزات التي تتحقّق بواسطة خوري أرس. وبما أنّه كان راغبًا في التحدّث إلى ذلك الكاهن على انفرادٍ، أمر خادمته بانتظاره عند عتبة الكنيسة، وجاهد في اختراق الجموع إلى أن بلغ السكرستيّا حيث كان الخوري يعرّف الرجال، وبادر باستفساره: "هل بوسعك أن تشفي خادمتي؟" وردّ الكاهن في الحال: "تقصد "ماري"؟" وكان هذا هو اسم الخادمة الذي لم يُذكَر، قطّ، أمام خادم الله. عقب برهة دهشةٍ وتردّدٍ، استعاد الرجل عنفوان تشكّكه الراسخ، وأجال في خاطره أنّ تخمين الكاهن لاسم الفتاة قد يكون مجرّد صدفةٍ، ولا سيّما أنّ هذا الاسم واسع الشيوع، واحتمال حزره وافرٌ. فاستأنف قائلاً: "نعم "ماري"، وها هي تنتظر عند عتبة الكنيسة". وفاجأه الكاهن بمخالفته قائلاً: "أنا أراها الآن راكعةً تصلّي قرب الهيكل". وخُيّل للرجل أنّه أخذ على رجل الله خطأً فاضحًا، فقال بنبرة المنتصر: "عفوك، يا أبتِ، بل هي واقفة عند عتبة الكنيسة"، وردّ الكاهن بهدوءٍ وثقةٍ: "وأنا أراها راكعةً تصلّي أمام الهيكل!". وهرع الرجل، عائدًا إلى الكنيسة آملاً العودة بالدليل الذي يسفّه الكاهن ويؤكّد بطلان شهرته، وفراغ ادّعائه، ويدمّر أسطورته تدميرًا لا قيامة منه، ولكنّه لم يجد "ماري" حيث أمرها بالوقوف، وظنّ أنّها ملّت الانتظار فخرجت واندسّت بين جموع الحجّاج، وعبثًا بحث عنها، وسطهم، متنقّلاً بين حلقاتهم وحشودهم، ولمّا لم يتوفّق للعثور على ضالّته عاد يبحث عنها داخل الكنيسة. وبعد لأيٍ وجدها أمام الهيكل راكعةً تصلّي، مؤكّدةً صواب رؤية الخوري القدّيس. وتثبّت أنّه كان من المستحيل على الكاهن أن يشهدها بعينيه، حيث كانت، ومن

حيث هو كان. وبلغ به الذهول أن سارع إلى معاون الخوري، الأب "توكّانييه"، وروى له سبب ذهوله، فأكبّ الأب المذكور، في الحال، على تدوين محضرٍ بالحادثة، ودعا الرجل إلى توقيعه، فلم يمانع لأنّ ما تضمّنه المحضر لم يكن سوى الحقيقة الصافية، غير أنّه سأل الكاهن تفسيرًا للحدث العجيب، وكان التفسير الوحيد أنّ "لخوري أرس عينين مختلفتين عن عيون الآخرين، يرى بهما ما لا يراه سواد الناس". ولا جرم أنّ الموغلين في القداسة يمتلكون بصيرةً فائقةً، يدعوها البعض حدْسًا، وما هي، في الواقع، إلاّ دليل القداسة، وثمرتها.

وما أكثر الذين استشاروا الخوري القدّيس في أمور دعوتهم، وبشأن قضايا شخصيّةٍ وعيليّةٍ، وأمراضٍ، وقراراتٍ مصيريّةٍ، فكانت إرشاداته مدهشة الصواب. ولطالما نبش من القلوب كوامن دفينةً أذهلت أصحابها، ولطالما تنبّأ بأحداثٍ أكّد الواقع مصداقيّتها؛ وكان بدهيًّا، بعد ذلك، أن يصدّق الناس، بلا تردّدٍ كلّ أقواله.

من المحقّق أنّ الحدْس، عنده، لم يكن مستمرًّا، وأنّ جميع القلوب بلا استثناءٍ لم تكن له كتابًا مفتوحًا، وأنّه هو نفسه كان ينصح مَن يستشيرونه أن يعملوا بإرشاداته من باب الحيطة لا غير. ومع ذلك كم من أدهشهم كشفه عن النوايا التي جاؤوا كي يكشفوها له، وعن الأسرار الذين كانوا يعتزمون إخفاءها عنه، قبل أن يفتحوا فمهم للبوح. وكم ممّن توجّسوا من حدْسه الثاقب خشيةً، فلم يجسروا على المثول أمامه!

ولكنّه تفاديًا لتعظيم هذه الموهبة كان الخوري يقول لمن عادوا يشيدون بصواب رؤيته وبقدرته: "كان ذلك مجرّد خاطرةٍ عبرت ذهني"، أو "إنّي أعمل ما يعمله متنبّئو الطقس، فقد تصيب تنبّؤاتهم وقد تخيب". وللّذين لا يجسرون على البوح بالخطايا التي جاؤوا للإقرار بها، أو تردّدوا خجلاً أو خوفًا، وكان يسبقهم إلى البوح بها، وعندما يستفسرونه عن مصدر معرفته بها، يقول: "ملاككم الحارس هو الذي باح بها عنكم".

ولطالما كذّبت تنبّؤاته نصائح وتحليلات من عُرِف عنهم الحكمة، وبُعد البصر، وسداد الرأي.

ومن أكثر المستشيرين له شبّانٌ في مقتبل العمر، يقضّ مضاجعهم اختيار دربهم في الحياة، فكانوا يلجأون إلى من أثبت أنّه مزّق حُجُب الغيب. وما أكثر الروايات التي تثبت ذلك! فقد كانت فتاةٌ استبهم عليها طريق مستقبلها، وكانت ممزّقةً بين الحياة الرهبانيّة وكَلَفِها بحياة العالم، ومع ذلك دخلت ديرًا رهبانيًّا، لم تثبت فيه طويلاً، وأفهمها مسؤولو الدير أنّ الحياة الرهبانيّة ليست دعوتها. ثمّ اعتزمت الزواج، ولكنّها آثرت استشارة الخوري القدّيس قبل الإقدام عليه، وما إن قابلته حتّى سبقها إلى القول: "أتبتغين الزواج؟ أنتِ تظنّين أنّه سيكون درب ورودٍ، ولكنّي أُحذّركِ بأنّه سيكون درب أشواكٍ". فعادت خائبةً، محبطةً. وبعد حينٍ، حجّت ثانيةً إلى الخوري القدّيس، فأشار عليها بالانضمام إلى جمعيّة راهبات القدّيسة "كلارا". غير أنّ أُمّها اعترضت: "وهل أكّد لكِ أنّك ستُقبَلين في هذا الدير، وستثبتين فيه؟". فحجّت للمرّة الثالثة إلى الخوري الذي أكّد لها: "أجل ستُقبَلين في هذا الدير، وستثبتين فيه، وستموتين فيه، ومنه سترحلين مباشرةً إلى السماء!". وعملت الفتاة بنصيحته، ومكثت في الدير ثمانيةً وعشرين عامًا، كانت طوالها مثالاً للفضيلة، وهتفت الرئيسة لدى موتها: "يا له من موتٍ يُحسَد عليه".

فتاةٌ أُخرى كانت تصبو إلى الترهّب، واستشارت في الأمر خوري أرس، الذي قال لها، بلا تردّدٍ: "كلاّ، لن تصبحي أنتِ راهبةً، بل شقيقتك المتزوّجة..." ولم تلبث تلك الشقيقة أن ترمّلت، وسئمت حياة العالم، فترهّبت، وماتت راهبةً. أمّا شقيقتها التي كانت راغبةً في سوق حياةٍ رهبانيّةٍ، فما عتّمت أن اعتلّت، واشتدّت عليها علّتها، فطلبت استدعاء خوري أرس – وكان الوقت في شهر حزيران – وسألته هل حُمَّ أجلها، فأكّد لها أنّها ستظلّ على قيد الحياة حتّى عيد انتقال العذراء. وفي ذلك اليوم انتقلت إلى جوار ربّها.

ورغب أستاذٌ جامعيٌّ، في الانضواء إلى جمعيّة الآباء اليسوعيّين، واستشار القدّيس فيها، قائلاً: "كلاّ، يا صديقي، بل امكث حيث أنت، فالحياة قصيرةٌ". وبعد أقلّ من سنةٍ، التقط الشابّ مرضًا خطيرًا، وانتقل إلى الحياة الأبديّة، في سنّ السابعة والعشرين، وهو ينشد تعظيمة العذراء. وقد عدّه جميع الذين عرفوه قدّيسًا.

عام ١٨٤٨ غادرت فتاةٌ في السابعة عشرة من عمرها مدرسةً داخليّةً تديرها راهباتٌ في مدينة ليون، وفي قلبها يعتلج حلم العودة إلى تلك الدار بصفة راهبةٍ مبتدئةٍ، ولكنّها قوبلت برفض رئيسة الدير. وفي هذه الأثناء استصحبتها رفيقاتها إلى أرس. وبما أنّها لم تكن تأمل أن تتسنّى لها فرصة مقابلة الخوري القدّيس، دبّجت له رسالةً من أربع صفحاتٍ، طوتها على كلّ ما كان يجول في نفسها، وقُيّض لها تسليمه هذه الرسالة عندما كان يغادر الكنيسة، ظهرًا، إلى حجرته. وفي المساء عادت إلى الكنيسة حيث اندسّت وسط حشدٍ غفيرٍ، وحينئذٍ اخترق الخوري الكنيسة، متوجّهًا إلى كرسيّ الاعتراف، داخل الموهف. وبغتةً توقّف، والتفت، وحدّق إلى الفتاة، وأشار إليها أن تتبعه. وبعد دقيقةٍ كانت الفتاة تجثو مرتجفةً في كرسيّ الاعتراف، حيث بادر هو إلى سؤالها:

– "هل أنتِ من كتب لي، يا ابنتي؟".

– "أجل، أبتِ".

– "لا تكتئبي، فستنضوين إلى الدير، وستتلقّين، بعد بضعة أيّامٍ، قبول الأُمّ الرئيسة".

ودهشت الفتاة، ولا سيّما أنّها كانت قد تلقّت في ذلك اليوم عينه كتابًا من الرئيسة، تؤكّد فيه، مثلما أكّدت في رسائل أُخرى، رفضها القاطع. غير أنّها غداة مقابلتها للخوري القدّيس بلغتها رسالةٌ أُخرى من الرئيسة تقول لها فيها: "إنّ ثباتك على رغبتك، يجبرني على أن أقول لك "نعم قويّة". تعالي حينما تشائين".

وكان لسيّدةٍ ثلاث بناتٍ، ورغبت في تكريس إحداهنّ للربّ في الحياة الرهبانيّة، وخطر لها أن تختار لهذه الدعوة صغراهنّ، التي كانت تتميّز بتقواها

وبساطتها، ولكأنّها مخلوقةٌ لتصبح راهبةً، في حين كانت كبراهنّ كلِفةً بالتبرّج، وبالحياة الاجتماعيّة العالميّة. وعام ١٨٥٥ اتّفق للسيّدة أن مرّت بأرس، وانتهزت الفرصة كي تبوح للخوري القدّيس بهمومها الأموميّة، ولكنّ رجل الله فاجأها بقوله: "كلاّ، ليست ابنتك الصغرى هي التي ستصبح راهبةً بل ابنتك الكبرى". وأبت السيّدة تصديق توقّع الكاهن، وفي طريق عودتها توقّفت في مدينة ليون، حيث ابتاعت لكبرى بناتها ثوبًا جميلاً، تيمّنًا بخطبتها القريبة. وكان ذهولها بالغًا عندما رفضت الصبيّة الهديّة المغرية، معلنةً: "لن أرتدي أبدًا هذا الثوب، فأنا أبتغي أن أُصبح راهبةً". وما لبثت أن انضوت إلى دير راهباتٍ. أمّا الصغرى التي لم تراودها، يومًا، خاطرة الترهّب، فقد تزوّجت في سنّ السابعة عشرة.

وروت بارونةٌ أرملةٌ، كان لها ولدان، أنّها تلقّت، ذات يومٍ، من أصغرهما رسالةً يزفّ لها، برقّةٍ وتهذيبٍ، نبأ غرامه بفتاةٍ في الخامسة عشرة، ويلتمس موافقتها ومباركتها. وكانت هي تؤثر أن يتريّث في قراره، فتبادلا العديد من الرسائل في هذا الشأن، ولكنّها فشلت في إقناعه. وإذ لم يكن لها مَنْ تستشيره، استغرقت في الصلاة، ثمّ خطر ببالها الكاهن الذي ذاعت شهرته. ومع أنّ المسافة الفاصلة بين مكان إقامتها وأرس كانت بعيدةً، وطّنت العزم على الحجّ إلى الخوري القدّيس. واقتضت منها الرحلة ثلاثة أيّامٍ مُنهِكةً، وفي الحال قصدت الكنيسة حيث لم تجدْ مقعدًا داخلها ترتاح عليه، فاكتفت بكرسيٍّ عند باب الكنيسة، وشيئًا فشيئًا شرعت تندب حظّها، فعدد الذين ينتظرون دورهم لمقابلة الكاهن لن تفسح لها دورًا قبل أيّامٍ عديدةٍ، وهي لم تكن متأهّبةً للمكوث في أرس، وفيما كانت تراودها فكرة العودة بالخيبة، فتح باب كرسيّ الاعتراف كاهنٌ محنيّ الظهر، شائب الشعر، واتّجه مباشرةً إليها، وهمس في أذنها: "زوّجيهما. سيكونان سعيدين". وعاد إلى كرسيّ اعترافه. ولم يكن أحدٌ في أرس على معرفةٍ بتلك الأمّ القلقة على مصير ابنها، وهي كانت غلّفت حجّها إلى أرس بكتمانٍ مطبقٍ.

والقصص عن حدْس خوري أرس لا تنتهي.

ففي عام ١٨٥٦ جاءه كاهنٌ أستاذٌ في كلّيّةٍ، ومذ لمحه الخوري القدّيس قال له بأُلفةٍ عذبةٍ: "أنت آتٍ من أجل تلميذك (فلان) المريض... طمئن ذويه بأنّه سينجو من علّته". وما عتّم الشابّ أن استعاد عافيته.

وكان ابن أخي إحدى معلّمات دار العناية، قد أَلِف أن يخدم في صباه قدّاس الأب "فـــيانّي"، وكبر وتزوّج، ورُزِق ثلاثة صبيانٍ، وظلّت تعتمل في نفسه منية أن يُرزق ببنتٍ، فقصد الكاهن القدّيس الذي قبل أن يكلّمه جاءه حاملاً أربعة مسابح، وقائلاً: "هذه لأبنائك". فاعترض الشابّ: "لي ثلاثة صبيان فقط" فردّ الخوري: "والمسبحة الرابعة لابنتك القادمة".

وقدمت راهبةٌ مع رئيستها إلى أرس لقضاء بضعة أيّامٍ فيها، وقبل عودهما حرص الخوري على إعطائها ثلاثة فرنكاتٍ. واحتجّت الرئيسة بأنّ معها ما يكفي لسداد إيجار العربة. ولكنّه ألحّ في إكراه الرئيسة على قبول هبته موضحًا أنّها قد تحتاج إليها. ولّما وصلت إلى مقصدها تبيّنت أنّها فقدت الكيس الذي كان يحتوي ثلاثة فرنكاتٍ كانت قد أعدّتها لأجل دفع إيجار العربة.

واتّفق أن عادت الراهبة عينها بصحبة أُمّها ورئيستها، ووصلنَ باكرًا جدًّا إلى أرس، حين كان الخوري قاصدًا الكنيسة استعدادًا للقدّاس الصباحي. فقال للراهبة: "عدنَ في الحال!" واعترضت: "سنعود بعد القدّاس" – "لا، لا تنتظرنَ، فستُمنى إحداكنّ بعلّةٍ مفاجئةٍ، قد تمنعكنّ طويلاً من العودة". فأسرعنَ بالعودة، وقبل بلوغهنّ مقصدهنّ، انتابت الراهبة وعكةٌ مباغتةٌ، فعجزت عن متابعة السير، فجرّتها أُمّها ورئيستها. وكان ذلك بدء مرضٍ عضال سمّرها على الفراش خمسة عشر يومًا.

وفي صباح يومٍ صيفيٍّ من عام ١٨٥٧، دفع الفضول فتاتين إلى أرس ووافق وصولهنّ أوان إلقاء الخوري دروسه الدينيّة. وخاب ظنّ إحداهنّ، وهي أكثرهنّ مجونًا وقحةً، فأشارت بإصبعها إلى الكاهن وهمست في أذن رفيقتها، ساخرةً: "علامَ

تكبّدنا عناء هذا المشوار، ألكي نسمع هذا الحديث التافه، ونشهد هذا "المسخ"؟ فقاطعها الخوري القدّيس ضاحكًا، متهكّمًا: "أنتِ محقّةٌ يا آنسة، فلا تستأهل رؤية مسخٍ المجيء من بعيدٍ".

وخجلت الفتاتان، وجاءتا الكاهن معتذرتين بعد فراغه من التعليم، فاستقبلهما بعطفه العذب المعهود، وفرض عليهما أن تعترفا في الحال، وتتناولا في الغد. ثمّ حدّث رفيقة الفتاة الوقحة على حِدةٍ، وأوصاها برعاية رفيقتها، محذّرًا من شرٍّ سيصيبها... ولكنّه أضاف: "ستكون قد تناولت الزاد الأخير، ولن يكون خلاصها في خطرٍ". وتمّمت الفتاتان وصيّة الكاهن، وطابت نفسهما من جرّاء تحوُّل رحلتهما الفضوليّة إلى حجٍّ حقيقيٍّ، وبعد تناولهما انتهجتا، فرحتَيْن، درب العودة. وكانت الرفيقة قد سهت عن وصيّة الخوري بمراقبة زميلتها التي هزّها، بغتةً، صيحتها الوجيعة، فقد كانت أفعى قد لدغت ساقها، وكان سمّها قاتلاً، ولقيت حتفها في الطريق قبل أن تُسعَف بأيّ ترياقٍ.

وإليكم ما روته خادمةٌ: "في التاسعة عشرة من عمري كنت في ميتمٍ، ورغبت في كسب معيشتي بنفسي، وطلبت الإذن بالسفر إلى مدينة ليون بحثًا عن عملٍ. فأوكلتني رئيسة الميتم إلى سيّدةٍ كانت قاصدةً ليون، وكان عليها أن تعرّج في طريقها إلى أرس، بغية استشارة خوري رعيّتها. ودخلنا الكنيسة حين كان الكاهن يلقي درسًا حول إشارة الصليب. ولّما رآني توقّف لحظةً عن تعليمه، وقال لي: "أنتِ، هناك، إلحقي بي إلى السكرستيّا بعد قليلٍ، فلديّ ما أقوله لك". ومع أنّه لم يعرفني، ولم أكن قد فهت بحرفٍ، بادرني بالقول: "أنتِ ماضيةٌ إلى ليون، فاعلمي أنّ خطرًا جسيمًا ينتظرك هناك. فعندما ستشعرين به فكّري بي وابتهلي إلى الله!". وفي ليون، بحثتُ طوال ثلاثة أيّامٍ عن عملٍ، ولم أحظَ بشيءٍ. وعندئذٍ قصدت مكتب توظيفٍ، حيث كان رجلان، عرضت لهما وضعي. فقال لي أحدهما: "أتبحثين عن عملٍ! أنا أبحث عن خادمةٍ. ولكن لا بدّ أن تراكِ زوجتي، فتعالي إلى منــزلي، عند الساعة

الثالثة بعد ظهر هذا اليوم". وأعطاني عنوانه، وفي الموعد المحدّد ذهبت إليه... وعند منعطفٍ من الطريق وجدتُ نفسي في مثل صحراء ينتصب فيها بيتٌ وحيدٌ، وكان الرجل واقفًا عند عتبته، يشير إليّ بالتقدّم صوبه. وبغتةً أخذ بي الهلع كلّ مأخذٍ، وذكرتُ قول خوري أرس، وصرخت إلى الله، ولذتُ بالفرار، وانقضّ الوغد في إثري، وحاول القبض عليّ بأنشوطةٍ جهد عبثًا في إدخالها حول عنقي. وعلمت بعدئذٍ أنّني كدتُ أقع ضحيّة قاتل الخادمات الشهير...".

يتّضح، إذن، أنّ ذلك الكاهن القدّيس كان يهتك الأسرار تلقائيًّا، منذ النظرة الأولى، وأحيانًا عن بعدٍ، وبلا جهدٍ، حيثما كان، ومهما تعدّدت ألوان هذه الخفايا. فغالبًا ما دعا أشخاصًا رآهم للمرّة الأولى، بأسمائهم مع أنّهم كانوا يدعون بكنية ذويهم. وكان من السكرستيّا المفصولة عن الكنيسة بجدران يرى بعض الموجودين فيها، وما يحملونه وما يفعلونه، وما يعتلج في نفوسهم.

ذات يومٍ توقّفت حافلةٌ قادمةٌ من ليون، أمام الكنيسة، وكان أحد المشرفين على النظام بانتظارها، فقال للفتاة الأولى التي انحدرت من الحافلة:

– "إنّ الخوري يرغب في التحدّث إليك" – "أنا؟"

– "نعم هو أخطرني أن أقتاد إلى كرسيّ اعترافه أوّل آنسة تنحدر من الحافلة".

واتّضح أنّ الآنسة المذكورة كانت واهية الصحّة، وغير قادرةٍ على الانتظار.

ومرّةً جاءته سيّدةٌ مستصحبةً ابنتها البالغة عشر سنواتٍ، وطلبت منه مباركة أشياء تقويّةٍ، ولكنّه رفض مباركة ميداليّةٍ كانت الفتاة الصغيرة قد سلبتها من حانوتٍ، في الطريق، على غير علم أمّها.

وكان أشدّ المتضرّرين من فراسته واستكشافه كوامن الخواطر غيرُ المؤمنين بقداسته، والراغبون في تدمير أسطورته، والذين كانوا يقدمون بغية نصب شباكٍ يوقعونه فيها، أو اكتشاف هفوةٍ أو زلّةٍ فيه، خفيت عن أبصار الجموع. ومعظم هؤلاء كانوا من الكهنة الزملاء، وأساتذة اللاهوت المشهّرين بضآلة علمه.

وكان حذّاءٌ من ليون قد فقد، شيئًا فشيئًا، حرارة إيمان صباه، وتردّى إلى ممارسة استحضار الأرواح، وانتهى به المطاف إلى أن أصبح ضحيّة هلوساتٍ مريعةٍ تحاصره ليل نهار. ولم يعد له مفرٌّ من اللجوء إلى خوري أرس. ودخل كنيستها ووقف أمام هيكل القدّيسة "فيلومينا"، حيث كان الأب "فــيانّي" راكعًا يصلّي. وانتظر الرجل وراءه طويلاً، مترصّدًا التفاتةً منه كي يطلب التحدّث إليه. وكرّت الدقائق والساعات حتّى ضاق الرجل ذرعًا بالانتظار، وحدّث نفسه قائلاً: "لو كان في هذا الكاهن روح الله، كما يذاع عنه، لعرف أنّني راغبٌ في التحدّث إليه، وأنّ وقتي ضيّقٌ". وما كاد يُجيل هذه الخاطرة في فكره حتّى التفت الخوري وقال له: "صبرًا يا صديقي، سأكون بخدمتك في غضون لحظاتٍ". وكان ذهول الرجل صاعقًا. وما لبث أن استعاد إيمان صباه وارتدى الثوب الرهبانيّ، منتحلاً اسم الأخ يواكيم.

ولطالما ذكّر الخوري القدّيس الراكعين في كرسيّ اعترافه، بخطايا خافوا الإقرار بها، أو غربت عن بالهم.

وكان لرجلٍ امرأةٌ معتلّةٌ، فنُصح باستشارة الخوري القدّيس بشأنها، وحُذّر بأنّ لا سبيل إلى مقابلته إلاّ داخل كرسيّ الاعتراف. وكان الرجل مشوّهًا بسبب تورّطه، سابقًا، في جريمة قتلٍ، وتلقّيه ضرباتٍ شوّهت وجهه، وزُجّ في سجنٍ احتياطيٍّ. وقد ذكّره الكاهن بكلّ ذلك، تفصيلاً. واتّضح للرجل أنّه لم يقع على معرّفٍ عاديٍّ، وارتدّ إلى السلوك السويّ، وبات يستطيب رواية ما حدث له في كرسيّ الاعتراف.

ويؤكّد المطّلعون أنّ الخوري القدّيس قد وجّه عشرات الشبّان الذين استشاروه بشأن دعوتهم إلى جمعيّات الإخوة المريميّين المعنيّين بالتعليم، وإلى جمعيّة العيلة المقدّسة، وأرشد عشراتٍ آخرين إلى أديرة رهبانٍ حبيسين. وعندما كان يلحظ تردّد بعضهم قبل الإقدام على تلك التضحية الشاقّة، كان يسألهم: "أوليس للمقيمين في تلك الأديرة لحمٌ ودمٌ وعظامٌ؟". مفسحًا لمستمعيه حرّيّة القرار.

كان الخوري أنشط المهتمّين بالمشاريع الخيريّة والتعليميّة في عصره، وكان من الداعمين لتأسيسها، ومنهم الأب "شـــڤــرييه" (مؤسس "عناية البرادو") الذي، حين كان ما زال متردّدًا بشأن تكريس ذاته كلّيّةً لرعاية الطفولة المهملة، وافى إلى الأب "ڤـــيانّي" مستشيرًا، فقال له الخوري القدّيس: "يا ابني، إنّ مشروعك مُلهَمٌ من السماء. ستواجهك عقباتٌ كأداء، ولكن إذا امتلكت الجرأة والمثابرة، فستجني حصادًا وفيرًا من النفوس".

وكان هو مشجّع الآنسة "سميث"، التي عملاً بنصحه، أسّست جمعيّة "مساعدات المطهر"، التي تسنّى لها، في فترةٍ قصيرةٍ، انتشارٌ واسعٌ، والتي كانت أضحت من أكثر الجمعيّات غلاءً على قلبه.

وكان ينصح مؤسّسي الجمعيّات: "فلتكن نواياكم صافيةً... التزموا التواضع... ستغتنون بقدر ما ستعتمدون على العناية الإلهيّة". وفي الآن عينه لم يكن يتوانى عن لجم المبادرات التي كان يتوقّع لها الفشل والعقم.

ومن جانبٍ آخر، حاول كثيرون جرّه إلى الإدلاء بنبوءاتٍ عن أحداثٍ سياسيّةٍ مستقبليّةٍ، ولكنّه حرص، دائمًا، على النأي بنفسه عن هذا المنـــزلق. ومع ذلك، طالما نسبت إليه نبوءاتٌ مختَلَقةٌ، ما انتزع منه هذه الشكوى المريرة: "مسكينٌ خوري أرس، فكم من أقوالٍ تُعزى إليه، مع أنّه لم يتلفّظ بكلمةٍ!". وقد سبّبت له بعض التنبّؤات السياسيّة المنسوبة افتئاتًا إليه تحقيقاتٍ أمنيّةً، انتهت بتوبة المحقّقين.

أشفيةٌ عجيبةٌ

كان خوري أرس قد أسرّ لإحدى قريباته: "إنّ الله هو دائمًا كلّيّ القدرة، ويستطيع دائمًا صنع عجائب، مثلما فعل سابقًا، ولكن ما ينقص هو الإيمان". وكان يشعر ويعلم أنّ أحداثًا عجيبةً تجري في رعيّته، مذ انتشلها من انحطاطها الإيمانيّ، وأعادها إلى أحضان الإنجيل، ولكنّه كان يعزو كلّ عجيبٍ يحدث إلى القدّيسة "فيلومينا"، ويتوارى خلفها، صدًّا لنـــزعة الكثيرين إلى تقديسه. ولكنّ المؤمنين، مع تقديرهم للقدّيسة "فيلومينا"، كانوا واثقين أنّ المعجزات لا تتحقّق إلاّ بفضل صلواته. ولم ينفكّ يجيب طالبي شفاعته في أمورٍ تبدو مستعصيةً: "لست صانع عجائب، وما أنا سوى جاهلٍ سبق لي أن رعيتُ المواشي... توجّهوا إلى القدّيسة "فيلومينا"، فكلّ ما طلبته، من خلالها، قد نال استجابةً". ولكن لم يخفَ على كثيرين أنّ معجزاتٍ عديدةً قد تفجّرت بمجرّد بركته، أو لمسة يده.

وبالإجمال لم يكن الأب "ڤـــيانّي" يطرب للمعجزات التي تسفر عنها شفاءاتٌ جسديّةٌ، فلا شيء، في نظره، أعظم شأنًا من شفاء النفوس. وجاء، في حديثٍ له: "بودّي أن أمنع القدّيسة "فيلومينا" من إجراء معجزات أشفيةٍ جسديّةٍ، لكي تولي اهتمامها لشفاء النفوس. فهذه الجثّة البائسة المعدّة للموت، ضئيلة الشأن". ويبدو أنّ القديسة لبّت رغبة الكاهن بأُسلوبها الخاصّ، فالذين كانوا ينظّمون تساعيّات صلواتٍ التماسًا لشفاء مرضٍ، ويزورون مقامها في أرس، لهذه الغاية، لا ينالون الشفاء المنشود إلاّ بعد عودهم إلى بيوهم، بمنأى عن الضجيج.

ويبدو أنّ شراكةً عُقدت بين الخوري القدّيس وقدّيسته الصغيرة، التي أطلق عليها لقب "القائمة بالأعمال" و"سفيرته إلى الله". فكان كلّما طُلب منه أمرٌ معجزٌ يكلّف به "سفيرته" وبشفاعتها كانت تحدث المعجزات. ولكنّها كانت في بعض الحالات، تغيب، وتتحقّق المعجزات قبل استنجاده بها.

ويجدر بنا أن نقدّم باقةً من المعجزات التي تمّت بشفاعته.

راهبةٌ شابّةٌ، كانت إصابتها بالسلّ قد بلغت حدودًا مقلقةً، ولم يؤمّلها طبيبها بالحياة أكثر من أشهرٍ معدوداتٍ، فحجّت إلى أرس، ولمحها الأب "ڤـــيانّي" في وسط الجمع، فدعاها إلى كرسيّ اعترافه، واستفسرها عن أسباب رغبتها في الشفاء، وأوعز إليها أن تطلب شفاءها من القدّيسة "فيلومينا"، فيما سيكبّ هو على الصلاة لهذه الغاية نفسها. وما كادت الراهبة تقف أمام هيكل الشهيدة "فيلومينا" حتّى سرى الشفاء في رئتيها. حدث ذلك في شهر أيّار **١٨٥٣**، وتوفّيت الراهبة، يوم الحادي عشر من شباط **١٩١٤**، في سنّ التاسعة والثمانين.

في أثناء تعافي الأب "ڤـــيانّي" من العلّة الخطيرة التي ألّمت به عام **١٨٤٣**، وافت إلى أرس، ناشدةً نعمة الشفاء، سيّدةٌ كانت قد عانت طوال ستّ سنواتٍ ألمًا حادًّا في حنجرتها، وفقدت القدرة على الكلام منذ سنتين، فقصدت خوري أرس، وبما أنّها كانت عاجزةً عن الكلام، قدّمت له لوحًا دوّنت عليه مرضها وملتمسها. فقال لها: "يا ابنتي، أدوية هذه الأرض لن تجديك نفعًا، وقد تناولتِ، حتّى الآن، الكثير منها. ولكنّ الله يريد شفاءك. فتوجّهي إلى مقام القدّيسة "فيلومينا"، وضعي لوحك على هيكلها، وأنذريها، بأن تهبكِ صوتها، وإن هي أبت، فلتُعِد لكِ صوتك". وهرعت السيّدة وارتمت أمام هيكل الشهيدة العذراء "فيلومينا". وما كادت تفرغ من تلاوة صلاتها، حتّى ظفرت بنعمة الشفاء. وعادت إلى أرس يوم الحادي عشر من شهر آب التالي كي تصدح بترانيم شكرها.

كانت إحدى فتيات الميتم مصابةً بشللٍ نصفيٍّ، غير أنّها ما زالت تستطيع جرّ ساقيها، وبغتةً، امتنعت ذراعها عن الحركة فوافت إلى الخوري في كرسيّ اعترافه، تندب حالها، ولكنّه سرعان ما قاطعها قائلاً: "كفى ثرثرةً، وامضي إلى القدّيسة "فيلومينا"، واروي لها ما تريدين روايته". وامتثلت الفتاة، وخاطبت القدّيسة بجرأةٍ،

قائلةً: "أعيدي لي ذراعي أو أعطيني ذراعك!" وفي الحال حظيت بالشفاء، وجرت إلى الميتم كي تزفّ البشرى للمشرفة ولأترابها.

وذات يومٍ قدمت بالحافلة إلى أرس امرأةٌ متّكئةً على عكّازين، ووقفت إلى جانب الممرّ الذي كان الخوري يجتازه من الكنيسة إلى حجرته، ولمحها فقال لها: "إمشي" فتردّدت، وحينئذٍ زجرها مساعده، الأب "توكّانييه": "امشي بما أنّه يقول لك امشي"، فألقت عكّازيها جانبًا، ومشت.

وكانت امرأةٌ قد حجّت إلى أرس مستصحبةً ابنتها التي وُلدت بكماء، وتركتها بقرب كرسيّ الاعتراف، وفيما كانت تقرّ بخطاياها للكاهن، توقّفت بغتةً، وهتفت: "هذا مستحيل! اسمع، يا أبتِ، هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها صوت ابنتي منذ مولدها لسبع سنواتٍ خلت! يا للنعمة، يا للنعمة!". وكان تأثّرها من الشدّة بحيث عجزت عن إكمال اعترافها، ونهضت تصيح: "يا إلهي، يا للنعمة، يا للنعمة!".

يوم الأوّل من شباط ١٨٥٠، جيء إلى أرس بامرأةٍ كانت قد فقدت، عقب حمّى دماغيّةٍ، حاسّتيْ الرؤية والسمع. وفيما كان الأب "فـيانّي" قاصدًا الكنيسة، لمحها، ولم يكن يعرف عنها شيئًا، فتوجّه إليها مباشرةً، وأمسكها من يدها، واقتادها إلى كرسيّ الاعتراف، ولمّا فرغت من اعترافها، ورفع يده لمباركتها، انقشع العمى عن عينيها، واستعادت السمع. وحينئذٍ حذّرها: "عيناكِ شفيتا شفاءً تامًّا، ولكن الصمم سيلازمك اثنتي عشرة سنةً أُخرى. هذه هي مشيئة الله". وخرجت المرأة بمفردها، ولكنّها لم تعد تسمع شيئًا. وفي الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٨٦٢، شكرت للربّ استعادتها كامل حواسّها.

عام ١٨٥٥ جاءته، فتاةٌ عرجاء، إذ كانت إحدى ساقيها تقلّ عشرة سنتمتراتٍ طولاً عن الأُخرى، والتمست من الكاهن القدّيس شفاءها، ولكنّ الكاهن أجابها: "يا ابنتي، أنتِ غالبًا تعصَيْن أوامر والدتك، وتجيبين إجاباتٍ وقحةً وفجّةً. فإذا

كنتِ راغبةً في أن يهبكِ الله الشفاء، عليكِ، أوّلاً، أن تتحرّري من هذا العيب، وأن تبذلي في هذا السبيل جهودًا شاقّةً، وتذكّري أنّكِ ستشفيَن، ولكن رويدًا رويدًا، وبقدر ما تجهدين في التحرّر من عيبك هذا". وعادت الفتاة إلى قريتها، وجهدت في إطاعة والدها، وفي احترامها، وأخذت ساقها القصيرة تكتسب طولاً، على نحوٍ غير ملموسٍ، وفي غضون بضع سنواتٍ، تساوت ساقاها طولاً، وزالت عنها عاهتها نهائيًّا.

وجاءت امرأةٌ من ليون بابنها المصاب بورمٍ جسيمٍ فوق عينه، ورغبت في أن يباركه خادم الله قبل إجراء جراحةٍ لاستئصاله في اليوم التالي. وفيما كان الكاهن يرفع يده لمباركة الولد، أمسكت المرأة بيده المباركة ووضعتها على الورم الذي زال في الحال. ومساء ذلك اليوم، فيما كان معاونا الأب "ڤـياتّي" يواكبانه إلى حجرته، وتداركًا للضجّة التي قد يطلقها هذا الشفاء العجيب، قال لهما: "يا صديقيّ لقد حدثت لي اليوم "هزليّةٌ"، أخجلتني جدًّا... وتمنّيت لو عثرت على جحر فأرٍ أختبئ فيه".

– "ماذا حدث؟

– "لا بدّ من الاعتراف أنّ الله ما زال يجري معجزاتٍ. فقد جاءتني سيّدةٌ بابنها المصاب بورمٍ جسيمٍ بجانب عينه، وجعلتني ألمس هذا الورم، فتبخّر...".

وسارع الأب "توكّانييه" إلى القول: "هذه النوبة لن تستطيع ادّعاء أنّه عمل القدّيسة "فيلومينا"!"

فارتبك القدّيس، ومع ذلك أجاب: "بل ربّما كان لها دورٌ".

ولم يكفّ يومًا عن نسب الشفاءات المعجزة إلى قدّيسته الأثيرة، والنعم الروحيّة إلى السيّدة العذراء.

ولكنّه لم يكن يستجيب دائمًا لطلبات الشفاء الجسديّ، إذ كان يحدوه إيمانٌ راسخٌ بحسنات الألم المحتمَل بروحٍ مسيحيّةٍ ولطالما ردّد: "الصليب الأكبر، هو الافتقار إلى

صلبانٍ". وسُمع يومًا يقول لمريضٍ مؤمنٍ: "يا صديقي، لا أعرف هل يجب أن أصلّي ملتمسًا لك الشفاء، فلا يسوغ نزع الصليب عن كتفين تجيدان حمله".

وفي جميع الحالات، على غرار المعلّم الإلهيّ، كان يقتضي الإيمان، شرطًا لكلّ شفاء معجزٍ. ولم يتوانَ عن الردّ على رجلٍ ثريٍّ، طلب شفاءه، ولكنّه وضع شرطًا، قائلاً: "من يلتمس نعمةً، ويضع شروطًا، فليتأكّد أنّه لن ينالها". والأفضل لك أن تلجأ إلى طبيبٍ.

لا ريب أنّ المعجزة هي توقيع الله على هذه الأرض. ولكنّها ليست شرطًا للقداسة. ولم يكن من شأن خوري أرس أن يفقد شيئًا من عظمته وقداسته، لو لم تحدث بشفاعته معجزةٌ واحدةٌ، فسيرته هي أروع معجزةٍ، وهي معجزةٌ مستمرّةٌ.

واعترف الكهنة الذين عرفوه عن كثب أنّه لم يكن بوسعه النهوض بمهمّاته الساحقة بمعزلٍ عن عونٍ فائق الطبيعة، فقد كانت مثابرته مدى ثلاثين عامًا من تحمّل عبءٍ مرهقٍ كفيلةً بالقضاء على كاهنٍ آخر في غضون أيّامٍ معدوداتٍ. وأجمع أطبّاؤه على الاعتراف بأنّ سيرته، وفقًا للطريقة التي ساقها، هي مذهلةٌ، ويتعذّر تفسيرها تفسيرًا طبيعيًّا.

لا ريب أنّ زمن العجائب لم يُطوَ، ولكنّه يحتاج إلى قدّيسين.

ظواهر روحانيّةٌ فائِقةٌ

حرص الأب "فـــيانّي"، دائمًا، على إخفاء الكرامات الفريدة التي نعم بها، غير أنّ دلائل كانت تبدر منه، لاإراديًّا، مسفرةً عنها. فذات يومٍ جاء إلى دار العناية، متّقد المحيّا، مردّدًا: "يا لها من نعمةٍ، يا لها من سعادةٍ... أمرٌ فائقٌ!" فاستفسرت الآنسة "لاسانيي": "أين؟" – "في الكنيسة، في الكنيسة...!" مكتفيًا بهذا الإيضاح. ربّما كان ما حدث رؤيته لتطواف القدّيسين الذي حفر في خلَده ذكرى أبديّةً.

ولطالما لحظ الذين كانوا يشهدونه محتفلاً بالقدّاس، أنّ كيانه كلّه كان يتجلّى على هيئة ملاك إيمانٍ وحبٍّ إلهيٍّ، فعيناه المتّقدتان تلهبان كلّ محيّاه حسب وصف شاهد عيان. وقد أقرّ شاهدٌ آخر: "فيما كنت أخدم قدّاسه، كان مظهر خشوعه السحيق يرتدي أشكال الخطافٍ، وكان كثيرون يحدّقون، لاشعوريًّا، إلى قدميه، للتأكّد من كونهما ما زالتا لاصقتين بالأرض".

وهو اعترف غالبًا أنّه يكتفي بالقربان المقدّس غذاءً، وقد تكهّن له كاهنٌ مقرّبٌ منه: "سيأتي يومٌ يقتصر فيه خوري أرس على الإفخارستيّا". وقد باح ذات يوم لمساعدته: "عضّني الجوع، أثناء القدّاس، ولّما تناولت، قلت للربّ: يا إلهي غذِّ جسدي ونفسي، وفي الحال تبدّد جوعي تمامًا".

وخُيّل لمن راقبوه، أثناء القدّاس، عند رفعه القربان، أنّه كان يعاين حقًّا الربّ في بشريّته. وهو نفسه أقرّ: "إثر التكريس، أذهل عن نفسي، وأنا حاملٌ الربّ بين يديّ. وغالبًا ما كان يردّ على من يسألون نصحه حول مستقبلهم: "سأوافيكم بالجواب عقب القدّاس". إذ إنّه كان يستوضح الربّ، في هذه الأثناء، ويستطيع الإدلاء بالنصيحة التي لا تخيب".

وكان، يومًا، في حديثٍ مع كاهنٍ صديقٍ له، يستذكر سنوات رسالته الأولى "زمن النعم الكبرى"، فقال: "على الهيكل المقدّس كنت أنعم بتعزياتٍ ساميةٍ،

وكنت أشهد الله". فسأله زميله: "هل كنت تراه حقًّا؟" فأجاب: "لن أقول لك إنّها كانت رؤيةً حسّيّةً. ولكن ما أعظمها نعمةً... ما أعظمها!". لا ريب أنّها كانت نعمة الذوبان في قلب الربّ والتمتّع العذب بشعور حضوره الحميم.

وروت راهبةٌ أنّها لجأت إلى كرسيّ اعترافه، وعقب إقرارها بخطاياها سألته: "يا أبتِ، ما الذي يريده الله منّي: فسمعت جرْسًا خافتًا يجيبها: آه! يا ابنتي..." ثمّ حدّث نفسه، بلغةٍ مجهولةٍ مدى خمس دقائق، فحدّقت إلى محيّاه، فألفته خارج ذاته، وخيّل إليها أنّه يخاطب الله، وران عليها شعورٌ بأنّها أمام قدّيسٍ كبيرٍ، لا تستحقّ المكوث أمامه، فانسحبت مرتعدةً.

في شهر أيّار من عام ١٨٥٢، عند الساعة الواحدة والنصف ليلاً، ركعت في كرسيّ اعترافه راهبةٌ شابّةٌ. ولم يكن يضيء الكنيسة سوى شمعةٍ واحدةٍ، غير أنّ الراهبة، رأت الكاهن، عندما أزاح الستارة، متألّقًا نورًا فائق الطبيعة. ولّما فرغت من اعترافها، ظلّ صامتًا، فناشدته: "أبتِ!" فقال: "اعترفي"، وكرّرت المسكينة ما سبق لها الإقرار به، ولكنّه قال لها ثانيةً: "اعترفي!". وسادت فترة صمتٍ، ثمّ خرج الكاهن عن صمته وسألها: "يا ابنتي هل نفّذتِ كلّ الكفّارات التي طُلِبت منكِ؟" فنبشت الراهبة في ماضيها وتذكّرت مواطن إهمالٍ، كانت قد غابت عن ذاكرتها، فأقرّت بها بتواضعٍ جمٍّ، ونالت البركة. كانت قد قضت في كرسيّ الاعتراف نحو ساعةٍ. ولّما غادرته كان الخوري قد استعاد مظهره المعتاد.

عام ١٨٤٩، كانت فتاةٌ باريسيّةٌ فريسة هواجس شائكةٍ، ورغبت في استشارة الخوري القدّيس بشأنها، وبعد انتظارٍ طويلٍ دنت من كرسيّ اعترافه، وحدّقت إليه في ظلال كرسيّه، فطالعها شعاعا نارٍ، حدّقت إليهما مدى نحو عشر دقائق، ولم يخفت لهيبهما، في أثنائها. فهابت الدخول إلى كرسيّ الاعتراف، واندفعت خارجًا. وكانت تلك الدقائق كافيةً كي يستطلع الكاهن القدّيس كوامن نفسها. وفي اليوم التالي عادت إلى الكنيسة، فمرّ بقربها، إثر فراغه من تعليمه الدينيّ، وقال لها: "اطمئنّي، يا ابنتي، فسيتمّ كلّ شيءٍ على خير وجهٍ".

وسبق لنا أن سردنا أحداثًا تثبت رؤاه للعذراء وحواراته معها.

كان مستعجلاً في طيّ الموضوع، وحريصًا على كتمان هذه الظواهر. ولطالما حاول، سدًى، مساعده الأب "توكّانييه" انتزاع إقرارٍ منه بهذا الشأن. وذات مرّةٍ قال له: "يؤكّدون أنّ رؤًى تخطر لك"، فانتزع منه هذا الاعتراف: "أجل، مرّةً، رأيت قرب سريري شخصًا مرتديًا ثوبًا أبيض، يحدّثني برقّةٍ، كما يتحدّث المعرّف".

وأقرّ العديد من الأشخاص أنّهم باغتوا الخوري القدّيس، في كرسيّ اعترافه يحادث سيّدةً متّشحةً بثيابٍ بيضاء، لم يكن أحدٌ قد شاهدها تدخل الكنيسة أو تخرج منها.

وقد زارته، في سنة حياته الأخيرة، بارونةٌ كان يوليها ثقته، وقادهما الحديث إلى استذكار الماضي، فباح الخوري الشيخ: "كنت، ذات يومٍ، توّاقًا إلى استبيان مشيئة الله بشأن بناء كنيسةٍ جديدةٍ، وحائرًا بين إنفاق المال المتوفّر لهذا الغرض أو وقفه على الرسالات... وفيما كنت أصلّي، ظهرت لي القدّيسة "فيلومينا" منحدرةً من السماء، رائعةً، نيّرةً، محاطةً بغمامةٍ بيضاء. وقالت لي مرّتين: "لا شيء أثمن من خلاص النفوس، عانيةً بذلك أعمال الرسالات". وأوضحت البارونة أنّ الأب "ڤـيانّي" كان يدلي بهذا الإقرار، واقفًا، رافع العينين، مشعّ المحيّا، مفتونًا بذكرى تلك الرؤيا.

وشهد كاهنٌ كان قد حلّ ضيفًا على معلّم مدرسة أرس، أنّه اتّكأ ليلاً على حافّة نافذةٍ، فشاهد نورًا ساطعًا يلفّ دار الرعيّة.

وهناك العديد من الأحداث التي توحي بأنّ الأب "ڤـيانّي" قد حظي مرّاتٍ عديدةً باختراق حجب السماء، وأنّه كان على اطّلاعٍ بأحوال نزلاء المطهر.

كان كاهنٌ قادمًا بالقطار إلى أرس، وفي المقصورة التي كان جالسًا فيها سيّدةٌ مرتديةٌ ثياب الحداد، مسافرةٌ بلا هدفٍ محدّدٍ، وتمحورت الأحاديث حول معجزات خوري أرس، فطلبت من الكاهن أن ترافقه إلى أرس، وارتضى أن يكون لها دليلاً. وانتهيا إلى مقصدهما قُبيل موعد فراغ الخوري القدّيس من تعليمه الدينيّ، ووقفت المرأة في الممرّ المؤدّي من الكنيسة إلى مسكن الكاهن حيث اعتاد الحجّاج الاحتشاد، وما لبث أن أطلّ رجل الله، فركعت السيّدة أُسوةً بالآخرين، واقترب

منها الكاهن وهمس في أذنها: "لقد خلص". فبدرت منها إشارةٌ تعني ارتيابها في صحّة قوله، فكرّر قوله، مؤكّدًا كلّ كلمةٍ تلفّظ بها، وأضاف القول: "إنّه في المطهر، وبحاجة إلى الكثير من الصلاة". وذكّرها بتكريمها السيّدة العذراء، في شهر أيّار، وأحاطها علمًا بأنّ زوجها كان يشاركها صلواتها حينئذٍ، خلسةً، ولذلك استحقّ شفاعة أمّ الله. وشيئًا فشيئًا ساد السلام على وجه السيّدة الأرملة. وقبل عودتها إلى منـــزلها، جاءت تشكر الكاهن الذي رافقها إلى أرس، وأوضحت له أنّها كانت تجتاز أزمة قنوطٍ قاتلٍ، لأنّ زوجها كان ملحدًا، وقضى فجأةً في حادثٍ، قبل أن تتسنّى له التوبة، فاعتراها الخوف من أن يكون مدانًا أبدًا، وألاّ يلتقيا، من بعدُ، أبدًا، حتّى في الآخرة. ونصحها أطبّاء بالسفر للتسرية عن نفسها، وانتهى بها المطاف إلى أرس، حيث بلسم الكاهن القدّيس جراح نفسها. ولَكَمْ بلسم جراحًا من هذا النمط، مثل قوله لفتاةٍ كانت قد فقدت والدتها حديثًا: "ما أجمل أن يكون للإنسان والدين في السماء. والدتك برهنت عن صبرٍ جميلٍ، أثناء مرضها الطويل. وقد تقبّلها الله، وهي الآن تصلّي من أجلكم".

وقد جاءته، يومًا، فتاةٌ أُخرى، كانت قد فقدت أُمّها التي زخرت حياتها بالمحَن، ومذ وطئت عتبة السكرستيّا، بادر الخوري القدّيس بقوله لها: "فقدتِ أُمّكِ؟... إنّها في السماء". حينئذٍ قدّمت له الفتاة مسبحة والدتها كي يباركها، فأخذ بها، وقبّلها باحترامٍ، تقبيله لذخيرةٍ مقدّسةٍ. واتّفق له أن رفض إقامة صلواتٍ وقداديس لراحة نفوس أمواتٍ، كان راسخ اليقين بأنّهم انتهوا إلى الراحة التامّة الأبديّة.

وعلى غرار صوفيّين كُثرٍ، أُعطي الأب "ڤـــيانّي" نعمة الدموع. ومصدر الدموع، حسب قول القدّيسة تيريزا هو شعورٌ بعطف الله يتعذّر وصفه، أو استشهادٌ داخليٌّ ينتاب النفس التي ترى كم يُهان الله. وكان خوري أرس كلّما تحدّث عن الخطايا والخاطئين، يعجز عن حبس تذريف الدموع، والانتحاب. وكان يبكي كلّما قام بطقس درب الصليب، وغالبًا أثناء منحه المناولة، كانت دموعه المدرارة تبلّل حلّته الكهنوتيّة. وكلّما تناول في عظاته الإفخارستيّا، وعطف الله وحبّه، كانت الدموع تنساب على وجنتيه، ويطفئ صوته نشيج بكائه. وكان

يقارن، أحيانًا، شكر الطبيعة والمخلوقات المحرومة من العقل لخالقها، بتمرّد البشر عليه. وقد ذكر، يومًا، أنّه سمع عصافير تنشد أجمل ألحانها، فخاطبها باكيًا: "خلقكم الله كي تغرّدوا وها أنتم تغرّدون، وخلق الله البشر كي يحبّوه ولكنّهم لا يحبّونه".

ومن جانبٍ آخر أقرّ شهود عيان أنّهم رأوه يرتفع فوق الأرض بضع أقدام، وقد شهده بعضٌ منهم، وهو في هذه الحال متجلّيًا، وهامته محاطةٌ بهالةٍ قدسيّةٍ.

وعلى غرار قدّيسين آخرين حظي خوري أرس بانخطافاتٍ. بيد أنّ الصوفيّين يعدّون الانخطاف، مرحلة خطبةٍ روحيّةٍ. ولكنّ قدّيسنا، بفضل أعمال تطهّره العديدة المتواصلة وتصعيده الدائم، تخطّى مرحلة الخطبة إلى القران الروحيّ، وهي مرحلة اتّحادٍ حميمٍ ساجٍ، محوّلٍ للكيان، يجعل النفس تنسى ذاتها، وتقصر هدفها على تمجيد الله، ويكون الله، حينئذٍ، قد استولى عليها استيلاءً كلّيًّا.

وحياة قدّيسنا كانت قد أضحت صلاةً مستمرّةً، وعبادةً دائمةً، واتّحادًا كلّيًّا بالربّ، وغوصًا وذوبانًا في حبّ الله المتعطّش إلى نفسه وإلى ضمّها، مثلما تضمّ أُمٌّ رأس ابنها لكي تشبعه قُبَلاً ومداعباتٍ. وكان الخوري القدّيس قد عبّر عن تمنّيه أن يضيع ولا يعثر على ذاته إلاّ بين ذراعي الله. وقد حقّق الله هذه الأمنيّة أسمى تحقيقٍ. ويبدو أنّ أشخاصًا رأوا دليلاً على هذا القران الإلهيّ، الذي جمع الكاهن القدّيس بالمخلّص. فقد بعثت سيّدةٌ جديرةٌ بالثقة إلى مساعد القدّيس، وخليفته في رعاية أرس، الأب "توكّانييه"، أكّدت فيها أنّها قصدت أرس يوم الثاني من شهر تمّوز ١٨٥٦ ولم يتسنَّ لها الركوع في كرسيّ الاعتراف بسبب كثافة حشود الحجّاج المحاصرين ذلك الكرسيّ. فانتظرت مروره من الكنيسة إلى حجرته ظهرًا، وحاولت الإمساك بيده وتقبيلها، فسحبها، وقال لها برقّةٍ مقرونةٍ بالوقار: "إيّاك أن تسلبيني خاتمي". وفي تلك اللحظة، شهدت في الإصبع الرابع من يده اليسرى خاتمًا ذهبيًّا شديد اللمعان، لم تكن قد رأته من قبل، ولم يره أحد سواها. وجديرٌ بالذكر أنّ ثلّةً من الصوفيّين والقدّيسين قد نعموا بمثل هذا القران الروحيّ، أمثال القدّيسة كاترينا الإِسكندرانيّة، وكاترينا السييّناويّة، والقدّيسة تيريزا الأڤـيلاّويّة.

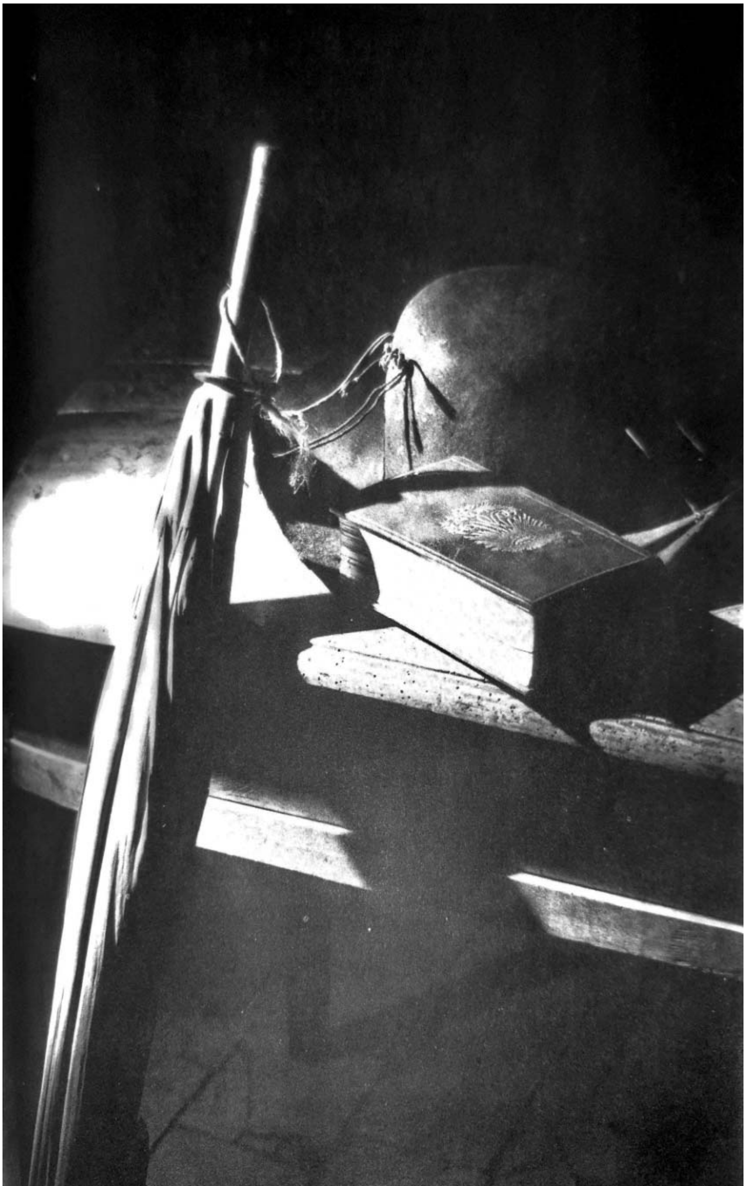

سواعيّته وقبّعته والمظلّة التي ورثها من الأب "بالّي"

الفَصْلُ التَّاسِع

في قمّة القداسة: شهاداتٌ

يمنح الله معظم البشر قدرةً على تسنّم قمم القداسة، ولكن مثلما لا يتسلّق قمم الجبال الشامخة سوى المصمّمين الجاهدين المثابرين على تخطّي العقبات، كذلك لا يتسنّم ذرى القداسة سوى الأبطال الذين يتجرّدون عن ذواتهم وعن توافه الدنيا، ويسعون بلا هوادةٍ إلى تذليل الصعاب، وتحمّل التضحيات، والاعتصام بصبرٍ متمادٍ لا عهد له بسأمٍ ولا توانٍ، وبالتطلّع الدائم إلى ساكن السماء، ومصدر كلّ خيرٍ. القداسة تُكتسب بالعرق والدم، وتتوّج حياة كفاحٍ بطوليٍّ، لا يطمح إلى مكافأةٍ سوى تمجيد الله ورضاه. لقد امتلأ "جان ماري ڤــيانّي"، بالفطرة، حبًّا مضطرمًا لله، وشغفًا بإرضائه، ولكنّه لم يُعفَ من شريعة الجهد العنيد، المتواصل، ومن مصارعة الأمواج العاتية المعاكسة، ومن إصلاح طباعٍ بعيدةٍ عن الكمال، ولجم ميولٍ بشريّةٍ دنيويّةٍ، والتغلّب على أُمورٍ ذميمةٍ كثيرةٍ. فاجتاز نوبات إجهاد الأعصاب، والجفاف الداخليّ، والقرف، وإحباطٍ يتاخم اليأس، وعانى إنكار الذات، وتمرّد الحواسّ والقلب، ومع ذلك لم يستسلم يومًا، وردّدت إرادته، في كلّ الظروف، قول الرسول بولس: "أستطيع كلّ شيءٍ بمن يقوّيني"، وكان سرّ قداسته: إرادةٌ بطوليّةٌ، وجرأةٌ جامحةٌ، إلى أن تجرّد من كلّ شيءٍ بشريٍّ ما عدا الألم، وتسنّم قمّة البطولة، بعد أن بذل أقصى جهدٍ بشريٍّ تدعمه النعمة الإلهيّة، وبعد أن أمست له الفضيلة طبيعةً جديدةً، وتمرّس بإرادةٍ فاعلةٍ، مثابرةٍ، مشدودةٍ إلى الخير فحسب، متطلّعةٍ باستمرارٍ إلى الأفضل، بمنأًى عن كلّ توانٍ واعتيادٍ، وتيقّظ ذهنه وقلبه الدائم للقيام بالواجبات الكبرى.

من الأقوال الشائعة أنّ ما من رجلٍ عظيمٍ في نظر خادمه، الذي يشهد حقيقته المعرّاة، غير أنّ قداسة خوري أرس اندرجت في مثل بيتٍ من زجاجٍ، مكشوفةً لكلّ العيون، معرّضةً لكلّ ترصّدٍ ومراقبةٍ، متأهّبةٍ لكلّ نقاشٍ. وكان الذين عاشوا على مقربةٍ منه، وأُتيح لهم مراقبة كلّ شاردةٍ وواردةٍ من سلوكه هم في طليعة المؤكّدين نصاعة قداسته وسموّها وبطولتها، إذ لم يستطيعوا أن يأخذوا عليه ولو هفوةً تافهةً.

وقد أجمع كلُّ الذين عاصروه وعرفوه عن كثبٍ على الإشادة بسموّ فضائله النادرة، مؤكّدين عدم تراخيه، يومًا، في أداء واجباته بأدقّ تفاصيلها على أكمل وجهٍ، وبأعلى درجةٍ من الالتزام الضميريّ، وكان ذلك ديدنه حتّى نَفَسه الأخير. وأقرّ المطّلعون على سيَر كبار القدّيسين أنّهم لم يلحظوا لديهم ما يفوق ما لحظوا لدى الأب "ڤـــيانّي"، من بطولةٍ، وفضائل وسموّ قداسةٍ.

وقد أقرّ مرسلٌ أمضى أوقاتًا طويلةً في أرس، مديرًا رياضاتٍ روحيّةً، وواعظًا، فتسنّى له مراقبة الخوري القدّيس عن كثبٍ، واستطاع أن يشهد: "لم ألمح لحظةً واحدةً لم ترتدِ فيها حياته طابع الكمال... ولم يتسنَّ لي، قطُّ، أن أشهد القداسة، في أشكالها الحيّة، كما شهدتها لديه، مرئيّةً، عذبةً، متألّقةً. ما من قولٍ أدلى به كان يمكن قوله على نحوٍ أفضل، وما من عملٍ قام به، كان يمكن تأديته على وجهٍ أكمل".

وقال كاهنٌ آخر: "كان الأب "ڤـــيانّي" صورةً حيّةً لمسيرةٍ فائقة الطبيعة... الكمال الذي كان يدعو إليه الآخرين، كان شريعة حياته الصارمة. وكان الإيمان هو دافع كلّ أفعاله وسلوكه... لقد تبيّنتُ لديه كمال الفضائل... ولم أرَ، قطُّ، صورةً أشدّ صدقًا للمعلّم الإلهيّ... إنّي أَعُدّ فرصة معرفته السعيدة امتيازًا إلهيًّا".

وقد جاء صباح يومٍ، باكرًا، كاهنٌ مشهورٌ، واعترف بين يديه، ولمّا خرج من كرسيّ الاعتراف، مذرّفًا الدموع، ارتمى بين ذراعي الأب "توكّانييه"، معاون القدّيس، قائلاً: "يا إلهي! أيّ إنسانٍ هذا! لست أدرك كيف أمضيت هذا العمر، وشِبْتُ قبل أن أراه!".

ويروي الأب "ريمون" الذي كان مساعدًا لخوري أرس فترةً من الزمن، أنّ كاهنَين من روما كانا يحقّقان في سيرة كاهنَين ذاع صيت قداستهما، وقدما إلى أرس، وبعد مقابلتهما خوريها سُئلا عن الفارق بين الكاهنين اللذين كانا يتقصّيان سيرهما والأب "ڤـــيانّي"، فأجابا: "هذا الكاهن أحدث فينا تأثيرًا أعمق. ومحيّاه يُسفر عن قداسةٍ كُبرى".

وأقرّ الطبيب الذي واكبه خلال السنوات السبع عشرة الأخيرة من حياته: "لم أرَ فيه، يومًا، سوى النموذج الأكمل لكلّ الفضائل".

وقد أجمع الذين عرفوه أنّهم لم يشهدوا، يومًا، ما يشبه قلبه الذي يضطرم، ويعبد، ويئنّ. وأنّه لم يُجَلِّ في فضيلةٍ واحدةٍ، بل في جميع الفضائل، وليس في مرحلةٍ واحدةٍ من حياته، بل في مراحلها كلّها. فقد كانت سيرته بأكملها أبلغ بيانٍ عن القداسة الحقيقيّة. وقد عدّه كثيرون أحد أعظم القدّيسين الذين عرفتهم الكنيسة...

وكان جميع القادمين إلى أرس يسألون: "أين هو القدّيس؟". وكان حسبهم أن يروه مارًّا كي يتيقّنوا من قداسته. وهذا ما جعل الكردينال "لوسون" أسقف مدينة "رينس" يصرّح: "إذا طوّب صوت الشعب، يومًا، قدّيسًا، فهذا القدّيس هو خورينا. ولن يكون قرار الكنيسة سوى تثبيتٍ لحكم الشعب".

وصرّح كرّامٌ عقب حجّه إلى أرس: "لقد رأيت الله، في هذا الإنسان".

وكانت فئةٌ ممّن قدّروا عاليًا رفعة قداسة الأب "فـــيانّي" يتحرّجون من المثول أمامه، إلاّ بعد تطهير ضميرهم وتناول الأسرار. وقدم، يومًا، إلى أرس مفتّش شرطةٍ للتحقّق بتصريحٍ سياسيٍّ نسبته صحيفةٌ إلى الكاهن القدّيس، فجاء به العمدة إلى كرسيّ اعتراف الكاهن، متوجّسًا العواقب، وانتظر خارجًا. ولّما خرج المفتّش مذرّفًا الدموع، صرّح للعمدة: "لديكم كاهنٌ مدهشٌ، إنّه قدّيسٌ!".

وأجمع الذين أشادوا بقداسته أنّها ليست ناجمةً عن حدوث معجزات بواسطته، ولا عن انخطافاته، ولا عن قراءته خوافي القلوب، ولا استكشافه الغيب والمستقبل، فهذه كلّها لم يُرِدها ولم يسعَ إليها، بل بنى قداسته على بطولة فضائله التي اكتسبها بتضحياته، وجهوده، وإنكاره لذاته، ومحبّته اللامحدودة، ونشدانه الله دون سواه، وخدمته من خلال خلائقه.

مختاراتٌ من أقوال خوري أرس

"ربّ فكرةٍ واحدةٍ تغيِّر مسرى حياةٍ"

تمهيدٌ

كان خوري أرس يعُدّ سيامته الكهنوتيّة امتيازًا غاليًا، ولكنّ مسؤوليّته عن خلاص النفوس التي كُلِّف برعايتها كانت علّة أرقٍ لا يبارح لحظةً من نهاراته ولياليه.

في سبيل تلك النفوس، احتمل أشد الإهانات مذلّةً، ومشقّةً على الاحتمال، وسهر الليالي، وحرم ذاته الراحة والطعام، وتكفيرًا عن خطاياهم أنزل على كتفه المجالد.

وفي سبيلها أنفق ساعاتٍ طويلةً، راكعًا، خاشعًا، مستلهمًا سجين مخبأ القربان الأفكار والأقوال الكفيلة بخضّ الضمائر الغافية، ودفعها إلى نشدان خلاصها.

وحبًّا بتلك النفوس تحدّث، في عظاته وتعاليمه الدينيّة اليوميّة، عن حبّ الله أبي النفوس، وعن يسوع صديقها ومخلّصها، وعن العذراء أُمّها الحنون، وعن النعمة، والصلاة، والخطيئة، والتوبة والإفخارستيّا، وعن الفضائل التي تصنع القدّيسين، وعن السيرة التي تليق بأبناء الله.

وقد ألهمه حبّه المتّقد لتلك النفوس نفحةً شعريّةً، وبلاغةً بسيطةً نفّاذةً تهزّ وتحوّل. وجاءت أقواله مرآةً لقداسته، وتفسيرًا لكلّ ما جعل منه كاهنًا فذًّا، ونموذجًا لكلّ خادم نفوسٍ. أقوالٌ تصدم بقرنها العمق بالبساطة، والصلابة بالسموّ، وتنفذ إلى الأعماق لأنّها تعبيرٌ عن واقع حياةٍ مكرّسةٍ، وصورةٌ صادقةٌ لممارسات قائلها اليوميّة.

ولحسن طالع أجيال المسيحيّين أن وُجد إلى جانب ذلك القدّيس كهنةٌ تبيّنوا سموّ روحانيّته، فدأبوا على جمع أقواله التي لم تكن ثمرة استنتاجاتٍ عقليّةٍ ولاهوتيّةٍ، بل كانت تفجُّر ينابيع فاضت بما ازدحم في نفسه، وبما أنضجته تأمّلاته المتواصلة، وتضحياته البطوليّة، وكانت نتاج سيرةٍ طافحةٍ بممارسات القداسة، وانطلقت من فمه انطلاق حممٍ بركانيّةٍ، تحرق كي تطهّر، وتدمّر كي تبني بناءً سليمًا.

ولكم يسعدني ويشرّفني أن أكلّل هذا الكتاب بباقةٍ من تلك الأقوال!

السماء هدفنا

- ما أجمل، وما أعظم أن نعرف الله، ونحبّه، ونخدمه! هذه هي مهمّتنا الوحيدة في هذا العالم، وكلّ عملٍ آخر هو هدرٌ للوقت. فلنعمل من أجل الله وحده، ولنودع كلّ أعمالنا بين يديه! ولنقل، عند استيقاظنا: "أُريد أن أعمل، اليوم، من أجلك، يا إلهي. وسأرحّب بكلّ ما يأتيني منك، وأُقدّم لك ذاتي ضحيّةً. ولكنّني، يا الله، لا أستطيع شيئًا، بمعزلٍ عنك، فأعنّي!...".
- ما يدعو إلى حزنٍ عميقٍ أنّ ثلاثة أرباع المسيحيّين لا يعملون إلاّ من أجل إرضاء "جثّتهم"، التي لن تلبث أن تفنى في التراب، مُقصين عن بالهم شؤون نفسهم المسكينة، التي قد تسعد أبديًّا أو تبتئس أبديًّا. إنّ افتقارهم إلى التفكير والتمييز مدعاةٌ للرعدة.

  إن لنّا نفسًا يتوجّب إنقاذها، وأمامنا أبديّةٌ تنتظرنا. العالم، والثروات، والملذّات، والأمجاد إلى زوالٍ، أمّا السماء وجهنّم فباقيتان. فلنحذر.
- لم يبدأ جميع القدّيسين بدايةً حسنةً، ولكنّ جميعهم انتهوا نهايةً حسنةً. إن كانت بدايتنا سيّئةً، فلنحسنْ نهايتها، ولننضمّ إلى القدّيسين، في السماء، ذات يومٍ.
- سعادتنا الوحيدة على الأرض هي أن نحبّ الله، وأن نعلم أنّ الله يحبّنا.
- تفكير بخيل الأرض لا يتخطّى الوقت الراهن، فلا يكتفي بالثروات مهما ضخمت لديه، ولا ينفكّ يكدّس، ويكدّس... وعندما يحين أوان الموت، لن يكون له شيءٌ... على غرار من يُعِدّون مؤوناتٍ وفيرةً للشتاء، وعندما يحين الحصاد التالي، يحارون بما يفعلون بالمؤونة الزائدة، ويرتبكون بها، ويضطرّون إلى التخلّص منها خشية تعفّنها.

- ما أعظم، وما أنبل، وما أكثر تعزيةً أن نعمل كلّ شيءٍ مع الله، وتحت نظره، موقنين أنّه يشهد ويقيّم كلّ شيءٍ. فلنقل، إذن، كلّ صباحٍ: "كلّ شيءٍ من أجل إرضائك، يا الله، ولأفعل كلّ شيءٍ معك. وما أرقّ التفكير بحضوره المقدّس!" حينئذٍ ينتفي الملل، وتكرّ الساعات كالدقائق... إنّه تذوّقٌ مسبَّقٌ لأفراح السماء.
- عين العالم لا ترى أبعد من الحياة الراهنة. أمّا عين المسيحيّ فتنفذ إلى أغوار الأبديّة.
- الأرض جسرٌ يساعدنا على اجتياز مجرى ماءٍ، ولا نفع منها سوى دعم أقدامنا. نحن في العالم، ولكنّنا لسنا من العالم، بما أنّنا نقول، كلّ يومٍ: "أبانا الذي في السماوات". ولن ننال مكافأتنا إلاّ عندما نصير في البيت الأبويّ. ولذلك يعاني المسيحيّون الصالحون الصلبان، والنمائم، والافتراءات، والمقاومة، والعداوة، والازدراء. ومع ذلك يخيّل إلى من كان حبّهم لله ضئيلاً أنّ على الله أن يقيهم من كلّ مقاومةٍ، وكلّ ألمٍ.
- العالم يخفي السماء والجحيم. يخفي السماء لأنّ من يعرف جمالها يودّ المضيّ إليها بأي ثمنٍ، والاستغناء عن العالم. ويُخفي الجحيم لأنّ من يعرف عذاباتها، يتمنّى تجنّبها بأيّ ثمنٍ.
- ثمّة من يفقدون الإيمان، ولا يرون الجحيم إلاّ عندما يدخلونها. ليس الله هو من يحكم علينا بالهلاك، بل خطايانا هي التي تديننا... كثيرون هم في جهنّم بسبب خطيئةٍ مميتةٍ واحدةٍ أبوا الندم والتوبة عنها.
- لو استطاع مدانٌ أن يقول، مرّةً واحدةً: "أُحبّك يا إلهي"، لانتهى جحيمه. ولكن، للأسف، هذه النفس البائسة قد فقدت حتّى القدرة على الحبّ، ولم تستفِد منها.

- قال ملكٌ، نادمًا في لحظاته الأخيرة: "عليّ، إذن، أن أُغادر مملكتي كي أذهب إلى بلادٍ لا أعرف فيها أحدًا. ذلك لأنّ سعادة السماء لم تخطر قطّ بباله. فعلينا أن نتّخذ، منذ الآن، أصدقاء لنا فيها، نلتقيهم بعد مماتنا، ولن ينتابنا خوفٌ من ألاّ نجد أحدًا نعرفه، مثلما انتاب الملكَ الخوفُ.
- لو امتلك المدانون الوقت الذي نهدره، لكم كانوا استفادوا منه. ولو توفّرت لهم نصف ساعةٍ فقط، لكانت كافيةً لإخلاء جهنّم من نزلائها.
- في هذه الدنيا علينا أن نجهد ونجاهد. فسيتوفّر لنا وقتٌ للراحة، مدى الأبديّة.
- من صان براءته يشعر أنّ الحبّ يرقى به إلى العلاء كما يرقى بالعصفور جناحاه. ومن كانت نفسهم طاهرةً يحاكون نسورًا وسنونواتٍ محلّقةً في الأجواء. المسيحيّ الناعم بنقاء النفس هو، على الأرض، مثل عصفورٍ مربوطٍ بخيطٍ. يا له من عصفورٍ مسكينٍ، متطلّعٍ إلى لحظة قطع الخيط، وتمكّنه من التحليق!
- المسيحيّون الصالحون يشبهون طيورًا لها أجنحةٌ كبيرةٌ، وقوائم صغيرةٌ، فيتجنّبون الحطّ على الأرض، خشية ألاّ يقووا على الطيران ثانيةً، والوقوع في الأسر. ومن ثمّ يبنون أعشاشهم على قمم الصخور، وعلى أسطحة المنازل، وفي الأماكن العالية. كذلك على المسيحيّ أن يلتزم المرتفعات، لأنّنا، حالما تهوي بنا أفكارنا إلى الأرض، نقع في الأسر.
- عندما نستوعب مدى سعادتنا، نستطيع القول إنّنا أسعد من القدّيسين في السماء. فهم ينعمون بعائداتهم، ولم يعد بوسعهم اكتساب المزيد، فيما يسعنا، في كلّ لحظةٍ، أن ننمّي ثرواتنا.

- معظم النـاس يهبـون إبلـيس شـبابهم، ويقـدّمون للنـاس مـا تبقّـى. والله مـن الطيبة بحيث يتقبّل هذا الفتات.
- فلنتمثّل بالملوك. فهم عندما يشعرون باقتراب إزاحتهم عن عرشهم، يرسلون كنوزهم أمامهم، كي تكون في انتظارهم. هكذا المسيحيّ الحصيف يرسل كلّ أعماله الصالحة كي تنتظره عند باب السماء.
- تـوفّي والـدا راهبٍ، وتركـا لـه ثـروةً وافـرةً. فسـأل: "منـذ متـى تـوفّي والـداي؟". أُجيـب: "منـذ ثلاثـة أسـابيع". فسـأل: "هـل بوسـع ميـت أن يـرث؟". أُجيـب: "بـالطبع، لا". فقـال: "إذن، لا أسـتطيع، أنـا الـذي مـات منـذ عشـرين سـنةً أن أرث الذين ماتوا منذ ثلاثة أسابيع".
- مهمـا تنقّلـتَ مـن عـالمٍ إلـى عـالَمٍ، ومـن مملكـةٍ إلـى مملكـةٍ، ومـن ثـروةٍ إلـى ثروةٍ، ومن لذّةٍ إلى لذّةٍ، لـن تعثـر علـى سـعادتك. فلـيس بوسـع الأرض كلّهـا إرضاء نفسٍ خالدةٍ، مثلما تعجز قبضة طحينٍ على إشباع جائعٍ.
- خلق الله الإنسان من أجل السماء، وإبليس حطّم السلّم المؤدّي إليها.
- بئس منصب الملك، فهو ملكٌ للنـاس... أمّا أن يكون المرء لله، وأن يكـون له بكامله، جسدًا ونفسًا، جسدًا عفيفًا، ونفسًا طاهرةً. آه! ما أجمل ذلك!"

الخطيئة

- الخطيئة هي جلاّد الله، وقاتل النفس. فهي تنتزعنا من السماء، وتزجّنا في جهنّم. ومع ذلك نحبّها. يا لجنوننا! لو أعملنا الفكر لمقتناها أشدّ مقتٍ، ولأقلعنا عن ارتكابها.

ما أبشع نكراننا للجميل! الله يبتغي إسعادنا، ونحن رافضون. نحيد عنه، وننحاز لإبليس. ننأى عن صديقنا، ونبحث عن جلاّدنا. نرتكب الخطيئة، ونغوص في الوحل، ويتعذّر علينا التملّص منه...

يا لحماقتنا! فنحن ننفق على هلاك نفوسنا الوقت الذي أعطاناه الله من أجل إنقاذها، ونحاربه بالأدوات التي زوّدنا بها من أجل خدمته. أليس جنونًا محقّقًا أن نعمل على استئهال الجحيم باتّصالنا بإبليس، في حين أُعطينا القدرة على تذوّق أفراح السماء، منذ هذه الحياة، من خلال اتّصالنا بالله برباط الحبّ.

- إنّ إبليس يلهينا حتّى اللحظة الأخيرة، كما يُلهى رجلٌ مُغَفّلٌ حتّى يحضر رجال الأمن. وحينئذٍ يأخذ بالصياح، والانتفاض، ولكنّه لا يجد إلى الإفلات سبيلاً.
- عندما يموت الإنسان يكون مثل شفرةٍ حديديّةٍ صدئةٍ لا بدّ من تطهيرها بالنار.
- النمّام يحاكي دودةً قذرةً تتنزّه فوق الزهور وتوسّخها بلعابها.
- نحن مرايا صغيرةٌ يتأمّل فيها الله ذاته. فكيف له أن يتعرّف ذاته في نفسٍ مدنّسةٍ؟

- على من يعتزم الاعتراف أن يدرك ما يقدم عليه. ويمكن القول إنّه يسعى إلى نزع المسامير التي تثبّت ربّنا على الصليب.

من يعترف اعترافًا جيّدًا يقيّد إبليس.

أخطاؤنا هي ذرّة رملٍ، قياسًا إلى جبل مراحم الله.

- يسارع الله إلى الصفح عن خاطئٍ تائبٍ، أكثر من مسارعة أُمٍّ إلى انتشال ابنها من النار.

- يا لحماقتنا! نهين الله الذي لا يؤتينا إلاّ الخير، ونرضي إبليس الذي لا يستطيع إلاّ الإساءة إلينا!

- هذا ما تلطّخه الخطيئة بالهوان: مسيحيٌّ مخلوقٌ على صورة الله، ابنٌ لله، أخٌ لله، وريثٌ لله، محطّ عطف الأقانيم الإلهيّة الثلاثة؛ إنسانٌ أضحى جسده هيكلاً للروح القدس.

- عندما نستسلم لأوهاننا، نحيط قلبنا بأشواكٍ.

- إذا رأيتم إنسانًا يجمع حطبًا، ويُعدّ محرقةً كبرى، وسألتموه عما يفعل، فأجاب: "إنّي أُعِدّ النار التي ستحرقني"، فما الذي تفكّرون فيه؟ وإذا شاهدتم هذا الإنسان عينه يقترب من المحرقة ويندفع إلى لهيبها، فما تقولون فيه؟ هكذا يفعل من يرتكب الخطيئة.

- ليس الله الذي يلقينا في جهنّم، بل نحن نلقي ذواتنا فيها، من جرّاء خطايانا. حينئذٍ يقول المدان: "لقد خسرتُ الله، ونفسي والفردوس. هذه خطيئتي، خطيئتي، خطيئتي الكبرى!".

- حتّى إن بلغ إنسانٌ من القداسة ما مكّنه من إجراء معجزاتٍ، فإن هو افتقر إلى المحبّة لن يجد طريقًا إلى السماء.

- ما رأيكم في من يحرث حقل جاره، ويهمل حقله؟ هذا ما نفعله عندما نمحّص ضمير الآخرين، ونترك ضميرنا بورًا مقفرًا. وعندما يحين موعد الموت، كم سنندم على اهتمامنا بشؤون الآخرين، وتقاعسنا عمّا يتعلّق بنفسنا، إذ علينا أداء الحساب عن ذواتنا لا عن الآخرين. فلنفكّر بذواتنا، وبضميرنا، الذي ينبغي أن نراقبه مثلما نراقب نظافة أيدينا.
- يستهدف الشرّير النفوس الراغبة في نبذ الخطيئة، والنفوس التي تسكنها النعمة، لأنّ النفوس الأخرى هي تحت سيطرته، ولا يحتاج إلى امتحانها... إذا أيقنّا بحضور الله المقدّس ستسهل علينا مقاومة العدوّ، وحسبنا التفكير بأنّ الله يرانا، لكي ننأى، نأيًا تامًّا، عن الخطيئة.
- مثلما لا يخشى الجنديّ الباسل المعركة، لا يخشى المسيحيُّ الصالح التجربة. إنّ التجربة الأشدّ خطرًا هي الحرمان من التجربة. فالتجربة هي أوان الحصاد الروحيّ حيث يجمع المرء غلالاً للسماء. في زمن الحصاد، يستفيق الحصّادون باكرًا، ويعانون مشقّةً كبرى، ولكنّهم لا يشكون، لأنّهم يجمعون غلالاً وفيرةً.
- شكت قدّيسةٌ للربّ محاصرة التجربة لها، هاتفةً: "أين كنت، يا يسوع الحبيب، حين كانت العاصفة مصطخبةً؟" فأجابها: "كنت وسط قلبك، أتمتّع بمشاهدة صراعاتك".
- احتقار الفقراء هو احتقارٌ لله.
- القدّيسون منزّهون من الحقد، ومن مرارة الضغينة؛ يغفرون كلّ شيءٍ، يعتبرون أنّهم استحقّوا كلّ الإهانة الملحقة بهم، بل أكثر منها، بسبب إهاناتهم لله. أمّا المسيحيّون السيّئون. فهم ناقمون، ونزّاعون إلى الانتقام.

- إنّ وسيلة قهر إبليس الذي يثير فينا نزعات حقدٍ حيال من يسيئون إلينا هي المسارعة إلى الصلاة من أجل هؤلاء المسيئين. هكذا يُقهَر الشرّ بالخير، وهذه هي صفات القدّيسين.
- يحجم إبليس عن مراودة المسيحيّين السيّئين، فلا يتصدّى لهم أحدٌ. ولكنّه يثير على البارّ ألف افتراءٍ، وألف إهانةٍ. والبارّ يستمدّ منها ثوابًا جمًّا.
- إمّا أن نقودَ ميولَنا، أو تقودَنا ميولُنا. وإنّه لمحزنٌ جدًّا أن يستسلم المرء لميوله. إنّ المسيحيّ نبيلٌ، وعليه أن يأمر أتباعه، كما يفعل كبار السادة.
- في مواجهة التجارب ثلاثةٌ ضروريّاتٌ: الصلاة من أجل إنارتنا، والأسرار من أجل تقويتنا، واليقظة لوقايتنا.

حبّ الله

- جميلٌ أن نملك قلبًا يمكننا استخدامُه لحبّ الله، مع صغره.
- أنا لا أرى أكثر جدارةً بالرثاء من أغنياء لا يحبّون الله.
- من لا يؤمن أعمى. من لا يرى لا يحبّ، ومن لا يحبّ الله يحبّ ذاته، ويحبّ ملذّاته، ويتعلّق قلبه بأشياء تعبر كالدخان، ولا يستطيع معرفة لا الحقيقة ولا الخير، ولا يعرف سوى الكذب، لأنّه مفتقرٌ إلى النور. ولو هو حصل على النور، لرأى أنّ كلّ ما يحبّه لا يؤتيه إلاّ الموت الأبديّ.

حسبُنا أن نعلن فعل الإيمان والحبّ التالي: "يا إلهي، أومن إيمانًا راسخًا، ثابتًا، منزّهًا من كلّ ريبةٍ أو تردّدٍ... أنّك حاضرٌ في كلّ مكانٍ، وتراني، وأنّني تحت أنظارك، وأنّني سأراك، ذات يومٍ، بوضوحٍ، وسأنعم بكلّ الخيرات التي وعدتني بها... إنّي أحبّك يا إلهي، فقلبي مصنوعٌ من أجل حبّك...

- حبّ الله، ما أجمله! وحدها السماء تدرك معنى هذا الحبّ. وقد تؤتي الصلاة بعض عونٍ على فهمه، لأنّ الصلاة هي تصاعد النفس حتّى السماء.
- بقدر ما نمعن في معرفة البشر يتضاءل حبُّنا لهم، على نقيض حبّنا لله الذي يتنامى بقدر ما نعرفه. وهذه المعرفة تقودنا إلى حبّ الله حبًّا من العظمة بحيث لن نعود نقوى على حبّ سواه.
- الحبُّ هو الذي خلق الإنسان، ولذلك ينزع الإنسان إلى الحبّ، ولا شيء على الأرض يرضيه سوى التطلّع صوب الله.
- وُجد لساننا للصلاة، ووُجد قلبنا للحبّ. ووجدت عيوننا للبكاء.
- علّة تعاستنا هي افتقارنا إلى حبّ الله.

- لقد عانى ربّنا أكثر ممّا لزم من أجل افتدائنا. فما كان كافيًا لإرضاء عدل أبيه، لم يكن كافيًا لإرضاء حبّه.
- تصوّروا أُمًّا مسكينةً مُكرَهةً على إنزال شفرة المقصلة على عنق ابنها. هكذا هو الله عندما يدين خاطئًا.
- ما أسعد النفوس التي تستطيع القول: "يا إلهي، كنتُ دائمًا ملكك!" ما أجمل، وما أعظم أن نهب الله شبابنا! ويا له من نبع فرحٍ وسعادةٍ!
- إمّا أن يحبّ الإنسان الله، أو أن يحبّ العالم. ومن لا يحبّ الله يتعلّق قلبه بأمورٍ تعبر كالدخان.
- يجب أن نتمثّل بالرعاة في البرّيّة أثناء الشتاء. إنّهم يشعلون نارًا، وبين فينةٍ وفينةٍ يبحثون في كلّ جهةٍ عن أحطابٍ يبقون بها النار مشتعلةً. فليتنا، على غرارهم، نبقي حبّ الله متّقدًا في قلبنا بالصلوات والأعمال الصالحة، لكيلا ينطفئ.
- ما أعذب أن ننسى ذواتنا كي نبحث عن الله!
- الحبّ هو العلامة التي تميّز مختاري الله. والبغض هو العلامة التي تميّز الهالكين. فما من مدانٍ يحبّ مدانًا آخر. أمّا القدّيسون فيحبّون الناس أجمعين، ويحبّونَ، على وجهٍ خاصٍّ، أعداءهم.
- ما أجمل اتّحاد النفس بالربّ. لن تكفي الأبديّة من أجل استيعاب هذه السعادة... الحياة الروحيّة الداخليّة مغطس حبٍّ تغوص فيه النفس، غارقةً في الحبّ. إنّ الله يمسك الإنسان الذي يحيا حياةً روحيّةً، مثلما تمسك أُمٌّ رأس ابنها، وتغمره بالقبل والمداعبة.
- قلب القدّيسين ثابتٌ مثل صخرةٍ في البحر.

الصليبُ درب السماء

- قد نقول هناك أشرارٌ ينجحون في كلّ شيءٍ. وأنا أفعل كلّ ما يسعني فعله، ولا شيء لي ينجح". ذلك لأنّنا لا ندرك ثمن الصلبان وسعادتها.

وقد يقال إنّ الله يعاقب محبّيه. ولكنّ هذا القول ليس دائمًا صحيحًا. فالمِحَن، لمن يحبّهم الله، ليست عقابًا، بل هي نِعَمٌ.

- سهلٌ أن ندرك أنّنا عمل الله. ولكن ما لا يُفهَم أن يكون صلبُ الله عملَنا.
- يرهب إبليس إشارة الصليب، لأنّنا بالصليب نُفلتُ من مخالبه. فعلينا رسم الصليب باحترامٍ جمٍّ، بدءًا بالرأس، رمز الرئيس، الخالق، الآب؛ ثمّ بالقلب، رمز الحبّ والحياة، والفداء، الابن؛ فالكتفين رمز القوّة.

نحن أنفسنا مصنوعون على شكل صليبٍ.

- الصليب هو عطيّة الله لأصدقائه.
- عندما نفتقر إلى صلبانٍ نُصاب بالقحط. ولكن عندما نحمل صلباننا بتسليمٍ، نتذوّق عذوبةً وسعادةً، وحلاوةً، ونجتاز عتبة السماء.
- كلّ المِحَن عذبةٌ عندما نعانيها متّحدين بالربّ.
- الصليب يعانق العالم، وهو مغروسٌ في جهات الكون الأربع. ولكلّ جهةٍ نصيبٌ منه.
- لمن يحبّون الله ليست المِحَن عقابًا بل نِعَمًا.
- الشدائد تضعنا عند أقدام الصليب، والصليب يضعنا عند باب السماء.

- الصليب ينضح طيبًا، ويشيع عذوبةً. وكلّما شدّه المرء في يديه وضمّه إلى قلبه يستقطر منه عذوبةً. الصليب أوفر الكتب علمًا، ومن لا يعرفونه جهلةٌ، حتّى لو أحاطوا علمًا بكل الكتب الأخرى. العلماء الحقيقيّون الوحيدون هم الذين يحبّونه ويسترشدون به، ويتعمقّون في دراسته. ومع كلّ مرارته لا فرح أشدّ من الغرق في تلك المرارة، وكلّما تأثّر المرء في مدرسته تمنّى المكوث فيها، فالوقت، فيها، يكرّ بلا مللٍ، وفيها يتعلّم المرء كلّ ما ينبغي تعلّمه، ولا يشبع ممّا يتذوّقه فيه...

- إن شئنا أم أبينا، لن نفلت من الألم. هناك من يتألّمون مثل اللصّ التائب، وآخرون يتألّمون مثل اللصّ الشرّير. كلاهما عانيا الآلام عينها. بيد أنّ أحدهما استمدّ من آلامه أجرًا، لأنّه ارتضاها تكفيرًا عن ذنوبه، والتفت صوب يسوع المصلوب، فتلقّى من فمه هذا القول الرائع: "اليوم ستكون معي في الفردوس". أمّا الآخر فكان يصرخ، ويقذف لعناتٍ وشتائم، فمات في قنوطٍ مريعٍ.

- المتألّمون فئتان: متألّمون بحبٍّ، ومتألّمون بلا حبٍّ. القدّيسون يتألّمون بصبرٍ، وفرحٍ، ومثابرةٍ، لأنّهم يحبّون. أمّا نحن فنتألّم غاضبين، نافدي الصبر، لأنّنا لا نحبّ.

- لو كنّا نحبّ الله لسعدنا بالتألّم حبًّا بمن ارتضى أن يتألّم من أجلنا. عندما نتألّم بحبٍّ، يفقد الألم قسوته، ويكتسب عذوبةً، ويؤتي عزاءً، بل يمسي سعادةً.

- خوفنا من الصليب هو صليبنا الأكبر. معظم الناس يزْوَرُّون عن الصلبان ويتجنّبونها، ولكن بقدر ما يفرّون منها، هي تلاحقهم، وتضربهم، وتبهظهم بعبئها.

- من يسعَ نحو الصلبان يُفقدْها مشقّتها... إنّه يفرح بالتقائها، فيحبّها، ويحملها بجرأةٍ. وهي توحّده بالربّ، وتطهّره، وتنتزعه من سطوة العالم، وتحرّر قلبه من كلّ العوائق، وتساعده على اجتياز الحياة، مثلما يساعد جسرٌ على اجتياز مجرى ماءٍ.
- درب الصليب يقودنا إلى السماء. وما الأمراض، والتجارب، والمشقّات جميعها سوى صلبانٍ تقودنا إلى السماء... لا يقتضي منّا الله استشهاد الجسد، بل فقط استشهاد القلب والإرادة.
- ربّنا هو قدوةٌ لنا، فلنحملْ صليبنا، ونحذُ حذوه.
- الصليب هو السلّم الموصل إلى السماء. كم هو معزٍّ التألّم تحت أنظار الله، وقدرة القول، مساءً، أثناء مراجعة الضمير: "يا نفسي لقد نعمتِ، اليوم، بساعتين أو ثلاث ساعاتٍ تمثّلٍ بيسوع. جُلدتِ، وكُلِّلتِ بالشوك، وصُلبتِ معه...". وما أطيب موت من عاش مصلوبًا!
- لو قُيِّض لنا قضاء ثمانية أيّامٍ في السماء، لأدركنا ثمن لحظة الألم، ولما وجدنا صليبًا باهظًا، ولا محنةً مريرةً...
- الألم المقترن بالحبّ ليس ألمًا. أمّا الفرار من الصليب فهو سعيٌ إلى إزهاق الذات... لا سعادة بمعزلٍ عن عشق الصليب.

الصلاة

- الصلاة توسّع القلب الصغير، وتمكّنه من حبّ الله. إنّها استساغةٌ مسبَّقةٌ للسماء. وفيضٌ من الفردوس. إنّها تُذيقنا، دائمًا، عذوبةً. إنّها عسلٌ يسيل على النفس، ويُطرّي كلّ شيءٍ.
- المِحَن تذوب أمام صلاةٍ حسنة الأداء، ذوبان الثلج بفعل أشعّة الشمس.
- الصلاة ندًى عطريٌّ، ولكن لا بدّ من الصلاة بقلبٍ طاهرٍ، من أجل استمطار هذا الندى.
- ليس كنز المسيحيّ على الأرض، بل في السماء، ومن ثمّ يجب أن يتوجّه فكرنا صوب كنزنا.
- الصلاة والمحبّة هما سعادة الإنسان على الأرض.
- ما الصلاة سوى اتّحادٍ بالله. فمن طهُر قلبُه، واتّحد بالله، يتنسّم عطرًا مُسكِرًا، ويلفّه نورٌ باهرٌ. في هذه الوحدة الحميمة، الله والنفس قِطعتا شمعٍ ذائبتان إحداهما في الأخرى. ويتعذّر فصلهما. وما أروع اتّحاد الله بمخلوقه الصغير! إنّها سعادةٌ عصيّةٌ على الإدراك.
- من لا يصلّون ينحنون صوب الأرض، مثل خلد يسعى إلى إحداث جُحرٍ يختبئ فيه. إنّهم أرضيّون بالكامل، ومخبولون بالكامل، ولا يبالون إلاّ بأمور الزمن.
- ليس الله بحاجةٍ إلينا. وإنّما يطلب منّا أن نصلّي، لأنّ في الصلاة سعادتنا، ولا سعادة لنا بمعزلٍ عنها، وهو عندما يرانا قادمين إليه، ينحني بقلبه نحو مخلوقه الصغير، انحناء أبٍ ينحني، في الصباح، على مهد طفله كي يقبّله، أو نحو ابنٍ صغيرٍ يودّ أن يهمس في أذنه.

- إذا أحببنا إنسانًا، فهل من حاجةٍ إلى رؤيته كي نفكّر فيه؟ كذلك إذا أحببنا الله ستصبح الصلاة طبيعيّةً كالتنفّس.
- وسيلتان تحقّقان الاتّحاد بالربّ، والخلاص: الصلاة، والأسرار الإلهيّة.
- لدى البشر صيحتان: صيحة الملاك، وصيحة البهيمة. الأولى هي الصلاة، والأخرى هي الخطيئة.
- لو تلاشت العبادة، يومًا، في السماء، لما عادت سماءً. ولو استطاع المدانون، رغم عذاباتهم، أن يعبدوا، لانتهت جهنّم.
- في النفس المتّحدة بالله، يسود ربيعٌ دائمٌ.
- الصلاة تقطر عذوبةً لذيذةً، تحاكي العصير الذي يفرزه عنبٌ ناضجٌ.
- الصلاة تنتشل نفسنا من المادّة، وترتقي بها، مثلما تنفخ النار المنطاد وترتقي به.
- كلّما صلّى المرء، ازداد رغبةً في الصلاة.
- كلّ الأعمال الصالحة مجتمعةً لا تساوي قدّاسًا، فهي أعمالٌ بشريّةٌ. أمّا القدّاس فهو عمل الله. حتّى الاستشهاد هو لا شيء حيال القدّاس. فالاستشهاد هو تضحية الإنسان بحياته لله. أمّا القدّاس فهو تضحية الله بجسده ودمه للإنسان.

مريم العذراء

- كان بمكنة الله خلق عالَمٍ أكثر جمالاً من عالَمنا، ولكنّه لم يكن يستطيع إبداع مخلوقٍ أكثر كمالاً من مريم العذراء.
- مهما أغرقنا في الخطيئة، تبقى العذراء متدفّقةً حنانًا وعطفًا علينا. أليس أحبّ الأبناء إلى قلب أُمّه هو الذي كلّفها أكبر قدرٍ من الدموع؟ أَوَلا تهرع الأُمّ، دائمًا، إلى الأضعف، والأكثر تعرّضًا للمخاطر؟
- العذراء هي حارسة باب السماء.
- أيدينا التي مسّت عطورًا تعطّر كلّ ما تلمسه. فلنجعل صلواتنا تمرّ من يد العذراء القدّيسة وتعطّرها.
- أنجبتنا العذراء مرّتين: "في التجسّد، وعند أقدام الصليب. هي، إذن، أُمّنا مرّتين.
- قلوب جميع أُمّهات الأرض ليست سوى قطعة جليدٍ، مقارنةً بالحنان الذي تُحيطنا به مريم العذراء.
- تكريم العذراء عذبٌ، ورقيقٌ، ومغذٍّ.

الكاهن

- كان القدّيس بيرنـار يؤكّد أنّ كلّ شـيءٍ يصل إلينـا من خـلال مـريم. ويمكن القول، أيضًا، إنّ كلّ شيءٍ يأتينا بواسطة الكاهن. أجل، جميع الأفراح والنعم والهبات السماويّة.

- السيّدة العذراء نفسها لا تستطيع إنـزال ابنـها الإلـهي إلـى القربـان. ولا يقـوى مئتـا مـلاكٍ مجتمعين علـى منحك الغفـران. ولكنّ كاهنًـا ممعنًـا فـي البسـاطة يستطيع أن يقول كل: "إمضِ بسلامٍ، أغفر لك ذنوبك".

- ما أعظم الكاهن! فما نفع مواهب الله بمعزلٍ عن الكاهن؟ ما نفع بيتٍ مليءٍ ذهبًا إن لم يكن لديك مفاتيح ذلك البيت؟ بمعزلٍ عن الكاهن لما أفادنـا فـي شيءٍ موتُ ربّنا وآلامه... بعد الله، الكاهن هو كلّ شيءٍ... احرموا رعيّةً من كاهنٍ عشرين سنةً، فيعبد أبناؤها البهائم.

- من ابتغى تدمير الدين يشرع بالقضاء على الكاهن. فحيث لا يوجد كـاهنٌ لا توجد ذبيحةٌ، وحيث لا توجد ذبيحةٌ، يضمحلّ الدين.

- الكهنوت تعبيرٌ عن حبّ قلب يسوع. فعندما تشاهد الكاهن، فكّر بالربّ.

الإفخارستيّا

- قال الربّ: "كل ما ستسألونه من الله باسمي، سيعطيكم إيّاه". ولم يخطر ببالنا، قطّ، أن نسأل الله ابنه. غير أنّ ما كان الإنسان عاجزًا حتّى عن تخيّله، فعله الله. وما لا يملك الإنسان قدرةً على قوله، أو التفكير به، وما لم يكن ليجرؤ على تمنّيه، فكّر به الله، بدافع حبّه، ونفّذه. هل كان بوسعنا، يومًا، أن نسأل الله إماتة ابنه من أجلنا وأن يطعمنا جسده، ويسقينا دمه؟
- عندما نتلقّى المناولة المقدّسة نتقبّل فرحنا وسعادتنا.
- لمّا ابتغى الله إعطاءنا ذاته، في سرّ حبّه، أوجد فينا رغبةً من الجسامة والعظمة بحيث لا يقوى على إروائها سواه. حيال هذا السرّ، نشبه، غالبًا، إنسانًا يموت ظمأً وهو على ضفّة ساقيةٍ، وكان حسبه أن يحني رأسه؛ أو إنسانًا يتضوّر فقرًا وإملاقًا، وإلى جانبه كنزٌ، وما كان عليه إلاّ أن يمدّ يده نحوه.
- آه! لو استطاع المسيحيّون إدراك قول ربّنا: "رغم بؤسك، أُريد أن أشاهد، عن كثبٍ، هذه النفس الجميلة التي خلقتُها من أجلي، وأبدعتُها من الكبَر بحيث لا يقوى على ملئها سواي، ومن الطهر بحيث لا يغذّيها سوى جسدي".
- لا شيء يساوي الإفخارستيّا عظمةً. كلّ أعمال العالم الصالحة، مقارنةً بمناولةٍ صالحةٍ واحدةٍ، ليست أكثر من ذرّة غبارٍ قياسًا إلى جبلٍ...
- من يتناول يمتزج بالله امتزاج قطرة ماءٍ في محيطٍ، ويتعذّر فصلهما.
- إذا استبقينا الربّ، بعد المناولة، في خشوعٍ، فسنشعر، طويلاً، بنارٍ آكلةٍ توحي لنا كَلَفًا بالخير ونفورًا من الشرّ.

- قال أحد القدّيسين "إنّنا حاملو الله". وإذا تعسّر علينا إدراك هذا الواقع، فبسبب ضآلة إيماننا. نحن لا نستوعب مدى كرامتنا، فإنّنا عندما نعود من المائدة المقدّسة نملك من السعادة بقدر ما كان من شأن المجوس أن يسعدوا لو تسنّى لهم استصحاب الطفل يسوع.
- عندما شاء الله منح نفسنا غذاءً يسندها، أثناء حجّها الأرضيّ، أجال نظره في الخليقة، ولم يجد ما يليق بها، فانكفأ على ذاته، واعتزم منح ذاته. ما أعظمكِ يا نفسي بما أنّ الله وحده يكفيكِ!
- لا تستطيع النفس التغذّي إلاّ بالله، وهو وحده يملأها، ويشبع جوعها.
- يمكن تمييز النفس التي تلقّت سرّ الإفخارستيّا تلقّيًا وقورًا، فهي ممعنةٌ غرقًا في الحبّ، ومأخوذةٌ، ومتحوّلةٌ، بحيث يتبدّل نمط أفعالها وأقوالها... فتصبح متواضعةً، رقيقةً، ميّالةً إلى التضحية، والمحبّة، والتواضع، والتناغم مع العالم أجمع، وقادرةً على أعظم التضحيات.
- أقدموا، يا أبنائي، على المناولة، أقدموا إلى يسوع بحبٍّ وثقةٍ، أقدموا على الحياة معه، ومن أجله.
- ألم يقلْ لكم: "تعالوا إليّ أيّها المرهَقون، وأنا أُريحكم"؟ فهل تقاومون دعوته الطافحة رقّةً وصداقةً؟ لو كان الله يقتضي استئهالنا وجدارتنا، لما أسّس سرّ حبّه الرائع، إذ لا يوجد في الكون من يستأهله، لا قدّيسون، ولا ملائكةٌ، ولا رؤساء ملائكةٍ. بل إنّه نظر إلى احتياجاتنا، ونحن جميعنا، محتاجون إليه. لا تقولوا إنّكم موغلون في الخطيئة، وفي البؤس، ولذلك لا تتجاسرون على التقدّم منه. ولكأنّكم تقولون إنّكم معتلّون اعتلالاً شديدًا، ولذلك ترفضون تجربة دواءٍ، أو استدعاء طبيبٍ.

- في سرّ الحبّ، استخدم الله قلبه العطوف كي يحبّنا، وهذا القلب ينفث حنانًا ورحمةً يغرقان خطايا العالم.
- صحيحٌ أنّنا لا نستطيع تلقّي الربّ سوى مرّةٍ واحدةٍ في اليوم. ولكنّ النفس الملتهبة حبًّا تستعيض بالرغبة في تلقّيه باستمرارٍ.
- لو أدركنا ثمن المناولة المقدّسة، لتجنّبنا أصغر الهفوات، ولحفظنا نفسنا طاهرةً في عين الله، ولسعدنا بتلقّيه بتواتُرٍ.
- إنّ ربّنا متوارٍ في سرّ حبّه لكي نأتي إليه، ونزوره، ونوجّه إليه طلباتنا. إنّه موجودٌ لكي يعزّينا، فلنكثر من زياراتنا له. ولكم يطيب لنا أن نقتنص دقائق من انشغالاتنا وتوافهنا، لكي ندعوه ونزوره، ونعزّيه عن كلّ الإهانات الموجّهة إليه! وهو عندما يشهد اندفاع النفوس الطاهرة القادمة إليه يقابلها ببسمة حبٍّ.
- لو كان لنا أنظار الملائكة، ورأينا بها ربّنا يسوع الموجود هنا على الهيكل، يرمقنا، لكم كنّا نحبّه، ولما طقنا النأي عنه، ولرغبنا في المكوث، دائمًا، عند قدميه، ولتذوّقنا طعمًا مسبّقًا للسماء، ولبدا لنا كلّ ما سواه تافهًا... ولكنّنا نفتقر إلى الإيمان.
- الكاهن هو بمثابة أُمٍّ، وبمثابة مرضعة طفلٍ وليدٍ، تزوّده بالطعام، وما عليه إلاّ أن يفتح فاه. الأُم تقول لصغيرها: "خُذْ، كُلْ، يا صغيري". والكاهن يقول لكم: "خذوا، فكُلوا، هذا هو جسد المسيح، فليَحمِكم، ويقتَدْكم إلى الحياة الأبديّة!" ما أروعه قولاً!

الروح القـدس

- إنّ المنقادين للروح القدس تستقيم آراؤهم. لذلك كثيرون من الأُمّيّين أوفر معرفةً من العلماء. من ينقَدْ لإله القوّة والنور، لا يقع في خطأٍ. والروح القدس هو نورٌ وقوّةٌ، وهو الذي يجعلنا نميّز بين الخطأ والصواب، بين الخير والشرّ.
- بالروح القدس نرى كلّ شيءٍ مجسَّمًا، فنرى عظمة الأمور الصغيرة التي تُعمَل إرضاءً لله، وجسامة الأخطاء التي نعدُّها تافهةً. وعلى ضوء أنوار الروح القدس نتبيّن كلّ تفاصيل سلوكنا البائس. وحينئذٍ نرى ضخامة عيوبنا، وتريعنا أصغر خطايانا.
- ما أجمل أن يكون الروح القدس دليلنا، فهو خير دليلٍ. ومع ذلك ثمّة من يأبون اتّباعه!
- إذا سُئل الهالكون: "لمَ أنتم في جهنّم؟"، لأجابوا: "لأنّنا قاومنا الروح القدس". وإذا سُئل القدّيسون: "لمَ أنتم في السماء؟" لأجابوا: "لأنّنا امتثلنا للروح القدس".
- المنقادون للروح القدس ينعمون بكلّ أنواع السعادة، داخليًّا وخارجيًّا، في حين أنّ المسيحيّين السيّئين يتمرّغون فوق الأشواك والحجارة.
- بمنأًى عن الروح القدس نحاكي حجرةً على الطريق. أمسِكْ بيدٍ إسفنجةً مشبعةً ماءً، وباليد الأخرى حجرًا، واعصرهما كليهما، فلن يخرج من الحجر شيءٌ، في حين يسيل من الإسفنجة ماءٌ غزيرٌ. الإسفنجة هي النفس الملأى بالروح القدس، والحجر هو القلب الجافّ القاسي، الخالي من الروح القدس.

- يقودنا الروح القدس، مثلما تقود أُمٌّ ابنًا لـه من العمر سنتان، أو كما يقود إنسانٌ مبصرٌ أعمى. ينبغي أن ندعو، كلّ صباحٍ: "يا إلهي، أرسل لي روحك كي يعرّفني ما أنا، وما أنت...".
- إنّ النفس التي يسكن فيها الروح القدس تتذوّق حلاوة الصلاة، وتجد وقت الصلاة مغرقًا في القِصَر، ولا تفقد أبدًا حضور الله المقدّس، وتفوح بشذا الحبّ.
- الخواطر الصالحة التي تراودنا هي دليلٌ على زيارة الروح القدس لنا.

التواضع

- التواضع هو وسيلة حبّ الله الكبرى. كبرياؤنا هي التي تحول بنا دون القداسة، وهي سلسلة مسبحة كلّ الرذائل. أمّا التواضع فهو سلسلة مسبحة كلّ الفضائل.
- لا يمكن فهم ما الذي يستطيع مخلوقٌ صغيرٌ التكبّر والتباهي به... قبضة ترابٍ بحجم جوزةٍ: هذا ما سنصير إليه، بعد موتنا. يا له من مبرّرٍ للتباهي!
- التواضع يشبه ميزانًا، بقدر ما نهبط على إحدى كفَّتيه، نرتفع على الكفّة الأخرى.
- إذا استطاعت خادمةٌ فقيرةٌ، لا إرادة لها سوى إرادة أسيادها، أن تجني ثمار هذا التجرّد، لكانت مرضيّةً لدى الله، بقدر راهبةٍ ملتزمةٍ دائمًا بنظامها الرهبانيّ.
- من يسكنهم الروح القدس لا يطيقون ذواتهم لأنّهم يتبيّنون مدى بؤسهم. والمتكبّرون هم المفتقرون إلى الروح القدس.
- إنّنا نبثّ الكبرياء في كلّ مكانٍ مثلما نرشّ الملح.
- على نقيضنا يحزن القدّيسون إذا ذاعت سمعة فضائلهم، ويفرحون عندما يشهد الناس عيوبهم.
- نحن شيءٌ عظيمٌ، ونحن لا شيء. ليس أكبر من الإنسان، وليس أصغر منه. ليس أكبر منه نظرًا إلى نفسه، وليس أصغر منه، نظرًا إلى جسده. ومع ذلك ينصبّ الاهتمام على جسده، وكأنّ لا شيء يستحقّ الاهتمام سواه، في حين أنّ لا شيء يستحقّ الازدراء سواه.

النفس الطاهرة

- لا أجمل من نفسٍ طاهرةٍ. من صان براءته، يشعر أنّ حبّ الله يرقى به إلى العلاء، مثلما يرقى بنسرٍ جناحاه. من يرتكب خطايا فسقٍ، يصبح جحرًا للأبالسة.
- جميع سكّان السماء يرمقون النفس الطاهرة بنظرة حبٍّ.
- يتعذّر إدراك مدى قدرة النفس الطاهرة لدى الله، فهي تنال منه كلّ ما تبتغيه.
- النفس الطاهرة تحاكي، لدى الله، ولدًا لدى أُمّه: "يداعبها، ويقبّلها، فتردّ على مداعبةٍ بمداعباتٍ، وعلى قبلةٍ بقبلاتٍ.
- ثلاثة أشياء تصون الطهر: "حضور الله، والصلاة، والأسرار الإلهيّة.
- يرمق الله، بحبٍّ، النفس الطاهرة، ويمنحها كلّ ما تسأل، إذ كيف له أن يقاوم نفسًا لا تحيا إلاّ من أجله، وبه، وفيه؟ تبحث عنه، فيتجلّى لها، تدعوه فيأتي إليها.
- القلب الطاهر لا يستطيع الإحجام عن الحبّ، لأنّه عثر على نبع الحبّ، الثاوي في الله.
- لا سعداء على هذه الأرض إلاّ من صفت نفوسهم، واستقرّ فيها السكون، فهم، حتّى في غمرة المِحَن، يتذوّقون عذوبةً.
- كان يطيب لخوري أرس رواية قصّة القدّيس "مور" (Maur)، الذي إذ كان، ذات يومٍ، آتيًا بوجبة غداء القدّيس "بينوا"، وجد أفعى كبيرةً، فأخذها ووضعها في هدب ثوبه، وأراها للقدّيس بينوا، فرحًا، وقائلاً: "هاك ما وجدت". وأخذت الأفعى بالصفير، محاولةً لدغ الموجودين بجوار القدّيس بينوا، الذي قال للفتى: "عُدْ بها إلى حيث وجدتها". ثمّ التفت إلى الحاضرين وقال: "أتعلمون، يا إخوتي، لماذا تُلاطف هذه الرقطاء هذا الفتى؟ هذا لأنّه صان براءة عماده وطهره".
- النفس الطاهرة وردةٌ رائعةٌ تنحني الأقانيم الثلاثة من السماء كي تشتمّ عبيرها.

صراعَاتٌ

- لا نظنّنّ أنّ على الأرض مكانًا نكون فيه بمأمنٍ من مصارعة إبليس. بل سنلتقيه في كلّ مكانٍ. وهو، في كلّ مكانٍ، سيسعى إلى سلبنا السماء. ولكن، في كلّ مكانٍ وفي كلّ وقتٍ، يسعنا أن ننتصر عليه.
- عندما يبدو لنا أنّنا فقدنا كلّ شيءٍ، ما علينا إلاّ أن نهتف: "نجّنا، يا ربّ، فنحن نهلك!". والربّ دائمًا إلى جانبنا يراقبنا بعطفٍ، مبتسمًا، وقائلاً: "أنت تحبّني حقًّا...". والواقع أنّنا في صراعنا مع الجحيم، وفي مقاومتنا للتجارب، نستطيع أن نعبّر لله عن حبّنا.
- كم من نفوسٍ مجهولةٍ في هذا العالم، سنراها، ذات يومٍ، غنيّةً بكلّ الانتصارات التي أحرزتها في كلّ لحظةٍ. لهذه النفوس سيقول الربّ: "تعالوا يا مباركي أبي... ادخلوا إلى فرح سيّدكم...".
- من أمرين واحدٌ: "أو يسيطر المسيحيّ على ميوله، أو ميوله تسيطر عليه. لا وسَطَ بينهما. ثمّة من يتخلّف عن ساحة المعركة قائلاً: "حسبي أن أُنقذ نفسي. هذا كلّ ما يلزمني. لا أُريد أن أكون قدّيسًا". ولكن إن لم تكن قدّيسًا، فستكون مُدانًا...

رحمة الله

• إذا قيل لمدانين قابعين في جهنّم منذ زمنٍ طويلٍ: "سيجلس كاهنٌ عند باب جهنّم، وكلّ راغبٍ في الاعتراف يستطيع المضيّ إليه"، فهل تظنّون أنّ مدانًا واحدًا سيبقى؟ بل إنّ حتّى مرتكبي أبشع الجرائم لن يخشوا الاعتراف بها، وعلى رؤوس الشهود. ونحن نمتلك الوقت والوسائل التي يفتقر إليها المدانون البائسون.

• ما أجمل أنّ لدينا سرًّا مقدّسًا كفيلاً بشفاء جراح نفسنا! ولكن لا بدّ من استخدامه الاستخدام اللائق، لكيلا نضيف جراحًا جديدةً إلى الجراح القديمة.

• يحاكي الله أُمًّا تحمل على ذراعيها ابنًا مشاكسًا يرفسها، ويخدشها، وهي لا تبالي، لأنّها متأكّدةٌ أنّه، إذا أفلت منها سيسقط، ولن يستطيع السير بمفرده... هكذا هو الربّ، يحتمل كلّ تصرّفاتنا السيّئة، وكلّ وقاحاتنا، ويصفح عن حماقاتنا. إنّه يشفق علينا رغمًا عنّا.

المراجع

- Mgr Francis TROCHU: Le Curé d'Ars
  Ed. Resiac, 4ème édition, 1993
- Mgr Francis TROCHU: L'âme du Curé d'Ars
  Tequi, 2004
- Francoise BOUCHARD: Le Curé d'Ars, viscéralement prêtre
  Ed. Salvator, 2005
- Mgr René FOURREY: Curé d'Ars, vie authentique
  Desclée de Brouwer, 1981
- Abbé MONNIN: Esprit du Curé d'Ars
  Tequi, 2007
- J. FROSSARD: Pensées choisies du St Curé d'Ars
  Tequi, 1992
- Michel DE ST PIERRE: La vie prodigieuse du Curé d'Ars
  Bonne Presse, 1959

الفهرس

تقديم ٧

الفصل الأول

نشأةٌ طافحةٌ بالتقوى ١١

في أحضانِ أمٍّ تقيّةٍ........................ ١٢

مقاومةٌ دينيّةٌ ١٨

بذور كهنوتٍ........................ ٢١

مناولته الأولى ٢٢

قدمان على الأرض، وقلبٌ في السماء ٢٥

دعوةٌ كهنوتيّةٌ........................ ٢٨

الفصل الثاني

الإكليريكيّ المتعثّر ٣٣

عقباتٌ على درب الكهنوت........................ ٣٤

أزمة قنوطٍ، وملجأٌ أخيرٌ ٣٦

تخلّفٌ عن الخدمة العسكريّة........................ ٤٠

تأهّبٌ للكهنوت ٤٩

الكاهن الجديد........................ ٥٩

الفصل الثالث

كاهنٌ قدّيسٌ........................ ٦٩

أرس........................ ٧٠

مهمّةٌ صعبةٌ ٧٤

آنسة أرس........................ ٧٦

نهج التقشّف........................ ٧٧

الأب "ڤيانّي" والمال ٧٩
وضع أرس الروحيّ ٨١
الراعي يستكشف أوضاع رعيّته ٨٣
قدّس ذاته، إنقاذًا للرعيّة ٨٧
صلاته ٨٨
أصوامٌ، وأسهارٌ، وإماتاتٌ ٩١
حربٌ على الجهل الدينيّ ٩٨
الواعظ ١٠١
حربٌ على الآفات الروحيّة والاجتماعيّة ١٠٧
محاربة الحانات ١٠٩
مكافحة الرقص ١١١
يوم الربّ ١١٦
لا مفرّ من أرس ١٢٢
تجديد كنيسة أرس ١٢٤
دار "العناية" ١٣١
مساعٍ رسوليّةٌ ١٤٥
جهنّم وزبائنها يشنّون حملاتهم على الكاهن القدّيس ١٥٢
وجه أرس الجديد ١٦٣
حملاتٌ شيطانيّةٌ ١٧١
زحفٌ إلى أرس ١٨٥
كرسيّ التوبة في أرس ١٩٠
أشفيةٌ روحيّةٌ وجسديّةٌ ٢٠٦
غيرةٌ وانتقاداتٌ ٢١٠
مرشد الضمائر ٢١٧
برنامجٌ يوميٌّ ٢٢٣
اعتلالٌ خطيرٌ، وفرارٌ قصير الأمد ٢٣٤
معاونٌ لخوري أرس ٢٥٠

تطوّراتٌ وتغييرٌ، وتأسيسٌ مستمرٌّ ٢٥٣
من أحداث السنوات الأخيرة: مبادرات تكريمٍ ٢٧١
هوس الاعتزال ٢٧٨
أيّامه الأخيرة ٢٨٩
وفاة الخوري القدّيس ٣٠٠
زمن المجد ٣٠٩

الفصل الرابع

ملامح كاهنٍ قدّيسٍ ٣٢١
مكوّناتٌ شخصيّةٌ ٣٢٢
صورة خوري أرس ٣٢٤

الفصل الخامس

فضائل إلهيّةٌ ٣٢٧
إيمانه ٣٢٨
رجاؤه ٣٣١
محبّته ٣٣٣
حياةٌ روحيّةٌ كثيفةٌ ٣٣٩

الفصل السادس

فضائل بطوليّةٌ ٣٤٥
فقره ٣٤٦
تواضعه ٣٤٩
طاعته ٣٥٦
تضحياته ٣٥٩
صبره ٣٦٥
غيرته الرسوليّة ٣٧١

طهره ٣٧٢
منعة نفسه ٣٧٣
درب الطفولة.. ٣٧٥
محبّته للعذراء.. ٣٧٨
حديثه عن القدّيسين ٣٨٢
وعظه وتأثيره ٣٨٣
جنون الصليب ٣٨٦
ذرى السلام ٣٩٠

الفصل السابع

إنسانيّةٌ فوّاحةٌ.. ٣٩٣
امّحاءٌ ودماثةٌ.. ٣٩٤
دهاليز إلى القلوب ٤٠٢

الفصل الثامن

خوارق ٤٠٧
حدسٌ وتنبّؤٌ ٤٠٨
أشفيةٌ عجيبةٌ.. ٤١٨
ظواهر روحانيّةٌ فائقةٌ ٤٢٣

الفصل التاسع

في قمّة القداسة: شهاداتٌ.. ٤٢٩

مختاراتٌ من أقوال خوري أرس.. ٤٣٣
تمهيدٌ.. ٤٣٤
السماء هدفنا ٤٣٥
الخطيئة ٤٣٩
حبّ الله.. ٤٤٣

الصليب درب السماء ٤٤٥
الصلاة... ٤٤٨
مريم العذراء ٤٥٠
الكاهن... ٤٥١
الإفخارستيّا ٤٥٢
الروح القدس ٤٥٥
التواضع ٤٥٧
النفس الطاهرة... ٤٥٨
صراعاتٌ ٤٥٩
رحمة الله ٤٦٠
المراجع ٤٦١

الفهرس.. **٤٦٣**

صدر للمؤلّف

أ – منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – **١٩٩٠**

٢ – يسوع في إنجيله – **٢٠٠٦**

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – **٢٠٠٦**

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – **٢٠٠٦**

٥ – أمّ الله أمّنا – **٢٠٠٩**

٦ – مختارات مريميّة – **٢٠٠٩**

٧ – أمّ الرحمة – **٢٠١١**

٨ – باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – **٢٠١٦**

٩ – الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (١) السيرة – **٢٠١٩**

١٠ – الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (٢) الرؤى * – **٢٠١٩**

١١ – الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (٣) الرؤى ** – **٢٠١٩**

سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – **١٩٩٢**

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – **١٩٩٢ و ٢٠٠٨**

٣ – صوتُ من لا صوتَ لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤ – حتّى يوجعَ العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و ٢٠٠٣

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي باپيني) – ٢٠٠٣

٧ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٨ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٩ – البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

سلسلة الظهورات

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الإيقونة العجائبيّة)
وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – **٢٠٠٥**

٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – **٢٠٠٧**

٣ – العذراء في حياتنا (مترجم) – **٢٠٠٥** و **٢٠٠٧**

٤ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – **٢٠١٥**

٥ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل، الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – **٢٠١٦**

كتب مترجمة

١ – يد الله – **١٩٨٨** (سلسلة الشهود)

٢ – ثلاث عشرة قصّة – **١٩٩٠** (سلسلة الوداع)

٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – **١٩٩٥** (سلسلة الوداع)

٤ – اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – **١٩٩٥**

٥ – حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – **٢٠٠٥** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – **١٩٨٤** و **٢٠٠٠**

٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) – **١٩٩٨** و **٢٠٠٠**

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان